جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا
قسم الأدب والنقد

بردة البوصيري ومعارضاتها في العصر الحديث

دراسة وتحليل وموازنة

بحث يقدمه

جابر عبد الرحمن سالم يحيى
المدرس المساعد بكلية اللغة العربية
لنيل شهادة العالمية "الدكتوراه"
في الأدب العربي والنقد



إشراف

الدكتور: أحمد الشرباصي
أستاذ الأدب العربي والنقد
بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

إهـــداء

إلى من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وجعلــه خاتم الأنبياء والمرسلين .

إلى الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم)، أهدي هــذه الرسالة، التي هي نبع من فيض مدائحه، وعظيم شمائلــه، عسى أن تكون حسنة أنال بها رضا ربي (سبحانه وتعالى) وشفاعة نبيي (صلى الله عليه وسلم) .

يا سيد الكونين، لي أمل	ألا يكون لغيرك الإهداء
فاقبل هدية باحث في مدحكم	هو (جابر) حبٌّ لكم وفداء
أنا السعيد إذا قبلت هديتي	وأنا ابن (يحيى) جدتي الزهراء
لا تحرمني يا رسول شفاعة	يوم الزحام والقضاء قضاء
يا رب صل على النبي مسلما	ما عورضت (بردة) عصماء
واختم بخير يا كريم – تفضلا –	للمسلمين، فكلنا خطاء

الراجي عفو ربه

وشفاعة رسوله

صلى الله عليه وسلم

جابر عبد الرحمن سالم يحيى

شكر وتقدير

إن شكر الناس على معروف قدموه ، أو جميل صنعوه أمر تدعو إليه الطباع السليمة ، وتحث عليه الأخلاق الكريمة ، بل جعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) من شكر الله فقال :

" من لم يشكر الناس لم يشكر الله "

ولذا ، فإنني بعد شكري الله (سبحانه وتعالى) على ما أنعم به علىّ ووفقني فى تلك الرسالة ، أرى أن من أوجب الواجبات شكر أستاذي الفاضل الدكتور/ أحمد الشرباصى ، الذى تفضل مشكورا بالإشراف على تلك الرسالة ، وعلى الرغم من ظروفه الصحية القاسية ، فقد شملني بعطفه ، وخصّني بنصحه ، وغمرني بثاقب فكره .

كما أشكر كل من آزرني حتى ظهرت تلك الرسالة فى هذه الصورة الطيبة ، وبخاصة أخي الأستاذ / حسنى عبد الرحمن سالم يحيى .

جزى الله الجميع عنى وعن العلم وأهله خير الجزاء .....

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين — سيدنا محمد — وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد : فإني أقدم هذه الرسالة — " بردة البوصيرى ومعارضاتها ، فى العصر الحديث ، دراسة وتحليل وموازنة " — أقدمها إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، لنيل درجة العالمية " الدكتوراه " فى الأدب العربى والنقد .

ولقد جرى العرف الجامعى على أن يذكر الباحث فى مقدمة رسالته ، سبب اختيارها ، كما يشير إلى أهم المراجع التى رجع إليها ، ويقدم عرضا موجزا لما اشتملت عليه الرسالة من أبواب وفصول ، وما تضمنه كل باب وفصل ثم يذكر ما توصل إليه من نتائج ، وما رآه من مقترحات ، وسوف أشير إلى ذلك فيما يأتى إن شاء الله .

فأما سبب اختيارى موضوع هذه الرسالة فيرجع إلى شهر مارس سنة ١٩٦٧ ، إذ مرض جارى — فى المنزل — بشلل أعجزه عن الحركة ، ولما ذهبت لعيادته وجدت عنده شخصا ، يقرأ — بصوت عال — أبياتا من الشعر فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فاستنكرت هذا العمل منه لعدم مناسبته المقام .

وعندما انتهى من قراءته ، بينت له بعض آداب عيادة المريض ، فأخبرنى أنه كان ينشد بردة الإمام البوصيرى ، عسى أن تكون سببا فى شفاء جارى ، كما كانت سببا فى شفاء الإمام البوصيرى من مرض يشبه ذلك المرض ، وأخذ يقص علىّ بعض القصص عن الإمام البوصيرى وبردته ، فكنت أستمع له بشغف لأننى لم أكن أعلم شيئا عن ذلك الموضوع ، وأردت الوقوف على حقيقة ما سمعته ، فقرأت عن البردة وصاحبها كثيرا ، إلا أننى وجدت من أعجب بالبردة لأنها فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما وجدت من لم يعجب بها لما نسج

حولها من بعض الخرافات ، والمبالغات فأحببت أن أذكر رأيي وأنشره ولكن أنى لي ذلك ، وأنا حينئذ — طالب بالسنة الرابعة الثانوية بمعهد طنطا الديني ، فاكتفيت بما علمت ، مفوضا الأمر لله ، حتى تتهيأ لي الأسباب .

ومرت السنون ، وواصلت دراستي ، حتى جاء يوم أبحث فيه عن موضوع لرسالة الدكتوراة ، فتذكرت الأمل الذي راودني من قبل ، واستشرت فيه أستاذي ، فوافق على أن يكون عنوانه ما ذكرته في أول المقدمة ، لكي يناسب الدراسة الأدبية ، والبحث العلمي .

ولقد قرأت كتبا كثيرة ، ورجعت إلى مصادر عديدة ، ومنها :
المدائح النبوية ، والموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ، والعمدة لابن رشيق والموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني ، كما قرأت كثيرا من دواوين الشعراء ، وغير ذلك من الكتب التي أشرت إليها في مراجع البحث ، بالإضافة إلى بعض شروح البردة — وبخاصة شرح الشيخ الباجوري — ولقد انتفعت ببعض هذه الشروح في دراسة البردة ، إلا أنني وجدتها مليئة بكثير من المبالغات التي لا دليل على صحتها ، ولا برهان على صدقها ، ومنها الإشارة إلى أن هذا البيت لإزالة المنكر ، وذلك للجمع بين الأحباب وغير هذا كثير ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي صدت بعض الناس عنها .

ومهما يكن من شيء ، فلقد كنت أظن أول الأمر سهولة الموضوع ، نظرا للفكرة التي كانت لدي من قبل ، ولكن سرعان ما تبين لي أن الأمر جد جديد ويختلف كل الاختلاف عما قرأت وبخاصة في ناحية تحليل البردة ومعارضاتها ، كما قابلتني صعوبات في البحث عن معارضات البردة ، وبخاصة أن بعض أصحابها غير مشهور ، وبعضهم قد توفى إلى رحمة الله ، وغير ذلك من الصعوبات التي يعرفها كل من عمل في مجال البحث العلمي ، إلا أنني استسهلت كل صعب واستعذبت كل عناء ، لصلة الموضوع بسيد المرسلين ، وخاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) ، الذي أشرقت شمسه ، فبدلت الظلام نورا ، والجهل علما والسفه حلما .

والحمد لله ، قد انتهيت من بحثى ، وها هو ذا يتكون من مقدمة أبين فيها خطوات البحث، وتمهيد ، وستة أبواب ضمت خمسة عشر فصلا ثم الخاتمة وما توصلت إليه من النتائج، وما رأيته من المقترحات .

فأما التمهيد : فقد تحدثت فيه عن (المدائح النبوية قبل بردة البوصيرى) وبينت أهم سماتها من نشأتها حتى ظهرت (بردة البوصيرى) التى جعلتها عنوانا للباب الأول ، وتحدثت فى الفصل الأول منه عن (البوصيرى من مهده إلى لحده) ، وفى الفصل الثانى تناولت (البردة بالدراسة والتحليل) ، ثم ذكرت (أثرها) فى الفصل الثالث .

ولقد أشرت إلى (معارضات البردة فى العصر الحديث قبل شوقى) فى الباب الثانى الذى تحدثت فى الفصل الأول منه عن (المعارضة ودوافعها)ومدى انتشارها فى الشعر العربى من العصر الجاهلى إلى (العصر الحديث) الذى جعلته موضوع الفصل الثانى ، وبينت أهم معالمه ، أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن (معارضتى الدرويش والتيمورية وأثرهما) .

وفى الباب الثالث: تحدثت عن (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) ،وقسمته إلى ثلاثة فصول ، ففى الفصل الأول أشرت إلى (حياة البارودى) كما اشتمل الفصل الثانى على (دراسة كشف الغمة وتحليلها) ثم بينت (أثرها) فى الفصل الثالث .

ثم انتقلت إلى الباب الرابع ، الذى تحدثت فيه عن (معارضة شوقى) وجعلته ثلاثة فصول أيضا ، أشرت فى الفصل الأول منه إلى (شوقى من مولده إلى وفاته) وفى الفصل الثانى كانت (دراسة نهج البردة وتحليلها) ، أما الفصل الثالث فقد أشرت فيه إلى (قيمة معارضة شوقى) .

ثم أفردت الباب الخامس للحديث عن (معارضات البردة بعد شوقى) . وجعلته فصلين ، أشرت فى الفصل الأول إلى (عرض موجز لمعارضات البردة بعد شوقى) واكتفيت بالحديث عن سبع معارضات ، وصدرت كل معارضة منها بحديث موجز عن حياة صاحبها ، أما الفصل الثانى فذكرت فيه (أثر هذه المعارضات)

وتحدثت فى الباب السادس عن (الموازنة بين بردة البوصيرى ومعارضاتها)فى العصر الحديث ، واقتصرت على الموازنة بين البردة ومعارضتى البارودى وشوقى لمكانتهما بين النقاد ، وأثرهما فى نهوض الشعر العربى .

ثم أشرت إلى أهم أفكار الرسالة في (الخاتمة) وما توصلت إليه من نتائج ، وما رأيته من مقترحات .

وبعد : فإن هذه هي الأبواب والفصول التي اشتملت عليها رسالتي ، فإن أكن قد وفقت فبفضل من الله ، وإن كانت الأخرى، فحسبي ما بذلت من جهد رجاء التوفيق — خلال أربع سنوات — تقريبا — كانت كلها عملا متواصلا ، وبحثا مستمرا ، أضف إلى ذلك أنها لم تخل من أحداث تعكر الصفو ، وتبعث الأسى وأهم ما وقع لي من أحداث وفاة والدي (رحمه الله) (1)

ولا شك في أن مثل هذا الأمر يدعو القارئ أن يغض الطرف عما يكون قد وقع في رسالتي من تقصير أو نقص، وأن يتذكر أن الكمال إنما هو لله وحده الذي أحسن كل شيء خلقه .

ولست أزعم أنني قد بلغت فيها كل مدى ، ووصلت فيها إلى كل غاية، فهذا ما لم يتحقق لأحد ، ولكني أعتقد أنني مهدت الطريق للسير في هذا الميدان،

هذا وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) توفي والدي (رحمه الله) في يوم السبت ٢٦ من فبراير سنة ١٩٧٧ .

تمهيـــد

« المدائح النبوية قبل بـردة البوصيري »

لما كانت بـردة البوصيري في مدح رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من المناسب أن أبدأ هذه الرسالة بتمهيد عن المدائح النبوية ، يوضح معالمها ويصور ملامحها ، من يوم نشأتها إلى يوم أن ظهرت البردة .

جرت عادة الأمم ـ وخاصة الأدباء من أبنائها ـ أن تلهج بالثناء على عظمائها وتشير بالفخر إلى كريم خلقهم ، وعظيم عطهم ، من علم نافع نشروه ، أو عمل صالح قدموه ، أو واجب أدوه فأتقنوه .

ولهذا .. لم يكن بدعا من الأدباء ـ وغيرهم ـ أن يمدحوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن عجب في ذلك ، بل العجب كل العجب أن لا يمدحوه ، وهو صاحب الفضل الكبير الذي لا ينسى ، والأثر الكريم الذي لا يمحى ، والخلق العظيم الذي مدحه الله تعالى ـ به ـ في القرآن الكريم بقوله :

((وإنك لعلى خُلُـقٍ عظيـم)) (١)

لقد كان الناس داخل شبه الجزيرة العربية ـ قبيل البعثة المحمدية ـ في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، صور بعضها جعفر بن أبي طالب (٢) رضي الله عنه ـ بقوله :

" كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ... " (٣)

وأما خارج شبه الجزيرة العربية ـ فكانت دولتا الفرس والروم قد ترددتا في أعماق الهاوية ـ على اختلاف في الصور والأشكال ـ بسبب الحروب التي استمرت بينهما سنين عددا ، والظلم الذي جعل السيادة والسلطان والثراء العريض وقفا على الحكام ، ومن يماثلونهم من أصحاب الضياع والإقطاع ، ومن ورائهم وتحت أقدامهم الملايين من البشر الذين يعيشون في الذل والحرمان (٤) .

---

(١) سورة القلم /٤

(٢) هو / جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، أسلم وحسن إسلامه واشترك في كثير من الغزوات حتى استشهد سنة ٨ هـ . انظر ـ ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ١ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي جـ١ ص ٣٥٩ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة دار التحرير للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ .

(٤) الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٦٨ الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٢ .

وقد أحاطت ـ هنا وهناك ـ حصر ن الشرائع ، وتعاليم السماء ، ففى فارس وما وراءها ـ وجدت المجوسية ، وتعددت الآلهة ، وفى الروم ـ وما حولها ـ انتشرت المسيحية التى لم تبرأ من أخلاط الوثنية ، وأتباعها يخبطون خبط عشواء (١).

وعلى هذا .. أو على أسوأ من هذا ، كانت تحيا أمم العالم وشعوبه ، فى مختلف أقطار الأرض ، إذ شبت الحروب ، وشنت الغارات ، وسلبت الحقوق (٢).

ومن ثم ... منّ الله على عباده فبعث فيهم رسولا منهم .. يعرفون نسبه وصدقه وعفته وأمانته ، دعاهم إلى الله ليوحدوه ويعبدوه ، ويخلعوا ما كانوا يعبدون ـ هم ـ وآباؤهم ، من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهاهم عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ... (٣).

والحق أن هذه الدعوة كانت بمثابة شمس الهداية التى سطعت على العالم فغمرت الإنسانية بفيض من المبادىء السليمة ، وأيقظت دعائم الفضيلة ، وأنارت القلوب بنور الله ، وأصبحت بذلك كله ـ عظيمة الأثر فى القلوب شديدة التأثير فى النفوس.

وقد انقسم الناس ـ كعادتهم ـ أمام تلك الدعوة إلى فريقين :

فريق .. كذب واستكبر ، لا لشىء إلا لأن العناد ملك لبه ، والحقد تل قلبه ، فاستولت العصبية البغيضة على تفكيره وإحساسه ، واتخذ إلهه هواه ، فطمس الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة.

وفريق .. فكر وقدر .. ولما وجد فى تلك الدعوة صلاحه ، وفلاحه ، آمن بها مطمئن القلب ، منشرح الصدر ، بل أشاد بتعاليمها ، ومدح من أرسله الله بها : مدح محمدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الكامل للإنسان الطاهر قلبا ، العف لسانا ، الفصيح بيانا .. ، الذى استطاع بكل هذه الصفات الحميدة أن يحقق آثارا عظيمة ، دلت على عظمته ، كما شهد بذلك كاتب ليس على دين محمد ، بقوله : " .. وإذا حكمنا على العظمة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ص ٦٧ وما بعدها.
(٣) سيرة النبى جـ ١ ص ٣٥٩ بتصرف.

بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا : إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والخلقي لشعب ألقت به في ديا جير الهمجية حرارة الجو ، وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ .. ، وقل أن تجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة .. وأن تبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم .. [1].

وهكذا كانت شهادة رجل ـ لم يؤمن بدين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتساءل ما الذي دعاه إلى ذلك القول الصادق ؟ فأجد الجواب : إنه ضوء الفجر الذي طال ليله .. ونور الصباح الذي بدد حجب الظلام ، فمن ذا الذي يستطيع إنكاره ، ولا يعترف بآثاره ؟

ومن هنا .. من موقف المؤيدين للدعوة المحمدية ، والمعارضين لها ، نشأت المدائح النبوية ، إذ هب كل فريق يدافع عن معتقده ، ويناضل عن مسلكه ، مستخدما أمضى الأسلحة في ذلك الوقت ، وهو سلاح الشعر ، الذي اتخذه الناس ـ حينئذ ـ سجل حياتهم ، وأداة تفاخرهم .. فانبرى الشعراء المعارضون يخوضون في الإسلام ورسوله ، هزوا ولمزا ، كما انطلق الشعراء المؤيدون يشيدون بالرسالة المحمدية وتعاليمها ، ويمدحون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي منّ الله عليهم ببعثته ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبدل سفههم حلما ، وجهلهم علما ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

> " لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم
> يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا
> من قبلُ لفي ضلال مبين " [2].

أجل .. مدح الشعراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن مدائحهم ـ وإن اتفقت في الهدف ـ قد اختلفت في طريق الوصول إليه ، فلم تأخذ شكلا

---

(١) الدكتور (ول ديورانت) : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ج ٢ ص ٤٧ ..
ترجمة محمد بدران بتصرف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

(٢) سورة آل عمران / ١٦٤ .

معينـا ولم تلبس ثوبا واحدا ، يتضح ذلك من خلال مدائح بعض الشعراء الذيـن سأتحدث عنهم فيما يلي (١) :

١ـ لقد أمعنت النظـر إلى معظم القصائد التي مدح بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لم تكن كلها ـ فوجدت أن من أقدمها قصائد كثيرة (٢) عزاها المؤرخـون وأصحاب السير (٣) إلى أبي طالب بن عبد المطلب (٤) ، ومن تلك القصائد قصيدته التي أنشأها عندما تحالفت قريش على النبي وبني هاشم ، وفيها يعلن ولاءه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤكدا أنه لن يتركه ولن يسلمه ، ثم يفصح عن حبه للرسـول صلى الله عليه وسلم ـ فيمدحه بقوله :

لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد	وإخوته دأب المحب المواصل (٥)
فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها	وزينا لمن ولاه ذبّ المشاكـل (٦)
فمن مثله في الناس ، أي مؤمـل	إذا قاسه الحكام عند التفاضـل
حليم ، رشيد ، عادل غير طائش	يوالي إلها ليس عنه بغافـل (٧)

---

(١) سأتحدث عن هؤلاء الشعراء مرتبين على حسب تاريخ وفاتهم .

(٢) ذهب إلى ذلك أيضا الدكتور / علي صافي حسين ـ ولكنه استشهد بقول أبي طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوارى في التراب دفينـا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر وقر بذاك منك عيونـا

والملاحظ أن المديح غير ظاهر فيما ذكره الدكتور مثلما هو ظاهر في الأبيات التـي ذكرتهـا ، انظر : الدكتور علي صافي حسين : المديح النبوي في القرن الأول الهجري ص ٤١ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية سنة ١٩٦٨ .

(٣) انظر : الشيخ محمد خليل الخطيب : غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب ص : ٢٠ ، ٥٠ ، ٧٠ ، مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٩٥٠ .

(٤) هو : عبد مناف بن عبد المطلب عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفله وهو صغير ، ودافع عنه بعد بعثته ، وكان شاعرا جيد الكلام ، توفي قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات ، وقيل : غير ذلك ، انظر : أسد الغابة جـ ١ ص ٣٩ ، ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٤٩ المطبعة المحمودية بالقاهرة (غير مؤرخ) ، الزركلي : الأعلام جـ ٤ ص ٣١٥ الطبعة الثانية بمطبعة كوستاتسوما س وشركاه سنة ١٩٥٤ .

(٥) إخوته : أراد بهم ـ أبو طالب ـ أبناءه مثل : علي وجعفر وعقيل ـ رضي الله عنهـم ـ فهم بنوة للرسول ، لأن العم والد ـ عند العرب ـ وأولاد العم إخوة .

(٦) ذبّ المشاكل : حلها . (٧) غير طائش : ثابت رزين .

فأبو طالب يحب الرسول — صلى الله عليه وسلم — حبه لأولاده أو أشد ، لأن الرسول أهل لكل ثناء ، جدير بكل حب ، إذ ليس في الناس من يماثله في حل المشكلات ، وكثرة الهبات ، كما أنه حليم في فعله ، رشيد في رأيه ، عادل في حكمه ، ثابت في كل أحواله ، يراقب ربه ولا يغفل عنه .

٢— ونظم الأعشى (١) قصيدة ، قال عنها بعض الكتاب (٢) : إنها أقدم قصيدة مدح بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — .. ومطلعها : (٣)

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا (٤)

وفي تلك القصيدة يتحدث الشاعر عن ناقته معرجا على مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — بقوله :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا (٥)
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا (٦)
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

فالأعشى يصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأنه يرى ما لا يراه غيره ولعله يقصد بذلك الوحى مثلا ، كما يشير إلى شيوع ذكره وانتشار خبره ويمدحه بكرمه الذي يفيض ولا يغيض ، وألاحظ أن هذه صفات يمدح بها رؤساء القبائل والملوك أولى من أن يمدح بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويبدو أن الشاعر متأثر بطريقة المدح في الجاهلية ، مما جعل بعض الكتاب يذهب إلى القول بأن " هذه

---

(١) هو : ميمون بن قيس بن جندل ينتهي نسبه إلى ربيعة ، من فحول شعراء الجاهلية ، توفي سنة ٦٢٩ م — انظر : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ١٠١ الطبعة الثالثة ، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) انظر محمد حمودة عبد الرحمن : المدائح النبوية في العصر الحاضر وأثرها في الأدب ص ١٨ ، وهي رسالة ماجستير في الأدب العربي من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ولعل ذكرى مدائح أبي طالب السابقة يصحح ذلك القول .

(٣) الأعشى الكبير : ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ص ١٣٥ وما بعدها ، المطبعة النموذجية بالقاهرة سنة ١٩٥٠ — وسيرة النبي جـ١ ص ٤١٣ باختلاف في بعض الألفاظ .

(٤) الأرمد : الذي يشتكي وجعا في عينه . السليم : الذي لدغته الحية سمي بذلك تفاؤلا .

(٥) آليت : حلفت . لا أرثى : لا أشفق . كلالة : الإعياء . حفى : المراد تعب ومشقة .

(٦) أغار : سار إلى الغور وهو المنخفض من الأرض . أنجد : سار إلى النجاد وهو المرتفع من الأرض ، وهذا كناية عن شيوع خبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — في كل مكان . تغب : تبطئ وتنقطع .

القصيدة ليست من المدائح النبوية في شيء ؛ لأنها ليست أثرا لعاطفة دينية قوية ، وما هي إلا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يتكسبون بالمديح [(١)] " واستشهد على صحة قوله " بأن الأعشى رجع عن قصده عندما أعطته قريش بعض الإبل ، ولو كان صادقا ما تحول عن قصده [(٢)] " .

ولكنني لا أرى بأسا من عد هذه القصيدة ضمن قصائد المديح النبوي ، ولا يغض من شأنها ، أو يضع من قدرها رجوع ناظمها عن قصده .. فلو أن شاعرا ليس على دين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد مدحه بقصيدة ، أفلا تُعدّ تلك القصيدة من المدائح النبوية ؟ إنني لا أرى مانعا من ذلك ، أما قول بعض الكتاب " إن القصيدة ليست أثرا لعاطفة دينية قوية .. " .

فهذا مردود بما في القصيدة من أبيات دينية ، جعلت بعض النقاد يشكون في نسبة القصيدة كلها إلى الأعشى ، يقول الدكتور / شوقي ضيف [(٣)] :

---

(١) الدكتور زكي مبارك : المدائح النبوية ص ١٩ وما بعدها طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٧ .

(٢) يشير الكاتب بذلك إلى قصة الأعشى : إذ عندما أراد أن يذهب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — لينشد قصيدته التي نظمها من أجله ، علمت قريش أمره فرصدوه على الطريق .. ثم سألوه عن مقصده ، فقال : إنه يريد محمدا ليسلم فأفهموه أنه ينهى عن الزنا والقمار والربا والخمر ، فقال : لقد تركني الزنا وما تركته ، وأبدى زهده في القمار ، قائلا : ما دفعت ولا ادنت ، وأبدى جزعه عند ذكر الخمر .. فقالوا له : نحن الآن في هدنة .. فخذ مائة من الإبل ، ثم ارجع إلى بلدك سنتك هذه ، وانظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا ، وإن ظهر علينا أتيته ، فقال : ما أكره ذلك ، ثم أخذ مائة ناقة من قريش ، ورجع إلى بلده . ولكن بعيره رمى به فقتله عند بلدة تسمى (قاع منفوحة) وهي قرية من نواحي اليمامة انظر : الأصبهاني : الأغاني جـ ٩ ص ١٢٥ بتصرف ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي مطابع كوستاتسوماس وشركاه بالقاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ط (العصر الجاهلي) ص : ٣٤١ وما بعدها الطبعة الخامسة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

* ومجرد أن تقرأ القصيدة – قصيدة الأعشى السابقة – قوله فيها :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا [1]

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا [2]

فإياك والميتات لا تأكلنها ... ولا تأخذن سهما حديدا لتفصدا [3]

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا [4]

إذا قرأت ذلك .. " تعرف أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى :

((وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)) [5]

في البيت الأول ، وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى :

((حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ الله بِه ..)) [6]

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى وما كان ليسمع القرآن ، ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن الرسول الكريم وهديه .. " [7]

وعلى أي حال ليس المجال هنا في البحث عن القصيدة ، أموضوعة أم غير موضوعة ولكن كل ما يهمني ، أنه لا ضير من أن تعد تلك القصيدة – إن صحت نسبتها إلى الأعشى – من قصائد المديح النبوي ، حتى لو كان الشاعر لم يمدح الرسول

---

(1) ديوانه ص ١٣٦ وما بعدها .
(2) أرصد : أعد وهيأ .
(3) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضي – بذلك – تعاليم الإسلام .
(4) النصب : (بضمتين) قيل : مفرد ، وقيل جمع واحده : نصاب ، وقيل : واحده نصب (بفتح فسكون) : الأصنام التي كانت تنصب حول الكعبة وتقدس ، وقيل : هي الأوثان وهي ما تتخذ من حجر أو خشب ، والصنم ما يتخذ من معدن ، وقيل : غير ذلك ، انظر : الفيومي : المصباح المنير – مادة صنم (جـ١ ص٤٧٧) الطبعة السابعة – المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .
(5) البقرة / ١٩٧ .
(6) المائدة / ٣ .
(7) يمكنني أن أقول للدكتور شوقي ضيف : إن سماع الأعشى للقرآن وانصرافه عنه وعن هدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس دليلا قاطعا على وضع القصيدة ، إذ وجد من أسلم وقرأ القرآن ، وسمعه ، بل كان يكتبه للرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم ارتد عن الإسلام ، مثل : عبد الله بن سعد بن أبي السرح المتوفى سنة ٧٦ هـ ، وقيل غير ذلك ، انظر أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٥٩ .

ـصلى الله عليه وسلم ـ بصفات تتفق مع شأنه كنبي ، لأن الشاعر متأثر بطبيعة المديح الجاهلي ، وليس من السهل أن تُغَيِّر الطبائع بين عشية وضحاها ، كما أنه لم يتعمق في الدين الإسلامي حتى يعرف صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمدحه بها ، على أنني لا أطلب من الشاعر أن يقفز بهذا اللون من الشعر قفزة واحدة ترتفع إلى درجة من الكمال تمنع من يأتي بعده من الشعراء أن يهذبها وينقحها ، ويكفي أن القصيدة ـ على فرض صحتها ـ قد قيلت في وقت كانت شمس الإسلام فيه لم تزل في خدر أمها ، ويكفي ـ أيضا ـ أنها كانت لبنة في هذا الفن .. ثم أتت بعدها لبنات[1] .

٣ ـ وإذا كان الشك قد حام حول قصيدة الأعشى ، فإن قصيدة كعب بن زهير[2] التي مطلعها [3] :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول [4]

لم يتطرق إليها أدنى شك في نسبتها إلى الشاعر ، ولقد بدأها بغزل تقليدي تشوق فيه إلى محبوبته التي وصف محاسنها ، ثم تخلص إلى وصف ناقته ، معرجا على مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتذرا إليه عما بدر منه ، ملتمسا العفو عما صدر عنه ، إذ قيل [5] :

إن كعبا قد هجا أخاه بُجَيرا عندما علم خبر إسلامه ، كما هجا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين ، ولما علم الرسول ذلك أهدر دمه ، فأرسل إليه أخوه : أن ائت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلما تائبا ، حتى لا تُقتل كما قُتل غيرك ممن أهدر الرسول دماءهم ، ولما بلغ الكتاب كعبا ، ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه فاتجه إلى المدينة ، حيث نزل على رجل من الصحابة ، فغدا به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين صلى الصبح ، فقال له : هذا رسول الله ، قم إليه ،

---

(١) المدائح النبوية في العصر الحاضر وأثرها في الأدب ص ١٩ وما بعدها .

(٢) هو : كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني شاعر فحل ، نشأ في بيت من بيوت الشعر المعروفة أسلم وحسن إسلامه ، توفي سنة ٢٤ هـ ، انظر : أسد الغابة ج ٤ ص ٤٧٥

(٣) كعب بن زهير : ديوانه بشرح السكري ص ٦ ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

(٤) بانت : فارقت . متبول : سقيم أضناه الحب . متيم : ذليل مستعبد . لم يفد : لم يخلص من الأسر . مكبول : مقيد .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٦ وما بعدها . وأسد الغابة ج ٤ ص ٤٧٥ باختلاف يسير في بعض الروايات .

فاستأمنه ، فقام حتى جلس أمامه ، فوضع يده في يده - وكان الرسول لا يعرفه - فقال : يارسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء يستأمنك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه ، إن أنا جئتك به ؟ فقال الرسول : نعم ، فقال : أنا يارسول الله كعب بن زهير ، فوثب إليه رجل من الأنصار يريد قتله ، ولكن الرسول قال له : دعه ، فإنه قد جاء تائبا ، ثم أنشد كعب قصيدته .. ومنها قوله :

أُنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول (١)
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٢)

وقوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول (٣)

ولما انتهى من إنشادها ، خلع عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بردته مكافأة له " ومن ثم سميت بالبردة " (٤) مما كانت سببا في انتشارها ، واهتمام العلماء والأدباء بها (٥) كما ترجمت إلى كثير من اللغات وخاصة اللغة الفرنسية (٦) .

ومع كل ما بلغته تلك القصيدة من عناية العلماء وتكريم الشعراء ، يقول عنها بعض الكتاب (٧) : " إنها ليست من المدائح النبوية في شيء ، إنما هي من قصائد المديح ، يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف ، وكعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت ، ومن كان في مثل حاله لا يُنتظر منه صدق في الثناء ، ولم يقلها وهو مأخوذ بعاطفة دينية قوية ، تسمو به إلى روح التصوف .. " .

نعم : إن القصيدة جرت على نسق المديح في الجاهلية ، فتعددت أغراضها وتنوعت أفكارها ، ولكن هذا لا يمنعها من أن تعد ضمن قصائد المديح النبوي

---

(١) أوعدني : أنذرني بإهدار دمي .
(٢) النافلة : المراد هنا : العطية . هداك : زادك الله هدى أو هداك للصفح عني .
(٣) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند - أو المصنوع فيها - وهو من خير السيوف .
(٤) الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي جـ٢ (العصر الإسلامي) ص ٨٥ طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٣ .
(٥) انظر : المدائح النبوية ص ٢٦ وما بعدها . الدكتور عبد السلام سرحان : قطوف من ثمار الأدب بالقسم الثاني ص ١٧٩ وما بعدها الطبعة الثانية بمطبعة دار القومية العربية للطباعة بمصر سنة ١٩٧٢ . الدكتور : أحمد كحيل : دراسات عربية ص ١٣٤ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٩ . (٦) المدائح النبوية ص ٢٨ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٣ .

لأن الشاعر أنشدها أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعدما جاءه تائبا مسلما ، فعفا عنه الرسول ، بل لقد استمع إليه وهو ينشدها ، ثم أثنى عليها فأعطاه بردته
ولم يشترط النقاد على من يمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن تكون لديه عاطفة دينية قوية تسمو به إلى روح التصوف.. وهي لم تكن سببا في نجاة الشاعر من الموت كما يزعم بعض النقاد بل الذي نجاه من الموت إسلامه بعدما ضاق صدره ، ويكفي أنها اشتملت على ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها في الجاهلية ، كحديثه عن القرآن الكريم ، وعن هداية النبي - صلى الله عليه وسلم - للناس وتأييده منهم [1].

٤ - ثم يأتي شاعر آخر له في مجال المدائح النبوية باع وأي باع ، وشاع ذكره في كثير من الأصقاع ، إنه شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت [2] - رضي الله عنه - كان من أكبر شعراء الرسول ، وامتازت مدائحه بالصدق والإخلاص [3] ويمكن تقسيم شعره الخاص بالمدائح النبوية إلى قسمين :

القسم الأول : لم يكن مديحا مباشرا ، بل كان ردا على هجاء المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومقاومة خصومه على الطرائق الجاهلية ، ولذلك أمره الرسول [4] - صلى الله عليه وسلم - بأن يتعلم الأنساب من أبي بكر [5] ، ليكون شعره أوجع في الهجاء ، كما دعا له بقوله :

" اللهم أيده بروح القدس [6] ، بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بنى له منبرا في المسجد ينشد عليه [7] الشعر ، كما شجعه على هجاء المشركين بقوله : " اهجهم وجبريل معك " [8] وأكد ذلك مرة ثانية بقوله : " إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله [9] ".

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢) هو : أبو الوليد ، وقيل : أبو عبد الرحمن : حسان بن ثابت الأنصاري ، شاعر مخضرم - أدرك الجاهلية والإسلام - أسلم وحسن إسلامه ، ودافع بشعره عن الدين توفي سنة ٥٤ هـ ، وقيل : غير ذلك أسد الغابة ج ٢ ص ٥ .
(٣) الدكتور : أحمد الحوفي الإسلام في شعر شوقي ص ٣٦ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٦٢ . (٤) الأغاني ج ٤ ص ١٣٦ .
(٥) هو : عبد الله بن أبي قحافة بن عامر القرشي ، أول من أسلم من الرجال ، وأول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ، ومناقبه كثيرة توفي سنة ١٣ هـ انظر أسد الغابة ج ٣ ص ٣٠٦ . (٦) الإمام البخاري : صحيحه ج ٥ ص ٤٥ طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . (٧) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٢٧ طبعة دار الجيل بيروت - بتعليق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ .
(٨) صحيح البخاري ج ٥ ص ٤٥ .
(٩) أسد الغابة ج ٢ ص ٥ .

ومن هذا القسم ما أنشده ردا على شاعر وفد بنى تميم الزبرقان بن بدر[1] الذى قال مفتخرا[2] :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا	منا الملوك وفينا يقسم الربع[3]

فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لحسان : قم ياحسان ، فأجب الرجل فيما قال ، فقال حسان :[4]

إن الذوائب من فهر وإخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع[5]
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا[6]
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم	أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا[7]

فحسان – رضى الله عنه – يمدح من أسلم من سادة قريش – وإخوتهم من الأنصار بأنهم بينوا أخلاقا للناس جديرة بالاتباع ، وهذه الأخلاق يرضى عنها ، ويعتز بها كل تقى القلب ، نقى الإيمان ، كما أن هؤلاء القوم أصحاب بأس شديد ، ينفع الأتباع ، ويضر الأعداء ، ثم يمدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه نبى البر والهداية فيقول :

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم	فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا

ويلاحظ أن مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى تلك القصيدة لم يكن ظاهرا كمدح الصحابة الذين انصبت عليهم القصيدة ، ولعل ذلك لمقابلة قصيدة الزبرقان السابقة التى كان يصف فيها قومه بالشجاعة والقوة ، فكان لزاما على حسان أن يقارع الحجة بالحجة ، ولو اقتصر الزبرقان على مدح رئيس تميم فحسب لاقتصر – أيضا – حسان على مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – مما جعل بعض

---

(١) هو : الحصين – وقيل غير ذلك – ابن بدر بن امرئ القيس التميمى السعدى كان سيدا فى الجاهلية عظيم القدر فى الإسلام ، توفى نحو سنة ٤٥ هـ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٤٤ ، الأعلام جـ ٣ ص ٧٢ .
(٢) حسان بن ثابت : ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقى ص ٢٤٥ المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ .
(٣) الربع : يريد ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس خالصا دون أصحابه ممن يكسبون الحرب ويسمى أيضا المرباع .
(٤) ديوان حسان : ص ٢٤٨ .
(٥) الذوائب : الأعالى والمراد بهم السادة ، فهر : أصل قريش ، وهو فهر بن غالب وقريش كلها تنسب إليه ، والمراد بإخوتهم : الأنصار .
(٦) السريرة : كالسر أو عمل السر من خير أو شر .
(٧) حاولوا : راموا وطلبوا الأشياع : جمع شيعة وهم الأتباع .



النقاد يقول عنها :

"... إنها تمجيد لأتباع الرسول ، والشاعر مدفوع إليها بقوة العصبية[1]".

وهذا واضح كل الوضوح فى قصيدته التى هجا فيها أبا سفيان [2] ، لأنه هجا الرسول — صلى الله عليه وسلم — وفيها يقول له :[3]

هجوت محمدا فأجبت عنه	وعند الله فى ذاك الجزاء [4]
أتهجوه ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداء [5]
هجوت مباركا برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء [6]
فمن يهجو رسول الله منكم	ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى	لعرض محمد منكم وقاء [7]

ففى هذه القصيدة تظهر مدائح الرسول — صلى الله عليه وسلم — فهو المبارك والحنيف والأمين والوفى ، مما جعل بعض الكتاب يقول [8] :

إن فى هذه القصيدة " تظهر بوادر التصوف ، لأن الشاعر كان ينتظر الجزاء من الله حين أجاب عن الرسول — صلى الله عليه وسلم- " .. ويمكن عد هذه القصيدة من بذور المدائح النبوية .. " .

وأما القسم الثانى : فهو ما كان مديحا مباشرا ، وليس ردا على هجاء المشركين مثل قوله [9] :

أغر عليه للنبوة خاتم	من الله مشهود يلوح ويشهد [10]
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه	إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد [11]

---

(١) المدائح النبوية ص ٣٢ .   (٢) هو : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم ، ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأخوه من الرضاعة ، كان يؤذى الرسول قبل إسلامه ثم أسلم وحسن إسلامه ، وشهد بعض الغزوات توفى سنة ٢٠ هـ وقيل : غير ذلك انظر : أسد الغابة جـ ٦ ص ١٤٤ ومابعدها .   (٣) ديوان حسان ص ١ وما بعدها .

(٤) الجزاء : المكافأة .   (٥) الكفء : النظير .

(٦) الحنيف : المراد هنا المائل عن الباطل إلى الحق .   (٧) العرض : موضع المدح والذم من الإنسان والمراد هنا : النفس ، الوقاء : الوقاية .

(٨) المدائح النبوية ص ٣٥ .   (٩) ديوان حسان ص ٧٨ .

(١٠) أغر : من الغرة وهى بياض فى الوجه ، المراد : كريم الأفعال واضحها ، عليه للنبوة خاتم : يجوز أن يكون عليه طابع النبوة من حسن الخلق ، وعظيم السجايا ، ويحتمل أن يكون الخاتم الحقيقى الذى كان فى ظهر الرسول ؛ وكان عبارة عن سلعة مثل بيض الحمامة ، أو كان عبارة عن شعر مجتمع عند كتفه ، انظر : ابن سعد فى الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٢١ طبعة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٨ .   (١١) الخمس : المراد الصلوات الخمس ، ورواية الديوان (إذا قال) وفى بعض الكتب (إذ قال) انظر : الإسلام فى شعر شوقى ص ٣٧ .

وشق له من اسمه ليجلـــــه ... فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفـــترة ... من الرسل ، والأوثان في الأرض تعبد (١)
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهنـّــد (٢)
وأنذرنا نـارا وبشر جنـــة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمــــد (٣)

ففي هذه القصيدة وأمثالها (٤) بلغ حسان ذروة المديح النبوي ، فالرســـول — صلى الله عليه وسلم — كريم في أفعاله ، محمود في خصاله ، وهو خاتم الأنبياء ، كرمه الله ، فقرن ذكره بذكره في الأذان والصلاة إذ يقول المؤذن والمصلي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله " ، أرسلـــه الله على حين فترة من الرسل فنشر الإسلام ، وكسر الأصنام .

ونجد مثل هذا المديح النبوي في كثير من قصائد حسان ، حتى التي أنشأها بعد وفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل قوله (٥)

وهل عدلت يوما رزية هالـــك ... رزية يوم مات فيه محمـــد (٦)
تقطع فيه منزل الوحي عنهـــم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهـــم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا (٧)

---

(١) الفترة : المراد : المدة بين كل رسولين .
(٢) سراجا مستنيرا : لعله اقتباس من قوله تعالى : " .. وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا منيرا " الأحزاب / ٤٦ . الصقيل : السيف اللامع .
(٣) أنذرنا : حذرنا .
(٤) ديوانه : ص ١٠ ، ٨٠ ، ٩٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٢ .
(٦) عدلت : ساوت . هالك : المراد ميت .
(٧) في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى :
" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم " التوبة / ١٢٨ ، ومثل هذا يدل على أن المدائح النبوية قد تأثرت — بالقرآن الكريم — في وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم .

٥ - ولقد مدح النابغة الجعدى [1] رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قصيدة طويلة مطلعها [2] :

خليلىَّ عوجا ساعة وتهجّرا ولوُما على ما أحدث الدهر أو ذرا [3]

ثم عرج على مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوصفه بأنه جاء بالهدى كما أشار إلى القرآن الكريم . فذكر أنه نور يبين طريق الخير والشر ويحث على التقوى كل ذلك في قوله :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا [4]
أتيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

ويقال : إنه عندما أنشد ذلك البيت :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم : (إذ كان ينشدها أمامه) فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : الجنة ، فقال الرسول : إن شاء الله ، ولقد أعجب بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وآية ذلك أنه عندما انتهى النابغة من إنشادها "دعا له الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلا : " لا يفضض الله فاك [5] .

وبعد : أرأيت كيف نشأت المدائح النبوية ، التى ظهرت أول ما ظهرت فى ثوب المديح التقليدى ، الذى يمدح به رؤساء القبائل والملوك ، ولا عجب فى ذلك ، لأن

---

(١) اختلف المؤرخون فى اسمه ، فقيل : هو عبد الله بن قيس ، وقيل : قيس بن عبد الله وقيل : حيان بن قيس ، شاعر مخضرم ، قيل : إنه كان من الموحدين فى الجاهلية ولما جاء الإسلام ، أسلم وحسن إسلامه ، توفى سنة ٦٥ هـ . انظر : تاريخ الأدب العربى ج ٢ (العصر الإسلامى) ص ١٠٢ .
(٢) الأغانى ج ٥ ص ٩ . ، أسد الغابة ج ٥ ص ٢٩١ .
(٣) عوجا : انزلا وأقيما ، تهجرا : اسكنا وقت الهاجرة : وهى شدة الحر فى وقت القيلولة ، ذرا : اتركا .
(٤) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ، ينتشر ضوؤها ، فيرى كأنه بقعة بيضاء .
(٥) أسد الغابة ج : ٥ ص ٢٩١ ، الأغانى ج : ٥ ص : ٩ .

هؤلاء الشعراء الذين اتصفت مدائحهم بذلك . كانت شاعريتهم - قبل الإسلام - مطبوعة بطابع الشعر الجاهلي .. ولم يكن من السهل أن تتحول عن ذلك الاتجاه بين عشية وضحاها ، لأن " المذاهب الأدبية لا تتغير في عام أو عامين ، ومن الإسراف أن ننتظر ذلك [١]" .

لقد كانت مدائح هؤلاء الشعراء ، غير متأثرة - في أفكارها - بروح الإسلام من حيث أسلوب التعبير ، وطرق الأداء ، ونسق القصيدة ، أو منهجها العام ، اللهم إلا في النزر اليسير من حيث المعاني ، فكانت تلك القصائد تستهل بالغزل ، وذكر الديار ، وبكاء الأطلال ، ووصف الناقة ، ثم مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يخرج عن ذلك إلا حسان بن ثابت في بعض قصائده [٢] ، وكذلك بعض الصحابة الذين مدحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واتسم ذلك المدح بأنه في أبيات معدودة ، قصيرة النفس ، مثل تلك الأبيات التي نُسبت إلى العباس ابن عبد المطلب [٣] ، ومنها قوله يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم [٤]:

وأنت لما ولدت أشرقت الـ	أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي الـ	نور ، وسبل الرشاد نخترق

وكذلك الأبيات التي نُسبت إلى عبد الله بن رواحة [٥] ، وفيها - أيضا - يخاطب الرسول [٦] قائلا :

إني تفرست فيك الخير أعرفه	والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يُحرم شفاعته	يوم الحساب فقد أزرى به القدر

---

(١) المدائح النبوية ص ٣٣ . (٢) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة .

(٣) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وولد قبله بسنتين ، أسلم وحسن إسلامه ، ودافع عن الرسول كثيرا ، ولذلك أحبه ، وقال له : " أنت آخر المهاجرين ، كما أنني آخر الأنبياء " . توفي سنة ٣٢ هـ - (أسد الغابة ج ٣ ص ١٦٤) .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٩ ومابعدها .

(٥) هو : عبد الله بن ثعلبة الأنصاري ، صحابي جليل ، شهد كثيرا من الغزوات واستشهد بعد جهاد كبير سنة ٨ هـ (أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٤ ومابعدها) .

(٦) المرجع السابق .

وإذا كانت هذه الأبيات قيلت في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهناك أبيات قيلت بعد موته [١] - صلى الله عليه وسلم - واتسمت بالسمات السابقة نفسها ، ومن ذلك ما نسب إلى كعب بن مالك [٢] الذي يقول [٣] :

ياعين فابكي بدمع ذري	لخير البرية والمصطفى
وبكي الرسول ، وحق البكاء	عليه لدى الحرب عند اللقا
على خير من حملت ناقة	وأتقى البرية عند التُقى

وإذا كانت الأبيات السابقة كلها قد نسبت إلى رجال من الصحابة ، فها هي ذي بعض الأبيات التي نسبت إلى السيدة صفية بنت عبد المطلب [٤] التي تقول فيها [٥] :

عين من تندبين بعد نبي	خصه الله ربنا بالكتاب
فاتح ، خاتم ، رحيم ، رؤوف	صادق القيل ، طيب الأثواب
مشفق ، ناصح ، شفيق علينا	رحمة من إلهنا الوهاب
رحمة الله والسلام عليه	وجزاه المليك حسن الثواب

نعم ، هذا رثاء ، مقرون بالوفاء ، وهو أيضا مديح لخاتم الأنبياء ... إنه لفظ رقيق ، ومعنى صح ، أثاره الحب ، ونضده الشوق إلى النبي الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، الذي امتدحه كل من رآه ، وإن لم يكن شاعرا ، كالسيدة خديجة [٦] - رضي الله عنها - التي تقول للرسول : " والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقوى الضيف ، وتعين على نوائب الحق [٧] .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ ق٢ ص ٨٩ وما بعدها) .
(٢) هو : كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري ، صحابي جليل ، أسلم وحسن إسلامه ، ودافع عن الإسلام بشعره ، وشهد كثيرا من الغزوات ، توفي سنة ٥٠ هـ (أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٨٧) .   (٣) الطبقات الكبرى جـ٢ ق٢ ص ٩٢ .
(٤) هي السيدة : صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - " أسلمت وحسن إسلامها وتوفيت سنة ٢٠ هـ - رضي الله عنها - (أسد الغابة جـ ٧ ص ١٧٢ وما بعدها) .
(٥) الطبقات الكبرى جـ٢ ق٢ ص ٩٦ .
(٦) هي السيدة الجليلة : خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين ، وزوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول من أسلمت من النساء ، وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة .. توفيت قبل الهجرة بخمس سنوات وقيل بأربع ، وقيل بثلاث (أسد الغابة جـ ٧ ص ٧٨) .
(٧) المرجع السابق جـ ٧ ص ٨٢ .

بل إنها لتصرح لمحمد — صلى الله عليه وسلم — قبل الرسالة — عندما أرادت أن تتزوجه — بقولها : " إني قد رغبت فيك ، لقرابتك مني ، وشرفك في قومك ، وأمانتك عندهم وحسن خلقك ، وصدق حديثك [1] " وكذلك مدحه علي بن أبي طالب [2] (كرم الله وجهه) بقوله : " عترته خير العتر ، وأسرته خير الأسر .. إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى .. سراج لمع ضوؤه ، وشهاب سطع نوره .. كلامه الفصل وحكمه العدل [3] — صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الشعراء — وغيرهم — قد مدحوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما رأينا ، فإنهم قد مدحوا — أيضا — آل بيته الأطهار [4] ، وعترته الأبرار ، وذريته الأخيار ، وذلك لقربهم من الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولحثه على حبهم ،

---

(١) المرجع السابق ج ٧ ص ٨٠ .

(٢) هو : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصهره ، أسلم وهو صغير ، وتربى في بيت النبوة ، وجهاده في الإسلام لا ينكر ورابع الخلفاء الراشدين ، قتل سنة ٤٠ هـ . (المرجع السابق ج ٤ ص ٩١ وما بعدها) .

(٣) الإمام علي بن أبي طالب : نهج البلاغة ص ١١٧ وما بعدها بشرح الإمام محمد عبده ، تحقيق محمد عاشور وغيره ، طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٨ .

(٤) اختلف في المراد بآل البيت ، فقيل : هم زوجات الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقيل : هم الذين حُرموا الصدقة أي (آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس) وقيل : هم فاطمة بنت الرسول — صلى الله عليه وسلم — وزوجها — علي بن أبي طالب — وابناهما : الحسن والحسين — رضي الله عنهم جميعا — ويبدو أن هذا الرأي هو الراجح لقوة دليل أصحابه . انظر في ذلك :

أ — المقريزي : فضل آل البيت (بتحقيق محمد عاشور) ص ٩ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ٧٨ دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٢ .

ب — ابن كثير : تفسير القرآن العظيم بتحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين ج ٦ ص ٤٠٩ وما بعدها طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

جـ — الإمام مسلم : صحيحه بشرح النووي (تحقيق عبد الله أبو زينة) ج ص ٢٨٧ ، ج ٧ ص ١٢٢ طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

د — صحيح البخاري : ج ٥ ص ٢٦ .

وإكرامهم [1] .. مما جعل الشعراء - وغيرهم - يحرصون على مدحهم والإشادة بمكارمهم ، وخاصة ، بعد تلك الأحداث التي انتهت بقتل الإمام علي - كرم الله وجهه - وابنه الإمام الحسين [2] - رضي الله عنه - فأثار شعور كثير من المسلمين - إن لم يكن كلهم - وألهبت عاطفتهم ، فوقف كثير من الشعراء - وهم أرهف الناس حسا - يمدحون هذه السلالة الطاهرة - ويظهرون مكارمهم غير مبالين بما يلقونه من أذى واضطهاد من بني أمية ، الذين كانوا يعدون مدح بني هاشم ، خروجا على سياستهم ، يستحق صاحبه كل هوان وعذاب.

ا - ومن هؤلاء الشعراء الفرزدق [3] ، الذي قيل : إنه مدح زين العابدين [4] - رضي الله عنه - أمام هشام بن عبد الملك [5] بعدما أنكر هشام معرفته ، فقال الفرزدق قصيدة طويلة .. ومنها [6] :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم [7]
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم [8]
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا [9]

---

(1) المراجع السابقة .

(2) هو الحسين بن علي ، جده المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأمه فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ولد بعد الهجرة النبوية بأربع سنوات ، قتل سنة 61 هـ (أسد الغابة ج 2 ص 18 وما بعدها) .

(3) هو : أبو فراس همام بن غالب التميمي الدارمي ، أحد فحول الشعراء في عهد بني أمية مات سنة 110 هـ . (انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ج 5 ص 135 مطبعة السعادة بمصر سنة 1948 .

(4) هو : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة 38 هـ وتوفي سنة 94 هـ ، وقيل غير ذلك . انظر المرجع السابق ج 2 ص 426 وما بعدها .

(5) هو : هشام بن عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بني أمية توفي سنة 125 هـ . (الأعلام ج 9 ص 84) .

(6) ديوانه ، بشرح عبد الله الصاوي ج 2 ص 848 وما بعدها - المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة - غير مؤرخ .

(7) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى .

(8) ابن خير عباد الله : يقصد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه جده ، والعرب يطلقون على الجد لفظ الأب .

(9) ابن فاطمة : يقصد فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنها جدته ، والعرب يطلقون لفظ الأم على الجدة : والسيدة فاطمة زوج الإمام علي ، وأم الحسن والحسين رضي الله عنهم - توفيت بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بستة أشهر وقيل بثلاث (انظر أسد الغابة ج 7 ص 220) .

فهذه القصيدة – إن صحت نسبتها إلى الفرزدق [1] – تدل على غاية الصدق في حب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وآل بيته ، بل هي كما قيل :

" بداية الصدق في المدائح النبوية ، ذلك بأن مدائح حسان وقعت في أيام كان مدح النبي فيها ينفع الشاعر ولا يضره ، أما مدح النبي وأهله في أيام الفرزدق فكان بابا من الشر يفتح للمادحين ، لأن تلك المدائح ما كانت تروق خلفاء بني أمية " [2].

ولذلك حبس هشام الفرزدق بعد إنشادها [3] ، ولما أرسل إليه زين العابدين هدية وهو في السجن ردها قائلا : " مدحته لله تعالى لا للعطاء " ولكنه اضطر إلى قبولها بعد أن قال زين العابدين : " إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لا نستعيده [4] ".

٢– وموقف الفرزدق هذا – يذكرنا بموقف الكميت [5] الذى مدح آل البيت بقصائد كثيرة أطلق عليها (القصائد الهاشميات) [6] ومنها قصيدته التي يقول فيها [7] :

---

(١) ذكرها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٥ مسبوقة بقوله : لما حج هشام في أيام أبيه وطاف بالبيت جهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه فلم يقدر لكثرة الزحام ، فنصب له منبر ، وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل (زين العابدين) وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلمه فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام : لا أعرفه – مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكونه – وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامى : من هو يا أبا فراس ؟ فقال : قصيدته ، وهى ثابتة في ديوانه كما ذكرت سابقا ، إلا أن بعض الكتاب في شك من ذلك – انظر مجلة الأزهر – المجلد الثلاثين – أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، جـ٤ ص ٣٧٣

(٢) المدائح النبويه ص٥٦ .   (٣) وفيات الأعيان جـ ٣ ص : ١٤٦

(٤) المرجع السابق .

(٥) هو : الكميت بن زيد الأسدى الملقب بالمستهل ، ولد سنة ٦٠هـ وكان خطيبا وشاعرا وتشيع لبنى هاشم ومات سنة ١٢٦ هـ . (تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ٢٦٢)

(٦) انظر : الدكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموى ص٢٦٨ وما بعدها الطبعة الخامسة طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

(٧) الكميت : الهاشميات ص ١٥ وما بعدها مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣٢١ .

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولا لعبا مني وذو الشوق يلعب (١)
ولم تلهني دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربني بنان مخضب (٢)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بني حواء والخير يطلب (٣)
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالني أتقرب (٤)
بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب (٥)

فالشاعر يستنكر أن يشغل نفسه عن آل البيت بالغزل في النساء .. أو بالبكاء على الأطلال ، وإنما يشغل نفسه ، ويتجه بقلبه إلى آل البيت ، أهل الفضائل العظيمة ، والعقول الراجحة ، والخلق الحسن ، وحبهم يتقرب إلى الله ، إذ هم آل بيت النبي — صلى الله عليه وسلم — فلا يهمه إلا ما يرضيهم ، ولا يغضبه إلا ما يغضبهم ، وهذا يكفي للدلالة على أن مدح آل البيت عند هذا الشاعر — وغيره — فرع من المدائح النبوية (٦) ، التي لم تنظم من أجل العطاء ، كما يفعل كثير من الشعراء ، يشهد لذلك ما روى أن الكميت دخل على جعفر بن محمد (٧) فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ... ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ، ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم ، فأنا أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله (٨) .

---

(١) البيض : المراد النساء الحسان (٢) رسم منزل : أثره .
البنان — جمع بنانة — أطراف الأصابع — وبنان مخضب : كناية عن المرأة .
(٣) النهى : جمع نهية (بضم النون في الجمع والمفرد) وهي العقل .
(٤) النفر البيض : المراد الأشراف الكرام .
(٥) رهط النبي : أهله وعشيرته .
(٦) المدائح النبوية ص : ١٠٧ .
(٧) هو : أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي — رضي الله عنهم — توفي سنة ١١٧ هـ . وقيل : غير ذلك انظر . المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص١٧٢ — تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد — طبعة دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .
(٨) البغدادي : خزانة الأدب ج ١ ص ٧٠ المطبعة الأميرية سنة ١٢٩٩ هـ .

٣- ويأتى دعبل [١] فيمدح آل البيت مدحا مشوبا بالحزن والحسرة على ما أصابهم - وخير دليل على ذلك قصيدته التى مطلعها : [٢]

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات [٣]

وفى تلك القصيدة يتحدث عن آل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فيقول :

هم أهل ميراث النبى إذا اعتزوا ... وهم خير قادات وخير حماة
ملامك فى أهل النبى فإنهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
تخيرتهم رشدا لأمرى فإنهم ... على كل حال خيرة الخيرات
فيارب زدنى من يقينى بصيرة ... وزد حبهم يارب فى حسناتى

٤- وتتوالى مدائح آل البيت حتى يأتى أبو فراس الحمدانى [٤] ، فيمدحهم ، بأنهم أسباب نجاته يوم القيامة ، وبحبهم يرتجى تحقيق آماله .. فيقول [٥] :

لست أرجو النجاة من كل ما أخشاه إلا بأحمد وعلى [٦]
وببنت الرسول فاطمة الطهر وسبطيه والإمام على [٧]

إلى أن يقول :

فبهم أرتجى بلوغ الأمانى ... يوم عرضى على الإله العلى

---

(١) هو : أبو جعفر محمد بن على شاعر مطبوع توفى سنة ٢٤٦ هـ (وفيات الأعيان جـ٢ ص٣٤)
(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ١١ ص١٠٣ مطبعة دار المأمون بالقاهرة سنة ١٩٣٧ .
(٣) العرصات : جمع عرصة : وسط الدار ، أو كل بقعة بين الدور لا بناء فيها .
(٤) هو : أبو فراس الحارث بن سعيد الحمدانى التغلبى كان شاعرا مجيدا وفارسا مغوارا قتل سنة ٣٥٧ هـ . (انظر : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٤٩) .
(٥) أبو فراس : ديوانه بشرح نخلة قلفاط ص ٤٥ مكتبة الشرق ببيروت سنة ١٩١٠ م
(٦) أحمد وعلى : أى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وابن عمه على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - .
(٧) سبطيه (مثنى سبط) : ولد الولد يريد الحسن والحسين - رضى الله عنهما .

٥ ـ وإذا كانت أبيات أبي فراس شبيهة بالنظم التاريخي بسبب

تعدد الأسماء التي اشتملت عليها ، فإن مدائح الشريف الرضي[1] قد غلبت عليها العصبية في بعض الأحيان ، فنقلتها من رقة الولاء إلى الفخر والخيلاء[2] .. ومن ذلك قوله :[3]

وما المدح إلا في النبي وآلـه	يرام ، وبعض القول ما يتجنب
وأولى بمدحي من أعز بفخره	ولا يشكر النعماء إلا المهذب
أرى الشعر فيهم باقيا كأنما	تحلق بالأشعار عنقاء مغرب
وقالوا : عجيب عجب مثلي بنفسه	وأين على الأيام مثل أبي أب
لعمرك ما أعجبت إلا بمدحهم	ويحسبني بالقصائد معجب
أعد لفخري في المقام محمدا	وأدعو عليا للعلا حين أركب

٦ ـ لكن مدائح مهيار[4] يظهر فيها الولاء الصادق لآل البيت ، وآية ذلك : أن الشاعر يستعذب كل ما أصابه من محن واضطهاد بسببهم ، كما يعلن أنه لن يتخلى عن حبهم .. فيقول[5] :

هل يبلغنك يا أبا الحسن الذي	جوزيت فيك وكان ضد جزائيا[6]
ومن معشر لما مدحتك غظتهم	فتناوشوا عرضي وشانوا شانيا
لما رأوا ما غاظ مني شنعوا	ـ حاشاك ـ أني قلت فيك دواهيا
لا كان إلا ميتا ميثاقه	من سره أن كان بعدك باقيا

ولم يكتف مهيار بذلك الحب الصادق الذي كان سببا في تعذيبه ، بل إنه ليكثر من التوجع والتحسر على فقد الحسين ، ويرى أن قتله قريب من الشرك فيقول[7]

---

(١) هو : أبو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي ، نقيب أشراف بغداد ومن أكبر شعراء بني هاشم ، توفي سنة ٤٠٦ هـ (وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٤)

(٢) المدائح النبوية ص١٤٢ .

(٣) الشريف الرضي : ديوانه ج ١ ص٨٩ وما بعدها . مؤسسة الأعلى للمطبوعات ببيروت غير مؤرخ .

(٤) هو : أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي ، كان مجوسيا وأسلم ـ وتشيع لآل البيت توفي سنة ٤٢٨ هـ (وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٤) .

(٥) ديوانه ج ٤ ص٢٠٢ وما بعدها . الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ .

(٦) يريد بقوله (يا أبا الحسن) علي بن أبي طالب . كرم الله وجهه .

(٧) ديوانه ج ٢ ص٢٦٥ .

أرى الدين من بعد يوم الحسين ... عليلا ، له الموت بالمرصد
وما الشرك بالله من قبله ... إذا أنت قست بمستبعد
وما آل حرب جنوا إنما ... أعادوا الضلال على من بدى
سيعلم من (فاطم) خصمه ... بأى نكال غدا يرتدى
ومن ساء (أحمد) ياسبطه ... فباء بقتلك ماذا يدى؟
فداؤك نفسى ومن لى بذا ... ك لو أن مولى بعبد فدى

لقد أشار مهيار فى تلك الأبيات إلى ما تعرض له آل البيت من قتل وغدر ،وألقى اللوم على آل حرب - بنى أمية - الذين سيلقون جزاء ما فعلوه يوم القيامة .

وهكذا ضرب مهيار على أوتار ثلاثة اتسمت بها غالبية مدائح آل البيت وهى : [1]

أولا : مدح رهط النبى - صلى الله عليه وسلم - والإشادة بمكانتهم .

ثانيا : هجاء بنى أمية وغيرهم ممن آذوا آل البيت هجاء يبرز مساوئهم ،وينشر مثالبهم .

ثالثا : التأوه الشديد ، والحزن العميق على صرعى الهاشميين شهيدا خلف شهيد .

٦ - وزعم بعض الكتاب[2] أن مدائح آل البيت استمرت على ذلك الحال إلى أن ظهر الشاعر عبد الرحيم البرعى[3] - الذى اتجه بالمدائح النبوية اتجاها جديدا ، إذ تحدث عن مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونشأته ،وصفاته ومعجزاته ..[4] .

٧ - ولكن الحقيقة أن الشاعر عبد الرحيم البرعى قد سبق فى ذلك بالشاعر

---

(١) انظر : مجلة منبر الإسلام السنة (١٢) العدد (٩) ص ٣٤ باختصار سنة ١٩٥٥ .
(٢) مجلة الأزهر العدد (٣) ص ٣٣٧ . السنة (١٨) سنة ١٩٦١ .
(٣) هو : عبد الرحيم بن على البرعى اليمانى - شاعر متصوف توفى سنة ٨٠٣ هـ . انظر : الأعلام ج ٤ ص ١١٨ .
(٤) ديوانه : ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٦٩ - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة سنة ١٣٩٢ .

الصرصرى [1] وغيره ، ولعل الذى دفع بعض الكتاب إلى هذا الزعم هو عدم تحقيقهم سنة وفاة البرعى [2] .

ومن مدائح الصرصرى قوله مخاطبا الرسول - صلى الله عليه وسلم [3] - :

يا سيد البشر المقارن ذكره | ذكر المهيمن ، وهو فضل كافى [4]
أنت الشخص المدائح بالذى | فى الفتح والأحزاب والأعراف [5]

وبعد هذه الجولة فى حديقة المدائح النبوية الغناء .. بين التى التقينا فيها بأكثر من عشرين شاعرا ، مدحوا خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته ، أشير إلى الملاحظات التالية :

أولا : إننى لم أرد الاستقصاء بذكر شعراء المديح النبوى ، وإنما أردت الإشارة إلى البارزين منهم فى هذا المجال الرحب .

ثانيا : إن تلك المدائح ظهرت أول ما ظهرت فى ثوب المديح التقليدى ، ولكنها ما لبثت أن تأثرت بالدين الجديد فظهرت فيها الصفات الدينية .

ثالثا : إن هذه المدائح كانت محدودة الانتشار قبل الهجرة النبوية ، ولعل ذلك يرجع إلى سرية الدعوة من جهة ، والاهتمام بنشر مبادئ الإسلام ، وحفظ القرآن الكريم من جهة ثانية .

رابعا : انتشرت تلك المدائح بعد الهجرة بسبب الرد على شعراء المشركين والدفاع عن الإسلام والمسلمين ، والإشادة بأخلاق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصفاته .

---

(1) هو : أبو زكريا يحيى بن يوسف الأنصارى جمال الدين الصرصرى ، قتل سنة ٦٥٦ هـ . انظر الأعلام جـ ٩ ص ٢٢٥ .

(2) انظر ديوانه ص ١٦٨ والدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى : دراسات فى التصوف الإسلامى جـ ٢ ص ٥٣ مطبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة (غير مؤرخ) .

(3) ديوانه مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر قسم الأدب تحت رقم ٨١ ٢٤ / السقا / ٢٨٧٥٤ ص ١١٢ .

(4) ولعل الشاعر هنا ناظر إلى قول حسان (وضم الإله اسم النبى إلى اسمه) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة .

(5) يشير إلى ما ورد ذكره من صفات النبى - صلى الله عليه وسلم - فى سورة الفتح وخاصة فى الآيات رقم ٨ ، ٩ ، ٢٦ وفى سورة الأحزاب بالآيات رقم ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ وفى سورة الأعراف الآيات رقم ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٦ .

خامسا : تحول المديح بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى آل البيت ، وظهر بصورة جديدة ، متأثرة بالناحية السياسية أيام الأمويين والعباسيين .

سادسا : ظهر بعض الشعراء الذين اتجهوا بالمدائح النبوية اتجاها جديدا ، فتح آفاقها ، إذ تحدثوا عن مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعجزاته ...

سابعا : بالرغم من ذلك كله ذهب بعض النقاد (١) إلى أن المديح النبوى فن استحدثه المصريون فى القرن السابع الهجرى ، وأما ما وجد فيه ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من القصائد والأشعار فى صدر الإسلام وبخاصة فى الفترة التى عاشها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الهجرة .. فإنها لا تعد من الوجهة الفنية فى عداد قصائد المديح ، لأن الشعراء الذين أنشدوا تلك القصائد لم يقصدوا بها مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل قصدوا الدفاع عن الدين الجديد ، ودفع الأباطيل التى أثارها المشركون وغيرهم ـ ضد الإسلام ـ وكذلك ما وجد من قصائد على لسان المتشيعين فى العصر الأموى كهاشميات الكميت وغيره ، وفى العصر العباسى كقصائد دعبل وغيره ، فإنها ـ وإن عدت من الوجهة الفنية ضمن قصائد المديح ـ لم تسك فى مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما كانت فى مدح على والأئمة من بنيه وما جاء فيها من ذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مقصودا لذاته ، وإنما جاء ذكره عرضا بقصد تفضيل الممدوح من الهاشميين ـ بانتسابه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على غيره من الخلفاء أو الأئمة ـ عباسيين كانوا أو أمويين .

وهذا القول ـ فى الحقيقة ـ يحتاج إلى مراجعة ، لأن المدائح النبوية التى ظهرت قبل القرن السابع الهجرى ، كانت على الأقل ، من الأسباب التى أدت إلى إجادة أغلب شعرائها فى القرن السابع الهجرى ، وبخاصة من شاعر كالبوصيرى ، الذى أشار إلى أثره بعض النقاد بقوله " .. وفى الحق لم يحسن مدح السيد الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير الإمام البوصيرى فى بردته و همزيته " (٢)

والآن .. أتساءل : من هو البوصيرى الذى يشهد له بعض النقاد بذلك؟ وهل هذه الشهادة صادقة ؟

وهذا ما سأتحدث عنه فى الباب التالى إن شاء الله ..

---

(١) الدكتور على صافى حسين : الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٢١٦ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

(٢) انظر مقدمة ديوان حسان بن ثابت ص (و) .

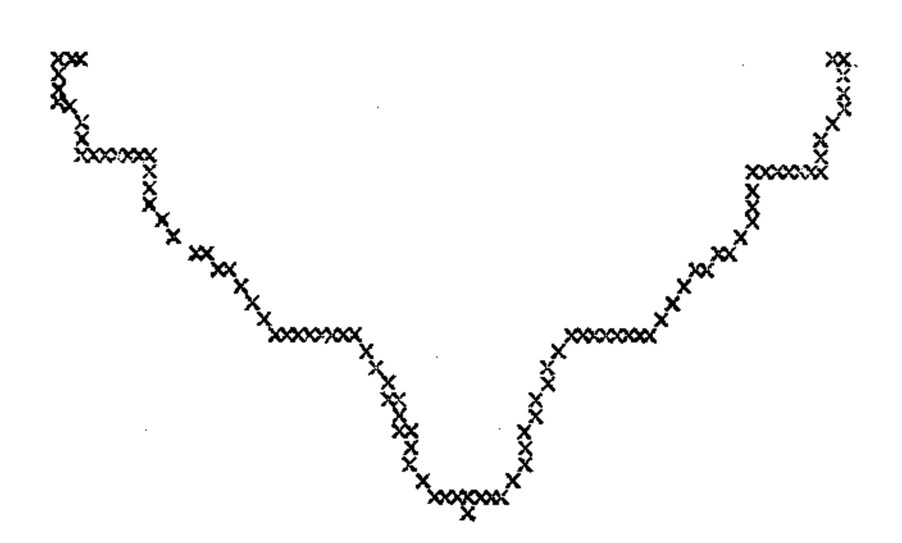
الباب الأول

((بردة البوصيرى))

الفصل الأول : البوصيرى من مهده إلى لحده

الفصل الثانى: دراسة البردة وتحليلها

الفصل الثالث : أثر البردة



((الفصـــــل الأول))

((البوصيري من مهـــــــــده إلى لحـــده))

لعل من نافلة القول أن أشير إلى أثر البيئة في الإنسان ، وأن أتحدث عن تأثير الإنسان في بيئته ،لأن ذلك أصبح أمراً جلياً للعيان ، واضحاً وضوح النهار .

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

إن صلة الإنسان ببيئته وثيقة ولذا قيل : "... ... الإنسان ابن بيئته لا يستطيع أن ينفصل منها ولو بعد عنها ، ولا يمكنه التخلص من آثارها – غالباً – ولو خرج من إطارها ... ... [1] ".

ولقد أدرك معظم الكتاب والنقاد أثر البيئة الكبير في الإنسان وخاصة في الشعراء فأكدوا ضرورة الوقوف عليها ، والإلمام بجوانبها ، يقول بعضهم :

" إن معرفة البيئة ضرورية في نقد كل شعر ، في كل لغة ، في كل جيل ، ولكنها ألزم في مصر على التخصيص ... ... [2] ".

ومن هنا وجدت أن من الحكمة إلقاء الضوء على بيئة البوصيري ،مبتدئاً بعصره ، محاولاً – قدر الطاقة – الربط بين العصر والشاعر من ناحية تأثره به ، وتأثيره فيه ، وبخاصة أن ذلك العصر كان مليئاً بالأحداث العظيمة ، والحروب الأليمة التي شنها كل من الصليبيين [3] والتتار [4] على المسلمين بغياً وعدوا

---

(1) الدكتور أحمد الشرباصي : الدين والمجتمع ص ٣٥ بتصرف المطبعة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٢) الأستاذ عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٧ مطبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٧٢ .

(٣) الصليبيون : قوم من الأوربيين المسيحيين الذين شنوا الحرب على المسلمين في الشرق لاستخلاص بيت المقدس من أيديهم ، وسموا بذلك لأنهم اتخذوا الصليب شارة لهم ، انظر : الدكتور جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ج٢ ص٦ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ . والدكتور : سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ١٨ وما بعدها ،مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٤) التتار : أمم وثنية جاهلية من الجنس المغولي – مساكنهم الأولى الأطراف الشمالية لبلاد الصين ، عاثوا في الأرض فساداً .. انظر محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين (الرابع عشر) المجلد الثاني ص٦٩٩ مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٩١١ .

" يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم واللــهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون "[1] •

فإذا حدثتنا معظم المصادر التاريخية أن البوصيرى ولد سنة ٦٠٨ هـ ، وتوفى سنة ٦٩٥ هـ على الراجح — كما سيأتى — أدركنا أنه لبث في دنيا الناس ما يقرب من تسعين عاما ، قضى شطرها الأول — تقريبا — فى آخر حكم الدولة الأيوبية التى استمر حكمها ما يقرب من ثمانين عاما (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ[2]) كما قضى شطرها الآخر فى أول حكم دولة المماليك التى أربى حكمها على قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ — ٩٢٢ هـ[3]) •

الحالة السياسية فى عصر الشاعر :

يبدو أن أعظم حدث تم قبل مولد الشاعر هو انتصار المسلمين على الصليبيين فى موقعة (حطين) سنة ٥٨٣ هـ[4] ، بقيادة صلاح الدين[5] الذى توج هذا النصر المبين باسترداد بيت المقدس الحبيب إلى كل مسلم ومسلمة — رده الله إلينا — •

والجدير بالذكر أن صلاح الدين لم يستطع تحقيق ذلك كله إلا بتوحيد الصفوف بين مصر والشام ، ولكن هذه الوحدة لم تلبث أن انفصمت عراها ، وتفككت أواصرها بموت ذلك القائد ، إذ قُسمت الدولة الموحدة إلى دويلات يحكمها أولاد صلاح الدين وإخوته[6] ، فحكم مصر ابنه العزيز[7] كما حكم حلب

---

(١) سورة الصف / ٨ •
(٢) محمد رفعت ومحمد أحمد حسونة : تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ص ١٥٠ ، طبعة دار القاهرة للطباعة سنة ١٩٥٧ •
(٣) المرجع السابق ص ١٨٤ •
(٤) (حطين) — بكسر أوله وثانيه المشدد ، وياء ساكنة — قرية بين أرسوف وقيسارية ، وقيل : موقع بينه وبين طبرية نحو فرسخين • انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٩٨ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٦ •
(٥) هو : أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادى الملقب بالملك الناصر صلاح الدين توفى سنة ٥٨٩ هـ (وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩) •
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦ وما بعدها ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٢ •
(٧) هو : عماد الدين أبو الفتح العزيز بن يوسف بن أيوب ، توفى سنة ٥٩٥ هـ • (وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٤) •

ابنه الظاهر[1] ، ودمشق وما حولها ابنه نور الدين[2] ، كما تولى حكم بعض بلاد الشام أخوه الملك العادل[3] . وهكذا تفتتت الدولة الفتية ، ولو وقف هذا الخطب عند ذلك الأمر لهان ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين العزيز الذى أراد أن ينشر نفوذه على مصر والشام ، وبين أخويه الظاهر ونور الدين ، اللذين عارضا فكرة أخيهما ورفضاها بشدة ، ورغم ذلك حقق العزيز هدفه ، وانتصر على أخويه بمساعدة عمه الملك العادل .

وأغلب الظن أن العزيز لو علم ما يخبئه له القدر ، ما صنع ما صنع ، إذ فاجأه الموت بعد مدة قصيرة من نشر نفوذه على مصر والشام ، فترك كل شيء لغيره ، مؤكدا لنا قول الشاعر :

قد يجمع المال غير آكله
ويأكل المال غير من جمعه

وكانت وفاة العزيز فرصة لعمه العادل الذى استطاع أن ينشر نفوذه على مصر والشام ، واتسم عهده بالاستقرار ، ولما توفى خلفه أولاده الذين اتفقت كلمتهم — أول الأمر — فملكوا ، ثم دبّ الشقاق بينهم فهلكوا : إذ كان اختلافهم سببا فى ضعف قوتهم ، وذهاب هيبتهم ، مما جعل الفرنج يطمعون فى البلاد ، إلا أن الملك الكامل محمدا استطاع أن يكون جيشا قويا كبح جماح الأعداء وردهم على أدبارهم ، ولما توفى سنة ٦٣٥ هـ خلفه ابنه العادل الثانى الذى لم يستمر حكمه طويلا ، إذ خلعه أخوه الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ ثم سجنه حتى مات ، وقيل : هو الذى قتله سنة ٦٤٠ هـ[4] .

ولقد توالت هجمات الصليبيين على البلاد فى عهد الملك الصالح ، وكان

---

(١) هو : غياث الدين غازى الملقب بالملك الظاهر ، توفى سنة ٦١٣ هـ (المرجع السابق ج ٣ ص ١٢٨) .

(٢) هو : نور الدين ، أبو الحسن على الملقب بالملك الأفضل ، توفى سنة ٦٢٢ هـ (المرجع السابق ج ٣ ص ٩٥) .

(٣) هو : أبو بكر محمد بن أيوب بن شادى الملقب بالملك العادل سيف الدين ، توفى سنة ٦١٥ هـ (المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٦) .

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٨٤ المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ هـ .

أشدها تلك الحملة التى قادها لويس التاسع [1] فخرج الجيش المصرى لمقابلتها سنة ٦٤٧ هـ إلا أن الملك الصالح توفى فى أثناء التحام الجيشين فى دمياط [2] وقيل : فى المنصورة [3] فأخفت زوجته ـ شجرة الدر ـ نبأ وفاته عن الجيش حتى لا يتفرق شمله ، أو تضعف عزيمته ، ثم أرسلت إلى توران شاه ـ ابن الملك الصالح ـ الذى كان يقيم فى حصن كيفا ـ من أعمال الموصل ـ ليتولى حكم البلاد وهذا التصرف من شجرة الدر ـ إن صح ـ يوجب لها كل تقدير .

ومهما يكن من شيء ، فلقد أتى توران شاه على عجل ، واشترك فى محاربة لويس التاسع ، وهزمه هو وجنوده هزيمة منكرة ، تُوِّجت بأسر كثير منهم وعلى رأسهم لويس التاسع نفسه الذى سجن بدار ابن لقمان [4] فى المنصورة ولم يطلق سراحه إلا بفدية كبيرة .

والجدير بالذكر أن البوصيرى أشار إلى تلك المعركة فى قصيدة طويلة ، وصور فيها ما حاق بجنود الأعداء من عار وشنار ، وما أحاط بلويس من ذلة وهوان ، ومن ذلك قوله [5] :

وليس لهم إلا إلى الأسر ملجأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصير

ثم يستمر فى ذلك الوصف المشوب بالتهكم والسخرية من هؤلاء الجنود الذين تركهم لويس مأسورين وفدى نفسه بالمال ورجع إلى فرنسا ، فيقول البوصيرى فى ذلك :

فدى نفسه بالمال والآل وانثنى ... تطير به من حيث جاء طيور

---

(1) هو : ريدا فرنسيس ولد سنة ١٢١٤ ، وتولى حكم فرنسا من سنة ١٢٢٦ إلى أن توفى سنة ١٢٧٠ هـ انظر : محمد شفيق غربال مع غيره : الموسوعة الميسرة ص ١٥٨٥ ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥ .

(2) دمياط (بكسر الدال) مدينة قديمة بين تينس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل (معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥) ، وهى الآن إحدى محافظات جمهورية مصر العربية بالوجه البحرى .

(3) المنصورة : بلدة أنشأها الملك الكامل بين دمياط والقاهرة على الشاطيء الشرقى لفرع دمياط ، تفاؤلا بانتصاره على الصليبيين (المرجع السابق ج ٨ ص ١٧٨) .

(4) ابن لقمان : هو القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، كاتب السر فى ذلك الوقت توفى سنة ٦٩٣ هـ (الأعلام ج ١ ص ٥٣) .

(5) ديوانه ص ٩٧ بتحقيق : محمد سيد كيلانى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٥٥ م .

والقصيدة مهلهلة النسج ضعيفة التعبير ، إلا أنها تشير إلى حدث عظيم وقع فى عصر الشاعر فسجله فى تلك الأبيات التى تدل دلالة صادقة على تأثر الشاعر بأحداث عصره .

ولقد فرح المصريون بهذا النصر العظيم على الصليبيين ، إلا أن (توران شاه) ، قد حدثته نفسه بذلك الانتصار ، فطغى وبغى ، وعامل مماليك أبيه بشدة ، وقسوة ، كما أساء إلى زوجة أبيه ـ شجرة الدر ـ ناسيا أنها السبب فى حكمه البلاد ، مما جعلها ترسل إلى أمراء المماليك قائلة لهم : .. " اقتلوا (توران شاه) ، وعلى رضاكم بكل ما يمكن .. " ويبدو أن ذلك الأمر صادف هوى فى نفوسهم ، وحرك ضغينة فى قلوبهم ، فقتلوه سنة ٦٤٨ هـ[1] ثم أجمعوا أمرهم على أن تتولى شجرة الدر حكم البلاد ، يساعدها فى ذلك عز الدين أيبك ، ولكن الخليفة العباسى ـ حينما علم ذلك ـ أرسل إلى أمراء المماليك قائلا لهم : .. " إن لم يكن عندكم فى مصر رجال يصلحون للسلطنة فأعلمونا نرسل لكم من يصلح لها .. "[2]) .

وكان لرأى الخليفة أثره ، إذ اتفق الأمراء والقضاة على أن تتزوج شجرة الدر عز الدين أيبك وتتنازل له عن الحكم ، بعد أن تخلع نفسها منه ، وتم ذلك فعلا ـ وبذلك انتهت دولة الأيوبيين ، وطويت صفحتها بعد فترة حافلة بالاضطرابات ، مليئة بالحروب ـ كما رأينا ذلك سابقا عند الحديث عن بعض أمرائهم ، وأهم الحوادث التى وقعت فى عهدهم .

ومهما يكن من شئ ، فقد بدأ عصر المماليك سنة ٦٤٨ هـ ، بعدما تولى حكم البلاد عز الدين أيبك الذى لقب باسم (المعز) . ولكن زوجته ـ شجرة الدر ـ قتلته بمساعدة بعض المماليك سنة ٦٥٥ هـ ، عندما رأته قد مال إلى غيرها من النساء ، فغضب أمراء المماليك ، وخاصة مماليك المعز ـ على شجرة الدر ، ودبروا خطة انتهت بقتلها سنة ٦٥٦ هـ[3] .

وانتقلت السلطنة إلى على بن أيبك ـ بعد مقتل أبيه المعز ـ ولقب بالملك

---

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ٨٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٩١ .

المنصور ، ونظرا لصغر سنه قام بمعاونته سيف الدين قطز ، الذى تمكن بعد مدة قصيرة من الاستيلاء على السلطة سنة ٦٥٨ هـ[1].

ويبدو أنه لم توجد معارضة أمام هذا التصرف من قطز ، لأن الأحداث مكنته من ذلك ، إذ جاءت الأخبار — بعد استيلائه على السلطة ما شهيرة تحمل نبأ هجوم التتار على مصر بعدما دخلوا بغداد وخربوها فأسرع الجيش المصرى بقيادة قطز لصد هؤلاء الطغاة.

والتحم الجيشان فى (عين جالوت) سنة ٦٥٨ هـ[2] ، وصاح قطز " وا إسلاماه — اللهم انصر عبدك قطز على التتار [3] " فكانت صيحة لها أثرها فى القائد وجنوده ، فقاتلوا قتالا عنيفا ، ولم تلبث الحرب أن وضعت أوزارها معلنة انتصار الجيش المصرى على هذا العدو الأثيم ، وفرح المصريون ، بل فرح المسلمون بذلك النصر المبين ، وازينت القاهرة وارتفعت أعلامها ، وخرج الناس يستقبلون الجيش المظفر بقيادة قطز ، إلا أنهم فوجئوا بمن يعلن :

" ترحموا على الملك قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس[4] " .

فدهشوا من هذا الخبر ، ولم يصدقوا ما سمعوا إلا بعدما ثبت لهم فعلا أن الظاهر بيبرس قتل الملك قطز ، عندما رفض أن يوليه إحدى الإمارات — مما أثار مشاعرهم ، وألهب غيظهم على بيبرس ، ولكن ماذا يفعلون ؟ لقد تولى بيبرس حكم البلاد[5] ، وأراد أن يكسب ثقة الناس وينال رضاهم ، فأعاد الخلافة العباسية مرة ثانية إلى الوجود سنة ٦٥٩ هـ بعدما قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ[6] وذلك بتعيين أبى القاسم أحمد خليفة[7] ، مما أدى إلى رضا الناس عنه طول مدة حكمه التى استمرت بضع عشرة سنة (٦٥٩ — ٦٧٦ هـ) كانت كلها نضالا ضد الصليبيين الذين عاودوا هجومهم من حين لآخر ، إلا أن النصر كان حليف بيبرس فى

---

(١) المرجع السابق . (٢) (عين جالوت) ويقال لها : (عين الجالوت) أيضا — بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين : انظر معجم البلدان ج٤ ص١٥٦ .
(٣) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٧ بتصرف . (٤) المرجع السابق ج١ ص ٩٨ ، المقريزى الخطط ج ٢ ص ٢٣٠ طبعة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٨ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٧٥ . (٧) هو : المستنصر بالله ، أحمد بن محمد بن الناصر لدين الله العباسى توفى سنة ٦٦٠ هـ (الأعلام ج ١ ص ٢١١) .

كل معاركه ، وعندما توفى سنة ٦٧٦ هـ . خلفه أبنه (بركة خان) ولكنه كان شابا عابثا ، فاضطر الأمراء إلى خلعه ـ وفى مقدمتهم صهره (قلاوون) وعينوا أخاه الأصغر (سلامش) ملكا ويساعده فى الحكم (قلاوون) نظرا لصغر سنه ، ولكن (قلاوون) لم يلبث أن عزل (سلامش) وتولى حكم البلاد سنة ٦٧٨ هـ (١) وعنى بالاصلاحات الداخلية ، فأقام عدة منشآت ـ على الرغم من وقوفه فى وجه الهجمات الصليبية وغيرها وانتصاره عليها ـ ومن أهم هذه المنشآت : البيمارستان (٢) والمدرسة التى دفن فيها سنة ٦٨٩ هـ .

ولقد أشاد البوصيرى ببعض هذه المنشآت فى قصيدة طويلة (٣) ، ومنها فى وصف مئذنة القبة يقول :

فمئذنة فى الجو تشرق فى الدجى	عليها هدى للعالمين ونور
يمد إليها الحاسد الطرف حسرة	فيرجع عنها الطرف وهو حسير (٤)

ويتحدث عن المدرسة ومكانتها ، بقوله :

مدينة علم ، والمدارس حولها	قرى ، أو نجوم بدرهن منير

والأبيات سهلة المضمون ، سطحية الفكرة ، إلا أنها تشير إلى تأثر الشاعر بالحياة السياسية والاجتماعية فى عصره ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه عندما خرج (الأشرف خليل) بن (قلاوون) ـ لفتح عكا سنة ٦٨٩ هـ (٥) ، رأى البوصيرى فى منامه من يقول : " أخذ المسلمون عكا . . " . فقام من نومه وأنشد :

---

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ١٠١ وما بعدها . (٢) البيمارستان : كلمة فارسية بمعنى (مستشفى) وهى مركبة من (بيمار) بمعنى مريض أو مرضى ، و (ستان) بمعنى مكان انظر أحمد عطية الله ، دائرة المعارف الحديثة ص ٨٤ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١ . وله أيضا القاموس الإسلامى ج ١ ص ٤١٣ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ .

(٣) ديوانه ص ١٠٢ وما بعدها .

(٤) يبدو تأثر الشاعر فى نظمه بألفاظ القرآن الكريم مثل : ((هُدًى لِلْعَالَمِينَ)) سورة آل عمران / ٩٦ و ((يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) الملك / ٤ .

(٥) (عكا) بالألف كما تكتب بالتاء (عكة) ، (بفتح أوله وتشديد ثانيه المفتوح أيضا) ـ اسم بلد على ساحل بحر الشام ـ البحر الأبيض المتوسط الآن ـ من أعمال الأردن ، وهى من أحصن بلاد الساحل ، (معجم البلدان ج ٦ ص ٢٠٥) .

قد أخذ المسلمون عكـــــا
وأشبعوا الكافرين صكـــــا[1]
وساق سلطاننـــا إليهـــم
خيلا تدك الجبال دكـــا

وكان هذا بمثابة البشرى ، إذ لم تلبث الأنباء أن وصلت بانتصار الأشرف على الصليبيين فى (عكا) ولكن أمراء المماليك حقدوا على الأشرف فدبروا مؤامرة انتهت بقتله سنة ٦٩٣ هـ [2] ، فتولى الحكم بعده (بيدرا) لأنه هو الذى نسج خيوط المؤامرة فكوفئ باختياره سلطانا ولقب بالملك الأوحد إلا أن عين الله لاتنام ، فكان جزاؤه من جنس عمله ، إذ قتل على يد الأمير (كتبغا) ، وأسند الحكم بعده إلى محمد بن (قلاوون) الملقب بالناصر [3] ، وكانت مدة حكمه سنة واحدة ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ استأثر (كتبغا) بعدها بالحكم بعد أن قتل منافسه (سنجر الشجاعى) الوزير [4] .

ولكن الأمور لم تسر كما أراد (كتبغا) إذ غضب عليه الشعب بسبب المجاعات التى حدثت ، والأوبئة التى انتشرت [5] ، فانتهز نائبه (لاجين) تلك الظروف وصمم على قتله ، إلا أن (كتبغا) استطاع أن يفر إلى دمشق سنة ٦٩٦ هـ عندما علم بما يحاك ضده ، وبقى بها إلى أن توفى سنة ٧٠٢ هـ [6] وحكم البلاد - بعد فراره - (لاجين) سنة ٦٩٦ هـ ، ولم يستمر فى الحكم طويلا إذ قتله أحد المتآمرين وهو يؤدى صلاة العشاء سنة ٦٩٨ هـ [7] ، وهى السنة التى توفى فيها البوصيرى على أرجح الآراء - كما سيأتى [8] .

الحالة الاقتصاديـــة :

أتسمت الحالة السياسية فى عصر الشاعر بالقلق والاضطراب - كما رأينا - ولعل مما ساعد على ذلك تلك الحروب التى شنها الصليبيون والتتار إلى جانب الفتـــــــن

---

(١) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٢٤ ، ديوان البوصيرى ص ١٣١ .
(٢) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٢٨ .   (٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٧ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣١ .
(٥) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٣١ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ق ٣ ص ٨١٤ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ٣٦ .
(٦) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٣٥ .
(٧) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٨ .
(٨) انظر ص ٥٦ من هذه الرسالة .

والمنازعات بين الأمراء الذين فتك أقواهم بأضعفهم من أجل الاستيلاء على مقاليد الحكم .

ومن البديهي أن مثل هذه الحالة تؤدى — غالبا — إلى حالة اقتصادية سيئة ، نعم كانت هناك فترات انتعاش اقتصادى وخاصة فى عهد بعض الأيوبيين وبعض المماليك ، إلا أن الطابع العام يشير إلى أنها كانت تعيسة بل كانت منحنية فى السوء ، لأن السلاطين انصرفوا عن الاهتمام بمصالح الشعب إلى مصالحهم ، فلم يوفروا له العيش الرغيد ، والحياة الطيبة ، بل إنهم ظلموا الناس بفرض الضرائب الباهظة ، واحتكار أموالهم ، وإهمال شئونهم [1] ، فكان ذلك سببا فى انتشار الفقر والجوع ، واضطر الناس إلى أكل الميتة [2] ، وزاد الأمر سوءا انخفاض منسوب ماء النيل عدة سنوات [3] ، مما ساعد على ارتفاع الأسعار ، وكثرة اللصوص الذين عظم خطرهم ، ولم يتورعوا عن نهب القبور ، وخاصة مشاهد آل البيت [4] .

ومما يندى له الجبين أن بعض المماليك تخلوا عن صفاتهم الحربية ، وانغمسوا فى المفاسد ، واستمرأوا البطالة ، وعاشوا عالة على غيرهم ، حتى وصفوا بأقبح الصفات ، وأخس السمات ، ولذا قال عنهم بعض المؤرخين : .. لم يكن لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ، ويشرهون حتى فى الرغيف [5] .. " ... و ((.. ليس فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب [6] .))

ولقد كان لذلك كله أثر كبير فى حياة الناس ، فانتشرت الرشوة بين الموظفين وكثر السلب والنهب بين المستخدمين ، وتحكموا فى أقوات غيرهم [7] ، ولعل هذا هو الذى دفع البوصيرى إلى الحملة عليهم بمثل قوله [8] :

---

(١) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٦ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٣
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٣ .
(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٦
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ .
(٦) الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .
(٧) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات فى مصر) ص ٢٨ وما بعدها طبعة دار ابن الوليد بمصر سنة ١٩٥٦ .
(٨) ديوانه ص ٢١٨ .

نقدت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم حرا أمينـا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم ، فكأنهم سرقوا المينا

ولم يقف الشاعر عند ذلك الحد ، بل صور أثرهم السيء ، وجشعهم الفظيع بقولـه [1] :

أرى المستخدمين مشوا جميعا على غير الصراط المستقيم
معاشر لو وُلّوا جنات عـدن لصارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم عليها كل شيطان رجيم

وهكذا كانت الحالة الاقتصادية فى ركود تام ، وأصبح الشعب أضيع من الأيتام على مائدة اللئام ، مما أدى إلى عظم الكرب، وانتشار البؤس، وكان نصيب الشاعر ، ـ من ذلك البؤس ـ كبيرا ، فالفقر يلازمه ، والعدم لا يكاد ينفك عنه ، مما دفعه إلى كثرة الشكوى فى كثير من شعره ، ومن ذلك قوله [2] :

ما فى الزمان جـواد يرجى لدفع المظالم
ولا لنيـل مـراد ولا لبذل المكارم

الحالة الاجتماعية :

كان سوء الحالة الاقتصادية سببا من أهم أسباب سوء الحالة الاجتماعية ، ومما زادها سوءا ـ أيضا ـ أن المجتمع فى ذلك العصر كان يتألف من عناصر شتى أهمها [3] : العرب ، والقبط ، واليهود ، والأتراك ، وكانت هذه العناصر تنقسم إلى ثلاث طبقات هى :

طبقة الحكام (ومن عاش فى ركابهم ، من أصحاب النفوذ والسلطان) وهؤلاء ـ على قلتهم ـ استحوذوا على أقوات الشعب، وعاشوا على الثراء الفاحش ، والغنى الممقوت [4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ .
(٣) الخطط جـ ١ ص ٣٦٥ .
(٤) المرجع السابق .

وطبقة الرعية : وهى التى تشمل التجار ، والزراع ، وأرباب الحرف ، وهؤلاء ـ على كثرتهم ـ عانوا شدة الفقر ، وضجوا من البؤس ، ومع ذلك كانوا يكدحون من أجل لقمة عيش تقيم أودهم ، وملبس يوارى سوآتهم على الرغم من الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم ظلما وعدوانا (1) .

وأخيرا طبقة أهل الذمة : من اليهود والنصارى ـ وهؤلاء كانت حالتهم المالية لا بأس بها ، إذ شغلوا مناصب هامة فى الدولة ، كانت تدر عليهم الأموال ، ولكنهم كانوا ينتهزون الفرص لاثارة الشغب والاضطراب ، مثل الحرائق التى أشعلوها فى القاهرة سنة ٦٦٣ هـ (2) ، ويبدو أنهم طغوا وبغوا ، مما جعل السلطان (قلاوون) يصدر مرسوما بعدم استخدام أحد من أهل الذمة سنة ٦٨٩ هـ (3) ، كما يبدو أن مشاحنات نشبت بين الطوائف الثلاث ـ المسلمين ، والنصارى ، واليهود ـ فى ذلك العصر يشير إلى ذلك البوصيرى فى بعض قصائده ، مثل قوله (4) :

يقول المسلمون : لنا حقوق	بها ، ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر	وأن سواهمو هم غاصبونا
وحالت اليهود : بحفظ سبت	لهم مال الطوائف أجمعينا

ومما يؤسف له أن بعض رجال القضاء ، وبعض الفقهاء ، ساروا فى ركاب الأمراء ، ووافقوهم على بعض تصرفاتهم الجائرة تقربا إليهم (5) ، ولعل هذا هو الذى دفع الشاعر إلى أن يحمل عليهم حملة شعواء ، بمثل قوله (6)

---

(1) تاريخ مصر ج ١ ص ٩٦ وما بعدها . (2) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ .
(3) المرجع السابق ج ١ ق ٣ ص ٧٥٣ . (4) ديوانه ص ٢١٨ ، والضمير فى قوله : (بها) يعود إلى مصر التى أشار إليها فى أول القصيدة .
(5) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠١ طبعة دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٣٦٧ هـ .
(6) ديوانه ص ٢١٨ .

تفقهت القضاة ، فخان كل	أمانته ، وسموه الأمينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلما	وصير باطلا حقا مبينا
وما أخشى على أموال مصر	سوى من معشر يتأولونا

والأبيات ـ وإن كانت ضعيفة النسج ـ يصور بعض ما شاع في عصر الشاعر من مفاسد ما جعل بعض الكتاب يعجب بهذه القصيدة [١] . وخاصة قول الشاعر : (وما أخشى .. البيت) وعلق عليه قائلا : " فانظر إلى البيت الأخير من تقديمه مصلحة مصر على كل اعتبار ، فلم يذكر مصلحة تهمه ، وإنما ذكر مصلحة مصر في وقت لم تعرف فيه سوى المصلحة الذاتية ، وهذه من غير شك وشبهة من وثباته لا يسعنا إلا أن ننحنى أمامها إجلالا وإكبارا .. [٢] .

ولم يكن البوصيرى ينقد المستخدمين القريبين منه ، لسوء معاملتهم إياه كما سيأتى [٣] ـ بدليل أنه نقد مستخدمى (أسوان) [٤] مع بعد المسافة بينه وبينهم ، فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ لابد أنه سمع ما وقع على الرعية من أذاهم وظلمهم ، فثارت نفسه ، وجاشت عاطفته ، بقصيدة طويلة ، كشف فيها عن مساوئهم ، ولفت نظر السلطان إليهم ، ومن ذلك قوله : [٥]

انظر بحقك فى أمر الدواوين	فالكل قد غيروا وضع القوانين
اكشف بنفسك (أسوانا) ومن معها	
من الصعيد بلا قوم مساكين	

بل إن الشاعر ليعلن فى صراحة وجرأة ـ فى قصيدة أخرى ـ استعداده لجهاد هؤلاء المستخدمين بنفسه ، إذا نصرته الرعية ، وعاونته ، فيقول [٦] :

وإن تنصرونى قمت فيهم مجاهدا	فإنهم لله أعصى وأكفر

---

(١) المدائح النبوية ص١٧٢ (٢) مقدمة ديوانه ص١٤٠ .
(٣) انظر ص٥٢ من هذه الرسالة . (٤) (أسوان) بضم فسكون ، وورد (سوان) بغير الهمزة وضم السين ـ مدينة كبيرة ونورة فى آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل (معجم البلدان ج١ ص٢٤٨) ، بينها وبين القاهرة ٨٧٩ كم تقريبا .
(٥) ديوانه ص٢١٦ و(بلا) أصلها (بلاء) حذفت الهمزة للوزن .
(٦) المرجع السابق ص١١٢ .

إن شعر البوصيرى — فى الحقيقة — يوضح كثيرا من فساد الإدارة فى عصره ، ويبين جشع الموظفين ، وسوء معاملتهم للشعب ، وبخاصة أنه قد رأى ذلك منهم عن تجربة فاكتوى بنارهم ، وبالطبع ما جرى له جرى لغيره من أفراد الشعب المغلوب على أمره فى ذلك العهد الذى فسدت فيه الأخلاق ، وانهار صرحها ، ولعل مما ساعد على ذلك كثرة الحروب والاضطرابات الاقتصادية والسياسية — كما سبق —

ويبدو أن سلاطين المماليك أرادوا صرف الناس عن التفكير فى شئون الدولة ، فمهدوا لهم طريق الفساد ، مما ساعد على انتشار " عدوى الترف والإسراف بين القادرين من الناس ، وصحب ذلك ما هو محتوم من أمراض اجتماعية ، تتمثل فى أحضان الترف والملذات ، من شرب الخمر ، واعتناق المنكرات ، وفعل الموبقات ، كما شاع الفحش ، وانتشر الدجل[1]. " ومما يؤكد ذلك قول بعض المؤرخين .. " ثم رحلت سنة ٦٦٥ هـ ، فيها أبطل السلطان — بيبرس — ضمان الحشيشة ، وأمر بإحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات ، وكسر ما فيها من الخمور وأراقها ، ومنع الحانات ..[2] " واستطرد ذلك المؤرخ فى ذكر كثير من المفاسد التى أجل بحثى عن ذكرها ، ومن أراد المزيد فعليه بكتب التاريخ التى أرخت لذلك العصر[3] .

الحالة الثقافيـــة :

ولعل مما يثير العجب أن تكون معظم شئون الحياة فى ذلك العصر لا تشرح صدرا ، ولا تسر خاطرا ، وأن تكون الحالة الثقافية على جانب كبير من النهوض والتقدم ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة .. منها :

١ — طغيان جحافل التتار على آفاق الشرق الإسلامى ، ودخولهم بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، ولم يتركوها إلا بعد ما أصبحت قاعا صفصفا ، لا ترى فيها كتابا إلا مزق أو حرق ولا تبحث عن عالم إلا تجده إما قتل وإما شرد[4] ، ومن

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ١ ص ٣٢٠ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٩ .
(٢) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤ ٣ وما بعدها .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٠ وما بعدها .

استطاع الهروب قصد القاهرة التى أصبحت مركزا علميا لنشر الثقافة العربية والإسلامية[1] ومن أشهر هؤلاء العلماء : الصدر البكرى[2] .

٢ – عندما هاجر العلماء من بغداد إلى القاهرة ،وجدوا إخوانهم العلماء من الأندلس[3] قد سبقوهم فرارا من بطش الفرنجة الذى أتى على الأخضر واليابس فى بلادهم ، ومن أشهرهم : ابن مالك النحوى[4] .

٣ – شعر هؤلاء العلماء بأن عليهم واجبا إنسانيا كبيرا يدعوهم إلى إعادة تلك الثروة العلمية التى قضى على معظمها فى بغداد ، وشوهت معالمها فى الأندلس ، فعكفوا على التأليف والتصنيف فى جميع ألوان العلوم والفنون ، مما كان سببا فى ظهور المؤلفات الضخمة التى تعد موسوعات جامعة ، أو دوائر معارف عظيمة القدر ، عالية الشأن ، كما أنهم لم يتركوا كتب العلماء السابقين ، بل أولوها عنايتهم إما بالشرح ، وإما بالتلخيص، وإما بالتنقيح والتهذيب[5] ، وخاصة الكتب القيمة منها .

٤ – تشجيع كثير من الأمراء لهؤلاء العلماء ، وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم ، بل كان منهم من يجالسهم ، مثل الملك العادل ، وابنه الكامل[6]

٥ – تنافس الأمراء وتسابقهم إلى إنشاء كثير من المساجد والمدارس ، وذلك ولوعا بتخليد ذكرهم ، ونشر الجليل من أعمالهم ، كما أنهم حبسوا عليها الأوقاف ، وأجروا الرواتب والإعانات لمدرسيها وطلابها[7]

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٤٥ طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .
(٢) هو : أبو على الحسن محمد النيسابورى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .
(٣) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص ١٢٤ وما بعدها طبعة دار الهلال سنة ١٩٣٦ .
(٤) هو : جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك ،صاحب كتابى التسهيل والكافية فى النحو توفى سنة ٦٧٢ هـ . انظر السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣١٥ مطبعة إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .
(٥) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص ١٢٤ .
(٦) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٠ .
(٧) خطط المقريزى جـ ٣ ص ٣٢٢ وما بعدها .

والحق أن بعض أمراء المماليك كان لهم ميل إلى العلم والعلماء ، وكانوا يتمسكون بالدين ويعظمون أهله ، لأنهم شعروا بأنهم حماة الإسلام ، وأن من واجبهم المحافظة على تراثه ، كما أن بلادهم أصبحت مثوى الفكر الإسلامى ، والثقافة العربية بعد فظائع التتار فى بغداد — ولعل هذا هو الذى دفعهم إلى جعل اللغة الرسمية للبلاد هى : اللغة العربية .

٦ — انتشار حركة التصوف ، وانضمام كثير من المريدين إلى ميدانها الفسيح وخاصة عندما وفد بعض المتصوفين من خارج مصر إليها ، وذلك بسبب المعاملة الطيبة لإخوانهم ، وكان من أظهر رجال التصوف فى ذلك العصر : .

ابن الفارض (١) وأبو الحسن الشاذلى (٢) ، والعز بن عبد السلام (٣) ، والسيد البدوى (٤) وإبراهيم الدسوقى (٥) ، وأبو العباس المرسى (٦) ، وابن عطاء الله السكندرى (٧) وغيرهم كثير .

٧ — كثرة الجدل الدينى بين المسلمين والأقباط واليهود فى ذلك العصر ، ويبدو أن الحركة الصليبية حركت دفائنهم ، وأظهرت مكنون صدورهم ، فانطلق العلماء والشعراء المسلمون يجادلونهم ، ومن خير ما يصور لنا ذلك الجدل الدينى قصيدة البوصيرى اللامية ، التى تمتاز بأسلوبها المنطقى ، وجدلها الممزوج بالسخرية اللاذعة ، والتبكيت الشديد ، ومنها قوله (٨) :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
قوما رأوا بشرا كريما فادّعوا	من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدقته فأكثرت	بالإفك والبهتان فيه القيلا

---

(١) هو : أبو حفص عمر بن على بن المرشد ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفى سنة ٦٣٢ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٦) .

(٢) هو : أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار ولد سنة ٥٩٣ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٨) .

(٣) هو : عبد العزيز بن عبد السلام ولد سنة ٥٧٧ وتوفى سنة ٦٦٠ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٢) .

(٤) هو : أبو الفتيان أحمد بن على بن إبراهيم ولد سنة ٥٩٦ هـ وتوفى سنة ٦٧٥ هـ (المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٩) .

(٥) هو : أبو العينين إبراهيم بن أبى المجد ولد سنة ٦٣٣ هـ وتوفى سنة ٦٧٦ هـ (انظر ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ص ٣٥٠ مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠)

(٦) هو : أبو العباس أحمد بن على المرسى ولد سنة ٦١٦ هـ وتوفى سنة ٦٨٦ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٠) .

(٧) هو : تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندرى ولد سنة ٦٥٩ هـ وتوفى سنة ٧٠٩ (المرجع السابق ج ١ ص ٣٠١) .

(٨) ديوانه ص ١٢٧) .

وقد سماها الشاعر " المخرج " أو "المردود في الرد على النصارى واليهود " وقدم لها بقوله :(١) " رأيت كتب النصارى واليهود مشحونة بما ينكرون من بعث النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها القول بخلاف ما يدعونه من ألوهية عيسى وصلبه .. ".

فعرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك.. " . ولقد أعجب بهذه القصيدة بعض الكتاب فقال عنها : " قد لا نرى في الشعر العربي ـ كله ـ قصيدة جدلية عمد فيها الشاعر إلى القرع بالحجة ، والدفع بالدليل ، وكان نفسه فيها طويلا طول نفس البوصيري ـ .. (٢) ".

وإذا كانت الثقافة قد نهضت في ذلك العصر ، فإن إحياء العلوم كان أكثر من إحياء الآداب (٣) ـ ولعل منشأ ذلك ومرده إلى أن حاجة العصر إلى العلم كانت أكثر من حاجته إلى الأدب ، بالإضافة إلى أن روح الأدب لم تجد سبيلها إلى الملوك والأمراء الذين شغلوا بالحروب الخارجية والفتن الداخلية ، كما كان منهم أعاجم ، لم يتوافر لهم الحس اللغوي ، ولا التذوق الجمالي للشعر ، ومن ثم لم ينصتوا للشعراء ، ولم يعطفوا عليهم ، مما جعلهم يحترفون سدا لحاجتهم ، وحفظا لرمقهم (٤) ، فكان منهم الوراق (٥) ، والجزار (٦) ، والكحّال (٧) وغير ذلك ، ومن هنا .. هانت على كثير من الشعراء صناعة الشعر ، فرك أسلوبه ، وتفه معناه ، وكثر فيه السقط والسخف ، ونجد هذا ظاهرا بوضوح في شعر البوصيري ، فإذا قرأت قوله وهو يصف حال أولاده (٨)

---

(١) المرجع السابق.

(٢) دراسات في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧٧ .

(٥) ممن أطلق عليه هذا اللقب : عمر بن محمد حسن الوراق توفي سنة ٦٩٥ هـ .

(٦) ممن سمي بذلك اللقب : أبو الحسن الجزار جمال الدين يحيى بن عبد العظيم توفي سنة ٦٧٩ هـ .

(٧) ممن عرف بذلك اللقب : شمس الدين محمد بن دانيال توفي سنة ٧١٠ هـ .

(٨) ديوانه ص ١١٨ .

صاموا مع الناس ولكنهـــــم كانوا لمن أبصرهم عـــبرة
وأقبل العيـد ،وما عندهـــم قمح ،ولا خبز ، ولا فطرة

إذا قرأت ذلك الوصف ،ثم تأملت قوله وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم :[1]

هو الحبيب الذى ترجى شفاعتـــه لكل هول من الأهوال مقتحـــم
دعا إلى الله فالمستمسكون بـــــه مستمسكون بحبل غير منفصـــم

يخيل إليك أن القولين لشاعرين مختلفين ، ثم يتملكك العجب ،ويأخـــذك الدهش ، إذا تيقنت أنهما لشاعر واحد ، ولكنه عاش فى عصر كله حروب واضطرابات سياسية ، وأزمات اقتصادية وتفاوت بين الطبقات الاجتماعية ،فانتشرت الفاقـــة ، وعم البؤس بين أفراد الشعب ،ومنهم الشاعر الذى اضطر إلى بث شكواه إلـــى بعض أمراء عصره ، لعله يجد عندهم ما يزيل عسره ، أو يخفف كاهله .

فكان عليه أن يلجأ إلى مثل هذا اللون من الشعر الذى يقرب إلى أفهام الأمـراء الذين لا يطـرب أكثـرهم للشعر الجزل بسبب ضعف عروبتهم .

أما حينما اتجه إلى مدح الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فكان يؤثر الشعر الجزل ، والحكمـة الصادقـة ، والقول الرصين ،لأنه يمدح أفصح العرب ،وصاحب جوامع الكلم ، صلى الله عليه وسلم .

وبعد : .. فلعل هذا التفاوت فى شعر الشاعر أثر من آثـار البيئـــة ، ولعله دليـل صادق على أن الإنسان ابن بيئته ، ودافع قوى إلى الاستمرار فـــى الحديث عن بيئـة الشاعر والإلمام بمعظم نواحيها .

نسبـــه :

اختلف المؤرخون وأصحاب التراجم فى سلسلة نسب البوصيرى بالتقديم والتأخـــير والزيادة والنقصان ، إلا أن معظمهم كاد يتفق على أنه : الشاعر الإمام[2] مـــدّاح

---

(١) المرجع السابق ص١٩٣ وما بعدها .

(٢) خلع عليه ذلك اللقب كثير من الكتاب، وخاصة المحدثون منهم ،ويبدو أن شهرته بمدائحه النبوية كانت السبب فى ذلك . انظر : تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص١٣٠ ، دراســات فى التصوف الإسلامى جـ ٢ ص١١٧ وما بعدها ،ابن حجر الهيثمى : شرح الهمزية ص: ٣ المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٣٠٩ ،الزبيدى : تاج العروس جـ ٣ ص: ٤٩ المطبعـــــة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .

الرسول (عليه الصلاة والسلام) . محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله ابن صنهاج بن هلال الصنهاجي، المكنى بأبي عبد الله، والملقب بشرف الدين[1].

مولده :

ولم يكن مولد الشاعر أسعد حظا من سلسلة نسبه، إذ اختلف فيه المؤرخون كذلك، فمنهم من ذهب إلى أنه ولد في يوم الثلاثاء غرة شوال سنة ٦٠٨ هـ[2] الموافق ٧ من مارس سنة ١٢١٢ م[3]، وذلك في قرية : دلاص (بفتح الدال)[4]، وقيل : (بكسرها[5]) - وهي قرية بصعيد مصر تقع غربي النيل، منها : حسان بن غالب[6] راوي الحديث عن مالك بن أنس[7]، والليث ابن سعد[8] (رضي الله عنهم).

ونشأ في (بوصير) - بكسر الصاد بعدها ياء ساكنة - وتسمى

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤١٢ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١، والدكتور / عبد الحميد يونس بالاشتراك مع غيره : دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١.

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٤، والدكتور إبراهيم عبده بالاشتراك مع غيره : الموسوعة الذهبية جـ ١ ص ٣٥ مطابع الهلال بمصر سنة ١٩٦٣.

(٣) اللواء محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ص ٣٠٤ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١١ هـ.

(٤) معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٦.

(٥) شرح الهمزية ص ٣.

(٦) هو : أبو القاسم حسان بن غالب الدلاصي، توفي سنة ٢٢٣ هـ (معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٦).

(٧) هو : الإمام مالك بن أنس بن مالك، إمام دار الهجرة توفي سنة ١٧٩ هـ على الصحيح (وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٨٤).

(٨) هو : أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن، إمام أهل مصر في الفقه والحديث توفي سنة ١٧٥ هـ. (المرجع السابق ص ٣ ص ٢٨٠)

الآن (بوصير الملق) [1] ، كما تراد عليها الهمزة ،فيقال لها : (أبو صير)[2] — وهى قرية بصعيد مصر ، وتقرب من دلاص . ومنها هبة الله بن على [3] وهاتان القريتان-(دلاص) و (بوصير) تتبعان محافظة بنى سويف ،إحدى محافظات جمهورية مصر العربية .

وذهب بعض المؤرخين إلى أن الشاعر ولد فى (بهشيم) بوزن — تعليم — قرية من أعمال البهنسا ، ونشأ فى (دلاص)[4] سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦٠٨ هـ ، أو سنة ٦١٠ هـ [5] ، وقد ذهب بعض الكتاب إلى أنه ولد فى سنة ٦٩٤ هـ ،وهذا الرأى أشد الآراء غرابة [6] . إلا أن الرأى الأول هو أرجح الآراء ، لأخذ كثير من المؤرخين به . وميل أغلبهم إليه ، ولعل ما يقوى ذلك — أيضا — أن أحد

---

(١) وتسمى أيضا (بوصيرونا) وكانت تسمى قديما (بوصير قوريدس — أو — كوريدس) وقيل : إنها إحدى قرى أربع فى القطر المصرى تسمى بهذا الاسم وهى : بوصير السدر بالقرب من الجيزة ، وبوصير دفنو بالقرب من الفيوم ، وبوصير بنا بالقرب من سمنود التابعة لمحافظة الغربية ، انظر : معجم البلدان جـ ٢ ص٣٠٦ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص١١٧ — وقيل : إن البوصيرات سبع : الأربع السابقة ، وفى مديرية البحيرة قرية درست وبقيت آثارها على سلسلة الجبال المتصلة بالإسكندرية وفى محلها الآن قلعة بوصير ، غربى الإسكندرية ، وفى الصعيد الأعلى بلدة بهذا الاسم فى جهة (قفط) ، وفى القليوبية قرية تسمى بوصير شرقى بركة الحاج ، انظر : محمد أمين : جغرافية مصر ص ٦٢ مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٦ هـ .

(٢) تاج العروس جـ ٣ ص ٤٩ .

(٣) هو : أبو القاسم هبة الله بن على أحد رجال الحديث توفى سنة ٥٩٨ هـ انظر :معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٥٨ بتحقيق أحمد نجاتى ،مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٦ ، الأعلام جـ ٧ ص ١١ .

(٥) المقريزى : المقفى جـ ١ ص ٢٥٠ مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٣٧٢ تاريخ .

(٦) لانفراد قائله به ،مع عدم ذكره المصادر التى استقى منها رأيه كما أنه لم يعاصر الشاعر . انظر : جغرافية مصر ص: ١١٣ .

أبوى الشاعر كان من (دلاص) • وكان الآخر من (بوصير) [1] ، ومنهما نحت الشاعر لنفسه نسبة مركبة فقال : (الدلاصيرى) [2] •

كما قيل له : (الدلاصى) ، ولكنه شهر بالبوصيرى والأبوصيرى والأباصيرى [3] ومن الطريف أن بعض الشعراء أشار إلى ذلك بقوله [4] :

(محمد بن سعيد) جاز منزلة	فى صادق الشعر أعيت كل نحريـر
ميلاده (بدلاص) ثم غادرها	باليمن والأمن تنفيذ المقادير
وقد ترعرع فى (بوصير) بلدته	ومنهما جاء تركيب (الدلاصيرى)
هواتف الحق نادتنا مؤرخة	وحى القبول على لحد (الأباصيرى)

---

(١) لم تحدد المصادر التى ترجمت للشاعر بلدة أبيه وبلدة أمه ، إلا المقريزى الذى قال : إن أباه من بوصير ، وأمه من دلاص ، وتبعه فى ذلك محقق ديوان الشاعر انظر : المقفى ج١ ص ٢٥ ، مقدمة ديوان البوصيرى ص ٤ ، وقد ذهب الزركلى فى كتاب الأعلام ج ٧ ص ١١ إلى عكس ما ذهب إليه المقريزى سابقا •

(٢) المنهل الصافى ج ٣ ص ١٥٨ حيث قال مؤلفه : " إن البوصيرى كان مغرما بمثل هذه المنحوتات حتى لقد سمى كساءه (كساطا) ولما سئل عن سبب ذلك قال : لأننى أرتديه كساء وأفترشه بساطا " وهذا - إن صح - يدل على فقر الشاعر ، كما يشير إلى أنه سمع عن النحت فى لغة العرب مثل قولهم (حوقل) إذا قال : لاحول ولا قوة إلا بالله ، ومن المعلوم أن النحت سماعى ، وليست له قاعدة مطردة إلا فى النسب إلى المركب الإضافى ، فيبنى منه على تركيب كلمة واحدة من اللفظين على وزن (فعلل) - بفتح الفاء وسكون العين وفتح اللام - بأخذ الفاء والعين من كل لفظ ثم ينسب للفظ الجديد مثل (عبشمى) فى عبد شمس • انظر : السيوطى : المزهر ج١ ص ٢٨٥ وما بعدها مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ •

(٣) وشهرته بالأباصيرى مخالفة للنسب القياسى ، لأن بلدته تسمى (بوصير) لا (أباصير) وكذلك شهرته بالأبوصيرى مخالفة للنسب القياسى - أيضا - لأن زيادة الهمزة على (بوصير) بناء على أنها مركبة من (أبو) و (صير) كما ذكر ذلك الزبيدى فى تاج العروس ج ٣ ص ٤٩ ، والنسب إلى المركب الإضافى يكون بحذف صدره والنسب إلى عجزه انظر : ابن عقيل : شرحه على ألفية ابن مالك ص ٤٤٦ طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر سنة ١٩٧٦ •

(٤) محمد كامل عبد العظيم : طراز البردة ج ١ ص ٤٣ مطبعة مصر سنة ١٩٥٧ •

ومهما يكن من شيء فإن الشاعر مصرى المولد والمنشأ ، مغربى الأصل ، إذ أن قبيلة صنهاجة التي ينسب إليها الشاعر توجد ببلاد المغرب ، واختلف النسابون في أمرها أبربرية أم عربية ؟ ولكن ابن خلدون [1] رجح أنها عربية ، ولقد أشار الشاعر إلى مغربيته فى إحدى قصائده بقوله [2] :

وإن كان مثلى مغربيا فما ... فى صحة الأجناس من باس

ولم تذكر كتب التاريخ ــ المعتمدة ــ من الذى قدم من أصول الشاعر من المغرب إلى صعيد مصر إلا أن بعض الكتاب [3] ، زعم أن أبويه هما اللذان قدما ، ولم يشر إلى مصدره فى ذلك، كما أنه لم يكن (معاصرا) للشاعر حتى يكون حجة فى كلامه ، مما جعل بعض الكتاب [4] يقول عن صاحب هذا الرأى :

" .. ولسنا منه على ثقة " .

أسرته :

يبدو أن أسرة الشاعر كانت رقيقة الحال ، متواضعة الشأن ، لم تتميز بشيء عن غالبية الأسر المصرية ــ فى ذلك الوقت ــ حتى يتجه المؤرخون ــ بسبب ذلك الأمر ــ إلى الحديث عن تلك الأسرة ، أو يلفت نظرهم إليها ، ولعل مما يقوى ذلك أنهم اختلفوا فى سلسلة نسب الشاعر ومولده ــ كما سبق ــ هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أن الشاعر لم يتفن فى شعره بمأثرة من مآثر آبائه ، ولو كان لهم ما يستحق الإشارة إليه ، أو الفخر به ، لما تردد فى ذلك، وكيف يتردد ، وهو الذى فخر بشعره مرة ، وعزة نفسه وكرامته مرة أخرى فى بعض قصائده ويشهد بذلك قوله [5] :

وما خلقى مدح اللئيم وإن علت ... به رتبه لا أننى متكبر

ولا أبتغى الدنيا ولا عرضا بها ... بمدحى ، فإنى بالقناعة مكثر

---

(1) هو : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ــ مؤرخ عربى . توفى سنة ٨٠٨ هـ .

(2) ديوانه ص١٢٦ ، وقوله من (باس) أصلها من (بأس) فخففت بتسهيل الهمزة .

(3) ابن الكوهن : جامع الكرامات العلية ص٨١ المطبعة الملاجية بمصر سنة ١٣٤٧هـ .

(4) حامد الأشقر : شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص٦ مطبعة المنيرة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

(5) ديوانه ص١١

ليعلم أغنى العالمين .. أنـــــه	إلى كلمى منه لدنياه أفقـــر
وأبسط وجهى حين يقطب وجهــه	فيحسبانى موسر وهو معسـر
أأنظم هذا الدر فى جيد جاهـــل	وأظلمه ؟ إنى إذا لمبـــذر

نشأته وتعليمـــه :

وليس من المرتقب أن يتحدث المؤرخون عن نشأة البوصيرى وتعليمه ، ولا عن فترة حياته الأولى ، بعد أن رأينا موقفهم من أسرته واختلافهم فى سلسلة نسبه ومولده ، ولعل عذرهم فى ذلك أن الشاعر ولد كما يولد العشرات بـل المئات من فئات الشعب المختلفة الذين يولدون فلا يحس بمولدهم أحد ، كما أن أباه لم يكن أميرا ولا وزيرا ، أو ذا منصب كبير يجعل المؤرخين يشهدون مولد ابنه ، ويكتبون — عن قرب — كيف قضى فترة حياته الأولى وكيف نشأ .

ولكن يمكن القول : إن الشاعر — الذى ولد كما يولد غيره — نشأ كما ينشأ مثله فى ذلك العصر ، فبعد أن شب جسمه ، واشتد عوده ، ذهب إلى كتاب قريته ، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم حفظ القرآن الكريم ، وأحاط ببعض مبادئ الحساب ولما أراد الاستزادة من العلم ذهب إلى القاهرة — مركز الإشعاع العلمى فى ذلك الوقت [1] فتلقى فى مساجدها المتعددة ، ومدارسها المنتشرة كثيرا من العلوم الدينية والعربية وغيرها ، ومن العجيب أن المصـادر التاريخية التى بين يدى — على كثرتها — لم تحدد مسجدا معينا درس فيـه الشاعر ، إلا أن محقق ديوانه ذكر فى مقدمة إحدى قصائده أنه درس فـى مسجد الشيخ عبد الظاهر [2] ، ويبدو أن هذا المسجد كان مغمورا فى ذلك الوقت ، فلم تشر إليه المراجع التاريخية ، ويذكر محقق الديوان قصة تؤكد ذلك ، وهى : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب أمر بتوزيع ثلاثة آلاف دينار على طلاب العلم ، إلا أن مسجد الشيخ عبد الظاهر لم يكن لطلابه نصيب فى ذلك المال ، مما أثار

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠١ (٢) مقدمة الديوان ص ٦ ، وقال محقق الديوان " إنه لم يعثر على أى إشارة إلى هذا المسجد بين الكتب التاريخية " ، ولقد رجعت إلى كثير من الكتب التاريخية فلم أجد أى إشارة إلى هذا المسجد — أيضا — وإنما وجدت إشارة إلى مسجد ابن عبد الظاهر ، وهو مقام بعد عهد الشاعر بمـدة انظر : المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣١٤ .

(٣) ديوانه ص ٢١٢ .

حفيظة الشاعر ، فقال على لسان المسجد قصيدة يعلن فيها سخطه وغضبه ومنها قوله [1] :

ليت شعرى — ما يقتضى حرمانى	دون غيرى ، والألف للرحمن ؟
أترانى لا أستحق لكونى	جامعا شمل قارئى القرآن ؟
أم لكونى فى إثر كل صلاة	بى يدعى لدولة السلطان ؟
وبأى الأسباب يعطى مكان	صدقات السلطان دون مكان ؟

ومن البدهى أنه لن يثور تلك الثورة الشديدة إلا إذا كان ذا نصيب فى هذا المال الذى حرم منه ذلك المسجد ، ولن يكون له نصيب فيه إلا إذا كان من طلبة العلم فيه [2] .

وقيل : إن الشاعر " دخل الأزهر ، وحضر على مشايخ العصر حتى كملت معالمه [3] " .

ولكن بعض الكتاب أنكر ذلك قائلا " .. من الخطأ أن يقال : إنه تعلم بالأزهر ، لأن الأزهر فى هذا الوقت كان مغضى عنه ومكروها من الأيوبيين حكام ذلك الوقت [4] " . وهذا رأى وجيه إلا أنه لا يمنع تعلم الشاعر فى الأزهر الذى فقد مظهره الرسمى فى الدولة الأيوبية ، وعطلت فيه صلاة الجمعة نحو مائة عام تقريبا من سنة ٥٦٧ هـ إلى ٦٦٥ هـ [5] ولكن الدراسة لم تتعطل فيه ، بل ظلت حلقات العلم متصلة ، وإن كانت مصابة بالركود والضعف ، ومما يدل على ذلك ما ذكرته بعض المصادر التاريخية : من أن علماء ممتازين ، درسوا فى الأزهر فى تلك المدة [6] مثل عبد اللطيف البغدادى [7] وغيره .

ويلوح لى من اشتغال البوصيرى بالشعر ، وبلوغه فيه مبلغا لا بأس به ، أنه كان ذا شغف بالأدب ، وإقبال على كتبه ، كما يبدو أن حظه من العلوم الدينية

---

(١) ديوانه ص ٢١٢ . (٢) شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص ١٠
(٣) جامع الكرامات العلية ص ٨١ .
(٤) شرف الدين البوصيرى ص ٩ . (٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ١٦١ .
(٦) دكتور : أحمد عوف : الأزهر فى ألف عام ص ٧٠ مطبعة الأزهر سنة ١٩٧٠ .
(٧) هو : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى ولد سنة ٥٥٥ هـ ، وتوفى سنة ٦٢٩ هـ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٩٠ .

كان متوسطا باستثناء الحديث الذى قالت عنه بعض المصادر : إنه اشتهر بالتعمق فيه[1] ، كما أن نصيبه من العلوم العربية كان متوسطا كذلك ، ويظهر لى أنه لم يصب حظا كبيرا من الدراسة المنظمة بدليل عدم ذكر أحد من المؤرخين ـ الثقات ـ أنه درس أو أفتى على كثرة المدارس فى عهده ، إلا أن بعض الكتاب زعم أن الشاعر : " حضر على مشايخ العصر حتى كملت معالمه ، فأجازوه ، فأفتى ودرس ، وصارت له هيبة عظيمة[2] .. " ، ولما كان صاحب هذا الزعم لم (يعاصر) البوصيرى حتى يكون تأريخه عن قرب لما يؤرخ له من حوادث ، بالإضافة إلى أنه لم يشر إلى مصدره فيما زعمه ـ كل هذا ـ جعل بعض الكتاب يقول عنه : " إنه ممن يكيلون القول جزافا لأبناء هذه الطائفة ـ يقصد الصوفية ـ ويضيف إليهم كل مفخرة متعصبا لهم[3] ، ومهما يكن من شىء فإن إلمام الشاعر بالسيرة النبوية ، وإحاطته بها كان واسعا ، مما ساعده على الإجادة فى مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبدو أنه درس بعناية كبيرة كتب أهل الكتاب فمكنه ذلك من مجادلتهم ، مجادلة قوية ، اتسمت بالفكر السليم ، والمنطق القويم ، المدعم بالنصوص المقدسة ، وقد أشرت ـ فيما سبق ـ إلى أن الشاعر قد ظهر فى عصره الجدل الدينى وأسهم فيه بنصيب كبير[4] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٢٢٨ . ويبدو أن هذا القول قد جانبه الصواب ، لتفرد قائله به ، مع عدم إشارته إلى مصدر ذلك ، ولعل الذى تعمق فى الحديث عالم آخر اشترك مع الشاعر فى اللقب (البوصيرى) وهو : أبو القاسم هبة الله بن على البوصيرى ـ سبق التعريف به فى هامش ص : ٤٥ من هذه الرسالة ـ أمام رقم (٣) ولقد قيل عنه : إنه " تفرد فى زمانه ـ أى فى الحديث ـ " وذكره بعض المؤرخين فى طبقة المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ والمنفردين بعلو الإسناد ، انظر حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) جامع الكرامات العلية ص ٨١ .

(٣) شرف الدين البوصيرى ص ١١ .

(٤) انظر ص ٤١ من هذه الرسالة .

شيوخه وتلاميذه :

ولعل مما يثير الدهشة ، أن المصادر التاريخية – على كثرتها – لم تشر إلى شيوخ البوصيرى الذين نهل من موردهم ، واغترف من بحر علمهم ، وأشارت إلى بعض تلامذته [1] اللهم إلا إشارة خفيفة إلى شيخه فى التصوف فهو الشيخ أبو العباس المرسى تلميذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى [2] – رضى الله عن الجميع. ومن تلامذة البوصيرى : أبو حيان الأندلسى [3] ، وابن سيد الناس [4] ، والعز ابن جماعة [5] ، إلا أن تلمذة هؤلاء الأئمة الأعلام على البوصيرى يثير تساؤلا فى النفس : أمعنى ذلك أن البوصيرى قد بلغ فى العلم مرتبة جعلته أهلا لجلوس هؤلاء الأفذاذ بين يديه ؟ ولعل الأقرب إلى القبول أنهم تتلمذوا عليه فى رواية نوادره وشعره ، وخاصة مدائحه النبوية – التى عرف بالإجادة فيها – ومما يؤكد ذلك أن لأبى حيان الأندلسى بعض القصائد فى المدائح النبوية [6] ، أما العلوم الأخرى – دينية وعربية – فكانوا فيها الأئمة الأعلام الذين لا يشق لهم فيها غبار ، بل يمكن القول : لعل الشاعر أخذ عنهم حظا من تلك العلوم فى أثناء اتصالهم به ، إذ كان ديدن السابقين من علمائنا أن يأخذوا ويعطوا ولا يرون غضاضة فى جلوسهم فى علم إلى من يجلس إليهم فى علم آخر [7] .

عمله :

يبدو أن البوصيرى بعد أن تلقى قدرا من العلم ، ونال قسطا من المعرفة ، دفعته قلة ماله ، ورقة حاله إلى العمل ، فاتجه أول الأمر إلى كتابة شواهد القبور [8] ، معتمدا فى ذلك على حسن خطه [9] ، إلا أن هذا العمل

---

(1) شرح الهمزية ص ٣ وما بعدها ، وطراز البردة ج ١ ص ٢٦ ، ودراسات فى التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٨٥ .

(2) سبق التعريف بهما فى ص : ٤١ من هذه الرسالة ، وانظر الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .

(3) هو : أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطى الأندلسى ، توفى سنة ٧٤٥ هـ (انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩) .

(4) هو : أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى الأندلسى ، توفى سنة ٧٣٤ هـ (المرجع السابق) .

(5) هو : عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن بدر بن جماعة ، توفى سنة ٧٧٣ هـ (فوات الوفيات) ج ٢ ص ١٧٤ .

(6) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٤ ص ٣٠٢ وما بعدها . بتحقيق الشيخ : محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدنى بمصر سنة ١٩٦٧ .

(7) شرف الدين البوصيرى ص ١١ ، ومقدمة ديوان البوصيرى ص ٧ .

(8) مقدمة الديوان ص ١١ .

(9) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨

لم يسد فاقته، ولم يكف حاجته، وخاصة بعد أن تزوج، وأصبح رب أسرة، فاتجه إلى التكسب بالشعر، ما دحا الأمراء والوزراء. وكان ينتهز الفرصة وأثناء مدحهم فيشير فى ذكاء إلى ضيق حالته، وشدة عسرته، مثل قوله:

يا أيها المولى الوزير الذى | أيامه طائعة أمره[1]
إليك نشكو حالنا، إننا | حاشالك ــ من قوم أولى عسرة
فى قلة نحن، ولكن لنا | عائلة فى غاية الكثرة

مما جعل الأمراء والوزراء يعطفون عليه، ويرسلون عطاياهم إليه، إلا أن هذه العطايا ــ التى لم تدم ــ ما كانت لتكفى الشاعر وأسرته، فاضطر إلى البحث عن عمل حكومى ذى راتب يغنيه عن ذل التكسب بالشعر، ويقوم بحاجته، وبعد مدة من البحث عمل الشاعر مباشرا[2] فى بلبيس[3]، وكانت فرحته يوم ذهب إلى عمله، فرحة من عثر على ضالته بعد طول نشدان، إلا أن تلك الفرحة لم تدم، إذ وجد المستخدمين الذين يعملون معه يسرقون الغلال، وينهبون الأموال، ويرتكبون أقبح الأفعال التى يأباها الدين، ولا يرضى عنها رب العالمين، فثارت عاطفته، وانطلق لسانه معبرا عن تلك المفاسد فى قصائد كثيرة[4].

وكما قيل "لكل فعل رد فعل" ــ كان لثورة الشاعر أثر كبير فى الموظفين فكرهوه، واضطهدوه ــ وخاصة من كان منهم من النصارى ــ وانتهزوا فرصة قلة معرفته الحساب الذى هو أصل تقوم عليه وظيفته[5] فأشاعوا أنه لا يصلح للعمل، فلم يزده ذلك إلا استهزاء بهم، والسخرية من معتقداتهم الفاسدة، فأشار إلى ادعائهم التثليث فى قوله:

يغالطنى بعض النصارى جهالة | إذا أوجب الملغى وألغى الموجبا[6]
وما كان من عد الثلاثة واحدا | بأعلم منى بالحساب وأكتبا

---

(١) ديوانه ص ١١٨.   (٢) الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ ــ المباشر هو الذى يأمر بزرع ما علاه النيل، ويصرف ما يحتاج إليه الزراع من البذور فإذا حصد المزروع أخذ منهم ما عليهم من ديون مقابل ما أخذوه من التقاوى وغير ذلك = انظر النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب السفر الثامن ص ٢١٧ وما بعدها ــ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١.   (٣) بلبيس (بكسر الباءين بينهما لام ساكنة) إحدى مدن مديرية الشرقية (معجم البلدان ج١ ص ٦٦٢)   (٤) انظر ص ٣٨ من هذه الرسالة.

(٥) المقفى ج ١ ص ٢٥٠.

(٦) ديوانه ص ٤٩.

ولا شك فى أن مثل هذا الشعر قد أغضب هؤلاء الموظفين ، فبيتوا النيـــة على التخلص من الشاعر بإبعاده عن العمل أو فصله من وظيفته ، وفعلا تـم لهم ما أرادوا ، بعد أن وشوابه إلى رؤسائه فى العمل[1]

ماذا يصنع البوصيرى بعد فصله من العمل ؟ ولو كان الأمر يتعلق بنفسه لهان الخطب ، ولكنه مسئول عن أسرة كثيرة العدد ، مما ضاعف همومه ، فأصبح كما قال :

أصبحت من حملى همومهم على   عرصى ، كأنى حامل الأهرام[2]

ثم فكر الشاعر فى أمره ، وهداه تفكيره إلى العودة من بلبيس إلى القاهرة، لينشئ كُتابا يعلم فيه الأطفال[3] ، ولعله حقق بذلك رغبة كانت فى نفسه ، وأفصح عنها بقوله :

ما زلت أرغب أن أكون معلمـــا   فيكون فضلى مكمل الأعـــلام[4]

لقد كانت حياة الشاعر مشوبة بالهموم ، وزاده همّا أنّ دَخْل الكُتاب لم يـف بحاجته وحاجة زوجته الولود ، ولذلك تمنى أحد أمرين : إمــا أن تكون زوجتـــه عقيمـا ، وإما أن يجد عملا ذا أجر ثابت ، وراتب معلوم ، ويؤكد ذلك قوله :

يــاليتها كانت عقيما يائســـــا   أو ليتنى من جملــة الخـدام[5]

ولما ساءت حالة الشاعر المالية ، لم يجد بدا من أن يلجأ إلى الوزير : الصاحب بهاء الدين[6] ، يستجده ، وشجعـــه على ذلك صديقه : الشيخ شهاب الدين الحلبى[7] ، الذى طلب منه أن ينظم قصيدة يبين فيها حالته ، ثم يرفعهـــا هو ــ إلى مسامع الوزير ، فعلا ، نظم الشاعر قصيدة طويلة .. ومنها قوله :

أيها الصاحب المؤمل أدعـــو   ك دعاء استغاثـــة واستجارة[8]
لا تكلنى إلى سواك فأخيـــا   ر زمانى لا يمنحون (خيـارة)

(١) عبد العليم القبانى : البوصيرى حياته وشعره ص ٢٩ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨
(٢) ديوانه ص ٢٠٧ .
(٣) مقدمة الديوان ص ١١ وما بعدها .
(٤) ديوانه ص ٢٠٦ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) هو : بهاء الدين بن محمد بن سليم الوزير المعروف بابن حنا توفى سنة ٦٧٧ هـ .
(٧) هو : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى ، توفى سنة ٧٢٥ هـ .
(٨) ديوانه ص ٨٥ .

ثم وفّى الصديق بوعده ، فرفعها — القصيدة — إلى الوزير الذى رقّ لحالـه وعمل على تخفيفها ، ويبدو أنه عرض عليه وظيفة الحسبة [١] ، إلا أن الشاعر رفضها ، إما تحرزا من وزرها ، وإما خوفا من عدم القيام بحقوقها ، وخاصة أنه قد كبرت سنه ، يدل على ذلك قوله فى إحدى قصائده يعرض فيها بأحد المحتسبين :

لا تظلمونى وتظلموا الحسبة ... فليس بينى وبينها نسبة [٢]

غيرى فى البيع والشـراء درب ... وليس فى الحالتين لى دربة

إنى امرؤ حرفتى الحساب فلا ... يدخل ريب على فى حسبة

ويبدو أنه عرضت على البوصيرى وظيفة مباشر بالمحلة الكبرى [٣] ، فقبل ذلك العمل ، إلا أنه لم يتخل عن نقد الموظفين لسوء أخلاقهم . وخاصة النصارى منهم . فقطعوا عنه راتبه عدة أشهر ، ذاق خلالها ألم الجوع ، وشدة البؤس ، ولكنه كان ينتهز الفرصة ليهجوهم ، ويكشف عما يدور بخلدهم نحو غيرهم من المسلمين . ومن ذلك قوله :

إن النصارى بالمحلة ودهم ... لو كان جامعها يكون كنيسا [٤]

ولما ضاقوا به ذرعا ، عملوا على نقله إلى بلدة أخرى ، ولكنه شعر بما يدبر له فى الخفاء ، فأرسل إلى بعض أصحابه يستعطفهم قائلا :

إن كان يرضيكم — وحاشا فضلكم — ... غيرى ، فحسبى زلقة الحمام [٥]

إلا أن شوكة الموظفين كانت قوية ، فنقل إلى (سَخا) [٦] ، وكان العمل فى تلك القرية أشد من العمل فى المحلة الكبرى إرهاقا ، مما دعا الشاعر إلى نظم قصيدة يصور فيها مأساته ، ويشير فيها إلى سوء معاملة زوجته له ، بالإضافة

---

(١) الحسبة : وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويقوم من يسند إليه ذلك العمل بالبحث عن المنكرات وتعزير فاعليها وتأديبهم على قدرها كما يحمل الناس على المصالح العامة .. انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٢٠١ . (٢) ديوانه ص ٥٨ ، وواضح ما فى عبارة الشاعر من ألفاظ أشبه بالعامية . (٣) المحلة الكبرى : مدينة مشهورة بالديار المصرية ، وتسمى محلة شرفيون ، وتتبع الآن محافظة الغربية . (معجم البلدان جـ ٧ ص ٣٩٧ بتصرف) (٤) ديوانه ص ٨٣ . (٥) المرجع السابق : ص ٩٧ ويشير الشاعر بقوله : (زلقة الحمام) إلى أن رجله قد أصيبت وهو فى مدينة المحلة الكبرى .

(٦) سَخا : قرية تقع ضمن محافظة كفر الشيخ الآن . انظر (معجم البلدان جـ ٥ ص ٦٤ بتصرف)

إلى بُعده عن أولاده ، ومن ذلك قوله :

من لشيخ ذى علة وعيـــــال	ثقلت ظهره بغير ظهيـــــر (١)
وعتت أمهم علىّ ولجّـــــــت	فى عتو ــ من كبوتى ــ ونفـــور
ونهتنى عن المسير إليهـــــم	شدة البأس من (سخا) فى هجير

ومع هذه الشكوى الصارخة ، لم يجد الشاعر أذنا صاغية ، فسلم أمره إلى الله . وعاد إلى القاهرة ــ تاركا عمله فى (سخا) ــ لكى يعيد تعليم الأطفـــال فى كتاب مرة ثانية (٢) ، ويبدو أن انصراف الشاعر عن عمله ورجوعه إلى القاهـــرة كان مقدمة لخير كثير سيأتيه ، إذ انصرف عن مدح الأمراء والوزراء ، واتجه إلـــى مدح خاتم الأنبياء ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن كيف تمّ له ذلك؟

لقـد تهيأت له أسباب الاتصال بالشيخ أبى العباس المرسى ــ تلميذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى ــ وانتظم فى سلك الصوفية ، بل أصبح يدعو إلـــى التصوف ويؤكد ذلك قصيدته التى يمدح فيها أبا الحسن الشاذلى ومنها قوله :

إن الإمام الشاذلى طريقــــــــه	فى الفضل واضحة لعين المهتدى (٣)
فانقل ولو قدما على آثـــــــاره	فإذا فعلت ، فذاك أخذ باليـــد

وفيها ــ أيضا ــ يقول عن أبى العباس المرسى :

فاصحب أبا العباس أحمد آخذا	يد عـارف بهوى النفوس منجـد

ويبدو أن الشاعر حقق بانتسابه إلى الصوفية ، أمنية كان يتمناها ، وأمـــلا كان يرجوه ، وهو ما يفهم من قوله :

ولو أنى وحدى لكنت مريـــدا	فى رباط أو عابدا فى مغارة (٤)

وربما يسأل القارئ : وكيف عاش الشاعر بعد تصوفه ، مع أن دخل الكتاب ضئيل لا يكفى حاجته ، وحاجة أسرته ؟

(١) ديوانه ص ١٠٧ ، وواضح تأثر الشاعر فى نظمه بقوله تعالى (بَلْ لَجُّوا فى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) سورة الملك / ٢١ .
(٢) الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .
(٣) ديوانه ص ٧٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٩ وما بعدها .

والجواب عن ذلك : يبدو أن الشاعر عندما تصوف ، لزم شيخه أبا العباس ، وأصبح — بذلك — من المقربين إليه ، فجذبت إليه القلوب ، وخاصة عندما ذاعت مدائحه النبوية ، وطار خبرها ، فكان كل ذلك سببا فى توالى هدايا أبناء الطريقة الشاذلية إليه[1] ، بالإضافة إلى دخل الكتاب ، ولعل الشاعر قد خفّت مسئوليته بكبر أولاده — الذين لم تذكر المصادر التاريخية عنهم شيئا — واستقلالهم بطلب الرزق ، فكفوا بذلك والدهم مطالب الحياة ومتاعبها التى لازمته مدة طويلة[2] .

وفـــاة البوصـــيرى :

وكما اختلف المؤرخون فى عام مولد الشاعر[3] ، اختلفوا كذلك فى سنة وفاته ، وهذا أمر غريب حقا ، لأن الاختلاف فى سنة المولد له مبرره ، وخاصة إذا كان المولود من أسرة مغمورة ، لا منصب لها ولا سلطة ، وهذه ظاهرة يلحظها المشتغلون بالدراسات التاريخية ، وهذا ما أشار إليه بعض الكتاب بقوله :

" .. إن معظم .. الأبطال والعظماء فى التاريخ تتصف الأدوار الأولى من سيرهم بالغموض ، وتضارب الآراء ، وعدم التحديد ، وغالبا ما تظل السنة التى يولد فيها البطل أو العظيم موضع حدس وتخمين ، فى حين أن المعول عليه — دائما — هو عام وفاة ذلك البطل أو الكبير ، وذلك لأن الفرد لا يولد بطلا ولا عظيما ، وإنما يولد طفلا صغيرا ضعيفا ، شأنه شأن مئات الأطفال الذين يولدون ... "[4] .

أما الاختلاف فى عام الوفاة فلا مبرر له إلا إذا كان الشخص خامل الذكر ، يعيش بمنأى عن الناس — غالبا — ومع أن البوصيرى لم يكن كذلك — وخاصة فى آخر حياته — نجد المؤرخين وأصحاب التراجم قد اختلفوا فى عام وفاته ، فمنهم من قال : إنه توفى سنة ٦٩٤ هـ[5] ، ومنهم من ذهب إلى أنه توفى سنة ٦٩٥ هـ[6] .

(١) البوصيرى : حياته وشعره ص ٣٩ .   (٢) دراسات فى التصوف الإسلامى ج٢ ص ١٨٦ .
(٣) انظر ص ٤٤ من هذه الرسالة .   (٤) الدكتور : سعيد عاشور : السيد البدوى ص ٣٨ وما بعدها . مطبعة دار مصر للطباعة سنة ١٩٦٦ .
(٥) الموسوعة الذهبية ج١ ص ٥٢ ، شرح الهمزية ص ٤ .
(٦) تاج العروس ج ٣ ص ٤٩ ، المقفى ج١ ص ٢٥٠ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٨ ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢٠ .

ويبدو أن هذا التاريخ هو الراجح ، لاتفاق كثير من المؤرخين عليه[١] ، وبعضهم تردد فقال : إنه توفى سنة ٦٩٦ هـ ، أو سنة ٦٩٧ هـ ، أو سنة ٦٩٨ [٢]هـ ، وإذا كان هذا محتملا ، فقد أغرب من قال : إنه توفى سنة ٧٨١ هـ[٣] .

والغريب - أيضا - أن يختلف المؤرخون فى المكان الذى توفى فيه الشاعر !! إذ قال بعضهم : توفى البوصيرى فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة - ودفن فيها[٤] ولعل ما يؤكد ذلك أن بعض الرحالة ذكر أنه قد زار القاهرة سنة ١٠٧٣ هـ ، وزار قبر البوصيرى[٥] بمقابر الإمام الشافعى[٦] - رضى الله عنه - بالقاهرة .

ويلاحظ أن المصادر التاريخية القديمة التى أشارت إلى البوصيرى ، لم تذكر مكان وفاته ، ما عدا صاحب كتاب المقفى ، الذى أشار إلى أنه توفى بالمارستان المنصورى بالقاهرة - كما سبق[٧] ، وأخذ عنه كل من مؤلفى دائرة المعارف الإسلامية[٨] ، ومؤلفى الموسوعة الميسرة[٩] ، ولكن كثيرا من الكتاب المحدثين[١٠] ذكروا أن البوصيرى دفن فى الإسكندرية[١١] ، فى مسجد يحمل اسمه[١٢] ، وهذا هو المشهور بيننا الآن .

ويبدو أن الذى قال : إن البوصيرى دفن بالقاهرة هو الأقرب إلى

---

(١) انظر المراجع المذكورة أمام رقم (٦) فى هامش الصفحة السابقة من هذه الرسالة .
(٢) المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٥٨ ، الأعلام جـ ٧ ص ١١ .
(٣) جغرافية مصر ص ١١٣ ، وانظر تحليلا لذلك فى هامش ص ٤٥ من هذه الرسالة أمام رقم / ٦ .
(٤) المقفى جـ ١ ص ٢٥٠ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ ، الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .
(٥) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٣٢٨ ، مقدمة الديوان ص ١٦ .
(٦) هو : الإمام محمد بن إدريس الشافعى صاحب المذهب المشهور توفى سنة ٢٠٤ هـ .
(٧) انظر : ص ٢٥٠ (المقفى جـ ١) . (٨) المجلد الرابع ص ٣٢٨ .
(٩) انظر ص ٤٣٦ من تلك الموسوعة .
(١٠) انظر المدائح النبوية هامش ص ١٧١ وفتحى عثمان : الإمام البوصيرى ص ٢٣ مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ وأحمد الإسكندرى ، مع غيره : الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ٣١٢ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٢٤ .
(١١) الإسكندرية : إحدى مدن جمهورية مصر العربية ، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .
(١٢) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٧ ص ٧٠ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٥ .

الصواب[1] ، إذ ليس وجود ضريح فى الإسكندرية ، يحمل اسمه دليلا قاطعا على أنه دفن فيه ، فهناك بعض الأضرحة المقامة وتحمل أسماء بعض الأعلام ، ومع ذلك لم يدفنوا فيها ، ومن ذلك ضريح ابن عطاء الله السكندرى[2] المقام بمدينة الإسكندرية مع أنه قد دفن بسفح جبل المقطم بالقاهرة ، وهذا ما ذكرته كثير من المصادر التى تحدثت عنه[3] والجدير بالذكر أن ابن عطاء الله كان زميلا البوصيرى ، إذ تتلمذ كل منهما فى وقت واحد على أبى العباس المرسى[4] .

ومهما يكن من شىء فإننى أخشى أن يقام ضريح آخر للبوصيرى بقريته (بوصير) ، إذ أعلنت محافظة بنى سويف " أنها أعدت مشروعا لإقامة مسجد جامع ومعهد دينى يضم المراحل الثلاث .. باسم الإمام البوصيرى بقريته (بوصير) تخليدا لذكرى هذا العالم العارف بالله على أن تكون هذه المؤسسة الدينية نواة لفروع جامعة الأزهر بمحافظة بنى سويف[5] .. "

صفاته وأخلاقه :

ذهب واصفوه إلى أنه " .. كان ساخرا من حياته العائلية ، مغرقا فى وصف بؤسها ، سريع الهجاء ، مبالغا فى هجائه ، مكروها .. [6] " ولعل ذلك الوصف يرجع سببه إلى ما أشرت إليه[7] من بؤس الشاعر الشديد ، وفقره المدقع الذى دفعه إلى مر الشكوى ، شارحا لذوى المروءة ما يقاسيه من آلام ، وما يحيط به وبأسرته من جوع وحرمان .

---

(١) السبب فى ترجيح ذلك الرأى أن صاحبه ـ وهو المقريزى ـ أقرب من غيره ـ زمنا ـ إلى عصر البوصيرى ، إذ توفى سنة ٨٤٥ هـ . والكتاب المحدثون لم يذكروا مصادرهم فيما ذهبوا إليه ، ولعلهم اعتمدوا فى ذلك على وجود الضريح . وهذا ليس بحجة قاطعة على وجود صاحبه فيه . (٢) سبق التعريف به فى ص ٤١ من هذه الرسالة . (٣) الخطط التوفيقية جـ ٧ ص ٧٠ والموسوعة الميسرة ص ٢٣ ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠١ . (٤) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٨ .

(٥) انظر صحيفة الأهرام المصرية ص ٦ العدد رقم (٣٢٨٣١) السنة (١٠٢) الصادرة فى ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٦ .

(٦) الموسوعة الميسرة ص ٤٣٦ .

(٧) انظر ص ٥٢ من هذه الرسالة .

ولقد طالت محنته ، فكثرت شكايته التي أثرت في نفسه الشاعرة ، وحسه المرهف ، تأثيرا بليغا ، ويبدو أنه تلمس لبؤسه منفذا ، ولشقائه مستندا ، فلم يجد إلا القدرة الفائقة على الفكاهة الحلوة ، والنادرة المستملحة ذات الطابع المصرى ، التي انتشرت في هذا العصر ، وهي " تدلنا على ما كان يعانيه الأدباء ٠٠ من فاقة وإهمال ، وقلة اكتراث ، لأن مواردهم ضيقة ٠٠ [1]" .

وعلى هذا ٠٠ فلم يكن البوصيرى بدعا في وصف بؤسه وصفا ساخرا ممزوجا بالسخرية والتهكم ، ولعله " رأى أن ذلك أجدى — في استرضاء القلوب ، واستدرار ما في الجيوب ، وإثارة العواطف — من طريق الجد ، لا سيما عند المماليك الذين تقل عليهم الشعر الجزل ، وأساليب العربية العالية [2] ٠٠ " على أن هذا الشعر الدعابى — على إسفافه — سيار بين الناس ، يتفهمه العام والخاص ، في هذا الوقت — ويطربون له فتطير شهرة صاحبه محلقة في كل مكان ، ومن أقوى ما يمثل ذلك ، قصيدته التي أنشدها على لسان (أتانه) التي أخذها منه ناظر الشرقية في ذلك الوقت ٠٠ ومنها قوله :

ما كان ظنى يمعنى أحد	قط — ولكن صاحبى جاهل [3]
أقصى مرادى ، لو كنت في بلدى	أرعى بها في جوانب الساحل
وبعد هذا ، فما يحل لكم أخذى	لأنني من سيدى (حامل)

فهذه الأبيات — على ما فيها من سخف — قد أثمرت ٠٠ فعندما وصلت إلى مسامع ناظر الشرقية ، رد الأتان إلى الشاعر .

ومهما يكن من شيء ، فإن البوصيرى قد شارك في هذا اللون من الشعر شعراء عصره ، ومنهم : البهاء زهير [4] ، الذى يقول — أيضا — على سبيل

---

(١) الدكتور : أحمد الحوفى : الفكاهة في الأدب جـ ١ ص ١١٠ ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .
(٢) البوصيرى الشاعر المصرى ص ٢٥ .

(٣) ديوانه ص ١٨٩ ، ويلاحظ أن الشاعر وضع لفظ (قط) في غير مكانه ، لأنه ظرف لاستغراق الماضى ، لا المستقبل ، انظر : البوصيرى الشاعر المصرى ص ٥٨ ، محمد عبد العزيز النجار : منار السالك إلى أوضح المسالك جـ ١ ها ش ص ٦٢ مطبعة الفجالة الجديدة بمصر غير مؤرخ .

(٤) هو : أبو الفضل زهير بن محمد على المهلبى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

الفكاهة[1] :

لك يا صديقى بغلــــة　　　ليست تساوى خردلــة

تمشى فتحسبها الميو　　　ن على الطريق مشكلــة

أشبهتها ، بل أشبهتـــك كأن بينكما صلــة

هذا من ناحية كثرة شكواه ، أما من ناحية هجائه ، فكان أكثره فى المستخدمين — كما مر بنا — وأقله فى غيرهم ، ولعل منشأ قوته فيه ، وكثرته منه ، ما كان عليه من حدة الطبع ، وجرأة فى قول الحق ، وعدم تهيبه للعواقب ، ولا غرو فهو عربى ، مغربى ، مصرى ، صعيدى ، بالإضافة إلى ضيق صدره بسبب فقره وكثرة أولاده ، وكبر سنه، وتعدد علله[2] ، كل هذا جعله يثور ، ويحتدم غيظه لكل منكر يراه ، وخير مثال لذلك موقفه من سلوك الموظفين ، الــذى كان سببا فى فصله من عمله الأول ، ونقله من عمله الثانى ، كما جعل الموظفين يكرهونه ، وهذا ما يفسر لنا قول شهاب الدين أبى الثناء محمود : " إن البوصيرى كان على غزارة فضلــه ممقوتا ، لإطلاق لسانه فى الناس بكل قبيح ، وذكرهــم بالسوء فى مجالس الأمراء والوزراء[3] .. " .

وإذا كان الهجاء مكروها — غالبا — فإن مثل هذا النوع من الهجاء — هجاء الموظفين — قد مدحه بعض الكتاب ، لأنه بمثابة الشاهد على عيوب الإدارة فى ذلك العهد ، والموضح حال الأسرة المصرية المتوسطة الدخل ، التى تمثلت فى أسرة الشاعر[4] ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن هذا النوع من الشعر قد سلك الشاعر فى زمرة شعراء الشعب — فى هذا العهد — الذين عنوا بآلامه وآماله ، وعبروا عن كل ذلك فى سخرية حينا ، وفى رمز غريب حينا آخر ، وتلك هى وظيفة الشعر الصادق الذى يعكس التيارات التى يموج بها العصر ، والصور التى تزخر بها الحياة .. كما رأى بعض الكتاب أن هذا الشعر برهان على شجاعة البوصيرى ، فى مثل هذا الزمن الذى ندرت فيه شجاعة الشعراء فلم يتناولوا الموظفين أو المسيطرين على شئون الرعية بنقد أو شكوى[5] .

---

(١) ديوانه ص ١٠٥ المطبعة المحمودية بمصر سنة ١٣١٤ هـ .

(٢) شرف الدين البوصيرى الشاعر المصرى ص ٣ .

(٣) المقفى ج ١ ص ٢٥٠ .　　(٤) المدائح النبوية ص ١٧٢ .

(٥) محمود رزق سليم : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٦ مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية سنة ١٩٣٨ .

وأما هجاؤه غير الموظفين ، فهو - على ندرته - يمتاز بدعابته الخفيفة، وظرفه المصرى ، ومن ذلك ما أنشده ردا على أحد الأدباء الذى سخر منه لقصره ونحافته [1]، فقال :

وربّ أديب ذى لسان كمبرد بدا من فم كالكير أو هو كير [2]
إذا ما رآنى عافنى واستقلنى كأنى فى قعر الزجاجة سور [3]

ولا شك فى أن هذا الهجاء " يختلف فى طابعه وخصائصه ومادته عن الهجاء التقليدى .. [4] ". الذى يمتاز بألفاظه المقذعة، وأفكاره القبيحة .

ومهما يكن من شىء " فإن " الهجاء " من الموضوعات التي كثر فيها القول فى هذا العصر ، ولعل اضطراب الحالة الاجتماعية ، وسوء أمور الناس وفقرهم مما دفع إلى ذلك [5] .. " .

وهذا يجعلنى أقول : إن هجاء الشاعر لم يكن متأصلا عنده ، حتى يكون سمة فى خلقه ، أو شيئا فى صفاته ، يشهد لذلك كرمه الذى أشار إليه المؤرخون [6] الذين تحدثوا عنه ، ويؤكد ذلك أيضا اعتزازه بنفسه [7]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر عندما تصوف " .. لبس ثوب التقوى ، فأضحى حسن السيرة ، صادق السريرة [8] ، حتى قيل عنه : " .. كانت تشم منه الرائحة الطيبة فى أثناء سيره فى الطريق ، كما كان يرتدى الملابس الحسنة، منور الشيبة ، بسام الثغر ، طلق الوجه ، جميل اللقاء ، متواضعا ، زاهدا ، ذا عفة ووقار ، تتدلق الناس نحوه مسلمين عليه ، مقبلين يديه ، طالبين منه الدعاء،

---

(١) المقفى ج ١ ص ٢٥٠ (٢) ديوانه ص ١٠٠

(٣) لفظ (سور) أصله (سؤر) فسهلت الهمزة للتخفيف ، ومعناه : ما تبقى من الشراب فى آخر الإناء .

(٤) الدكتور : محمود زغلول سلام : الأدب فى عصر صلاح الدين ص ٢٧٢ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٥٩ . (٥) المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٦) الصفدى : الوافى بالوفيات ج ٣ ص ١١١ - المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣

(٧) مجلة الرسالة العدد (٧٦٤) ، السنة (١٦) ص ٢٢٧ .

(٨) جامع الكرامات العلية ص ٨٢ .

وهذا ـ إن صح ـ يدل على سعة فضل الله « الذى يؤتيه من يشاء ... » والله ذو الفضل العظيم .

شاعريتـــه :

كان البوصيرى شاعرا كبيرا فى عصره [١] ، ولقد فضله ابن سيد النـــاس على الجزار والوراق [٢] ، وشعره فى جملته من الشعر المقبول ، الذى يسلم فيه اللفظ ـ غالبا ـ من الغريب والنافر ، وأسلوبه سهل ـ بصفة عامة ـ ومعانيه جميلة [٣] ولكنها لا تبهر باختراع أو ابتكار ، ومعظمها مستقى من البيئة .

ومن يتصفح ديوانه ، يرى أنه طرق كل الأغراض الشعرية تقريبا ، إلا أن المديح هو الغرض المفضل عنده ، والمستحوذ على معظم شعره كما صرح هو بذلك فى أثناء فخره بنفسه بأنه :

لا ينظم الشعر إلا فى المديح وما غير المديح له سؤل ولا وطـــر [٤]

والملاحظ أن مدائحه تنقسم إلى قسمين :

١ ـ مدائحه فى الأمراء والوزراء ، وهى متوسطة الجودة ، يغلب عليها الطابع الصوفى ، وذلك مثل قوله عن الصاحب بن محمد بن على يمدحه فى قصيدة طويلة ومنها :

وصل النهار بليله فى طاعـــة	وصلاته موصولة بصيـــام [٥]
كحلت بتقوى الله مقلته التى	لم تكتحل أجفانها بمنـــام

فالشاعر يصف ممدوحه بصفات تنطبق على الزهاد والمتصوفة الذين يصلــون نهارهم بليلهم فى طاعة ربهم ، ومما يؤكد ذلك أنه يقارن بين ذلك الممـــدوح وأبى يزيد البسطامى [٦] بقوله فى القصيدة نفسها :

---

(١) دراسات فى التصوف الإسلامى جـ ٢ ص ١٨٧ .
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٢٨ ، وقد سبق التعريف بهؤلاء الأعلام فى ص ٤٢ وص ٥١ من هذه الرسالة .
(٣) الأعلام جـ ٧ ص ١١ بتصرف .
(٤) ديوانه ص ٩٥ . (٥) المرجع السابق ص ٢٠٢ .
(٦) هو : طيفور بن عيسى بن آدم البسطامى ، كان من الزهاد المتصوفين توفـــى سنة ٢٦١ هـ وقيل : غير ذلك (وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢١٣) .

بسم زاد عنك (أبو يزيد) وقد غـدت
ـ مصر ـ مفضلة على بسطام[1]

ومهما يكن من شيء ، فإن الشاعر قد أنشأ هذا النوع من المدائح في بدء حياته ، وكان الدافع الأساسي هو فقره الذى لازمه معظم حياته .

٢ـ مدائحه في الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد بلغ في هذا النوع درجة عالية من الفصاحة والبلاغة ، وطارت شهرته ـ بها ـ في كثير من البلاد ، حتى لقد غطت ـ هذه المدائح ـ على سائر شعره ، وربما ظن بعض الناس أنه لم ينظم إلا في المدائح النبوية ، بينما ديوانه يدل على أنه قال الشعر في أغراض كثيرة : من مدح وهجاء ، وشكوى واستعطاف ودعابة وجدل ديني ، وغير ذلك من الأغراض التقليدية ، ويبدو أن إبداعه في المدائح النبوية هو الذى صرف الناس عن بقية شعره[2] .

ويرجع تفوقه في تلك المدائح ، وبلوغه فيها مبلغا حسنا ، إلى عدة عوامل منها : قوة استعداده لقرض الشعر ، وسلامة طبعه ، وتوفره على العناية بموضوعه[3] وانتظامه في سلك الصوفية على يد شيخه أبى العباس المرسى .

أضف إلى ما سبق أنه مسلم ، يؤمن بالله ، خالق الكون عظيم القدرة ويتجه إليه بالدعاء :

فياسامع الشكوى وياكاشف البلا إذا نزلت في العالمين الشدائد[4]
ويا من يزجي الفلك في البحر لطفه وهن جوار ، بل وهن رواكد

كما أنه يوقن بأن كل شيء خاضع لقدرة الله وإرادته :

وحكمك ماضي في الخلائق نافذ إذا شئت أمرا ليس من كونه بد[5]

---

(١) بسطام : بلدة من أعمال قومس ـ وقيل : إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق . المرجع السابق .
(٢) ماأكتفي بالحديث عن مدائحه النبوية ، لصلتها بموضوع الرسالة ، أما بقية شعره فانظر : مقدمة ديوانه ، شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص ٣٧ وما بعدها ، البوصيرى : حياته وشعره ص ٦٣ وما بعدها .
(٣) شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص ١٧ .
(٤) ديوانه ص ٦٣ .
(٥) المرجع السابق .

وهو يعتز بدينه ، ويشيد بكتاب الله :

الله أكبر إن دين محمـد ... وكتابه أقوى وأقوم قيـلا [1]
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

أضف إلى ذلك كله ، حبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى صرح به فى مثل قوله :

إنى امرؤ قلبى يحب محمـدا ... ويلوم فيه لائما وعذولا [2]
أ أحبه وأمل من ذكرى له ... ليس المحب لمن يحب ملـولا

ولا شك فى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جدير بكل حب ، وحقيق بكل ثناء ، فهو الرحمة المهداة ، والنعمة المرسلة ، وهو الشفيع يوم القيامة :

وما محمد إلا رحمة بعثت ... للعالمين ، وفضل الله مبذول [3]
هو الشفيع إذا كان المعاد غدا ... واشتد للحشر تخويف وتهويل

وإذا كان الشاعر قد أحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قد أحب ـ أيضا ـ آل بيته الأطهار ، يدل على ذلك قوله :

إن المودة فى قربى النبى غنى
لا يستحيل فؤادى عنه تحويـل

ويؤكد ذلك الحب مدحه السيدة (نفيسة [4]) ـ رضى الله عنها ـ فى قصيدة طويلة .. ومنها قوله :

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ . (٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٣) ديوانه ص ١٦٠ .

(٤) هى السيدة : نفيسة بنت أبى الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم جميعا ـ توفيت بمصر سنة ٢٠٨ هـ ، (وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٥٦) .

سليلة خير العالمين (نفيسة) سمت بك أعراق وطابت محاتد [1]
بآبائك الأطهار زينت العلا فحبات عقد المجد منهم فرائد

إن شاعرا هذا مسلكه ، وذلك نهجه ، جدير بأن تمده العناية الإلهية بتوفيق كبير ، وفيض عظيم ، جعله يصرح ببعض ذلك فى قوله — مخاطبا الرسول — صلى الله عليه وسلم :

ولقد حبانى الله فيك محبة قلبى بها إلا عليك شحيح [2]

ولاشك فى أن هذه العوامل قد صقلت تجربة الشاعر الشعرية ، وخاصة فى المدائح النبوية ، فأنشأ فيها قصائد كثيرة امتازت بطولها ، وعرفت بفصاحتها ومن تلك القصائد ، قصيدته التى مطلعها :

أمدائح لى فيك أم تسبيح لولاك ما غفر الذنوب مديح [3]

وقد بلغت تلك القصيدة خمسين بيتا تقريبا .

وكذلك قصيدته المسماة (ذخر المعاد) وهى التى على نهج قصيدة كعب بن زهير المسماة (بانت سعاد) ، وقد بلغت أبياتها نحو مائتى بيت مع العلم بأن قصيدة كعب بلغت ستين بيتا تقريبا [4] ، ولم يكتف البوصيرى بزيادة عدد الأبيات ، بل خالف كعبا فى مطلع قصيدته ، إذ بدأها بلوم نفسه وتقريعها ، لا بالغزل كما فعل كعب ، وأول هذه القصيدة :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول [5]
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلول

وعندما ظهرت بالمدينة المنورة سنة ٦٥٤ هـ نار إثر هزة أرضية ، وصادف أن شبت النار فى المسجد النبوى بسقوط المسرجة [6] أنشأ البوصيرى قصيدة سماها (تقديس الحرم من تدنيس الضرم) ، بلغت أبياتها نيفا وتسعين بيتا ، وأولها :

إلهى على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليت من نعم حد [7]
لك الأمر من قبل الزمان وبعده وما لك قبل كالزمان ، ولا بعد

---

(١) ديوانه ص٥٨ . (٢) المرجع السابق ص٥٥ (٣) المرجع السابق .
(٤) انظر ص٨ من هذه الرسالة — وديوان كعب ص٦ وما بعدها .
(٥) ديوانه ص١٧٢ (٦) تاريخ مصر ج ١ ص ١٠٠
(٧) ديوانه ص٦٣ .

والجدير بالذكر أن تلك المدائح التي ذكرتها قد أنشأها الشاعر قبل أن يحج[1]، وعندما قدر له حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقف أمام القبر الشريف، وأنشد قصيدة، زادت أبياتها على مائة بيت، وأولها:

وافاك بالذنب العظيم المذنب ... خجلا يعنف نفسه ويؤنب[2]

ضاقت مذاهبه عليه فما له ... إلا إلى حرم بطيبة مهرب

وعندما بدأ رحلة العودة من الأراضي الحجازية نظم قصيدة زادت أبياتها على تسعين بيتا، ومطلعها:

أزمعوا البين وشدّوا الركابا ... فاطلب الصبر وخل العتابا[3]

ولما وصل إلى مصر، أنشأ قصيدة بلغ عدد أبياتها أكثر من مائة بيت، ومطلعها:

بمدح المصطفى تحيا القلوب ... وتغتفر الخطايا والذنوب[4]

على أن أطول قصائد الشاعر في المديح النبوي قصيدته (أم القرى في مدح خير الورى) والمشهورة بالهمزية ـ لأن حرف رويها همزة ـ ولقد زادت أبياتها على أربعمائة بيت، وقد اهتم بها العلماء والأدباء فشرحوها ونسجوا على منوالها[5]، وأول تلك القصيدة:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء[6]

لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء

وإذا كانت الهمزية أطول مدائح البوصيري، فإن أروع وأبدع قصائده، تلك القصيدة المسماة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) والمعروفة بالبردة.

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٦.
(٢) ديوانه ص ٤١.
(٣) المرجع السابق ص ٢٩.
(٤) المرجع السابق ص ٣٥.
(٥) انظر حاجي خليفة: كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٢٥، وما بعدها مطبعة العالم بمصر سنة ١٣١١ هـ.
(٦) ديوانه ص ١

إن هذه القصيدة تعد أعظم قصائد الشاعر وأنفسها ، ولذلك غطت شهرتها الآفاق ، وعمت البقاع والأصقاع ، وشغلت كثيرا من العلماء ، والأدباء والباحثين .. إلى يومنا هذا ..

أما لماذا بلغت تلك القصيدة هذه المنزلة الكبيرة في قلوب الناس على اختلاف مشاربهم ، وتنوع اتجاهاتهم ، وتعدد فنونهم ؟ ولماذا أصبحت أشهر من نار على علم ؟ ولماذا إذا تحدث عن المدائح النبوية كانت من أولى القصائد التي تذكر على اللسان ؟ [1] ولماذا أضحت من معالم التعريف بالبوصيري ، فيقال : هو صاحب البردة [2] ؟

إن كل هذه التساؤلات سوف توجد الإجابة عنها في الفصل التالي إن شاء الله.

---

(1) الدكتور : أحمد الشرباصي: الشاعر — سليل المحمديين ص٨٨ — لم تذكر عليه اسم المطبعة ، وطبع ١٩٧٣ . والوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٣١٠ .

(2) تاج العروس جـ٣ ص٤٩ ، حسن المحاضرة جـ١ ص٣١٨ .

الفصل الثانى

دراسة البردة وتحليلها

بعدما تحدثت عن البوصيرى من مهده إلى لحده — فى الفصل السابق — سأتحدث هنا عن البردة ، وذلك بدراستها وتحليلها ، إلا أننى سأمهد لذلك بحديث موجز عن أصل كلمة البردة ، وعن أول قصيدة سميت بذلك ، ثم أبين كيف أطلق ذلك الاسم على قصيدة البوصيرى .

أصل كلمة البردة :

١ — البردة — فى الأصل — كساء أسود مربع تلبسه الأعراب[1] ، وقيل : قطعة من الصوف تتخذ عباءة بالنهار ، وغطاء بالليل ، وتستعمل هكذا منذ العصر الجاهلى[2] وجمعها : برد (بضم الباء وفتح الراء) .

أول قصيدة أطلق عليها البردة :

٢ — ومن المشهور أن أول قصيدة أطلق عليها لفظ البردة ، هى : قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) وهى التى مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعدما عفا عنه[3] . وقد أعجب بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فألقى على كعب بردته ، مكافأة له على تلك القصيدة ، ومن هنا سميت بالبردة .

ويذكر بعض المؤرخين أن كعب بن زهير أخذ البردة وعض عليها بناجذيه ،

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص ٥٤ مادة (برد) المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٨ من هذه الرسالة ، والشيخ إبراهيم الباجورى : حاشية الباجورى على البردة ص ٤ — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٩٥١ .

وحفظها بين عينيه ، وآية ذلك أن معاوية بن أبي سفيان [١] أراد أن يشتريها منه فرفض ، ولما عرض عليه مالا كثيرا أبى ، وذلك حبا فيمن أهداها إليه ، ويقال : إن معاوية استطاع أن يبتاعها من أولاد كعب بعد وفاته [٢] ، وقيل : إن البردة التي حصل عليها معاوية غير البردة التي كانت عند كعب [٣] .

إطلاق لفظ البردة على قصيدة البوصيري :

٣- والبردة - كذلك - اسم عرفت به قصيدة البوصيري التي مطلعها : [٤]

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وإذا كنا قد عرفنا كيف سميت قصيدة كعب بالبردة ، فأولى بنا أن نعرف لماذا أطلق على قصيدة البوصيري لفظ البردة - كذلك - وخاصة أن ناظمها قد خلع عليها اسم " الكواكب الدرية في مدح خير البرية " عندما نظمها [٥] .

٤- يبدو أن سبب تسمية قصيدة البوصيري بالبردة يرجع إلى ما نسبه كثير من المؤرخين والكتاب إلى البوصيري من أنه قال : " كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج [٦] أبطل نصفي .. ففكرت في عمل قصيدتي هذه - أي البردة - فعملتها ، واستشفعت به - أي بالرسول - إلى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت إنشادها ، وبكيت ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت . فرأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فمسح على وجهي - وقيل : على وجهي - بيده المباركة ، وألقى علي بردة ، فانتبهت ، ووجدت في نهضة ، فقمت وخرجت من بيتي ،

---

(١) هو : معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية صحابي جليل ، توفي سنة ٦٠ هـ على الصحيح . انظر : أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٠٩ . (٢) أحمد تيمور : الآثار النبوية ص ١٦ وما بعدها ، طبعة دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، وجرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ٩٤ مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٢ . (٤) هذا هو مطلعها الحقيقي ، أما ما شاع بين الناس من أن مطلعها : الحمد لله منشي الخلق من عدم .·. ثم الصلاة على المختار في القدم فهذا غير صحيح ، وليس من نظم البوصيري ، انظر : ديوانه ص ١٩٠ ، وحاشية الباجوري على البردة ص ٥ . (٥) مقدمة الديوان ص ٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ ، القاموس الإسلامي ص ٢٩٨ .

(٦) الفالج : مرض أشبه بالشلل في هذه الأيام .

ولم أكن أعلمت بذلك أحدا ، فلقيني بعض الفقراء [1] فقال لي : " أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقلت : أي قصيدة تريد ؟ فإني مدحته بقصائد كثيرة ، فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورأيت الرسول يتمايل عند سماعها ، وألقى على من أنشدها بردة " فأعطيته إياها .. وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا ، فاستنسخها ، وحلف أن لا يسمعها إلا قائما حافيا مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته ، ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقي — الموقع — رمد ، أشرف منه على العمى ، فرأى في المنام قائلا يقول له : اذهب إلى الصاحب ، وخذ البردة ، واجعلها على عينيك ، تعافى بإذن الله — (عز وجل) فأتى إلى الصاحب ، وذكر منامه ، فقال الصاحب : ما أعرف عندي من أثر النبي (صلى الله عليه وسلم) بردة ، ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة البردة للبوصيري ، ثم أمر خادمه بأن يفتح صندوق الآثار ، ويأتي بقصيدة البوصيري ، ثم أخذها سعد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعوفي .. " ومن ثم سميت بالبردة ، والله أعلم [2] .

٥ — هذا ما أشارت إليه بعض كتب التاريخ والأدب ، وتحدثت عنه بعض كتب التراجم ، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ، إلا أن مؤلف " كشف الظنون " نسي أن القصة السابقة كانت في المنام : إذ قال مضيفا إلى ما سبق ذكره : " .. فلما استيقظ — أي البوصيري — وجد بدنه صحيحا كله ، ووجد تلك البردة على عاتقه ، ففرح بها ، فخرج [3] .. " فكيف تكون القصة منامية ، وكيف يجد الشاعر البردة على عاتقه ..

---

(١) المراد بالفقراء هنا : الصوفية وهم يطلقون على أنفسهم ذلك الوصف ، انظر دراسات في التصوف الإسلامي جـ ١ ص ٢٩ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤١٧ ، المقفى جـ ١ ص ٢٥٠ ، الوافي بالوفيات جـ ٣ ص ١١٢ دراسات في التصوف الإسلامي جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٣) جـ ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها .

كما ذكر ـ أيضا ـ رواية أخرى تبين سبب تسمية قصيدة البوصيرى بالبردة ، وهى : " .. أن بعض الكبراء أصابه مرض ، فطلب القصيدة .. فجاء بها صاحبها ، وقرأها فشفاه الله (سبحانه وتعالى) من ساعته ، فأعطاه بردة ، ... فسميت تلك القصيدة بالبردة ... [1] " ومعنى ذلك أن هذه القصة كانت يقظة ، وقد انفرد بها صاحب هذا الكتاب .

٦ ـ موقف بعض الكتاب من تلك القصة التى نسبت إلى البوصيرى :

لقد اختلفت آراء الكتاب حول هذه القصة . وأستطيع حصرها فى ثلاثة آراء هى :

أ ـ إنكار ثم إقرار :

أما الرأى الأول فصاحبه الدكتور : زكى مبارك [2] ، ويتلخص فى إنكاره هذه القصة ـ أولا ـ إذ علق عليها بعد ذكرها بقوله : " .. وفى هذه القطعة ـ المراد القصة ـ دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما برئ البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية ـ لا سمح الله ـ ما استغنى بالبردة عن الطبيب .. [3] " ولكنه رجع ـ ثانيا ـ وأجاز وقوعها ، إذ قال فى كتاب آخر : " .. ونرى الآن ـ أن البوصيرى صادق فى رؤياه ، لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم ولا سيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال : إنه وجد فى جسمه نهضة وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن ، يرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المنام ... [4] " .

---

(١) المرجع السابق . (٢) هو : الدكتور : زكى بن عبد السلام بن مبارك ، من كبار الكتاب المشتغلين بالأدب . توفى سنة ١٩٥٢ . (الأعلام جـ ٣ ص ٨١) .

(٣) الدكتور زكى مبارك : الموازنة بين الشعراء ص ١٨١ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٩٣٦ .

(٤) المدائح النبوية هامش ص ١٧٩ .

ب ـ إنكار وإصرار :

وإذا كان الدكتور زكى مبارك قد أنكر وقوع القصة ثم أقرها ، فإن محقق ديوان البوصيرى قد ترجم الرأى الثانى الذى ينفى وقوع تلك القصة ، ويصر على ذلك النفى بقوله : " .. والملاحظ أن عصر البوصيرى كان يزخر بالخرافات ، وكان الصوفية أجمعون يدعون أنهم يرون النبى (صلى الله عليه وسلم) يقظة ومناما ، ويخاطبهم ويخاطبونه .. (١) " ثم ينفى إصابة الشاعر بالفالج ، ذاكرا أنه ـ الشاعر ـ قد أصيب بكسر في ساقه معتمدا في ذلك على بيت من الشعر يخاطب الشاعر فيه بعض أصحابه ، إثر وقوعه في الحمام وكسر ساقه ، وهو فى مدينة المحلة ، فيقول :

ما ضركم جبر الكسير وحسبه ... ما يلتقى فى الجبر من آلام (٢)

ويستشهد محقق الديوان بقول ابن حجر (٣) .. ، عندما ذكر قصة البوصيرى السابقة ، وأردفها بقوله : " .. وقيل إنه ـ البوصيرى ـ اشتد رمده بعد نظمها ، فرأى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى النوم فقرأ عليه شيئا منها ، نفث فى عينيه ، فبرئ لوقته (٤) .. " فقال ـ محقق الديوان ـ : .. " وإذا أخذنا بهذه الرواية انتهينا إلى أن البوصيرى لم يصب بفالج ، وأن ما يقال من أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ألقى عليه بردة لم يحدث (٥) " .

الرد على محقق الديوان :

ولعل مما يثير الدهشة أن يزعم محقق الديوان أن الصوفية أجمعين كانوا يدعون رؤيا النبى (صلى الله عليه وسلم) يقظة ومناما .. بغير أن يذكر دليلا على زعمه ، أو مصدرا لادعائه ، ولا يخفى ما فى زعمه من مبالغة هذا من جهة ، ومن

---

(١) مقدمة الديوان ص٢٧ . (٢) ديوانه ص٢٠١ .
(٣) هو أحمد بن حجر الهيثمى السعدى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ . (الأعلام جـ١ ص٢٢٣)
(٤) شرح الهمزية ص٥ بتصرف .
(٥) مقدمة الديوان ص٢٨ .

جهـة ثانية : أنه اعتمد على نفى إصابة الشاعر بالفالج على كسر ساقه ـ كما صرح بذلك شعره ـ سابقا ـ وأسأل محقق الديوان : هل كسر الساق ينفى الإصابة بالفالج ؟

وخاصة أنك تعترف بأن الشاعر كان مصابا بكثير من الأمراض ، ثم عقبت على ذلك الاعتراف بقولك : " .. فلو كانت البردة تصلح للعلاج من الأمراض لكان الأولى أن يتعالج بها صاحبها ..[1] .. " .

ولا شك فى أن كسر ساق البوصيرى لا يمنع إصابته بالفالج . هذا من ناحية الشاعر ، وأما من ناحية ما ذكره ابن حجر ، فهو مجرد رواية ليست قاطعة فى دلالتها ، إذ تطرق إليها الاحتمال ، ومعلوم أن ما تطرق إليه الاحتمال ، لا يصح به الاستدلال ، والدليل على تطرق الاحتمال إلى تلك الرواية قول شيخ الإسلام : محمد الحفنى[2] تعليقا على ما ذكره ابن حجر : " .. إن الذى رأيته فى كلام غيره ـ ابن حجر ـ أن الذى اشتد رمده غير الناظم ـ فالذى أصابه الرمد سعد الدين الفارقى ـ الموقع ـ ويمكن تعدد الواقعة ، بأن حصل رمد لناظمها فشفى بما ذكره الشارح ، وقد حصل لسعد الدين ، فشفى بوضعها ، فلا منافاة ولا معارضة ..[3] " .

ولعل الأمر قد وضح أمام القارئ ، وظهر له ما فى كلام محقق الديوان من تناقض تارة ، وإلقاء القول كيفما اتفق تارة أخرى ، وفى الحقيقة ، لقد لمست فى آراء محقق الديوان حملا على البوصيرى لا مبرر له ، ولا دليل عليه[4] بل إن ما يؤسف حقا أنه يحمل على غيره من الصوفية ، كما أنه يتهم المسلمين بما هو أبشع وأفظع !! وهل رأيت أبشع من اتهام المسلمين بالهروب من الحرب ضد أعداء الإسلام ؟ وهل سمعت أفظع من هذا الافتراء ؟

---

(١) المرجع السابق .
(٢) هو : محمد بن سالم الحفناوى المعروف بالحفنى توفى سنة ١١٨١ هـ (الأعلام جـ ٧ ص ٤) .
(٣) انظر شرح الهمزية هامش ص ٤ .
(٤) مقدمة الديوان ص ٢١ .

يقول ذلك المحقق ، وهو يتحدث عن الحروب الصليبية :" .. كان المسلمون يهربون من الحرب ، ويرغبون عنها ، وينفرون من حمل السيف ، ولكنهم لا ينفرون من حمل القلم ، ظانين أن الجهاد بالقلم يقوم مقام الجهاد بالسيف .. ومن المسلمين من كان يستبدل بجهاد الأعداء كثرة الصلاة والصيام ودوام الذكر والتسبيح معتقدين أن هذا يقربهم إلى الله زلفى ، ويغنيهم عن متاعب الكفاح ومشاق القتال .. (1) "

وأعتقد أن هذا القول غير مطابق للحقيقة ، ويكفى أن يقرأ القارئ عن جهاد المسلمين بعامة والصوفية بخاصة ضد الصليبيين ، ليتأكد من أن هذا زعم مفترى (2)

جـ - تفويض :

أما الرأى الثالث فأصحاب يفوضون الأمر إلى الله .. يقول بعض الكتاب بعدما ذكر قصة البوصيرى : " .. وبعد فهل كان البوصيرى كاذبا فى دعوى الرؤيا ؟

هذه مسألة يخشى من ينصف نفسه أن يجازف بالحكم فيها على غير ظاهرها وبخاصة أن البوصيرى يعلم " أن من كذب على النبى متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .. "

وليس هناك كذلك ما يمنع من أن يشفى من فالجه بسبب قصيدته .. وقصيدة البردة .. لا تشفى ولا تبرئ من سقم ، فالله (سبحانه وتعالى) هو واهب البرء والشفاء ، ولكن إذا أخلص المريض النية ، واتجه إلى الله بقلب مؤمن ، ودعاء واستشفع بالنبى ... أو بتلاوة القرآن ، أو قراءة البردة ، أو نحوها ، فليس هناك ما يمنع من أن يستجيب الله الدعاء والمريض فى حاجة ماسة إلى مثل هذه المعنوية ، يعين بها طبيبه على علاجه ... (3) " .

---

(1) محمد سيد الكيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ص ٣٥ . مكتبة الفجالة بمصر سنة ١٩٤٩ .

(2) انظر : تاريخ مصر الإسلامية جـ٢ ص ٦٧ ، ١٣٤ ، ٣١٥ ، الدكتور : إبراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٧٢ وما بعدها وص ١٠٣ وما بعدها مطابع دار القلم بمصر سنة ١٩٦٣ .

(3) مجلة الرسالة العدد (٧٩٩) السنة (١٦) - ١٩٤٨ - ص ١٢٠٧ .

رأى الباحث :

إننى أميل إلى هذا الرأى ـ الأخير ـ الذى يفوض الأمر فى صحة القصة أو كذبها إلى الله ، وخاصة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : " من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل [1] " ، ويقول : " إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يرى عينه ما لم تر ، أو يقول على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما لم يقل [2] ".

وإذا كنت قد اخترت هذا الرأى ، فليس معنى ذلك أن القصة مستحيلة الوقوع ، لا .. بل هى جائزة .. والدليل على ذلك يتطلب بيان أمرين :

الأمر الأول: الإجابة عن هذا السؤال : أرؤيا الرسول جائزة شرعا .. أم لا ؟

الأمر الثانى: الإجابة عن هذا السؤال أيضا : أيجوز التداوى بالماديات والمعنويات أم بالماديات فحسب ؟

أما الأمر الأول : وهو رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهى جائزة شرعا لقوله صلى الله عليه وسلم : " من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى " [3] وفى رواية أخرى : " من رآنى فى النوم فقد رآنى ، فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتشبه بى [4] " . وقد أجمع على جوازها الكثير من العلماء والفقهاء ، ويؤكد ذلك قول الإمام النووى [5] ـ معلقا على الحديثين السابقين : " .. إن رؤياه ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحيحة ، ليست بأضغاث ولا من تشبيهات الشيطان [6] " ثم يذكر قول بعض العلماء : " إن الله تعالى خص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن رؤيا الناس إياه صحيحة ، وكلها صدق ، ومنع الشيطان أن يتصور فى خلقه ، لئلا يكذب على لسانه فى النوم [7] ".

---

(١) صحيح البخارى ج / ٩ ص ٥٤ . (٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٢٠
(٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٣ .
(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٤ .
(٥) هو : أبو زكريا محيى الدين أو يحيى بن شرف الدين الملقب بالنووى ، توفى سنة ٦٧٦ هـ
(٦) صحيح مسلم ج ٥ هامش ص ١٢٣ .
(٧) المرجع السابق .

وإذا كان حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عاما ، لم يقصر الرؤيا على قوم محصورين أو على جيل بعينه ، فلا حجة لرأى بعض الكتاب الذين ذهبوا إلى جواز أن تكون رؤيا الرسول مقصورة على صحابته الذين رأوه حيا[1] لأن تخصيص العام بدون مخصص عبث وتكلف ، والواقع يثبت وقوع الرؤيا للصحابة وغيرهم : فمن الصحابة : ابن عباس[2] (رضى الله عنهما) ، الذى نقل عنه : أنه قال : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما يرى النائم ، نصف النهار ، وهو قائم أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى ، يارسول الله : ما هذا الدم ؟ قال : هذا دم الحسين ، لم أزل ألتقطه منذ اليوم .. فوجد - ابن عباس - أن قد قتل الحسين (رضى الله عنه) فى ذلك اليوم[3] .

وأيضا قيل : إن الإمام الحسين (رضى الله عنه) قال : "رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى المنام ، فأمرنى بأمر فأنا فاعل ما أمر (٤) " .

وكذلك قيل : إن أم المؤمنين (السيدة أم سلمة) -[5] رضى الله عنها- قالت " رأيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المنام ، وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت : مالك يارسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين آنفا "[6] .

ولا يحسبن القارئ أن تلك الأخبار من وضع الرواة لخدمة الشيعة - الذين يتشيعون للإمام على وبنيه - لأن هذا مردود بإقرار بعض العلماء الذين رأوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المنام ، وهم من غير الصحابة ، ومنهم الشيخ

---

(١) البوصيرى : حياته وشعره ص١٢٠ .
(٢) هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم الرسول -(صلى الله عليه وسلم) ، توفى سنة ٦٨هـ . وقيل : غير ذلك . انظر : أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٩٠ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣ . الإمام أحمد بن حنبل - مسنده - بتحقيق الدكتور محمد عاشور جـ٢ ص٢ ٤٧ دار الاعتصام بمصر سنة ١٩٧٧ (٤) أسد الغابة جـ٢ ص٤ ٢
(٥) هى السيدة : هند ، وقيل : رملة بنت أبى أمية بن المغيرة - زوج رسول الله، توفيت سنة ٥٩ هجرية على الراجح : المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٨٩ .
(٦) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣ .

أحمد حجاب[1] ، والشيخ محمد خليل الخطيب[2] ، ومن قبلهما الشاعر : محمود سامى البارودى[3] الذى أشار إلى أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المنام وأعطاه عصاه ، وغير هؤلاء كثير ، ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

ولعل هذا القدر كاف للإجابة عن السؤال الأول ، المتعلق برؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أما الأمر الثانى ، وهو العلاج بالماديات والمعنويات : فهو ظاهر ملموس ، لأن الله تعالى خلق الإنسان — فى هذه الحياة — وجعله عرضة للصحة والسقم ، ولكنه أمره بأن يحافظ على صحته قدر وسعه ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: " وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. [4] " بل لقد أمره بالمحافظة على نفسه وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: " .. وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .. [5] " وكل هذا من باب " الوقاية خير من العلاج " ولكن إذا مرض الإنسان فهل يتداوى ؟ نعم : يجب عليه أن يتداوى بأمر الشرع ، ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء [6] " ويؤكد ذلك فى حديث آخر ، بقوله : " لكل داء دواء ، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله (عز وجل[7]) إلا أن فى قول الرسول : " فإذا أصاب دواء الداء .. " إشارة لطيفة إلى الأخذ بالأسباب ، فإذا أراد الله الشفاء وجدت الأسباب ، وصادفت المسببات ، وإذا لم يرد الله الشفاء ، فمهما كان الدواء ، وأيا كان الطبيب ، فلا شفاء ، ولعل فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

---

(1) هو الشيخ : أحمد بن محمد حجاب من علماء الأزهر الشريف ، ولد بإحدى قرى محافظة الشرقية سنة ١٨٩٨م ثم دخل الأزهر ونال شهادة العالمية سنة ١٣٢٧هـ ، ولزم عبادة ربه ولم يلتحق بالوظائف الحكومية ، ذهبت إليه شخصيا للتأكد من رؤياه الرسول ، التى ذكرها فى كتابه العظة والاعتبار ص ٧١ ، ص ٢٠٩ مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٦٩ . فأكد لى وقوع ذلك الأمر له شخصيا أكثر من مرة .

(2) سيأتى التعريف به فى ص ٤١٣ من هذه الرسالة ولقد أشار إلى رؤياه الرسول فى مقدمة قصيدته (بشرى العاشقين) ص ٢ مطبعة الشمراوى بطنطا سنة ١٣٧٧ هـ .

(3) سيأتى التعريف به فى ص ٣٣٧ من هذه الرسالة ، وانظر ص ٤٦ من هذه الرسالة أيضا حيث توجد إشارته إلى رؤياه الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(4) الأعراف / ٣١ .　　　　(5) البقرة / ١٩٥ .

(6) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٥٨ .

(7) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٥١ .

" وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (١) " ما يشير إلى تلك الإشارة اللطيفة ، والملاحظة الدقيقة ، وفى هذا ما يؤكد أن الأمر كله متعلق بإرادة الله ، فإذا تهيأت الأسباب وأراد الله الشفاء ، تحقق .. ، وإذا لم يرد الله لم يتحقق ، تهيأت الأسباب أو لم تتهيأ ، وأعتقد أن هذا أمر لا جدال فيه ، نكم من مريض حار الأطباء فى أمره ، وأصبح علاجه مستحيلا عندهم ، وأضحى موته محققا لديهم ، ولكن أتى شفاؤه من حيث لا يدرى ، ولا عجب لأن من خلق السبب قادر على أن يشفى بغيره وليس هذا الكلام دعوة إلى نبذ الأسباب المادية كأخذ الدواء ، لا ، ولكنه دعوة صريحة إلى الأخذ بالأسباب المادية ، والأسباب المعنوية ، ومن هنا كان الدعاء ، وكم كان للدعاء من أثر !! ألم تر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يعد الجيش ثم يدعو الله أن يرزقه النصر (٢) .

وانظر إلى هذا الرجل الذى جاء إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يشكو وجعا فى جسده منذ أسلم ، فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ضع يدك على الذى تألم من جسدك ، وقل : باسم الله (ثلاثا) ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (٣) " وأعتقد أن فى ذلك الحديث ما يدل دلالة قوية على اتجاه الرسول إلى المعنويات فى العلاج . أما اتجاهه إلى الماديات فتدل عليه قصة ذلك الرجل الذى أتى النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم قال له : إن أخى استطلق بطنه ، فقال رسول الله : اسقه عسلا ، فسقاه ، ثم جاءه ، فقال : إنى سقيته عسلا ، فلم يزده إلا استطلاقا ، فقال له — ثلاث مرات — اسقه عسلا ، ثم جاء الرابعة ، فقال : اسقه عسلا ، فقال : لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا فقال رسول الله : (صلى الله عليه وسلم) صدق الله ، وكذب بطن أخيك ، فسقاه ، فبرئ الرجل (٤) .

ولعل مما يؤكد أهمية العلاج المعنوى مثلا فى الدعاء قول الدكتور الغوابى (٥)

---

(١) الشعراء / ٨٠ .
(٢) حياة محمد ص ٢٦٣ . وما بعدها .
(٣) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٥٠ .
(٤) المرجع السابق جـ ٥ ص ٦٢ .
(٥) هو الدكتور : حامد عبد الرحمن الغوابى ، ولد فى إحدى قرى محافظة الدقهلية سنة ١٩٠٨ ، واشتغل بمهنة الطب حتى توفى سنة ١٩٦٠ . انظر كتابه : بين الطب والإسلام ص ٥ وما بعدها طبعة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

" لو نظرنا إلى الدعاء وأثره فى النفس من الوجهة الطبية ، لوجدنا أنه يتيح للإنسان أن ينفس عن مشاعره فى حضرة الملى القدير ، فيشعر أنه إنما يناجى بدعائه من إذا أراد أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ، فيحس بالهدوء والطمأنينة ، ويشعر أن هناك ملاذا يلوذ به إذ انقطع من الدنيا ملاذه ، فيزيد ذلك قوة نفسه المعنوية ، ويقوى عزيمته ، ويجعله بمنجاة من الأمراض النفسية والعصبية ، ولقد أصبح من أسس العلاج الحديث تقوية الروح المعنوية ، والدعاء من أهم الوسائل لذلك ، إذ هو إيحاء نفسي يجد فيه الداعي لروحه غذاء ، ولنفسه دواء ، يدعم كيانها ، ويقوى بنيانها ، ويجعلها تتغلب على كل ما يثير فيها اليأس أو الضعف [1] ... ".

وبعد هذه السياحة الطويلة ، أرجو أن يكون قد تأكد أن العلاج يكون ماديا يتناول الدواء الذى يصفه الطبيب ، كما يكون معنويا ، بالالتجاء إلى الله ، وقراءة القرآن والصلاة ، ولعل من ذلك - أيضا - مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ما فعله البوصيرى حينما أصيب بالفالج ، وكانت قصيدته - كما قيل - سببا فى شفائه ، إذ رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المنام ، ومسح على وجهه ، وألقى عليه بردة ، كانت سببا فى تسمية تلك القصيدة بالبردة ، إلا أن محقق الديوان ما زال فى شك من ذلك إذ يقول : " ولقد تعود الشاعر أن يطلق على مدائحه النبوية أسماء معينة ، فقصيدة اسمها (ذخر المعاد ..) وثانية اسمها (أم القرى فى مدح خير الورى) . وثالثة اسمها (تقديس الحرم من تدنيس الضرم) وهكذا .. وواضح أن هذه الأسماء لا تخفى وراءها أسرارا ، ولم يقصد بها - الشاعر - أكثر من معناها الظاهر .. " ثم يقول : " أترى سميت البردة بعد الرؤيا التى رآها الشاعر كما ذكرت ، أم سميت البردة لاشتمالها على مناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) - وليس ببعيد حينئذ أن يكون الشاعر قد قصد المعنى المجازى لا أكثر [2] ... ".

ولقد شبه البوصيرى مدائحه النبوية بالبردة ، لأنها حوت محاسن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن ذلك قوله :

حاك من صنعة القريض برودا	لك لم تحك وشيها صنعاء [3]

---

(1) المرجع السابق ص ١٢٧ وما بعدها بتصرف . (2) مقدمة الديوان ص ٢٩ .
(3) ديوانه ص ٢٨ .

بل لقد شبه نفسه بكعب ، ولكعب قصيدة اسمها (البردة) فمن المراجح أن يكون البوصيرى أراد أن تكون له قصيدة تحمل اسم قصيدة كعب وذلك من باب التبرك[1] ".

وهنا يظهر التناقض فى كلام محقق الديوان ، وأسأله : لو أراد الشاعر أن يسمى قصيدته بالبردة تشبها بكعب وتبركا — كما تزعم — لِمَ لَمْ يطلق عليها ذلك بادئ الأمر عندما نظمها ، وأنت تعلم أنه أطلق عليها (الكواكب الدرية فى مدح خير البرية) أولا ، ثم سميت فيما بعد بالبردة ؟

ثم ألم يكن الأولى بهذه التسمية قصيدته التى نهج فيها نهج كعب[2] ؟

أسماء قصيدة البوصيرى :

ومهما يكن من شيء فإن قصيدة البوصيرى التى مطلعها (أمن تذكر جيران .. البيت) والتى أطلق عليها (الكواكب الدرية فى مدح خير البرية) كما أطلق عليها (البردة) ، قد أطلق عليها — أيضا — اسم (البرأة) إشارة إلى أن الشاعر قد برئ من علته بسببها[3] كما عرفت أيضا باسم (قصيدة الشدائد) ؛ لأنها فى زعم بعض الكتاب تقرأ لتفريج الشدائد[4] .

وزنها ورويها :

ولو اطلعت على قصيدة البردة هذه لوجدتها من بحر البسيط التام الذى تتكون تفعيلاته من (مستفعلن فاعلن) ، أربع مرات ولكن الخبن[5] يدخل على (فاعلن) فتصير (مستفعلن فعلن) ، كما أن حرف رويها ميم مكسورة .

عدد أبياتها :

تعددت الآراء حول عدد أبياتها ، فمن الكتّاب من ذهب إلى أنها اثنان وستون ومائة بيت[6] ، ومنهم من قال : إنها واحد وستون ومائة بيت[7] ، ومنهم من زعم أنها : اثنان وثمانون ومائة بيت[8] ، ومنهم من ذكر أنها ستون ومائة بيت[9]

(١) مقدمة الديوان ص ٢٩ . (٢) انظر ص ٦٥ من هذه الرسالة .

(٣) حاشية الباجورى على البردة ص ٤ . (٤) مقدمة الديوان ص ٢٩ والإمام البوصيرى ص ٥٢ .

(٥) الخبن : هو حذف الثانى الساكن . انظر : كامل شاهين — اللباب فى العروض والقافية ص ١١٣ مطابع سجل العرب بمصر سنة ١٩٧٦ .

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٣٠ وما بعدها ، كشف الظنون ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٧) طراز البردة ج ١ ص ٤٧ . (٨) المدائح النبوية ص ١٨٣ .

(٩) البوصيرى : حياته وشعره ص ١٣٢ ، الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٥ .

وهذا هو الصحيح الموافق لما فى الديوان المحقق [1].

ويبدو أن سبب الاختلاف فى عدد أبيات البردة ، هو عدم الرجوع إلى المصادر الأصلية كالديوان المحقق ، ومما ساعد على ذلك أيضا أن تلك القصيدة طبعت منفردة عن الديوان ، وقد زيدت عليها بعض الأبيات [2] التى سوف أنبه عليها فى مواضعها — إن شاء الله .

ولعل ما يثير العجب أن يختلف رأى محقق الديوان فى عدد أبيات البردة ، فذهب فى أحد مؤلفاته إلى أنها اثنان وستون ومائة بيت [3] ، بينما ذهب فى الديوان الذى حققه إلى أنها ستون ومائة بيت [4] ، ولعله ذهب إلى الرأى الأول قبل تحقيقه الديوان ، وإلى الثانى بعد التحقيق [5] إلا أننى كنت أحب أن يشير إلى ما ذهب إليه أولا ، مبينا عدم صحته حتى لا يدع مجالا للشك فى آرائه .

أهم ما اشتملت عليه البردة من أفكار :

والبردة تدور حول عدة أفكار يجمعها غرض واحد هو : مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) . والإشادة برسالته ، وقد بدأ الشاعر قصيدته بالغزل على عادة الشعراء القدامى من العرب ، ثم انتقل إلى الحديث عن النفس وهواها ، والطريق إلى هداها ، وتحدث بعد ذلك عن بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم أشار إلى مولده وما صاحبه من أحداث ، كما تكلم على دعوته وأثرها ، ثم ذكر بعض معجزاته (صلى الله عليه وسلم) ومنها : القرآن الكريم ، والإسراء والمعراج وانتقل إلى الحديث عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأخيرا

---

(١) ديوان البوصيرى ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) من هذه الطبعات : طبعة شركة الشمرلى بمصر (غير مؤرخة) ، طبعة محمد عاطف وشركاه بمصر (غير مؤرخة) وطبعة المطبعة المحمودية التجارية بمصر سنة ١٣٥٦ هـ .

(٣) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ص ٢٤٤ .

(٤) ديوانه ص ١٩٠ وما بعدها .

(٥) وهذا هو الحق لأننى وجدت رأيه الأول فى كتابه (الحروب الصليبية) ص ٢٤٤ . وقد طبع الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ (كما سبق) — أما تحقيقه الديوان فكان فى سنة ١٩٥٥ (وهو ما ذكر فيه رأيه الثانى) ص ١٩٠ .

يختم الشاعر قصيدته بطلب المغفرة من الله ، والطمع في شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد علق بعض الكتاب على هذه الأفكار بقوله : " .. وإذا كانت معظم أفكار القصيدة منثورة في كتب السيرة ، فمن الجدير بالذكر أن الشاعر قد صاغ هذه الأفكار في تركيب جميل ، ومعنى سام ، فأصبحت القصيدة بذلك آية من آيات الفن ، وكوكبا في سماء الإبداع" .(١)

وإذا كان هذا هو رأى بعض الكتاب في القصيدة ، فإن طبيعة البحث العلمي تتطلب دراسة النص وتحليله ، ثم الحكم له أو عليه ، وهذا ما سأقوم به على الصفحات التالية (إن شاء الله) .

يتأجج المحبون شوقا ، ويلتهب العاشقون حبا ، عند تذكرهم أيام أنسهم التي مضت ، ورؤيتهم ديار أحبابهم التي خلت : فيبكون ويستبكون :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان
ورسم عفت آياته منذ أزمان (٢)

بل إن منهم من يتمنى أن تعود تلك الأيام بما كان فيها من صبابة وهيام ، وحب ووئام :

تذكرت أياما لنا ولياليا	مضت ، فجرت من ذكرهن دموع
ألا هل لنا يوما من الدهر أوبة	وهل إلى أرض الحبيب رجوع ؟

ويبدو ـ أول الأمر ـ أن البوصيري سلك هذا المسلك ، ونهج ذلك المنهج في مطلع قصيدته ـ البردة ـ إلا أنه استطاع ـ ببراعته ـ أن يخفي حبه ، ويستر عشقه ، عندما جذب الانتباه ، وشد الأسماع ـ بتخيله شخصا يقف معه ـ كعادة

---

(١) حسين مظلوم : رياض البردة ص أ وما بعدها المطبعة المحمودية بمصر (غير مؤرخ)

(٢) عرفان : ما عرف من علامات الديار . عفت : تغيرت . آيات : (جمع آية) وهي العلامة .

الشعراء — ثم سأله :[1]

أمن تذكر جيران بذى سلـــم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم[2]
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم[3]

لله دره مطلعا !! حرك الفكر بهذا الاستفهام الذى خرج عن معناه الأصلى — طلب الفهم — إلى معنى آخر يطلق عليه علماء البلاغة : تجاهل العارف[4]؛ لأن الشاعر يعلم سبب بكاء صاحبه ، ولكنه تجاهل ذلك ، مبالغة فى إظهار شدة الحيرة ، ثم سأله : ما سبب بكائك الحار ، ودموعك الغزار؟ أهاجتك ذكرى الأحبة ، أم هبت نسمات عطرهم ، أم لمحت نورا — فى ظلام الليل — بزغ من ناحيتهم ، أسال عبرتك ، وأدمى مقلتك ؟

لقد أحسن الشاعر عندما استفهم بالهمزة ، ثم أتى لها بمعادلها أم ، فهى بذلك قد خلصت للتصور[5] ، وهذا ما يتلاءم مع حالة الشاعر ، الذى أدرك دمع مخاطبه فلم يشك فيه ، وإنما شك فى سببه ، ويؤكد ذلك الإتيان بقوله :

---

(١) ديوانه ص ١٩٠ .

(٢) جيران : جمع جار ، بمعنى مجاور ، من الجوار وهو القرب فى المنزل وغيره ، ومن ذلك قول الرسول : (صلى الله عليه وسلم) — " ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " صحيح البخارى جـ ٨ ص ١٢ . ذو سلم : واد ينحدر على الذنائب يقع على طريق البصرة إلى مكة (معجم البلدان جـ ٥ ص ١١٢ باختصار) . الدمع : اسم جنس ، واحده دمعة : وهى ما تقطر من العين . المقلة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض .

(٣) هبت : هاجت . تلقاء : جهة . كاظمة : مكان فى طريق البحرين من البصرة (المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٠٨) أومض : لمع . إضم (بكسر ففتح) واد بجبال تهامة تقع فيه المدينة المنورة على الراجع (المرجع السابق جـ (ص ٢٨١) . والفعلان (هب وأومض) مؤولان بمصدرين معطوفين على (تذكر) ، وإن لم يسبقا بحرف مصدرى ، فذلك جائز فى اللغة ، قال صاحب التوضيح : إن ذلك مطرد فى باب التسوية شاذ فى غيرها . (خالد الأزهرى: التصريح على التوضيح جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر (غير مؤرخ) .

(٤) هو : سوق المعلوم مساق غيره لنكتة . انظر : القزوينى : التلخيص فى علوم البلاغة ، بشرح عبد الرحمن البرقوقى ، ص ٢٨٥ وما بعدها . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٥) هو : إدراك المفرد ، مع كون النسبة معلومة ، انظر : عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز بشرح ، الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٤٢ . مكتبة القاهرة بمصر سنة ١٩٦٩ .

(من تذكر) بعد الهمزة ، وهي لا يليها إلا المشكوك فيه[1] هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فتقديم (من تذكر) على (مزجت) يشعر بأن المقدم يهم الشاعر لأن " العرب يقدمون الذى بيانته أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى .. [2] " .

وإذا تأملت هؤلاء الذين بكى الشاعر من أجلهم ، وجدته قد وصفهم بأنهم (جيران) فلماذا وصفهم بذلك ؟ أللدلالة على شدة قربهم منه ؟ أم لأنه أراد بهم (الأحباب) معبرا بالمعنى المجازى ، فأطلق الملزوم وأراد به اللازم ، ولا شك أن المعنى المجازى أبلغ من المعنى الحقيقى ، لأن الأول كالدعوى بدليلها ، بخلاف الثانى ولذا قال بعض علماء البلاغة : " .. وقد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح .. والمجاز أبدا أبلغ من الحقيقة[3] " .

وثمت نكتة لطيفة فى لفظ (جيران) أيضا ، فلعل الشاعر راعى حقوق الحب وواجب المحبة ، فأشار إلى محبوبه تلويحا لا تصريحا ، ولكن لماذا عبر بالجمع ؟ يبدو أن ذلك كان تعظيما له من جهة ، كقوله تعالى .. " والأرض فرشناها فنعم الماهدون "[4] وللمبالغة فى ستر حبه من جهة ثانية .

ولعلك ترى دموع الشاعر وهى تنهمر بشدة ، يدل على ذلك لفظ (جرى) ويؤكده تنكير لفظ (دمعا) ـ لأن من أغراض التنكير البلاغية : التكثير والتعظيم[5] ـ ويزيده تأكيدا تلك الكناية المفهومة من مزج الدمع بالدم ، وكل هذا يدل على أن هؤلاء الأحباب لهم شأن عظيم عند الشاعر .

ولا يخفى أثر المجاز المرسل لعلاقة الجزئية فى قصر الشاعر جرى الدمع على المقلة ، وهو إنما يجرى من العين ، ولعله ذكر ذلك لاعتقاده أن المقلة أعم جزء فى العين ، وفى ذلك زيادة تأكيد على شدة البكاء ، كما لا يخفى أثر الإيجاز بالحذف فى قول الشاعر : (الظلماء) فهو صفة لموصوف محذوف

---

(١) المرجع السابق هامش ص ١٤٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٩ .
(٤) الذاريات / ٤٨ .
(٥) دلائل الإعجاز ص ٤٤٧ والتلخيص فى علوم البلاغة ص ٦٨ .

والأصل : (الليلة الظلماء) ، وفى عبارة الشاعر موسيقى عذبة منشؤها الجناس[١] بين قوله : (دمع ودم) والتنوين فى قوله :(جيران ، ودمع ، ومقلة) ، إلا أن لفظ (دم) غير مستحسن وخاصة فى مطلع القصيدة[٢] ، كما قيل : إن لفظ (مقلة) يعد حشوا ، لأن الدمع لا يسيل إلا من العين[٣] ، ويبدو أن الشاعر عبر بذلك من باب التأكيد كقولك: سمعته بأذنى ورأيته بعينى ، بالإضافة إلى ضرورة الوزن .

ومهما يكن من شئ ، فإن أول القصيدة رائع العبارة ، بارع الإشارة ، مكن الشاعر من مواصلة حواره مع مخاطبه ، واستمرار سؤاله عن سبب بكائه ، وفى غضون ذلك يشير الشاعر إلى بعض دلائل الحب فى قوله :

فما لعينيك إن قلت : اكففا همتا وما لقلبك إن قلت : استفق يهم[٤]

يبدو أن الشاعر حينما سأل مخاطبه عن سبب بكائه ، ولوح له بتذكر أحبابه ، أنكر ذلك المخاطب حبه ، ولكن هيهات ، لن يجدى الإنكار مع وضوح الآثار ،

فللحب أمارات تشير إليه ، وعلامات تدل عليه ، ومن ذلك : الدمع المنهمر مع ظهور آثار القلب المستعر .

---

(١) هو : تشابه اللفظين فى عدد الحروف ونوعها وهيئتها وترتيبها مع اختلافهما فى المعنى وهذا هو الجناس التام أما هنا فقد اختلف اللفظان فى عدد الحروف أيضا فيسمى ذلك جناسا ناقصا : التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٢) عباس حسن : المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ص ١٥٣ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

(٣) الموازنة بين الشعراء ص ١٨٩ .

(٤) ديوانه ص ١٩٠ اكففا : أمسكا عن البكاء . همتا : من الهمر : وهو الانحدار والسيلان ، والمراد هنا : زادتا فى البكاء . استفق : أفق وارجع إلى رشدك يهم : مضارع هام على وجهه يهيم ، إذا قام به الهيام وهو من المراتب العالية فى الحب ، ويسمى جنون العشق ـ فلا يدرى أين هو .

والملاحظ أن البوصيرى أشار إلى علامتين من علامات الحب وهما : الدمع المنهمر والقلب المستعر — كما سبق — ولكنه ليس أول من أشار إلى ذلك ، بل سبقه غيره من الكتاب والشعراء ، مثل ابن حزم [1] الذى يقول : " .. البكاء من علامات الحب ولكن المحبين يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامل الشؤون ... ومنهم جمود العين ... [2] " ومثل العباس بن الأحنف [3] الذى يقول :

لا جزى الله دمع عينى خيرا	وجزى الله كل خير لسانى [4]
نم دمعى فليس يكتم سرا	ووجدت اللسان ذا كتمان

إلا أنك إذا تأملت قول البوصيرى ، وجدته أحسن أيما إحسان ، إذ جمع دليلين على الحب فى بيت واحد ، بينما لم يشر كل من : ابن حزم والعباس ابن الأحنف إلا إلى دليل واحد ، وهو الدمع ، أضف إلى ذلك أن قول البوصيرى قد اشتمل على استفهام دال على التعجب من حالة ذلك المخاطب الذى يمعن فى الإنكار .

ويبدو أن الشاعر ضاق صدرا بهذا الإنكار ، فعبر تعبيرا موجزا ، تدل عليه هذه الفاء ، وهى تسمى (فاء الفصيحة) ؛ لأنها أفصحت عن كلام مقدر ، والأصل : (إذا كنت تنكر الحب فما لعينيك ..) .

ومهما يكن من شىء ، فبيت البوصيرى : ألفاظه سهلة ، وموسيقاه عذبة ، نشوتها الطباق [5] بين قوله : (اكففا وهمتا) ، وبين قوله : (استفق ويهيم) أضف إلى ذلك ما بين شطرى البيت من تقسيم ، جمل رنينه جذابا ، وتأثيره خلابا .

---

(١) هو : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ، توفى سنة ٤٥٦ هـ .
(٢) ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف بتحقيق : محمد محمد عبد اللطيف — بالاشتراك مع غيره . ص ١٩ بتصرف . مطبعة المدنى بمصر سنة ١٩٧٥ .
(٣) هو : أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود توفى سنة ١٩٢ هـ . (الأعلام ج ٤ ص ٣١) .
(٤) الأغانى ج ٨ ص ٣٥٩ ، القالى : الأمالى ج ١ ص ٢٥٤ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ م مع الاختلاف فى بعض الألفاظ .
(٥) هو : الجمع بين معنيين متقابلين (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٤٨) .

ولا يخفى ما فى عبارة الشاعر من تأكيد ، كان طريقه المجاز المرسل ، إذ أسند الهمى إلى العين ، وذلك لعلاقة المحلية ، فالمراد الدموع والعين محله ، وهو يوحى بغزارة الدمع ، وشدة البكاء .

ومع كل هذا وقع الشاعر فى خطأ صرفى فى قوله : (اكففا) ، إذ فك إدغام المضعف الثلاثى عند إسناده إلى ألف الاثنين ، وهذا مخالف للقواعد الصرفية [1] ، والصواب (كفّا) ، ولعل الشاعر فك الإدغام لضرورة الوزن .

<u>من علامات الحب:</u>

ويبدو أن البوصيرى لم يجد من مخاطبه إلا إمعانا فى الإنكار ، فأكد المعنى السابق ، ولكن فى حكمة بارعة ، وعبارة رائعة ، يوجهها لكل المحبين عن طريق مخاطبه ، وذلك بقوله [2] :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم [3]

لقد صدر الشاعر هذا البيت باستفهام إنكارى مشوب بالتهكم من هذا المخاطب — ومن على شاكلته — الذى يظن أن فى استطاعته كتم غرامه ، وستر هيامه ، مع وجود الدلائل الناطقة ، والبراهين الصادقة على هذا الحب ، ومنها : الدمع المنسكب ، والقلب الملتهب .

وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينمّ عليها مدمع وزفير

ولقد فصّل الشاعر هذا البيت عن سابقه لأنه ذكره على سبيل التأكيد لما سبق ، أو للاستئناف ليكون قاعدة عامة فى عالم المحبين .

---

(١) أحمد الحملاوى : شذا العرف فى فن الصرف ص ٦٠ طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر الطبعة التاسعة عشرة سنة ١٩٧٢ .

(٢) ديوانه ص ١٩٠ .

(٣) الحب : المراد به المحبة وهى " ميل فى القلب يدفع إلى اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع " طوق الحمامة ص ٧ . منكتم : مستتر منسجم : سائل من قول العرب : انسجم الماء . إذا سال . منطرم : مشتعل . من قولهم (أيضا) : انطرمت النار ، إذا اشتعلت .

ولا يخفى أن قوله : (يحسب) يدل على الظن . وفى ذلك دلالة على أن المحب فى حقيقة أمره يعلم أن سره معروف ، وخفىّ أمره مكشوف ، ولكنه ينكر ذلك الحب ، بل يمعن فى النكران ، متوهما أنه يستطيع إخفاءه ، متناسيا أن الهوى غلاب.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويبدو أن الشاعر أراد أن يثير الانتباه فالتفت من الخطاب فى البيت السابق إلى الغيبة هنا بقوله : (الصبّ) . وهذا هو سر الالتفات العام ، ولعل الشاعر أراد — إلى جانب ذلك — أن يشير من طرف خفى إلى أنه لا فائدة فى إنكار الحب الذى لاحت دلائله ، وظهرت براهينه ، وهذا ما يفهم من مدلول لفظ (الصب) ، إذ هو من (صب الماء) لأن المحب لما كان كثير البكاء فكأنه يصب الدمع ، أو من (الصبابة) وهى رقة العشق وحرارته وهذا أقرب.

وحسب هذا البيت أنك إذا أمعنت فى النظر إليه وجدته قولا صادقا ، فى شئون المحبة والهيام ، بعثته التجارب وصدقته الأيام ، مع إيجاز لفظه بالحذف فى قوله : (منسجم ومضطرم) إذ هما فى الأصل وصفان لموصوفين محذوفين والتقدير : (دمع منسجم ، وقلب مضطرم) كما حذف الجار والمجرور من الثانى لدلالة الأول عليه من ناحية ، ولضرورة الوزن من ناحية ثانية ، والأصل (مضطرم منه).

وفى البيت تأكيد بأنّ والجملة الاسمية ، تطلبه مقام إمعان المخاطب فى الإنكار ومع كل هذا .. لم يسلم الشاعر من الخطأ الصرفى فى قوله : (منكتم) ، لأنه كما قال بعض الكتاب [1] : لم يوجد فى معاجم اللغة — المعتمدة [2] — هذا اللفظ ، إذ لا يصح أن يصاغ من (كتم) (انكتم) على سبيل المطاوعة ، لأنه لا يدل على علاج كما ذكر ذلك الصرفيون [3] والصواب : مكتتم ، وهو مساو (لمنكتم) فى الوزن إلا أن صاحب كتاب " أقرب الموارد " ذهب إلى أن (انكتم الشيء مطاوع كتم) [4]

---

(١) شرف الدين البوصيرى (الشاعر المصرى) ص ٤٤ .

(٢) انظر لسان العرب ج ١٥ ص ٤٠٩ ، وتاج العروس ج ٩ ص ٣٨ .

(٣) شذا العرف فى فن الصرف ص ٤٤ . (٤) سعيد الخورى : أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد ج ٢ ص ١٠٦٦ مطبعة مرسلى اليسوعية — بيروت سنة ١٨٨٩ .

ولكنه لم يذكر دليلا على ذلك من كلام العرب .

ولا عجب إذا رأينا المخاطب ينكر حبه ، ويصر على إنكاره ،فهذا من سمات المحبين . ومن لوازم الحب ، يقول ابن حزم : "إن من صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر .. " بل إن الكتمان أو الإنكار " من دلائل الوفاء وكرم الطبع " يدعو إليه " تصاون المحب أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس . أو إبقاء المحب على محبوبته .. أو توقي المحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب[1] .. " .

ومع كل هذا يواصل البوصيرى الإتيان بالدليل بعد الدليل على حب مخاطبه ، لكى يعترف بحبه ، ويبوح بسره ،فيقول له [2] :

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل   ولا أرقت لذكر البان والعلم[3]

نعم ، لولا حبك وغرامك ، وعشقك وهيامك ، ما سكبت كل هذه الدموع ، وحرمت جسمك لذة الهجوع ، لمجرد رؤيتك هذه الأماكن ،ووقوفك على تلك المنازل .

والبيت — كما ترى — مفصول عن سابقه : لأنه تأكيد له ،وقد جذب الشاعر الانتباه بالتفاتة من الغيبة — فى البيت السابق — إلى الخطاب — هنا — كأنه أراد أن يواجه مخاطبه بهذا الأمر ، الواضح الأثر ، المؤكد بالدليل ، ولا شك فى أن الحديث المباشر ، أشد وقعا من غيره فى النفس .

---

(١) طوق الحمامة ص ٣٩ .

(٢) ديوانه ص ١٩٠ .

(٣) الهوى : (بالقصر) مصدر : هوى (بفتح أوله وآخره مع كسر وسطه) ، إذا أحب . لم ترق : لم تسكب . طلل : ما بقى من آثار الديار مرتفعا . أرقت : سهرت . البان : شجر طيب الرائحة واحده (بانة) . العَلَم : يطلق على معان كثيرة منها : الجبل والرمح والمراد بالبان والعلم هنا : موضعان بالحجاز . انظر معجم البلدان : جـ٢ ص ٥٠٢ ،جـ٦ ص ٢١٠ . وقيل : يحتمل أن الشاعر أراد بهما هنا التشبيه أى تشبيه المحبوب بهما فى طيب الرائحة وحسن الهيئة وطول القامة — انظر حاشية الباجورى على البردة ص : ٩ — ولكن الرأى الأول أرجح ، لمناسبة ذكره .

وإذا كان الشاعر — فى الأبيات السابقة — قد ذكر من علامات الحب : الدمع المنسكب ، والقلب الملتهب ، فإنه أكد ذلك أيضا فى هذا البيت ، ثم زاد علامة ثالثة هى : الأرق ، وقد سبقه إلى ذلك شعراء وكتاب كثيرون ، فمن الشعراء : عمر بن أبى ربيعة [١] الذى يقول :

أرقت ولم أملك لهذا الهوى ردا
وأورثنى حبى وكتمانه جهدا [٢]
كتمت الهوى حتى برانى وشفنى
وعزيت قلبا لا صبورا ولا جلدا

ومن الكتاب : ابن حزم الذى يقول : " .. والسهر من أعراض المحبين [٣] ... " .

ولا يخفى ما فى بيت البوصيرى من موسيقى هادئة ، كان مصدرها الجناس الشبيه بالمشتق [٤] بين قوله : (لم ترق وأرقت) ، بالإضافه إلى التنوين فى قوله : (دمعا) ، ويبدو أن الشاعر نكره إشارة إلى غزارته ، بينما نكّر (طللا) إشارة إلى قلة شأنه ، ومع هذا الحوار الطريف ، وإقامة الأدلة على حب المخاطب ، لم يعترف المخاطب بحبه !! ، وكيف يعترف ، والمتيم بالهوى لضنين . ويبدو أن ذلك الإنكار والتمادى فيه أثّر فى نفس الشاعر ، وتستطيع أن تلمس هذا الأثر فى قوله [٥] :

---

(١) هو : أبو الخطاب عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة القرشى شاعر مصرى توفى سنة ٩٣ هـ انظر وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١١١ .   (٢) عمر بن أبى ربيعة : ديوانه بشرح محمد العنانى ص ١٥٢ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .   (٣) طوق الحمامة ص ١٧ .

(٤) هو أن يجمع بين اللفظين ما يشبه الاشتقاق (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٩٢) .

(٥) ديوانه ص ١٩٠ . ذكر بعض الكتاب بيتا بعد البيت السابق ونسبه إلى الشاعر وهو :

ولا أعارتك لونى عبرة وضنى   ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم

ويبدو أنه ليس من نظم الشاعر ، لأنه : غير مذكور فى ديوانه المحقق كما أنه ضعيف العبارة ، بالإضافة إلى أن فكرته قد أشار إليها البوصيرى فى قوله : (وأثبت الوجد ... البيت) انظر حاشية الباجورى على البردة ص ٩ . أعارتك : أعطتك على سبيل العارية ، وهى ما يعطى ثم يسترد . العبرة : (بفتح العين وسكون الباء) المراد الدموع . الضنى : الضعف والهزال .

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت — به عليك عدول الدمع والسقم (١)
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى — مثل البهار على خديك والعنم (٢)

إنك إذا أمعنت فى النظر إلى عبارة الشاعر وجدت صدره قد ضاق ، وغيظه قد اشتد ، بتكرار إنكار مخاطبه ، بل بإمعانه فى هذا الإنكار ، مع وجود الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة على حبه ، ومما يؤكد حالة الشاعر النفسية هذه (الفاء) التى تسمى " فاء الفصيحة " لأنها تفصح عن كلام مقدر ـ والأصل : (إذا وجدت الدلائل الواضحة الدالة على حبك فكيف تنكر ..) ففى التعبير إيجاز بالحذف ناسب حالة الشاعر ، ويؤكد ذلك أيضا : هذا الاستفهام التعجبى المشوب بالإنكار (فكيف) .

ولقد اختار الشاعر ألفاظا موحية بالمراد مثل : (تنكر) وفى ذلك إشارة إلى أن المخاطب يعلم الحقيقة ، ولكنه يحاول إخفاءها ، ولعل فى تنكير لفظ (حبا) ما يشير إلى أن ذلك الحب قد عظم أمره ، وشاع خبره .

ولا يخفى أثر إسناد الشهادة إلى شهود عدول فذلك أمكن فى إثبات المراد لأن الشهود عدول فلا محل للطعن فى شهادتهم ، وفى هذا الإسناد استعارة تصريحية تبعية ، أكدت المعنى وزادته وضوحا ، أضف إلى ذلك هذا المجاز العقلى فى إسناد الإثبات إلى الوجد ، وذلك من قبيل الإسناد إلى السبب .

وتتأكد تلك الصورة التى رسمها الشاعر بهذا الوصف الرائع ، والتصوير البديع ، إذ شبه خطى العبرة بالعنم فى الحمرة ، وأثر الضنى بالبهار فى الصفرة ، إلا أنه قد سبق فى هذا التشبيه ، إذ أشار إلى ذلك ابن حزم

---

(١) تنكر : تجحد . شهدت : أخبرت . عدول : (جمع عدل بمعنى عادل)
والمراد هنا بالجمع المثنى بدليل ما بعده أو أن الجمع على بابه والمراد بالدمع الدموع ، وبالسقم : الأسقام .
(٢) الوجد : الحزن مطلقا أو بسبب الحب . خطى : مثنى خط . البهار : ورد أصفر اللون ، طيب الرائحة . العنم : شجر له أغصان حمر . وقيل : ورد أحمر يشبه به البنان المخضوب .

فى قوله : " .. ولا بد لكل محب صادق المودة ، ممنوع الوصل — إما بهجر وإما بكتمان — من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والتحول ، وربما أضجعه ذلك .. [١] " ، كما أشار إلى ذلك أيضا عمر بن أبى ربيعة فى البيتين السابقين [٢] .

كان الشاعر موفقا فى ألفاظه ، مشرقا فى عبارته ، ساعده على ذلك تشبيه المعنوى بالمحسوس — مما وضح المعنى وقرره ، أضف إلى ذلك هذا اللون البديعى الممتع : اللف والنشر المشوش [٣] فى قوله : (عبرة وضنى) ثم قوله بعد ذلك : (البهار والعنم) ، إن كل هذا جعل سؤال الشاعر موجها لمخاطبه فى صورة قوية مفحمة : كيف تنكر حبا قد شهد به عليك شاهدا عدل هما : دمعك المنحدر ، وضعفك المنتشر ، أليس كل ذلك دليلا على حبك وهيامك ، وعشقك وغرامك ؟

وأثبت ما يكون الأمر يوما بلا شك إذا وضح الدليل

ولذلك لم يجد المخاطب أمامه إلا الإقرار .. قائلا [٤] :

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى

والحب يعترض اللذات بالألم [٥]

لقد غُلب المخاطب على أمره ، فاعترف بحبه ، ولكنه يحاول أن لا يعترف بكل شىء ، ولذلك أخفى اسم محبوبه ، الذى عبر عنه باسم الموصول (من) وهذا التعبير يشير إلى تعظيم المحبوب بإبهامه ، كما أن قوله : (فأرقنى) يدل على سرعة تأثر المخاطب بخيال ذلك المحبوب، تلمح ذلك فى هذه الفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب.

---

(١) طوق الحمامة ص ١١١ (٢) انظر ص ٩٠ من هذه الرسالة .

(٣) هو ذكر متعدد على التفصيل والإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه . وسمى مشوشا ، لأن النشر أتى على غير ترتيب اللف . (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٦١ وما بعدها) .

(٤) ديوان البوصيرى ص ١٩٠ .

(٥) سرى : السير بالليل . الطيف : خيال المحبوب . يعترض : يحول أو يدفع . اللذات : جمع لذة وهى ما يُتنعم به ، والمراد هنا : ما كان فيه من النوم وغيره .

وإذا كان الشاعر قد وفق فى اختيار ألفاظ تناسب مقام أسف المخاطب وحزنه وضيق صدره ، فقد كان أكثر توفيقا فى هذه الحكمة الصادقة ، التى يُعرف قدرها فى عالم الحب والمحبين (والحب يعترض اللذات بالألم) بالإضافة إلى ما فيها من تشخيص وإيحاء يبطل أثر الحب ونتيجته .

لوم واعتذار :

ولما باح المخاطب بمكنون سره ، واعترف بخفى أمره ، استشعر من يلومه ، فقال :[1]

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة
منى إليك ولو أنصفت لم تلم[2]

عدتك حالى لا سرى بمستتر
عن الوشاة ، ولا دائى بمنحسم[3]

يامن تلومنى على هذا الحب العفيف ، والهوى الشريف ، اعذرنى ولا تعذلنى ، لأنك لم تذق طعم الهوى ، ولم تحس بألم الجوى :

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى
وإذا عشقت فبعد ذلك عنف

وأرجو ألا تُبتلى بما ابتليت به ، من سر قد ظهر وفشا ، وداء قد وصل إلى الحشا .

لقد صدر الشاعر قوله بنداء يشعر بالاستعطاف وقبول العذر (يالائمى) كما يدل على

---

(١) ديوان البوصيرى ص ١٩٠ .

(٢) اللائم : العاذل . الهوى العذرى : الحب الشديد المفرط المتيم ، نسبة إلى بنى عذرة — بضم العين — وهى قبيلة معروفة باليمن ، نزحت إلى بلاد الشام ، شمال شبه الجزيرة العربية ، عرف رجالها برقة القلب ، ونساؤها بفرط العفاف ، ويؤدى بهم العشق إلى الموت ، لصدقهم فى حبهم العفيف ، وأصبح الغزل العذرى — اصطلاحا يطلق على كل شعر يصف عاطفة الحب الصادق ، وإن لم يكن أصحاب هذه العاطفة من (بنى عذرة) . انظر : الدكتور محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٣ ومابعدها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ . معذرة : مصدر عذرته إذا صفحت عنه ومحوت إساءته ، وتطلق أيضا على ما يدفع به الإنسان عن نفسه ما عيب عليه فعله .

(٣) عدتك حالى : جاوزتك حالى فلم تبتل بمثلها ، كما تقول لغيرك " لا أراك الله حالى " وعلى هذا فالجملة دعائية ، ويحتمل أن تكون الجملة خبرية ، والمراد : الإخبار بأن حالته قد جاوزته ولم يصب بمثلها ، كما يجوز أن يكون معنى =

بُعد ما بين الشاعر والمخاطب فالأول يلوم والثاني يعتذر ، ويبرر حبه بأنه حب عذري ، أي حب عفيف ، أوَحُب قد استولى على القلب ، ومن شأنه أن يقبل عذر صاحبه لإحاطته به إحاطة الظرف بالمظروف — وهذا ما يشير إليه لفظ (في) — كما أن دخولها على (الهوى المذرى) يجعل الوقوع في الهوى ظرفا للملامة لأنه سببها ، فكأنه معشها ، كما في قوله تعالى " ولكم في القصاص حياة .. [1] ".

إن المخاطب حزين ، وماله لا يحزن ، وقد حاول كتمان حبه ففشل ، ولما اعترف به ، تعرض للوم ، فضاقت عليه نفسه ، بدلك على هذا دعاؤه للائمه بأن لا يرى ما هو فيه من أسى ولوعة ، وداء عضال لا يبرأ (عدتك حالى ..) ، فالبيت الثاني مسبب عن البيت الأول ، ولذلك فصل عنه .

ولا يخفى ما في تكرار حرف النفى (لا) من تأكيد ، بالإضافة إلى زيادة (الباء) أيضا في قوله : (بمستتر — بمنحسم) ، وموسيقى البيتين موحية بحالة المخاطب وساعد على ذلك اختيار لفظى (يالائمى ،ولم تلم) إنضيما لون بديعي يسمى رد العجز على الصدر [2] ، كما أن في قوله : (المذرى ومعذرة) جناسا شبيهها بالمشتق ونشأ عن تكرار حروفهما وقع موسيقى أضفى على التعبير لون الحزن ،وأكده مفهوم قوله : (لا سرى بمستتر ، ولا دائى بمنحسم) إذا تآلفت الكلمات وتعانقت فأخرجت لنا صورة شعورية مؤثرة ، تدركها القلوب ، وتتأثر بها المشاعر

= (عدتك حالى) تعدت إليك أي وصلت إليك ، والمراد بالحال : ما عليه الإنسان من خير أو شر ، انظر حاشية الباجوري على البردة ص ٦١ . السر : ما يكتمه الشخص عن غيره ، الوشاة : (جمع واش) وهو الذي يشي الحديث أي يزينه ويزخرفه للإفساد بين المحبين ، وهو من آفات الحب كما ذكر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة ص ٥٨ . الداء : المرض . منحسم : منقطع (١) البقرة / ١٧٩

(٢) أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر الثاني (التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٩٢) .

إرشاد وإعراض :

ولما كان اللوم في الحب معدودا من الحسد ، قال الشاعر لمخاطبه : أنا لا ألومك ، ولكني أهدي إليك نصحي ، فرد عليه المخاطب قائلا : (١)

محضتني النصح لكن لست أسمعه
إن المحب عن العذال في صمم (٢)
إني اتهمت نصيح الشيب في عذل
والشيب أبعد في نصح عن التهم (٣)

نعم : أخلصت لي نصحك ، وأهديت إلى إرشادك ، ولكن - من عظم محبتي ، وشدة صبابتي - لن أسمع نصح ناصح (لكن لست أسمعه) .

ولقد فصل بين الشطر الأول والشطر الثاني من البيت الأول لأن الشطر الثاني إجابة عن سؤال مقدر ، أثاره الشطر الأول والأصل : إذا كنت قد اعترفت بخالص نصحي لك ، فلماذا لم تسمعه وتعمل به ؟ فكان الجواب : (إن المحب عن العذال في صمم) . وفي هذا الجواب تلميح إلى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - " حبك الشيء يعمي ويصم (٤) " كما أن فيه اعترافا صريحا بالحب ، ولا يخفى ما في قوله : (في صمم) من مبالغة ، لأنه لم يرد منه المعنى اللغوي وهو عدم السمع ، وإنما أراد أنه لا يعير عاذله أدنى اهتمام ، أضف إلى ذلك أن التعبير (بفي) يدل على أن الصمم محيط بالمخاطب إحاطة الظرف بمظروفه ، وفي ذلك زيادة تأكيد للمعنى المراد ، ولفظ (محضتني) يشير إلى نزاهة الشاعر عن الإفساد ، كما أن لفظ (النصح) يدل على أنه أراد بالمخاطب خيرا ، لأن النصح لا يكون غالبا إلا فيما يفيد ، فالألفاظ مناسبة للمعنى ، ملائمة للفكرة .

---

(١) ديوانه ص ١٩٠ . (٢) محضتني النصح : أخلصته لي . العذل : (جمع عاذل) وهو اللائم في الحب . الصمم : ضعف في قوة السمع .

(٣) اتهمت : من التهمة وهي الحمل على غير المقصود ، وإضافة (نصيح) إلى (الشيب) للبيان ، أي نصيحا هو الشيب ، أو من إضافة الصفة للموصوف ، أي شيبًا ناصحا ، ونصحه يكون بلسان حاله القائل لصاحبه : استعد فقد أزف الرحيل ، لمقابلة الملك الجليل .

(٤) عبد الرحمن الشيباني : تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ص ٦٥ مطبعة محمد علي صبيح بمصر سنة ١٩٦٣ .

ولقد أراد المخاطب أن يذكر دليلا آخر يبرر به عدم سماعه نصح الناصح مهما كان خالصا ، فأتى بالبيت الثانى مؤكدا ومبينا البيت الأول ولذلك فصله عنه ، كما صدره (بإن) زيادة فى التأكيد قائلا : إنى اتهمت كل ناصح حتى الشيب الذى هو أبعد النصحاء عن الشك والريبة ، لأنه جزء متصل بجسد الإنسان ، وينذر - غالبا - بقرب الأجل ، ويحذر من طول الأمل ، ومع ذلك تماديت فى اتهامه ، إذ الحب سلطان جبار ، وسيف بتار .

وفى البيت أكثر من مؤكد ، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره ، تجد لفظ (نصيح) صيغة مبالغة ، لا يخفى ما فيها من زيادة تأكيد ، كما أن إضافتها إلى الشيب زاد الأمر بيانا ووضوحا - كما كرر لفظ الشيب واضعا المظهر موضع المضمر إشارة إلى بيان خطره ، وعظم قدره .

ولقد ختم الشاعر هذا البيت بقوله صادق حكيم :- " والشيب أبعد فى نصح عن التهم " - اتسم بوضوح معناه مع إيجاز لفظه ، إذ حذف منه المفضل عليه والأصل (.. أبعد فى نصح عن التهم منك أو من أى ناصح آخر مهما كان شأنه) وفى البيت من المحسنات البديعية رد العجز على الصدر فى قوله : (اتهمت - التهم) ولا يخفى أثره فى تأكيد المراد .

وهكذا استطاع البوصيرى أن يصور لنا صورة حية لما يجرى فى عالم المحبين من ظهور علامات حبهم ، ودلائل غرامهم ، ولكنهم مع ذلك يحاولون الإنكار ، ثم يعترفون - ببعض أمرهم - إذا انقطعت حيلتهم ، ووهنت عزيمتهم ، فيتعرضون للوم والعتاب ، والنصح والإرشاد ، ولكنهم يشكون فى صدق ناصحهم ، لأن الحب سلطانه عظيم ، وأثره كبير .

النفس الأمارة :

بعد أن بدأ البوصيرى قصيدته بالغزل ، انتقل انتقالا جميلا - فى سهولة ويسر ، وخفة ولطف - إلى الحديث عن النفس[1] ، ولعل القارئ

---

(1) النفس : لفظ يطلق على معان كثيرة ، ولعل المراد به هنا : المعنى الجامع للصفات المذمومة وهى القوى الحيوانية والمضادة للقوى العقلية : (أبو حامد الغزالى : معارج القدس فى مدارج معرفة النفس ص ١٠ وما بعدها ، مطبعة الاستقامة بمصر - غير مؤرخ) .

يتساءل : وما العلاقة بين الفكرة الأولى — الغزل وشكوى الغرام، ودلائل الحب والهيام — وبين الفكرة الثانية — النفس وما يتصل بها — ؟ ولكن الأمر سهل ، والخطب يسير جداً ، إذ بين الفكرتين ارتباط وثيق ، واتصال عميق ، فهل الحب والهيام إلا خاطر من خواطر النفس ، وأثر من آثار الحس ، وهل الإنسان إلا بفكره وحسه ونفسه ، فإن سما بالجميع عن كل ما يشين ، ارتقى وارتفع ، وكرمت نفسه ، وتلألأت شمسه ، وإلا اضطرب أمره وانخفض شأنه ، ولذا قال الشاعر [(١)]

فإنّ أمارتى بالسوء ما اتعظت	من جهلها بنذير الشيب والهرم [(٢)]
ولا أعدت من الفعل الجميل قِرى	ضيف ألمّ برأسى غير محتشم [(٣)]
لو كنت أعلم أنى ما أوقّره	كتمت سرا بدالى منه بالكتم [(٤)]

يرسم لنا البوصيرى — فى هذه الأبيات — صورة ناطقة بالندم ، مليئة بالأسى ، بسبب نفسه الأمارة بالسوء التى لم تتعظ — من جهلها — بنذيرى الشيب والهرم ، اللذين ينذران بقرب انتهاء الأجل غالبا — ويطالبان بإحسان العمل ،

---

(١) ديوانه ص ١٩٠ .

(٢) أمارة : صفة لموصوف محذوف أى نفس ، وهى التى تزين لصاحبها الموبقات . السوء : اسم جامع للمفاسد . اتعظ : مطاوع وعظ ، يقال : وعظته فاتعظ أى قبل النصيحة . نذير : إما بمعنى الإنذار ، فتكون الإضافة فى (نذير الشيب) من إضافة المصدر لفاعله ، وإما بمعنى المنذر فتكون الإضافة من إضافة الصفة للموصوف ، أو من قبيل الإضافة البيانية ، إلا إذا نظرنا إلى المشابهة بين النذير والشيب ، فتكون الإضافة من قبيل إضافة المشبه به للمشبه . الهرم : (بفتح الهاء والراء ، ويجوز كسر الأول وفتح الثانى) : تناهى الشيب وما يصحبه من ضعف القوة وذهاب الفتوة .

(٣) أعدت : هيأت . الفعل الجميل : المراد العمل الصالح ، وهو بيان لِقِرى ، وقدم عليه للوزن . قرى : (بكسر القاف مع القصر) مصدر قريت الضيف أى أحسنت إليه ، ويطلق على المصدر وهو الإطعام ، كما يطلق أيضا على الحاصل به وهو الطعام . ألم : (بفتح الهمزة واللام وتشديد الميم مع فتحها) حل ونزل . وخصص الشيب بالرأس مع أنه يظهر فى غيرها — كاللحية مثلا — لأنها أول ما يظهر فيها الشيب غالبا . غير محتشم : غير مستح .

(٤) أوقره : أحترمه وأعظمه ، والمراد بقوله : سرا : الشيب ، وسماه سرا ، لأنه قبل ظهوره يكون خفيا . الكتم : (بفتح الكاف والتاء) نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر ، وقيل : نبت يخضب به الشعر كالحناء .

كما أن هذه النفس لم تراع حق هذا الشيب وما يتطلبه من بعد عن الدنايا ، وإقبال على الطاعات ، ويصرح الشاعر بأنه لو علم — قبل حلول الشيب أن نفسه لن ترعى له حرمة ، ولن تحفظ له عهدًا ، لستر ما ظهر منه ، بخضاب يخفيه ، وظلا، يستره ، حتى يكون بمنجاة من اللوم ، وبعد عن العتاب.

ولعلك تلاحظ أن الشاعر أراد أن يربط بين البيت السابق — الذى اتهم فيه نصيح الشيب — وبين هذا البيت — الذى يتحدث فيه عن نفسه الأمارة — فأتى بالفاء الدالة على السببية ، فكأنه أراد أن يقول : اتهمت نصيح الشيب لا لشىء إلا بسبب هذه النفس الأمارة .

ولما كان الحديث عن النفس الأمارة يتطلب التأكيد لشدة خطرها أكده الشاعر (بإن) وزاده تأكيدا بوصف هذه النفس بصيغة المبالغة (أمارة) إشارة إلى كثرة نزغاتها ، وتعدد حماقاتها ، وعبارة الشاعر فيها إيجاز بالحذف ؟ إذ حذف الموصوف وهو : (النفس) وذكر الصفة وهى : (الأمارة) ولعل ذلك يبين أن الشاعر أراد أن يحقر نفسه ، ويضع قدرها ، فضرب صفحا عن ذكرها .

وإذا تأملت لفظ (أمارة) وجدته يقتضى آمرا ومأمورا ، فمن الآمر ومن المأمور ؟ قيل : الآمر النفس باعتبار تعلقها بالمخالفة ، وباعتبار تعلقها بالصواب تكون هى المأمور ، فهما مختلفان على هذا التفسير ، وربما كان الآمر : النفس ، باعتبار أنها منبع الأهواء ، والمأمور : العقل [1] ، والشاعر يلمح إلى قوله تعالى .. : " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ... [2] ".

ولعل فى تعبير الشاعر بلفظ (اتعظت) ما يشير إلى أنه حاول تهذيب نفسه وزجرها ، إلا أنها زادت فى غيها ، وتمادت فى عصيانها ، وقد أحسن الشاعر عندما وضح علة هذا العصيان ، وسبب ذلك التمرد ، فقال : (من جهلها) وكأنه أراد أن يوضح أن هذه النفس لم ترفض الوعظ كبرا وعنادا ، فيكون علاجها عسيرا ، وإنما رفضته جهلا وحمقا ، وربما قبلته بالتعليم مثلا .

---

(١) حاشية الباجورى على البردة ص ١٣ بتصرف .
(٢) يوسف / ٥٣

والملاحظ أن الشاعر لم يقل : (بنذيرى الشيب والهرم) ، وإنما قال : (بنذير) ولعله عبر بذلك لأن الإضافة للجنس فيصدق النذير على المتعدد ، أو لأنه حذف من الثانى لدلالة الأول عليه ، فيكون فى الكلام إيجاز بالحذف ، والأصل : (بنذير الشيب ونذير الهرم) ، وقد يكون الحذف لضرورة الوزن .

وفى عبارة الشاعر نكت لطيفة .. منها : اختياره (الشيب والهرم) إشارة إلى أنهما من أبلغ المواعظ وأقوى النصائح المحسوسة الملموسة ، فلا شك فى وعظهما ، ولا ارتياب فى إرشادهما ، كما أن فى عطفه الهرم على الشيب دفعا لما يتوهم أن الشيب قد حل به وهو فى كامل قوته ، ونضارة فتوته ، وربما قيل : قدم الشيب على الهرم من أجل القافية .

ولا يخفى تأثر الشاعر بالصوفية ومبادئها ، ولقد أشرت إلى أنه قد لازمهم مدة من عمره [1] ، والصوفية يُحذِّرون — دائما — من النفس وهواها ، كما أنهم يقسمونها إلى : أمارة ، ولوامة ، وملهمة ، ومطمئنة ، وغير ذلك من الأقسام [2] ولعل فى حديث الشاعر عن النفس ردا قويا على من زعم أن الشاعر قد أخفق فى أن يكون متصوفا [3] ، وعلى من زعم — أيضا أن البردة خالية من التصوف [4] .

ولقد وصل البوصيرى البيت الثانى بالبيت الأول ، لأنه استمر فى الحديث عن نفسه بكشف مساوئها ، وبيان عيوبها ، وإن كان البيت الأول قد اشتمل على تلك الفكرة ، فيكون البيت الثانى من قبيل عطف الخاص على العام للتأكيد .

ويبدو أن الشاعر أحسن عندما أطلق على (الشيب) لفظ (ضيف) وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وقد رشح الشاعر تلك الاستعارة بقوله : (قِرَى) كما ذكر قرينتها فى لفظ : (ألمّ) ، ولعل الشاعر وصف الضيف بأنه (غير محتشم) لأنه حل بدون استئذان ، وهذا مخالف لما تعارف عليه الناس ، أو لأنه قد يستمر مدة طويلة مع صاحبه ، وشأن الضيف أن لا يقيم طويلا

(١) انظر ص ٥٥ — هذه الرسالة .
(٢) معارج القدس ص ١٠ وما بعدها .
(٣) مقدمة الديوان ص ٢١ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ .

أو لأنه ينغص على صاحبه حياته ، إذ هو كالنذير بقرب انتهائها .

ومهما يكن من شيء ، فإن في هذه الاستعارة وفي ذلك الوصف ، تشخيصا موحيا بأثر الشيب ، وما يدعو إليه ، ويبدو أن الشاعر نظر إلى قول المتنبي[1]:

ضيف ألم برأسي غير محتشم
والسيف أحسن فعلا منه باللمم[2]

إن شطر المتنبي الأول هو نفس شطر البوصيري الثاني ، ولكن البوصيري ذكر ما ناسب المقام من مثل قوله : (قرى) كما سبق .

وأخيرا - في البيت الثالث - يرسم الشاعر صورة لما يجيش في صدره من حزن ، وما يحس به من ندم ، كان سببه هذا التفريط ، ولعل ما يشير إلى ذلك هذا اللون البديعي المسمى " رد العجز على الصدر " في قوله : (كتمت - والكتم) ففي حروف ذلك المحسن ما يشعر بالكآبة والحزن .

البحث عن مصلح :

ولما أرجع الشاعر عصيان نفسه وحماقتها إلى جهلها وطيشها ، لم ييأس من إصلاحها ، ولم يقنط من علاجها ، فطلب من يهذب تلك النفس بقوله :[3]

من لي برد جماح من غوايتها   كما يرد جماح الخيل باللجم[4]

يتمنى الشاعر - في هذا البيت - أن يجد من يتكفل له بإرجاع نفسه إلى رشدها ، وإخراجها من ضلالها ، وكبح جماحها ، كما يكبح جماح الفرس باللجام .

---

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي - توفي سنة ٣٥٤ هـ . انظر : الأعلام ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ديوان المتنبي بشرح الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٨ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٩٤٤ .

(٣) ديوانه ص ١٩٠ .   (٤) من لي : من يتكفل لي . برد : بصرف جماح : جمع جموح وهو من الخيل الشديدة التي لا تنضبط لشدتها وقوتها ، وعلى هذا ففي عبارة الشاعر استعارة ويجوز أن يكون (جماح) مصدر جمح ، بمعنى الشدة والقوة ، والتنوين عوض عن المضاف إليه والأصل : جماح نفسي ، وعلى هذا فتكون عبارة الشاعر حقيقية لا مجاز فيها . غوايتها : (بفتح الغين) ضلالتها والضمير راجع إلى النفس . اللجم : جمع لجام (معرب لكام) وقيل : عربي (انظر المزهر ج ١ ص ١٦٨ وما بعدها) وهو ما يوضع في فم الفرس ليكون قائده قادرا - به - على توجيهه .

وإذا تأملت هذا الاستفهام — الذى بدأ به الشاعر — وجدته يشير إلى الاستعطاف والتمنى ، وهذا يوحى بأن الشاعر صادق فى إصلاح نفسه ، ولكن من ذا الذى يقوم بهذه المهمة الشاقة ، التى لا قبل لأحد بها إلا لعاقل حكيم ، وهذا هو سر استفهامه (بمن) الدالة على العاقل .

ويبدو أن الشاعر يشير من طرف خفى وهو الذى تلقن تعاليم الصوفية إلى أن السلوك المستقيم لا يتم إلا على يد مجرب حكيم ، له خبرة بشئون النفس وطرق علاجها . إذ تزكية النفس كعلاج البدن ، فكما لا يجوز للمريض استعمال الدواء إلا بإرشاد الطبيب الحاذق ، كذلك النفس لا تتم تزكيتها إلا على يد شيخ راض نفسه — ولا شك فى أن رد النفس عن هواها أساس الفلاح وعماد النجاح فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى "..وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ..[1] ، وقال جلت قدرته : " .. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ..[2] " .

إن النفس تحتاج إلى جهاد كبير ، ولذلك أحسن الشاعر حينما وصفها بأنها جماح ، فهذا يدل على شدة بطشها ، ورعونتها التى تشبه جماح الفرس ، ويؤكد ذلك لفظ (اللجم) الذى يحمل معنى القوة والشدة .

ولا يخفى أن فى العبارة تشبيها أكد الفكرة ووضحها ، أضف إلى ذلك تلك المحسنات البديعية التى أضفت عليها حسنا ، مثل التناسب[3] بين (الخيل واللجم) ، والجناس بين (يرد ، يرد) وتكرار لفظ (جماح)

---

(١) النازعات ٤٠ / ٤١ .

(٢) الشمس : ٩ ، ١٠ .

(٣) هو : جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٥٤).

داء النفس ودواؤها :

يبدو أن الشاعر كان صادقا عندما طلب من يصلح نفسه ويهذبها ، إذ لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى سمع — على سبيل التجريد [١] — من يقول له فى عبارة رائعة ، وحكمة بارعة [٢] :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم [٣]
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم [٤]

تضمنت هذه الأبيات بعض ما تعالج به النفس الأمارة بالسوء ، ومن ذلك :

أ — البعد عن المعاصى .

ب — ومخالفة الهوى — إلا أنك إذا قرأت تلك الأبيات تملكك العجب ، وأخذك الدهش ، لما اشتملت عليه من علاج حاسم لداء النفس المضال ، ومما يزيدك دهشا صياغتها فى هذا الأسلوب السهل ، والحكمة الرائعة .

تأمل هذه الفاء (فلا) التى تشير إلى كلام مقدر ، لم يُرِد الناصح ذكره ، إشارة إلى نكتة لطيفة ، وهى الإسراع إلى تقديم الدواء قبل أن يستشرى الداء ، والأصل : (إذا كنت تريد كبح جماح نفسك ، والبعد عن غيك فلا ترم ..) .

أرأيت كيف تعانقت الأبيات السابقة بالأبيات اللاحقة ، وأخذ بعضها بزمام بعض مع إيجاز فى اللفظ كل ذلك عن طريق الفاء التى تسمى فاء الفصيحة .

وكان من الطبعى أن يأتى الناصح بأسلوب النهى ، لأنه وجد نفسه فى موقع الطبيب الذى يعالج مرضاه ، ومن حقه عليهم أن يأمرهم بكذا ، وينهاهم عن كذا ، حرصا على ما ينفعهم .

---

(١) هو : أنواع والمراد هنا : أن ينتزع الشاعر من نفسه شخصا آخر يخاطبه (التلخيص ص ٣٦٨ بتصرف .) .   (٢) ديوانه ص (١٩١) .

(٣) لا تَرُم : لا تقصد ولا تطلب ، كَسْر : المراد صَرْف . والضمير فى (شهوتها) عائد على النفس فى الأبيات السابقة . النهم : (بفتح النون وتشديدها مع كسر الهاء) الحريص على الأكل والشرب وعلى كثرتهما .

(٤) اصرف هواها : رُدّه . تُوليه : تعطيه الولاية والسلطان عليك . تولى : ملك وحكم . يصم (بضم الياء بعدها صاد ساكنة) ، مضارع أصمى بمعنى : قتل وهلك . يصم (بفتح الياء بعدها صاد مكسورة) مضارع وصم بمعنى : عاب وشان .

ومما زاد التعبير روعة تقديم (بالمعاصى) ولعل فى ذلك ما يشير إلـى التحذير من خطرها ، والتنبيه على عظيم ضررها ، والإشارة إلى الأخذ بغيرهـا وهو الطاعـة .

وليتك تتأمل العنف والقوة فى قوله : (كسر شهوتها) أفلا يدل ذلـك على ما يجب أن يكابده الإنسان من مصاعب تجاه أهواء النفس وشهواتهـا ، والوقوف أمام نزعاتها ، وأرى أن هذه العبارة تهدم ما شاع وذاع من أن "الغاية تبرر الوسيلة" ، إذ هى تنبه على أن الوسيلة يجب أن تكون مشروعة .

ولم يقف الناصح عند ذلك الأمر ، بل لقد لفت النظر إلى فكرة خاطئـة ، ربما مال إليها بعض الناس وهى : التمادى فى الشهوات ، والعب من الملذات يجعل النفس تبعد عنها رويدا رويدا ، وتأنف من فعلها شيئا فشيئا ، ولكـن هيهـات هيهـات ، إن من شب على شىء شاب عليه ، ومن ألف أمرا مال إليه ، وأصبح من العسير الإقلاع عنه ، وارتكاب المعاصى ، والإقبال على المفاسد كالمـاء الملح ، كلما شربت منه ازددت عطشا ، ولما كانت هذه الفكرة ـ تبدو غريبـة عند بعض الناس ، وضحها الناصح بحكمة صادقة ، وقول حكيم ، وتجربة محسوسـة (إن الطعام يقوى شهوة النهم) وهذا حق ، لأن حرص النهم على الأكـل يزيده نهما على نهم وحرصا على حرص ، فكذلك من يقبل على المعاصى ، كلمـا فعل معصية فكر فى أخرى من دون وازع أو رقيب ، فما أروع تلك الحكمة ، ومـا أصدق ذلك القول ، وحق على الناصح أن يؤكده بأكثر من مؤكد ، ولذلك أكـده بإن أولا ، وبتكرار الإسناد الناشىء عن تعبيره بالجملة الإسمية ثانيا ، ولا يخفـى أن الشاعر قد فصل الشطر الثانى عن الشطر الأول لاختلاف جملتيهما خبرا وإنشاء .

ولما كان أمر النفس عظيما ، وخطرها جسيما ، لم يكتف الشاعر بهـذا الإيضاح ، بل أردفه ببيان أوضح ، وتشبيه أظهر ، فشبه المعنوى (النـفس) بالمحسوس (الطفل) حتى تكون الصورة واضحة محسوسة ، وواقعة ملموسة ، فتتأكـد فى النفس وترسخ فى الذهن كما يقول عبد القاهر : " .. إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتـأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردهـا فـى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فـى المعرفـة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكـر إلى ما يعلم بالإضطرار والطبع ، لأن العلـم المستفـاد من طرق الحواس ، أو المركوز

فيها من جهة الطبع ، وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ... [١]) .

وإذا قيل [٢] : إن البوصيري ناظر في ذلك البيت إلى قول أبي ذؤيب الهذلي [٣]

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذ ترد إلى قليل تقنع [٤]

فلا غضاضة على البوصيري ، إذ تصرف في الفكرة تصرفا حسنا ، وأتى في بيته بما لم يأت به سابقه ، ويظهر ذلك في هذا التشبيه (المحسوس) الذي زاد الأمر وضوحا ، والتجربة بيانا ، وهذا التأثر — إن صح — لاعيب فيه عند النقاد ، يقول ابن رشيق [٥] " .. إن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ، بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا ، أو يبينه إن كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا ، فهو أولى به من مبتدعه ... [٦] " .

ولعل بيت البوصيري زاد على بيت سابقه وضوح الفكرة ، وبيانها ، وخاصة أنه قيل في مقام الإرشاد والتوجيه ، وهذا المقام يحتاج إلى الإيضاح والبيان أكثر من غيره .

ولقد قال بعض الكتاب : " إن في هذا البيت خطأ لغويا ، في قول الشاعر : (ينفطم) إذ لم يرد هذا اللفظ في معاجم اللغة [٧] " ولكن هذا القول مردود على صاحبه إذ وجدت هذا اللفظ في بعض معاجم اللغة الموثوق بها [٨] .

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة بشرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ج ١ ص ٢٢٤ دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٢ .
(٢) قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية والإسلام ج ٢ ص ١٣٩ .
(٣) هو : خويلد بن خالد بن محرث الهذلي ، شاعر فحل مخضرم ، توفي نحو سنة ٢٧ هـ (الأعلام ج ٢ ص ٣٧٣) .
(٤) ديوان الهذليين — ص ٣ الدار القومية للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٥ ، ويلاحظ أن قول الشاعر (وإذا) يروى بالفاء في بعض الروايات .
(٥) هو : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، توفي سنة ٤٦٣ هـ (الأعلام ج ٢ ص ٢٠٤)
(٦) العمدة ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٧) شرف الدين البوصيري (الشاعر المصري) ص ٤٤ ، ص ٥٣ .
(٨) انظر تاج العروس : ج ٩ ص ١٣ ، الفيروزابادي : القاموس المحيط ج ٤ ص ١٦١ المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

ولما كان اتباع هوى النفس يؤدى إلى الضلال ، نبه الشاعر إلى عصيانه ولعله تأثر فى ذلك بالقرآن الكريم ، إذ نهى الله (سبحانه وتعالى) نبيه داود (عليه السلام) عن أن يتبع الهوى بقوله : " وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (١) " . وبين عاقبة من يتبع هواه بقوله : " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ .. (٢) " .

ومن هنا حسن إرشاد الشاعر إلى هذا الأمر ، فى إيجاز وسحر عبل أكد ذلك بقوله : (وحاذر) وهذا القول يتطلب من الإنسان الحذر الدائم ، من هذا الأمر الخطير .

ولم يكتف الشاعر بالتحذير من هوى النفس ، بل زاد الأمر تأكيدا ، فذيل البيت بحكمة صادقة ، تبين عاقبة اتباع الهوى التى لا تخرج عن أحد أمرين : إما الفتك والهلاك ، وإما العيب والنقصان ، وأحلاهما مُر ، وصدق الشاعر فى قوله : (إن الهوى ما تولى يصم أو يصم) ، فما أحسن من يعصم نفسه عن هذين الأمرين ، وذلك بالبعد عن هواها .

ملاحظة النفس عند العمل الصالح :

وإذا كان الشاعر قد حذّر من هوى النفس ، ونبّه على البعد عن المعاصى ، كعلاجين حاسمين لبعض عللها ، فإنه أشار إلى دواء ثالث ، وهو ملاحظة النفس عند فعلها العمل الصالح ، خشية أن يشوبه رياء(٣) يبطل ثوابه .. فيقول(٤) :

---

(١) ص / ٢٦

(٢) القصص / ٥٠

(٣) هو : إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا بفاعله خيرا .

(٤) ديوانه ص ١٩٢ .

وراعهـا وهـى فى الأعمـال سائمـــة
وإن هـى استحلـت المرعـى فلا تسـم (١)
كم حسنت لذة للمرء قاتلـــــــة
من حيث لم يـدر أن السم فـى الدسـم (٢)

إن العمل الصالح إذا لم يكن خالصا لوجه الله فلا فائدة فيه ، ولا ثـواب لصاحبه على فعله ،لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصالحة إلا ما كـان خالصا لوجهـه يقول تعالى " فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (٣) " ويؤكد ذلك الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قـال : الريـاء . يقول الله يوم القيامة ـ إذا جزى الناس بأعمالهم ـ اذهبوا إلـى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء (٤) " .

ومن هنا أمـر الشاعر بملاحظة النفس عند فعلها العمل الصالح ، فـإن خالطـه ريـاء فلا تتركها فى هذا العمل ،لعدم الفائدة من فعله .

ولقد أحسن الشاعر فى قوله : (راعها وهى فى الأعمال سائمة .. البيت) ، إذ ألقى الضوء على حقيقة النفس بهذه الاستعارة التى تدل على أن النفس كالحيـوان الذى يرعى ، فإذا لم يكن له راع يرشده ويزجره ، فلا بد من وقوع ما يعكـر الصفو ،ولعل الشاعر تأثر فى ذلك بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (كلكـم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. (٥)) .

إن فكرة الشاعر واضحة ، ولقد ساعد على ذلك بعض المحسنات البديعيـة التى أكسبت اللفظ وقعا موسيقيا منشؤه : رد العجز على الصدر فى قولـــــه : (سائمة وتسم) . والتناسب بين (راعها ، وسائمة ، والمرعى) .

---

(١) راعها : أمر من راعى يراعى أى لاحظها . الأعمال : المراد بها الأعمال الصالحة السائمة : الحيوان الذى يرعى فى كلأ مباح . استحلت المرعى : وجدته حلوا . لاتسم : من أسام الماشية أى تركها ترعى : لا تمكنها من الرعى .
(٢) كم : خبرية بمعنى كثيرا . السم (بتثليث السين) : الشىء القاتل . الدسم : (بفتح الدال والسين) : الودك من لحم وشحم .
(٣) الكهف / ١١٠ وانظر تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٢٠٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٤٢٨ .
(٥) صحيح البخارى جـ ٢ ص ١٠٠ .

ولقد أراد الشاعر أن يؤكد نصيحته السابقة ويقويها ، فقال : (كم حسنت ..البيت) . وإذا تأملت ذلك القول وجدته سهل العبارة ، واضح الفكرة ، فهو يبين أن النفس كثيرا ما جلبت لصاحبها الهلاك ، وذلك عن طريق الإقبال على اللذات القاتلة ، والشهوات المهلكة ، التى لم يشعر الإنسان بأثرها لإقباله عليها ، إقبال النهم على طعام دسم ، قد دس فيه السم وهو لا يشعر ، فتكون نهايته فى ذلك الطعام .

وكذلك شأن من يقبل على الطاعات - التى هى بمثابة الطعام الدسم - ثم لا يريد بها وجه الله ، وإنما يفعلها رياء - وهو بمثابة السم - فيفسدها ذلك الرياء ويحبط ثوابها ، ويصبح صاحبها كثير السيئات - وهو يظن عكس ذلك - فيزج به فى النار .

وإذا تأملت لفظ (كم) وجدته يدل على الكثرة ، وفى ذلك إشارة إلى أن النفس تفعل ذلك الأمر الخبيث كثيرا ؛ لأن هذا من طبيعتها - إذا لم يهذبها صاحبها .

ولعل مما يؤكد ذلك لفظ (حسنت) فإنه فعل مضعف يدل على التكرار (١) ، وفى إسناد التحسين إلى ضمير النفس ما يشعر بدورها الكبير فى ذلك العمل .

ويبدو أن الشاعر نكّر لفظ (لذة) إشارة أن اللذات لا تنتهى ، وكلما ظن الإنسان إشباع نفسه من لذة ، فإذا هو أمام لذة أخرى وهكذا كما يدل تنكير ذلك اللفظ أيضا على حقارة تلك اللذات وخستها ، ومع ذلك وصفها الشاعر بأنها : (قاتلة) وهذا يشير إلى نتيجتها المهلكة ، وعاقبتها الوخيمة ، والإنسان فى غفلة عنها (حيث لا يدرى) أن حتفه فيما يجرى وراءه ، محاولا الحصول عليه .

ولا يخفى أثر المجاز فى قول الشاعر : (.. أن السم فى الدسم) إذ فى لفظ (السم) استعارة تصريحية ، وفى لفظ (الدسم) استعارة تصريحية أيضا ، لأنه شبه الرياء بالسم ، وشبه الطاعة بالطعام الدسم ، وهاتان الاستعارتان قد وضحتا المعنوى بالمحسوس ، وجعلتاه ملموسا أمام الإنسان ، فكان أوقع فى النفس ، وأشد تأثيرا فى القلب .

---

(١) شذا العرف ص ٤٣ .

التحذير من الجوع والشبع المفرطين :

ويستمر الشاعر في إهداء نصائحه التي تصلح النفس وتهذبها فيقول [١] :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شر من التخم [٢]

إنه يحذر من الجوع والشبع المفرطين ، لما لهما من أثر سيء في النفس ، وعلى العاقل أن يكون وسطا في ذلك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [٣] " .

ولعلك تلاحظ لفظ (اخش) وما يدل عليه من إثارة الانتباه ، واليقظة التامة ، لأن الحذر لا يكون إلا من أمر خطير ، فهيأ الشاعر العقل لتقبل ما يحذر منه وهو لفظ (الدسائس) الذى يشير إلى أن أثر الجوع والشبع المفرطين يكون شديدا ، يدل على ذلك صيغة الجمع من جهة ، وقوة اللفظ من جهة ثانية .

ويبدو أن الشاعر قدّم الجوع على الشبع ، لأن أثر الجوع يكون شديدا ، وربما أدى الجوع الشديد إلى مالا تُحمد عقباه .. ، وليس معنى ذلك أنه لا حذّر من الشبع ، لا .. إن الشبع — وخاصة المفرط — ينشأ عنه الكسل عن العبادة والميل إلى الشهوات ، مما يؤدى إلى قسوة القلب ، ولذا عبر الشاعر بلفظ (رُبّ) الدال على التقليل .

---

(١) ديوانه ص١٩٢ .
(٢) أخش : من الخشية بمعنى الخوف والحذر أى احذر الدسائس : (جمع دسيسة) وهى الفتنة الخفية من الدساسة وهى الكيد والمكر الخفى . المخمصة : شدة الجوع . التخم : جمع تخمة (بضم التاء وفتح الخاء والميم) : فساد الطعام فى المعدة من شدة الامتلاء ، أو فساد المعدة بالطعام الكثير — وذهب بعض الكتاب إلى جواز أن يكون لفظ (مخمصة) كناية عن قلة العبادة ، ولفظ (التخم) كناية عن كثرتها ، ولعل ذلك بعيد ، والرأى الأول أقرب ، لذكر لفظى (الجوع والشبع) قبل ذكر لفظى (مخمصة والتخم) . انظر : حاشية الباجورى على البردة ص١٨ .
(٣) الأعراف / ٣١ .

وإذا تأملت قول الشاعر : (رب مخمصة شر من التخم) ، أدركت أنه يؤكد أن كلا من شدة الجوع وشدة الشبع شر ، إلا أن شدة الجوع تكون أشد من شدة الشبع أثرا ، وهذا ما يدل عليه أفعل التفضيل وهو (شر) الذى يدل – بأصل وضعه – على اشتراك أمرين فى صفة ، وزيادة أحدهما على الآخر فى تلك الصفة [1] .

ولا يخفى ما فى البيت من محسنات بديعية زادت المعنى قوة ووضوحا ، مثل الطباق بين (جوع وشبع) ، وبين (مخمصة وتخم) .

التوبــة :

بعدما حذر الشاعر من الجوع والشبع المفرطين – فى البيت السابق – ذكر هنا علاجا آخر للنفس ، وهو : التوبة ، إذ يقول [2] :

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندم [3]

يامن كثرت ذنوبك ، وعظمت خطاياك ، تب إلى ربك ، وارجع إلى مولاك .

يطلب الشاعر من مخاطبه أن يقلع عن المعاصى بالتوبة الصادقة التى من أهم أركانها الندم ، " والندم " كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : توبة [4] " ولعل لفظ (استفرغ) يدل على ذلك إذ هو فعل أمر ، والأمر يدل على الطلب ، بل إنه قد صدر ببعض الحروف الدالة على الطلب أيضا ، وفى ذلك تأكيد ظاهر، وحث كبير على الأخذ بأسباب النجاة . والشاعر يلمح باستفراغ الدمع إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما سئل عن : النجاة ، فقال : " أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك [5] " .

---

(١) منار السالك إلى أوضح المسالك جـ ٢ هامش ص ٥٩ .
(٢) ديوانه ص ١٩٢ .
(٣) المحارم : (جمع محرم) بمعنى حرام وهو ما لا يحل فعله ومنه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " اتق المحارم تكن أعبد الناس " انظر سنن الترمذى المعروف بالجامع الصحيح بشرح عبد الرحمن عثمان – جـ ٣ ص ٣٧٧ ، مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٩٦٧ . الحمية : (بكسر الحاء وسكون الميم) ما يحمى مما يضر .
(٤) مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٣٧٦
(٥) سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣١ .

ويبدو أن الشاعر نكر لفظ (عين) تحقيرا لها ، لعدم مراعاتها أمر ربها ، ويؤكد ذلك أنه وصفها بأنها (قد امتلأت من المحارم) وفي إسناد الامتلاء إليها مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ المقصود الإنسان ، ولكنه خص العين بالذكر لأنها مفتاح الخير إذا وجهت إليه ، يدل على ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله "(١) كما أنها — العين — باب الشر إذا تطلعت إليه ، ولذلك أمر الله بغضها في قوله تعالى : " قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم .. الآية (٢) .. " .

وأراد الشاعر أن يؤكد قيمة التوبة فقال : (والزم حمية الندم) . أي الزم التوبة التي تحميك من عذاب الله ، بل إنها تقربك من الله ، وتجعلك أهلا لحبه ، يقول تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٣) " ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها (٤) " .

عصيان النفس والشيطان :

بعدما حث الشاعر على التوبة وملازمتها ، لأنها تقرب الإنسان من ربه ، أكد الحذر من النفس والشيطان ، مبينا بعض طرق خداعهما فقال (٥) :

وخالف النفس والشيطان واعصهما	وإن هما محضاك النصح فاتهم (٦)
ولا تطع منهما خصما ولا حكما	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

ولا تطع هوى نفسك ، ولا تتبع خطوات الشيطان ، لأنهما — مهما أظهرا لك النصح - لا يريدان بك إلا شرا ، ولا يرجوان لك إلا هلاكا .

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٦ .
(٢) النور : ٣٠
(٣) البقرة : ٢٢٢
(٤) سنن الترمذي جـ ٥ ص ٢٠٧ مع ملاحظة أن للحديث عدة روايات . (٥) ديوانه ص ١٩٢ .
(٦) الشيطان : كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب ولعل المراد هنا (إبليس لعنه الله) — وهو من (شطن) إذا بعد ، لبعده عن الخير والرحمة فوزنه (فَيْعَال) ، أو من (شاط) إذا بطل أو احترق ، فوزنه (فَعْلان) . انظر المصباح المنير جـ ١ ص ٤٢٦ مادة (شطن) .

تأمل كيف بدأ الشاعر نصحه بقوله : (وخالف) إنه فعل أمر يحمل دلائل كثيرة منها : الإكثار من مخالفة النفس والشيطان بل المداومة على تلك المخالفة ، لأنك إن عصيتهما فى جولة ، تربصا بك فى جولات .

ولقد بدأ الشاعر أمره بالحث على مخالفة النفس ، ولعل فى ذلك إشارة إلى شدة مكرها ، وعظيم خطرها، ويؤكد ذلك قوله تعالى : " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (١) " ، كما أن الشيطان يستعين بهما فى نسج خيوطه ، ونصب شباكه ، لأنها عدو داخلى ، وتظهر أحيانا فى صورة صديقه والإنسان ـ غالبا ـ لا يتوقع الأذى من الصديق ، ولكن عندما يأتى الأذى من جهته ، يكون أثره كبيرا ، وخطره عظيما ، وليس معنى ذلك قلة ضرر الشيطان . لا .. إنه كما قال تعالى : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢) بل إنه أقسم على الفساد والإفساد ، ألم يقل لربك جل جلاله : " .. لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (٣) .. " .

ولم يكتف الشاعر بالحث على مخالفة النفس والشيطان بل أمر بعصيانهما أيضا ، ولعل ذلك من قبيل عطف الخاص على العام ، أو من قبيل العطف بالمرادف للتأكيد على مخالفة هذين العدوين ، بل إن الشاعر لبأمر بما هو أكثر من المخالفة والعصيان ، تأمل قوله : (فاتّهم) ألا تجده عصيانا وزيادة؟

لقد أمر الشاعر بمخالفة النفس والشيطان وعصيانهما ، بل اتهامهما ـ فى البيت الأول ـ ثم أكد ذلك كله ـ فى البيت الثانى ـ ولكن بطريق آخر غير الأمر ، إنه طريق النهى ولا شك فى أن النهى يحظى ـ دائما ـ باهتمام الإنسان ، ويجعله ـ غالبا ـ فى حذر من المنهى عنه ، وبخاصة إذا كان من ناصح أمين .

---

(١) يوسف / ٥٣
(٢) المرجع السابق / ٥
(٣) الأعراف / ١٦ ، ١٧ .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ولا تطع منهما خصما ولا حكما) وجدته ينهى عن طاعتهما فى كل أحوالهما ، ولا يغرنك ارتداء أحدهما ثوب العدل ، ووقوف الآخر منك موقف الخصم ، فلا يغيب عن ذهن الأريب (كيد الخصم والحكم) إذا كان منهما .

إن هذين البيتين قولُ حكيمٍ مجرب ، عنده خبرة بحيل النفس ، ولديه دراية بدروب الشيطان ، أضف إلى ذلك أنه قد وفق فى صياغتهما فى أسلوب سهل ، وألفاظ تناسب المقام مثل : (خالف ، اعصهما ، اتهم ، ولا تطع ، كيد الخصم والحكم ..) .

وبعدما انتهى الشاعر من نصائحه التى أمدها إلى مخاطبه لكى يصلح بها نفسه ، وجد نفسه هو لم تعمل بها ، فخاف أن يدخل مع الذين خاطبهم الله تعالى بقوله ("..كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" (١)) فرجع عن التجريد — وقال (٢) :

أستغفر الله من قول بلا عمل ... لقد نسبت به نسلا لذى عقم (٣)
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

لقد اعترف الشاعر بذنبه ، وطلب العفو من ربه ، إذ كيف يأمر غيره بأمر لم تأتمر به نفسه ، وكيف يعظ سواه بموعظة لم يتعظ هو بها ، إن فاقد الشىء لا يعطيه .

ولا شك فى أن عبارة الشاعر ملائمة للفكرة التى يتحدث عنها ، فبدأ بالاستغفار (أستغفر الله) لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ولعلك تتأمل نكتة الرجوع عن التجريد ، فلعل الشاعر رأى أن فى الحديث بضمير المتكلم أشد اعترافا ، وأعظم بيانا لخطأ نفسه ، حتى لا يدخلها الغرور .

---

(١) الصف / ٣ .
(٢) ديوانه ص ١٩٢ .
(٣) نسبت : عزوت . نسلا : ذرية . عقم : (بضم العين والقاف) : أى العقيم : وهو الذى لا يولد له .

وأحسن الشاعر عندما ذكر أن من لم يعمل بقوله ،لن يعيره أحد أذنا واعيـــة، مثل من ينسب الولد إلى عقيم ، أترى أحدا يصدق أو يهتم بكلامه .

ويبدو أن الشاعر أحب أن يفصّل ما أجمله فى البيت الأول ، فقال فـــى البيت الثانى : (أمرتك الخير) ـ ويلاحظ أن الشاعر حذف حرف الجر والأصل (أمرتك بالخير) ـ وأتى به مفصولا عن سابقه لأنه بيان وتأكيد له ، وكان من الطبيعى أن من يأمر بالخير يكون قد ائتمر به أولا ، وهذا ما يسبق إلى الذهن ، ولما كان الأمر بخلاف ذلك ، استدرك الشاعر بقوله : (لكن ما ائتمرت به) ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى قوله تعالى : " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ[1] .. الآية " .

ولقــد زاد الأمــر تأكيدا بقوله : (وما استقمت فما قولى لك استقم) ولعلــه خص الاستقامة بالذكر ، لأنهـا أمر جامع لكل أبواب الفلاح والنجاح ، ويؤكد ذلـــك أن الله قد أمر نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) بها فـى قوله تعـالى : " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .. [2] .. الآية " .

وواضح أن هذا الاستفهام الذى اشتملت عليه العبارة يفيد التوبيخ والإنكار ، ولعل الشاعر قد نظر إلى قول أبى الأسود الدؤلى :[3]

يأيها الرجل المعلـم غـــيره　　　هلّا لنفسك كان ذا التعليـــم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضـــنى　　　كيمـا يصـح بــه وأنـت سقيـــــم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهــا　　　فإذا انتهت عنه فأنت حكـــيم

لا تنه عن خلق وتأتى مثلـــه　　　عار عليك إذا فعلت عظـــيم[4]

---

(١) البقرة : ٤٤ .　　　(٢) هود / ١١٢

(٣) هو : ظالم بن عمرو بن سفيـان بن جندل الدؤلى توفى سنة ٦٩ هـ . (الأعلام جـ٣ ص ٢٤٠)

(٤) ديوانه : بتحقيق وشرح عبد الكريم الدجيـلى ص ٢٢٣ ، مطبعـة شركـة النشـر والطباعـة العراقيـة ببغداد سنـة ١٩٥٤ .

ويبدو أسف الشاعر وحزنه فى البيت الثالث ، لأنه لم يتزود قبل موته بالنوافل التى تقربه من ربه ، وتجعله أهلا لحبه ورضاه ، وإنما اكتفى بأداء الفرض من الصلاة والصيام ، ولعله اقتصر عليهما دون الزكاة لأنه كان فقيرا ، مع العلم بأنه أدى فريضة الحج ، ويبدو أنه سكت عن ذكره لعدم استطاعته الحج مرة ثانية ولعله يلمح بذلك إلى الحديث القدسى : " وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ... (١) " .

ولا يخفى أن الأبيات قد اشتملت على بعض المحسنات البديعية التى ساعدت على زيادة موسيقاها روعة وجمالا ، مثل : المناسبة بين (نسبت ، نسلا – عقم) وبين (نافلة ، لم أصل ، لم أصم) ، والطباق بين (نافلة ، وفرض) .

مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وبعد ما أعلن الشاعر أسفه وأظهر ندمه ، لاقتصاره على أداء الفرائض ، وتركه النوافل ، عرج على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلا (٢) :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم (٣)
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مترف الأدم (٤)
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم (٥)

يمدح الشاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى هذه الأبيات بقيامه الليل ، وصيامه النهار وزهده فى هذه الحياة ، إيثارا لما يبقى على ما يفنى .

---

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣١ .
(٢) ديوانه ص ١٩٢ .
(٣) ظلمت : من الظلم وهو وضع الشىء فى غير موضعه . السنة : (بتشديد السين مع ضمها) فى اللغة الطريقة والمراد هنا ما نسب إلى الرسول قولا أو عملا أو تقريرا دون وجوب
(٤) شد : عصب وربط . السغب : الجوع أو شدته : وهو الراجح . الأحشاء : (جمع حشا) وهو : ما انضمت عليه الضلوع ، وقيل الأمعاء . طوى : ثنى . الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . مترف : من الترف وهو النعومة المفرطة والمراد اللين . الأدم : (جمع أديم) وهو الجلد .
(٥) راودته : من المراودة وهى المطالبة ، والمراد دعته إلى نفسها بإغراء . الشمم : المراد : العزة .

ولعل الصلة وثيقة بين الأبيات السابقة وتلك الأبيات ، إذ فى الأبيات السابقة ندم الشاعر على تركه النوافل ، وهنا يبين أنه ظلم نفسه لتفريطه فى تلك النوافل فحرم ثوابها الكبير ، وأجرها العظيم .

وإذا تأملت قوله : (ظلمت سنة ...) وجدته نسب الظلم إلى نفسه وأوقعه على السنة ، وفى هذا التعبير مجاز ، إذ عبر الشاعر بالملزوم وأراد اللازم وهو الترك ، ولا يخفى ما فى ذلك الإسناد من نكت لطيفة منها : اعتراف الشاعر بجرمه الذى ارتكبه ، وتقريع نفسه وتوبيخها ، لعدم اقتدائها بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الإكثار من النوافل التى واظب عليها مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والملاحظ أن الشاعر لم يصرح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل عبر باسم الموصول (من) ولعل فى ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ فى تلك الصفة - إحياء الظلام - حدا لا يشاركه فيه أحد ، فلا لبس ولا إبهام ، بالإضافة إلى ما فى ذلك التعبير من إثارة للحس ، وتشويق للنفس .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (أحيا الظلام) تعبيرا مجازيا - استعارة تصريحية تبعية فى (أحيا) أو مكنية فى (الظلام) - عن قيام الليل ، وهذا التعبير يشير إلى أثر الصلاة بعامة ، وقيام الليل بخاصة ، إذ المراد (أنوار الليل) ، وهذا ما يؤكده قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - " .. والصلاة نور .. " (١) .

ويبدو أن الشاعر أراد بقوله : (الظلام) الليل المظلم ، وفى ذلك إشارة إلى ما يكابده الإنسان من مشقة وجهاد عند قيامه الليل ، كما أن الغاية فى قوله (إلى أن ...) ليست على بابها ، أضف إلى ذلك أن فى قوله : (اشتكت قدماه الضر من ورم) كناية لطيفة تشير إلى طول قيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحرصه على فعل ما يزيده قربا من الله وحبا لله ، كما أشار إلى ذلك الحديث القدسى : " وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ... (٢) " ولا شك فى أن قيام الليل من أفضل القربات ، ولذلك أمر الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) سنن الترمذى ج ٥ ص ١٩٧ .
(٢) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣١ .

فى قوله تعالى : " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (١) " كما حث عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى كثير من الأحاديث (٢) .

وهذا البيت يلمح إلى ما روى من أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قام الليل حتى تورمت قدماه، فقيل له : " لم تصنع هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا (٣) " .

هذا عن قيامه (صلى الله عليه وسلم) — أما عن صيامه (صلى الله عليه وسلم) وتحمله الجوع ، فقد أشار إليه الشاعر إشارة لطيفة ، بكناية ظريفة ، فى البيت الثانى وهو فى هذا البيت يرسم لنا صورة دقيقة لأشرف إنسان ، وأكرم مخلوق ، إنه يشد على بطنه حجرا من شدة الجوع ، ولكن الشاعر اختار ألفاظا ناسبت الفكرة ووضحتها ، فهو مثلا قال : (من سغب) ولم يقل من جوع ، إذ السغب أشد من الجوع ، أضف إلى ذلك أنه عبر بالجمع فقال : (تحته الحجارة) ولم يعبر بالمفرد وذلك لتأكيد شدة الجوع .

ولو تأملت ذلك كله لظننت أن صاحب هذا الجهاد بلغ جلده مبلغا كبيرا فى السوء ، ولكن الشاعر اللبيب يحترس عن ذلك بقوله : (مترف الأدم) فيزيل كل ما علق بالأفهام ، ويؤكد حفظ الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) من كل سوء .

ولعل الشاعر يلمح فى ذلك البيت إلى الحديث الشريف : " عن جابر (رضى الله عنه) قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية (٤) شديدة ، فجاءوا النبى (صلى الله عليه وسلم) . فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ... فأخذ النبى (صلى الله عليه وسلم) المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل ... (٥) " .

---

(١) الإسراء : ٧٩ .

(٢) انظر : سنن الترمذى ج ٥ ص ٢١٢ وما بعدها — صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها .

(٣) صحيح البخارى ج ٦ ص ١٦٩ .

(٤) الكُدْيَة : هى الصخرة الشديدة .

(٥) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٣٨ .

وأحسن الشاعر حينما أشار إلى أن هذا الصيام أو هذا الجوع كان الدافع إليه زهده (صلى الله عليه وسلم) في متاع هذه الحياة الدنيا ، وليكون قدوة طيبة لأمته تنهج نهجه ، وتقفو أثره ، ولعل ما يؤكد ذلك قول البوصيرى: (وراودته الجبال الشم من ذهب..) أرأيت عظيما تراوده الجبال أن تكون له ذهبا فيأبى زهدا مثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟

تأمل لفظ (راودته) تجده يوحي بالإغراء الشديد، ويؤكد ذلك لفظ (الجبال) بصيغة الجمع ، وليست جبلا واحدا ، وزاد التأكيد أنها (شم) فهى ضخمة فخمة وليست من رمال بل (من ذهب) ومع كل هذه الأمور التى تجعل الإنسان لا يرد لها عرضا ، ولا يرفض لها طلبا ، أباها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إباء سريعا دون تردد ، يدل على ذلك هذه الفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب ، (فأراها أيما شمم) وكيف لا يأباها وهو الذى علمنا أن " الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ." (١)

ويلوح لى أن الشاعر يشير بحديثه عن مراودة الجبال .. إلى أحد عاملين من أهم عوامل الإغراء في هذه الحياة ، وهو المال ، أما العامل الثاني : فهو النساء ، وقد أشار إليه القرآن الكريم مثلا في قصة امرأة العزيز مع نبى الله يوسف (عليه السلام) حيث قال الله تعالى : " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ .. الآية " (٢) .

ولعلك تعجب من أن المراودة في الأمرين (المال والنساء) قد انتهت بالرفض القاطع ، مما يشير إلى عظمة رسل الله الذين اصطفاهم الله واجتباهم .

وإن تعجب فعجب أمر هذا الكاتب الذى قال : " أما حديثه ـ البوصيرى ـ عن الجبال التى عرضت على رسول الله أن تكون له ذهبا ، فإنه من مبالغات المتصوفة ، وليس له سند من التاريخ الصحيح ، ولا ذكر لهذا في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ، على أن زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) صحيح البخارى جـ ٨ ص ١١٨ بتصرف .
(٢) يوسف : ٢٣ .

أجلّ من أن يؤكد بمثل هذا الإغراق (١)، مع أن القصة قد وردت فى حديث نبوى شريف ولفظه : .. أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما - أو قال ثلاثا - أو نحو هذا - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك (٢) ".

وأراد الشاعر أن يؤكد زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال (٣) :

وأكدت زهده فيها ضرورتـــه	إن الضرورة لا تعدو على العصم (٤)
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

إن مما يؤكد زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) رفضه أن تكون جبال مكـــة - له - ذهبا مع أن قلة ماله ، كانت مبررا لقبول ذلك العرض ، وهذا ما تشير إليه كلمة (ضرورته) إذ من المعلوم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكـــن يملك من حطام الدنيا إلا اليسير ، فلقد روى أن السيدة عائشة (رضى الله عنها) قالـــت : " كان فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من أدم وحشـــوه من ليف (٥) ". وقالت : ما أكل آل محمد (صلى الله عليه وسلم) أكلتين فى يوم إلا إحداهما تمر (٦) " ومع كل هذا رفض ما عرض عليه من جعل الجبال له ذهبا !!

لقد أحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عيشة الزهد والكفاف ليقتـــــــدى به أصحابه ، ولتتخذ أمته ذلك نبراسا لها ، فتملك الدنيا فى أيديها لا فـــى قلوبها ، حتى لا تفتنهم كما فتنت من قبلهم ، يؤكد ذلك الرسول (صلى اللـــه عليه وسلم) بقوله : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبســـط

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٥ ب .
(٢) سنن الترمذى ج ٤ ص ٦ " وقال عنه الترمذى: حديث حسن " .
(٣) ديوانه ص ١٩٠/٢ .
(٤) الضرورة : المراد : الحاجة . العِصَم : (جمع عِصْمة) وهى فى الأصل : ملكة تمنع صاحبها من فعل ما يلام عليه ، والمراد هنا حفظ الله رسله من فعل ذلك .
(٥) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٢١ .
(٦) المرجع السابق .

عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم [1] ".

أما قوله تعالى : " وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى [2] " فقيل : إن المعنى " كنت ذا عيال فأغناك الله عمن سواه ، فجمع لك بين مقامى الفقير الصابر ، والغنى الشاكر [3] ".

ولما كان فى عبارة الشاعر ما يثير العجب ، إذ من المعلوم أن الضرورات تبيح المحظورات ، أما هنا فإن الضرورة أكدت زهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما كان ذلك مثار عجب أكده الشاعر بقوله : (إن الضرورة لا تعدو على العصم) ، أى إذا دفعت الضرورة الإنسان العادى إلى فعل محظور ، فليس لها أن تستولى على أصحاب العصمة (عليهم الصلاة والسلام) وتدفعهم إلى مثل ذلك ، لأن الله اصطفاهم واجتباهم .

وإذا كان هذا التعليل ـ (إن الضرورة ..) ـ قد شمل جميع الأنبياء ، فلقد أراد الشاعر أن يخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) بشىء آخر ، فأشار إلى أن الضرورة لا تستطيع أن تدفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى حب الدنيا والانخداع بمظاهرها ومباهجها ، وكيف يتأتى لها ذلك وهى ـ (الدنيا) ـ مدينة فى خلقها للرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كان سببا فى خلقها وفى خلق غيرها .

ويبدو أن الشاعر يلمح بذلك إلى بعض الأحاديث التى لا يعلم مدى صحتها إلا الله ـ إذ اختلف فيها العلماء [4] ـ ومن هذه الأحاديث :

> " أوحى الله إلى عيسى (عليه السلام) : آمن بمحمد ومُرْ أمتك بأن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار.. [5] " .

---

(1) المرجع السابق جـ ٨ ص ١١٢ .

(2) الضحى / ٨ . (3) تفسير القرآن العظيم جـ ٨ ص ٤٤٨ .

(4) انظر : أمين محمود خطاب ، الإتحافات الإلهية ببيان المقامات العلية هامش ص ٥ ، ٦ طبع سنة ١٢٧٣ هـ (لم يدون عليه اسم المطبعة) .

(5) شرح الزرقانى المالكى على المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٤ وما بعدها المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٥ هـ .

ولقد رفض بعض الكتاب تلك الفكرة من البوصيري قائلا : " لا نوافق البوصيري على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو المقصود من هذا الوجود ، ولولاه لم يخلق الله العالم ، لأن هذا — على ما فيه من بطلان — تعليل لخلق العالم لم يذكره الخالق نفسه ، ولم يذكره محمد — عليه الصلاة والسلام ، وليس من الدين الخالص ، ولا من التفكير السديد أن يدين أحد بمثل هذا الرأي (١)

ولقد واصل الشاعر مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) : قائلا : (٢)

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم (٣)
نبينا الآمر الناهي فلا أحد أبر في قول لا منه ولا نعم (٤)

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أفضل المخلوقات ، وهو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، ولا أحد أصدق منه في أمره ونهيه.

وإذا تأملت قول الشاعر : (محمد سيد الكونين ..) وجدته قد صرح بالاسم الشريف ، وفي ذلك : تلذذ بذكره ، وكيف لا وهو أشرف أهل السماء وأهل الأرض من إنس وجن ، وعرب وعجم.

ولعل الشاعر يلمح إلى الحديث الشريف : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ : آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ". (٥)

---

(١) الإسلام : في شعر شوقي ص ٦٥ .
(٢) ديوانه ص ١٩٢ .
(٣) سيد / المراد أشرف وأفضل . الكونين : السماء والأرض والمراد : سيد أهل الكونين . الثقلين : الإنس والجن ومن ذلك قوله تعالى " سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ " الرحمن / ٣١
(٤) نبينا : من النبوة ، بلا همز — وهي الارتفاع — وبالهمز — من النبأ وهو الخبر فهو على الأول : المرتفع عند الله والناس ، وعلى الثاني : المخبر عن الله هذا في اللغة ، أما في الشرع فهو : إنسان حر ذكر من بني آدم أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر . (شرح البيجوري على الجوهرة جـ ١ ص ١١ (دار الشمس ١٩٦٥).
(٥) سنن الترمذي جـ ٥ ص ٢٤٧ .

ولا يخفى ما في قول الشاعر من إطناب ناسب مقام المدح ، إذ أتى بذكر الخاص ـ (الثقلين) ـ بعد العام ـ (الكونين) ـ ، كما أتى بتوشيع [1] في قوله : (من عرب ومن عجم) بعد قوله : (والفريقين) وكل هذا يؤكد المعنى ويقرره في النفس.
ثم يؤكد الشاعر فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلو منزلته فيقول [2] :

هو الحبيب الذى تُرجَى شفاعته

لكل هول من الأهوال مقتحم [3]

دعا إلى الله فالمستمسكون به

مستمسكون بحبل غير منفصم [4]

إنه الحبيب الذى تقبل شفاعته يوم الدين ، " يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [5] " ولقد دعا إلى الإيمان بالله والعمل بما في كتاب الله ، والاستمساك به فمن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام عراها .

وإذا تأملت قول الشاعر : (هو الحبيب) وجدته أسلوب قصر وطريقه تعريف الطرفين ، فعلام يدل ذلك التعبير ؟ إنه يدل على أنه هو الحبيب الذى لا حبيب سواه ، فهو أولى بالحب دون غيره ، أليس هو القائل : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين [6] " .

وكيف لا يكون كذلك وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة يوم يقول كل نبي " نفسي نفسي " ويقول هو : " يارب أمتي ، يارب أمتي " [7]

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (دعا إلى الله ..) إيجازاً بالحذف ، إذ حذف المفعول به ، لتذهب النفس فيه كل مذهب أى دعا القريب والبعيد ، والصاحب والعدو .. وهكذا ، وفي ذلك عموم وشمول ، كما حذف المضاف والأصل : (دعا

---

(١) هو : أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين، ثانيهما معطوف على الأول :التلخيص في علوم البلاغة ص ٢٢٣) . (٢) ديوانه ص ١٩٣ .
(٣) الحبيب: إما بمعنى (محب) فيكون اسم فاعل ، وإما بمعنى (محبوب) فيكون اسم مفعول . الهول : الشدة والبلاء . مقتحم : من الاقتحام وهو الوقوع في شدة .
(٤) المنفصم : المنقطع .
(٥) المطففين : ٦ .
(٦) صحيح البخارى ـ جـ١ ص ١٠ .
(٧) المرجع السابق جـ ٩ ص ١٨٠ ، وصحيح مسلم جـ١ ص ١٢٧ وما بعدها طبعة دار التحرير بمصر سنة ١٣٨٣ هـ .

إلى دين الله مثلا) وفى ذلك دليل على نزاهة دعوته ، ووضوح طريقها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ .. الآية)(١)

ولعل فى التعبير بلفظ الاستمساك ما يشير إلى أنه لا يكفى مجرد قبول الدعوة بل لابد من العض عليها بالنواجذ ، وتحمل مشاق تكاليفها .

ولا يخفى ما تشير إليه الكناية اللطيفة التى فى قول الشاعر : (بحبل غير منفصم) ففيها معنى القوة المستمدة من هذا الدين الحق .

ولعل الشاعر تأثر فى عبارته بالقرآن الكريم من مثل قوله تعالى : ((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا))(٢) ، وقوله تعالى : " .. فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا .. "(٣) .

ثم اتجه الشاعر إلى بيان منزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين بقية الرسل فقال(٤) :

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم(٥)

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم(٦)

وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم(٧)

يبين البوصيرى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد حظى من الله بفضل كبير ومقام عظيم ، ففاق النبيين فى كل أموره ، وسما عليهم فى كل أحواله . يؤكد ذلك لفظ (فاق) وما يحمل من معنى العلو والرفعة ، كما أن التنكير فى قوله : (فى خَلْق) وفى قوله : (فى خُلُق) وكذلك فى قوله : (فى علم ولا كرم) يدل على العموم والشمول والجلال والكمال .

---

(١) يوسف / ١٠٨ .
(٢) آل عمران / ١٠٣ .
(٣) البقرة / ٢٥٦ .
(٤) ديوانه ص ١٩٣ .
(٥) خلق : (بفتح الخاء وسكون اللام) أى الخِلْقة — خلق : (بضم الخاء واللام) . الطبيعة والسجية .
(٦) ملتمس : من الالتماس : وهو فى الأصل : الطلب من مماثل والمراد هنا : الأخذ (فملتمس أى آخذ) . غرفا : (بفتح الغين وسكون الراء) مصدر : غرف أى أخذ رشفا : مصدر رشف بمعنى مص . الديم : (بوزن الحيل) جمع ديمة : وهى المطر الدائم الذى ليس معه رعد ولا برق .
(٧) الحد : المراد الغاية — الشكلة : العلامة يشكل بها الكاتب . الحِكَم : (جمع حِكْمة) وهى وضع الشىء فى موضعه .

وأراد الشاعر أن يؤكد تلك المنزلة الكبيرة فقال : (ولم يدانوه فى علم ولا كرم) ولعله خص (العلم والكرم) بالذكر ، لأنهما أساس كل خير ، وأصل كل صفات الجلال والكمال ، والشرف والرفعة .

ويكفى دليلا على حسن أخلاق النبى (صلى الله عليه وسلم) قوله تعالى : " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (١) " كما يدل على حسن خِلْقَتِه (صلى الله عليه وسلم) ماذكرته بعض كتب السيرة والتاريخ مثل : " كان (صلى الله عليه وسلم) ظاهر الوضاءة ، ... وسيما قسيما .. كما كان فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر (٢) " .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وكلهم من رسول الله ملتمس .. البيت) . وجدته يؤكد فضل رسول الله ، وعظيم منزلته ، كما يبين غزارة علمه ، وسعة كرمه ، حتى لقد ذهب الشاعر إلى أن الأنبياء (عليهم السلام) قد أخذوا من فضائله بقدر ، فمنهم من أخذ كثيرا (غرفا من البحر) ، ومنهم من اقتبس قليلا (رشفا من الديم) وعرفوا منزلتهم بالنسبة إلى منزلته (ووافقون لديه عند حدهم) وأدركوا ضآلة علمهم بالنظر إلى علمه (من نقطة العلم أو من شكلة الحكم) . فعلمهم كالنقطة إلى جوار بحر علمه الغزير ، أو كالشكلة إلى جانب جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم) .

ولا يخفى أن الشاعر ذكر لفظ (النقطة) ولفظ (الشكلة) كناية عن الضآلة ، وهو فى هذا قد تأثر ببعض ما كان يستعمله فى عمله الأول عندما عمل خطاطا يكتب شواهد القبور - كما سبق (٣) .

ولعل سائلا يسأل : كيف يزعم الشاعر أن الأنبياء قد اقتبسوا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع أنه خاتمهم ؟

والجواب عن ذلك : يبدو أن الشاعر تأثر فى ذلك القول ببعض الأحاديث التى يوهم ظاهرها سبق الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قوله : (صلى الله عليه وسلم) " إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته " (٤) .

---

(١) القلم : ٤ (٢) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٥ بتصرف .

(٣) انظر ص ٥١ من هذه الرسالة .

(٤) رواه أحمد والبيهقى والحاكم وقال عنه الحاكم " صحيح الإسناد " انظر : شرح الزرقانى على المواهب اللدنية جـ ١ ص ٣١ ، طبقات ابن سعد جـ ١ القسم الأول ص ٩٥ وما بعدها ، ومعنى (منجدل) بضم الميم وسكون النون - أى ملقى على الجدالة وهى الأرض الصلبة .

وقوله (عليه الصلاة والسلام) فى حديث آخر عندما قيل له : يارسول الله متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد [(١)] .

ويبدو أن مثل هذه الأحاديث مؤولة على أن نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت مقدرة قبل خلق آدم (عليه السلام) وغيره ، إذ من الثابت أن الله (عز وجل) قد قدّر المقادير قبل خلق العالم كله على حسب علمه الأزلى ، وهذا ما يؤكده الحديث الشريف ، فمن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وكان عرشه على الماء [(٢)] ، وفى حديث آخر قال (صلى الله عليه وسلم) " إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رَبِّ وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء وحتى تقوم الساعة [(٣)] " .
بالاضافة الى ذلك يبدو أن الشاعر سلك مسلك كثير من الصوفية الذين يذهبون إلى القول بسبق النور المحمدى ، وأنه قد خلق منه ما عداه [(٤)] ، مستندين فى ذلك إلى حديث ضعيف الإسناد وهو : عن جابر بن عبد الله قال : قلت يارسول الله – بأبى أنت وأمى – اخبرنى عن أول شىء خلقه الله قبل الأشياء ، قال : " ياجابر ، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ... [(٥)] " والصوفية الذين يتمسكون بهذا الحديث يقولون : " وبهذا ثبت تقدمه (صلى الله عليه وسلم) على الأنبياء جميعا فى النشأة الروحية وأنهم منه أخذوا وارتشفوا .. [(٦)] " .

ومع كل هذا كنت أحب أن يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفات لا تثير جدلا أو اعتراض بعض الكتاب ، الذين عقبوا على قول البوصيرى

---

(١) سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٤٥ وقال عنه الترمذى " حسن صحيح " ، شرح الزرقانى على المواهب جـ ١ ص ٣٤ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) سليمان بن الأشعث (أبو داود) السجستانى : سننه جـ ٢ ص ٥٢٨ بتعليق الشيخ أحمد سعد مطبعة البابى الحلبى بمصر سنة ١٩٥٢
(٤) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ١٣٥ وما بعدها ، محمد ناصر الدرعى : النور المحمدى ص ٤ وما بعدها (لم يدون عليه اسم المطبعة) وطبع سنة ١٩٧٦ .
(٥) شرح الزرقانى على المواهب جـ ١ ص ٢٧ ، ص ٤٦ .
(٦) مغازى عامر : الترياق الصمدى حول النور المحمدى ص ١٥ بتحقيق محمد النجاتى – (لم يدون عليه اسم المطبعة) وطبع سنة ١٩٧٦ .

(وكلهم من رسول الله ملتمس ..) : " ولسنا نشك فى أن النبى أفضل الأنبياء ، لأنه خاتمهم ، وناسخ شرائعهم ، فكيف لا ندرى كيف اقتبسوا منه ، أو من شريعته ، وهم متقدمون عليه فى الزمن ؟ ولو أن البوصيرى قال : إن شريعته جاءت مكملة لشرائعهم ، وأنه بعث ليتمم ما كان ينقصهم لكان هذا هو المتفق مع الحقيقة ، ومع ما ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى ، وإذا كان قد أراد أن شرائعهم وأخلاقهم بالنسبة إلى شريعته وأخلاقه ، كأنها قبس منها ، فإن التعبير لم يسعفه ليدل على ما أراده [1] ".

إن الشاعر قد بين فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على سائر الرسل (عليهم السلام) وليس معنى هذا أنه يضع قدرهم أو يقلل شأنهم - حاشا لله - إن الرسل جميعا (عليهم الصلاة والسلام) أطهر عباد الله قلبا ، وأزكاهم نفسا ، وأوفرهم علما ، وأرجحهم عقلا ، وأجملهم خَلْقا ، وأكملهم خُلُقا ، وأكرمهم صدقا وأهداهم سبيلا ، إلا أن حكمة الله قد اقتضت أن يجعل هؤلاء الصفوة درجات فى الفضل ، ألم يقل (جلت قدرته) فى القرآن الكريم : " وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ... [2] " ألم يشر إلى ذلك أيضا فى قوله تعالى " : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ [3] .. " ولعل ذلك التفضيل يكون - والله أعلم - فى المواهب السنية ، والخصائص العلمية ، والفضائل الكريمة ، والمناقب العظيمة ، أما فى أصل النبوة فكلهم أنبياء الله [4] ، ولعل هذا هو ما ينصب عليه قوله : (صلى الله عليه وسلم) : " .. لا تخيروا بين الأنبياء [5] .. " وفى رواية أخرى " لا تفضلوا بين أنبياء الله .. " [6] .

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٥ ، الإمام البوصيرى ص ٦٣ .
(٢) الإسراء / ٥٥ ، وانظر تفسير القرآن العظيم المجلد الخامس ص ٨٧ .
(٣) البقرة : ٢٥٣ ، وانظر تفسير القرآن العظيم المجلد الأول ص ٤٤٨ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف : شذرات من معجزات وخصائص الرسول ، ص ٢٨ وما بعدها مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .
(٥) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٨ وما بعدها .
(٦) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٢٥ .

ومهما يكن من شيء فإن البوصيرى ما زال يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلا (١) :

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم (٢)

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم (٣)

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم (٤)

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

يشير الشاعر فى هذه الأبيات إلى أن الله تعالى قد اصطفى الرسول - محمدا (صلى الله عليه وسلم) بعد أن كمل باطنه وظاهره بالسمت الحسن، والخلق الكريم، وأصبح جامعا لصفات الجلال والكمال، التى لم يشاركه فيها أحد ، فاستحق أن يمدح بما يناسب شرفه العظيم ، ومقامه الجليل الذى لا يستطيع إنسان مهما أوتى من الفصاحة أن يحيط به .

وإذا تأملت قوله : (فهو الذى تم معناه وصورته) وجدته يدل على الإحاطة والشمول ، كما أنه يؤكد قوله سابقا : (فاق النبيين فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ) بل إن فيه محسنا بديعيا يسمى اللف والنشر المشوش ، إذ المعنى يرجع للخلق (بضم الخاء) والصورة ترجع للخلق (بفتح الخاء) .

ولعل فى قوله : (ثم اصطفاه حبيبا ..) ما يدل على أن الله يصنع رسله على عينه ، قبل الاصطفاء ، إلا أن قوله : (حبيبا) يشعر بزيادة القرب .

---

(١) ديوانه ص ١٩٣ .

(٢) معناه : المراد باطنه أى سجيته . صورته : المراد ظاهره أى هيئته. بارئ : خالق. النسم : (جمع نسمة) وهى الإنسان أو كل ذى روح .

(٣) منزه : من التنزيه وهو التقديس والمراد هنا البعد .

(٤) النصارى : أتباع السيد المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) . ولقد ادعى بعضهم أنه إله يقول تعالى : " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَم .. " (المائدة ٧٢) . كما ادعى بعضهم أنه ابن الله - حاشا لله - يقول تعالى : " وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ .. " التوبة / ٣٠ .

وأراد الشاعر أن يؤكد كمال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : (منزه عن شريك فى محاسنه) ولكن لفظ (منزه عن شريك) شاع استعماله بالنسبة لله سبحانه وتعالى – ولذا لم يحسن من الشاعر استعماله هنا ، وإن كان قوله : (فى محاسنه) قد خفف من مؤاخذة الشاعر على ذلك الاستعمال بعض الشىء ، ويلاحظ أن محاسن جمع (حسن) على غير القياس .

ويبدو أن الشاعر كان يتوقع أن قوله : (منزه عن شريك ..) سيعرضه للنقد فسارع قائلا : (دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ..) فهو بذلك يقول صف الرسول بما شئت وامدحه بما شئت ، ولكن احذر أن تغلو فى ذلك المديح ، فتصفه بصفات الله أو أن تدعى كما ادعى النصارى أن المسيح ابن الله ، أو هو إله ، ولعل فى ذلك القول تلميحا إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله "(1)

وأكد الشاعر تلك الفكرة بقوله : (وانسب إلى ذاته .. البيت) ولا يخفى ما فى البيت من وقع موسيقى جذاب منشؤه تقسيم عباراته .

أضف إلى ما سبق أن الشاعر قد عبر بالظاهر موضع المضمر فى قوله : (فإن فضل رسول الله ..) ولعل فى ذلك استلذاذا وتبركا بهذا الاسم الشريف ، كما أن فى قوله : (ناطق بفم) مجازا مرسلا ، إذ أطلق المحل وأراد الحال فيه وهو اللسان ، وفى ذلك تأكيد لا يخفى أثره فى توضيح الفكرة ، ويواصل الشاعر مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول (2) :

لو ناسبت قدره آياته عظمـــا	أحيا اسمه حين يُدعَى دارس الرمم(3)
لم يمتحنا بما تعيا العقول بـــه	حرصا علينا ، فلم نرتب ولم نهـــم(4)

إن آياته (صلى الله عليه وسلم) – مع عظمها – لم تناسب قدره ، إذ لو ناسبته

---

(1) صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٠٤ .
(2) ديوانه ص ١٩٣ .
(3) الرمم : جمع رمة (بكسر الراء وتشديد الميم) العظم البالى أو أجساد الموتى .
(4) ولم نهم : من هام الرجل فى أمره إذا لم يدر له مخرجا .

لكان الميت يحيى عندما ينادى عليه باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) . ولعل ذلك لم يكن من معجزاته ، حرصا علينا ، وشفقة بنا ، حتى لا تعيا عقولنا ، ولا تتحير ألبابنا فى أمر نبوته ، أوالشك فى بشريته .

وإذا تأملت قول الشاعر :(لو ناسبت .. البيت) لوجدت فيه مبالغة ولعل لفظ (لو) خفف منها كما يقول علماء البلاغة [١] :

ولا يخفى أن البيت الثانى تعليل للبيت الأول ، ولذا أتى به مفصولا عنه ، إن مقام الرسول كبير ، وشأنه عظيم ، يقول البوصيرى ، مؤكدا ذلك [٢] :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
في القرب والبعد منه غير منفحم [٣]

كالشمس تظهر للعينين من بعد
صغيرة ، وتكل الطرف من أمم [٤]

نعم ، عجز الخلائق عن الإحاطة بقدره الشريف ، وكل من حاول ذلك عن قرب أو بعد ، ظهر عجزه ، وغلبت حجته ، وهذا مثل الشمس التى تظهر للإنسان صغيرة من بعد ، وإذا حاول أن يدقق فيها النظر ، كلت عينه .

ولا يخفى أن فى إسناد : (أعيا) إلى (فهم معناه) مجازا عقليا دل على عظمة مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك العموم والشمول الذى أشار إليه الطباق فى قوله : (فى القرب والبعد) ، وإن كان لفظ (منفحم) لم يرد استعماله فى معاجم اللغة الموثوق بها [٥] فلعل عذر الشاعر فى ذلك شيوع الألفاظ العامية فى عصره ، ومهما يكن من شىء فإن فكرة الشاعر فى البيت الأول واضحة ، وزادها وضوحا تشبيه المعنوى بالمحسوس فى البيت الثانى .

---

(١) التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٧٠ . (٢) ديوانه ص ١٩٣ .
(٣) منفحم : صحيحة (مفحم) من فحم الرجل إذا سكت عن المجادلة ولم يجب ، مغلوب الحجة .
(٤) تكل الطرف : تتعب البصر . أمم : (بفتح الأول والثانى) قرب .
(٥) انظر لسان العرب مادة (فحم) ج ١٥ ص ٣٤٤ وما بعدها .
تاج العروس مادة (فحم) ج ٩ ص ٩ وما بعدها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد عظم مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال [١] :

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم [٢]
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

يتعجب الشاعر منكرا ، أن يدرك حقيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوم نيام ، وكل ما علموه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه بشر ، وأنه خير خلق الله جميعا .

إن الاستفهام فى قول الشاعر : (وكيف يدرك ...) يشعر بالإنكار ، كما أن قوله : (قوم نيام) يشعر بالاحتقار لهؤلاء القوم ، ولعل هذا هو ما دفعه إلى تنكير (قوم) ووصفهم بهذا الوصف المشعر بالأسى والحسرة (نيام) ويؤكد ذلك قوله : (تسلوا عنه بالحلم) .

ولا يخفى أن قول الشاعر : (فمبلغ العلم ..) يدل على العجز والجهل ، كما أنه قوله : (أنه بشر ..) يلمح إلى قوله تعالى : " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [٣] " . وقوله : (وأنه خير خلق الله كلهم) يلمح — أيضا — إلى قول الرسول : (صلى الله عليه وسلم) " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر [٤] " .

ولقد زعم بعض الكتاب أن هذا البيت : (فمبلغ العلم فيه .. البيت) هو الذى أكمله الرسول (صلى الله عليه وسلم) للشاعر عندما كان يقرأ القصيدة أمامه فى الرؤيا ، فقرأ الشطر الأول ، وعجز عن الشطر الثانى . فقال له الرسول : قل : يا إمام ، فقال : عجزت عن المصراع الثانى يارسول الله ، فقال له قل : " وأنه خير خلق الله كلهم " . فحرص الإمام على ذلك المصراع ووضعه فى بيت آخر زيد على القصيدة تبركا بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو :

مولاى صل وسلم دائما أبدا ... على حبيبك خير الخلق الله كلهم [٥]

---

(١) ديوانه ص ١٩٤ .
(٢) تسلوا : تنسوا ورضوا — الحلم (بضم الحاء واللام) : ما يراه الإنسان فى النوم .
(٣) الكهف / ١١٠ . (٤) سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٤٧ .
(٥) المدائح النبوية ص ١٨١ ، متن بردة المديح المباركة ص ١ : المطبعة المحمودية بمصر سنة ١٣٥٦ هـ .

ولكن هذا الزعم مرفوض لعدة أمور منها:

أولا : إن الله تعالى عصم رسوله من قول الشعر ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : "وما علمناه الشعر وما ينبغي له ... الآية" (١)

ثانيا : إن البوصيري قد نظم قصيدته كاملة قبل قصة الرؤيا ، فإذا كان قد عجز عن تكملة البيت ، وأكمله الرسول — كما تزعم القصة — فلماذا لم يذكر البوصيري فيما بعد الشطر الأصلي الذي كان قد نظمه ؟

ثالثا : إن هذا الشطر قد ورد كله تقريبا في قول الصرصري :

(محمد خير خلق الله كلهم) ∴ وهو الذي لفخار المجد ينتسب (٢)

ومعلوم أن الصرصري توفى قبل البوصيري بما يقرب من خمسين عاما (٣)

رابعا : إن هذا الشطر نفسه قد قاله البوصيري في بعض قصائده التي نظمها قبل البردة مثل قوله (٤) :

والمصطفى خير خلق الله كلهم

له على الرسل ترجيح وتفضيل

خامسا: إن خلو الديوان المحقق من هذا البيت :

مولاى صل وسلم دائما أبدا

على حبيبك خير خلق الله كلهم

يرجح أن القصة مزعومة ومنسوبة إلى البوصيري زورا وبهتانا .

ومهما يكن من شيء فإن البوصيري يوالي مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (٥) :

---

(١) يس / ٦٩ ، وتفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٥٧٤ وما بعدها .
(٢) ديوانه (مخطوط) ص ١٩ وما بعدها .
(٣) انظر هامش ص ٢٤ من هذه الرسالة .
(٤) ديوانه ص ١٧٢ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق ص ١٩٤ .

وكل آى أتى الرسل الكرام بها
فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها
يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

يشير الشاعر إلى أن كل معجزة تحققت على يد رسول من الرسل (عليهم السلام) ، فإنما كان الرسول - محمد - (صلى الله عليه وسلم) سببا لوقوعها ، ففضله عليهم مثل فضل الشمس على سائر الكواكب ، التى تستمد نورها من الشمس وتظهر ذلك النور فى الظلام - إذا غابت الشمس - للناس ، فالفضل راجع إلى الشمس ، إذ هى السبب فى ذلك النور .

ويلحظ أن الشاعر هنا - يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من سبق النور المحمدى [1] وإذا تأملت قوله : (وكل آى ..) وجدته يدل على العموم ، إذ أضاف لفظ (كل) إلى جمع منكر (آى) ، كما أن وصفه (الرسل) بالكرام يشعر بأدبه واحترامه لرسل الله أجمعين (عليهم الصلاة والسلام) .

ولا يخفى أن البيت الثانى توضيح وبيان للفكرة التى اشتمل عليها البيت الأول . وفيه دلالة على ثقافة الشاعر ومعرفته ببعض العلوم الكونية إذ يشعر كلامه بأن الشمس مضيئة بذاتها ، أما الكواكب فهى لا تضئ بذاتها ، وإنما تعكس نور الشمس فكأنها استمدت ذلك النور منها .

وقد اشتمل ذلك البيت على بعض المحسنات البديعية التى ساعدت على إظهار الفكرة ووضوحها مثل : التناسب بين (شمس وكواكب) والطباق بين (أنوار وظلم) .

وأراد الشاعر أن يشير إلى بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال [2] :

---

(١) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة .
(٢) ديوانه ص ١٦٤ ، ولقد ورد فى بعض الكتب بيت قبل تلك الأبيات وهو :
حتى إذا طلعت فى الأفق عم هدا ... ها للعالمين وأحيت سائر الأمم
ويبدو أنه ليس من نظم البوصيرى ، لضعفه من جهة الأداء ، ولعدم وروده فى الديوان المحقق ، أضف إلى ذلك قلة المراجع التى أشارت إليه . انظر حاشية الباجورى على البردة ص ٢٦ .

أكرم بخَلق نبي زانه خُلُق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف
والبحر فى كرم ، والدهر فى همم
كأنه وهو فرد من جلالته فى عسكر حين تلقاه وفى حشم [1]

ما أعظم هذا النبي (صلى الله عليه وسلم) الذى جمع بين حسن الخلق وعظيم الخلق كما جمع بين لطافة الزهر ونضارته ، وبين البدر فى علوه ورفعته وهدايته أضف إلى ذلك أنه أشبه البحر فى كرمه ، وماثل الدّهر فى همه ، وله مهابة وجلاله ، فإذا لقيته مفردا عبته كأنه محاط بالعسكر والحشم .

والملاحظ أن هذه التشبيهات كثيرة الدوران على الألسنة ، بل إن بعض الكتاب لم يقبل بعضها ، إذ قال " لا نستجيد قوله : (كالزهر فى ترف) لأن مقام الرسول والرسالة أجل من هذا التشبيه ، وأغلب الظن أن حرص البوصيرى على الجناس بين (ترف وشرف) هو الذى زين له هذا التشبيه .. [2] " .

ولا يخفى أن الشاعر قد وفق فى بعض عباراته مثل (بالحسن مشتمل) فهذا يدل على إحاطة الحسن به من كل جانبه كما أن قوله : (بالبشر متسم) يلمح إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة والتاريخ من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان طلق الوجه [3] .

وأخيرا يختم الشاعر مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [4] :
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف
من معدنى منطق منه ومبتسم
لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه
طوبى لمنتشق منه وملتثم

---

(١) حشم : خدم .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٥ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ق٢ ص ١٣٠ .
(٤) ديوانه ص ١٩٤ .

نعم : ما أعذب كلماتك وما أفصحها يارسول الله ، إنها حين تخرج من فمك الطاهر كأنها اللؤلؤ فى صفائه ونقائه ، بل إنها تخرج - أيضا - من بين ثنايا كاللؤلؤ ، وما أحسن طيبك الذى لا يدانيه أى طيب وليس ذلك فى حياتك فحسب ، بل بعد موتك أيضا إذ التراب الذى يجمد جسدك الشريف له عبير لا يماثله عبير ، فطوبى لمن شمه وقبله ، والشاعر فى البيت الأول يشبه كلمات الرسول وأسنانه باللؤلؤ ، وهذا مقبول بالنسبة لكلماته ، إذ ورد ما يؤكد جوازه ، ومن ذلك ما ذكرته بعض كتب السيرة فى وصف كلمات الرسول : " ... كان منطقه خرزات نظم يتحدرن .. "[1] ، أما بالنسبة لوصف أسنان الرسول ، فرفضه بعض الكتاب بقوله : " لا نستجيد تشبيه أسنان رسول الله باللؤلؤ ، لأن هذا وصف جسدى لا يليق بالرجال فما بالنا بسيد الأبطال ؟[2] " .

وأرى أن الوصف الجسدى لا عيب فيه ما دام لم يتعرض لذكر ما لا يجوز ذكره - كالعورة مثلا - ولقد ذكرت كثير من كتب السيرة والتاريخ وصفا جسديا للرسول (صلى الله عليه وسلم): ومن ذلك : كان (صلى الله عليه وسلم) : أزهر اللون واسع الجبين .. كث اللحية ، ضليع الفم ، مفلج الأسنان .. عريض الصدر[3] " .

ويبدو أن الشاعر يلمح فى البيت الثانى إلى ما ذكره أنس بن مالك (رضى الله عنه) إذ قال : (ولقد شممت العطر فما شممت ريح شىء أطيب ريحا من رسول الله[4]) .

ولا تخفى قيمة التشبيه فى البيت الأول إذ وضح الفكرة وأظهرها ، كما أن فى قول الشاعر : (لا طيب ..) عموما اكتسبه من دخول النفى على النكرة وهذا يؤكد الفكرة أيضا ، وفى قول الشاعر : (ضم أعظمه) مجاز مرسل علاقته الجزئية إذ المراد ضم جسده كله ، وكنت أود أن لا يعبر الشاعر بالمجاز هنا حتى لا يوهم أن الأرض أكلت اللحم ولم يبق إلا العظم وهذا يخالف ما ورد من أن الله حرم على الأرض (أن تأكل) أجساد الأنبياء[5] .

---

(١) أسد الغابة ج ١ ص ٢٥٤ .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٥ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ق ٢ ص ١٢٩ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ق ٢ ص ١٠٢ .
(٥) سنن أبى داود ط ص ٣٤١

كما أن في قول الشاعر : (ملتثم) خطأ ، لأن معناه الذى يضع اللثام على فيه[1] ، ولا شك فى أن الشاعر لم يرد ذلك المعنى وإنما أراد (اللاثم) أى - المقبل .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

بعدما ذكر الشاعر عدم وجود رائحة طيبة تعدل رائحة ذلك التراب الذى ضم جسد الرسول (صلى الله عليه وسلم) - انتقل إلى الحديث عن مولده (صلى الله عليه وسلم) وهذا يدل على أن الشاعر لم يراع الترتيب الزمنى فى نظمه ، ومهما يكن من شئ ، فلقد بدأ حديثه عن المولد النبوى بقوله[2] :

أبان مولده عن طيب عنصره	يا طيب مبتدأ منه ومختتم [3]
يوم تفرس فيه الفرس أنهم	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم [4]
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم [5]

(١) المصباح المنير جـ ٢ ص ٧٥٣ مادة (لثم) (٢) ديوانه ص ١٩٤ .

(٣) أبان : أظهر وكشف. مولده : يصح أن يكون مكان ولادته أو زمانه ولعل المراد هنا زمانه بدليل قوله فى البيت الثانى : (يوم ..) ولقد اختلف المؤرخون فى يوم ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فمنهم من ذهب إلى أنه ولد فى يوم الإثنين ١٢ - ربيع الأول الموافق ٢٠ - أغسطس سنة ٥٧٠ م . ويسمى ذلك العام عام الفيل - وهذا هو الراجح ، ومنهم من قال : إنه ولد فى ١٠ من ربيع الأول ، وقيل : ٢ من ربيع الأول ، إلا أن العالم المصرى الفلكى محمود حمدى المتوفى سنة ١٨٨٥ م ذهب إلى أن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان فى صباح يوم الإثنين ٩ من ربيع الأول - الموافق ٢٠ من إبريل سنة ٥٧١ - وذلك بعد تحقيق فلكى - انظر فى ذلك : طبقات ابن سعد جـ ١ القسم الأول ص ٦٢ وما بعدها - حياة محمد ص ١٠٨ وما بعدها ، محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٦ . مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٥ . ومحمود حمدى : المولد النبوى ص ٨٥ مطبعة الأزهر بمصر سنة ١٩٦٩

عنصره : أصله ، والمراد آباؤه الذين تناسل منهم . وطيب عنصره : طهارته مما يشين . مبتدأ الشئ : أوله ، مختتمه : آخره ، والمراد أنه (صلى الله عليه وسلم) طاهر من جميع نواحيه من لدن آدم (عليه السلام) وقيل : من هاشم - جد الرسول - (صلى الله عليه وسلم) إلى والده عبد الله .

(٤) تفرس : تفطن وتثبت من الفراسة : وهى قوة تمكن الإنسان من إدراك الأمور الخفية بالقرائن. البؤس : الشدة والعذاب . النقم (جمع نقمة) وهى العقوبة والبلاء .

(٥) الإيوان : معرب ويطلق على البيت المستطيل غير مسدود الوجه (كسرى) لقب لكل ملك من ملوك الفرس وهو معرب (خسرو) ، والمراد بإيوان كسرى / قصره الذى كان بالمدائن ببلاد العراق .

والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه ، والنهر ساهى العين من سدم[1]

لقد كشف مولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ـ وما صاحبه من حوادث لفتت الأنظار ، وشدت الأفكار ـ كشف كل ذلك عن رفعة هذا المولود ، وعلو شأنه فى ذلك الوجود ، كما دل على كريم عنصره ، وطهارة محتده .

أراد الشاعر أن يؤكد أثر هذا المولد فأسند الفعل (أبان) إليه ، وفى هذا الإسناد مجاز عقلى ، لا يخفى أثره فى توضيح الفكرة وتأكيدها ، بالإضافة إلى ما فيه من تشخيص وإيحاء .

وجرى البوصيرى على عادة العرب عندما يعجبون من شىء ينادونه ، وينزلونه منزلة من يعقل وينادى فقال : (ياطيب) ولا شك فى أن هذا النداء المشوب بالتعجب يثير الحس ، ويحرك النفس .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (طيب عنصره) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن الله -عز وجل- اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم[2] " وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " .. خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم ، وخيركم أبا[3] " .

والبيت الأول واضح العبارة ، سهل الألفاظ ، محلى ببعض المحسنات البديعية مثل التكرار فى (طيبه ياطيب) وهذا يدل على التعجب من أصله الطاهر ، ومعدنه الكريم ، ومثل الطباقين : (مبتدأ ومختتم) وفيه دلالة على العموم والشمول .

وأحسن الشاعر عندما أجمل الحديث عن المولد النبوى فى بيت واحد ، فأثار الشوق إلى توضيح وبيان ، ولذا أتى بالبيت الثانى مفصولا عن الأول ، ولا يخفى

---

(1) ساهى : غافل والمراد هنا ساكن غير جار لتضويعاته ، السدم : الحزن المصحوب بغيظ وقيل : الندم .
(2) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٢٤ .
(3) لجنة من العلماء : المنتخب من السنة (من مؤلفات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر) جـ ١ ص ٦٧ مطابع الأهرام التجارية سنة ١٩٧٠ .

ما في تنكير (يوم) من تعظيم وتفخيم ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد أيقن الفرس - فيه - أنه قد حل بهم الهلاك ، وكتب على دولتهم الفناء ، ولقد أحسن الشاعر عندما أكد ذلك الأمر بمؤكدين -(أنهم ، قد)- زادا المعنى بيانا وتأكيدا .

ولقد وقعت في هذا اليوم حوادث هزت كيانهم ، وأنزلت الرعب في قلوبهم ومن ذلك : تصدع إيوان ملكهم كسرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ، وبقاء بعضها للعبرة والعظة [1] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (بات إيوان كسرى .. البيت) وجدته يشير إلى سرعة أثر هذا المولد ، وعظم ذلك المولود ، إذ كان المولد صباحا - على الراجح - ولم يأت المساء - يشير إليه لفظ (بات) - إلا تصدع الإيوان ، ولعل ضمير الفصل (هو) يؤكد ذلك ، بالإضافة إلى ما في العبارة من تهكم واستهزاء بهذا القصر المنيف ، وما طرأ عليه من تصدع وخلل ، لا يقل عن تفرق شمل أصحاب كسرى الذين تفرق شملهم ، وتفكك جمعهم .

ولعل في هذا التشبيه : (كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم) ما يشير إلى أن هذه الأحداث كانت عظيمة الأثر ، فتأثر بها الجماد -(الإيوان)- كما تأثر بها الإنسان -(أصحاب كسرى)- .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل إن النار التي كان أهل فارس يعبدونها - من دون الله - قد خمدت أنفاسها - حزنا على تصدع الإيوان - وشاركها في ذلك نهر الفرات ، الذي أخرجه الغيظ والحزن من طريقه الطبيعي - فصب ماءه في بادية السماوة [2] .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (والنار خامدة الأنفاس ..) وقوله (والنهر ساهي العين ..) استعارتين مكنيتين ، قد أكدتا عظم هذه الحوادث التي أثرت فيما لا يعقل ، فما بالك بمن يعقل !!

---

(١) على بن برهان الحلبي : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) جـ ١ ص ٨٦ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (غير مؤرخ) .
(٢) بادية بالعراق قريبة من نهر الفرات .

ولقد تمكن البوصيرى من اختيار ألفاظ ترسم تلك الصورة المفزعة والشاعر الحزينة ، مثل : (أنذروا ، البؤس ، النقم ، متصدع ، غير ملتئم ، خامدة الأنفاس ، أسف ، ساهى العين ، سدم) .

وكل هذا أخرج صورة كاملة لتلك الأحداث التى واصل الشاعر الحديث عن بقيتها بقوله [1] :

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها

ورد واردها بالغيظ حين ظمى [2]

كأن بالنار ما بالماء من بلل

حزنا ، وبالماء ما بالنار من ضرم [3]

والجن تهتف والأنوار ساطعة

والحق يظهر من معنى ومن كلم [4]

ومن الحوادث التى صاحبت المولد النبوى الكريم أن بحيرة ساوة قد غاض ماؤها وجف معينها ، [5] ، وعندما ذهب أهلها يستقون ، رأوا ما أغضبهم ، وأشعل نار الغيظ فى قلوبهم ، فأصبحوا بين ظمأ قاتل ، وأسف مهلك .

ولعل ما يثير العجب أن الأمور قد انقلبت ، والأحوال قد تبدلت ، ومن ذلك أن النار من شدة حزنها سالت دموعها ، وانهمرت عيونها ، فابتلت بها ثم انطفأت ، كما أن الماء من شدة حزنه قد اشتعل فتبخر [6] .

لم تقتصر أحداث ذلك المولد النبوى الشريف على الإيوان فتصدعت بعض شرفاته ، ولا على أصحاب كسرى فتفرق شملهم ، ولا على النار فخمدت أنفاسها ،

---

(١) ديوانه ص : ١٩٤

(٢) (ساوة) مدينة بين الرى وهمدان ، ويقربها تقع بحيرة ساوة ، واردها : الذى ذهب يطلب الماء للسقيا . ظمى : أصلها (ظمئ) فحذفت الهمزة للقافية .

(٣) الضرم : الاشتعال .

(٤) الجن : ضد الإنس الواحد (جنى) سموا بذلك لأنهم يتقون ولا يرون . تهتف : المراد تصرخ . الأنوار : المراد بها الأنوار التى ظهرت يوم ولادته (صلى الله عليه وسلم) حتى أضاءت منها قصور الشام (طبقات ابن سعد جـ١ القسم الأول ص

(٥) إنسان العيون جـ١ ص ٧٨ وقيل : إن البحيرة التى غاض ماؤها بحيرة طبرية (انظر المرجع السابق) .

(٦) الإسلام فى شعر شوقى . ص ٤٩ .

ولا على نهر الفرات فضلّ طريقه ، بل تعدى ذلك كله إلى الجن أيضا ففزعوا عندما رأوا الأنوار الساطعة ، والأضواء اللامعة [١] ، فأيقنوا أن حدثا جللا قد وقع فصرخوا ، وهربوا فى بطون الأودية وشعابا لجبال . [٢]

ولعل فى إسناد الشاعر الفعل (ساء) إلى (ساوة) ما يشير إلى بيان شدة الحزن التى أثرت فى الجماد - (ساوة) - فما بالك بأهله ، فلا شك فى أن الحزن قد عمهم ، وأن الأسى قد ملك مشاعرهم ، وهذا الإسناد مجاز مرسل علاقته المحلية والأصل (ساء أهل ساوة) .

ولا يخفى أن فى البيت الثانى مبالغة أكدت المعنى ، ووضحت الفكرة (كأن بالنار ما بالماء من بلل .. البيت) وإن كان التشبيه قد خفف من وقعها بعض الشىء فلا بأس .

ولقد بُدى ، البيت الثالث بجملة اسمية (والجن تهتف .. البيت) أكدت المعنى ، ومما زاده تأكيدا تكرار الإسناد ، ويبدو أن الشاعر ألحق بالفعل تاء التأنيث فى قوله : (تهتف) على تقدير (جماعة الجن) مثلا .

ومما هو جدير بالذكر أن البوصيرى ليس أول من أشار إلى بعض الحوادث التى صاحبت المولد النبوى نظما - إذ سبقه الشاعر الصرصرى بقوله [٣] :

وكسرى أنوشروان زلزل قصره
وشق ، وتاج الملك فك نظامه
ونار مجوس الفرس أطفئ وقدها
ولم يك فى الأعصار تخبو ضرامه

ولا يخفى أن البوصيرى أجود منه نظما وأسلس منه عبارة .

---

(١) إنسان العيون ج ١ ص ٨٨ ، ص ٨٩ ، السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ١٠٥ ، ص ١١١ مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ديوانه المخطوط ، ص ١٩١ .

بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ولقد انتقل الشاعر من الحديث عن مولد الرسول الكريم وعن ذكر بعض الحوادث التي صاحبته ، إلى الحديث عن بعثته (صلى الله عليه وسلم) فقال (١)

عموا وصموا فإعلان البشائر لم
تسمع ، وبارقة الإنذار لم تشم (٢)

من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم
بأن دينهم المعوج لم يقم (٣)

وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب
منقضة وفق ما في الأرض من صنم (٤)

حتى غدا عن طريق الوحي منهزم
من الشياطين يقفو إثر منهزم (٥)

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى هؤلاء الكفار الذين سمعوا أخبار تلك الأحداث التي صاحبت المولد النبوي - ومنهم من رآها - وأثارت في نفوسهم الأفكار حول شأن ذلك المولود ، ولما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنكروا عليه ذلك .

---

(١) ديوانه ص ١٩٥ .
(٢) الضمير في (عموا وصموا) يعود على الكفار من الفرس وغيرهم . البشائر : جمع بشارة أو بشرى وهي الخبر السار . البارقة : اللامعة ، وهي في الأصل اسم للسيف يقال بيده بارقة أي سيف لامع ، والتاء زائدة للمبالغة ، لم تشم : لم تنظر ، يقال شام البرق إذا نظر إلى السحابة ليعلم مقصدها .
(٣) الأقوام : (جمع قوم) خاص بالرجال على الصحيح ، والمراد بهم هنا : الكفار . الكاهن : الذي يخبر عن المغيبات الماضية ، أو من كان له تابع من الجن يخبره بخبر السماء لاستراق السمع فيحدث الناس بذلك ولكنه يزيد على كلمة الصدق مائة كذبة انظر صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٥٢ .
(٤) عاينوا : شاهدوا . الأفق : (بسكون الفا) لغة في (الأفق) - بضمها - والمراد نواحي السحاب . الشهب : جمع شهاب ، والمراد به هنا : الشعلة من نار ساطعة تقذف بها الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع ويلقونه إلى الكهان ، فلما قرب مبعث الرسول حيل بينهم وبين ذلك انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٧ ، تفسير القرآن العظيم جـ ٨ ص ٢٦٧ . منقضة : من انقض السهم إذا أسرع بشدة ، وفق : بمعنى الموافقة والمماثلة .
(٥) غدا : أصبح . الوحي : يطلق على الكلام الخفي والإشارة والإلهام ، وجبريل (عليه السلام) والمراد بطريقه : السماء . منهزم : المراد هارب .

وإذا تأملت قول الشاعر : (عموا وصموا ...) وجدته كلاما مستأنفا بمثابة الإجابة عن سؤال مقدر أثاره قول الشاعر فى البيت السابق : (والحق يظهر من معنى ومن كلم) فكان السؤال :

إذا كان الأمر كذلك فما بال هؤلاء الكفار قد جحدوا نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟

فأتى جواب الشاعر ممزوجا بالاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، إذ قال : (عموا وصموا ...) ومن المعلوم أنهم لم يكونوا عميا ولا صما حقيقة ، ولكن لما لم ينتفعوا بما شاهدوا ، ولم يتعظوا بما سمعوا ، كانوا كالعميان الذين لم يروا هذه البشائر ، وكالصم الذين لم يسمعوا هذه النذر .

وقد أحسن الشاعر عندما قال : (فإعلان البشائر ...) وكيف لا تكون بشائر وهى تبشر بمولد الهدى ، ومبعث الرحمة ، كما أحسن عندما دلل على عناد هؤلاء الكفار واستكبارهم بأكثر من دليل : فكاهنهم اعترف لهم بالحقيقة ، وهو بهذا يلمح إلى هؤلاء الكهان الذين كان عندهم علم - عن طريق الكتب السابقة - بقرب مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١) .

وتبدو السخرية من هؤلاء القوم عندما وصف الشاعر دينهم بالاعوجاج ، كما أن فى قوله : (لم يقم) نكتة لطيفة وهى الإشارة إلى أن هذا الدين لم تقم له قائمة صحيحة فى الماضى ففى المستقبل من باب أولى .

ويلمح الشاعر بقوله : (وبعدما عاينوا فى الأفق من شهب ... البيت) إلى قصة الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع ثم منعوا من ذلك بدليل قوله تعالى " وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً " (٢) ، وقوله تعالى : " .. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ " (٣) .

---

(١) إنسان العيون جـ ١ ص ٩٠ وما بعدها .
(٢) الجن / ٨ ، ٩ .
(٣) الصافات / ١٠ .
وتفسير القرآن العظيم المجلد السابع ص ٤ وما بعدها ،
صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٥٢ .

ولقد أشار الشاعر إلى أن الأصنام قد نكست (١) عندما انقضت الشهب على الشياطين (٢)، وأصل فى لفظ (منقضة) ما يشير إلى القوة، وفى ذلك دلالة على أن دولة الحق - متمثلة فى الدين الذى بعث به الرسول (صلى الله عليه وسلم) - ستقضى على الباطل وأهله، والكفر وأتباعه.

إن هروب الشياطين أمر معنوى يحتاج إلى ما يوضحه ويؤكده، ولذلك أحسن الشاعر عندما قال : (٣)

كأنهم هربا أبطال أبرهة ... أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى (٤)
نبذا به بعد تسبيح ببطنهما ... نبذ المسبح من أحشاء ملتقم

لقد هربت الشياطين خوفا من الشهب المحرقة، وكان هروبهم شبيها بهروب أبرهة حينما سلط الله عليه " طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ " (٥) أو كان هروبهم وفرارهم مثل فرار الكفار فى غزوة (حنين) (٦) تلك الغزوة التى رمى النبى فيها الكفار بالحصى الذى كان فى يديه (٧).

وإذا تأملت قول الشاعر : (كأنهم هربا .. البيت) وجدته شبه الأمر المعنوى - هروب الشياطين وفرارهم - بالأمر المحسوس - هروب جيش أبرهة أو هروب الكفار وفرارهم - ولاشك أن فى ذلك توضيحا وبيانا، وخاصة أن هذين الأمرين قد شاهدها كثير من الناس.

---

(١) أبو نعيم : دلائل النبوة ص ١٨٠ وما بعدها - من مطبوعات وزارة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة ١٩٥٠.
(٢) إنسان العيون جـ ١ ص ٧٨.
(٣) ديوانه ص ١٩٥.
(٤) كأنهم : الضمير يعود على الشياطين، وقد أخطأ من قال إنه يعود على المشركين (انظر الاسلام فى شعر شوقى ص ٥٠) لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، والشياطين هم آخر من أشار إليهم الشاعر فى البيت السابق - كما أن المعنى يؤيد ذلك. الأبطال: جمع بطل والمراد به الشجاع القوى. أبرهة : كان ملكا على اليمن من قبيل نجاشى الحبشة قبل مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يصرف الناس عن حج الكعبة فبنى بيتا ليحج الناس إليه، فدنسه أعرابى، فصمم أبرهة على هدم الكعبة إنتقاما، فجهز جيشا قويا تتقدمه الفيلة، ولكن الله سلط عليه الطير ترميه بالحجارة فشرده - وأهلكه (انظر : حياة محمد ص ١٠١ وما بعدها).
(٥) الفيل : ٣-٥.
(٦) بضم الحاء وفتح النون وإسكان الياء - واد بينه وبين مكة ثلاث ليال.
(٧) الطبقات الكبرى جـ ٢ ق ١ ص ١٠٦

والشاعر قد ألمح إلى ثلاث قصص :

الأولى : قصة جيش أبرهة الذى أراد هدم الكعبة ، فكان جزاؤه الهلاك ، ولعل في تلك القصة - التي ولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في العام الذى وقعت فيه - ما يشير إلى أن الله حافظ بيته ، وناصر نبيه .

ولعل في قول الشاعر : (أبطال أبرهة) ما يشعر بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء الأبطال الذين مزقوا كل ممزق ، على الرغم من كونهم أبطالا .

الثانية : قصة الحصى الذى رماه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الكفار في غزوة حنين ، فانكسرت فيها جحافل الشرك ، وانهزم فيها أعوان الباطل .

ولقد أشار الشاعر - في البيت الثاني - إلى أن الحصى الذى نبذه الرسول (صلى الله عليه وسلم) - عندما كان يحارب الكفار - قد سبح في يديه قبل نبذه ، ولكن يبدو أن تسبيح الحصى كان في مناسبة أخرى غير الحرب [1] ، ويؤكد ذلك : أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) - في غزوة حنين - قال للعباس ابن عبد المطلب : ناولني حصيات فناوله حصيات من الأرض ، ثم قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : شاهت الوجوه ، ورمى بها وجوه المشركين ، وقال : انهزموا ورب الكعبة ... ، [2] فهذه الرواية لم تذكر أن الحصى سبح في يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ومهما يكن من شئ ، فإن البوصيرى قد أشار إلى القصة الثالثة بقوله :
(نبذ المسبّح من أحشاء ملتقم) والمسبّح هنا هو : نبى الله يونس (عليه السلام) الذى كان يسبح الله في بطن الحوت قبل نبذه [3] ، ولعل الشاعر يلمح بتلك الإشارة إلى قوله تعالى : « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ [4] » .

---

(١) انظر : شرح الزرقاني على المواهب جـ ٥ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٢) الطبقات الكبرى جـ ٢ ق ١ ص ١٠٦ وما بعدها
(٣) ابن كثير : قصص الأنبياء جـ ١ ص ٣٨٦ وما بعدها بتحقيق مصطفى عبد الواحد - مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٨ .
(٤) الصافات (١٤٢-١٤٥) ، وتفسير القرآن العظيم جـ ٧ ص ٣٣ وما بعدها .

ويبدو أن الشاعر قصد تشبيه نبذ الحصى بنبذ نبي الله يونس (عليه السلام) أي مجرد تشبيه النبذ ، لا المنبوذ ، لأن هذا لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى .

بعض معجزات [1] الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وبعدما ذكر الشاعر بعض الحوادث التي صاحبت مولد الرسول الكريم ، وبعدما تحدث عن بعض الأمور الخارقة للعادة مثل : (تسبيح الحصى في يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر معجزات أخرى للنبي (عليه الصلاة والسلام) في قوله [2] :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة	تمشي إليه على ساق بلا قدم [3]
كأنما سطرت سطرا لما كتبت	فروعها من بديع الخط في اللقم [4]
مثل الغمامة أنى سار سائرة	تقيه حر وطيس بالهجير حمي [5]

إن من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك الشجرة التي دعاها فأتت ممتثلة أمره ، ومن قبل ذلك قد ظللته الغمامة [6] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (جاءت لدعوته .. البيت) وجدته يتحدث عن أمر حقيقي وهو المجيء ، ولكنه استطاع أن يصوره بصورة ملفتة للأذهان ، تأمله مرة ثانية تجد الامتثال المطلق والخضوع التام في (ساجدة) وإذا تأملت علة المجيء ، وجدتها دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذا الذي يناديه الرسول فيأبى ، ويدعوه فلا يستجيب ، ولعل في تقديم لفظ (لدعوته) ما يدل

---

(1) المعجزة : هي الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة - انظر شرح البيجوري على الجوهرة جـ ٢ ص ٤٥ .

(٢) ديوانه ص ١٦٥ .

(٣) لدعوته : لندائه . ساجدة : المراد خاضعة .

(٤) سطرت : جعلت فروعها (جمع فرع) المراد أغصانها . في اللقم (بفتح اللام والقاف) في وسط الطريق . وهذه رواية الديوان المحقق ، بينما كتب (باللقم) في بعض طبعات البردة : انظر متن البردة ص ١٧ مطبعة الشرلي بمصر سنة ١٦٧٣ .

(٥) الغمامة : واحدة الغمام : أي السحاب . الوطيس : التنور ، والمراد شدة الحر . الهجير : نصف النهار إذا كان حارا . حمي الوطيس : كناية عن شدة الحر - ورواية الديوان (بالهجير) ولقد ورد ذلك اللفظ في بعض طبعات البردة (الهجير) انظر متن البردة ص ١٨ مطبعة الشرلي بمصر سنة ١٦٧٣ .

(٦) وتظليل الغمامة لم يصحبه تحد ويبدو أن الشاعر سيذكر من المعجزات ما صاحبه تحد وما لا يصحبه تحد ، فيكون من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أو من عموم المجاز (انظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد جـ ١ ص ٣٢ .

(٧) شرح الزرقاني على المواهب ٥ ص ١٢٠ وهناك روايات أخرى توضح الفكرة (انظر صحيح مسلم جـ ٥ ص ٨٥٦ - شرح الزرقاني على المواهب جـ ٥ ص ١٢٣ .

على الاهتمام بها ، وتعظيم شأنها .

والعجيب أن هذا المجيء لم يكن مجيئا عاديا ، بل إنه (على ساق بلا قدم) ولعلك تدرك ما في هذا التعبير من روعة ، إنه يثير الدهشة ، إذ كيف يتأتى مجيء على ساق بلا قدم ، ولكنها قدرة الخالق العظيم ، الذي يقول للشيء : كن فيكون .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يزيد الأمر وضوحا ، والمعجزة بيانا ، فذكر أن هذه الأشجار لم تمتثل الأمر بالمجيء فقط بل إن فروعها خطت خطوطا جميلة على الأرض وكأن هذه الخطوط تسجيلا واعترافا برسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا شك في أن ذلك الخيال قد أكد المعنى ووضحه .

والشاعر يلمح بتلك المعجزة إلى الأحاديث التي وردت في شأنها وهي كثيرة ، ولعل الشاعر عبر بلفظ (الأشجار) جمعا ، إشارة إلى تعدد تلك الأحاديث .

ومنها ما روى أن رجلا جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال له : أرني آية ، فقال له النبي : اذهب إلى تلك الشجرة ، فقل لها : رسول الله يدعوك ، فذهب إليها ، فقال : إن رسول الله يدعوك ، فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها ، وبين يديها وخلفها ، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد (تشق) الأرض حتى وقفت بين يديه ، فأمرها الرسول بأن ترجع ، فقام الرجل فقبل رأسه ويديه ورجليه[1]))

ولعل في وقوع مثل تلك المعجزة ما يحث على الإيمان بالدين الإسلامي ، كما أن فيه تبكيتا للذين دعاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأعرضوا عنه ، في حين أن الشجرة استجابت لندائه (صلى الله عليه وسلم) .

وفي البيت الثالث أشار الشاعر إلى أمر خارق للعادة ـ أيضا ـ وقع للرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن ذلك كان قبل البعثة[2] ، وهو : تظليل الغمامة ، ولقد ظللته الغمامة أكثر من مرة يؤكد ذلك ما ذكرته بعض كتب

(١) شرح الزرقاني على المواهب ٥ ص ١٣٠ ، وهناك روايات أخرى توضح الفكرة (انظر صحيح مسلم جـ ٥ ص ٨٥٦ ـ شرح الزرقاني على المواهب ٥ ص ١٢٣ .

(٢) ويسمى الأمر الخارق للعادة إذا وقع قبل البعثة : إرهاصا .

السيرة والتاريخ ، ومن ذلك ما ذكرته الشيماء ـ أخت الرسول من الرضاعة ـ أنها رأت غمامة تظلل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإذا وقف وقفت وإذا سار سارت[1] وكان ذلك فى أثناء رضاعه من السيدة حليمة السعدية[2] ، كما ظللته الغمامة أيضا عندما كان مسافرا مع عمه أبى طالب إلى الشام[3] .

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى حدث قد أشارت إليه بعض كتب السيرة والتاريخ فإنه استطاع أن يصوغه فى أسلوب شائق مثير ، تأمل قوله (أنى سار سائرة) تجده يوحى بعناية الله تعالى بنبيه قبل البعثة ، كما يوحى أيضا بأن هذا الشخص سيكون له شأن كبير ، بالإضافة إلى ما فى العبارة من معنى التعجب الذى يثير الانتباه ، وساعد على ذلك أيضا ما فى الأبيات من موسيقى رائعة كان سببها تكرار حرف السين (وهو من حروف الصفير) .

ويستمر البوصيرى فى ذكر بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول[4] :

أقسمت بالقمر المنشق إن له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم[5]

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمى[6]

فالصدق فى الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم[7]

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم[8]

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) هى حليمة بنت أبى ذؤيب بن سعد بن بكر ـ أم الرسول من الرضاعة ، عمرت ولم تعرف سنة وفاتها . أسد الغابة ج ٧ ص ٦٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩١ . (٤) ديوانه ص ١٩٥ .

(٥) نسبة : المراد شبها ، مبرورة : صادقة من بر يمينه إذا أمضاها على الصدق .

(٦) الغار : المراد به غار ثور ـ وثور جبل بمكة ـ وهو الذى اختبأ فيه الرسول وهو مهاجر إلى المدينة . لم يرما : لم يبرحا . هم : المراد بهم الكفار . أرم : المراد أحد

(٧) وقاية الله : حفظه ورعايته .

(٨) الدروع المضاعفة : هى التى نسجت حلقتين لكى تكون قوية . الأطم : (بضم الهمزة والطاء) الحصون .

إن الشاعر يشير ـ هنا ـ إلى معجزة انشقاق القمر ، وهى ثابتة بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ " (١) ، ومؤكدة بالسنة الشريفة ومن ذلك ما روى : أن أهل مكة سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يريهم آية ، فانشق القمر فرقتين ... (٢) " .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أقسمت بالقمر) وجدته يؤكد وقوع هذا الأمر بالقسم ، ولكنه فى قسمه هذا خالف قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت " (٣) ويمكن أن يقدر مضافا والأصل : أقسمت برب القمر ، فلا تكون هناك مخالفة .

ولقد تحدث الشاعر عن شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد حديثه عن انشقاق القمر ، ويبدو أنه وجد بينهما صلة كبيرة ـ فكل منهما شق ، وكل منهما منهج للهداية والإرشاد ـ فجمع بينهما فى سهولة ويسر ، وانتقل من الأول إلى الثانى انتقالا لينا جميلا ، لا يجعلك تحس بتغيير مفاجئ .

ولا يخفى أن شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد وقع أكثر من مرة وهو ثابت بالأحاديث الصحيحة ، ومن ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : بينما أنا فى الحطيم ـ حجر الكعبة ـ إذ أتانى آت فقدّ ـ وفى رواية ـ فشق ما بين هذه إلى هذه (مشيرا إلى صدره) ... (٤)

هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وفى البيت الثانى وما بعده يحدثنا الشاعر عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة ، إلا أنه فى هذا الحديث يقف بنا مع الحسنوات

---

(١) القمر / ١ وتفسير القرآن العظيم ج٨ ص١٢٩ .
(٢) صحيح البخارى ج٦ ص ١٧٨ .
(٣) صحيح البخارى ج٨ ص١٦٤ .
(٤) المرجع السابق ج٥ ص٦٦ وج٩ ص١٩٨ . وصحيح مسلم ج١ ص١٠٢ ، وتفسير القرآن العظيم ج٥ ص١٣ وما بعدها .

العظيمة التى وقعت فى تلك الهجرة ، والتى تحمل فى ثناياها ظهور أمر خارق للعادة أكرم الله به نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

لقد خرج الرسول سرا من مكة واختبأ فى غار ثور حتى ييأس الكفار من اللحاق به ، وكان معه فى الغار صاحبه أبو بكر (رضى الله عنه) ، الذى أحس بأقدام الكفار وحديثهم بالقرب من الغار فبكى ولما سأله الرسول عن سر بكائه ، قال له : لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا ، فيقول له الرسول : (فى ثقة واطمئنان) ما ظنك باثنين الله ثالثهما [1] .. " وفى ذلك يقول جل جلاله: " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... [2] " .

وكان ما قاله الرسول لصاحبه حقا ، إذ لم يلبث الكفار أن رجعوا وادون أن يروا الرسول وصحبه مع أنهما بالقرب منهما فى الغار ، ولكن الله أعمى أبصارهم عن رؤيتهما ، ولقد ذكرت بعض كتب السيرة أن الله أكرم نبيه وحفظه فألهم حمامتين فوقفتا على باب الغار بالاضافة إلى أن المنكبوت قد نسج خيوطه [3] ، كل ذلك جعل الكفار يستبعدون وجود الرسول داخل الغار .

إن الشاعر لم يذكر أكثر مما ذكرته بعض كتب السيرة والتاريخ . ولكنه كان موفقا فى صوغ عباراته ، واختيار ألفاظه ، تأمل مثلا قوله : (وما حوى الغار من خير ومن كرم) تجد الغار قد أحاط بالرسول وصاحبه إحاطة الظرف بالمظروف وهذا بعض ما يفهم من قوله : (وما حوى) كما أن فيه تشخيصا وإيحاء بمدى اهتمام الغار بالرسول وصاحبه وعنايته بهما ، ولعل إسناد الفعل (حوى) إلى (الغار) كان سببا فى ذلك المفهوم ، ونزله منزلة من يعقل ، ثم تأمل كيف وصف الشاعر

---

(١) حياة محمد ص٢١٢ بتصرف .

(٢) التوبة / ٤٠ .

(٣) الروض الأنف جـ ٢ ص ٤ .
والطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول ص ١٥٤ .

الرسول بقوله : (من خير ومن كرم) فاستعمل ذلك الوصف للدلالة على عظم من دخل الغار ، وربما كان الموصوف بالخير هو الرسول والموصوف بالكرم هو أبو بكر ، ففيه إشارة إلى أن الكرم جزء من الخير ، إذ الخير أعم وأشمل وكون الرسول خيرا لا يحتاج إلى بيان ، أما كون الصديق ذا كرم ، فلا يخفى أنه افتدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه ، ولذا قيل : إنه دخل الغار قبله ليكشف عما فيه من حشرات[1] ، بالإضافة إلى مواقفه الجليلة في الإسلام ، ويؤكد ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن أمنّ الناس عليّ في ماله وصحبه أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الأسلام[2] " .

ولعل قول الشاعر : (وكل طرف من الكفار عنه عمى) يوحى بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء الكفار الذين أحاطوا بالغار إحاطة السوار بالمعصم ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمامهم ، ولكن عناية الله ورعايته — صرفت أبصارهم عنه ، فرجعوا خائبين ، يقولون ، (ما بالغار من أرم) مع أن (الصدق) — وهو الرسول — (والصديق) داخل الغار .

لقد أحسن الشاعر عندما أشار إلى سخافة عقول هؤلاء الكفار ، وسفاهة أحلامهم بقوله : (ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت) فكرر لفظ (ظنوا) مرتين إشارة وتأكيدا إلى أن الأمر عندهم مجرد ظن .

ولما كان المقام مقام إشادة بقدرة الله ، حسن قول الشاعر : (وقاية الله أغنت ... البيت) ، ولعل في إضافة (وقاية) إلى لفظ الجلالة (الله) ما يشير إلى عظمة تلك الوقاية التي أغنت عن كثير من الحراس المسلحين بأسلحتهم المختلفة وعتادهم الكبير وحصونهم القوية ، إذ هي وقاية خالق القوى والقدر .

إن هذا البيت — الأخير — من الجوامع التي تلهب العزائم ، وتشحذ الهمم وتقوى اليقين ، ولعل الشاعر حذف المفعول به للعموم والشمول ، فيفيد أن الوقاية كانت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وستكون لكل من سلك طريقه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص٩٩ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص٢٤٤ .

واتبع شريعة الله الذى أخذ على نفسه عهدا مؤكدا بقوله : " إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ " (١)

إلا أن خيال الشاعر فى هذا البيت كان بدويا ، أو قريبا منه ، إذ اختار : " الدروع المضاعفة ، والحصون العالية " ولعل عذره فى ذلك الاختيار أنه عاش فى عصر لم تكن الأسلحة الحديثة قد ظهرت فيه ، أو انتشرت فيه بشكل كبير ويمكن القول بأن الشاعر أراد أن يصور الأحداث وقت وقوعها ، ولا شك فى أن وقت هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن الأسلحة تتجاوز فيه - غالبا - الدروع والسهام ونحو ذلك .

ولا يخفى أن تلك الأبيات قد زينت ببعض المحسنات البديعية التى زادت العبارة جمالا وجلالا ، ومن ذلك : (الجناس الشبيه بالمشتق بين (الصدق والصديق) اللف والنشر المشوش فى (ظنوا الحمام .. لم تحم) و (ظنوا العنكبوت .. لم تنسج) ، ويبدو أن الشاعر أخطأ فى قوله : (لم يرما) ولعل الصواب :(يريما) إذ ليس هناك ما يدعو إلى حذف الياء عند إسناده إلى ألف الاثنين . وأصل الفعل (رام يريم)

ولقد أراد الشاعر أن يبين مقام الرسول الكبير عند ربه ، وشأنه العظيم عند خالقه فقال : (٢)

ما سامنى الدهر ضيما واستجرت به
إلا ونلت جوارا منه لم يضم (٣)

---

(١) غافر / ٥١ .
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .
(٣) سامنى : من السوم بمعنى أذاقنى ، ومنه قوله تعالى : " يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ " البقرة : ٤٩ - الدهر / المراد به الزمن . ضيما : ظلما . استجرت به : من قولهم استجار فلان بفلان ، إذا طلب منه النجاة والخلاص ومنه قوله تعالى : " وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. " التوبة / ٦ وقيل : بمعنى الاستعانة ، والضمير فى (به) عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) . جوارا : (بكسر الجيم وضمها) بمعنى القرب مطلقا . والمراد به هنا لازمه من الحماية والرعاية . لم يضم : المراد لم يحتقر .

ولا التمست غنى الدارين من يده
إلا استلمت الندى من خير مستلم (١)

يبين الشاعر أنه لم يقع عليه ظلم ، ولم تحل به ضائقة ، وتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أتى الفرج ، وأصبح فى عز ومنعة ، وغنى ويسار .

وإذا تأملت قوله : (ما سامنى الدهر ضيما ..) وجدته يدل على كثرة الظلم الذى وقع عليه ، إلا أن إسناد (الضيم إلى الدهر) منهى عنه شرعا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث القدسى عن الله عز وجل : " لا تسبوا الدهر ، فأنا الدهر ... (٢) " .

فإذا كان الشاعر قد أسند الظلم إلى الدهر فإنه قد أسنده إلى الله (لأن الله هو الدهر كما فى الحديث القدسى أى خالقه) والله لا يظلم أحدا ، يقول تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٣) " ، كما أنه تعالى لا يحب الظلم ، ولذا حرمه على نفسه وعلى عباده أيضا - ويؤكد ذلك الحديث القدسى : " ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . (٤) " .

والشاعر قد توسل (٥) إلى الله تعالى بالنبى (صلى الله عليه وسلم) يشير إلى ذلك قوله : (واستجرت به ..) وهو فى هذا يسير على رأى بعض العلماء الذين أجازوا التوسل بالإضافة إلى الصوفية أيضا (٦) ، ولكن ابن تيمية (٧) قد منع (٨)

---

(١) التمست : طلبت ، وأصله الطلب من المساوى ، ولكنه هنا الطلب مطلقا . استلمت : المراد به هنا أخذت العطاء بمعنى تسلمت على حسب ما أراده الشاعر . الندى : العطاء الجزيل . مستلم : (بصيغة اسم المفعول) وحذف متعلقه للقافية والأصل (مستلم منه) .
(٢) صحيح مسلم : ج ٥ ص ١٠٢ وما بعدها .
(٣) النساء / ٤٠ .
(٤) صحيح مسلم ج ٥ ص ٤٣٩ .
(٥) المراد بالتوسل : أن يقول الشخص : اللهم حقق لى كذا بجاه النبى (صلى الله عليه وسلم) مثلا ، فهو يدل على التقرب إلى الله بالنبى مثلا .
(٦) العظة والاعتبار ص ٣ ، ص ٢٢٩ ، دراسات فى التصوف الإسلامى ج ٢ ص ٤٥ .
(٧) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرانى - أحد علماء السلف مات سنة ٧٢٨ هـ (الأعلام ج ١ ص ١٤٠) .
(٨) ابن تيمية : عقيدة أهل السنة بتعليق عبد الرزاق عفيفى ص ٣٦ دار الطباعة المحمدية بمصر (غير مؤرخ) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد حصوله على مطلبه ببركة النبى (صلى الله عليه وسلم) فأعاد النفى فى البيت الثانى بعد ما ذكره فى البيت الأول ، وربما سأل سائل . كيف يصح للشاعر أن يقول : (.. غنى الدارين ..) مع أن الآخرة غيب لا يعلمه إلا الله ؟ .. والجواب عن ذلك : إن الشاعر قد أخبر عن نيله (غنى الدارين) على سبيل التغليب والتعميم ، فإذا كان الله قد أكرمه فى الدنيا بفضل مديحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأمله كبير فى الله - أيضا - أن يكرمه فى الآخرة ، بفضل شفاعة النبى (عليه الصلاة والسلام) ، ولعل مما يؤكد ذلك قوله : (من يده) إذ فى هذا التعبير مجاز مرسل من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب .

ولا يخفى أن البيتين قد اشتملا على بعض المحسنات البديعية التى كان لها أثر كبير فى وجود تلك الموسيقى الرائعة ، ومن ذلك : الجناس الشبيه بالمشتق فى (استجرت وجوارا) ، ورد العجز على الصدر فى قوله : (التمست وستلم) .

والشاعر قد خالف جمهور النحاة عندما أدخل الواو على الفعل الماضى الواقع حالا بعد إلا ، فى قوله : (إلا ونلت ..) والراجح (إلا نلت) [١] .

كما أن قوله : (استلمت) لم يرد فى معاجم اللغة العربية على المعنى الذى أراده الشاعر ، لأنه أراد به (أخذت) وهذا خطأ شائع فى كلام الناس ، إذ يقولون (استلمت الخطاب) مثلا ، والصواب (تسلمت) ، أما (استلم) فهو بمعنى (لمس) تقول : (استلمت الحجر الأسود) أى لمسته بالقبلة أو باليد [٢] .

مقدمات الوحى :

انتقل الشاعر إلى ذكر بعض مقدمات الوحى بقوله [٣] :

لا تنكر الوحى من رؤياه ، إن له
قلبا ، إذا نامت العينان لم ينم

---

(١) منار السالك جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) المصباح المنير مادة (سلم) جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٣) ديوانه ص ١٩٥ وما بعدها .

وذاك حين بلوغ من نبوته ... فليس ينكر فيه حال محتلم [1]
تبارك الله ما وحى بمكتسب ... ولا نبى على غيب بمتهم

يتحدث الشاعر فى هذه الأبيات عن أولى مقدمات الوحى وهى الرؤيا الصادقة ، فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح [2] ، ولقد كانت هذه الرؤيا تمهيدا وإعدادا لمرحلة ثانية هى استقبال الملك ، وهذا الإعداد من قبل الله سبحانه وتعالى [3] .

والفكرة هنا غير قوية الارتباط بالفكرة السابقة ، كما أن الحديث عنها لم يأت فى وقته الطبيعى مما يدل على أن أفكار الشاعر لم تكن مرتبة .

ومهما يكن من شىء ، فالشاعر تصور أمامه شخصا فنصحه بعدم جحود رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما يوحى إليه فيها ، لأن رؤيا الأنبياء حق ، ومما يؤكد ذلك ما رآه نبى الله إبراهيم (عليه السلام) فى المنام إذ رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل ، فلم يملك إلا التسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : " قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. الآيات " [4] وفى ذلك تلميح إلى قول السيدة عائشة (رضى الله عنها) " أول ما بدئ به الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم .. " [5] .

ولما كان الأمر غريبا فى ظاهره ، وضحه الشاعر وأكده بقوله : (إن له قلبا إذا نامت العينان لم ينم) فإذا تأملت تلك العبارة وجدتها قد اشتملت على أكثر من مؤكد ، ولعل الشاعر تصور مخاطبه جاحدا منكرا ، فأكد قوله بـ (إن) ،

---

(١) بلوغ : المراد وصول — من : بمعنى إلى والمراد بقوله (من نبوته) الوقت الذى كلفه الله فيه بالرسالة .
(٢) الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول ص ١٢٩ .
(٣) حاشية الباجورى على البردة ص ٥٢ بتصرف .
(٤) الصافات (١٠٢ — ١٠٥)
(٥) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٣ .

وتقديم الخبر (له) ولعل فى ذلك التقديم إشارة إلى أن ذلك القلب بتلك الخصوصية لفئة معينة من الناس وهم الرسل (عليهم السلام)، كما أن تنكير (قلبا) يدل على عظم شأن هذا القلب.

ولقد أسند الشاعر النوم إلى العينين ، وفى هذا الإسناد مجاز مرسل علاقته الجزئية -عبر بالجزء وأراد الكل-، ولعل فى ذلك دلالة على أن العينين هما أول ما يتأثران من الحواس وتظهر عليهما دلائل النوم ، وفى ذلك تلميح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " تنام عيني ولا ينام قلبي[1] ".

ثم بين الشاعر زمن تلك الرؤيا فقال : (وذاك حين بلوغ من نبوته) أى حين وصل عليه الصلاة والسلام إلى سن الأربعين ، وهو سن بدء النبوة.

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد ثبوت بدء الوحى بالرؤيا الصادقة فقال : (وليس يُنكر فيه حال محتلم). وإذا تأملت الفعل (ينكر) وجدته مبنيا للمجهول ، كأن الشاعر حذف فاعله ليبين أن من ينكر بدء الوحى بالرؤيا الصادقة ، لا عبرة لإنكاره ، ولا قيمة لجحوده ، بل لا وزن لوجوده ، ويستحق إغفال ذكره ، وإخفاء أثره.

ثم ينتقل الشاعر إلى تأكيد شأن النبوة ، وبيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذى " يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ.. [2] " فقال : (تبارك الله ما وحى بمكتسب) ولعلك تدرك تعظيم الله وتقديمه فى قول الشاعر : (تبارك الله ..) وكأنه أراد أن يمهد بذلك لتلك القضية الكبيرة التى يزعمها بعض الفلاسفة وهى : أن النبوة تنال بالاكتساب، وأن فى إمكان العبد أن ينالها بمباشرة أسباب معينة ويفسرونها بأنها : صفاء وتجل للنفس يحدث لها من (الرياضيات) بالتخلى عن الأمور الذميمة ، والتخلق بالأخلاق الحميدة.. [3]

---

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص٢٣٢ .
(٢) الحج / ٧٥.
(٣) شرح البيجورى على الجوهرة جـ ٢ ص٣٩ .

والشاعر قد أحسن في قوله : (ما وحي بمكتسب ..) فأتى بحرف النفي (ما) وأدخله على النكرة (وحي) ليفيد العموم والشمول ثم أكد ذلك العموم بزيادة الباء على خبر (ما) كل ذلك ليؤكد نفي اكتساب النبوة بحال من الأحوال ، ويبين أن الإنسان مهما علا شأنه لا يستطيع أن يكون نبيا ، وكيف يكون كذلك والله جل جلاله : " .. أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. [1] " فيختار الأنبياء ، بعد أن يصنعهم على عينه ، متصفين بصفات الكمال ، منزهين عن صفات النقص وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله : (ولا نبي على غيب بمتهم) فأكد أن كل الأنبياء منزهون عن أن يكونوا خائنين ، ولعله يلمح بذلك إلى قوله تعالى : (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [2] إذ قرئ (بِظَنِينٍ) أي بمتهم [3] .

ويبدو أن الشاعر تذكر بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي لم يشر إليها فيما سبق فقال [4] :

كم أبرأت وصبا باللمس راحته	وأطلقت أربا من ربقة اللمم [5]
وأحيت السنة الشهباء دعوته	حتى حكت غرة في الأعصر الدهم [6]
بعارض جاد أوخلت البطاح بها	سيبمن اليم أو سيل من العرم [7]

---

(١) الأنعام / ١٢٤ .
(٢) التكوير / ٢٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٣٦٢ .
(٤) ديوانه ص ١٩٦ .
(٥) أبرأت : المراد : شفت . وصبا (بفتح الصاد) : المرض (وبكسرها) المريض أطلقت : حلت . أربا : (بفتح الهمزة وكسر الراء) صاحب الحاجة أي المحتاج إلى الشيء . ربقة : (بكسر الراء) حبل له عقدة اللمم : (بفتحتين) الجنون : وصغار الذنوب ، والمراد هنا الأول .
(٦) أحيت : المراد أخصبت الشهباء : مؤنث أشهب وهو الفرس الذي يغلب بياضه على سواده . غرة (بضم الغين وفتح الراء مشددة) البياض في الجبهة . الأعصر : جمع عصر أي الزمان . الدهم : (بضمتين وضم فسكون) جمع أدهم وهو الأسود الشديد السواد .
(٧) عارض : المراد سحاب . جاد : كثر مطره . السيب : الجري اليم : البحر . العرم : اسم لوادي ، وقيل : هو السيل الذي لا يطاق دفعه ، وقيل : هو جمع عرمة بمعنى السد .

يشير الشاعر فى هذه الأبيات إلى أمرين خارقين للعادة قد ثبتا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : أما الأمر الأول : فهو شفاؤه بعض المرضى بوضع يده الشريفة على مكان الألم ، وأما الأمر الثانى : فهو حلول الخصب بعد الجدب ببركة دعوته (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (كم أبرأت وصبا باللمس راحته) وجدته ملائما للفكرة ، ويؤكد ذلك لفظ (كم) فهو يشير إلى كثرة من تم لهم الشفاء على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا يطابق ما ذكرته بعض كتب السيرة[1] ومن شفاهم الله ببركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) قتادة بن النعمان[2] الذى أصيبت عينه فى إحدى الغزوات ، فغمز الرسول (صلى الله عليه وسلم) حدقته براحته ، فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت[3] .

ولا يخفى أن فى إسناد (أبرأت) إلى (راحته) مجازا عقليا ، لأن الشافى فى الحقيقة هو الله ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان سببا ، كما عبر الشاعر بالجزء (راحته) وأراد الكل وهو (يده) وفى ذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية ، ولعل فى ذلك التعبير دلالة على سرعة الشفاء بمجرد وضع هذا الجزء من اليد .

ولقد أخر الشاعر الفاعل وقدم المفعول زيادة فى التشويق إلى المؤخر ، وزيادة فى الاهتمام بالمقدم ، ولعل فى لفظ (باللمس) ما يوحى بقلة الزمن الذى يستغرق حتى يأتى الشفاء بعده ، وفى ذلك إشارة إلى عظم فضل الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

ويلمح الشاعر بقوله : (وأطلقت أربا من ربقة اللمم) إلى ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : أن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : يارسول الله ، إن به لمما ، وإنه يأخذه عند طعامنا ، فيفسد

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ٥١٢ ، جـ ٤ ص ١٠٤ وما بعدها .
(٢) هو : قتادة بن النعمان بن زيد الأنصارى ، صحابى جليل توفى سنة ٢٣ هـ (المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٨٩) .
(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٩٠ .

علينا طعامنا ، قال : فمسح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدره ، ودعا له ، فثع ثعة ، فخرج من فيه مثل الجرو الأسود ، فشفى(١) ".

ولعل فى لفظ (أطلقت) إشارة إلى عظم أثر هذه اليد المباركة ، وفى الإسناد إلى ضميرها مجاز عقلى ، وهو يفيد التشخيص الموحى إلى منزلة اليد ، وصاحبها عند الله تعالى مثل (أبرأت) ،

ولا يخفى أن فى قول الشاعر :(...من ربقة اللمم) استعارة تصريحية ، لا يخفى أثرها فى بيان حالة من يصيبه اللمم.

ولقد أشار الشاعر بقوله : (وأحيت السنة الشهباء دعوته .. البيت) إلى ما رواه أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : أصابت الناس سنة على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) فبينا النبى يخطب فى يوم الجمعة قام أعرابى ، فقال : يارسول الله ، هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه، وما نرى فى السماء قزعة ، فو الذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته (صلى الله عليه وسلم) فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد ، وبعد الغد ، والذى يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابى — أو قال غيره — فقال : يارسول الله : تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا فرفع يديه ، فقال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة ، وسال الوادى قناة شهرا ، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود (٢) ".

ولا يخفى أن الشاعر قد عبر عن الفكرة بأسلوب رائع ، أكد المراد ووضحه ، ومن ذلك تلك الاستعارة التى فى قوله : (وأحيت ..) فهى تدل على أن الأرض كانت هامدة جامدة ، مقفرة مجدبة ، وبسبب تلك الدعوة المباركة دبت فيها الحياة ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

ومما يؤكد أن الأرض كانت مجدبة قول الشاعر : (.. السنة الشهباء ...) فهذا كناية ، مستمدة من البيئة البدوية ، لأن الأرض إذا كانت خالية من

(١) مسند الإمام أحمد ج٢ ص٣١١ وما بعدها ، ومعنى ثع : قاء ، الجرو : الصغير من ولد الكلب ، ويطلق أيضا على ما استدار من الثمار كالحنظل ونحوه . (٢) صحيح البخارى ج٢ ص ١٥ . ومعنى (قزعة) بثلاث فتحات : سحابة .

النبات غلب بياضها على سوادها، إذ شدة خضرة النبات تجعل لونه يميل إلى اللون الأسود ، يدل على ذلك قوله تعالى : " مُدْهَامَّتَانِ "[1] .

ولقد أحسن الشاعر عندما أسند (الإحياء) إلى (الدعوة)، إذ في هذا الإسناد مجاز عقلي - من إسناد الشيء إلى سببه ، لأن الفاعل في الحقيقة هو الله - لا يخفى أثره في تشخيص الدعوة ، والتنويه بعظم شأنها ، إذ كانت سببا في نزول المطر ، الذي جعل تلك السنة كالغرة في جبين غيرها من سني الرخاء .

وأراد الشاعر أن يبين غزارة المطر الذي نزل ، فأشار إلى أنه كان (كسيب من اليم ، أو سيل من العرم) .

ولقد اشتملت تلك الأبيات على بعض المحسنات البديعية ، التي ساعدت على إبراز المعنى ، ووضوح الفكرة ، ومن ذلك : الطباق بين (أبرأ ووصبا) ، والجناس الناقص في قوله : (سيب ، سيل) .

القرآن الكريم :

وإذا كان الشاعر قد ذكر بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه هنا يخص القرآن الكريم - تلك المعجزة الخالدة - بحديث رائع ، إلا أنه مهد لذلك الحديث بقوله[2] :

دعني ووصفي آيات له ظهرت
ظهور نار القِرَى ليلا على علم[3]

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم
وليس ينقص قدرا غير منتظم

---

(١) الرحمن/ ٦٤ ، تفسير القرآن العظيم جـ ٧ ص ٤٨٢ .
(٢) ديوانه ص١٩٦ .
(٣) وصفي : المراد نظمي .

فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم[1]

يبدو أن الشاعر تخيل شخصيا يقول له : ما فائدة نظمك تلك المعجزات التى نسمع عنها ولم نرها ، وبعضها ثبت بطريق ضعيف ، بل إن من رأى بعضها - أيام الرسول - أنكرها ، وسجل القرآن الكريم عليهم ذلك فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى : " وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ[2] .

فكان حسنا من الشاعر أن يقول له : دعنى ونظم تلك المعجزات الواضحة والآيات البينة ، التى انتشر أمرها ، وثبت وقوعها ، ونظمها يزيدها انتشارا ، ومع ذلك فعدم نظمها لا ينقص قدرها ، ولا قدر صاحبها ، الذى وصف بصفات لا يدرك لها غاية ، ومهما حاول المادحون ، وصفه (صلى الله عليه وسلم) فلن يستطيعوا الإحاطة بما فيه من كريم الأخلاق وعظيم السجايا .

ويبدو أن البوصيرى قد نهج نهج بعض الشعراء العرب القدامى الذين[3] كانوا يتحدثون عن فكرة فإذا أرادوا الانتقال إلى فكرة ثانية قالوا : (دعنى - دع ذا) وأقرب مثال على ذلك قول زهير[4] :

---

(١) تطاول : (فتح التاء وضم الواو) فى الأصل : مد المنقول لرؤية شىء بعيد ، والمراد هنا طلب الوصول إلى الشىء ، وإدراكه والإحاطة به - المديح : مجرور بإضافة (آمال) إليه - وهذا هو الصحيح الموافق للديوان المحقق - إلا أن بعض الكتاب يقول : إنها فى بعض النسخ (آمالى) مضافة إلى ياء المتكلم ، ونصب المديح إما بآمال أو بنزع الخافض ، وكل منهما غير مقيس ، لأن المصدر لا يعمل إذا كان جمعا كما فى الأول (آمال) . وأما فى الثانى (آمالى) فلأن النصب بنزع الخافض موقوف على السماع مع غير (أنّ - وأن - وكى) . انظر حاشية الباجورى على البردة ص ٨٥ ، التصريح على التوضيح ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) القمر : ٢ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٢٣٩ .

(٤) هو : زهير بن أبى سلمى أحد فحول شعراء الجاهلية توفى سنة ٦٣١ م (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٩٦) .

دع ذا وعد القول فى هـــرم   خير البداة وسيد الحضـر [1]

ومثل هذا الانتقال الفجائى يسمى اقتضابا ، [2] وهو يجذب الانتبـــاه إلى الفكرة الثانية ولكنه يجعل الشاعر يترك الفكرة الأولى وينتقل إلى الثانيـــة بغير تمهيد .

وإذا تأملت قول الشاعر : (نعتى ووصفى آيات له ظهرت ..) وجدته يشير إلى عظمة تلك الآيات ،ويؤكد ذلك تنكير لفظ (آيات) والإتيان به جمعا ، كما أن فى لفظ (له) إشارة إلى اختصاص الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهـــذه المعجزات ،وأنه لم تأت معجزة منها لغيره (عليه الصلاة والسلام) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد شيوع تلك المعجزات فوصفها بقوله . (ظهرت) ولا يخفى ما فى اللفظ من إيحاء بوضوحها ، ويؤكد ذلك أنه أسند ذلك الفعل إلـى ضمير الآيات ، وهذا الإسناد مجاز عقلى فيه تشخيص يؤكد وضوح هذه الآيـات ، التى أشبهت فى ظهورها (ظهور نار القرى ليلا على علم) وهذا التشبيه يـدل على فائدة تلك الآيات الكثيرة ومنها : الهداية ،والدلالة على صدق الرســول (صلى الله عليه وسلم) كما أن النار التى يوقدها الرجل العربى بالليل على الجبال العالية يهتدى بها السائرون فى الظلام الحالك .

إن تلك المعجزات لها قيمة عظيمة تشبه قيمة الدر الذى إذا جمع فــى سلك واحد ازداد جمالا وروعة ، وإذا لم يجمع لم يفقد من قيمته شيئا ، لأن حسنه طبعى فى أصله ، وكذلك المعجزات يزداد قدرها إذا نظمت ، وينتشـر خبرها إذا جمعت ولا ينقص قدرها ، أو يقلل قيمتها عدم نظمها ، وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله : (فالدر يزداد حسنا وهو منتظم .. البيت) .

---

(١) ديوان زهير بشرح الشيبانى ص٨٨ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ ، وهرم هو هرم بن سنان أحد أجواد العرب كان زهير يمدحه فيجزل له العطاء .

(٢) الموازنة بين الشعراء ص٢٠٧

وإذا كان هذا شأن الآيات ، فما بالك بشأن صاحبها ، الذى تمت على يديه ، إنه (صلى الله عليه وسلم) منح الأخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة التى يعجز عن الإحاطة بها الواصفون .

وهذا ما أشار إليه البوصيرى بقوله : (فما تطاول آمال المديح .. البيت) ولعل فى قوله : (.. إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم) ما يوحى بأن هذه الصفات الكريمة متمكنة فى الرسول (صلى الله عليه وسلم) تمكن الظرف بالمظروف ، كما أن فى ذكر لفظ (الشيم) بعد لفظ (كرم الأخلاق) ما يقوى المعنى ، ويؤكد الفكرة .

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن القرآن الكريم بقوله [1]

آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم [2]
لم تقترن بزمان وهى تخبرنا	عن المعاد وعن عاد وعن إرم [3]
دامت لدينا ففاقت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم

يصف الشاعر آيات القرآن الكريم فى تلك الأبيات - بعدة صفات :

فهى آيات حق من عند الله أنزلها الله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهى محدثة بالنظر إلى نزولها ، ولكنها قديمة بالنظر إلى أنها كلام الله ، كما أنها ليست مقيدة بزمان ولا مكان ، وتحدثنا عن المستقبل وعن الماضى ، تحدثنا عن المستقبل مثلا فى ذكر يوم القيامة وما فيه من أهوال لكى يستعد الإنسان ، ويتزود لذلك اليوم بالأعمال الصالحة ، وتحدثنا عن الماضى - مثلا - فى قصص الأمم السابقة ، وما نزل بهم من بلاء ، ليأخذ الإنسان العبرة والعظة ، كما أن هذه

---

(١) ديوانه ص ١٩٦ .

(٢) آيات : (جمع آية) والمراد بها هنا القرآن الكريم ، محدثة : من الحدوث وهو ضد القدم .

(٣) لم تقترن : من الاقتران وهو المصاحبة والمراد : لم تقيد . المعاد : المراد يوم القيامة عاد : اسم قبيلة - سميت باسم جدها عاد بن إرم بن سام بن نوح (عليه السلام) وهم الذين بعث الله إليهم نبيه هودا (عليه السلام) : انظر تفسير القرآن العظيم جـ٧ ص ٢٣٦ ، ٤١٦ . إرم : مدينة بناها شداد بن عاد وزخرفها ، وإليها أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى : " إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ " . الفجر / ٧ ، ٨ .

المعجزة قد فاقت كل معجزات الأنبياء السابقين ، بل فاقت معجزات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الأخرى لأنها باقية خالدة ، وكل المعجزات الأخرى انتهت بوقتها وعهد نبيها .

والشاعر قد وفق في اختيار ألفاظ دلت على المعنى المراد ، فمثلا : أتى بلفظ (آيات) جمعا منكرا ليشير إلى عظيم شأنها ، ورفيع قدرها ، وأكد ذلك بإضافته إلى لفظ (حق) كأنه بذلك أراد أن يرد على المشركين الذين زعموا أن هذه الآيات من أساطير الأولين ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : " وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [١] .

ولعل في اختيار لفظ (الرحمن) ما يشير إلى أنها من عند من اتصف بالرحمة ومقتضى ذلك أنه يشرع لعباده ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، وهذا يتطلب الإيمان بالله والامتثال لأمره والعمل بكتابه .

وإذا تأملت لفظي (محدثة ، وقديمة) — اللذين وصف الشاعر بهما آيات القرآن الكريم — تملكك العجب ، إذ كيف يوصف شيء واحد بصفتين متضادتين !! ولكن سرعان ما يظهر الأمر ، ويزول العجب ، لأن الشاعر وصف آيات القرآن بأنها محدثة أي في نزولها منجمة على حسب الوقائع والحوادث ، ولعله نظر في ذلك إلى قوله تعالى : " وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ [٢] " ووصفها بأنها قديمة أي في مدلولها ، أو على أنها كلام الله ، فهو صفة من صفاته ، وصفات الله كلها قديمة [٣] . ويبدو أن الشاعر يلمح بذلك إلى تلك المعارك التي قامت حول القرآن الكريم أمخلوق أم غير مخلوق ؟ [٤] وكانت تلك المعارك فتنة ابتلى بها كثير من علماء الأمة .

---

(١) الفرقان / ٥ . (٢) الشعراء / ٥ .

(٣) شرح البيجوري على الجوهرة جـ ١ ص ٦٦ .

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٨ وص ٣٦٦ ، الدكتور : شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ص ٣٩ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر (غير مؤرخ) ، والنجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٢ ، ص ٢١٨ .

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد منزلة هذه الآيات فأسند إلى ضميرها الفعلين (تقترن وتخبرنا) وفى هذا الإسناد مجاز عقلى ، يوحى بأثرها العظيم ، ومكانتها الرفيعة ، ويؤكد ذلك الإتيان بضمير المتصل (وهى) . كما أن الشاعر كرر لفظ (عن) ثلاث مرات وفى التكرار إطناب وهو محبوب فى مقام المدح والثناء .

وفى البيت الثالث يبين الشاعر علة تفضيل هذه المعجزة على ما عداها بقوله : (دامت لدينا - البيت) ولا يخفى أن فى لفظ (دام) ما يوحى بالاستمرار ، إشارة إلى أن هذه الآيات لن تأتى بعدها آيات أخرى ، كما أنها محفوظة بلا تغيير ولا تحريف ، كما قال الله تعالى : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .. (1) " ولعل لفظ (فاقت) يوحى برفعتها وعلو شأنها ، على غيرها من المعجزات مهما كان شأنها ، والعلة فى ذلك أنها (جاءت ولم تدم) .

ولم يقف فضل آيات القرآن الكريم على دوامها فحسب بل إنها (2) :

محكمات فما تبقين من شبه ... لذى شقاق وما تبغين من حكم (3)
ما حوربت قط إلا عاد من حرب ... أعدى الأعادى إليها ملقى السلم (4)

---

(1) الحجر / ٩ .

(2) ديوانه ص ١٩٦ .

(3) محكمات : (بسكون الحاء وفتح الكاف) متقنات وفى بعض النسخ (محكمات) بفتح الحاء وفتح الكاف مشددة) ولكن الأول أرجح لاتفاقه مع الوزن (انظر حاشية الباجورى على البردة ص ٦١) . شبه (بضم الشين وفتح الباء) جمع شبهة : (بضم فسكون) والمراد الالتباس . شقاق : خلاف . ورواية الديوان (تبقين - تبغين) بالتاء وفى بعض النسخ بالياء : انظر متن البردة ص ١٥ مكتبة تاج بطنطا غير مؤرخ .

(4) الحرب : (بفتح الحاء والراء) السلب من قولك حربت الرجل حربا إذا سلبته والمراد هنا : الشدة فكأن من يعارضها يرجع مسلوب فكرة معارضته إياها من شدة بلاغتها . الأعادى : (جمع أعداء ، وهو جمع عدو) ومعنى (أعدى الأعادى) : أشد الناس عداوة . السلم : (بفتح السين واللام) الاستسلام - ومنه قوله تعالى : " وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ .. " النساء / ٩٠ .

ردت بلاغتها دعوى معارضها   رد الغيور يد الجانى عن الحرم[1]

يذكر الشاعر أن تلك الآيات قد بلغت النهاية فى الفصاحة والبلاغة ، وليس فيها مطعن لطاعن ، أو مغمز لكافر ، ولا تحتاج إلى حكم ينصفها ، أو إلى ذى لسان يدافع عنها ، فهى قوية بنفسها ، وآية ذلك أنها ردت كل من حاربها أو عارضها ، وجعلته يعترف بفضلها ، ويشهد بأحكامها .

كان الشاعر موفقا فى اختيارة ألفاظا مناسبة للمعنى ، تأمل قوله : (محكمات) تجده يشير إلى أن هذه الآيات لا لبس فيها ولا غموض ولا تناقض ، وكيف يوجد فيها مثل ذلك وهى منزلة (مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[2]) . ويبدو أن الشاعر يلمح بذلك اللفظ إلى قوله تعالى : " هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ... الآية[3] " .

ولقد دل على هذا الإحكام أن هذه الآيات لم تبق شبهة لكافر أو منافق -(لذى شقاق)- إلا فندتها ، وكشفت عن زيفها ، ولعل فى قول الشاعر : (ذى شقاق) إشارة إلى أن من يدعى أن فى تلك الآيات شبهات ، ما هو إلا مشاقق الله ورسوله ، أو أنه فى شق والإسلام فى شق آخر .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ماتبغين من شبه .. وماتبغين من حكم) رأيته يؤكد قوة هذه الآيات ، وآية ذلك أن البوصيرى صدر الجملتين بالنفى ، وعبر

---

(١) ردت : دفعت والمراد أبطلت . بلاغتها : الضمير يعود على الآيات ومعنى البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . انظر : التلخيص فى علوم البلاغة ص ٣٢ . المعارضة : المراد الإتيان بمثلها ، انظر ص ٢٤٥ من هذه الرسالة . الغيور : الشديد الغيرة — وهى صفة تجعل صاحبها شديد المحافظة على ما تحت يده وخاصة النساء . الجانى : المعتدى الحرم (بضم الحاء والراء) جمع (حرمة) — بضم فسكون — وهى ما لا يحل انتهاكه والمراد به هنا : أهل الرجل .

(٢) فصلت : ٤٢ .
(٣) آل عمران / ٤ .

بالفعل المضارع إشارة إلى أن هذا الأمر منفى فى الحال والاستقبال ، كما أن فى إسناد كلا الفعلين إلى ضمير الآيات مجازا عقليا ، فيه تشخيص وإيحاء يزيد ان من عظم الآيات ، ومما يقوى ذلك أن الشاعر نزلها منزلة من يعقل فأتى بضمير نون النسوة ، كما أتى بلفظ (شبه) جمعا منكرا ، وهذا يشير إلى كثرة الشبه التى يزعمها أعداء الإسلام ، ومع ذلك تبطلها هذه الآيات.

ولعل فى قول الشاعر : (ما حوربت ..) ما يدل على أن من حاربها بلغ من الحقارة والمهانة حدا لا يصح معه أن يذكر اسمه ، أو يصرح بصفته ، ولذا كان الفعل مبنيا للمجهول، وكنت أود أن لا يعبر الشاعر هنا بلفظ الماضى ويؤكده بلفظ (قط) وكان الأولى به أن يعبر بلفظ المضارع ليشمل الحال والاستقبال أيضا ، ولكن يبدو أنه أراد الإشارة إلى حادثة معينة ، أو وقت معين ، أو أراد أن تلك الآيات لم يستطع محاربتها العرب الفصحاء — وقت نزولها — فهيهات أن يستطيع محاربتها من يأتى بعدهم — وهم أقل منهم فصاحة ، وقد أحسن البوصيرى عندما قال : (أعدى الأعادى) إذ فى هذا القول : بيان كثرة أعداء تلك الآيات — ولذا عبر الشاعر بجمع الجمع — وبيان أن هؤلاء الأعداء ليسوا فى درجة واحدة من العداوة ، وأخيرا بيان فضل هذه الآيات التى جعلت (أعدى الأعادى) يعترفون بعظمتها ولو وجدوا فيها مطعنا (وحاشا لله) ما سكتوا وما ألقوا سلاحهم — وآية ذلك أنهم أتوا (ملقى السلم) ولا يخفى ما فى هذه العبارة من استسلام تام ، وانقياد بعد تمرد وعصيان .

ولعل فى بيتى الشاعر ما يلمح إلى قوله تعالى : " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (١) " ، ولعل فيهما — أيضا — ما يشير إلى بعض هؤلاء الكفار الذين حاربوا

---

(١) الإسراء / ٨٨ .

القرآن ، ولما سمعوا بعض آياته ، قالوا: " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ... " (1)

ولقد أتى الشاعر بالبيت الثالث مفصولا عن سابقه ، لأنه تأكيد لما اشتمل عليه من الإشارة إلى عظمة آيات القرآن الكريم وقوتها ، ومما يقوى ذلك قوله : (ردت بلاغتها ..) ففى إسناد الفعل (رد) إلى (بلاغتها) مجاز عقلى يوحى بعظيم شأن تلك الآيات وقوتها التى ردت (دعوى معارضها) ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى الرد على هؤلاء الذين يقولون : إن القرآن معجزة بالصرفة (2) ، أى أن الله تعالى هو الذى صرف العرب عن الإتيان بمثله ، ولولا ذلك لتمكنوا من تحقيق هدفهم ، وهذا قول خاطئ لقوله تعالى : " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (3) " .

ولما كان الرد أمرا معنويا شبهه الشاعر بـ (رد الغيور يد الجانى عن الحرم) وهذا التشبيه - وإن كان ضعيفا - يوضح فكرة الشاعر ويؤكدها ، ويوحى بقوة الرد وسرعته ، كما يشير إلى أن من يحاول معارضة القرآن الكريم فلن يستطيع ذلك ، وما هو إلا معتد أثيم .

إن تلك الأبيات تمتاز بسهولة ألفاظها ، ووضوح معانيها ، وتأثير موسيقاها ، ولعل مما ساعد على ذلك هذه المحسنات البديعية التى اشتملت عليها ، ومنها : جناس الاشتقاق فى قول الشاعر : (حوربت ، وحرب) وقوله : (أعدى الأعادى) ورد العجز على الصدر فى قوله : (محكمات وحكم) ، إلا أن الشاعر قد عدى الفعلين (تهقين ، تبغين) بحرف جر فى قوله : (من شبه ، من حكم) وهما يتعديان بنفسيهما ولعله قد زاد حرف الجر للتوكيد .

---

(1) سيرة ابن هشام جـ1 ص213 و ص284 ، تفسير القرآن العظيم جـ 7 ص150 جـ 8 ص292 .
(2) الباقلانى : إعجاز القرآن ص10 ومابعدها المطبعة السلفية بمصر سنة 1349 هـ ، ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ 1 ص64 وجـ 3 ص15 وما بعدها المطبعة الأدبية بمصر سنة 1320هـ .
(3) الإسراء / 88 .

ومهما يكن من شيء فلقد واصل الشاعر الحديث عن آيات القرآن الكريم فقال (١) :

لها معان كموج البحر فى مدد
وفوق جوهره فى الحسن والقيم (٢)
فما تعد ولا تحصى عجائبها
ولا تسام على الإكثار بالسأم (٣)
قرت بها عين تاليها فقلت له
لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم (٤)

إن عجائب تلك الآيات لا تعد ، ومدائحها لا تحد ، فمعانيها كثيرة ، ودلائلها عظيمة ، وقارئها لا يمل ترددها ، ولا يسأم من كثرة تلاوتها ، وثوابها عظيم يقر العين ويشرح الصدر ، فجدير بهذا القارئ أن يتمسك بها ، ففيها نجاحه وفلاحه .

وإذا تأملت قول الشاعر : (لها معان ..) وجدت فيه اختصاصا — منشؤه تقديم الخبر — يشير إلى أن تلك الآيات لها معان ليست لغيرها من الكلام ، ويؤكد ذلك تنكير لفظ (معان) وجمعه ، ويزيده تأكيدا أنها : (كموج البحر ..) ومعلوم أن موج البحر لا يمكن أن يحيط بعدده إنسان ، ولا يخفى أن الشاعر ذكر وجه الشبه (فى مدد) حتى لا يظن ظان ، أو يتوهم متوهم أن الشاعر شبه معانى الآيات بموج البحر فى الاضطراب مثلا ، فكان هذا احتراسا قطع به الشاعر ألسنة المغرضين .

---

(١) ديوانه ص ١٩٦ وما بعدها .
(٢) المدد : الزيادة — القيم : (جمع قيمة) وهى ما يرغب بها من ثمن المثل والمراد هنا : ماله من القدر والشرف .
(٣) العجائب : (جمع عجيبة) وهى ما يتعجب منها . تسام : توصف . على : بمعنى (مع) السأم : الملل .
(٤) قرت : المراد سرت .

إن هذا التشبيه (كموج البحر ٠٠) قد زاد المعنى وضوحا — وهذا شأن تشبيه المعنوى بالمحسوس غالبا — ولعل البوصيرى رأى أن فيه غبنا لتلك الآيات ، فقال : (وفوق جوهره فى الحسن والقيم) مؤكدا صفاء هذه الآيات ، ومشيرا إلى رفعتها وعلو شأنها ، ولكنى كنت أود أن لا يشبه الشاعر كلام الله باللؤلؤ أو ما يماثله ، لأن كلام الله أرفع من ذلك وأعظم ، ويبدو أنه أتى بهذا التشبيه على وجه التقريب.

ولما كان البوصيرى فى معرض الإشادة بعظمة هذه الآيات كان قوله : (فما تعد ولا تحصى عجائبها) مناسبا لتلك الفكرة ، لأن هذا القول يؤكد أن عظمة تلك الآيات لم تقف عند غزارة معانيها ، وسلامة مبانيها فحسب ، بل جمعت فوق ذلك بدائع وروائع ، تميزت بها عما عداها ، فكلما تأملت نسقها ، أتاك معنى جديد ، لم يخطر — من قبل — على بالك ، ولم يتطرق إلى جنانك ، وهذه سمة من سمات تلك الآيات الكريمة .

ولعل فى قول الشاعر : (فما تعد ولا تحصى ٠٠) ما يؤكد مكانة هذه الآيات ، إذ فى تكرار النفى ، والإتيان بالفعلين — بعد النفى — مبنيين للمجهول ما يشير إلى أن عجائب هذه الآيات لا يستطيع أن يحيط بها إنسان مهما كان قدره ، أضف إلى ذلك أنها (لا تسام على الإكثار بالسأم) فكلما قرأتها ، بل كلما أكثرت من تلاوتها ، شعرت بجلالها وعظمتها ، وقرت بها عينك ، وانشرح بسببها صدرك من دون أن تشعر بسأم أو ملل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يحث القارئ على ملازمة هذه الآيات فقال : (لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) إن من يوفقه الله لتلاوة هذه الآيات فقد نال خيرا كثيرا يجب أن يحرص عليه ، ولا يخفى أن فى تأكيد الشاعر عبارته بلام القسم وقد واختيار الفعل (ظفر) ما يوحى بعظمة هذه الآيات . وأكد ذلك هذه الاستعارة اللطيفة فى قوله : (بحبل الله) ، كما أن المضاف (حبل) اكتسب جلالة وعظمة من المضاف إليه (الله) ، فكان الشاعر موفقا فى عبارته التى ختمها بهذه النصيحة القيمة (فاعتصم) ولا يخفى أن الاعتصام بحبل الله ، هو الطريق الوحيد للنجاة ، ولذا أمر الله بالاعتصام به فقال

جلت قدرته : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .. الآية [١] " .

ويبدو أن البوصيرى تـأثر فى وصفه آيات القرآن الكريم ، بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن القرآن : " فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبرما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة السرد ، ولا تنقضى عجائبه .. [٢] " .

ولما أمر الشاعر قارئ تلك الآيات بأن يعتصم بها ، أراد أن يبين له بعض فوائدها ، فقال [٣] :

إن تتلها خيفة من حر نار لظى	أطفأت نار لظى من وردها الشيم [٤]
كأنها الحوض تبيض الوجوه به	من العصاة وقد جاءوه كالحمم [٥]
وكالصراط وكالميزان معدلة	فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم [٦]

نعم .. إن تتل هذه الآيات — عاملا بأحكامها — خوفا من النار ، كانت تلاوتها سببا فى إطفاء هذه النار ، فلا تمسك بسوء ، ولا ينالك منها أذى ، أضف إلى ذلك أنها تبيض وجه تاليها ، وتوضح له طريق الاستقامة ، وتبين له أسس العدل .

---

(١) آل عمران / ١٠٣ (٢) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٤٥ .

(٣) ديوانه ص ١٩٧ .

(٤) إن تتلها : إن تقرأها . خيفة : خوفا وخشية . لظى : اسم من أسماء النار ورواية الديوان (أطفأت نار) ورواية بعض النسخ (أطفأت حر) ولا يخفى أن رواية الديوان أبلغ لأنها تشير إلى أن تلك الآيات تطفئ النار نفسها ، لا حرها انظر متن البردة ص ٢٣ طبعة الشمرلى — الشيم : المذب .

(٥) الحوض المراد به هنا : جسم مخصوص كبير متسع الجوانب يكون على الأرض المبدلة وهى الأرض البيضاء كالفضة ، من شرب منه لا يظمأ أبدا ترده هذه الأمة : شرح البيجورى على الجوهرة ج ٢ ص ١٠٩ ، صحيح البخارى ج ٨ ص ١٤٨ . الحمم : (جمع حممة) جمرة انطفأت نارها وبقيت فحمة مسودة . (٦) الصراط : الطريق والمراد به هنا جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون . شرح البيجورى على الجوهرة ج ٢ ص ١٠٣ وصحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٦ ، الميزان : ما يوزن به الشيء معدلة : عدلا .

تلك هى الصفات التى خلعها الشاعر على تلك الآيات ، لكن تأمل كيف صاغها فى قالب شعرى وضحها وأكدها ، ولقد أتى فى البيت الأول بأسلوب شرط (إن تتلها .. البيت) ليدل على تحقق الجزاء فى الآخرة لقارئ القرآن العامل بأحكامه ، كما يتحقق جواب الشرط إذا تحقق فعله ، وفى قوله : (أطفأت نار لظى ..) استعارة لطيفة وضحت أثر الآيات فى حفظ تاليها ، إنها تبطل مفعول النار كالماء الذى يطفئها ، وهذا مشاهد فى دنيا الناس ولذلك كان هذا التعبير رائعا ، إذ وضح أثر المعنوى أو الغيبى بأمر محسوس مشاهد ، ولعل فى هذا حضا على تلاوة تلك الآيات ، والعمل بما فيها من أحكام ، ويبدو أن الشاعر يلمح - بذلك الأثر - إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه [1] " .

ويبدو أن الشاعر لم يحالفه التوفيق عندما ذكر أن آيات القرآن الكريم تبيض وجه تاليها كما يبيض ماء الحوض وجه بعض عصاة المسلمين يوم القيامة ، إن الذى يبيض وجوه بعض العصاة المسلمين هو نهر الحياة كما ورد فى الحديث الشريف ، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " يدخل الله أهل الجنة الجنة - يدخل من يشاء برحمته - ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون منها حمما قد امتحشوا [2] ، فيلقون فى نهر الحياة - أو الحيا - فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية .. [3] " .

وفى البيت الثالث شبه الشاعر هذه الآيات بالصراط فى الاستقامة كما شبهها بالميزان فى بيان العدل وإظهار الحق .

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد أن دوام الحق ، واستمرار العدل ، لا يفارق هذه الآيات فقال : (فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم) نعم .. العدل من غير هذه الآيات لا يدوم لاختلاف الناس فى تفكيرهم ، وتنوع مشاربهم ، أما الآيات

---

(1) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٩٧ .

(2) امتحشوا : المراد : اشتد سواد وجوههم .

(3) صحيح البخارى جـ ٨ ص ١٤٤ .

فالحقملازم لها لقوله تعالى : " وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. الآية [١] ".

ولما ذكر الشاعر بعض صفات آيات القرآن الكريم ، أراد أن يوضح موقف بعض منكريها ، وسبب ذلك الإنكار ، فجرد من نفسه شخصا يقول له : [٢]

لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلا ، وهو عين الحاذق الفهم [٣]
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

إن شأن هذه الآيات عظيم كما رأيت ، ومقامها رفيع كما شاهدت ، فلا يتملكك العجب من إنكار من جحد أثرها ، فما هو إلا حسود جحود ، إنه يجحد حقيقتها ، ويتجاهل قيمتها ، مع أنه أشد الناس فهما لمعناها ، ولكنه الحسد - حفظك الله منه - هو الذى دفعه إلى هذا الإنكار ، كما تنكر العين ضوء الشمس بسبب الرمد الذى أصابها ، وينكر الفم طعم الماء بسبب المرض الذى ألم به .

إنك إذا تأملت قول الشاعر : (لا تعجبن لحسود ..) وجدته قد أدخل حرف النهى (لا) على الفعل المضارع المؤكد بالنون الخفيفة ، ولعل فى ذلك إشارة إلى تجدد هذا الأمر ففى كل زمان ستجد من يحاول إنكار أثر هذه الآيات، بل ستجد من يحاول إنكارها، والمراد هنا من هذا النهى تحقير شأن هذا الجاحد الموصوف بأنه (حسود) ولقد أحسن الشاعر حينما أتى بهذا اللفظ ، إذ هو صيغة مبالغة تدل على مدى ما تغلغل فى قلب هذا الحسود من غل شديد ، وحقد مرير ، ويؤكد ذلك تنكير هذا الوصف وتنوينه ، كما أن لفظ (تجاهلا) يكشف عن حقيقة هذا الحسود الذى يظهر جهله بقيمة هذه الآيات ، مع أنه يعرف فضلها ؟ لأنه : (عين الحاذق الفهم) .

---

(١) الإسراء / ١٠٥
(٢) ديوانه ص١٩٧ .
(٣) الحسود : الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره والمراد هنا الذى ينكر فضل آيات القرآن الكريم . تجاهلا : من يظهر الجهل مع أنه ليس بجاهل ، الحاذق : الماهر .

وأراد الشاعر أن يبين إمكان وقوع إنكار هذه الآيات من عالم بقيمتها ، مدرك عظم فصاحتها بسبب داء الحسد الذى سيطر عليه ، وتمكن منه ، فأتى بمثالين من واقع الحياة يحس بهما كل إنسان ،

الأول : (قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد) فالعين المريضة قد لا تحس بضوء الشمس ، مع أن هذا الضوء يملأ الآفاق ، ولكن المرض كان سببا فى عدم الإحساس بوجوده ، وقد أحسن الشاعر عندما قال (ضوء الشمس) ولم يقل : (حرارة الشمس) مثلا ، إذ الحرارة تُحَس وإن لم تُر الشمس ، كما أن فى ذكر (العين) مجازا مرسلا علاقته الجزئية ، وهذا المجاز يدل على أثر العين فى الرؤية .

الثانى : (وينكر الفم طعم الماء من سقم) نعم إذا كان الإنسان مريضا — وبخاصة لسانه — لم يستطع تذوق الأشياء وبيان مذاقها ، وربما شرب ماء عذبا ، فشعر به — بسبب المرض — مرا علقما ، ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (الفم ..) مجازا مرسلا علاقته المحلية ، لأنه أراد بالفم اللسان — إذ هو أداة الذوق .

إن هذا البيت قد أكد المعنى المراد فى البيت الأول ، كما أن موسيقاه جذابة بسبب التقسيم بين شطريه ، والتكرار فى قوله : (تنكر) والمناسبة بين (العين والرمد) ، وبين (الفم وطعم) .

ولقد زعم بعض الكتاب أن هذا البيت قد أخذه الشاعر من قول المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا [1]

ثم علق على ذلك بقوله : " .. وقد زاد البوصيرى معنى آخر أتى به فى الشطر الأول من بيته فزاده قوة وإيضاحا ، والمتنبى يفوق البوصيرى بوصفه الماء بالعذوبة ، وشعور الشارب بحرارة هذا الماء الزلال ، وقد خلا كلام البوصيرى

---

(١) ديوانه جـ ٢ ص ١٨٣ بشرح العكبرى — طبعة دار الطباعة بمصر سنة ١٢٨٧ هـ .

من هذين القيدين [1] .

ومهما يكن من شيء فإن بيت البوصيرى قد أكد المعنى المراد بتشبيهين من الواقع يدركهما الحس ، أضف إلى ذلك عباراته الموحية التى لا مست الفكرة مثل لفظ (تنكر) ، أما خلوه من وصف الماء بالمذوبة ، فإنه - وإن خلا من الوصف لفظا - فإن المقام يشير إليه ويتطلبه .

الإسراء والمعراج :

وعندما تحدث البوصيرى عن القرآن الكريم - المعجزة الخالدة - انتقل إلى الحديث عن معجزة أخرى - هى معجزة الإسراء والمعراج [2] فقال [3] :

ياخير من يمم العافون ساحته
سعيا وفوق متون الأينق الرسم [4]
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر
ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

---

(١) الشاعر المصرى (شرف الدين البوصيرى) ص ٤٥ .

(٢) الإسراء : هو انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليلا من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين بواسطة البراق - فهو رحلة أرضية .
والمعراج : هو صعود الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الأقصى إلى السموات ثم إلى سدرة المنتهى إلى مكان لا يعلمه إلا الله - فهو رحلة سماوية .
وكان ذلك قبل الهجرة النبوية على الصحيح انظر : الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول ص ١٤٣ .

(٣) ديوانه ص ١٩٧ .

(٤) يمم : قصد . العافون : جمع عافٍ وهو طالب المعروف . ساحته : ناحيته - والمراد حريم داره الواسع . سعيا : المراد سيرا على القدم . متون : جمع متن وهو الظهر . الأينق : جمع ناقة وأصله (أنوق) استثقلت الضمة على الواو فقدمت فصارت (أونق) ثم قلبت الواو ياء فصارت (أينق) . الرسم : (بضم الراء المشددة وضم السين) جمع رسوم (بفتح الراء) هى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء .

يشير الشاعر في هذين البيتين إلى كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجوده الكبير ، وكيف لا ، وقد أسرع إليه السائلون - رجالا وركبانا - يطلبون رفده ، ويؤملون عنده الهداية ، إذ هو منبع الخير، وموئل الرشد ، كما أنه الرحمة المرسلة والنعمة المهداة .

وإذا تأملت عبارة الشاعر (ياخير من ..) وجدته ينادى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، نداء يشعر بعظم المكانة وعلو القدر ، وهذا ما يوحى به حرف النداء (يا) إذ هو لنداء البعيد ، إلا أن الشاعر هنا لم يرد البعد الحسى بل أراد البعد المعنوى - بعد المنزلة - ومما يؤكد ذلك قوله : (خير ..) فهو اسم تفضيل ، وكأن الشاعر لاحظ أن هناك من يعطى - أيضا - ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثرهم عطاء ، وأعظمهم رفدا ، ومما يقوى ذلك تلك الكناية اللطيفة التى توحى بكثرة الطالبين فى قوله : (سعيا وفوق متون الأينق الرسم) .

والملاحظ أن الشاعر لم يصرح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل عبر باسم الموصول (من) وكرره أكثر من مرة ، ولعل ذلك للتشويق ولزيادة الاهتمام - ويؤكد ذلك ، الإتيان بضمير الفصل (هو) - وللإشارة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد عرف بهذه الصفات .

ثم خاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا[1] :

سريت من حرم ليلا إلى حرم
كما سرى البدر فى داج من الظلم[2]
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم[3]

---

(١) ديوانه ص ١٩٧ .
(٢) سريت : سرت ليلا . حرم : المراد به المسجد الحرام . إلى حرم : المراد به المسجد الأقصى . داج : من دجا الليل إذا أظلم .
(٣) بت : المراد (صرت) ويؤكد ذلك رواية الديوان الثانية (فظلت) - قاب قوسين : القاب : القدر ، والمراد : مقدار المسافة بين طرفى القوس (وهذا : كناية عن القرب) .

لقد أسرى بك الله يانبى الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وفى ذلك تكريم وتشريف • ثم عرج بك إلى السموات وما فوقها ،حتى وصلت إلى مكان لم يصل إليه نبى مرسل ولا ملك مقرب •

يشير الشاعر فى البيت الأول إلى اسراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أنك إذا تأملت قوله : (سريت من حرم ٠٠) وجدته قد التفت من الغيبة فى البيت السابق إلى الخطاب هنا وفى ذلك تنبيه للذهن وإثارة للحس • ولعل الشاعر أسند الفعل (سرى) إلى ضمير الخطاب وكذلك الأفعال (بت ـ ترقى ـ نلت) ليرجح أن الإسراء والمعراج كانا بروح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجسده يقظة لامناما • كما زعم ذلك بعض العلماء [1] •

ولا يخفى أن هدف الشاعر من هذا التشبيه (كما سرى البدر ٠٠) هو توضيح الفكرة • والإشارة إلى رفعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلو مقامه • ولكنه نسى أن النبى (عليه الصلاة والسلام) أفضل من البدر • ويبدو أنه فطن إلى ذلك • ولكنه أتى بهذا التشبيه على سبيل التقريب على حد قوله تعالى : " اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. [2] ".

ولقد أشار الشاعر فى البيت الثانى إلى معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإذا تأملت قوله : (وبت ترقى ٠٠) وجدت لفظ (بت ٠٠) يدل على أن المعراج كان ليلا أيضا • ولا يخفى أن فى قوله : (ترقى ٠٠) إشارة إلى علو الرسول ورفعة شأنه • كما يدل على أن الله قد أكرم نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأناله (منزلة) عالية • ويؤكد ذلك تلك الكناية اللطيفة: (من قاب قوسين ٠٠) •

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى أن تلك المنزلة التى نالها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا الإكرام الذى أنعم الله به عليه فى تلك الليلة لم يحظ به أى مخلوق غيره • فقال : (لم تدرك ولم ترم) • ولعل فى بناء الفعلين للمجهول مايجعل النفس تذهب فى تقدير الفاعل أى مذهب•

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٤٠ وما بعدها •
(٢) النور / ٣٥ •

وإذا كان الشاعر قد وفق فى اختيار الألفاظ التى ناسبت الفكرة ، فلا يخفى أنه قد نظر فى البيت الأول إلى قوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى .. الآية [1] " كما يلمح بقوله : (وبت ترقى) إلى الأحاديث التى وردت فى شأن المعراج وفيها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد صعد إلى السماء الأولى ثم الثانية وهكذا حتى السابعة [2] أضف إلى ذلك أن قوله : (من قاب قوسين) مقتبس من قوله تعالى : " فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى " [3] ، ويبدو أن الشاعر ذكر لفظ (الظلم) بعد لفظ (داج) إما للتأكيد بالمرادف وإما للتقفية .

ومهما يكن من شئ ، فإن الشاعر ما زال يتحدث عن المعراج بقوله [4] :

وقدمتك جميع الأنبياء بها
والرسل تقديم مخدوم على خدم [5]

وأنت تخترق السبع الطباق بهم
فى موكب كنت فيه صاحب العلم [6]

حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق ... من الدنو ولا مرقى لمستنم [7]

خفضت كل مقام بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم [8]

وبسبب إكرام الله لك ــ الذى تجلى فى ليلة الإسراء والمعراج ــ قدمتك جماعة من الأنبياء والرسل ــ تقديم تشريف وتكريم ــ عندما كنت تخترق السموات السبع مارا بهم ، فى موكب كله جلال وجمال ، حتى بلغت مكانا عليا ، لم يطمع أحد فى أن يبلغه لعزته ، بل لم يتمناه أحد لرفعته .

---

(1) الإسراء / 1 .
(2) صحيح البخارى جـ 4 ص 123 وما بعدها .
(3) النجم / 9 .
(4) ديوانه ص 197 .
(5) المخدوم : السيد ــ خدم : (بفتحتين) جمع خادم .
(6) تخترق : المراد تقطع . السبع الطباق : السموات السبع ، وسميت طباقا ، لأنها طبقة فوق طبقة . موكب : المراد جمع عظيم .
(7) شأوا : غاية . مرقى : موضع الرقى ــ المستنم : المراد طالب الرفعة والعلو .
(8) العلم : المراد هنا : المعروف بين قومه لعلو قدره .

ولو تأملت قوله : (قدمتك .. البيت) لوجدته يدل على مدى الحفاوة التى استقبل بها بعض الأنبياء والرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند عروجه إلى السموات ، إلا أن فى قوله : (جميع الأنبياء والرسل ..) مبالغة إذ الثابت بالأحاديث الصحيحة أن الذين استقبلوا رسول الله فى السموات السبع بعض الأنبياء والرسل ، لا كلهم ، ومنهم : آدم ، ويحيى ، وعيسى ، وإدريس ، ويوسف وموسى ، وإبراهيم (عليهم السلام)[1] ، ولا يخفى أن ذكره (الرسل بعد الأنبياء) من قبيل ذكر الخاص بعد العام لإفادة التوكيد .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح تقديم الأنبياء والرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : (.. تقديم مخدوم على خدم) ولكن هذا التشبيه - وإن وضح فكرة الشاعر - لا يليق بمكانة رسل الله (عليهم السلام) ويؤكد ذلك أحد النقاد بقوله : " وإذا كان البوصيرى قد وفق فى تشبيه السرى وتصوير الرقى - فى الأبيات السابقة - فإن اللباقة جانبته فى تمثيله تقديم الرسل للنبى بتقديم المخدوم على خدمه ، لأن هذا التمثيل يوحى بالسيادة والعبودية ، ولا يتفق مع توقير الأنبياء وإجلالهم ...[2] " .

ولعل قوله : (وأنت تخترق ..) يشير إلى سرعة صعود الرسول (صلى الله عليه وسلم) السموات ومروره بالرسل (عليهم السلام) ولكن قوله : (فى موكب كنت فيه صاحب العلم) يوحى بأن الرسول كان فى جمع عظيم من الملائكة عندما عرج به إلى السموات ، وهذا ما لم تصرح به الأحاديث الصحيحة التى أشارت إلى معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل صرحت بأن جبريل (عليه السلام) - فحسب - هو الذى كان يرافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى معراجه[3] .

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٢ .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ٥٦ .
(٣) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٢ .

ولا يخفى أن قول البوصيرى : (حتى إذا لم تدع شأوا .. البيت) يدل على أن الله قد أكرم نبيه إكراما كبيرا ، وأنزله منزلا عاليا ، ويؤكد ذلك قوله : (خفضت كل مقام بالإضافة .. البيت) .

ويلاحظ أن الشاعر قد ضمن أبياته بعض المحسنات البديعية التى ساعدت على ظهور المعنى وتأكيده مثل : الطباق بين قوليه: (مخدوم وخدم) والتورية[1] فى قوله : (خفضت كل مقام ، بالإضافة إذ ∴ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم) إلا أن الشاعر قد أثقل ذلك البيت بذكره كثيرا من المصطلحات النحوية مثل (خفضت ، بالإضافة ، نوديت بالرفع ، المفرد العلم) بالإضافة إلى أن لفظ (مستنم) لم يرد فى معاجم اللغة[2] .

وأشار الشاعر إلى سبب من أسباب عروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء وما فوقها — فقال[3] :

كيما تفوز بوصل أى مستتر ... عن العيون ، وسر أى مكتتم

فحزت كل فخار غير مشترك ... وجزت كل مقام غير مزدحم

وجل مقدار ما وليت من رتب

وعز إدراك ما أوليت من نعم[4]

يارسول الله ، لقد رفعك ربك إلى السماء وما فوقها ، لتحظى بوصل لا تراك فيه عين إنسان، ولا يحس به أى مخلوق ، فكرمك ربك تكريما لم ينله أحد غيرك ، ومنحك منزلة عالية عز قدرها ، ووهبك نعما عز إدراكها .

---

(١) التورية : هى أن يذكر لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ، انظر : التلخيص فى علوم البلاغة ص٣٥٩ .

(٢) انظر لسان العرب جـ ١٥ ص١٩٨ مادة (سنم) .
تاج العروس جـ ٨ ص٣٤٨ المادة السابقة .

(٣) انظر ديوانه ص١٩٧ وما بعدها .

(٤) معنى رتب : (بضم ففتح) جمع رتبة : أى المنزلة .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فحزت كل فخا ر ..) وجدته يشير إلى حصول الرسول (صلى الله عليه وسلم) على شيء عظيم ، ويؤكد ذلك لفظ (كل) وما يتضمنه من معنى ، ثم إضافته إلى نكرة (فخار) ، ومثله في تلك الدلالة (وجزت كل مقام غير مزدحم) وإذا أوحى ذلك التعبير بتكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه يدل — أيضا — على فضل الله (سبحانه وتعالى) على نبيه (عليه الصلاة والسلام) .

ولا يخفى أن قول البوصيري : (وجل مقدار ما وليت من رتب) يؤكد الفكرة السابقة ، وبخاصة لفظ (جل) الذى يوحى بالتعظيم ، وكذلك التعبير باسم الموصول (ما) يوحى بالتفخيم لتلك المنزلة التى منحها الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويبدو أن الشاعر أتى بالفعل مبنيا للمجهول فى قوله (وليت ..) إشارة إلى أن الذى يعطى معلوم غير مجهول ، إذ لا يعطى غيره ولا يمنع سواه .

ولعل الشاعر أراد أن يؤكد فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : (وعز إدراك ما أوليت من نعم) .

ولقد وفق الشاعر فى اختيار ألفاظ لاءمت الفكرة ووضحت المعنى مثل (تفوز — حزت — كل فخار — كل مقام ، جل ، رتب ، عز ، نعم) فكلها ألفاظ تشير إلى التكريم والتشريف ، أضف إلى ذلك بعض المحسنات البديعية التى لا يخفى أثرها فى زيادة الوقع الموسيقى للأبيات مثل الجناس الناقص بين (حزت وجزت) والتقسيم بين شطرى البيت الثانى ، وبين شطرى البيت الثالث أيضا .

ولقد رأى الشاعر أن فى تكريم الله نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) تكريما لأمته (عليه الصلاة والسلام) ، فقال : (1)

(1) ديوانه ص١٩٨ .

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا   من العناية ركنا غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته   بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

يبشر البوصيرى المسلمين بأن الله سيكرمهم كما أكرم الرسول (عليه الصلاة والسلام) وسيشملهم برعايته ، ويحيطهم بعنايته ، لأنهم أمة أكرم الرسل (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (بشرى لنا معشر الإسلام ..) ، وجدت ما يدل على الفرح والسرور ، والأمل الكبير فى جانب الله (سبحانه وتعالى) وخاصة فى لفظ (بشرى) إلا أن هذا الأمل موقوف على (معشر الإسلام) وفى ذلك بيان فضل الإسلام .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (إن لنا من العناية ركنا غير منهدم) نبا يؤكد الأمل فى كرم الله ، ويشير إلى ذلك التأكيد بـ (إن) وتقديم الخبر (لنا) كما أن فى قوله : (.. من العناية ركنا غير منهدم) ما يقوى ثقة الشاعر فى تحقيق أمله الكبير ، وخاصة فى قوله : (ركنا) بالتنكير ، ووصفه بقوله : (غير منهدم) وكيف ينهدم وهو ركن الله تعالى الذى (دعا .. داعينا لطاعته) ولعل المراد بقوله : (داعينا لطاعته) الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

أما قول الشاعر : (.. بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم) ففيه إشارة إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أنا سيد ولد آدم ، وأنا أكرم الخلق على الله ..) (١) وفى رواية ثانية : " وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر " وإلى قوله تعالى : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... الآية (٢) " .

إلا أن الشاعر قد أضاف كلمة (معشر) إلى (الإسلام) وكلمة معشر تختص بالدخول على الذوات لا على المعنويات ويمكن أن أقول : إن فى الكلام حذف مضاف والأصل : (معشر أهل الإسلام) .

---

(١) سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٤٧ .
(٢) آل عمران / ١١٠ .

جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه :

بعدما تحدث الشاعر عن معجزة الإسراء والمعراج ، انتقل إلى الحديث عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه فى سبيل نشر كلمة التوحيد والدفاع عن العقيدة ، فقال [1] :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته
كنبأة أجفلت غفلا من الغنم [2]

ما زال يلقاهم فى كل معترك
حتى حكوا بالقنا لحما على وضم [3]

ودوا الفرار فكادوا يغبطون به
أشلاء شالت مع العقبان والرخم [4]

تمضى الليالى ولا يدرون عدتها
ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم [5]

كأنما الدين ضيف حل ساحتهم
بكل قرم إلى لحم العدا قرم [6]

وفى هذه الأبيات يتناول الشاعر فكرتين :

الأولى : بيان أثر بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الكفار ، ومدى قبولهم إياها.

---

(١) ديوانه ص ١٩٨ .

(٢) راعت : أفزعت ـ نبأة : صرخة الأسد أى زئيره ـ أجفلت : أفزعت ـ غفلا : (بضم الغين وسكون الفاء) جمع غافل : أى لاه .

(٣) معترك (بضم الميم وسكون العين وفتح التاء والراء) : محل الاعتراك والمراد : ميدان القتال ـ القنا : جمع قناة وهى الرمح ـ وضم : (بفتح الواو والضاد) ما يوضع عليه اللحم من خشب وغيره .

(٤) يغبطون : من الغبطة وهى أن تتمنى مثل ما لغيرك . أشلاء : جمع شلو وهو العضو من اللحم . شالت : ارتفعت . العقبان (بكسر العين) جمع عقاب : نوع من الطيور . الرخم : (بفتح الراء والخاء) جمع رخمة وهى طائر يشبه النسر يقع على الميتة .

(٥) الأشهر الحرم : هى المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

(٦) قرم : (الأولى) ـ بفتح فسكون ـ السيد الشجاع . قرم (الثانية) ـ فتح فكسر ـ شديد الشهوة إلى اللحم ، والمراد شديد الحرص على قتل أعداء الدين .

الثانية : الحرب بين الرسول والكفار ٠ ٠

أما الفكرة الأولى :

فتحدث عنها البوصيرى فى بيت واحد ، أشار فيه إلى أن الكفار حينما بلغتهم أخبار بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تملكهم الرعب ، وحل بهم الفزع ، فتفرق شملهم ، وهو فى سبيل بيان تلك الفكرة ، رسم صورة توضح مدى هذا الفزع ، وتجسم ذلك الرعب ، فكان — بحق — بارعا فى رسمه ، رائعا فى وصفه .

ولو تأملت الفعل : (راعت ٠٠) لأدركت من أول وهلة مقدار ما حل بالكفار من فزع ، وفى إسناده الفعل إلى (أنباء بعثته) مجاز عقلى — من إسناد الفعل إلى سببه — لأن الله تعالى هو الذى أنزل الرعب فى قلوب هؤلاء الكفار ، ولا شك فى أن مثل هذا الإسناد يؤكد أثر بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقوتها ، ولا يخفى أن فى قصر الرعب على القلوب مجازا مرسلا — علاقته الجزئية — لأن الشاعر ذكر الجزء — القلب — وأراد الكل — الذات — وفى هذا المجاز ما يشير إلى أن القلب هو محل الاطمئنان والفزع عند الإنسان ، ولعل فى تقديم المفعول به (قلوب) على الفاعل (أنباء) ما يوحى بسرعة حلول الرعب فى هذه القلوب .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين مقدار هذا الرعب ، وأن يوضح حال هؤلاء الكفار ، وقت سماعهم أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرسم صورة حسية مستقاة من البيئة البدوية — وهى بيئة الكفار فى ذلك الوقت — إذ صور قطيعا من الغنم يسرح فى مرعاه ، فإذا هو يسمع صوت أسد (يزأر) وكان من البدهى أن يتصور القارئ : ماذا يحدث لهذا القطيع ؟ إنه سيهيم على وجهه ، مصابا بفزع وهلع — ملتمسا النجاة .

ولقد اشتمل هذا التشبيه على بعض اللطائف ، منها : أن الشاعر قد شبه أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصوت الأسد فى قوته وفجاءته ، كما شبه الكفار بالغنم الراتعة فى مسرحها ، ولعل فى ذلك ما يشير إلى أن من لم يحكم عقله فيما ينفعه يشبه الأنعام ، كما أن فى ذكر لفظ (غفلا ٠٠) مزيد

بيان لحالة هذه الأغنام ، وبيان وقع المفاجأة وشدتها ، ويلاحظ أن الشاعر قد سبق - فى تشبيهه الكفار بالغنم - بقوله تعالى " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [1] " ومعلوم أن الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم .

وإذا كان الشاعر قد أحسن فى تشبيهه الكفار بالغنم - فإنه - فى رأيى - لم يكن محسنا فى تشبيهه أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بزئير الأسد ، لأن هذا مخالف لما أثر عن الرسول ، من لين فى تبليغ دعوته ، وصبر على أذى أعدائه ، ممتثلا أمر ربه : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. الآية [2] " .

إن فزع الغنم من زئير الأسد شىء مترقب وقوعه ، وأمر منتظر حصوله ، لماذا ؟ لأن الأغنام بطبعها تخشى الأسد ، وتتوقى بطشه ، فإذا سمعت صوته ، هلعت وفزعت ، وفرت ملتمسة النجاة من شىء متيقن ضرره ، وما هكذا كانت أنباء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقد وصلت إلى مسامع الإنس والجن برفق ولين واستمرت على ذلك ثلاث عشرة سنة قضاها الرسول فى مكة بغير سلاح أو قوة [3] ، ولو أشار الشاعر إلى ذلك لكان أعظم .

ولعل الشاعر قصد أنهم فزعوا مما سيترتب على أنباء البعثة لا من البعثة نفسها ، إذ كان هؤلاء الكفار أصحاب نفوذ وسلطان - فخافوا على نفوذهم أن يضعف ، وعلى سلطانهم أن يزول ، وهذه هى الفكرة الأولى التى تحدث عنها الشاعر فى بيت واحد .

أما الفكرة الثانية : فقد تحدث فيها الشاعر عن جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحربى وهى التى بدأها الشاعر بقوله : (ما زال يلقاهم فى كل معترك ..)

---

(١) الأعراف / ١٧٩ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٥ .

وفى هذا إشارة إلى شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن بلائه ، إذ كان يلقى الكفار فى كل معركة - أشعلوا نارها ، وشبوا أوارها - بشجاعة الأبطال، ويقابلهم ببسالة الرجال ، حتى انكسرت شوكتهم ، وأصبحوا بسبب كثرة السهام التى طعنوا بها ، والرماح التى سلطت عليهم ، (لحما على وضم) معدا لأكل السباع ، والتهام الجياع ، من الطيور والجوارح ، وهذا شأن من مات منهم ، أما من عاش منهم فقد (ودوا الفرار ..) ياللهول !! العربى صاحب الأنفة الذى كان شعاره دائما (العار ولا الفرار) و(المنية ولا الدنية) أصبح يتمنى الفرار !! ولكن أنى له ذلك ؟ لقد رأى من أهوال الحرب ما رأى .

فماذا صنع ؟

لقد غبط الأجساد التى قطعت وارتفعت بها الطيور ، ولك أن تتأمل : إنسان حى يغبط جسدا مزق قطعا صغيرة مكنت الطيور من حملها والارتفاع بها ، تمهيدا لالتهامها .. كيف يكون حال هذا الإنسان ؟ لابد أنه فى بلاء عظيم ، وكرب شديد ، وإذا كانت الصورة التى رسمها الشاعر فيها شىء من المبالغة ، فقد خففها بقوله : (كادوا) .

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى أن الكفار الذين لم يموتوا فى المعارك الحربية ودوا الفرار من شدة ما رأوا من أهوال الحرب وهوان الهزيمة ، فإنه قد كشف عن سوء حالهم ، واضطراب نفوسهم ، بقوله : (تمضى الليالى ولا يدرون عدتها .. البيت) ولك أن تتأمل أيضا هؤلاء الذين تمر عليهم الأيام ولا يعرفون عددها ... كيف حالهم ؟ لابد أنهم مشغولون بشىء ملك حسهم ، وتملك عقولهم ، وهو هنا الحرب وأهوالها ، التى استمرت ولم تنقطع إلا فى الأشهر الحرم .

ولعل الشاعر قد عبر بالليالى زيادة فى بيان حال الكفار ، وإشارة إلى ما كانوا يقاسونه فى الليل ، الذى هو محل الهدوء والاستقرار - غالبا - حتى فى حروب العصر الحديث ، ومقاساة الهموم فى الليل أشد ، فما بالك بالنهار ، لا شك فى أنه يكون أدهى وأمر ، ويؤكد ذلك أن الشاعر عبر بلفظ الجمع (الليالى ، ويحتمل أنه سلك مسلك التغليب لكنه غلب الأنثى (الليالى) على الذكر (النهار) خلافا للأصل [1] .

---

(١) حاشية الباجورى على البردة ص ٧٤ .

ولولا أن الشاعر يصف تلك المعارك فى عصرها - الذى لم تستخدم فيه الأسلحة الحديثة - لقلت : عبر بالليالى لأن كثرة النيران التى يصبها المسلمون على الكفار ، جعلت الليل كالنهار فلم يعرفوا أحدهما من الآخر .

ولا يخفى أن قول البوصيرى : (ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم) يتطلب ثقافة دينية ، لأن القارئ العادى لا يفهم المراد إلا إذا علم أن الشريعة الإسلامية قد حرمت القتال فى الأشهر الحرم[1] ، بل إن العرب فى الجاهلية كانوا يحترمونها ويوقفون فيها الحروب. واستمر الحال كذلك فى بدء الدعوة الإسلامية إلى أن نسخ ذلك بقوله تعالى : " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً .. الآية[2] " .

ولقد شبه الشاعر الدين الإسلامى بالضيف الذى نزل ساحة الكفار مع رجال مسلحين أشداء ، شجعان ، يعرفون كيف يجعلون أجسام أعدائهم طعاما سائغا للطيور أو للضيف، وهذا ما أشار إليه بقوله : (كأنما الدين ضيف حل ساحتهم) ، ثم أكد شجاعة الجنود المسلحين بقوله :(بكل قرم إلى لحم العدا قرم) .

إن البوصيرى قد وفق فى رسم صورة واضحة لشجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وساعده على ذلك تلك الألفاظ المناسبة للفكرة مثل : (راعت أجفلت ، معترك ، بالقنا ، الفرار ، أشلاء) ، بالإضافة إلى تلك المحسنات البديعية مثل : الجناس المحرف بين قوله : قرم (بفتح فسكون) وقرم (بفتح فكسر) .

ويواصل الشاعر حديثه عن جيش المسلمون بقوله :[3]

يجر بحر خميس فوق سابحة

يرمى بموج من الأبطال ملتطم[4]

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٢) التوبة : ٣٦ ، تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٩٠ وما بعدها .
(٣) ديوانه ص ١٩٨ .
(٤) بحر خميس : من إضافة المشبه به للمشبه والأصل (خميس كالبحر) والخميس : هو الجيش ، وسمى بذلك لأنه مكون من خمس فرق : مقدمة ومؤخرة والقلب ثم الميمنة والميسرة. سابحة : المراد سرعة. موج ملتطم : يضرب بعضه بعضا .

من كل منتدب لله محتسب   يسطو بمستأصل للكفر مصطلم[1]

حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم

من بعد غربتها موصولة الرحم[2]

مكفولة أبدا منهم بخير أب   وخير بعل فلم تيتم ولم تئم[3]

يشير الشاعر فى تلك الأبيات إلى قوة جيش المسلمين ، وشجاعة جنوده ، وبسالة قائده ، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولو أنك تأملت ألفاظه ، لوجدت أنه قد وفق فى اختيارها ، إذ ناسبت الفكرة وأظهرت المعنى، فمثلا كلمة (بحر) توحى بكثرة جيش المسلمين ، وإذا كان البحر تتلاطم أمواج مياهه ، وتتدافع موجة بعد أخرى ، فإنك لتعجب أن ذلك البحر هنا ـ (يرمى بموج من الأبطال ملتطم). إن أمواج البحر الذى أشار إليه الشاعر جماعات من الجنود الشجعان تتوالى بعد جماعات ، مما يدل على الكثرة والقوة التى تحدث جلبة لا يخفى أثرها فى المعارك الحربية .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى بعض معدات ذلك الجيش فقال: (فوق سابحة) فالجنود يركبون خيلا نشيطة سريعة لا تعرف الكلل أو الملل ، يدل على ذلك عرقها الغزير الذى يؤكد شدتها وقوة بأسها ، وكان الأولى بالشاعر ـ كما ذكر بعض النقاد ـ أن يجمع هذا اللفظ (سابحة) لأن الجيش الكثيف الهائج لا يكون على سابحة ، وإنما يكون على سوابح [4].

(١) منتدب : مجيب من ندبه لكذا فانتدب له أى دعاه فأجابه . لله محتسب : مدخر أجر عمله عند الله . يسطو / يصول . مستأصل : مبيد من استأصل الشيء ، إذا قلعه من أصله والمراد به هنا سيف يقضى على الكفر وأهله . مصطلم : من الاصطلام وهو الاستئصال ، وقيل : معناه الهلاك من اصطلمه إذا أهلكه فمصطلم : بمعنى مهلك .

(٢) غدت : أصبحت . ملة الإسلام : شريعته . غربتها : المراد قلة معتنقيها . موصولة الرحم : المراد كثرة معتنقيها .

(٣) مكفولة : من كفله : إذا قام بحقه . البعل : الزوج . تيتم : من يتم الصبى إذا مات أبوه ، تئم : من آمت المرأة إذا خلت من الزوج .

(٤) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٩ .

وإذا كانت الحصن صابحة فإن الذى يحارب عليها ليس جبانا ولا خوارا ، وإنما هو (من كل منتدب لله محتسب) ولعل لفظ (كل) وما يدل عليه من العموم ، ثم إضافته إلى لفظ نكرة (منتدب) يدل على شجاعة ذلك المحارب ، كما أن شرف غايته ، وسمو نفسه يتجليان فى (لله محتسب) .

ولقد أشار الشاعر إلى مدح ذلك المحارب فقال : (يسطو بمستأصل ...)

فإذا كان المحارب شجاعا ، وخيله قوية ، وسيفه بتارا ، فلا شك فى أنه سينتصر على عدوه ، بل سيقضى عليه ، وهذا ما أشار إليه البوصيرى بقوله : (للكفر مصطلم) .

إن رجالا هذا شأنهم ، وأبطالا ذلك ديدنهم ، لابد أن يظهر أثرهم وتعلو كلمتهم ، وهذا ما ذكره الشاعر فى قوله : (حتى غدت ملة الإسلام .. البيت) لقد كان الإسلام فى أول أمره غريبا ، ولم يلبث أن أصبح بين أهله ورحمه الذين دافعوا عنه ورفعوا رايته ، ونشروا كلمته ، حتى أصبحت (من بعد غربتها موصولة الرحم) .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (من بعد غربتها) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " بدأ الإسلام غريبا .. " (١)

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أثر هؤلاء الجنود المسلمين فى دفاعهم عن الشريعة الإسلامية ، فأشار إلى أنها أصبحت (مكفولة أبدا منهم بخير أب وخير بعل) .

فإذا تأملت لفظ (مكفولة) وما يحمله من رعاية كاملة ، وعناية شاملة مستمرة (أبدا) من خير (أب) لا يترك ابنته و (خير بعل) لا يهمل زوجته ، إذا تأملت كل ذلك أدركت إلى أى مدى حافظ هؤلاء المسلمون على شريعة الله ، وأحاطوها بعنايتهم ودافعوا عنها بأرواحهم .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٩٠ ، طبعة دار التحرير .

ولا شك لى أن فى تشبيه الشريعة الإسلامية بالابنة التى (لم تيتم) وبالزوجة التى (لم تئم) بيانا وإيضاحا أكد قربصلة المسلمين الأوائل بشريعة الله ، ولكن يبدو - لى - أن خيوط هذا التشبيه غير محكمة ، وإن أخذها الشاعر من البيئة العربية التى كانت شديدة الحفاظ على نسائها كما كان رجالها يموتون دفاعا عن حرماتهم .

ومهما يكن من شىء فلقد صور لنا الشاعر صورة جيدة لجيش المسلمين وساعده على ذلك حسن اختياره الألفاظ المناسبة للفكرة مثل : (بحر - خميس - موج - الأبطال - ملتطم - يسطو ، مستأصل - مصطلم) بالإضافة إلى بعض المحسنات البديعية مثل : اللف والنشر المرتب فى قوله : (خير أب وخير بعل ، فلم تيتم، ولم تئم) .

ولكنى أرى أن لفظ (يجر) غير مناسب للمقام، ويوحى بأن المشدود - وهم أبطال المسلمين - آت إلى الحرب كرها ، وهذا المعنى لم يرده الشاعر ، ولو قال : (يقود) لكان أفضل، أو لو سلط الفعل (يجر) على الآلات مثلا لكان أحسن أيضا ، وهذا ما فعله المتنبى عندما استعمل الفعل (يجر) فقال [1] :

أتوك يجرون الحديد كأنهم
سروا بجياد ما لهن قوائم

فمعلوم أن الحديد ثقيل من جهة ، وكثرته قد زادته ثقلا من جهة ثانية ، فهم يجرونه ، ولا بأس فى ذلك ، ولو سلك البوصيرى ذلك المسلك لكان أفضل .

---

(١) ديوانه جـ ٢ ص ٢٦٧ بشرح العكبرى .

ويستمر الشاعر فى مدح صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذين دافعوا عن الإسلام فيقول : (١)

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
ماذا رأى منهم فى كل مصطدم (٢)
وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا
فصول حتف لهم أدهى من الوخم (٣)
المصدرى البيض حمرا بعدما وردت
من العدا كل مسود من اللمم (٤)
والكاتبين بسمر الخط ما تركت
أقلامهم حرف جسم غير منعجم (٥)

---

(١) ديوانه ص١٩٨ .

(٢) هم : المراد الصحابة الذين دافعوا عن الإسلام أول ظهوره . مصادمهم : من اصطدم معهم فى الحرب، من تصادم الفارسان إذا التقيا بأجسادهما ، مصطدم : مكان الاصطدام ، والمراد : أماكن القتال .

(٣) سبق التعريف بحنين فى ص ١٤١ من هذه الرسالة والمراد بها هنا تلك الغزوة التى التقى فيها المسلمون والكفار ، وانتهت المعركة بين الطرفين بانتصار المسلمين وكان ذلك سنة ٨ هـ . بدر : اسم لماء على طريق مكة بينة وبين المدينة ما يقرب من ثمانية وعشرين فرسخا وقعت عنده غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة وانتصر فيها المسلمون على الكفار انتصارا كبيرا . أحد : اسم لجبل بالمدينة كانت عنده غزوة أحد فى السنة الثالثة من الهجرة ، وفيها انتصر المسلمون فى بادئ الأمر ، ثم هزموا عندما خالف الرماة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .
فصول : جمع فصل والمراد : زمان هلاكهم . أدهى : اسم تفضيل من الداهية وهى المصيبة . الوخم : الوباء .

(٤) المصدرى : جمع مصدر (بضم الميم فى الجمع والمفرد) من قول المربصدر عن الماء إذا رجع عنه . البيض : جمع أبيض والمراد السيوف المصقولة . وردت : ذهبت إلى الماء . اللمم : (بكسر اللام) جمع لمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

(٥) السمر : (بضم السين) جمع أسمر والمراد به الرمح . الخط : شجر يؤخذ منه خشب الرماح . أو اسم موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند ، وإليه تنسب الرماح الخطية . الحرف : الطرف . المنعجم : صحيحه (المعجم) من أعجمت الكتاب إذا نقطته .

نعم : هؤلاء الصحابة أبطال صناديد ، وفرسان شجعان ، لا يخافون بأس الحرب ، ولا رهبة النزال ، وكيف يخافون ذلك (هم الجبال) صلابة وثباتا وشدة وقوة ، ولا يخفى أن فى قول الشاعر (هم الجبال) قصرا — بتعريف الطرفين — أكد المعنى وأظهره ، وحرك فى النفس عجبا من قوة هؤلاء الصحابة ، وإذا أردت دليلا على قوتهم (فسل عنهم مصادمهم) سل هؤلاء الذين صادموهم فى المعارك ، ووقفوا أمامهم فى الحروب ، ولعل فى لفظ (مصادم) ما يرسم صورة حية للمعركة ، وفى جمعه وتنكيره ما يشير إلى كثرة المعارك وكثرة المشتركين فيها ، بل إنه ليشير إلى السيوف وهى تتقارع ، والصفوف وهى تتداخل .

وفى قول الشاعر : (ماذا رأى منهم فى كل مصطدم) استفهام مشوب بالتعجب من كثرة الاصطدام ، واستهزاء وسخرية من هذا الذى ستسأله ليخبرك عما رآه من شدة المعارك وهولها .

لقد أبلى هؤلاء الأبطال بلاء حسنا فى كل معاركهم ، وخاصة (حنينا وبدرا وأحدا) تلك الغزوات التى لقى فيها كثير من الأعداء حتفهم ، وزهقت فيها أرواحهم أكثر مما تزهق بالوباء .

ولا يخفى أن فى سؤال تلك المعارك (حنين — وبدر — وأحد) مجازا مرسلا علاقته المحلية — ويجوز أن يكون فيه إيجاز بالحذف ، ولكن الأول أفضل ، لأن فيه تشخيصا وإيحاء بصلة هؤلاء الأبطال ، بالإضافة إلى أن الشاعر — فيه — قد أنزل هذه الأماكن منزلة من يعقل ويحس ، ويسأل ويجيب ، ولعل فى هذا إشارة إلى أن هذه الأماكن قد شهدت انتصار المسلمين ، ورأت هزيمة المشركين ، إلا أن البوصيرى لم يذكر الغزوات مرتبة حسب ترتيبها التاريخى والأصل (بدر وأحد وحنين) كما أن غزوة أحد لم تنته بانتصار المسلمين حتى يذكرها ويفاخر بها ، ولعله أراد الإشارة إلى انتصار المسلمين فى أولى جولاتها ، إذ الثابت أن المسلمين قد أبلوا بلاء حسنا فى أولها ، ولكنهم هزموا فى نهايتها

بسبب ترك الرماة أماكنهم — كما سبق [١] .

ولا يخفى ما فى تكرار لفظ (سل) من تأكيد وفخر يلائمان المقام ، أضف إلى ذلك أن لفظ (حتف) وتنوينه وتنكيره كل هذا يدل على العموم ، وذلك يشير إلى أن القتل قد أفنى هؤلاء الأعداء ، ويؤكد ذلك قوله : (أدهى من الوخم) .

وفى البيت الثالث يذكر الشاعر دليلا آخر على شجاعة هؤلاء الأبطال وهو تلك السيوف التى يذهبون بها إلى المعارك بيضًا ثم يعودون بها حُمْرا ، وفى هذا دلالة على أنه قد قُتل بها كثير من الأعداء ، ولكن الشاعر أكد ذلك المعنى باستعارة مكنية لطيفة فى قوله : (المصدرى البيض حمرا ..) ألا ترى أن هذا كله يؤكد شجاعة هؤلاء الرجال وبخاصة أنهم قاتلوا أعداء أولى قوة وأولى بأس شديد ، يدل على ذلك قول الشاعر : (.. كلّ مسود من اللمم) .

ويبدو أن البوصيرى اعتقد أن الشَّعْر الأسود دليل على أن صاحبه شاب ذو قوة وفتوة ، ولكنى أرى أن فى اختيار هذا الوصف ما يوهم أن جنود الأعداء كانوا شبابا ، وليست لديهم حنكة الحروب ولا تجربة النزال ، كما أنه مخالف للحقيقة والواقع ؛ لأن المسلمين حاربوا أعداءً شبابا وشيوخا .

ولقد ذهب بعض الكتاب إلى أن الشاعر قد تأثر فى ذلك البيت بقول بعض الشعراء السابقين [٢] ، وبخاصة : عمرو بن كلثوم [٣] الذى يقول فى معلقته :

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا [٤]

---

(١) حياة محمد ص٢٩٧ .

(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص٦٩

(٣) هو : عمرو بن كلثوم التغلبى — شاعر جاهلى توفى سنة ٦٠٠ م (انظر تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص١٠٤) .

(٤) القرشى : جمهرة أشعار العرب ص١٦١ المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .

ولا يخفى أن بيت البوصيرى قد اشتمل على روائع منها : أنه ذكر أن الذى يُوَرِّد : السيوف وليست الرايات ، ولا شك فى أن السيوف البيض إذا رجعت حُمْرا دلت دلالة كبيرة على كثرة القتلى ، أما الرايات البيض فقتيل واحد يكفى لرجوعها حمرا ، لأنها من قماش ، أما السيوف فهى من حديد وليس من السهل أن يظهر الدم عليها إلا إذا كثر القتلى .

وإذا كان الشاعر قد وصف هؤلاء الجنود بالشجاعة - فى الأبيات السابقة - فإنه فى البيت الرابع يصفهم بإجادة الطعن بالسهام ، والضرب بالسيوف ، من غير عناء أو مشقة ، تأمل قوله : (والكاتبين بسمر الخط ..) تجد أن فى لفظ (الكاتبين) استعارة تصريحية تبعية وضحت المعنى المراد ؛ إذ شبه الشاعر الصحابة وهم يمسكون سيوفهم بالكاتبين وهم يحملون أقلامهم ، وكما أن الكاتب لا يترك الحرف إلا إذا أجاد كتابته ثم شكله بعناية وإحكام ، فكذلك الجندى من جنود الصحابة لم يترك جسم عدوه إلا إذا أصابه بضربة سيف ، أو طعنة رمح .

ولا يخفى أن فى قوله : (أقلامهم ..) استعارة تصريحية أصلية أكدت الفكرة السابقة إذ شبه أسنة الرماح بالأقلام ، وفى ذلك مزيد بيان لمدى تحكم الجندى فى رمحه .

ولقد أجاد الشاعر فى اختياره ألفاظا ناسبت الفكرة ، مثل قوله : (مصادمهم ، مصطدم ، فصول حتف ، أدهى ، المصدرى البيض حمرا ، والكاتبين بسمر الخط) ، وإنك إذا تأملت تلك الألفاظ وجدت جو الحرب قائما ، وغبار المعارك مثارا .

ولم ينس الشاعر أن يضمن أبياته بعض المحسنات البديعية ، التى ساعدت على توضيح الصورة ، وجمال العبارة مثل : الجناس المشتق بين قوله : (مصادم ومصطدم) وفيه رد العجز على الصدر أيضا ، والطباق بين (الصدور والورود) وبين (البيض والسود) ، إلا أن البيت الرابع قد أثقله الشاعر بمحسن بديعى وهو المناسبة بين (الكاتب والخط ، والأقلام والحرف . ومنعجم) [1] ويبدو

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص ٦٩ .

أنه تذكر وظيفته يوم كان كاتبا ، فأتى بكل أدوات الكتابة ولوازمها ، كما أن لفظ (منعجم) لم يرد فى معاجم اللغة المعتمدة[1] .

ويبدو أن الشاعر ظن أنه مطاوع (أعجم) وهذا غير صحيح ، والصحيح أن تقول : أعجمت الحرف فهو (معجم)[2] .

ولم يكتف الشاعر ـ فى مدح الصحابة ـ بما ذكره من شجاعتهم ومهارتهم ، بل قال عنهم أيضا[3] :

شاكى السلاح لهم سيما تميزهم
والورد يمتاز بالسيما عن السلم[4]

تهدى إليك رياح النصر نشرهم
فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى[5]

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا
من شدة الحزم لا من شدة الحزم[6]

---

(١) ذكرت لفظ (المعتمدة) إشارة إلى أن بعض الكتب ذكرت هذا اللفظ على أنه صحيح ، ولكنها ليست كتبا معتمدة فى لغة العرب مثل (أقرب الموارد) الذى يقول صاحبه : (انعجم عليه الكلام) أى خفى جـ ٢ ص ٧٥٠ .

(٢) لسان العرب جـ ١٥ ص ٢٧٩ ، تاج العروس جـ ٨ ص ٣٨٩ .

(٣) ديوانه ص ١٩٩ ، ولقد ذكر بعض الكتاب بيتا قبل هذه الأبيات وهو :

إن قام فى جامع الهيجاء خاطبهم ❊ تصامت عنه آذان صممه الصمم

ولكنه ليس فى ديوان الشاعر ، ولذلك ذهب كثير من الكتاب إلى أنه ليس من نظم البوصيرى .. انظر المرجع السابق ، وحاشية الباجورى على البردة ص ٧٩ .

(٤) شاكى السلاح : من الشوكة وهى الحدة والشدة . سيما : علامة . السلم : شجر له شوك يشبه الورد ولكن ليست له رائحة مثله .

(٥) النشر : الرائحة الطيبة ـ الأكمام : جمع كم بكسر الكاف ـ وهو الغلاف الذى يكون على الزهر ، الكمى : الرجل الشجاع .

(٦) فى : بمعنى (على) . الربا : (بتثليث الراء) ما ارتفع من الأرض ونبتها يكون أثبت ـ وأحسن من غيره . الشدة : (بكسر الشين وفتح الدال مشددة) القوة . الحزم : (بفتح فسكون) ضبط الأمر وقوة الثبات ـ الشدة (بفتح الشين وفتح الدال مشددة) الربط . ـ الحزم : (بضمتين) جمع حزام ، ما يشد به السرج وغيره على ظهر الدابة .

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقـــا
فما تفرق بين البهـم والبهـــم (١)

يمدح البوصيرى هؤلاء الأبطال بحدة سلاحهم ، وقوته ، وبأن لهـــم علامات تميزهم من غيرهم ، كما أن لنصرهم أخبارا سارة طيبة ، تحملهـــا الرياح فينتشر عبيرها فى كل مكان ، أضف إلى ذلك أنهم ماهرون فى ركـوب الخيل ، مما جعل الأعداء يخافونهم ، ويخشون بأسهم .

ولقـد أشار الشاعر الى كثرة سلاح المسلمين وقوتـه فى قوله : (شاكى السلاح) ثم ذكر أن لهم صفات تميزهم من غيرهم ، إلا أنه لم يحدد تلـك السمات (لهم سيما ٠٠) ولعله يلمح إلى قوله تعالى " ٠٠ سِيمَاهُمْ فِـــى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ٠٠ الآية (٢)) . أو لعله يشير إلى أن هؤلاء الأبطال يعرفون بعدم فزعهم فى الحروب ، لأنهم واثقون من أحد أمرين : إما النصـر وإما الشهادة وفى كل خير ، ولا يخفى أن فى تقديم الجار والمجرور (لهـم) ما يدل على أن هذه الصفات لا تتعداهم إلى غيرهم ، وإنما هى خاصة بهـم .

ولعل فى التعبير بالمضارع (تميزهم) ما يـدل على استحضار الصـورة ودوامها ، وفى هذا دليل على أنها صورة عظيمة تستحق الفخر بها ، والإشـارة إليها .

ولقـد أتى الشاعر بتشبيه ملموس محسوس لكى يوضح به صورة هؤلاء الأبطـال ويؤكدها وذلك فى قوله : (والورد يمتاز بالسيما عن السلم) فهو يشبه الصحابـة وهم يحملون سلاحهم ، وفى الوقت نفسه يمتازون بالهدوء ، ويتحلون بجمـال الخلق وبهاء المنظر ، شبههم وهم فى تلك الهيئة ، بالورد ، ومعلوم أن الـورد

---

(١) فرقا (بفتحتين) : خوفا وفزعا . البهم (فتح فسكون) جمع (بهمة) بفتح فسكون أيضا ـ وهى السخلة أى ولد الضأن . البهم : (بضم ففتح) جمع (بهم) ـ بضم فسكون ـ وهو الشجاع الذى لا يدرى من أين يؤتى فى الحرب لشدة بأسه ، وقيل : الذى تخفى مقاتله .

(٢) الفتح / ٢٩ .

يمتاز برائحته الطيبة ، ومنظره الجميل ، ومع ذلك يوجد بجانب الوردة شوك فكل من المشبه والمشبه به ، يجمع بين شيئين مختلفين مثل : القوة والرقة والشدة واللين ، ولعل الشاعر متأثر فى ذلك بقوله تعالى فى وصف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... الآية[1] ".

وإذا كان الشاعر قد شبه أبطال الصحابة بالورد — كما سبق — فإنه شبه الكافر بالسلم ، وهو — كما سبق — شجر له شوك ،ولكنه ليس كالورد فى جماله وبهائه، وطيب رائحته ، ولكنى أرى أن فى تشبيه سلاح المسلمين بشوك الورد ما يوهم بالضعف ؛ لأن شوك الورد مهما كثر فهو ضعيف ، ولعل الشاعر أراد مجرد الجمع بين أمرين يدلان على شيئين مختلفين ، ومع ذلك فإن بعض الكتاب علق على هذا التشبيه قائلا : " .. إن وصف الصحابة بأنهم أصحاب سيما مميزة لهم ، لا يناسبه توكيد هذا المعنى بأن الورد له سمات تميزه عن السلم ،لأن الورد فى مقام الوصف بالبطولة لا يصح أن يذكر ، إذ الورد يُذَكِّر بالجمال والرقة والدعة ، وإنما الذى يذكر فى مقام البطولة ما يلائمها من جبال راسخة ، أو براكين ثائرة ، أو عواصف مدمرة ، أو أسود ضارية ، على أن الورد لا يمتاز من السلم وحده ، وإنما يمتاز على غيره من أنواع الشجر ، وكذلك السلم يتميز على الورد بخصائص ليست فى الورد ، فالتذييل غير موفق[2] .. " وأرى أن هذا الرأى يحتاج إلى مراجعة ، لأن صاحبه نسى أن الشاعر قد ذكر ما يلائم البطولة فى الأبيات السابقة قبل هذا البيت ، ألم يقل : (هم الجبال) و (المصدرى البيض) و (الكاتبين بسمر الخط) و (شاكى السلاح ..).

وأراد الشاعر أن يشير إلى انتصار هؤلاء الصحابة فقال : (تهدى إليك رياح النصر نشرهم) ولا يخفى أن فى إسناد (تهدى) إلى (رياح) مجازا عقليا فيه تشخيص للرياح ، وتنزيلها منزلة من يعقل ويهدى ، كما أن فى جمعها إشارة إلى كثرتها ، وبالتالى فهى تحمل أخبارا عظيمة ، بالإضافة إلى تلك الرائحة الطيبة التى أشار إليها لفظ (نشرهم) .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ٧٠ .

إن هذه الرياح الطيبة ذات الأنباء السارة إذا هبت عليك ، جعلتك (تحسب الزهر فى الأكمام كل كمى) وفى هذه العبارة تشبيه مقلوب ، وأصله (تحسب أن كل كمى الزهر فى الأكمام) ولعل الشاعر قلبه للمبالغة أو للقافية ، وهو يشبه لنا صورة ذلك البطل الذى يجمع بين القوة المعنوية والقوة المادية بالزهرة التى تنبعث منها رائحة طيبة ، مع كونها محاطة بأكمامها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين صورة هؤلاء الجنود وهم على ظهور الخيل فقال : (كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا) فهو يشبههم بنبات الربا فى استقرار جذعه وحركة أغصانه ، فهم كذلك مستقرون على ظهور الخيل مع أنهم يتحركون بمرونة تدل على فروسيتهم ، وتفصح عن قوتهم ، ومصدر ذلك الثبات وتلك الحركة (من شدة الحزم لا من شدة الحزم) فهم متحكمون فى أنفسهم ، ضابطون أمرهم ، يتصرفون بحكمة وأناة .

ومع أن هذا التشبيه ظاهر المراد منه ، فقد قال عنه بعض الكتاب " .. ولقد يبدو أن تشبيه الصحابة فى ثباتهم على صهوات الخيل بنبات الربا فيه الدلالة على فروسيتهم ، ومرانتهم ، وأنهم أحلاس خيل ، وما من شك فى أن البوصيرى قصد ذلك ، لكن نبت الربا يكون نجما [1] ويكون شجرا ، ومن الشجر ضعيف الساق ، وقوى الساق ، ولا يصح تشبيه الثبات والرسوخ بالنجم ، ولا بالضعيف من الشجر ، ولهذا جاء التشبيه غير مكتمل ولا دقيق ... [2] " .

وأرى أن التشبيه لا غضاضة فيه ، ولا عبرة بأن فى النبات ما هو ضعيف وما هو قوى ، أو بأن فيه النجم وفيه الشجر ، لأن المقام مقام مدح ، وهذا كاف فى صرف الذهن إلى النبات القوى . ولعل مما يؤكد ذلك قوله تعالى عن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) " .. وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ .. الآية [3] ، وقد يقول صاحب الرأى السابق : إن الله وصف الزرع بما يزيل عنه الضعف ، فأقول ، وكذلك البوصيرى ، يتضمن وصفه مثل ذلك . لأن المقام مقام مدح .

(١) النجم : النبات الذى ليس له ساق ، أما الشجر : فهو ما له ساق .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ٧٠ .
(٣) الفتح / ٢٩ .

ومهما يكن من شيء ، فإن هؤلاء الصحابة يجيدون فن الحرب ، مما جعل الأعداء يتملكهم الرعب ، ويحل بهم الفزع : (طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا) تأمل لفظ (طارت) وما يشير إليه من صورة رائعة مصدرها ما فيه من استعارة تصريحية تبعية توحى بالاضطراب والفرار ، وذكر القلوب فيه مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وكل هذا يؤكد ما حل بهؤلاء الأعداء من فزع واضطراب عندما رأوا شجاعة المسلمين وبراعتهم فى الحرب ، فتملكتهم الدهشة التى جعلتهم لا يفرقون بين الإنسان والحيوان (فما تفرق بين البهم والبهم) .

لقد أحسن الشاعر فى اختياره ألفاظا لاءمت الفكرة ، ووضحت المعنى مثل قوله : (شاكى السلاح ـ رياح النصر ـ كل كمى ـ ظهور الخيل ـ شدة الحزم ـ طارت قلوب العدا ..) .

كما ضمن أبياته بعض المحسنات البديعية التى زادت جرسها ، وقوت موسيقاها مثل : تكرار لفظ (سيما) والجناس المشتق بين (تميزهم ويمتاز) ، وبين (الأكمام وكمى) والجناس المحرف بين (شدة الحزم وشدة الحزم) وبين (البهم والبهم) .

وبعد أن أشار الشاعر إلى بعض الأسباب المادية التى أدت إلى نصر هؤلاء الأبطال ـ مثل وفرة السلاح وحدته ، وقوة الخيل ونشاطها ـ أشار إلى بعض عوامل النصر المعنوية بقوله :(1)

ومن تكن برسول الله نصرته	إن تلقه الأسد فى آجامها تجم(2)
ولن ترى من ولى غير منتصر	به ولا من عدو غير منقصم(3)
أحل أمته فى حرز ملته	كالليث حل مع الأشبال فى أجم(4)

---

(1) ديوانه ص ١٩٩ .

(2) الآجام : (جمع أجمة) وهى الغابة . تجم : (مضارع وجم) إذا أمسك عن الكلام وغيره لخوف أو هيبة .

(3) الولى : المراد به هنا : المسلم . العدو : المراد به هنا الكافر . منقصم منكسر والمراد هنا منهزم .

(4) أحل : أنزل ـ حرز : حصن . الأشبال : (جمع شبل) وهو ولد الأسد . أجم : (بفتحتين) جمع أجمة ، وقد سبق بيان معناها .

إن من ينصر رسول الله ، ينصره الله على عدوه ، ولو كان ذلك العدو الأسد فى عرينه ، وهكذا لن ترى مؤمنا إلا انتصر بسبب طاعته الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولن تجد كافرا إلا انهزم بسبب عداوته للرسول ، وبعده عن الدين الذى هو حصن حصين لمن دخله .

ولا يخفى أن قول الشاعر : (ومن تكن برسول الله نصرته ..) يبين أن نصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) - بالدفاع عن دينه - يكون سببا من أسباب النصر ، لقول الله تعالى : " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[1] " .. ولا شك فى أن نصر رسول الله هو نصر لله (سبحانه وتعالى) .

وإذا تأملت قول البوصيرى : (إن تلقه الأسد فى آجامها تجم) وجدته يؤكد نصر المسلم مهما كانت قوة عدوه ، ولو كان أسدا فى عرينه لخاف ، إذ القلوب بيد الله يثبتها ، أو يلقى الرعب فيها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح الفكرة السابقة فقال : (ولن ترى من ولى غير منتصر) لإيمانه بالله واتباعه رسول الله ، (ولا من عدو غير منقصم) لكفره بالله ورسوله ، وبعده عن الدين الحنيف .

وأراد الشاعر أن يبين أن هذا الدين ما هو إلا حرز مكين ، وحصن حصين لمن دخله ، فقال : (أحل أمته فى حرز ملته) فالرسول (صلى الله عليه وسلم) بمجيئه بهذا الدين ودعوة الناس إليه ، ودخولهم فيه أصبحوا مطمئنين .

ولعل الشاعر أراد أن يوضح اطمئنان الرسول وأمته بعد دخولهم فى هذا الدين ، فأتى بتشبيه حسى وضح الفكرة فى قوله : (كالليث حل مع الأشبال فى أجم) فالشاعر يشبه الرسول بالأسد ، كما يشبه الأمة بالأشبال ، والدين بالأشجار الكثيفة ، ولا يخفى أن هذا التشبيه — على ما فيه من ضعف — قد أتى به الشاعر للتقريب والتوضيح .

ولقد اشتملت الأبيات على بعض المحسنات البديعية التى لم يخف أثرها فى الوقع الموسيقى ، مثل : الجناس الشبيه بالمشتق فى (آجام — تجم) والطباق

---

(١) محمد : ٧ .

بين (ولى وعدو) وبين (منتصر ، ومنتقصم) ، والتقسيم بين شطرى البيت الثانى .

ويلاحظ أن الشاعر قد زاد حرف الجر (من) فى قوله : (من ولى ، من عدو) مع أن الفعل (ترى) يتعدى بنفسه ، ولعله زاد ذلك للتأكيد .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين بعض نعم الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) فقال (١) :

كم جدّلت كلمات الله من جـــدل
فيه ، وكم خصم البرهان من خصم (٢)
كفاك بالعلم فى الأمى معجـــزة
فى الجاهلية ، والتأديب فى اليتم (٣)

من فضل الله على رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) أن جعل آيات القرآن الكريم تهزم كل من جادل فى رسالته ، وتدمغ أباطيل كل عدو حاول التشكيك فى نبوته ، ويكفى أن الله قد أفاض عليه من كرمه ، فعلم المتعلمين مع أنه أمى ، ومع أنه نشأ بل ولد يتيما إلا أن الله منّ عليه فآواه ، فكان مثلا عاليا للخلق العظيم (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد وقف كثير من الكفار وغيرهم أمام دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل كانوا يريدون إفحامه فى مجادلتهم إياه ، ولكن الله (سبحانه وتعالى) كان يؤيـــد

---

(١) ديوانه ص ١٩٩ .

(٢) جدلت : من الجدالة وهى وجه الأرض ، والمراد : أزالت جداله . جدل : (بفتح فكسر) كثير الجدال أى الخصومة . خصم (الأولى) : فعل على زنة فعل أى غلب . وخصم (الثانية) : (بفتح فكسر) الشديد الخصومة .

رسوله (صلى الله عليه وسلم) وينصره عليهم ، ومن ذلك ما روى أن أحبار اليهود قالوا لبعض كفار مكة : اسألوا محمدا (صلى الله عليه وسلم) عن ثلاث ... فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول .. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم .. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها .. وسلوه عن الروح ما هو ؟ فلما ذهبوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسألوه عن ذلك .. نزل الوحى بعد فترة بسورة الكهف ، وفيها الإجابة عن السؤالين الأولين (١) ، كما نزل قوله تعالى :
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ؟ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٢)) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (كم جدلت .. البيت) وجدته يشير إلى أن هذا الجدال قد تكرر كثيرا ، وفى كل مرة يُفحم هؤلاء المجادلون ، ويؤكد ذلك لفظ (كم) فإنها خبرية للتكثير ، ولعل فى إسناد الفعل (جدل) إلى (كلمات الله) ما يشير إلى قوة هذه الآيات وخاصة أنها أضيفت إلى لفظ الجلالة (الله) .

ولقد زاد الشاعر حرف الجر (من) فى قوله : (من جدل) ، و (من خصم) للتأكيد ويبدو أن البوصيرى جرد من نفسه شخصا يقول له : (كفاك بالعلم فى الأمى معجزة ..) أى ألا يكفى هذا العلم الذى جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، كما أنه ولد فى زمن قوم لا علم عندهم حتى يكون قد اكتسبه منهم ، ألا يكفى ذلك ليكون دليلا على أنه نبى ، وأن الله هو الذى آتاه ذلك العلم .

وألا يكفى ما كان عليه من أدب جم ، وخلق عظيم ، مع أنه ولد بعد وفاة أبيه وجرت العادة بأن الأب هو الذى يقوم بتربية ابنه ، وتنشئته التنشئة الصالحة فمن ذا الذى أدب محمدا (صلى الله عليه وسلم) وهو اليتيم .. ؟ إن الذى أدبه هو الله ، وصدق الله العظيم فى قوله : " وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (٣) " وفى قوله : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٤) " .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٥ ص ١٣٣ .
(٢) المرجع السابق ، الإسراء / ٨٥ .
(٣) النساء / ١١٣ .
(٤) الضحى : ٦ .

ندم وأمل :

يظهر الشاعر ندمه على ما فرط منه من ذنوب ، ويأمل فى عفو الله وشفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول [1] :

خدمته بمديح أستقيل به ... ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم [2]
إذ قلدانى ما تخشى عواقبه ... كأننى بهما هدى من النعم [3]
أطعت غى الصبا فى الحالتين وما ... حصلت إلا على الآثام والندم [4]

ويذكر الشاعر — هنا — أنه مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليكون ذلك المديح سببا فى عفو الله عن ذنوبه التى اقترفها فى زمن شبابه ، وبخاصة عندما كان يعمل ملتزما ، إذ كان يتصل بالأمراء ويمدحهم ، طالبا رفدهم ، ولا شك فى أن من يتعرض لمدح الأمراء لا يكون متحريا الصدق — غالبا — فى كل ما يمدحهم به ، ولذلك ذكر الشاعر أن هذا المديح قد أثقله بالذنوب والآثام .

وإذا تأملت قوله: (خدمته .. البيت) وجدت أنه لم يمدح الرسول لذاته ، بل مدحه مقابل غفران ذنوبه ، ولعل هذا يشير إلى مدى احتياج الشاعر إلى غفران ذنوبه ، إلا أننى كنت أحب أن يمدح البوصيرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) لذاته، والله (سبحانه وتعالى) لن يرجعه صفر اليدين ، كما أن لفظ (خدمته) غير مناسب للمقام ، لأن الشاعر — فى الحقيقة — لم يخدم إلا نفسه ، ولو قال: (مدحته) مثلا لكان أفضل .

---

(١) ديوانه ص ١٩٩ .

(٢) خدمته : الضمير عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) المديح : اسم لما يمدح به الشخص من الثناء الحسن والذكر الجميل ، أستقيل : أطلب الإقالة والمراد : أطلب العفو . (العمر) مدة حياة الإنسان والمراد به هنا تلك الأيام التى قضاها الشاعر فى مدح الملوك وغيرهم .

(٣) قلدانى : من قلدته الأمر أى جعلته كالقلادة فى عنقه ، وضمير المثنى عائد على الشعر والخدم ، العواقب : جمع عاقبة وهى ما يئول إليه الأمر آخرا الهدى : ما يُهدى إلى الحرم من النعم وهى الإبل والبقر والغنم .

(٤) غى الصبا : طيش الشباب الحالتين : المراد بهما حالة مدح الملوك وحالة الاشتغال بالخدم — الآثام : (جمع إثم) ما يأثم صاحبه بفعله .

ولقد وضح الشاعر أثر الذنوب فشبهها بالقلادة التى توضع فى العنـق (إذ قلدانى ما تخشى عواقبه) ثم شبه حالته والأمر كذلك بأنه (كالهـدى من النعم) التى يحلق فى عنقها شىء من جلد ونحوه ليعلم أنها هـدى فيكف عنها الناس ، ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى أن من يخالف أمر ربـه ، ولا يخشى عاقبة ذنوبه ، ما هو إلا كالأنعام التى لا تعقل ، إلا أن استعمال (هدى من النعم) يتطلب ثقافة فقهية حتى يعلم القارىء معناه .

ولا يخفى أن عبارة الشاعر : (ما تخشى عواقبه) تشير إلى تجسيم تلـك الآثام وبيان هولها ، ويؤكد ذلك اسم الموصول (ما) وما فيه من إيهام يوحـى بالتهويل والتفخيم ، ويبدو أن البوصيرى احتقر نفسه فأهملها وألقى عليهـا ثوب النسيان ، ولذلك أتى بالفعل مبنيا للمجهول (تخشى) ثم أسنـده إلى : (عواقبه) .

والبيت الثالث يوحى بأن الشاعر يلتمس العذر لنفسه ، على ما فعلته مـن آثام ، لأن ما فعلته كان فى زمن الصبا ، وفتوة الشباب ، والشباب جنون كمـا يقال ، ولعل مما يؤكد ذلك إضافة لفظ (غى) إلى (الصبا) إذ فى ذلـك ما يشعر بأن الغى والطيش يلازمان الشباب غالبا .

قد يرتكب الإنسان ذنبا فى غفلة من ضميره ، أو نزوة من هواه ، ولكنـه بعد أن يثوب إلى رشده ، ويستيقظ من غفلته ، يندم على ما فرط منه ، ولعل هذا ما نفهمه من قول الشاعر : (وما حصلت إلا على الآثام والندم) ، إنـه يعترف بما اقترف ، ولعل فى ذلك الاعتراف توجيها أراد الشاعر أن يقدمـه لكل من تسول له نفسه الميل إلى الفساد ، أو يدفعه طيش الشباب إلـى اللهث وراء الشهوات ، فما عاقبة ذلك إلا الندم .

ولا يخفى أن عاطفة الشاعر مشحونة بالحسرة والألم ، وألفاظه قد ناسبت فكرته ، فجاء المعنى واضحا ، تأمل تلك الألفاظ : (أستقيل ، ذنوب ، عمـر مضى ، ما تخشى عواقبه ، غى الصبا ، الآثام والندم) لتجد الشاعر قد وفـق فى عبارته التى وضحت فكرته ، وزادها وضوحا بعض المحسنات البديعية الـتى

اشتملت عليها مثل : رد المجز على الصدر فى قوله : (خدمته والخدم) وكأنه يشعر بأن الشاعر بدأ حياته بخدمة الملوك والأمراء ، وها هو ذا يختمها بمدح خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) والعبرة بالخواتيم ، والأمل فى عفو الله كبير .

ولقد أدرك الشاعر عظم تفريطه فيما ينفعه فى آخرته فقال [1] :

فياخسارة نفس فى تجارتها
لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم [2]

ومن يبع آجلا منه بعاجله
يبن له الغبن فى بيع وفى سلم [3]

نعم .. يالها من خسارة لتلك النفس التى عدلت عن الطريق المستقيم إلى الطريق المعوج ، وحدت عن أسباب النعيم الباقى إلى عرض زائل .

إن الشاعر يبكت نفسه ، ويظهر أسفه ، ولذلك أخذ يتعجب من أمر هذه الخسارة التى تلحق كل من يعرض عن طريق النجاة ، ولعل فى قوله : (ياخسارة) ما يشير إلى التهويل والتشخيص لعظم تلك الخسارة ، والشاعر هنا متأثر فى عبارته بعادة العرب الذين كانوا إذا استعظموا شيئا وتعجبوا منه نادوه .

ولا يخفى ما فى تنكير (نفس) من تحقير شأنها ، وعدم الاهتمام بأمرها ، كما فى التنكير أيضا إشارة إلى العموم ، الذى تدخل تحته كل نفس على شاكلة نفس الشاعر ، وفى ذلك إيقاظ للهمم ، وشحذ للنفوس أن ترتدع وتثوب إلى رشدها .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يقرب المعنوى ، فأتى بمثل محسوس ، قريب إلى النفوس ، فى قوله :(لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم) ولا يخفى أن فى ذلك استعارة

---

(١) ديوانه ص ١٦٩ وما بعدها .

(٢) الخسارة : ضد الربح . لم تسم : من سامه السلعة أى شرع فى شرائها منه من السوم وهو العرض للشراء والمراد هنا : لم يحاول الشراء .

(٣) الآجل : المؤخر ، والمراد به هنا ثواب الآخرة . العاجل : المقدم والمراد به هنا ما يحصل عليه الإنسان فى دنياه من متاع زائل . الغبن : النقص والمراد هنا الخداع فى البيع والشراء . السلم : (بفتح السين مشددة وفتح اللام) : بيع شىء آجل بثمن عاجل .

تصريحية تبعية فى لفظ (لم تشتر) أكدت الفكرة ووضحتها ، وزادها تأكيدا قول البوصيرى : (ومن يبع آجلا منه بعاجله) إذ فى لفظ (ومن يبع) استعارة تصريحية تبعية أيضا ، وفى كل ذلك إشارة إلى أن النفس التى لم تشتر الدين بالدنيا ولم تحاول شراءه ، تكون خسارتها عظيمة ، وعاقبتها وخيمة ، وكذلك من يبع الآجل العظيم بالعاجل الحقير يظهر غبنه، وتعظم خسارته.

ولعل فى تنكير لفظ (آجلا) إشارة إلى عظم قدره ، وكبير مقداره ، ويقوى ذلك قوله تعالى : " بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [1] ".

ولا يخفى أن البيت الثانى موضح ومؤكد للفكرة فى البيت الأول ، ويبدو أن الشاعر قد تأثر فى ذلك البيت بقوله تعالى : " فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ .. الآية [2] ". إلا أن الشاعر قد أسرف فى ذكر كثير من ألفاظ البيع والشراء وما يدور فى مجالهما مثل : (خسارة، تجارة ، لم تشتر ، ومن يبع ، آجلا ، بعاجله ، الغبن ، السلم).

ولقد ساعدت هذه الألفاظ على وجود بعض المحسنات البديعية التى ونحت فكرة الشاعر مثل : (الطباق) بين قوله : (تشترى وتبيع) وبين قوله (آجلا وعاجلا).

وإذا كان الشاعر قد عنف نفسه على ما اقترفته من ذنوب وآثام ، فإنه لم يفقد الأمل فى مغفرة الله الواسعة ، وفى شفاعة النبى (صلى الله عليه وسلم) ولذلك يقول [3] :

إن آت ذنبا فما عهدى بمنتقض   من النبى ، ولا حبلى بمنصرم [4]

---

(١) الأعلى / ١٦ ، ١٧ .
(٢) النساء : ٧٤ ومعنى (يشرون) يبيعون .
(٣) ديوانه ص ٢٠٠ .
(٤) آت : أرتكب . عهدى : ذمتى : والمراد به هنا إيمانى . منتقض : من نقض العهد إذا لم يف به . الحبل : معروف والمراد به هنا لازمه وهو الوصل . منصرم : منقطع .

فإن لى ذمة منه بتسميـتى ... محمدا ، وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن فى معادى آخذا بيدى ... فضلاً وإلاَّ فقل يا زلة القدم (١)
حاشاه أن يحرم الراجى مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم (٢)

يقول البوصيرى : إن ارتكبت ذنبا فلن أيأس من رحمة الله ، وشفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما أن إيمانى بالنبى لا يتزعزع بسبب ذنب اقترفته ، وحبى له لا ينفصم بسبب إثم عملته ، وكيف يكون ذلك ، وقد تسميت باسمه الشريف ، حبا فيه ، وطمعا فى شفاعته ، التى لولاها لعظم ندمى ، واشتد أسى ، وإننى أنزه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أن يرد طالبا ، أو يخيب متشفعا .

إن الشاعر يأمل فى نيل شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولهذا فهو لن يتعمد اقتراف الذنب ، بل إنه سيجاهد نفسه ، وإذا غلب على أمره فالأمل فى عفو الله كبير ، يدل على ذلك قوله : (إن آت ذنبا) ولعل التعبير بـ (إن) الداخلة على الفعل المضارع (آت) يؤكد ذلك ، ويزيد ذلك تأكيدا تنكير لفظ (ذنبا) ؛ كما أن إضافة لفظ (عهد) إلى (ياء المتكلم) يوحى بأمل الشاعر الكبير ورجائه العظيم فى شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكأنه أخذ على الرسول عهدا بذلك ، أضف إلى ذلك أن فى قوله :(ولا حبلى بمنصرم) استعارة تصريحية أصلية ، إذ استعار الحبل للوصل وذلك يوحى بالقوة والمتانة .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد الفكرة السابقة فأتى بأكثر من مؤكد فى البيت الثانى ، مثل (إن) وتقديم الخبر (لى) وتنكير (ذمة) موصوفة بأنها من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم مدح الرسول بأنه (أوفى الخلق بالذمم)

---

(١) معادى : المراد به يوم بعثى للحساب .
(٢) حاشاه : تنزيها له : والضمير يعود على الرسول (صلى الله عليه وسلم). يحرم : يمنع . الراجى : المراد به هنا الذى يطلب الشفاعة . مكارمه : جمع مكرمة (بفتح فسكون فضم) والمراد بها هنا الشفاعة .(أو) بمعنى (الواو) الجار : معروف والمراد به هنا المستجير . (منه) : بمعنى به .

ولا يخفى أثر التعبير بالضمير المنفصل (هو)، واختيار صيغة التفضيل (أوفى)، كما لا يخفى أثر كل ذلك فى تأكيد الفكرة ووضوحها .

ولعل فى تسمية الشاعر باسم (محمد) ما يشعر بمحبته الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن ذلك يرجع إلى من سمى الشاعر بهذا الاسم لا إلى الشاعر ، ويبدو أن فى إشارة الشاعر إلى تلك الفكرة ما يرغب الناس فى التسمية بهذا الاسم الكريم ، كما أن فى قوله : (آخذا بيدى) كناية عن النجاة ، وفى لفظ (بيدى) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، أما قوله : (يازلة القدم) فهو كناية عن الحسرة والندم .

ولقد التفت الشاعر فى البيت الرابع من التكلم إلى الغيبة فى قوله : (الراجى) — إذا كان الشاعر أراد بهذا اللفظ نفسه — ولا يخفى أثر الالتفات فى تنبيه السامع ، بالإضافة إلى ما فيه هنا من تأكيد طلب الشفاعة .

ولقد وفق الشاعر فى اختيار ألفاظ تاسبت فكرته ، إلا أن بعض الكتاب قال : إن فى قول الشاعر :

إن لم يكن فى معادى آخذا بيدى فضلا وإلا فقل يازلة القدم

خطأ أفسد المعنى : لأن (لم) للنفى و(إلا) أصلها (إن) المدغمة فى (لا) النافية ، التى نفت النفى السابق عليها بـ (لم) ونفى النفى إثبات ، فيصير المعنى (إن كان آخذا بيدى فيازلة القدم) وهذا فاسد ، وإنما يصح المعنى إذا حذفت (لم) [1]

وهذا الرأى صحيح ، إلا أننى وجدت أن لفظ (إلا) قد شكل هكذا (إِلًّا) — أى بالتنوين — فى بعض النسخ [2] ، فيكون معناه على ذلك : ذمة وعهدا ، كقوله تعالى (.. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً .. [3]) وعلى هذا فلا خطأ فى البيت لأن المعنى يكون صحيحا على هذا الضبط .

(١) الشاعر المصرى (عوف الدين البوصيرى) ص٥٥ .
(٢) عبد العزيز محمد : تشطير البردة ص٤ ٥ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .
(٣) التوبة / ١٠ .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد أمله الكبير فى شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال[1] :

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزم [2]
ولن يفوت الغنى منه يدًا تربت ... إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم [3]
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت
يدا زهير بما أثنى على هرم [4]

من يوم وقفت مدائحى على الرسول (صلى الله عليه وسلم) جاءنى الخير من كل مكان ، ولم أجد شدة إلا زالت ، أو غمة إلا كشفت ، ببركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وإذا كان هذا قد وقع فى الدنيا ، فأرجو مثله فى الآخرة ، لأننى لم أرد بمدحى شيئا من حطام الدنيا - كما يفعل الشعراء بمدحهم الملوك - فإنه عرض زائل ، ومتاع قليل .

يبين الشاعر - فى هذه الأبيات - مدى ما دخل نفسه من الاطمئنان ، وحل فى قلبه من السكينة ، بسبب مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزاده ذلك أملا فى شفاعته (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، ولعل فى قوله : (ومنذ ألزمت ...) ما يشير إلى جهاده نفسه بإبعادها عن مدح ملوك الدنيا ، وقصر مديحه على الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث يكون المدح صادقا ، لانفاقا ولا مداهنة ، ويكون الأجر عظيما ، ولقد أكد الشاعر حصول

---

(١) ديوانه ص ٢
(٢) ألزمت أفكارى : المراد جعلتها ملازمة له ، لا تنفك عنه ، الملتزم : المتكفل .
(٣) يفوت : مضارع فات إذا سبق ولم يدرك . الغنى : (بكسر الغين وفتح النون) اليسار : والمراد هنا : الشفاعة . يدا تربت : كناية عن الفقر .
الحيا : المطر . الأكم : (بفتح الهمزة والكاف) جمع (أكمة) (بفتح الكاف) : الربوة وهى الأرض المرتفعة التى لا يستقر عليها الماء . وقيل : ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد .
(٤) زهرة الدنيا : المراد بهجتها . اقتطفت : قطعت وأخذت .

الغنى لمن يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (ولن يفوت الغنى منه يدا تربت) ، فالنفى (بلن) ثم إسناد عدم الفوات إلى (الغنى) كل ذلك يشير إلى أن الغنى محقق الوقوع ، ولا يخفى أن فى قوله : (يدا تربت) كناية توحى بشدة الفقر .

ولما كان (غنى المعدم) تستبعده بعض العقول، أكد الشاعر إمكانه بقوله : (إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم) ففى هذا القول تشبيه مستقى من بيئة الشاعر ولا يخفى أثره فى بيان وتوضيح المعنوى (فى الشطر الأول) بالمحسوس (فى هذا الشطر)، فكما أن المطر إذا نزل عم الارض ، ونبتت بسببه الأزهار فى الأماكن العالية التى لا يظن إمكان حدوث ذلك فيها، لعظم ارتفاعها ، فكذلك غنى من يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ممكن مهما بلغ فقر المادح .

ويبدو أن الشاعر خشى أن يفهم من قوله : (ولن يفوت الغنى ..) أنه يعرض بطلب شىء من حطام الدنيا ، فقال دافعا ذلك الفهم : (ولم أرد زهرة الدنيا ..) ولا يخفى أن فى قوله : (زهرة الدنيا) استعارة تصريحية أصلية ، أشارت إشارة لطيفة إلى أن الدنيا بما فيها من متاع ، مثل الزهرة التى يقطفها الإنسان ، فتكون عند قطفها نضرة ، ثم لا تلبث أن يتغير شكلها ، وتذبل نضرتها ، فكذلك الدنيا لا تستقر على حال ، ودوامها من المحال ، ثم أكد الشاعر ذلك بما حصل عليه (زهير بن أبى سلمى) من (هرم ابن سنان) من عطايا كثيرة مقابل مدائحه التى مدحه بها ، حتى حلف هرم أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه .. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، فأصبح إذا رآه فى ملأ من الناس قال : (عموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت [1]) .

فالشاعر أراد بذكره (زهيرا) الإشارة إلى أنه أخذ مالا كثيرا على مدحه (هرما) ولكن أين ذلك المال الكثير ؟ لقد ذهب كما ذهب المادح والممدوح فما أقل متاع الدنيا ، وما أسرع زواله .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص٩٧ .

رجاء ودعاء :

وبعدما صرح الشاعر بأنه لم يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعرض من أعراض الدنيا الزائلة، وإنما ليحظى بالشفاعة يوم القيامة، خاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [(١)] :

يا أكرم الرسل مالى من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم [(٢)]

ولن يضيق رسول الله جاهك بى
إذا الكريم تحلى باسم منتقم [(٣)]

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم [(٤)]

فى هذه الأبيات يبين الشاعر أنه لن يجد شفيعا له يوم القيامة إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما له من مقام كبير عند ربه .

وإذا تأملت قوله : (يا أكرم الرسل ...) وجدته قد اشتمل على بعض اللطائف ، ومن ذلك : هذا النداء الموجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بلفظ (يا) ومعلوم أنه ينادى به البعيد أصلا فكأن الشاعر هنا استعمله للدلالة على بعد المكانة وعلو الشأن ، وكذلك لفظ (أكرم) الذى يدل

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠ .
(٢) فى بعض النسخ (يا أكرم الخلق) إلا أن رواية الديوان أبلغ ؛ لأن الرسول إذا كان أكرم الرسل — وهم أكرم الخلق — فهو بالطبع أكرم الخلق — انظر متن البردة طبعة الشمرلى ص ٢٤ . ألوذ به : أتحصن به والمراد : أرجو شفاعته . حلول : نزول . العمم : العام الشامل والمراد (بالحادث العمم) يوم القيامة وحلوله أى وقوع هوله الشامل جميع الخلق .
(٣) جاهك : منزلتك وقدرتك . (بى) : بمعنى (عنى) . الكريم : اسم من أسماء الله تعالى . تحلى : اتصف . المنتقم : اسم من أسمائه تعالى . وتجلى باسم منتقم : أى غضب وليس المراد حدوث الصفة ؛ لاستحالة ذلك فى حق الله تعالى .
(٤) ضرتها : عدوتها والمراد بها الآخرة : اللوح : جسم نورانى كتب فيه القلم — بإذن الله — ما كان وما يكون إلى يوم القيامة (انظر شرح البيجورى على الجوهرة جـ٢ ص ١٠٥) القلم : جسم عظيم نورانى خلقه الله وأمره بكتابة ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . المرجع السابق .

على أن البوصيرى أراد أن يصف الرسول بالكرم ، ولما كان مؤمنا ، خشى أن يتوهم أحد أن ذلك الوصف منفى عن بقية الرسل (عليهم السلام) ولذلك أتى بـ (أكرم) ليدل على أن كل الرسل مشتركون فى تلك الصفة ، ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر كرما ، بدليل قوله : (صلى الله عليه وسلم) (وأنا أكرم الأولين والآخرين ..[1]).

ولعلك تتساءل كيف يقول الشاعر : (مالى من ألوذ به سواك..)، فهل يصح أن يلوذ بغير الله ؟ .. ولكنك إذا تأملت قوله :(..عند حلول الحادث العمم) علمت أن الشاعر يلمح بهذا البيت إلى الموقف العظيم يوم القيامة ، وما فيه من أهوال تجعل الناس يذهبون إلى كل نبى كى يشفع لهم ، فيقول كل منهم نفسى نفسى ، ثم يأتون النبى محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، فيسجد تحت العرش ، فيقال له : (يامحمد ارفع رأسك، واشفع تشفع ، وسل تعطه[2])

ولقد أكد الشاعر أمله فى شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (ولن يضيق رسول الله جاهك بى) يشير إلى ذلك لفظ (لن) الذى ينفى الضيق مستقبلا ، ولا يخفى ما فى التعبير عن المضمر بالظاهر فى قوله : (رسول الله) من لذة بذكر هذا اللفظ الكريم من جهة ، وتأكيد الاعتراف بالرسالة والرسول من جهة ثانية ، فيكون ذلك سببا فى الحصول على المأمول .

ولعله يلمح بقوله : (إذا الكريم تحلى باسم منتقم) إلى قول بعض الرسل عندما يذهب الناس إليهم ليشفعوا لهم : ((إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله[3])) ، وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمجد الرب نفسه ، يوم القيامة - فيقول : " أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم[4] ، أين ملوك الأرض[5] ؟

---

(١) سنن الترمذى جـ ٤ ص ٤٣ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٦٣ ، جـ ٦ ص ١٠٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ .
(٥) صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٥٨ .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل رسول الله فقال : (فإن من جودك الدنيا وضرتها .. البيت) إلا أن عبارة هذا البيت مشوبة بالقلق والغموض وخاصة الشطر الثانى : (ومن علومك علم اللوح والقلم) إذ كيف يكون علم اللوح والقلم بعض علم رسول الله ، ألا يناقض ذلك قوله تعالى : " وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ .. الآية [1] " وقوله تعالى : " وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ .. الآية [2] " ولعل الشاعر أراد أن يقول : (إن علومك يارسول الله من جنس علوم اللوح والقلم) أى أن مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، فخانته العبارة ".

أما الشطر الأول وهو :(فإن من جودك الدنيا وضرتها ..) فقد قدر بعض الكتاب مضافا محذوفا والأصل : (فإن من جودك خيرى الدنيا والآخرة [3]) ومع ذلك أرى أن العبارة غير واضحة المراد ، ولعل الشاعر يشير بذلك إلى أولية (النور المحمدى) كما سبق [4] أو لعله تأثر فى ذلك ببعض الأحاديث التى قيل : إنها موضوعة مثل : " لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك [5] ".

ولا يخفى أن لفظ (ضرتها) غير شعرى وإن كان عربيا ، ويبدو أن الشاعر استمده من البيئة المصرية ، إذ ينتشر فى كثير من بلدانها ، ولعله عبر به للتشبيه ، فكما أن الزوجة لا تستقيم حياتها — غالبا — مع ضرتها ، كذلك الدنيا — غالبا — بالنسبة للآخرة .

ومهما يكن من شىء فإن الشاعر أراد أن يبعد اليأس من رحمة الله عن نفسه ، فنهاها عنه ، وحذرها منه ، لأن رحمة الله واسعة، وفضله كبير ، فيقول [6] :

---

(١) الأعراف / ١٨٨ .
(٢) الأنعام : ٥٩ .
(٣) حاشية الباجورى على البردة ص ٩١
(٤) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة .
(٥) محمد إسماعيل إبراهيم : الأحاديث النبوية والمحدثون ص ٥٥ . دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٧٣ .
(٦) ديوانه ص ٢٠٠

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت
إن الكبائر في الغفران كاللمم[1]
لعل رحمة ربي حين يقسمها
تأتي على حسب العصيان في القسم[2]

إن وقوع المعصية من المسلم جائز ، لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون [3] " ، ولكن اليأس من رحمة الله لا يليق به ، لقوله تعالى : " قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .. الآية [4] " ، ولذلك خفف البوصيري عن نفسه ما أصابها من هم وغم بسبب الذنوب التي اقترفها ، ويحاول أن يعطيها الأمل في سعة رحمة الله وغفرانه ، إذا تابت وأنابت .

وإذا تأملت عبارة الشاعر وجدتها تدل على أن صدره قد ضاق بسبب ما ارتكب من آثام ، ولعلك تلحظ ذلك في قوله : (يانفس) إذ حذف ياء المتكلم وكان الأصل : (يانفسي) كما أنه نادى نفسه بحرف النداء الخاص بنداء البعيد وهو (يا) ولعل ذلك لبعد نفسه عن طاعة الله ، وإما لتنزيلها منزلة البعيد زيادة في زجرها ، ويجوز أنه لم يحذف شيئا ونكر لفظ (نفس) وبناه على الضم على أنه نكرة مقصودة .

ومهما يكن من شيء ، فإن في قول الشاعر : (إن الكبائر في الغفران كاللمم) حكمة صادقة ، تنشر الأمل ، وتفسح باب الرجاء ، ويقوي ذلك تصديره بحرف التوكيد (إن) كما أن تقديم الجار والمجرور (في الغفران) يشير إلى

---

(١) لا تقنطي : لا تيأسي . زلة : الذنب صغيرا أم كبيرا ، والشاعر هنا قيده بالعظيم . الكبائر : جمع كبيرة وهي ما ورد في شأنها حد على الصحيح . الغفران : المغفرة .

(٢) القسم : (بكسر ففتح) جمع قسمة (بكسر فسكون) والمراد مايقسمه الله تعالى لخلقه .

(٣) سنن الترمذي ج ٤ ص ٧٠ .

(٤) الزمر / ٥٣ .

أهميته والعناية به ، ويجعل الإنسان لا يفتأ يرجوه ويتمناه ، ولا يخفى أثـــر التشبيه في توضيح الصورة وإبرازها ، ولعل في تلك الحكمة ما يشير إلى قوله تعالى : " الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. .. الآية[1] ".

ولقد أحسن الشاعر في قوله : (لعل رحمة ربي ..) لأن لفظ (لعـل) يدل على الرجاء الكبير ، والأمل العظيم في جانب الله سبحانه وتعالـــى ، كما أن إضافة لفظ (رحمة) إلى لفظ (ربي) تدل على أن هذه الرحمة واسعة ، لأنها تخص الله الذي ربانا ، وعطف علينا ، وأحسن إلينا .

أضف إلى ذلك أن إضافة لفظ (رب) إلى ياء المتكلم تشير إلى اعتراف الشاعر بعبوديته لله (سبحانه وتعالى) ، وفي الوقت نفسه تشير إلى مقام الربوبية العظيم ، وفي هذا تلميح إلى أن العبد من شأنه التقصير ، والرب من شأنه الغفران .

ويبدو أن الشاعر هنا قد سلك مسلك القائلين بانقسام الذنوب إلى صغائـــر وكبائر ، والله يغفرها لمن يشاء إلا الكفر . خلافا لمن زعم غير ذلك[2] .

وبعدما رغب الشاعر نفسه في التوبة ، وفتح أمامها باب الرجاء الكبير فـــي عفو الله ، تضرع إلى الله قائلا[3] :

يارب واجعل رجائي غير منعكـــس

لديك واجعل حسابي غير منخزم[4]

---

(١) النجم/٣٢ .
(٢) شرح البيجوري على الجوهرة جـ ٢ ص١٢٢ وما بعدها .
(٣) ديوانه ص٢٠٠ .
(٤) غير منعكس / غير منقلب ، والمراد / اجعل رجائي محققا مقبولا لا مردودا ، لديك : عندك . حسابي : المراد هنا : ظني من الحسبان وهـــو الظن . غير منخرم : المراد : غير منقطع .

والطف بعبدك في الدارين إن لـه
صـبرا ، متى تدعه الأهوال ينهزم[1]

يؤكد الشاعر افتقاره إلى رحمة الله وعفوه ، ولذلك تضرع إليه راجيا ألا يخيب رجاءه ، وألا يعكس ظنه ، وأن يلطف به في الدنيا والآخرة ، لأنه ضعيف لا يتحمل هول الشدائد .

وإذا تأملت قولـه : (يارب واجعل رجائي ...) وجدته قد رفـع صوته متضرعا إلى الله مستعملا حرف النداء (يا) وهو لنداء البعيد مـع أن الله تعالى قريب ، بدليل قوله جل جلاله : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّـي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... الآية [2] " فلعل الشاعر أراد الإشارة إلى عظمة الله ، وعلو شأنه ، أو لعله علم أنه بعصيانه الله قد أصبح بعيـدا عنه ، كما يفهم من الحديث القدسي " .. من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا .[3] " والمفهوم الضمني لهذا الحديث :(ومن بعد عن الله شبرا بعد عنه ذراعا) ، ولا يخفى أن في لفظ (رَبّ) ما يوحى بإظهار الخضوع والخشوع، والإقرار بالعبوديـة لله — كما سبق .

ويبدو أن الشاعر لم ينس وظيفته كمباشر[4] فلذلك آثر أن يذكر بعض مصطلحاتها مثل : (واجعل حسابي غير منخزم) .

ويؤكد الشاعر تضرعه إلى الله بقوله : (والطف بعبدك في الدارين ....)

---

(١) الطف : ارفق — الدارين : الدنيا والآخرة . الأهوال : جمع هول وهـو الأمر العظيم .
(٢) البقرة : ١٨٦ .
(٣) صحيح البخاري ج ٩ ص١٤٨ .
(٤) انظـــر ص٥٢ من هذه الرسالة .

ولا يخفى أنه قد التفت من المتكلم فى البيت السابق إلى الغيبة هنا فى قوله: (بعبدك)، ومع أن نكتة الالتفات الشائعة هى إثارة الحس، وشد الانتباه بتغيير مجرى الكلام، إلا أن هنا نكتة أخرى هى الاعتراف بالعبودية لله تصريحا بعد الاعتراف بها تلويحا، والإقرار بها عبارة، بعد الإقرار بها إشارة.

وأراد الشاعر أن يبين ضعفه، فقال: (إن له صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم) فهو لم ينف وجود الصبر عنده، بل اعترف بوجوده لديه، ولكنه صبر ضئيل، ويؤكد ضآلته تنكير لفظ (صبرا) ووصفه بالجملة الشرطية بعده، وكل هذا يبين مدى احتياجه إلى اللطف به، والعفو عنه، والإحسان إليه.

ولعله لم ينس أنه قد نظم قصيدته ــ البردة ــ فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولذلك ختمها بقوله[1]:

وائذن لسحب صلاة منك دائمة
على النبى بمنهل ومنسجم[2]

ما رنحت عذبات البان ريح صبا
وأطرب العيس حادى العيس بالنغم[3]

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠ وما بعدها.
(٢) ائذن: اسمح. السحب: (بضم فسكون) لغة فى (السحب) بضمهما: جمع سحابة أى الغمامة. صلاة الله على النبى (صلى الله عليه وسلم) معناها ثناؤه (جل جلاله) على الرسول (تفسير القرآن العظيم ج ص ٤٤٧) منهل: من أنهل المطر أى سال بشدة.
وذكر بعض الكتاب بيتا بعد هذا البيت وهو:

وآله الغر والصحب الذين علوا
أهل الصفا والوفا والجود والكرم

ولكنه لم يرد بالديوان المحقق، ولم يشر إليه إلا ذلك الكاتب فقط. انظر الحمزاوى: النفحات الشاذلية بشرح البردة البوصيرية ج ٣ ص ٢٠٧ سنة ١٢٩٧ هـ (لم يدون على الكتاب اسم المطبعة)
(٣) رنحت: أمالت. العذبات: جمع عذبة: غصن الشجرة أو طرفه. ريح الصبا: ريح شرقية، وتسمى القبول أيضا. الطرب خفة تحصل من شدة السرور تقتضى الهز والحركة. العيس (جمع الأعيس) وهى الإبل التى يخالط بياضها شقرة ــ حمرة شديدة ــ وخصها =

لقد دعا الشاعر ربه جل جلاله ـ فى ختام قصيدته ـ بأن تدوم صلاته على الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) دواما لا ينقطع على مر الليالى والأيام.

ويبدو أن الشاعر أراد أن يكون فى آخر القصيدة ما يشير إلى غرضها ـ الأصلى وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فختمها بالصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ويمكن أن يعد ذلك الختام لونا بديعيا هو: حسن الختام[1].

وإذا تأملت قوله: (وأذن لسحب صلاة ..) وجدته قد اقتصر على ذكر الصلاة فقط، مع أن بعض الكتاب يقول: " إذا صلى على النبى (صلى الله عليه وسلم) فليجمع الصلاة والتسليم مراعاة للآية الكريمة: " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [2] " ولا يقتصر على أحدهما[3]" ولعل الوزن الشعرى لم يمكن الشاعر من ذكر السلام مع الصلاة.

ومهما يكن من شىء، فإن الشاعر قد طلب صلاة عظيمة، يدل على ذلك إضافة المشبه به (السحب) إلى المشبه وهو (صلاة) والأصل (صلاة كالسحب) ولا يخفى أن فى ذلك التشبيه دلالة على كثرتها، أضف إلى ذلك تنكير لفظ (صلاة) ووصفها بأنها من الله تعالى، وأنها (دائمة .. بمنهل ومنسجم).

= بذلك لأنهن كرائم الإبل. حاديها: الذى يسوقها، النغم: الصوت الحسن. النغمة: مدة فى الصوت يقصد بها الإطراب، وللإبل خاصية عظيمة فى حصول الطرب لها عند سماع صوت الحادى، فكلما كان صوته حسنا كان طربها أكثر فيحصل لها نشاط، فتقطع المسافة الطويلة فى زمن قليل.

(1) هو: أن يشير المتكلم فى كلامه إلى ما يشعر بانتهاء الغرض المقصود. الحملاوى: زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع ص ٢٧٢ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٩٧١.

(2) الأحزاب/٥٦.

(3) تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٤٦٩.

ولو تأملت قول الشاعر : (ما رنحت ... البيت) لوجدته قد أتى بتشبيهين منتزعين من البيئة البدوية ، ليؤكد بهما دوام هذه الصلاة .

أول هذين التشبيهين :

(ما رنحت عذبات البان ريح صبا) أى ما أمالت هذه الريح الطيبة أغصان تلك الأشجار ذات الرائحة الزكية، وأرى أن لفظ (رنحت) غير مناسب للمقام لأنه يستعمل كثيرا فى الخمر ومجالسها .

ثانيهمـــــــــــــا :

(وما أطرب العيس حادى العيس بالنغم) أى ما غنى للإبل الجيـــــدة سائقها ، ولعل الشاعر وضع الظاهر موضع المضمر ، فكرر لفظ (العيس) لحسن جرسه من ناحية، وللوزن الشعرى من ناحية ثانية ، كما أن لفـــظ (بالنغم) يعد حشوا ؛ لأن إطراب الإبل مفهوم بم يكون ، ولعل الشاعر أتى به للتأكيد على حسن الصوت .

ويبدو أن بعض الشعراء لم يعجبه أن يختم البوصيرى بردته بالصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غير أن يشير إلى الخلفـــاء الراشدين ، ولذلك زاد على البردة تلك الأبيات[1] :

ثم الرضا عن أبى بكر وعن عمر[2]   وعن على وعن عثمان[3] ذى الكرم

والآل والصحب ثم التابعين فهم   أهل التقى والنقا والحلم والكرم

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنـــا   واغفر لنا ما مضى ياواسع الكـرم

---

(١) متن البردة ص٣٦ طبعة الشولى ..

(٢) عمر : هو عمر بن الخطاب بن نفيل ، يلتقى مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الجد السابع ، تولى الخلافة بعد أبى بكر ، ومناقبه كثيرة ، طعن فى آخر سنة ٢٣ هجرية وتوفى فى المحرم سنة ٢٤ هـ على الصحيح (أسد الغابة جـ ٤ ص١٤٠) .

(٣) عثمان : هو عثمان بن عفان بن أبى العاص ـ تولى الخلافة بعد عمر بن الخطـاب (رضى الله عنهما) ومناقبه لا تحصى ، قتل سنة ٣٥ هـ (انظر المرجع السابق جـ ٣ ص : ٥٨٤) .

واغفر إلهى لكل المسلمين بما
يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم

بجاه من بيته فى طيبة حرم
واسمه قسم من أعظم القسم

وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله فى بدء وفى ختم

أبياتها قد أتت ستين مع مائة
فرّج بها كربنا ياواسع الكرم

ولا يخفى أن هذه الأبيات ليست من نظم البوصيرى بدليل أنها ليست فى الديوان المحقق [1] ، كما خلت منها كثير من الشروح [2] ، بل نبه على زيادتها بعضها [3] ، أضف إلى ذلك ضعف نظمها ، ويكفى دليلا على ذلك تكرار القافية أربع مرات بلفظ واحد هو (الكرم) وأخيرا ذكر عدد أبياتها . وهذا لم يكن مألوفا فى عصر البوصيرى .

إن أثر البردة الكبير ، وشهرتها الواسعة ، هى التى دفعت أحد الشعراء لنظم تلك الأبيات من غير أن يذكر اسمه ، لتكون تلك الزيادة تقربا إلى الله ، ولم يقف أمرها عند ذلك الحد ، بل لقد عظم أثرها ، وامتد إلى كثير من النواحى ، التى سوف أتحدث عنها فى الفصل الآتى إن شاء الله .

---

(١) انظر ديوانه ص ٢٠١ .
(٢) يوسف النبهانى : المجموعة النبهانية ج ٤ ص ١٥ المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣٢٠ هـ .
(٣) حاشية الباجورى على البردة ص ٩٥ .

الفصل الثالث

أثر البردة

بعدما وقفت مع بردة البوصيري وقفة طويلة ، وتناولتها بالدراسة والتحليل ، يمكنني - الآن - أن أقول : إن هذه القصيدة تعد من أفضل قصائد المدائح النبوية ، ويؤكد ذلك قول بعض الكتاب: " إن هناك شبه إجماع على أن بردة البوصيري أفضل المدائح النبوية بعد قصيدة كعب (بانت سعاد) (١) ".

ولعلي لا أكون جانبت الصواب إذا قلت : إن البردة قد فاقت (بانت سعاد) في كثير من النواحي بصرف النظر عن ناظمي القصيدتين ، فيكفي أن تعلم أن البردة قد اشتملت على أفكار وأغراض خلت منها (بانت سعاد) ، كما أن البردة زادت عليها في عدد أبياتها ، إذ بلغت مائة وستين بيتا ، أما (بانت سعاد) فهي ستون بيتا تقريباً (٢) ، أضف إلى ذلك أنها لم تشر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا في ستة أبيات تقريبا ، أما البردة فيمكنك أن تعيد قراءتها في الفصل السابق لتعلم في كم بيت تحدث البوصيري عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ومهما يكن من شيء ، فلست - الآن - في مقام الموازنة بين قصيدة كعب وقصيدة البردة بل المقام مقام بيان أثر بردة البوصيري التي قيل عنها : " إنها من أجود الشعر (٣) " وهذا حق ، لأنها قصيدة قد طال نفسها ، ومع ذلك رقصت

---

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه - ص ٣١١ ، الشاعر سليل المحمدين ص ٨٨ .

(٢) ديوان كعب ص ٦ وما بعدها . قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام جـ ٢ ص ١٧٩ وما بعدها .

(٣) الأدب العربي من عهد الفاطميين إلى اليوم ص ١٠٥ .

عبارتها ، وسهلت ألفاظها ، وأحكم نسجها ، واشتملت على كثير من الحكم الصادقة والتجارب الصحيحة التى تصدقها الأيام مثل : " إن الهوى ما تولى يصم أو يصم " و " إن الطعام يقوى شهوة النهم " (والنفس كالطفل ... البيت)

و " إن الكبائر فى الغفران كاللمم " أضف إلى ذلك ما حوته من أبواب السيرة النبوية نظما يؤثر فى النفس ، ويأسر الحس بموسيقاه الخلابة.

ولا شك فى أن كل هذا قد ساعد على ذيوع تلك القصيدة وشيوعها ، ويدل على ذلك أنك لا تجد كاتبا يتحدث عن المدائح النبوية ، أو باحثا يغوص فى غمارها ، أو مؤلفا يحاول الوقوف معها ، والإحاطة بها إلا تحدث كل هؤلاء - من قريب أو بعيد - عن البردة ، سواء فى مصر أم فى غيرها من البلاد العربية والإسلامية ، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه القصيدة أصبحت مصدر إلهام ، ومنبع إيحاء لكثير من الشعراء الذين يحاولون مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) من عصر البوصيرى إلى الآن ،

ويمكننى أن أقول إن أثر تلك القصيدة ، متعدد الجوانب ، مختلف النواحى ويظهر ذلك فيما يأتى :

١ - أثر البردة فى الجماهير الشعبية :

لقد أثرت البردة فى الجماهير الشعبية تأثيرا كبيرا ويشهد لذلك ما قاله الدكتور زكى مبارك : " نستطيع الجزم بأن الجماهير - فى مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة ، كما حفظت البردة ، فقد كانت ولا تزال من الأوراد ، تقرأ فى الصباح وتقرأ فى المساء ، وكنت أرى لها مجلسا يعقد فى ضريح الإمام الحسين - رضى الله عنه - بالقاهرة ، بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة ، وكان لذلك المجلس رهبة تأخذ بمجامع القلوب ، والذى يزور ساحة المولد النبوى بالقاهرة يرى المئات ينشدونها فى هيبة وخشوع ، وكثير من الناس كانوا يجمعون الأطفال لقراءتها فى الجنازات[1] ...

(١) المدائح النبوية ص ١٩٦ ، ولا يخفى أن فى هذه الرواية ما يدل على بعد الناس عن تعاليم الدين الحنيف ، وهدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى صمته وخشوعه عند تشييع الموتى (انظر الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٢١٥ طبعة دار الشروق بمصر سنة ١٩٧٤ م والشيخ سيد سابق : فقه السنة ج ٤ ص ١١٧ المطبعة النموذجية بمصر (غير مؤرخ) .

وإذا كان هذا الكاتب قد ذكر ما شاهده فى القاهرة ، فهذا كاتب آخر يذكر ما شاهده فى الإسكندرية ، إذ يقول : " ... ولعل من أهم ما يلفت النظر .. هو هذه المواكب المتوالية التى تصحب الموتى إلى قبورها .. وكان يتقدم هذه المواكب — فى العادة — طائفة من المنشدين الذين يرددون فى نغم رتيب ... مقطوعات من البردة للبوصيرى " ولم يقف شغف أهل الإسكندرية بالبردة عند ذلك الحد ، بل لقد شغفوا بها أيضا .. " فى المساجد .. وخاصة فى يوم الجمعة .. إذ ما تكاد تنقضى شعائر صلاة الجمعة حتى يبادر فريق من المصلين للانتظام جلوسا فى صفين متقابلين ، ثم تفرق عليهم .. نسخ من البردة .. مطبوعة بخط نسخ ، ومشكولة بشكل واضح ، ثم يأخذ الجميع فى تلاوتها بصوت يبدأ خفيضا ، لا يلبث أن يعلو رويدا رويدا ، حتى يتجلى عن طريقة نغمية سهلة تملك علىّ مسامعى .. " .

وأؤكد — الباحث — مثل هذه المجالس فى مدينة طنطا ، وخاصة فى المولد النبوى ، والمولد الأحمدى (٢) بالإضافة إلى شهر رمضان الذى شاهدت فيه بعض الصوفية المنتسبين إلى السادة الشاذلية ، وهم ينشدونها بعد صلاة العشاء ويتخذونها وردا لهم مدة هذا الشهر المبارك بعد القرآن الكريم ، ومما هو جدير بالذكر أن إذاعة جمهورية مصر العربية قد أتحفتنا فى شهر رمضان من العام السابق ، بإنشاد هذه القصيدة على مدى الشهر المعظم ، وياليتها تتجه — دائما — إلى مثل هذا الأدب الدينى الطيب ، ونبذ الأغانى الخليعة التى تعلم الشباب كل شر وتبعده عن كل خير .

---

(١) البوصيرى حياته وشعره ص٤ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ بتصرف .

(٢) نسبة إلى صاحبه العارف بالله السيد / أحمد البدوى الذى يوجد ضريحه بمدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية . ويقام ذلك المولد فى شهر أكتوبر من كل عام .

ولم يقتصر الاحتفاء بالبردة على المدن فحسب، بل تعداه إلى كثير من القرى أيضا [١]، إلا أن بعض محبي البوصيري أرادوا أن يرفعوا قدر البردة أكثر، ويحتفوا بها أشد، فنسبوا إليها أشياء، وقالوا فيما نسبوه إلى البوصيري من كرامات في البردة .. [٢] كما وجدت طائفة من المغاربة تكسبوا بالبردة، بل بالغوا في التكسب بها مبالغة غير كريمة، إذ أنشدوها على الأبواب، يتخذونها وسيلة للشحاذة وبلوغ الأرب، كما احتكر فريق منهم نسخها وتأجيرها [٣].

ولقد غلا بعض الناس في الحفاوة بالبردة أكثر مما سبق، فوضعوا لأبياتها خصائص ومنافع، وجعلوا منها تمائم وأحجبة، وادعوا أن هذا البيت يشفي من الصدع، وذاك ينفع في حفظ المزارع والمنازل من التلف والحريق، وذلك يفيد في الجمع بين النافرين من الأحباب [٤] ويؤكد ذلك ما ذكره بعض الشراح من أن فائدة الأبيات الخمسة التي أولها (فما لعينيك) .

"..أن الرجل إذا اتهم زوجته أو ابنته ... كتب هذه الأبيات في ورقة من ورق الأترج ووضعها على يد المتهم اليسرى وهو نائم، ويجعل أذنه على فمه فإنه ينطق بجميع ما فعله في غيبته خيرا أو شرا، وكذلك إذا سرق له شيء واتهم أحدا أو شك في أحد، فليكتب هذه الأبيات في جلد ضفدع مدبوغ ويأخذ لسان الضفدع ويضمه في الجلد المذكور، ويعلق ذلك الجلد في عنق المتهم فإنه يقر في ساعته لدهشته [٥] ".

ولا شك في أن كل ذلك زعم باطل، دعا بعض المنصفين إلى رفع صوته قائلا: " إنهم كدروا بذلك صفاءها، وصيروها ضربا من ضروب التمائم والطلاسم، وهذه .. فرية ليس فيها مرية [٦] ".

---

(١) طراز البردة جـ ١ ص ٥١
(٢) الإمام البوصيري ص ٢٠
(٣) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٤) المدائح النبوية ص ١٩٦ .
(٥) حاشية الباجوري على البردة ص ١٠
(٦) طراز البردة جـ ١ ص ٥١ .

٢ـ أثر البردة فى الدرس :

ويظهر أثر البردة فى الدرس ممثلا فى تلك العناية التى كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس فى يومى الخميس والجمعة لدراسة " حاشية الباجورى على البردة " وهى دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب وإنما كانوا يختارون يومى الخميس والجمعة ، لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات ، فكانوا يختارون له أوقات الفراغ.

ولنتذكر أنه مضت سنون لم يكن يعرف فيها الأزهر كيف تكون دروس التاريخ الإسلامى ، فكانت البردة وشروحها مما يسد النقص الفاحش فى معهد دينى يجهل أهله غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم)[1]

هذا ما ذكره بعض الكتاب ، وإن صح ، فإنه يدل على الأثر الكبير الذى قامت به البردة فى مجال دراسة السيرة النبوية.

٣ـ أثر البردة فى التأليف :

وأما أثر البردة فى التأليف فيتجلى ـ بوضوح ـ فى تلك الشروح التى قيل : إنها بلغت أكثر من تسعين شرحا ، باللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات فزادت البردة بذلك شهرة وذيوعا لم تبلغه قصيدة عربية أخرى[2].

ولعل من أهم هذه الشروح : شرح ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ هـ وشرح ابن العماد المتوفى سنة : ٨٠٨ هـ ، وشرح ابن مرزوق التلمسانى المتوفى سنة ٨٤٢ هـ ، وشرح جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ، وشرح الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ هـ ، وشرح الشيخ زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وشرح الشيخ عبد الرحمن المقدسى المعروف بأبى شامة المتوفى سنة ٩٦٥ هـ ، والجدير بالذكر

---

(١) المدائح النبوية ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٠ .

أنه قد ذكرت بعض المصادر أنه توجد مخطوطات من هذا الشرح محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٩٢٠ ، وميونخ تحت رقم ٥٤٧[1].

ولعل من أحدث الشروح شرح الشيخ الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ ، وشرح الشيخ حسن العدوى الحمزاوى المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ ، وغير ذلك من الشروح التي منها ما هو مطبوع ، ومنها ما هو مخطوط ، ويوجد بعضها في دار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر ، ومكتبة محافظة الإسكندرية[2] ، كما أن بعض هذه الشروح لم يعرف أصحابها ، ويبدو أنهم لم يذكروا أسماءهم تواضعا منهم أو سترا لما قاموا به من عمل يحتسبون أجره عند الله.

ولا شك في أنك إذا نظرت في تلك الشروح وجدتها قد زخرت بالألفاظ اللغوية ، والعبارات الأدبية أو الحوادث التاريخية ، وكان مرد ذلك شغل هؤلاء الشراح بالأدب واللغة والتاريخ إلى قصيدة البردة ، وتصوف ناظمها الإمام البوصيري[3].

والجدير بالذكر أن شراح البردة لم يكونوا كلهم من العرب ، بل كان بعضهم تركيا وشرحها بالتركية[4] ، كما كان بعضهم فارسيا وشرحها بالفارسية[5] ، وهذا يدلنا على مدى ما وصلت إليه تلك القصيدة من عناية عند العرب وغير العرب ، بل لقد نشرها كثير من المستشرقين ، وخاصة المستشرق دى ساسى[6] الذي ترجمها إلى الفرنسية ، كما ترجمت إلى الإنجليزية والإيطالية ، وغيرها من اللغات[7] ، وهكذا تعددت طبعاتها ، وكثرت ترجماتها ، وتفنن الخطاطون في كتابتها[8].

---

(١) المرجع السابق - المدائح النبوية ص١٩٨.
(٢) البوصيرى : حياته وشعره ص١٢٤ ومابعدها .
(٣) المدائح النبوية ص١٩٩.
(٤) القاموس الإسلامي ص٢٩٨.
(٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٦) دى ساسى مستشرق فرنسى توفى سنة ١٨٢٨ - انظر نجيب العقيقى : المستشرقون ص٣٧ وما بعدها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧.
(٧) انظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص٣٠ ومابعدها .
(٨) القاموس الإسلامي ص٢٩٨ . والمدائح النبوية ص١٩٦ ومابعدها ، البوصيرى حياته وشعره ص١٠٥.

ولعل مما يلحق بأثر البردة في التأليف: الرد على تلك المزاعم التي أثيرت حولها ، وأهمها ، ما ذهب إليه بعض الكتاب من أنه " لا أثر للصوفية في البردة "[1].

ويبدو أن الذي دفع بعض الكتاب إلى هذا القول هو ما شاع عن الشعر الصوفي من أنه يدور في فلك الحب الإلهي ، ويتسم بالرمز والإلغاز ، أضف إلى ذلك وصف الخمر والوقوف معها ، وبيان أثرها ، والنشوة بها ، وهذا واضح عند سلطان العاشقين : ابن الفارض[2] ، الذي يقول[3] :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكَرْم

لها البدر كأس وهي شمس يديرها ... هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

ولكن الحقيقة توضح أن الشعر الصوفي مجاله أرحب من ذلك، وميدانه أوسع ؛ وأغراضه متعددة ، وأفكاره متنوعة ، إلا أن أساسه حبان : حب إلهي ، وحب نبوي ، وهذا ما يؤكده بعض الكتاب بقوله : " حبان تمكنا من نفوس أصحاب النفوس الزكية ، وتقسما قلوب أرباب القلوب النقية ، وأنطقا ألسنة أهل الأذواق الزكية من الصوفية ، بروائع من النظم ، وبدائع من النثر ، وأحد هذين الحبين هو : الحب الإلهي .. الذي يتخذ فيه المحب موضوع حبه من الذات الإلهية ، أو الحقيقة العلية ، ويتحدث فيها عن الحب المتبادل بين الله والإنسان ، أو بين الخالق والمخلوق على حد تعبير الصوفية أنفسهم .

وثانيهما : هو الحب النبوي .. الذي يتخذ فيه المحب موضوع حبه من النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . أو من النور المحمدي ، أو الحقيقة المحمدية ، التي هي عند الصوفية أسبق في الوجود على كل موجود بصفة عامة ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣ .
(٢) سبق التعريف به في هامش ص ٤١ من هذه الرسالة .
(٣) ديوانه ص ٤٢ مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥٣ .

وعلى وجود محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة ، ومن الصوفية من جمع بين هذين الحبين فى نظمه ونثره .. ومنهم من تخصص نظمه ونثره بأحد هذين الحبين دون الآخر (١) ".

أما عن طريقة التعبير عن هذين الحبين فيشير إليها هذا الكاتب أيضا بقوله : والصوفية الذين ملك عليهم قلوبهم الحب الإلهى أو الحب النبوى ، أو كلا الحبين ... قد اصطنعوا - فيما صدر عنهم من آثار ، لا سيما ماكان من هذه الآثار نظما - أسلوبين مختلفين فى التعبير عما يجدونه فى أنفسهم من فعل الحب ، ووصف ما يختلف على قلوبهم ، من انفعالات وعواطف ، وما ينكشف لسرائرهم من لطائف ومعارف ..

فهم يصطنعون تارة أسلوب العبارة والتصريح الذى يرسلونه إرسالا مطلقا من كل قيد من قيود الرمز والإلغاز ، بحيث يتهيأ للقارئ أو السامع أن يتبين فى سهولة ويسر أن الحب ها هنا : إنما هو حب إلهى ، وأن المحبوب الذى يتغنون بحبه ، ويفتنون فى وصف جماله ، وكماله ، وجلاله ، إنما هو الذات الإلهية ، والحقيقة العلية ، أو يتبين لهذا السامع وذلك القارئ أن الحب ها هنا : إنما هو حب نبوى ، وأن المحبوب الذى يرتلون أناشيد حبه ، ويمدون أوصاف ذاته ، ويفيضون فى ذكر مناقبه ومآثره إنما هو النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أو هو النور المحمدى ، أو الحقيقة المحمدية.

وهم يصطنعون تارة أخرى أسلوب الإشارة والتلويح الذى يعمدون فيه إلى الإغراب والغموض ، ويعولون فيه على المجازات والاستعارات والكنايات ، وما إلى هذا كله من ألوان الرمز الملغز الذى من شأنه أن يزيد الأمر خفاء ، فلا يكاد القارئ أو السامع يدرى ماذا وراء هذه الألفاظ التى صيغت على هذا الوجه من أوجه الصياغة ، فى هذا الضرب من الأسلوب.

وهل يعنى الناظم أو الناثر أن يقدم إلينا وصفا لحاله فى طريق المحبة

---

(١) الدكتور : محمد مصطفى حلمى : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ص ٥ ومابعدها بتصرف ، دار القلم بمصر سنة ١٩٦٠ .

الإلهية ، وعرضا لمذهبه فى هذه المحبة الإلهية ، وما يتفرع عليها من مسائل لها خطرها من النواحى النفسية والخلقية ، أو هو يرمز إلى مدح الحضرة النبوية والذات المحمدية على وجه يظهرنا - من خلاله - على منزلة محمد (صلى الله عليه وسلم) بين الرسل والأنبياء ، وعلى القيمة الروحية لحقيقته الوجودية بين حقائق الموجودات ، وعلى غير هذه وتلك من المسائل التصوفية ، أو الفلسفية التى تتصل - من قريب أو من بعيد - بحقيقة محمد ونبوته (عليه الصلاة والسلام[1]) .

أهم أغراض الأدب الصوفى وسماته :

ولعل مما يشير إلى سعة مجال الأدب الصوفى ، وتعدد أغراضه ، قول بعض الكتاب: (٢) " إنى نظرت فى شعر الصوفية .. فوجدته بعد الاستقراء ينحصر فى :

الزهد والحكمة ،أو الوعظ والإرشاد ، ومديح الرسول (عليه الصلاة والسلام) وذكر الأحبة من الصحابة والتابعين وصالح المؤمنين ، والحنين إلى أرض نجد والحجاز بعامة ، والأماكن المقدسة بوجه خاص .." بالإضافة إلى " شعر الغزل الإلهى ، وشعر الحقيقة المحمدية أو تنقل النور المحمدى (٣) .. "

ولقائل أن يقول : إن كثيرا من هذه الأغراض قد وجد قبل وجود الشعر الصوفى ، وهذا حق ، إلا أن الملاحظ على هذه الأغراض أنها لم تكتمل صورتها ، ولم تحتو معانيها ، ولم تتم خصائصها الفنية إلا على أيدى الصوفية وخاصة فى القرن السابع الهجرى . (٤) :

(١) المرجع السابق بتصرف .
(٢) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٢١ باختصار .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٤) المرجع السابق وعبد الحكيم حسان التصوف فى الشعر الإسلامى ص ٦ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٤ .

ولعل مما يوضح ذلك ، مدائح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى هذا العصر - السابع الهجرى - إذ انقسمت فيه إلى قسمين من حيث المعنى والغرض :

الأول : تناول فيه الشعراء صفات النبى (صلى الله عليه وسلم) وأخلاقه ، وما تحلى به من كرم الطبع ، ولطف الشمائل ، كما تحدثوا عن مهابط الوحى ومنازل القرآن .

الثانى : تحدث فيه الشعراء عن حسب النبى ونسبه ، ورووا طرفا من أخباره وسيرته ، وقد غلب على القسمين توسلهم به (عليه الصلاة والسلام)[1] .

ولا شك فى أن هذا كله يدل على أن المدائح النبوية لون من ألوان الشعر الصوفى ، وغرض من أغراضه ، ولعل مما يؤكد ذلك قول بعض الباحثين - وهو يتكلم عن المدائح النبوية - : " .. إنها باب كبير من أبواب الشعر الصوفى ، وقد قال فيه الشعراء على مختلف العصور الكثيرة ، وأجادوا إجادة بارعة وإمامهم فى ذلك هو البوصيرى صاحب البردة والهمزية .. "[2] ولم يكتف هذا الباحث بتلك الإشارة ، بل قسم الشعر الصوفى ومراحله الزمنية إلى خمس مراحل ، وذكر أهم شعراء كل مرحلة ، كما ذكر أن المرحلة الرابعة تشمل القرن السابع الهجرى ، وفى ذلك القرن بلغ الشعر الصوفى قمة نهضته ، وظهر من أعلامه ابن الفارض ... ، والبوصيرى ... "[3] .

وبعد أن رأينا أهم أفكار الشعر الصوفى وأغراضه وسماته ، أحاول الوقوف على مدى وجود هذه الأفكار وتلك السمات فى بردة البوصيرى .

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٢١٧ .

(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ وما بعدها باختصار .

١ـ رأينا أن المديح النبوى لون من ألوان الشعر الصوفى ، ولا خلاف فى أن البردة قد اشتملت على كثير من هذا المديح ، وخاصة تلك الأبيات التى أشارت إلى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) سيد المخلوقات وأفضلها ، وأنه أبر من وفى ، وأصدق من قال ، وهو الحبيب الذى فاق النبيين فى الخَلْق والخُلُق ، والعلم والكرم ، وفى كثير من الصفات التى لم يشاركه فيها أحد ، ويختمها البوصيرى بقوله[1] :

أكرم بخَلْق نبى زانه خُلُق ❊ بالحسن مشتمل بالبشر متسم

٢ـ ورأينا أيضا أن الزهد غرض من أغراض الشعر الصوفى ، وقد أشارت البردة إلى هذا الغرض عندما ذكر البوصيرى قصة الجبال التى عرضت على النبى (صلى الله عليه وسلم) أن تكون له ذهبا فأبى ، وفضل أن يجوع يوما فيصبر على قضاء الله ، ويشبع يوما فيشكر نعمة الله ، بدلا من أن يعيش عيشة المترفين ، أليس فى تلك الإشارة دعوة إلى الزهد وخاصة إذا كان هذا الموقف موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى هو قدوتنا وأسوتنا ، بصريح القرآن الكريم : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ .. الآية[2] " . وها هو ذا قول البوصيرى[3] :

وشد من سغب أحشاءه وطوى ❊ تحت الحجارة كشحا مترف الأدم

وراودته الجبال الشم من ذهب ❊ عن نفسه فأراها أيما شمم

وإذا كان هذا شأن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) فأولى بمن آمنوا به واتبعوه أن ينهجوا نهجه ، ويسلكوا طريقه ، فيزهدوا كما زهد ، ويصبروا كما صبر .

٣ـ ولقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن المناجاة من الأغراض التى كاد الصوفية يكونون فرسان حلبتها ، وآباء عذرتها ، وأبناء بجدتها ، لأنها

(١) انظر ص ١٣٢ من هذه الرسالة .
(٢) الأحزاب / ٢١ .
(٣) انظر ص ١١٤ من هذه الرسالة .

تعبير عن إحساساتهم الرقيقة ومشاعرهم السامية ، وعواطفهم الراقية ، وأرواحهم الصافية ، وقلوبهم المتصلة بنور الله [١] وإذا صح هذا القول فقد أضاف دليلا قويا على أن البردة من الشعر الصوفى ، إذ وردت فيها المناجاة عندما قال البوصيرى : [٢]

يارب واجعل رجائى غير منعكس ∴ لديك ، واجعل حسابى غير منخرم

والطف بعبدك فى الدارين إن له ∴ صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم

٤- ومن سمات الأدب الصوفى - كما ذكر بعض الكتاب - أنه يؤدى وظيفة حيوية فى الحياة حيث يقوم بعملية مصالحة بين الناس وبين ما يلقاهم فى حياتهم من مآسى وفواجع ، وما يهجم عليهم من تصورات مهولة مفزعة لهذا المصير المجهول الذى سيصيرون إليه [٣] .. فهو لذلك من الأدب المتفائل [٤] ... الذى يبعد اليأس والقنوط - من رحمة الله - عن الإنسان مهما أذنب ، وليس معنى ذلك أنه يدعو إلى الإكثار من الذنوب ، بل إنه يؤكد أن باب التوبة مفتوح لمن عصى ، وأسرف على نفسه، ثم تاب وأناب، وهذه دعوة من الله قبل أن تكون من الصوفية ، يقول الله تعالى : " قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٥] " ولكن ألا ترى صدى تلك الدعوة فى قول البوصيرى [٦] :

يانفس لا تقنطى من زلة عظمت

إن الكبائر فى الغفران كاللمم

لعل رحمة ربى حين يقسمها

تأتى على حسب العصيان فى القسم

---

(١) مجلة الأزهر السنة ٣٦ (١٣٨٤ هـ) الجزء الثالث ص ٢٣٦ .
(٢) انظر ص ٢١٦ وما بعدها من هذه الرسالة
(٣) عبد الكريم الخطيب: الجانب الإنسانى فى الأدب الصوفى ص ١٥ طبعة دار الثقافة العربية بمصر سنة ١٩٦٦ .
(٤) مجلة الرسالة السنة ١١ (١٩٦٤) العدد ١٠٥٠ ص ١٤ .
(٥) الزمر / ٥٣ .
(٦) انظر ص ٢١١ من هذه الرسالة .

وإذا كان الشاعر قد بين سعة رحمة الله ، وكبير عفوه ، فإنه لم ينس أن يحذر من التمادى فى المعصية ، أو الركون إلى الخطيئة ، فقال [1] :

فياخسارة نفس فى تجارتها لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع آجلا منه بعاجلـه يبين له الغبن فى بيع وفى سلم

٥ — ولا يخفى " أن الأدب الصوفى قد عنى عناية كبيرة بالنفس والحديث عنها ، ولجأ إلى أسلوب التحليل النفسى الدقيق ، من حيث كان أعلام الأدب العربى يلجأون إلى أسلوب الشرح العقلى وحده " [2] — غالبا — ويكفى فى إثبات ذلك كثرة الصوفية الذين تحدثوا كثيرا عن النفس وطباعها ، وأقسامها ، بل إن منهم من ألف الكتب الخاصة بها ومنهم الإمام الغزالى [3] ، الذى لم يكتف بالحديث عنها فى بعض كتبه [4] فألف كتابه : " معارج القدس فى مدارج معرفة النفس " [5] وكله يدور حول تعريف النفس وأنواعها ، وبيان مسلكها ودروبها ، وكان لا يفتأ يتحدث عنها ، واصفا دواءها ، ومن ذلك قوله [6] : " ثم عليك ياطالب العبادات — عصمك الله وإيانا — بالحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء ، فإنها أضر الأعداء ، وبلاؤها أصعب البلاء ، وعلاجها أعسر الأشياء ، وداؤها أعضل الداء ... فإن قلت : فما الحيلة .. فى هذا العدو ، وما التدبير فى أمره ... ؟ فاعلم .. أن عليك أن تلجمها بلجام التقوى والورع .. فإن قلت : إن هذه دابة جموح ، وبهيمة صعبة شكسة ، لا تنقاد للجام .. فاعلم أنك فيها صادق ، والحيلة تذليلها حتى تنقاد للجام ، قال علماؤنا — رضى الله عنهم — إنما يذلل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢
(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى جـ ٢ ص ١٣٩ بتصرف .
(٣) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
(٤) انظر كتابه : إحياء علوم الدين جـ ١٢ ص ٢١٣٩ إلى ص ٢١٤٣ طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٨ .
(٥) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب فى هامش ص ٩٦ من هذه الرسالة .
(٦) كتابه : منهاج العابدين ص ١٨ وما بعدها باختصار مطبعة عطايا بمصر سنة سنة ١٩٥٤ .

أحدها : منع الشهوات ـ يقصد التقليل من الغذاء ـ فإن الدابة الحرون تلين إذا نقص من علفها ،

ثانيها : جعل أثقال العبادات عليها ؛ فإن الحمار إذا زيد فى حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد .

ثالثها : الاستعانة بالله عز وجل ، والتضرع إليه بأن يعينك وإلا فلا مخلص ، أما تسمع قول يوسف (عليه السلام) : " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي .. الآية[1] " فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح بإذن الله (عز وجل) ، فحينئذ تبادر إلى أن تملكها وتلجمها وتأمن شرها .. " .

ويبدو أن البوصيرى قد نظر إلى نصائح الإمام الغزالى عن النفس وبخاصة إلى قوله عنها " اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت و شردت .. [2] " .

ألا ترى صدى هذه النصائح فى قول البوصيرى [3] :

من لى برد جماح من غوايتها .. كما يرد جماح الخيل باللجم

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها .. إن الطعام يقوى شهوة النهم

والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ولا يخفى ما فى النظم من نسق جميل ، وتعبير رائع ، بالإضافة إلى حكمته الصادقة فى قوله :

فاصرف هواها وحاذ أن توليه .. إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهى فى الأعمال سائمة .. وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

---

(١) يوسف / ٥٣ .

(٢) إحياء علوم الدين : جـ ١٥ ص ٢٧٧٩

(٣) انظر ص ١٠٠ وما بعدها من هذه الرسالة .

ولقد تحدث البوصيرى عن النفس، وأشار إلى بعض غرائزها، وكان رائعا فى تلك الإشارة، ويؤكد ذلك قول بعض الكتاب عنه: " إنه تناول الحديث عن النفس فى عدة أبيات تصلح للدراسات النفسية، يتناول فيها الدارس مسألة الغرائز وتربيتها، والعادات وتكوينها، بما لا يقل فى جملته عن الدراسات النفسية الحديثة .. [1] ".

٤ - وإذا كانت سمات الأدب الصوفى السابقة تدور حول أغراضه وأفكاره، فإنه يمتاز - أيضا - بوقدة مشبوبة فى ألفاظه وعباراته، إذ تحتشد فيه كلمات الحب والهيام، والهوى ولوعاته، والجحود والنكران .. [2] "، ولا شك فى أن البردة قد اشتملت على طرف من ذلك، ويكفى دليلا على ذلك قول البوصيرى [3]:

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل

ولا أرقت لذكر البان والعلم

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت

به عليك عدول الدمع والسقم

وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى

مثل البهار على خديك والعنم

وبعد .. فلم يكن من المستطاع أن أقول: إن فى البردة أثرا للصوفية أم لا إلا بعد إلقاء الضوء على أهم سمات الأدب الصوفى كما ذكرها كثير من الكتاب والباحثين، ثم بيان مدى وجود هذه السمات فى البردة وبعد هذا العرض الطويل يمكننى أن أقول: إن فى البردة أثرا للصوفية لا ينكر.

---

(١) مجلة الرسالة: السنة ١٦ (١٩٤٨) العدد ٧٩٩ ص ١٢٠٨.
(٢) عبد الكريم الخطيب: الأدب الصوفى فى مفهوم جديد ص ٢٩ بتصرف طبعة دار الثقافة العربية بمصر سنة ١٩٦٥.
(٣) انظر ص ٨٩ وما بعدها من هذه الرسالة.

٤ - أثر البردة في البديعيات :

ولقد كان للبردة أثر كبير في نشأة البديعيات[1] ، أو على الأقل في كثرتها وانتشارها ، ويتضح ذلك الأثر بعد جولة قصيرة معها ، تتضمن تعريفها والإشارة إلى بعض شعرائها ، والبديعيات (جمع بديعية) : وهي قصيدة من بحر البسيط ، تنتهي قافيتها بميم مكسورة الروي ، يشير فيها ناظمها إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) - غالبا -[2] كما يضمن كل بيت من أبياتها لونا أو أكثر من ألوان البديع .

ويبدو أن أول بديعية - تحقق فيها الضابط السابق - هي بديعية صفى الدين الحلي[3] ، ولذا حق له أن يقول عن نفسه : " إنه مخترع هذا الفن الشعري ...[4] " ، وعلى هذا بنى كثير من الكتاب رأيهم[5] ، ولكن بعض الباحثين ذهب إلى أن هذا القول خطأ ، لأن صفى الدين الحلي قد سبق بمن نظم في البديعيات مثل السليماني[6] ، إلا أنه يمكنني أن أقول : إن صفى الدين الحلي أول من نظم بديعية من بحر البسيط وتنتهي قافيتها بميم مكسورة الروي ، وأشار فيها إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضمن كل بيت من أبياتها لونا بديعيا أو أكثر ، بخلاف من سبقه ، فلم تكن بديعيته من بحر البسيط ، ولا في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) نسبة إلى علم البديع الذي هو أحد علوم البلاغة الثلاثة - البيان ، المعاني ، البديع - وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة - انظر : التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٤٧ .

(٢) قلت : (غالبا) إشارة إلى ما نظم من قصائد في علم البديع يخالف هذا الضابط ، ومن ذلك قصيدة على بن عثمان السليماني المتوفى سنة ٦٧٠ هـ - وهي من بحر الخفيف ، وتنتهي قافيتها بلام مكسورة الروي ، ونظمها في مدح بعض أصحابه ، ومطلعها :

بعض هذا الدلال والإدلال .. حالي الهجر والتجنب حالي

انظر : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٢ ، الدكتور : أحمد موسى : الصبغ البديعي ص ٣٧٧ . طبعة (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٩)

(٣) هو : عبد العزيز بن سرايا الملقب بصفى الدين الحلي ، توفى سنة ٧٥٠ هـ - انظر الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٦٩ .   (٤) كشف الظنون جـ ١ ص ١٩٠ .

(٥) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٣١٢ - الشاعر سليل المحمدين ص ١٠٥ .

(٦) سبقت الإشارة إلى بديعية هذا الشاعر أمام رقم : ٢ من هامش هذه الصفحة

ولعل مما يثير الدهشة أن ظروف نظم هذه البديعية — بديعية الحلي — تشبه إلى حد كبير ظروف نظم بردة البوصيري ، بالإضافة إلى وحدة البحر والقافية والغرض وإن زادت البديعية الاهتمام بالبديع ، يقول صفي الدين مبينا سبب نظمه تلك البديعية : إنه أراد أن يؤلف كتابا يحيط بجل أنواع البديع ، فعرت له علة طالت مدتها ، واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى في منامه رسالة من النبي (صلى الله عليه وسلم) يتقاضاه المدح ، ويعده البرء من سقمه ، فعدل عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فبلغت أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت ، ومطلعها [1] :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ⁂ واقر السلام على عرب بذى سلم

ولقد سماها صفي الدين " الكافية البديعية في المدائح النبوية [2] " ، وقيل : سماها (الكافية البديعية) ، بل زعم بعض الكتاب أنه لم يسمها ، إلا أن الشاعر قد شرح أبياتها ، ووضح غامضها في كتاب سماه (النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية) ، ولعل هذا يؤكد أن الشاعر قد سمى القصيدة (الكافية البديعية) كما شرحها بعض العلماء شرحا آخر سماه (الجوهر السني في شرح بديعية الصفي) [3] .

ولقد فتح صفي الدين الحلي الباب لمن جاء بعده من الشعراء ، فسلكوا سبيله ونظموا قصائد كثيرة ، لم يمكن الوقوف على عددها ، والإحاطة بها ، وقد ذكر بعض الباحثين أنه قد وقف على أربع وأربعين بديعية ، منها المشروح وغير المشروح ، ومنها المطبوع ، والمخطوط ، ومنها ما هو معروف الصاحب ، وغير المعروف [4] .

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ١٩٠ وما بعدها (وسلع) : جبل في المدينة .
(٢) المرجع السابق الدكتور شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٥٩ وما بعدها دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥ .
(٣) الصبغ البديعي ص ٣٨٠ ، والمدائح النبوية ص : ٢٠٦ وما بعدها .
(٤) الصبغ البديعي ص ٣٨٥ .

ومن هذه البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي[1] التي بلغ عدد أبياتها سبعة وعشرين ومائة بيت ، واسمها : (الحلة السيرا في مدح خير الورى)[2] وعرفت ببديعية العميان ، لأن ابن جابر كان أعمى ، ومطلعها [3] :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمـــــم ∴ وانثر له المدح وانشر طيبا الكلم

ولقد شرحها صاحبه : أبو جعفر الأندلسي[4] ، وسمى ذلك الشرح (طراز الحلة وشفاء الغلة [5]) .

ثم جاء بعد ابن جابر الأندلسي ، عز الدين الموصلي[6] ، الذي نظم بديعية ، بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت ، ومطلعها [7] :

براعة تستهل الدمع في العلـــم ∴ عبارة عن نـــداء المفرد العلم

ويبدو أنه تأثر في نظم بديعيته ببديعية صفي الدين الحلي ، ومما يؤكـــد ذلك أنه سمى بديعيته (الفتح الإلهي ، في مطارحة الحلي) ووضع لها شرحـــا سماه (التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع)[8] — صلى الله عليه وسلم .

ولعله أراد أن يثبت تفوقه على صفي الدين الحلي ، فعمد إلى تضمين البيت لفظـــا يدل على المصطلح البديعي الذي اشتمل عليـــه ، وكان صفي الدين قد اكتفى بذكر المحسن البديعي أمام البيت أو بحذائه ، فأتى عز الدين ، وأدخل في نسيج البيت ما يدل عليه ، وبذلك أودعها ثقلا شديدا على نحو ما ترى في هذا المطلع ، فقوله : (براعة تستهل الدمع في العلم) يشير إلى براعة الاستهلال بقوله (براعـــة تستهل .. [9]) .

---

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي توفي سنة ٧٨٠ هـ . (انظر الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٣٩) . (٢) السيرا أصلها السيراء : أي المخططة أو التي خالطها حرير . (٣) المدائح النبوية ص ٢٠٥ . (٤) هو : أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي الأندلسي توفي سنة ٧٧٩ هـ (كشف الظنون جـ ١ ص ١٩٠) .

(٥) المرجع السابق . (٦) هو : عز الدين الموصلي المتوفى سنة ٧٨٩ هـ (انظر الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٢) . (٧) الصبغ البديعي ص ٣٨٩ .

(٨) المرجع السابق ، البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦١

(٩) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦٢ . وبراعة الاستهلال : أن يشتمل أول الكلام على إشارة لطيفة إلى المقصود . (زهر الربيع ص ١٥٩) .

ثم أتى ابن حجة الحموى [١] - بعد عز الدين الموصلى - ونظم بديعية بلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين ومائة بيت [٢]، ومطلعها :

لى فى ابتداء مدحكم ياعرببذى سلم ∴ براعة تستهل الدمع فى العلم [٣]

ولقد سماها (تقديم أبى بكر) وشرحها فى كتاب سماه (خزانة الأدب وغاية الأرب [٤]) ويظهر أن ابن حجة قد تأثر فى بديعيته بمن سبقه، يدل على ذلك أنه يتحدث عن بديعية صفى الدين الحلى، وعز الدين الموصلى، فيقول : "... وبديعية صفى الدين غزلها لا ينكر، غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى مورى به من جنس الغزل، ولو التزمه لتجافت عنه تلك الرقة .. وأما الشيخ عزالدين الموصلى، فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتا .. [٥] ".

وعلى الرغم من وصفه بديعية عز الدين الموصلى بالثقل والتكلف، فإنه قد تأثر بها إلى حد كبير، ويدل على ذلك أن الشطر الثانى من مطلع بديعيته هو الشطر الأول من مطلع بديعية عز الدين وهو : (براعة تستهل الدمع فى العلم) أضف إلى ذلك أنه قد نظر إلى بديعية ابن جابر يدل على هذا قوله : "إنى وقفت على بديعية الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن جابر الأندلسى، فوجدته قد صرح فى براعتها بمدح النبى (صلى الله عليه وسلم) وهى :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ∴ وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بغرض الناظم وقصده، بل أطلق التصريح، ونثر المدح، ونشر طيب الكلام .. وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب [٦] ...".

ثم يذكر ما يدل على أنه قد نظر إلى بردة البوصيرى فيقول [٧] :

---

(١) هو : أبو المحاسن تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى توفى سنة ٨٣٧ هـ (شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢١٩).
(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ١٩٠.
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها.
(٤) طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٩١ هـ.
(٥) خزانة الأدب ص ١٦.
(٦) المرجع السابق ص ١٤.
(٧) المرجع السابق الصفحة نفسها.

" ومطلع البردة - أيضا - في هذا الباب من أحسن البراعات ، وهو :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

فمزج دمه بدمعه عند تذكر جيران بذى سلم - من ألطف الإشارات إلى أن القصيدة نبوية ، وما أحلى ما قال بعده .

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم

بل إنه ليؤكد أنه قد تأثر في نظم بديعيته بالبردة فيقول [1] :

" وبعد .. فهذه البديعية التي نسجتها بمدحه (صلى الله عليه وسلم) على منوال (طراز البردة) " .

ولم ينس ابن حجة أن يشير إلى بديعيته مثنيا عليها بقوله :

" وأما براعة بديعيتي ، فإنها ببركة ممدوحها (صلى الله عليه وسلم) فوق هذه المطالع ، وقبلة هذا الكلام الجامع ، فإني جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء ، بالشرط المقرر لكل منهما ، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية ، وشنفت بأقراط غزلها الأسماع ، مع حشمة الألفاظ وعذوبتها ، وعدم تجافي جنوبها عن مضاجع الرقة .. [2] " .

وإذا كان ابن حجة قد أثنى على قصيدته ، فإن شرحها لم يقل شأنا عنها ولذلك قال عنه بعض الكتاب : " والطريف أن ابن حجة قد حول شرحه لبديعيته إلى خزانة أدب بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ، إذ توسع في شرح الأمثلة والشواهد ، وخاصة لشعراء عصره ، والقريبين منهم في العصر الأيوبي [3] .. "

و " إن هذه الخزانة أصدق مثل للأدب العربي في العصر المملوكي ، فقد ضمت بين جوانحها جملة عظيمة من منظوم الكلام ومنثوره ، يستطيع الباحث على ضوئها أن يحكم على هذا الأدب حكما صادقا ، ينتظم نواحي القوة والضعف فيه [4] " فهي بذلك " مجموع أدب قل أن يوجد في غيره ، ولعل مقتنيه يستغني عن غيره من الكتب الأدبية [5] .. " .

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها (٢) المرجع السابق ، ص١٦ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص٣٦٣ .
(٤) الصبغ البديعي ص٣٩٤ .
(٥) كشف الظنون ج ١ ص٧٠٠ .

ولقد شغف الشعراء بالبديعيات، يدل على ذلك أن بعضهم قد نظم أكثر من بديعية، مثل : عائشة الباعونية [١] التى نظمت بديعيتين، وكذلك عبد الغنى النابلسى [٢]، له بديعيتان، إحداهما تسمى : (مليح البديع فى مدح الشفيع) [٣] والثانية تسمى: (نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار) — صلى الله عليه وسلم — ولقد شرحها فى كتاب سماه (نفحات الأزهار على نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار [٤] — صلى الله عليه وسلم —.

ومما هو جدير بالذكر أن كل ما ذكرته من بديعيات قد ألف قبل العصر الحديث أما فى العصر الحديث [٥] فلعل أتم بديعية هى قصيدة الشاعر محمود صفوت الساعاتى [٦] التى بلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين ومائة بيت على غرار بديعية ابن حجة الحموى [٧] ومطلعها :

سفح الدموع لذكر السفح والعلم ... أبدى البراعة فى استهلاله بدم

والملاحظ على هذه البديعية سهولة ألفاظها إلى حد ما، كما تنطق فى كثير من أبياتها بمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قول الشاعر [٨]

أرجو تعطفه يوم المعاد كما ... ترجوه كل البرايا يوم حشرهم

وقوله [٩] :

---

(١) هى : عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونى توفيت سنة ٩٢٥ هـ وقيل ٩٢٢ هـ انظر الأعلام جـ ٤ ص ٦.

(٢) هو : عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى توفى سنة ١١٤٣ هـ.

(٣) النفح البديعى ص ٤٥٥.

(٤) المرجع السابق ص ٤٥٦.

(٥) انظر ص ٢٦١ من هذه الرسالة حيث يوجد تاريخ بدء العصر الحديث.

(٦) هو : محمود صفوت بن مصطفى أغا المعروف بالساعاتى، ولقد نشأ بالقاهرة وتقلب فى كثير من الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٨٠ انظر مقدمة ديوانه ص جـ، مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١١.

(٧) ديوان الساعاتى ص : ٩٦.

(٨) المرجع السابق ص ١٠١.

(٩) المرجع السابق ص ١٠٨.

لا تكتفى المعانى من شواردها إن لم أبر بمدح المصطفى قسمى
من لم يكن بمدح خير الخلق همته
فجمعه القول لم ينسب إلى الهمم

وكذلك يصرح بإضرابه عن مدح غير الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول [1] :

أضربت عن كل ممدوح بمدحى خير الرسل ؛ بل خير خلق الله كلهم
أرجو بحسن بيانى فى مدائحه تخلصا من عذاب دائم الألم

قيمة البديعيات :

ولقد اختلف الكتاب فى قيمة هذه البديعيات ، فمنهم من حمل عليها بقوله : "... والذى نستطيع قوله مطمئنين إليه ، أن الحافز الأول على هذه البديعيات إنما هو الصبغة البديعية أما المدح النبوى فقد دعت إليه معارضة البردة فى غرضها ، ولذلك نراه مدحا صناعيا لا روح فيه ولا قوة .. "[2].

ثم يؤكد ذلك بقوله : "... وفى الحق أن هذه البديعيات منذ ولدت إلى أن قضت صناعة من العبث ، أضعفت الشعر ، وحدت قوته .. وأوردته موارد التكلف والتعمل الثقيل .. " [3] الذى (أحال الكلام فى البديع ومحسناته إلى صورة غثة ضررها أكثر من نفعها .. [4]) .

ومن الكتاب من نظر إلى البديعيات نظرة أخرى تظهر فى قوله :
" ومهما قيل فى هذه البديعيات ، من أنها متكلفة ، وأنها ساقطة النظم عسرة الأسلوب ، ركيكة التركيب ، فهى على كل حال فن شعرى جديد ، ولد وشب وترعرع فى العصر المملوكى ، وشغل أذهان أدباء العربية حقبة من الزمان طويلة ، وأثرى العلم والأدب من ورائه ثروة لا يستهان بها ، وخاصة من شروح البديع ... وكانت هذه الشروح مظهر قدرة خاصة من علماء لهم قدم فى علوم العربية وآدابها ، وفى ثنايا الشروح ما يحمل من منافع طيبة فى النحو والصرف واللغة والأدب والتاريخ [5] " .

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها (٢) الصبغ البديعى ص ١٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٧٨ . (٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦٦ .
(٥) الدكتور محمد كامل الفقى : دراسات فى الأدب العربى ، ص ١٤ مطبعة جندى بمصر سنة ١٩٧٣ .

ومن ذلك يظهر لنا أن المدائح النبوية — وخاصة البردة — قد خدمت علوم البلاغة ، وكانت حافزا قويا على نشاطها ، ولقد كانت هذه البردة مصدر وحي .. لشعراء البديعيات الذين أرادوا أن يحاكوا البوصيري .. بقصائد على نمطه ، فاستحدثوا بذلك في الأدب العربي هذا الفن الجديد المسمى (البديعيات)[1] أو على الأقل شاع هذا الفن وذاع ، ونما وترعرع ، وهم — أصحاب البديعيات — وإن لم يلحقوه — البوصيري — في جزالة اللفظ ، وجودة المعنى — لأنه كان مخلصا لمدحه ، أما هم فقد استهواهم البديع ، واستهوتهم الحلية — فقد أضافوا إلى الأدب العربي بعامة وإلى علم البديع بخاصة ثروة قيمة .. وحسبك أن تعلم أن شعراء البديعيات كثيرون ، وأن تعلم أنه ما من بديعية إلا تناولها النقاد والشراح بالشرح والبيان .

٥ — أثر البردة في الشعر والشعراء :

وإذا كنا قد رأينا أثر البردة في مجالات مختلفة ، فسنا نحن أولاء أمام أثر آخر ، وهو أثر البردة في الشعر والشعراء .

والحق أن للبردة أثرا كبيرا في الشعر والشعراء ، ويتضح ذلك من تصريح بعض الكتاب — الذين نظموا الشعر — بأن البردة كانت سببا من الأسباب التي دفعتهم إلى قرض الشعر ، بل كانت البردة أحد أساتذتهم في نظم الشعر ، ومن هؤلاء الشعراء ، الشاعر عبد العليم القصبي[2] ، الذي يقول في معرض حديثه عن البردة ، عندما سمعها تنشد في مسجد البوصيري بالإسكندرية بنغمة موسيقية جميلة : " .. وربما كان هذا الدرس الأول الذي تلقيته في طريقة نظم الشعر ، إذ تعودت بعد ذلك أن أنظم على نسق هذه النغمة أبياتا توشك أن تكون بلا معنى ، وإن كنت لا أخطئ في وزنها ، الذي عرفت — فيما بعد — أنهم — المشتغلون بالشعر — يسمونه " البسيط

---

(١) المدائح النبوية ص ٢٠٥ وما بعدها بتصرف . (٢) هو : عبد العليم محمد القصبي المولود في سنة ١٩١٨ بإحدى قرى محافظة كفر الشيخ ، حصل على الجائزة الأولى في الشعر من وزارة المعارف سنة ١٩٤٨ ، وجائزة الشعر الغنائي من الإذاعة المصرية سنة ١٩٤٩ ، ثم جائزة شوقي من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب سنة ١٩٦٥ على ديوانه المسمى (أشعار قومية) ، وله ديوان آخر بعنوان (بقايا سراب) طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ - كما نظم ملحمة الثورة العرابية في ثلاثة آلاف بيت من الشعر الموزون =

المحيط [1] " ثم يقول فى صراحة تامة لقد : " كانت هذه القصيدة .. أحد أساتذتى فى نظم الشعر .. [2] " .

وإنك لتعجب إذا رأيت كثرة هؤلاء الشعراء الذين أثرت فيهم البردة فقام بعضهم بتضمينها [3] ، وأقرب مثال على ذلك تضمين لم يعرف قائله ، إلا أن صاحب المدائح النبوية [4] قال باسمه (الشيخ قاسم) وأوله :

(أمن تذكر) أوطان على علم ... أم من تفقد جيران بذى سلم
(مزجت دمعا جرى) كالقطر منهمرا
يجرى على وجنة (من مقلة بدم)

كما قام بعضهم بتشطيرها [5] ، ومن هؤلاء الذين شطروها الشيخ عبدالقادر الرافعى [6] ، وأول تشطيره :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... هجرت طيب الكرى ليلا فلم تنم
أم من هيام ووجد فى محبتهم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم [7]

ومن الشعراء من قام بتخميسها [8] ، ومنهم الشاعر العراقى

= الحقى ، وله عدة مؤلفات أدبية أخرى ، وآخرها (طه حسين فى الضحى من شبابه) نشرته الهيئة المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٦ .

(١) البوصيرى حياته وشعره ص ٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٥ .
(٣) التضمين : أن يأخذ الشاعر شيئا من شعر غيره ، يدخله فى شعره مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء (التلخيص فى علوم البلاغة ص ٤٢٤ ومابعدها) .
(٤) ص ٢٠٠
(٥) التشطير : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تشطيرها بيتا من عنده بحيث يأتى بشطر من البيت الأصل ثم بشطره هو . وهكذا مراعيا اتحاد الوزن والقافية والفرض .
(٦) هو : عبد القادر سعيد الرافعى الطرابلسى المتوفى سنة ١٨١٥ (الأعلام جـ ٤ ص ١٦٥) .
(٧) عبد القادر الرافعى : نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة بانت سعاد ص ٧٩ مطبعة الشرق بمصر سنة ١٣٤٤ هـ .
(٨) التخميس : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تخميسها ثلاثة أشطر مراعيا اتحاد الوزن والقافية والفرض .

السيد إبراهيم الموصلي [1] الذى سمى تخميسه (تنفيس الشدة فى تخميس البردة) وأوله [2] :

مالى أراك شجى القلب ذا ألم تزنو إلى بارق من جانب العلم
غريق فكر ودمع مزجه بدم أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ومن الشعراء من سبعها [3] وأقرب مثال لذلك ، هذا التسبيع المنسوب إلى القاضى البيضاوى [4] ، وقيل : لغيره [5] ، وأوله [6] :

الله يعلم ما فى القلب من ألم ومن غرام بأحشائى ومن سقم
على فراق فريق حل فى الحرم فقلت لما هى دمعى بمنسجم
على العقيق عقيقا غير منسجم أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

كما قام بعض الشعراء بتعشيرها [7] ، ويوجد لهذا النوع مثال واحد مخطوط بدار الكتب المصرية [8] وناظمه مجهول ، وإن كان بعض الكتاب ينسبه إلى شخص يدعى (محمد الخلوتى) ولم أعثر له على ترجمة [9] ومطلعه :

---

(١) هو : السيد إبراهيم الحسينى الموصلى المتوفى سنة ١٩٢١ ، انظر حياته فى مقدمة (تنفيس الشدة فى تخميس البردة) ص٥ مطبعة الحرية ببغداد سنة ١٩٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص١٩ وما بعدها .

(٣) التسبيع : هو أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تسبيعها خمسة أشطر ، مراعيا اتحاد الوزن والقافية والغرض .

(٤) هو : عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى المعروف بالقاضى البيضاوى توفى سنة ٦٩٦ هـ .

(٥) المدائح النبوية ص٢٠٢ .

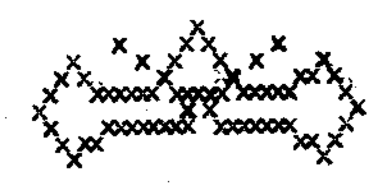
(٦) المرجع السابق . (٧) التعشير هو : أن يزيد الشاعر على كل بيت من الأبيات المراد تعشيرها ثمانية أشطر مراعيا الوزن والقافية والغرض .

(٨) انظر فهرست دار الكتب المصرية قسم الأدب ج ٣ ص ٤٩ وما بعدها تحت رقم ١٠٤ مجاميع (م) . (٩) المرجع السابق والمدائح النبوية ص٢٠٣ .

الله يعلم ما فى القلب من ألم	ومن غرام بأحشائى ومن سقم
على فراق فريق حل فى الحرم	نقلت لما جرى دمعى بمنسجم
على العقيق عقيقا غير منسجم	ما بال قلبك لا ينفك ذا ألم
مذ بان أهل الحمى والبان والعلم	وانهل مدمعك القانى بمنسجم
أمن تذكر جيران بذى سلم	مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ولا يخفى أن صاحب هذا التعشير قد تأثر فى نظمه بالتخميس السابق ، بل لقد أخذ التخميس كله وأضاف إليه ثلاثة أشطر من عنده بالإضافة إلى بيت البردة .

إن عناية الشعراء بالبردة قد اتخذت صورا متعددة ، وألوانا مختلفة ، وإذا كنت قد أشرت إلى بعضها المتمثل فى التضمين والتشطير والتخميس والتسبيع والتعشير ، فسوف أتحدث عن لون آخر ، قد اتجه إليه شعراء كثيرون ، مصريون وغير مصريين ، وهذا اللون هو معارضة البردة ، والحديث عن هؤلاء الذين عارضوا البردة حديث جد طويل ، ولذلك آثرت أن أفرد له الباب التالى ، بل الأبواب التالية ، إن شاء الله .



الباب الثاني

((معارضات البردة في العصر الحديث))

((فصل شوقي))

الفصل الأول :

المعارضة ودوافعهـــا .

الفصل الثاني :

العصر الحديث وأهم معالمـــه .

الفصل الثالث :

معارضتا الدرويش والتيمورية وأثرهمـــا .

الفصل الأول

المعارضة ودوافعها

ا- معنى المعارضة :

رأيت أن الحديث عن معارضات البردة يتطلب وقفة - ولو قصيرة - مع معنى المعارضة ، ونشأتها ، ومدى انتشارها فى الشعر العربى ، والدوافع التى تجعل الشاعر أو الأديب يتجه إليها ، ويقبل عليها .

ولقد نظرت فى بعض كتب اللغة فوجدت أن المعارضة مصدر للفعل (عارض) وهذا الفعل فى مدلوله اللغوى يشير إلى معان كثيرة يظهر أهمها فى قولك : عارض فلان الشىء بالشىء معارضة ، أى قابله ، وعارضت كتابى بكتابه ، أى قابلته[1] ، ومن ذلك ما روى عن السيدة فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، و (رضى الله عنها) أنها قالت : " أسرّ إلىّ النبى (صلى الله عليه وسلم) أن جبريل يعارضنى القرآن كل سنة - مرة - وأنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى [2] " وهذا يدل على أن جبريل (عليه السلام) كان يعارض الرسول (صلى الله عليه وسلم) جميع ما نزل من القرآن من المعارضة بمعنى المقابلة ، وتقول : عارض فلان فلانا فى السير إذا سار حياله ، وعارض فلانا إذا جانبه وعدل عنه ، وعارض الرجل الآخر بمثل صنيعه ، إذا فعل مثل فعله ، وأتى إليه مثل ما أتى ، كما تقول : عارضة فعرضته ، أى غالبته فى المعارضة فغلبته ، وتعارض الشاعران إذا فعلا مثل ذلك ، ويشبه لفظ عارضه ، : باراه ، وساجله ، وفاخره ، ونحو ذلك مما يدل على المعارضة مطلقا[3] ولعله قد وضح من ذلك كله أن المعارضة لغويا تدل على معان كثيرة ومنها مقابلة شىء بشىء والإتيان بعمل يشابه عمل الآخر .

---

(١) لسان العرب ج ٩ ص ٢٦ مادة (عرض) ، وتاج العروس ج ٥ ص ٥١ المادة نفسها .
(٢) صحيح البخارى ج ٩ ص ٣٥ .
(٣) عيسى إسكندر المعلوف : معارضات (ياليل الصب) ص ٣ وما بعدها - مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٢١ ، على النجدى : الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٢٤ مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٤ .

أما فى اصطلاح الشعراء فهى: أن ينظم الشاعر قصيدة على مثال ما نظم الآخر متقيدا بالموضوع والبحر والقافية، سواء وافقه فى المعنى أم خالفه[1].

وعلى هذا، لم تخرج المعارضة فى معناها الاصطلاحى عن بعض معناها اللغوى، لأن فى النظم على مثال ما نظم الآخر مقابلة عمل بعمل، وفيه كذلك مدارسة ومتابعة ومباراة، كما أن فيه اتجاها إلى المحاكاة والمحاذاة[2].

٢ـ نشأة المعارضة وانتشارها فى الشعر العربى:

ليس هناك تاريخ محدد لنشأة المعارضة فى الشعر العربى ويبدو أنها ولدت مع الشعر العربى نفسه، ولا أدل على ذلك من أنها وجدت فى العصر الجاهلى ـ حدد النقاد هذا العصر بخمسين ومائة سنة قبل الإسلام[3] ـ وأقرب مثال يؤكد ذلك ما ذكرته بعض كتب الأدب من أن علقمة الفحل[4] وامرأ القيس[5]، تذاكرا الشعر يوما، وادعى كلاهما الفضل فيه، فاتفقا على المعارضة والاحتكام فيما يقولان إلى أم جندب ـ زوج امرئ القيس ـ واقترح علقمة أن يكون وصف الفرس هو موضوع المعارضة، فنظم امرؤ القيس قصيدة مطلعها[6]:

خليلى مرا بى على أم جندب ☆ لتقضى لبانات الفؤاد المعذب

---

(١) معارضات (ياليل الصب) ص٣.

(٢) إبراهيم عوضين: المعارضة فى شعر شوقى (رسالة ماجستير) ص٢ وما بعدها.

(٣) انظر: الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص١٠.

(٤) هو: علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس بن ربيعة بن مالك توفى سنة ٦٠٣م (الأعلام ج ٥ ص٤٨).

(٥) هو: جندح بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر توفى سنة ٥٦٠م (تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص٩٢)

(٦) امرؤ القيس: ديوانه ص٢١ بشرح السندوبى، مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٠ء اللبانات: (جمع لبانة) وهى حاجة النفس ومطالبها، ويروى (لنقضى حاجات) بالنون بدل التاء.

وقال علقمة قصيدة مطلعها : (١)

ذهبت من الهجران في غير مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنب

فحكمت أم جندب لعلقمة على زوجها ، فطلقها امرؤ القيس ، وتزوجها علقمة ، وسمي لهذا (علقمة الفحل) (٢).

ويبدو أن هذه القصة قد زيد عليها ، إذ أشار إلى ذلك بعض النقاد ومنهم الدكتور : السعدي فرهود (٣) بقوله بعد ما ذكر القصة السابقة : "... وإلى هنا يمكن أن تكون الرواية مقبولة ، لأن المرأة العربية لها من سليقتها وفطرتها ما يهديها إلى الاستجادة والاستحسان ، بيد أن بعض الروايات يتزيد على هذا القدر ، فيذكر أن أم جندب سألتهما أن ينشداها شعرا على قافية واحدة وروى واحد ، فلما أنشداها وحكمت لعلقمة ، راجعها امرؤ القيس فقالت له : إنك قلت في فرسك:

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب (٤)

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ، ومريته فأتعبته بساقك ، وقال علقمة:

فأدركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب (٥)

---

(١) المرجع السابق ص٤٢ ، ويروى : (في كل مذهب) بدل (في غير مذهب) .
(٢) العمدة جـ ١ ص١٠٣ .
(٣) هو الدكتور : محمد السعدي عوض فرهود ، ولد في أول يناير سنة ١٩٢٢ ، والتحق بالأزهر سنة ١٩٣٥ وظل به إلى أن تخرج في كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٨ وكان أول دفعته ، حصل على درجة الماجستير سنة ١٩٥٨ ثم الدكتوراه في الأدب العربي الحديث سنة ١٩٦٧ ، وهو الآن أستاذ الأدب العربي والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .
(٤) ديوانه ص٣٨ ، الألهوب: الزجر بالسوط ، الدرة : الدفعة ، الأخرج : ذكر النعام ، مهذب: مسرع ، ويروى (فللساق ألهوب وللسوط درة ، وللزجر منه وقع أهوج متعب) المرجع السابق . (٥) المرجع السابق ص ٤٧ .

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه ، ولم يضربه بسوط ولم يتعبه ، فقال امرؤ القيس : " ما هو بأشعر مني ، ولكنك له عاشقة " .

والرواية بهذه الصورة تحمل على الشك فيها ، لأن العربي الجاهلي ما كان يعرف اصطلاح القافية والروي ، ومن هنا نرتاب في أمرها .. ولكن " ما المانع من أن نفترض أن هذه الرواية — بهذه الصورة — تمثل المنطق النقدي في عصر تال ، ولعله عصر أبي عبيدة (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ) أول من روى القصة في هذا العصر ، ولعل من رووا القصة في هذا العصر تمثلوا النظر في القصيدتين ، واجتهدوا في استنباط مبررات الحكم وأسبابه ، توقفوا على البيتين في وصف الفرس ، وتصوروا أم جندب وقفت قبلهم على البيتين ، وانصرفت عن سائر الأبيات ، فانصرفوا هم — أيضا — عن سائر الأبيات ... إذ وجدوا الشاعرين اتفقا في ألفاظهما ، وعباراتهما ومعانيهما .

ومع هذا الافتراض نحس بأن التوفيق جانبهم جميعا — أم جندب ومن تقمصوا شخصيتها الناقدة — ، لأنهم فصلوا بيت امرئ القيس عن البيت بعده :

فللسوط ألهوب وللساق درة	وللزجر منه وقع أخرج مهذب
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه	يمر كخذروف الوليد المثقب[1]

فهذا البيت الثاني يدل على أن فرس امرئ القيس أدرك القطيع .. لم يتعب .. ولم يكرر شوطه ، وإنما أدرك القطيع من أول مرة ، وهو لا يبلغ ذلك إلا إذا كان نشيطا ذا سبح فهو بهذا لا يقل عن فرس علقمة إن لم يفقه " .. ، " .. والقصيدتان — بعد هذا — ألصق بما يسمى (المعارضة) ومناط المعارضة هو حسن الأداء والمنافسة في الغلب[2] . "

ومهما يكن من شيء فإن " الشك في صحة هذه المعارضة لا يقلل

---

(١) الشأو : الشوط البعيد . الخذروف : (بضم الخاء والراء بينهما ذال ساكنة) لعبة للصبيان يديرونها بسرعة حتى لا تكاد ترى لسرعة دورانها .

(٢) الدكتور محمد السعدي فرهود : اتجاهات النقد الأدبي العربي ص ١٧١ وما بعدها — بتصرف — دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٠ .

من قيمتها ، ولا يرد الاستشهاد بها ، فإن لم تكن حقا ، فقد صنعت على نحو المعارضة كما كان يفهمها القدماء [1] ".

وإذا كان الشك قد حام حول هذه المعارضة ، فيمكن تأكيد وجود المعارضة فى العصر الجاهلى إذا نظرنا إلى قصيدة أمية بن أبى الصلت[2] التى مطلعها :

عرفت الدار قد أقوت سنينا ∴ لزينب إذ يحل بها قطينا [3]

وقصيدة عمرو بن كلثوم [4] التى أولها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ∴ ولا تبقى خمور الأندرينا [5]

إذ اتفقت القصيدتان فى البحر ـ هما من بحر الوافر ـ والروى ، والغرض ، وعلى هذا فضابط المعارضة ينطبق عليهما ، بل إن فيهما أبياتا اتحدت معانيها ، وكادت تتحد ألفاظها مثل قول عمرو :

وقد علم القبائل غير فخر	إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون إذا أطعنا	وأنا العازمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا	وأنا النازلون بحيث شينا

إلى أن يقول :

وأنا النازلون بكل ثغر	يخاف النازلون به المنونا

وقول أمية :

وتخبرك القبائل من معد	إذا عدوا سعاية أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر	وأنا الضاربون إذا التقينا

---

(١) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٣٥ .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت عبد الله بن أبى ربيعة الثقفى توفى سنة ٦٢٤ م (تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ١٢٦) .

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٢١١ وما بعدها ، ويروى (تحل) بالتاء .

(٤) سبق التعريف به فى هامش ص ١٩٠ من هذه الرسالة .

(٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٥٧ ، ومحمد سيد كيلانى : مختار الشعر الجاهلى جـ ٢ ص ٣٦٠ وما بعدها مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٧٠ .

وأنا المانعون إذ أردنا ... وأنا العاطفون إذا دهينا
وأنا الحاملون إذا أناخت ... خطوب فى العشيرة تبتلينا
وأنا الراغمون على محمد ... أكفا فى المكارم ما بقينا

ولقد انتشرت المعارضة فى الأدب العربى على مدى عصوره المختلفة من العصر الجاهلى — كما سبق — إلى العصر الحديث، والأمثلة الآتية تؤكد ذلك :

ففى عصر صدر الإسلام — يبدأ هذا العصر بظهور الاسلام ، وينتهى سنة ٤٠هـ (١) — ظهرت المعارضة وخاصة عندما ظهر الصراع بين المسلمين والمشركين ، ومن ذلك ما روى أن وفد تميم قدم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) — بعد فتح مكة — وقالوا يا محمد : جئناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : قد أذنت فقام الزبرقان ابن بدر ، وقال : قصيدة مطلعها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربع

فأرسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) رسولا إلى حسان بن ثابت — وكان غائبا — فلما أتى ، قال حسان — :

فلما انتهيت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — قام شاعر القوم فقال ما قال ، عرضت فى قوله ، وقلت على نحو ما قال ، وكان مما قاله حسان قصيدته التى مطلعها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع (٢)

ولعل اتحاد القصيدتين فى الوزن والقافية والغرض ، يدل على وجود المعارضة فى هذا العصر ، وقد يقال : إن هذا المثال يدل على وجود المناقضة لا المعارضة ، فأجيب بأن المناقضة معارضة وزيادة إذ هى فى الأصل : أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا ، فيعمد الآخر إلى الرد عليه — هاجيا

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص١٠ .
(٢) انظر ص١١ من هذه الرسالة .

أو مفتخرا - بقصيدة ملتزما فيها البحر والقافية التي اختارها الأول [١].
فالمناقضة - إذن - تشترك مع المعارضة في الاعتماد - غالبا - على وحدة البحر والقافية والموضوع، ثم تتميز المناقضة بأن صاحبها ينقض ما قاله صاحبه - أي يبطله - ويرد عليه ما ادعاه، بل ذهب بعض الكتاب إلى أنها نوع من المعارضة [٢]

ومهما يكن من شيء فإن المعارضة قد وجدت في هذا العصر، ويؤكد ذلك قول ابن رشيق [٣]: (ولما أرادت قريش معارضة القرآن الكريم، عكف فصحاؤهم - الذين تعاطوا ذلك - على لباب البر، وسلاف الخمر، ولحوم الضأن والخلوة.. إلى أن بلغوا مجهودهم، فلما سمعوا قول الله عز وجل: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٤] " يئسوا مما طمعوا فيه وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق..).

وفي العصر الأموي - يبدأ هذا العصر من سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣٢ هـ [٥] ذاعت المناقضة وشاعت - بسبب سياسة الدولة الأموية التي لعبت دورا كبيرا في انتشار هذا اللون من الشعر [٦] وخاصة مناقضة جرير والفرزدق [٧] وكانت شهرة مناقضتهما سببا في اعتقاد بعض الناس أن المناقضة قد نشأت على يديهما في هذا العصر - وهذا يخالف الحقيقة إذ سبق أن أشرت إلى وجود مثل هذا اللون في عصر صدر الإسلام، وإن لم يكن منتشرا كما في هذا العصر.

---

(١) أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي ص٢ وما بعدها مكتبة النهضة المصرية (غير مؤرخ)
(٢) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص٣٦.
(٣) العمدة جـ١ ص٢١١.
(٤) هود / ٤٤.
(٥) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص١٠.
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ٢٢٩ وما بعدها، والتطور والتجديد في الشعر الأموي ص١٧٠ وما بعدها.
(٧) سبق التعريف بالفرزدق في هامش ص١٨ من هذه الرسالة، وجرير هو: جرير بن عطية بن الخطفى من كليب بن يربوع، شاعر معروف توفي سنة ١١٠ هـ (تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص٢٤٢).

ومهما يكن من شيء ، فليس معنى شهرة المناقضة ـ التي هي معارضة وزيادة كما مر ـ في هذا العصر ، أنه قد خلى من المعارضة المستقلة ، لا ، لقد وجدت المعارضة بجانب المناقضة ، وأقرب دليل على ذلك ، ما روى أن عمر ابن أبي ربيعة [1] ، وجميل بن عبد الله العذري [2] اجتمعا بالأبطح ، فانشد جميل قصيدته التي يقول فيها [3] :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلي
بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون : مهلا يا جميل ، وإنني
لأقسم مالي عن بثينة من مهل

حتى أتى على آخرها ، ثم قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت في هذا الروي شيئا ؟

قال : نعم ، ثم أنشده قوله [4] :

جرى ناصح بالود بيني وبينها	فقربني يوم الحصاب إلى قتلي
فطارت بحد من فؤادي ونازعت	قرينتها حبل الصفاء إلى حبلي
فما أنس م الأشياء لا أنس موقفي	وموقفها يوما بقارعة النخل
فلما تواقفنا عرفت الذي بها	كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

وعندما انتهى من إنشاده ، قال له جميل : هيهات يا أبا الخطاب ، لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي ، والله ما خاطب النساء ، مخاطبتك أحد وقام مشمرا [5] .

وواضح في هذه الرواية اتحاد النظمين في الوزن ـ بحر الطويل ـ والروى والغرض ، وهذا يؤكد وجود المعارضة بجانب المناقضة في العصر الأموي .

---

(١) سبق التعريف به في هامش ص ٩٠ من هذه الرسالة .
(٢) هو : جميل بن عبد الله بن معمر العذري عرف بحبه (بثينة) ابنة عمه ، وقال فيها شعرا كثيرا ، توفي سنة ٨٢ هـ . (٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٠٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٠٤ . (٥) المرجع السابق ص ٤٠٧ .

ووجدت المعارضة أيضا في العصر العباسي (يبدأ هذا العصر من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٦٥٥ هـ)[١]، ومما يدل على ذلك ما روى أن محمد بن عبد الملك[٢] استحيا من حساب أبي تمام[٣]، واحتج عليه بأنه قد مدح غيره، فقال له[٤]:

رأيتك سمح البيع سهلا، وإنما
يغالي إذا ما ضنّ بالشيء بائعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه
فيوشك أن تبقى عليه بضائعه

فكتب إليه أبو تمام قصيدة .. ومنها[٥]:

أبا جعفر إن كنت أصبحت شاعرا
أساهل في بيعي له من أبايعه
فقد كنت قبلي شاعرا ذا روية
تساهل من هانت عليه بضائعه

فواضح ما في النظمين من اتحاد الوزن والقافية والغرض مما يدل على وجود المعارضة في ذلك العصر.

أما في العصر المملوكي (يبدأ من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ)[٦] فقد كثرت فيه المعارضة - وإن اتسمت بالضعف نظرا لنضوب القرائح، وعدم القدرة على الابتكار[٧] - ولعل خير دليل على ذلك، تلك القصائد التي تسمى

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص١٠.
(٢) هو / أبو جعفر محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات توفي سنة ٢٣٣ هـ. (وفيات الأعيان جـ ٤ ص١٨٢).
(٣) هو : حبيب بن أوس الطائي شاعر معروف توفي سنة ٢٣١ هـ الأعلام جـ٢ ص١٧٠.
(٤) يوسف البديعي : هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص٧٦ - نشر وتحقيق محمود مصطفى مطبعة القاهرة سنة ١٩٣٤.
(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها
(٦) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص١٠.
(٧) انظر ص٤٢ من هذه الرسالة.

(البديعيات)[1] ولكن هذا لا يمنع من وجود معارضات لا بأس بها مثل معارضة البوصيرى قصيدة (بانت سعاد) بقصيدته التى أطلق عليها اسم (ذخر المعاد فى وزن بانت سعاد) ومطلعها[2] :

إلى متى أنت باللذات مشغول ❊ وأنت عن كل ما قدمت مسئول

ولقد أكد البوصيرى تلك المعارضة بقوله عن تلك القصيدة :

لم أنتحلها ولم أغصب معانيها ❊ وغير مدحك مغصوب ومنحول
وما على قول (كعب) أن توازنه ❊ فربما وازن الدر المثاقيل

وكذلك لم يخل العصر العثمانى (يبدأ من سنة ٩٢٣ هـ إلى سنة ١٢١٣ هـ)[3] من المعارضة ، وأقرب مثال لذلك ، معارضة السيدة عائشة الباعونية[4] بردة البوصيرى ، ومنها قولها تتحدث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)[5] :

أعظم به من نبى مرسل نزلت
في مدحه محكم الآيات من حكم
أعظم به من نبى سيد سند ❊ هاد سراج منير صفوة القدم
بالحق مشتمل ، فى الخلق مكتمل
بالبر معتصم ، بالبر ملتزم
جمال صورته عنوان سيرته ❊ هذا بديع وهذى آية الأمم

ثم تختم قصيدتها بقولها :

يا أكرم الرسل سؤلى فيك غير خف ❊ وأنت أكرم من يدعو إلى الكرم
حسبى بحبك أن المرء يحشر مع ❊ أحبابه فهنائى غير منحسم
مدحت مجدك والإخلاص ملتزمى ❊ فيه وحسن امتداحى فيك مختتمى

---

(١) أنظر ص٢٣٢ من هذه الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٣) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ١٠
(٤) سبق التعريف بها فى هامش ص ٢٣٨ من هذه الرسالة .
(٥) عائشة الباعونية : مولد النبى — ص٤٧ وما بعدها ، المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠١ هـ .

أما في العصر الحديث فقد وجدت فيه معارضات كثيرة ، وسوف أتحدث عنها إن شاء الله في الفصل الثالث من هذا الباب وما يليه من أبواب.

٢ — دوافع المعارضـــة :

للمعارضة دوافع كثيرة ، أشار بعض الكتاب إلى أن أهمهـــا :
" الإعجاب والغرابة ، والاستمانة ، والتحدى ، والاستجابـــة والتعليمة "(١) .

أ — الإعجـــاب :

ولكنى أرى أن الإعجاب والغرابة والاستجابة ما هي إلا خطوات لعامـــل واحد هو الإعجاب ، لأنك إذا رأيت شخصا قد بلغ مرتبة عالية بين أقرانه ، وحاز قصب السبق بين ذويه ، (أعجبت به) ، والذى حرك فيك هـــذا الإحساس كونه (غريبا) وسط أهله ، وتميزه عنهم بهذا العمل الذى بلغ فيه مبلغا لم يبلغه سواه ، وتكون النتيجـــة الطبيعية لهذا الإعجاب أنـــك تحاول أن تترسم خطاه وتنهج نهجه ، لعلك تصل إلى ما وصل إليه (وهذه هي الاستجابة) .

وبالمثل إذا نظم الشاعر قصيدة جيدة ، ولاقت ذيوعا وانتشارا ، أعجب بها شاعر آخر — لكونها فريدة في نوعها ، غريبة بين أمثالها — وهذا الإعجاب يولد في نفسه محاولة الإتيان بمثلها ، والنظم على منوالها .

ومن البدهى أنه ليس بلازم أن تتحقق تلك الخطوات — الغرابة والإعجاب والاستجابة — عند جميع الناس ، فقد يقف بعضهم عند مرحلة الإعجاب فقط ، لكونه ليس بشاعر ، ومثل هذا يكتفى بحفظها أو الإشادة بها ، وهذا ما أشار إليه بعض الكتاب بقوله :(٢) " ... وأنتم تعلمون أن من أهم الأسباب للإنتـــاج

---

(١) المعارضة في شعر شوقى ص٣ بتصرف .
(٢) الدكتور طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص٢١ وما بعدها مطبعة الصاوى بمصر سنة ١٩٣٦ م ، ويلاحظ أن لفظ (الإنتاج) لم يرد في معاجم اللغة والصواب (نتاج) .

الأدبى هى المحاكاة ، فإذا قال الشاعر البليغ قصيدة وأعجب الناس بها ، فمنهم من يرويها ، ومنهم من لا يكتفى بهذه اللذة ، بل يحاول أن يحاكيها ، ويأتى بأمثالها ، وعلى هذا النحو ينتج الشعر ، ويكون للشعراء تلاميذ ومقلدون .. " ويؤكد ذلك كاتب آخر بقوله : " والغرابة فى حد ذاتها .. تعد من أهم عوامل الإعجاب بالفن الأدبى ، وجذب الانتباه إليه .. وقد تكون غرابة الفكرة أو العبارة من أسباب تقليدها .. "(١).

وقد يكون الإعجاب بالعمل الأدبى فحسب ، وقد يكون الإعجاب بالشاعر ذاته ، وقد يكون بهما معا ، ويلاحظ أن الإعجاب — غالبا — يكون من الأدنى للأعلى ، ومن الناشىء للذائع الصيت ، ولعل مما يؤكد ذلك قول بعض النقاد : " .. إن شخصية المقلد — بفتح اللام مشددة — أو شخصية الأصيل ، ذات أثر كبير فى تتبع الأدباء آثاره ، واحتذائهم عمله ، وشيوع مذهبه ، فقد يجيد الأديب فى ناحية من النواحى ، أو ينجح فى موقف من المواقف ، فتكون تلك الإجادة وذلك النجاح سببا من أسباب الإعجاب بشخصه وفنه ، فيعمد كثير من المتبعين إلى تقليده ، حتى يظفروا بالنجاح الذى ظفر به ، وأنت تشاهد هذا فيما تراه من بعض الشعراء أو الخطباء أو الكتاب مما يعمدون إليه من تقليد ذلك الأديب فى موقفه وفى حركاته وإشاراته ، بل فى نبرات صوته ومخارج حروفه ، ومنهم من يحفظ نتفا من جمله وتراكيبه ، ويتابعه فى لوازمه ، ويتأثر بأسلوبه ومنهجه .. وليس هذا إلا أثرا من آثار الإعجاب بالشاعر أو الخطيب أو الكاتب .. "(٢).

ولعل من خير الأمثلة على ذلك قصيدة كعب بن زهير التى مدح بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)(٣) ، إذ أعجب بها كثير من الشعراء ، لغرابتها فى عهدها من جهة ، ولما حازته من قبول عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) من جهة ثانية ، يدل على ذلك — قبول الرسول — أمران : الأول : أنه

---

(١) الدكتور بدوى طبانة : السرقات الأدبية ص ١٠٩ بتصرف ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ وما بعدها باختصار .

(٣) انظر ص ٨ من هذه الرسالة .

(صلى الله عليه وسلم) قد أشار إلى الحاضرين من أصحابه " أن اسمعوا ... "
الثاني : أنه قد أهدى إليه بردته[1] .

وكل ذلك قد دفع كثيرا من الشعراء لمعارضتها ، والنظم على منوالها[2] ،
ومن تلك المعارضات معارضة البوصيرى ، التى سبقت الإشارة إليها[3] .

ب — التحدى :

وإذا كان الدافع الأول للمعارضة هو الإعجاب — كما سبق — فإن التحدى هو الدافع الثاني الذى لا يقل شأنا عن سابقه ، لأن التحدى أو المغالبة من المعانى التى تدل عليها المعارضة ، كما أنها من سمات الكائن الحى ، إذ الحياة تعنى الحركة ، والحركة — فى ذاتها — تحد ومغالبة فى مواجهة السكون ، ومن ثم كان التحدى والمغالبة فى الشعر أمرا طبيعيا[4] لأن الإنسان بطبعه وما فطر عليه ميال إلى السباق ، نزاع إلى المجاراة والمباراة ما دامت له آمال تحوشب ، وأطماع تتحفز ، وأمانى تمتد هنا وهناك ، فلابد من صراع ونزاع ومواثبة ، وتلك فطرة لا يشذ عنها إلا خامد الطبع ، جامد الإحساس ، بل إن الشذوذ عن تلك الفطرة يكاد يكون انسلاخا عن أخص مميزات الإنسانية[5] .

ويتأكد التحدى إذا اختلف الشاعران على السبق فى الصياغة ، وتنازعا فيه ، وادعى كلاهما الاستئثار بها دون الآخر ، فتكون المعارضة — حينئذ — بمثابة امتحان المسابقة ، وميزان المفاضلة ، والفصل فى النزاع[6] ، ولعل أقرب

---

(١) المرجع السابق ص٩ .
(٢) المجموعة النبهانية جـ ٣ ص٨ وما بعدها .
(٣) انظر ص٢٥٤ من هذه الرسالة .
(٤) المعارضة فى شعر شوقى ص١٣ .
(٥) الدكتور ، صادق خطاب : الشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودى فيه (رسالة دكتوراه) ص٧٨ وما بعدها .
(٦) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص٣٤ .

مثال لذلك ما سبقت الإشارة إليه من قصة علقمة الفحل وامرئ القيس[1].

جـ – الاستعانة :

أما المعارضة بدافع الاستعانة فهي عمل " يخرج على الفطرة البشرية ، لأن الإنسان يمتاز عن الكائنات الأخرى بأنه يبدأ من حيث انتهى سابقوه ، ومن ثم فاللاحق لابد من أن يستعين بالسابق في عمله ، وهذا هو التقليد في الأدب ، وللشعراء في جميع عصور الأدب تلاميذ يتابعون أساتذتهم بالرواية أو بالتأثر أو بهما معا [2].

ولعل منهج العرب في نشر الشعر وإذاعته ومدارسته ، ساعد على ذلك إن لم يدفع إليه دفعا ، فقد كان لكل شاعر راوية يذيع شعره ، أو يذيعه ويستعين به في شعره متى قال شعرا ، وأقرب مثال لذلك ما فعله زهير بن أبي سلمى مع أوس بن حجر[3] أستاذه ، فقد تابع زهير أستاذه واحتذاه في كثير من أشعاره واقرأ إن شئت قصيدة أوس التي مطلعها [4] :

تنكرت منا بعد معرفة لمى ••• وبعد التصابي والشباب المكرم

ثم اقرأ معلقة زهير التي مطلعها [5] :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ••• بحومانة الدراج فالمتثلم

لتعرف إلى أي مدى تأثر زهير في معلقته بأستاذه أوس[6] ، ويؤكد ذلك بعض الكتاب بقوله : " فكان الناشئ ، الموهوب يتعلق بالأديب أشد تعلق ، حتى إنه لا يكاد يفارقه ، ليتلقى منه كل ما ينتج ، وهذا الناشئ ، بعمله ذلك ، إنما

---

(1) انظر ص٢٤٦ من هذه الرسالة .

(٢) الدكتور : طه حسين : في الأدب الجاهلي ص٣١٤ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧م .

(٣) هو : أوس بن حجر بن مالك التميمي من فحول الشعراء الجاهليين توفي نحو ٦٢٠م (الأعلام ج ١ ص٣٧٤) .

(٤) أوس بن حجر : ديوانه ص١١٧ تحقيق الدكتور / محمد نجم طبعة دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠م .

(٥) ديوان زهير : ص٤ ، والدراج والمتثلم : موضعان ببلاد الحجاز .

(٦) المعارضة في شعر شوقي ص١٠ ومابعدها .

يغذى موهبته الأدبية ، وينمى مقدرتها ، حتى يتكامل نموها ، ويتم نضجهـا وجانب هذه الفائدة الشخصية التى يحققها لنفسه ، كان يحفظ هذه الآثـار ويصونها من الضياع ، ويعمل على نشرها ، وإذاعتها بمداومة مدارستها وتكرارها ومن ثم نشأت السلاسل الشعرية فى كثير من القبائل مثل : سلسلة أوس بن حجر الذى كان زوجا لأم زهير بن أبى سلمى ، فنشأ هذا راوية لأوس ، وعن زهـير أخذ ابنه كعب..(١)

وقد تتأتى الاستعانة - أيضا - إذا مرت بالشاعر تجربة جديدة ، وأراد التعبير عنها ، فيلجأ إلى شاعر سابق ، مرت به التجربة نفسها ، فيستعـين به فى نظم قصيدة يبثها تجربته ، ولكنه يستعير من سابقه ما يحتاج إليـه فى المنهج ، أو فى الأفكار والأخيلة ولعل أقرب مثال يوضح ذلك سينية شوقـى(٢) التى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسـى ❊ اذكرا لى الصبا وأيام أنسـى(٣)

إذ عارض بها سينية البحترى(٤)، التى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسـى ❊ وترفعت عن جدا كل جبس(٥)

فإذا قرأت القصيدتين ، رأيت استعانة شوقى واضحة لائحة ، على الرغم من أن بعض الكتاب يزعم أن الذى دفع شوقى إلى تلك المعارضة هو الإعجاب ، فيقول : (٦) ولم تقتصر (المعارضات) أو التقليد الذى كان مبعثه الإعجاب على الشعراء الضعفاء أو الشعراء المتوسطين ، بل تجاوزهم إلى المشهورين بيـن الناس بالقوة والفحولة والقدرة على الإبداع ، وشمل القديم كما شمل الحديث ،

---

(١) الدكتور على الجندى : تاريخ الأدب الجاهلى جـ ١ ص١٦٨ الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٩م .

(٢) سيأتى التعريف به فى الفصل الأول من الباب الخامس من هذه الرسالة .

(٣) أحمد شوقى ديوانه الشوقيات جـ ٢ ص٥٤ ، المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٤٨ .

(٤) هو : أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر عباسى معروف توفى سنة ٢٨٤ هـ (الأعلام جـ ٩ ص١٤١) .

(٥) ديوانه جـ ١ ص١٠٨ مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ - جدا : (بفتح أوله) : عطاء . جبس : (بكسر فسكون) لئيم . (٦) السرقات الأدبية ص١٠٣

فشوقى ومنزلته بين (المعاصرين) من الشعراء معروفة ، يرجع إلى العصر العباسى فيقرأ سينية البحترى المشهورة ... فيصوغ على وزنها ورويها أندلسيته ... ".

ومهما يكن من شئ ، فإننى أرجح أن الباعث على تلك المعارضة عند شوقى هو : الاستعانة ، وليس الإعجاب ، ولعل مما يؤكد ذلك قول شوقى يصف حاله عند نظمه سينيته ، وهو فى بلاد الأندلس :

" فهلفت النفس بمرآه الأريب ، واكتحلت العين فى ثراه بآثار العرب .. وكان البحترى — رحمة الله — رفيقى فى هذا الترحال ، وسميرى فى الرحال ، والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من حلى الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخير ، وحشر العبر ، ومن قام فى مأتم على الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغُرر .. وكنت كلما وقفت بحجر ، أو أطفت بأثر ، تمثلت بأبياتها — يقصد سينية البحترى — واسترحت من مواثل العبر إلى أبياتها ، وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحترى إيوان كسرى ... وشفتنى القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروى ، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الريضة ، وأنا أعرضها على القراء ، راجيا أن سيلحظونها بعين الرضا ، ويسحبون على عيوبها ذيل الإغضاء .. [1] ". ولعل فى هذا التصريح ما يغنى عن أى توضيح .

د — التسلية :

أما التسلية فهى دافع من دوافع المعارضة أيضا ، ويوجد — غالبا — فى مساجلات شعرية تتمثل فى خطابات منظومة والرد عليها — أو فى ألغاز وحلِّها بالنظم كذلك ، ولعل أقرب مثال لذلك ما أشرت إليه سابقا من عتاب محمد بن عبد الملك لأبى تمام [2] .

وبعد : فهذه هى أهم دوافع المعارضة ، ذكرتها بعد أن تحدثت عن معنى المعارضة ونشأتها وانتشارها فى الأدب العربى ، وسوف أتحدث عن العصر الحديث وأهم معالمه فى الفصل الثانى إن شاء الله .

---

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ٥٢ وما بعدها .
(٢) انظر ص ٢٥٣ من هذه الرسالة .

الفصل الثاني

العصر الحديث وأهم معالمه

١ – بدء العصر الحديث :

اختلفت الآراء في بدء العصر الحديث ، فقيل : يبدأ العصر الحديث بدخول الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨ [١] ، وقيل : بحكم محمد علي مصر سنة ١٨٠٥ [٢] ، إذ في ذلك الحدث دلالة قوية على إرادة الشعب القومية التي اختارت حاكمها بنفسها ، وقيل : بالثورة العرابية سنة ١٨٨٢ [٣] ، لأن تلك الثورة تدل على نمو الشعور القومي عند المصريين مما أدى إلى تمردهم على حكامهم المستبدين وعلى النفوذ الأجنبي .

ويبدو أن الرأي الأول هو الراجح ، لأن الحملة الفرنسية كانت سببا – ولو غير مباشر – في تولية محمد علي حكم مصر – لأنه جاء إلى مصر مع فرقة من الجيش العثماني للوقوف في وجه الحملة الفرنسية [٤] – وبالتالي كانت سببا في حكم أولاده مصر من بعده ، ولما استبدوا في حكمهم ، ومالوا إلى الأجانب الذين تغلغل نفوذهم في البلاد كانت الثورة العرابية .

وإذا كان هذا الرأي له ما يبرر قبوله ، فإن بعض الكتاب يرفضه قائلا : كيف نؤرخ بدء العصر الحديث لبلادنا بحادث احتلال مهما كانت نتائجه ؟ [٥]

---

(١) الدكتور / شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ص١٣ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ ، والدكتور / حامد حفني داود : تاريخ الأدب الحديث ص٦ وما بعدها ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٦٧ ، ومحمد عبد الرحيم مصطفى: تاريخ مصر الحديث ص ٧٢ وما بعدها المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦م .

(٢) الدكتور سليمان الأغاني : الأدب المعاصر في العالم العربي ص١٩ ، مطبعة الكتاب الحديث (غير مؤرخ). ومحمد علي كان ضابطا ألبانيا توفي سنة ١٨٤٩ (تاريخ مصر الحديث ص ١٧٥) .

(٣) الدكتور محمد خفاجي / محاضرة في الأدب الحديث والأدب المعاصر (١٩٧٤) لطلاب الدراسات العليا بكلية اللغة العربية .

(٤) تاريخ مصر الحديث ص ١١١ .

(٥) الدكتور محمد خفاجي محاضرة في الأدب الحديث والأدب المعاصر (١٩٧٤) .

وهذا القول وجيه ولكنه يحتاج إلى مراجعة من صاحبه ، إذ لا شك في أن الحملة الفرنسية كانت حملة استعمارية ، إلا أنها كانت سببا في اتصال المصريين بالحضارة الغربية الحديثة ، لأنها حطمت أسوار العزلة التي فرضها العثمانيون على مصر ، كما أنها كانت سببا في إذكاء الشعور القومي لدى المصريين ، وإحساسهم العميق بحقوقهم المشروعة في حكم بلادهم بالإضافة إلى أنها لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافي بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا [(١)].

ولعل هذه الأسباب هي التي جعلت كثيرا من الكتاب يميلون إلى ذلك الرأي ، ومن بينهم الدكتور الشرباصي [(٢)] ، الذي يقول : " إذا كانت الحكمة الشائعة تقول : " رُبَّ ضارةٍ نافعة " وكانت الحملة الفرنسية في مظهرها وجانبها السياسي والعسكري عملا عدوانيا لا يليق بكرامة مصر ولا حريتها ، فقد كان بجوار الحملة العسكرية حملة علمية ، عمادها مجموعة من العلماء الفرنسيين البارزين والمختصين في العلوم الحديثة ، فعاونت هذه الحملة على إمداد النهضة القائمة في مصر بمزيد من الوقود تزيد به طريقها تألقا ووضوحا .. [(٣)] ".

---

(١) الدكتور شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث ص ١١ ، ص ١٥ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

(٢) هو الدكتور أحمد الشربيني جمعة الشرباصي ، ولد بالهجلات - إحدى قرى محافظة الدقهلية - في سنة ١٩١٨ ، ودخل الأزهر الشريف وظل به حتى نال شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣ ، وكان ترتيبه الأول ، ثم نال شهادة الماجستير سنة ١٩٦٣ ، ثم الدكتوراه سنة ١٩٦٧ ، وهو الآن أستاذ الأدب العربي والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ولقد شرفت هذه الرسالة بإشراف سيادته عليها ، كما شرف الباحث بالتلمذة على سيادته قبل الرسالة ، وانتفع بكثير من آرائه ، جزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء .

(٣) الدكتور الشرباصي : رشيد رضا صاحب المنار ص ١٧ - مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

٢ — أهم معالم العصر الحديث :

أ — أهم المعالم السياسية :

منذ أن استولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ تقريبا وهى مكبلة في أغلال الجهل ، وفى عزلة — شبه تامة — عن العالم ، مما أدى إلى الجمود والتأخر فى جميع نواحى الحياة ، التى أضحت خامدة جامدة بغير تقدم ينشر، أو نهوض يذكر ، وساعد على ذلك تنازع المماليك على الحكم ومحاولة بعضهم الاستقلال بالبلاد ، فاستحالت مصر كرة فى أيديهم [1] .

وعندما تطلع الفرنسيون إلى توسيع امبراطوريتهم وامتدادها إلى الشرق كانت حملتهم على مصر سنة ١٧٩٨ ، وعلى الرغم من هدفها الاستعمارى إلا أنها كانت سببا فى تمزيق قناع الجمود الذى عزل مصر عن الحياة الأوربية الحديثة — كما سبق —

ولقد دخل الفرنسيون مصر — بعد كفاح مرير — وحاولوا كسب مودة المصريين ، الذين فهموا أساليبهم الاستعمارية ، فقاوموهم مقاومة شديدة زلزلت أقدامهم وخاصة عندما ظهرت شراسة بعض رجال الحملة ، واستهانتهم بالشعب المصرى ، واستهانتهم تقاليده ، وانتهاكهم حرماته ومقدساته ، ولما لم يطب للفرنسيين مقام فى مصر عادوا إلى بلادهم سنة ١٨٠١ ، بعد ثلاث سنوات كلفتهم الكثير [2] .

ولقد عادت مصر — بعد خروج الحملة الفرنسية — إلى نفوذ العثمانيين ، فتصارع الإنجليز — الذين فطنوا لأهميتها — والمماليك على حكمها ، وخشى زعماء الشعب عاقبة هذا الصراع فسارعوا بزعامة السيد عمر مكرم [3] إلى مبايعة

---

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٣) هو : عمر مكرم بن حسين السيوطى — زعيم شعبى مصرى توفى سنة ١٨٢٢ (الأعلام ج ٥ ص ٢٢٩) .

محمد على واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، بعدما وعدهم أن لا يقضى أمرا بغير مشورتهم [١] ، ولعل ذلك كان أول مرة ، فى تاريخ المصريين - يحكم بلادهم حاكم باختيارهم ، ويبدو أنهم أخطأوا فى اختيار أجنبى عن البلاد ، وكان الأولى بهم أن يختاروا مصريا منهم ، ولعل الذى دفعهم إلى ذلك الاختيار خشيتهم الانقسام فيما بينهم ، بالإضافة إلى أنهم أحسنوا الظن بمحمد على بعدما تودد إليهم ، وأظهر حرصه على مصلحة المصريين ، ولذلك وقفوا إلى جانبه حتى ثبتت قدمه فى الحكم، وخاصة عندما جاءت حملة إنجليزية لاحتلال البلاد سنة ١٨٠٧ ، فوقفوا جميعا أمام هذا المحتل البغيض صفا واحدا ، واستطاعوا هزيمته هزيمة منكرة [٢] .

ولم يقدر محمد على تلك الوقفة التى رفعت رأسه ، وثبتت قدمه ، بل قَلَّم أظفار تلك اليد التى أحسنت إليه ، وذلك بنفى السيد عمر مكرم إلى دمياط سنة ١٨٠٩ [٣] ثم تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١ [٤] .

ولقد كان ما فعله محمد على تمهيدا لتحقيق أحلامه ، وتوسيع نفوذه ، فاستبد بالحكم ، وأنشأ جيشا قويا ، كما أنشأ بعض المدارس التى تخدم الجيش [٥] وأرسل البعثات إلى فرنسا [٦] ، كل ذلك من أجل الجيش الذى وجهه سنة ١٨١١ إلى شبه الجزيرة العربية [٧] ، ثم إلى السودان سنة ١٨٢٠ [٨] وأخيرا إلى الشام سنة ١٨٣١ [٩] ، فى حروب تخدم أطماعه .

وعندما رأت الدول الأوربية انتصارات محمد على ، وفطنت لأطماعه ، عملت على الحد من نفوذه ، فكانت معاهدة سنة ١٨٤٠ [١٠] التى وضعت حدا لأطماعه

---

(١) تاريخ مصر الحديث ص ١١٥ ، عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٣٥ ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ .
(٢) عصر محمد على ص ٥٤ ومابعدها .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١١١ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق ص ٤٦٥ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق ، ٤٧٦ .
(٧) المرجع السابق ص ١٢٣ ومابعدها .
(٨) المرجع السابق ص ١٦٧ ومابعدها .
(٩) المرجع السابق ص ١٤٤ ومابعدها .
(١٠) المرجع السابق ص ٣٢٤ وما بعدها .

وأضعفت قوته ، ولم يمكث بعد ذلك طويلا حتى توفى ، فتولى الحكم بعده عباس الأول سنة ١٨٤٨ (١) .

كان عباس الأول يحب الأتراك ، ولذلك أحاط نفسه بأنظمة تركية ، وأكثر من الخدم والحشم ، كما كان يكره الأجانب لأنه رأى موقفهم من جده - محمد على - ووقوفهم أمام تحقيق مآربه ، بخلاف (سعيد (٢)) - الذى تولى الحكم بعده سنة ١٨٥٤ - إذ كان يميل إلى الأجانب، ولعل ذلك يرجع إلى رغبته فى إصلاح حال البلاد على أيديهم ، ولذلك منحهم كثيرا من الامتيازات مثل امتياز شق قناة السويس ، ولكنهم تدخلوا فى شئون البلاد بطرق مختلفة ، وبخاصة بعد أن استدان منهم (٣) ، ولقد زاد تدخلهم عندما تولى (إسماعيل (٤)) زمام الحكم بعد (سعيد) سنة ١٨٦٣ ، إذ كان عاقد العزم على رفع شأن مصر وجعلها قطعة من أوربا ، فأنفق الكثير من المال فى بعض المشروعات ، أضف إلى ذلك ما دفعه إلى السلطان العثمانى مقابل الحصول على لقب (العزيز) الذى ضن به السلطان عليه ، ولقبه بلقب الخديوى كما أصدر له فرمانا بجعل الوراثة فى أكبر أبناء الوالى (٥) ، ولا شك فى أن هذه الأمور شخصية ولكن الشعب هو الذى تحمل عبأها ، فزادت الديون زيادة كبيرة ، وارتفعت فوائدها ، وتدخل أصحاب الديون فى سياسة الدولة ، وزاد الطين بلة أن إسماعيل طلب من الإنجليز خبيرا فى الشئون المالية ، فكان ذلك إذنا صريحا بالتدخل فى شئون مصر سنة ١٨٧٦ .

ولم تلبث فرنسا أن اشتركت فى التدخل بحجة حماية ديون الفرنسيين ، وانتهى الأمر باشتراك وزيرين : أحدهما فرنسى ، والآخر إنجليزى فى الوزارة المصرية (٦) ، مما

---

(١) هو : عباس بن طوسون بن محمد على ، حكم مصر بعد وفاة جده إلى أن توفى سنة ١٨٥٤ . (تاريخ مصر الحديث ص١٧٦ وما بعدها) .

(٢) هو : محمد سعيد بن محمد على ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٢٢ وتوفى سنة ١٨٦٣ (الأعلام جـ ٧ ص٤) .

(٣) تاريخ مصر الحديث ص١٨٩ .

(٤) هو : إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على ولد سنة ١٨٣٠ ، حكم مصر سنة ١٨٦٣ وعزل سنة ١٨٧٩ ، وتوفى سنة : ١٨٩٥ (الأعلام جـ ١ ص٣٠٢) .

(٥) تاريخ مصر الحديث ص١٩٧ وما بعدها .

(٦) المرجع السابق ص٢٤٣ .

دفع الشعب المصرى إلى الاستياء من هذه التصرفات ، وخاصة أن جمال الدين الأفغانى [1] قد أتى إلى مصر فى تلك الآونة ، وقام بتوضيح مساوىء الاستعمار وكشف أساليبه ، مما جعل الشعب يطالب بعزل إسماعيل ، وتحقق ذلك فعلاً سنة ١٨٧٩ [2] ، وتولى الحكم بعده ابنه (توفيق [3]) .

ولقد كان الشعب يؤمل الخير فى توفيق ، لأنه كان يميل — وهو ولى العهد — إلى الأخذ بنظام الشورى ، كما كان ناقما على سياسة أبيه وإسرافه ولكنه بعدما تولى الحكم — تنكر لمبادئه ، وأساء إلى أصحاب الرأى الذين كان يجلس معهم ، ومن بينهم جمال الدين الأفغانى ، بل لقد عامله معاملة سيئة انتهت بخروجه من مصر [4] ، كما خاصم الحكم النيابى ، وحكم البلاد حكما مطلقا [5] .

واستاء كبار رجال مصر من هذه التصرفات ، وخاصة من كان منهم فى الجيش ، إذ كان ظلمه على الجيش أشد ، وإجحافه بحقوقه أكبر ، فكانت ثورة الجيش سنة ١٨٨١ بقيادة عرابى [6] ، ولما بلغت الثورة أشدها تظاهر توفيق بتلبية بعض مطالبها ، ومنها تغيير الوزارة ، وعندما فشلت الوزارة الجديدة فى إصلاح حال البلاد ، طالب الجيش بعزل توفيق ، فنهضت دول الاستعمار — التى كانت تتربص بمصر الدوائر — لحماية توفيق — كما زعمت — وأرسلت جيوشها سنة ١٨٨٢ ، فقابلها الجيش المصرى بقيادة عرابى ، ولكنه هزم فأخفقت الثورة ، وقبض على زعمائها ، ونفوا خارج البلاد [7] .

---

(١) هو : جمال الدين الأفغانى فيلسوف مصلح .. ، ركز حياته لإصلاح حال المسلمين فى الشرق .. وتوفى سنة ١٨٩٧ (الأعلام جـ ٧ ص ٣٧) .

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٧ .

(٣) هو : محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم ولد سنة ١٨٥٢ وتوفى سنة ١٨٩٢ ، (الأعلام جـ ٦ ص ٢٦٠) .

(٤) تاريخ مصر الحديث ص ٢٥٤ . (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٦) هو : أحمد عرابى بن محمد عرابى مناضل مصرى ولد سنة ١٨٤١ وتوفى سنة ١٩١١ (الأعلام جـ ١ ص ١٦١) .

(٧) تاريخ مصر الحديث ص ٢٧٥ .

عملت انجلترا - منذ دخولها مصر - على إحباط كل ثورة ، فألغت الدستور ومجلس النواب ، وأنشأت جيشا هزيلا يرأسه بعض الضباط الإنجليز ، وأسندت المناصب العالية - فى الدولة - إلى البريطانيين [١] .

ولم يسكت المصريون على هذا الظلم ، بل ظلوا يقاومون الاحتلال بشتى الطرق ، إلى أن حكم البلاد - بعد موت توفيق - عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢ [٢] .

وفى هذا الوقت ظهر مصطفى كامل [٣] ، الذى أنشأ الحزب الوطنى ، وأخذ يندد بسياسة الاستعمار فى كل مكان ، كما طالب بحقوق مصر فى الحرية والاستقلال ، وظل يكافح من أجل بلاده ، حتى وافته منيته فحمل راية الجهاد من بعده محمد فريد [٤] ، الذى طالب بالدستور وندد بالاحتلال حتى اضطر إلى الخروج من مصر سنة ١٩١٢ ، فواصل كفاحه خارج مصر حتى صعدت روحه إلى بارئها ، بعيدا عن أهله ووطنه .

أما عباس حلمى الثانى ، فقد وقف أول الأمر مع المناضلين الأحرار يشجعهم على نضالهم ضد الاحتلال ، ولكنه خشى بطش الإنجليز ، فتقرب إليهم ، وأكد ولاءه لهم [٥] ، ولم تلبث الحرب العالمية الأولى أن قامت سنة ١٩١٤ فعزلت انجلترا الخديوى عباسا ، وعينت بدله (السلطان حسين كامل [٦]) وأعطت انجلترا وعدا للمصريين بإعطائهم الاستقلال مقابل مساعدتها فى تلك الحرب ، ولكن ظهر كذبها عندما انتهت الحرب ولم تف بوعدها ، فثار الشعب المصرى ثورة عارمة بقيادة سعد زغلول [٧] سنة ١٩١٩ ، إلا أن قوات الاحتلال قبضت عليه ، ثم نفته ، ثم اضطرت إلى الإفراج عنه بسبب المظاهرات الشعبية [٨]

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩ . (٢) هو عباس حلمى بن توفيق بن إسماعيل ولد سنة ١٨٧٤ ، وتوفى سنة ١٩٤٤ (الأعلام جـ ٤ ص ٣٣) .

(٣) هو : مصطفى كامل - مناضل مصرى ولد سنة ١٨٧٤ وتوفى سنة ١٩٠٨ (تاريخ مصر الحديث ص ٢٩٥) . (٤) هو محمد فريد بن أحمد فريد ، مناضل مصرى ولد سنة ١٨٦٨ وتوفى سنة ١٩١٩ (الأعلام جـ ٧ ص ٣٢٠) .

(٥) تاريخ مصر الحديث ص ٢٩١ . (٦) هو حسين كامل بن إسماعيل توفى سنة ١٩١٧ (المرجع السابق ص ٣٢٤) (٧) هو سعد بن إبراهيم زغلول مناضل مصرى توفى سنة ١٩٢٧ (الأعلام جـ ٣ ص ١٣١) (٨) تاريخ مصر الحديث ص ٣٣٤ ومابعدها .

وفى سنة ١٩٢٢ أعلن تصريح ٢٨ فبراير ، الذى أعلنت فيه انجلترا إلغاء حمايتها على مصر ، ولكنها احتفظت بحقها فى الدفاع عنها ومراعاة رعاياها الأجانب، وفى تلك الآونة أصبح السلطان أحمد فؤاد [1] ملكا على مصر ، وفى سنة ١٩٢٣ صدر الدستور ، وتعددت الأحزاب ولكنها اختلفت فيما بينها وخاصة سنة ١٩٢٤ ، والجدير بالذكر أن شوقى ندد بهذا الخلاف بقوله [2] :

إلام الخُلف بينكم إلاما ... وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما

ولقد ساءت أحوال البلاد وخاصة بعد وفاة الملك فؤاد ، وبعد إعلان الأحكام العرفية عندما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، ونجح العرب فى إنشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وأصبحت مصر عضوا فيها ، ولكن المحتلين قد ساءهم اتحاد العرب فعملوا على الكيد لهم ، فقامت حرب بين العرب واليهود سنة ١٩٤٨ وانهزم فيها الجيش المصرى لعدة أسباب من بينها فساد الأسلحة [3] ، ثم تكونت الكتائب الفدائية لتخليص البلاد من قوات الاحتلال الإنجليزى ، وفى سنة ١٩٥٢ قامت الثورة المصرية فقضت على الملكية وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٤ ، وتم جلاء الإنجليز سنة ١٩٥٦ [4] ، ولم تتم فرحة الاحتفال بعيد الجلاء حتى شنت كل من فرنسا وانجلترا وإسرائيل عدوانا غادرا على مصر ، فوقف الشعب وقفة واحدة مع الجيش ، كما وقفت معهما بعض الدول الكبرى ، فانهزم الأعداء ورجعوا مدحورين إلى بلادهم [5] .

وفى سنة ١٩٥٨ قامت الوحدة بين مصر وسوريا ، إلا أن الدول الاستعمارية لم يهدأ بالها حتى نجح الانفصال سنة ١٩٦١ [6] . ولم تقف مؤامراتها عند ذلك الحد ، بل ساندت إسرائيل فى عدوانها الغادر على مصر سنة ١٩٦٧

---

(١) هو أحمد فؤاد بن إسماعيل توفى سنة ١٩٣٦ (المرجع السابق ص ٣٤٠) .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ١٧٨ .
(٣) الدكتور : سعيد عاشور : ثورة شعب ص ١٣٣ وما بعدها ، دار النهضة العربية بمصر سنة ١٩٦٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٩٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٢٥ ومابعدها .
(٦) المرجع السابق ص ٢٢٨ ومابعدها .

واستولت على بعض أجزاء من الأرض العربية ، فقررت مصر إعادة بناء جيشها لتحرير الأرض ،ثم حقق الله النصر للجيش المصرى عندما عبرت قواته قناة السويس فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ (١٩٧٣) وألحقت بالإسرائيليين هزيمة لن يُمحى أثرها ، ووقف العرب بجانب إخوانهم المصريين وقفة رائعة بفضل الله ثم بفضل الرئيس / محمد أنور السادات ، الذى أرجو من الله أن يوفقه فى مواصلة جهوده حتى تتحرر بقية الأرض العربية ، ويعود بيت المقدس الطاهر إلى المسلمين حرما آمنا - إن شاء الله.

ب - أهم المعالم الاقتصادية :

عندما تولى محمد على حكم مصر اهتم بالزراعة ، فأنشا القناطر والجسور وشق الترع[1]،كما اهتم بالصناعة فأقام بعض المصانع[2]، ويبدو أن هذا الاهتمام لم يكن من أجل مصر والمصريين ، بل من أجل نفسه ، إذ حسب أن مصر ضيعة كبيرة آلت إليه ، وأن من حقه أن يمتص كل قطرة من خيراتها لتحقيق مآربه ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه بعد معاهدة لندن - السابقة الذكر[3]- أغلق محمد على أبواب كثير من المصانع التى كانت تمد الجيش بمصنوعاتها[4]، إذ عندما نقص عدد الجيش بموجب تلك المعاهدة نقصت حاجاته الصناعية - فبدلا من أن يفكر فى توجيه الصناعة توجيها جديدا أنزل بها هذه الضربة القاصمة، فقضى على ما كان يُنتظر لمصر من نهضة صناعية ، وأعادها بلدا زراعيا يعتمد على الزراعة فى حياته الاقتصادية ، ولم تكن الزراعة أحسن حالا من الصناعة إذ احتكر الأرض الزراعية،والمحصولات الزراعية أيضا[5].

ولم تكن سلالة محمد على خيرا منه ، إذ نظروا إلى مصر على أنها بقرة حلوبة ورثوها عن أبيهم وجدّهم ، فأسرفوا فى استغلالها ، وتسخير أهلها ، بالإضافة إلى الضرائب الباهظة التى فرضوها عليهم ، وزاد الطين بلة

---

(١) عصر محمد على ص٥٧٢ ومابعدها.
(٢) المرجع السابق ص٥٨٦ ومابعدها.
(٣) انظر ص٢٦٤ من هذه الرسالة.
(٤) تاريخ مصر الحديث ص١٧٤.
(٥) عصر محمد على ص٦٣٠ ومابعدها.

فتشجيعهم الأجانب على الهجرة إلى مصر واستثمار أموالهم فيها ، واستغلال المصريين استغلالا كبيرا [1].

ولا يغرنك أن سعيدا أباح تملك الأرض الزراعية — على عكس أبيه — لأن هذا التملك لا يساوى شيئا بالنسبة إلى ما منحه هو وإسماعيل — من بعده — للأجانب والمقربين إليهما من إقطاعات كبيرة ، كانت أساس الإقطاع فى ديارنا ، وكانت السبب فى المساوىء الاقتصادية الكبيرة التى نزلت بالبلاد [2].

وكان ذلك كله سببا فى نكسة الزراعة والصناعة فى مصر ، كما كانت نكسة التجارة أدهى وأمر ، لأن قيود الاحتكار التى طوقها بها محمد على أخذت تنفك عنها قيدا قيدا ، حتى إذا كان عصر عباس الأول انفكت جميعها انفكاكا تاما تحولت على أثره مصر إلى كلأ مباح لا للمتاجر الأجنبية فحسب ، بل للأجانب أنفسهم ولشرادمهم الذين قذف بهم الغرب إلى بلادنا ، فملأوها بالمشارب والملاهى ، وأخذوا ينشرون حوانيت التجارة جالبين إليها مصنوعات بلادهم ، وسرعان ما أمسكت رؤوس أموالهم بخناق الاقتصاد المصرى ، بما افتتحوه من مصارف ومن بيوت الاستيراد والتصدير والشركات المختلفة [3].

ولقد تضخم عدد الأجانب بمرور الزمن — حتى غدوا كأنهم جيش أجنبى يحتل البلاد ، وهو جيش مدنى ، ومن ثم كانت خطورته أشد ، إذ أخذ يتغلغل فى البلاد متحكما فى مرافقها المختلفة ، مسيطرا على ثروتها القومية ، وزاد الأمر سوءا عندما أعطتهم الأسرة العلوية حق امتلاك الأرض الزراعية ، فتوطدت أقدامهم فى هذا الوطن المصرى ، وأخذوا يعملون — بكل ما يملكون — على نهب ثرواته واستغلال أهله ، حتى انتشر الربا وارتفعت فائدته ، أضف إلى ذلك أن الحكام أنفسهم كانوا قد استدانوا الكثير ، فأصبح الاقتصاد المصرى اقتصادا سيئا [4].

---

(١) ثورة شعب ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) ثورة شعب ص ٢٧ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها .

وعندما ظهر بعض الوطنيين الذين استنكروا هذه المفاسد ، قاموا ببعض الثورات للوقوف أمامها ، وأخذوا محاربتها ، بإنشاء بعض المصانع الوطنية والمشروعات التى تعود فائدتها على الشعب المصرى ، ومن ذلك إنشاء بنك مصر [1] وتأسيس شركة مصر للطيران ، وشركة الملاحة النيلية ، وشركة مصر للملاحة البحرية [2] كما فرضت الضرائب الجمركية على المصنوعات الواردة من الخارج التى توجد مثلها صناعة مصرية ، وذلك بهدف تشجيع الصناعة المصرية ، وأنشئت لذلك مصلحة التجارة والصناعة ، كما أدخلت التحسينات على السكك الحديدية ، ومهدت بعض الطرق [3] .

فى سنة ١٩٣٠ وقعت أزمة اقتصادية طاحنة إذ هبطت أسعار القطن هبوطا كبيرا [4] ، مما أدى إلى هبوط أسعار بقية المحاصيل الزراعية ، فاشتدت الضائقة المالية بالمزارعين ، ولم يستطيعوا الوفاء بما عليهم من التزامات وخاصة إيجارات الأرض ، مما أوقعهم فى الديون ، وهدد ثروة البلاد تهديدا خطيرا ، فكان ذلك سببا فى إنشاء (بنك التسليف الزراعى المصرى) سنة ١٩٣١ لمعاونة الفلاح بمده بالسلف القصيرة الأجل بأرباح قليلة وتقديم ما يحتاج إليه من بذور وسماد وغير ذلك من ضروب المساعدة ، كما أنشىء (بنك التسليف العقارى) سنة ١٩٣٢ للسلف الطويلة الأجل [5] .

وبفضل مجهود الشباب الناهض ، وجدت بعض الصناعات ، وأنشئت بعض المصانع بقروش جمعت من أفراد الأمة فى الحركة المعروفة (بمشروع القرش) [6] وكان كل ذلك سببا فى إنعاش الحالة الاقتصادية فى البلاد بعض الشىء .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على النهوض بالصناعة ، فأنشأت الكثير من المصانع المختلفة فى أنحاء البلاد [7] ، كما أصدرت قوانين كثيرة للنهوض

---

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٣٥٢ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥١ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٥٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٥٠ .
(٦) المرجع السابق ص ٣٥١ .
(٧) ثورة شعب ص ٢٥٣ و ص ٢٥٧ .

بالزراعة ، ومنها قانون الإصلاح الزراعى ، وأصلحت كثيرا من الأرض وقضت على الإقطاع ، كما قامت ببعض المشروعات التى تفيد الزراعة والصناعة وتزيد الدخل القومى مثل مشروع السد العالى ، بالإضافة إلى تأميم قناة السويس ، (وتمصير) البنوك والشركات الأجنبية ، ولا شك فى أن كل هذا قد ساعد على النهوض بالاقتصاد المصرى (١).

ولقد منيت مصر بعدة حروب كلفتها الكثير ، مما كان سببا فى وجود بعض الأزمات الاقتصادية ، والأمل معقود على النهوض بالاقتصاد المصرى فى أقرب وقت إن شاء الله.

جـ - أهم المعالم الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى يتكون - غالبا - من طبقتين (٢) :

الطبقة الأولى :

وتتكون من: الحكام وأبنائهم ومعظمهم من الشراكسة والأتراك - بالإضافة إلى حاشيتهم من أصحاب الجاه والنفوذ والثراء العريض وهؤلاء على الرغم من قلة عددهم ملكوا كل شيء ، وكانوا يعيشون عيشة ترف وإسراف .

والطبقة الثانية :

وتتكون من : العلماء والفلاحين والتجار وسواد الشعب ، فأما العلماء: فكان لهم مقام كبير ، ونفوذ عظيم ، وكان الشعب يلجأ إليهم إذا وقع عليه ظلم من الحكام ، فكانوا يعملون على تخفيفه ، إن لم يستطيعوا منعه ، إلا أن هذا النفوذ قد ضعف وخاصة بعد نفى السيد عمر مكرم - كما سبق (٣).

وأما التجار : فقد ساءت أحوالهم بسبب احتكار الحكومة التجارة ، وأصبحت فائدتها تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الإفرنج (٤).

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٧ وما بعدها .
(٢) عصر محمد على ص ٦٣٩ .
(٣) انظر ص ٢٦٤ من هذه الرسالة . وعصر محمد على ص ٦٤٥ .
(٤) عصر محمد على ص ٦٤٧ .

وأما الفلاحون : فكانت حياتهم تدعو إلى الألم والإشفاق ، إذ حرموا حق تملك الأرض كما فرضت عليهم الضرائب الباهظة[1] ، ولعل خير ما يشير إلى حالهم .. قول الشيخ محمد عبده[2] :

" كان أهالي بلادنا - الفلاحون - محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأرض متنوعة متكررة ، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهي عند غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل كان ذلك على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته غير المرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها في أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ولا محيص لهم عن الأداء ، فإن من تأخر عنه عوجل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهرا ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة[3] "

فكان الفلاح من جراء هذه القسوة ، إما أن يلجأ إلى من يقرضه بالربا الفاحش ، وذلك إذا آثر أن يحتفظ بأرضه - وكان يعجز غالبا عن سداد ذلك القرض فتنزع منه أرضه - وإما أن يتركها وينجو ببدنه .

إن شعبا هذه حال جمهرة بنيه ، لا ينتظر له إلا الفقر والجهل والمرض والانحلال .

ومما يثير الأسى أن تجد غالب أبناء مصر يعانون في سبيل لقمة عيشهم ما يعانون من ظلم فادح ، وضرائب باهظة ، وتجد الأجانب يعيشون - في مصر - في رغد من العيش ، وترف من الحياة ، بل لقد حصلوا على امتيازات فرضها لهم العثمانيون ، وبذلك أصبحوا يتمتعون بما لم يتمتع به

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤٨ وما بعدها .
(٢) هو الشيخ / محمد عبده بن حسن خير الله ، تعلم بالأزهر ، ويعد رائد الإصلاح الديني والاجتماعي في العصر الحديث ، توفي سنة ١٩٠٥ (الأعلام جـ٧ ص ١٣)
(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ ص ٧٤ - مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤ هـ .

أصحاب البلاد أنفسهم ، بل فاقوهم فى أشياء كثيرة ، واكتسبوا مميزات جديدة ، فهم مثلا لا يخضعون لنظام القضاء المصرى ، وإنما تنظر قضاياهم فى محاكم قنصلية ، حتى لو كانت تلك القضايا ضدهم [1] .

ولقد ترتب على ذلك ضياع حقوق المصريين ، بغير مبالاة ، واستشرى الفساد ، وانتشر الانحلال فى البلاد ، فألفت بعض الجمعيات - مثل الجمعية الخيرية الإسلامية - التى وضعت نصب عينيها الاهتمام بتنظيم الإحسان ، والثورة الشديدة على نفوذ الأجانب والامتيازات التى حصلوا عليها [2] .

وقام بعض المصلحين بمعالجة بعض المشاكل - مثل تخلف المرأة - ومنهم رفاعة الطهطاوى [3] ، الذى دعا إلى نهضة المرأة ، وإلى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ، وألف كتابا فى ذلك سماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) ثم جاء - بعده - قاسم أمين [4] ، فأكد حقهن فى التعليم ، ولكنه شجعهن على التحرر من الحجاب ودعا إلى تمكينهن من المشاركة فى الوظائف والأعمال العامة ، وألف من أجل ذلك كتابيه : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، ولقد أثار ظهور هذين الكتابين ضجة شديدة فى ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد فى الصحف مدة نصف قرن [5] ، كما قام بعض الكتاب بالرد على قاسم أمين [6] ، وقام بعض الشعراء بنظم قصائد يعلنون فيها رفضهم وسخطهم على تلك الفكرة ، ومنهم الشيخ محمد عبد المطلب [7] الذى يقول ناعيا على النساء تقصير الثياب والتبرج [8] :

---

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٢) فى الأدب الحديث ج ١ ص ٥٨ .
(٣) هو رفاعة بن بدوى بن على الطهطاوى ، أحد رواد النهضة الفكرية فى العصر الحديث توفى سنة ١٨٧٣ (الأعلام ج ٣ ص ٥٥) .
(٤) قاسم أمين ، كاتب باحث عرف بمحرر المرأة توفى سنة ١٩٠٨ (المرجع السابق ج ٦ ص ١٩) .
(٥) الدكتور / محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ١ ص ٢٧٢ وما بعدها ، مطبعة الآداب بمصر سنة ١٩٦٢ .
(٦) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ص ٨٣ وما بعدها ، مطبعة الترقى بمصر سنة ١٨٩٩ .
(٧) انظر ص ٥٧٧ من هذه الرسالة .
(٨) محمد عبد المطلب : ديوانه ص ١٨٤ مطبعة الاعتماد بمصر (غير مؤرخ) .

ما في بنات النيل من .. أرب لذي غرض نبيل
أصبحن عابا في الزمـا .. ن وسوأة في شر جيل
نكر العفاف ذيولهـا .. ومن الخنا قصر الذيول

إلا أن بعض الشعراء كان مترددا ، فأحيانا يؤيد الحجاب وأحيانـا يعارضه ، ومنهم شوقي الذي أعجب بفكرة قاسم أمين ، فقال قصيدة طويلة ومنها [1] :

مصر تجدد مجدهـا .. بنسائها المتجددات
النافرات من الجمـو .. د كأنه شبح الممـات

ثم رجع فأيد الحجاب بقوله [2] :

صداح يا ملك الكنـا .. ر ويا أمير البلبـل
... بالرغم مني ما تمـا .. لج في النحاس المقفل
حرص عليك هوى ومن .. يحرز ثمينا يبخـل

ومهما يكن من شيء فلقد كان المجتمع يشكو عللا كثيرة ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ أهمها الجمود الديني والتعصب الطائفي ، والضغط المادي ، والانحراف الخلقي .. وشيوع البدع والخرافات واستغلال الدين عند أدعيائه [3] ، فقام كثير من المصلحين بتشخيص هذه العلل ، ووصف العلاج لها ومنهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد رشيد رضا [4] وغيرهما .

كما أنشأت الحكومة بعض المستشفيات ، ودور رعاية الأطفال والملاجىء [5] وعندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على النهوض بالمجتمع المصري ، فأنشـأت كثيرا من المشروعات الصناعية التي قللت عدد العاطلين ، وأنشأت كثيرا من المستشفيات

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ١٠٤ .   (٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٩ والكنار : طائر حسن الصوت .   (٣) رشيد رضا صاحب المنار ص ٩٤ بتصرف .
(٤) هو : الشيخ محمد رشيد رضا من أكبر تلاميذ الشيخ : محمد عبـده توفي سنة ١٩٣٥ (المرجع السابق ص ٢١٢) .
(٥) تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٨ .

ومراكز رعاية الطفولة ، بالإضافة إلى وزارة الشئون الاجتماعية التى تمد يد العون والمساعدة للفقراء الذين عجزوا عن العمل ، كما أكثرت من إنشاء الملاجئ ودور الحضانة والجمعيات الخيرية ، ووضعت قانون المعاشات والتأمينات الاجتماعية ، وغير ذلك من القوانين الاجتماعية التى لا يخفى أثرها العظيم فى المجتمع المصرى[1] .

د - أهم المعالم الثقافية :

لم يكن فى مصر قبيل الحملة الفرنسية غير بعض الكتاتيب التى تعلم مبادئ القراءة والكتابة وتحفظ القرآن الكريم ، بالإضافة إلى الأزهر الشريف[2] الذى ظل على الرغم مما أحاط به من جمود وظلام - وبخاصة فى العصر العثمانى - منارة العلم ومنبع الفكر ، وملجأ الشعب من ظلم حكامه .

ولما أتت الحملة الفرنسية وجهت الأنظار إلى الثقافة الأوربية ، وذلك عن طريق بعض العلماء الذين كانوا فى ركاب الحملة ، كما أُنشئت مدرستان ، وجريدتان فرنسيتان وأخرى عربية وأقيمت بعض المكتبات التى جمعت كتبها من المساجد .

ولما تولى محمد على حكم مصر رأى أنه فى أشد الحاجة إلى جيش قوى يوطد به حكمه ، فأنشأ - من أجل ذلك - مدرسة حربية ومدرسة للطب ، وأخرى للصيدلة[3] واستعان ببعض الأساتذة الأجانب للتدريس فى هذه المدارس ، ولما كان هؤلاء الأساتذة لا يعرفون اللغة العربية والطلاب لا يعرفون اللغة الإنجليزية استعان ببعض المترجمين ، ثم أرسل عددا من البعثات إلى أوربا لكى يقوم أبناؤها فيما بعد بمطالب الجيش وليحلوا مكان الأساتذة الأجانب فى التدريس بالمدارس المصرية[4] .

---

(١) ثورة شعب ص ٢٨٢ وما بعدها .
(٢) تاريخ العرب الحديث ص ٤٥٠ .
(٣) عصر محمد على ص ٤٦٨ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص ٤٧٦ .

وعندما عاد هؤلاء المبعوثون - إلى مصر - كانوا أول صلة حقيقية بين مصر والثقافة الأوربية في العصر الحديث ، إذ ترجموا وألفوا الكثير من الكتب ، وعربوا كثيرا من المصطلحات الأجنبية ، وكان من أنشط المبعوثين رفاعة الطهطاوى ، الذى اقترح على محمد على أن ينشئ مدرسة الألسن[1] ، فوافق محمد على ، وأنشأها ، وعهد إليه بإدارتها ، وكانت هذه المدرسة تعنى بدراسة كثير من اللغات الأوربية وغيرها إلى جانب آداب اللغة العربية ، وبفضل تلامذتها ترجمت كثير من الكتب القيمة التى كانت سببا فى اتساع دائرة الثقافة المصرية ، كما ساعد على ذلك أيضا تلك المطابع التى ظهرت بعد المطبعة التى أنشأها محمد على سنة ١٨٢٢ ، ووجدت بعض الصحف وأهمها الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ .

وإذا كانت الناحية الثقافية - وخاصة العلمية - قد نهضت فى عهد محمد على ، فإنها لم تلبث أن توقفت فى عهد عباس الأول وسعيد ، إذ أغلق عباس المدارس بما فى ذلك مدرسة الألسن[2] ، كما استدعى أعضاء البعثات من الخارج ونفى رفاعة الطهطاوى إلى السودان ، وألغى الترجمة[3] ، ثم تلاه سعيد فألغى ديوان المدارس وأوقف مطبعة بولاق[4] .

ولما أتى إسماعيل ازدهرت الحياة الثقافية فى عهده ازدهارا كبيرا ، إذ اعاد البعثات ، وفتح المدارس التى أغلقها عباس وسعيد ، بل أنشأ الكثير من المدارس الابتدائية وغيرها ، كما أنشأ مدرسة دار العلوم ، ومدرسة للبنات سنة ١٨٧٣[5] ، وكان كل ذلك سببا فى انتشار الثقافة واتساع دائرتها ، وخاصة بعد إنشاء دار الكتب المصرية ، وزيادة المطابع ، التى كانت سببا فى كثرة الصحف الرسمية وغيرها مثل الجريدة العسكرية وأركان حرب الجيش وروضة المدارس ووادى النيل ونزهة الأفكار ، وأبو نظارة وغير ذلك من الصحف المصرية بالإضافة إلى بعض الصحف الشرقية التى كانت ترد إلى مصر كالجوائب[6] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥١٤ .
(٢) تاريخ مصر الحديث ص ١٧٩ .
(٣) عصر محمد على ص ٥١٦ .
(٤) تاريخ مصر الحديث ص ١٨٨ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٠٧ وما بعدها .
(٦) الأدب المعاصر فى العالم العربى ص ٣٨ .

ولعل مما ساعد على ازدهار الصحافة فى ذلك العهد ، هجرة عدد كبير من أهل الشام إلى مصر ، وكان من بينهم طائفة من الأدباء والصحفيين الذين ضموا جهودهم إلى جهود زملائهم المصريين ، فى نشر الوعى القومى بما كتبوه ، ونشروه ، وبما أصدروا من صحف مثل : الكواكب والأهرام ومصر وغيرها [1] .

ولقد تبع كثرة المطابع ازدياد الرغبة الأكيدة فى طلب المعرفة ، فظهرت حركة إحياء القديم مثل : الأغانى ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد ، وفوات الوفيات ، والبيان والتبيين وغيرها من أمهات الكتب العربية ، بالإضافة إلى ظهور كثير من المخطوطات التى قام بنشرها وتحقيقها بعض المستشرقين مثل : مقامات الحريرى المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، والمعلقات السبع وكليلة ودمنة ، وغيرها [2] .

أضف إلى ذلك تلك الجمعيات العلمية التى أُلفت فى ذلك العهد وكان لها أثر كبير فى زيادة الثقافة واتساعها مثل : جمعية المعارف ، وجمعية اتحاد الشبيبة العربية ، وكذلك الجمعية الجغرافية والجمعية الإسلامية .

ولا يخفى أن لجمال الدين الأفغانى أثرا كبيرا فى تحرير بعض العقول وتثقيفها ، إذ عندما وصل إلى مصر سنة ١٨٧١ التف حوله عدد كبير من المتعلمين مثل : محمد عبده وسعد زغلول وغيرهما ممن نهل من ورده ، واغترف من بحر علمه ، وواسع فكره [3] .

ولما دخل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، عملوا على إضعاف الثقافة فعرقلوا البعثات ، وأهملوا المعاهد والمدارس ، واقتصر التعليم على تخريج طائفة من الموظفين ، وفرضوا اللغة الإنجليزية على المتعلمين المصريين [4] ، بل حاربوا اللغة العربية هم وبعض المصريين الذين انسلخوا من عروبتهم ، كما ظهرت

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩ .
(٢) البارودى رائد الشعر الحديث ص ٤٢
(٣) المرجع السابق ص ٤١ وما بعدها .
(٤) ثورة شعب ص ٨١ .

بعض الدعوات الخبيثة التى تحارب الفصحى ، وتنادى باتخاذ العامية لغة للتأليف العلمى والأدبى [١] ، ولعل هذا هو الذى دفع بعض الشعراء للدفاع عن اللغة العربية ، ومنهم الشاعر حافظ إبراهيم [٢] ، الذى نظم قصيدة طويلة فى ذلك الشأن ومنها قوله : [٣]

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى
وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى
عقمت فلم أجزع لقول عداتى

ولقد حوربت بعض الصحف مثل : العروة الوثقى التى كان يصدرها محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى باريس ، ومنعت من دخول مصر ، كما ألغيت صحف أخرى كالوطن ، والزمان ، ومرآة الشرق ، وظل الحال هكذا حتى ظهر بعض الوطنيين مثل : مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، وقامت الأحزاب وأصبح لكل حزب صحيفة تعبر عن آرائه مثل : المؤيد واللواء والأستاذ والحرية [٤] ، بالإضافة إلى صحف ومجلات أخرى مثل : السياسة والسياسة الأسبوعية والهلال والمقتطف والرسالة ، ودعمت الجامعة الأهلية بعد ضمها إلى الحكومة سنة ١٩٢٥ [٥] ، وأسهم مبعوثوها - بقسط كبير - فى انتشار الثقافة ، كما ظهر جيل قد تأثر فى ثقافته بالثقافة الأوربية مثل : طه حسين [٦] والعقاد [٧] وهيكل [٨] وغيرهم .

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ص ٣٣٤ ومابعدها .
(٢) هو : محمد حافظ إبراهيم ، شاعر مصرى ، لقب بشاعر النيل توفى سنة ١٩٣٢ (الأعلام جـ ٦ ص ٣٠٤)
(٣) حافظ إبراهيم : ديوانه جـ ١ ص ٢٥٣ ضبط وتحقيق : أحمد أمين بالاشتراك مع غيره - مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧ .
(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٣٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٦) هو الدكتور : طه حسين ، عرف بعميد الأدب العربى توفى سنة ١٩٧٣ (المرجع السابق ص ٢٧٧) .
(٧) هو : عباس محمود العقاد ، كاتب وشاعر مصرى توفى سنة ١٩٦٤ (المرجع السابق ص ١٣٦) .
(٨) هو : الدكتور : محمد حسين هيكل أديب مصرى توفى سنة ١٩٥٦ (المرجع السابق ص ٢٧٠) .

ولقد وجدت بعض المدارس الأدبية مثل: مدرسة الديوان [١] وكان على رأسها العقاد والمازنى [٢] وشكرى [٣]، وكذلك مدرسة أبولو [٤] وكان منشئها أحمد زكى [٥].

ولا شك فى أن مثل هذه المدارس قد ساعد على ازدهار الثقافة واتساعها وخاصة لتأثر أصحابها فى آرائهم وأفكارهم بالثقافة الغربية .

ولما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ عملت على إتاحة فرص التعليم لكل أفراد الشعب بعد أن كان مقصورا على القادرين فقط ، فأنشأت الكثير من المدارس - بأنواعها المختلفة - والمعاهد والكليات ، كما أنشأت وزارة التعليم العالى ، ووزارة البحث العلمى ومن قبلهما وزارة الثقافة والإرشاد القومى * وتسمى الآن وزارة الثقافة والإعلام وتوسعت فى البعثات الخارجية إلى كثير من جهات العالم، كما أنشأت المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع البحوث الإسلامية [٦]

وبعد : .. فهذه هى أهم معالم العصر الحديث من الناحية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، جعلت الحديث عنها تمهيدا للحديث عن معارضات البردة فى العصر الحديث ، التى سوف أشير إلى بعضها فى الفصل التالى إن شاء الله.

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٨ وما بعدها حيث يوجد بعض آرائها الأدبية.
(٢) هو : إبراهيم عبد القادر المازنى ، أديب مصرى توفى سنة ١٩٤٩ (المرجع السابق ص ٢٦١) .
(٣) هو : عبد الرحمن محمد شكرى : شاعر مصرى توفى سنة ١٩٥٨ (المرجع السابق ص ١٦٨) .
(٤) انظر بعض اتجاهاتها الأدبية فى المرجع السابق ص ٧٠ وما بعدها .
(٥) هو : الدكتور أحمد زكى أبو شادى - شاعر مصرى توفى سنة ١٩٥٥ (المرجع السابق ص ٢٤٥) .
(٦) انظر ثورة شعب ص ٢٧٨ وما بعدها .

الفصل الثالث

معارضتا الدرويش والتيمورية وأثرهما

أ ـ معارضة الدرويش :

بدا لي ـ بعد بحث طويل ـ أن أولى معارضات بردة البوصيري في العصر الحديث ـ قبل شوقي[1] ـ هي معارضة الدرويش .

والدرويش : هو السيد علي بن حسن بن إبراهيم المصري[2] . ولد في القاهرة سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م)[3] ، ولم تذكر المصادر عن نشأته شيئا سوى أنه نشأ في القاهرة ، ونال قسطا من التعليم ، وكان مولعا بالأدب العربي ، فأقبل على ما تهيأ له من كتبه مطالعة وحفظا مكناه من قرض الشعر ، كما استطاع أن يضرب ببراعة في فنون النثر .

ولقد أغرم بنظم كثير من الأصوات ـ أدوار الغناء ـ وله عدد كبير من المقطوعات الغنائية .

وذكر بعض الكتاب أن الدرويش بلغ بأدبه المنزلة في أمراء عصره .. وعرف بشاعر عباس الأول ، ولكنه لم يكن مثل الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم ، وإنما كان " عفيف اليد ، قنوع القلب ... مكتفيا بماله وعقاره[4] " .

---

(١) قيدت العصر الحديث بلفظ (قبل شوقي) لكثير من الأمور أهمها : أنه ـ كما سيأتي في أثناء الحديث عن معارضته ـ أول من سمى معارضته اسما يشير صراحة إلى معارضة البردة ، إذ سماها (نهج البردة) ، كما أنه أمير الشعراء بإجماع شعراء كثيرين بايعوه أميرا عليهم في الشعر . (انظر الفصل الأول من الباب الرابع من هذه الرسالة) .

(٢) كل المصادر التي ذكرت نسبه أشارت إلى أن اسمه (السيد علي ..) إلا صاحب الأعلام ، فذكر أن اسمه (علي بن حسن ... الخ) جـ ٥ ص ٨٥ . وتاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤ ص ٢١٢ وما بعدها ، عمر الدسوقي : في الأدب الحديث جـ ١ ص ٣٩ وما بعدها مطبعة الرسالة بمصر سنة ١٩٤٨ .

(٣) الأعلام جـ ٥ ص ٨٥ .   (٤) في الأدب الحديث جـ ١ ص ٤٠ .

وشعره يمثل لنا فى الغالب ما شاع فى عصره من ولوع بالمحسنات البديعية، حتى قال عنه بعض الكتاب: " كان يحشرها حشرا ، ويتكلفها تكلفا ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا قيست بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة إلى عصره كان فى طليعة الشعراء[1].

ولقد قال الشعر فى كل أغراضه التقليدية — تقريبا[2]— ولكن شعره الديني[3] ، قليل بالنسبة إلى بقية الأغراض الأخرى ، وهو عبارة عن قصائد نظمها الشاعر فى مناسبة مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) غالبا ، ومن ذلك قوله يخاطب المسلمين :[4]

أضاءكم مولد الرسـول	..	بالنور من يومه الفضيل
يا أمة المصطفى تهنـوا	..	من نعم الله بالجزيل
... نبيا له مولدا كريمـا	..	يبسم عن وجهه الجميل
أتى بيوم الرضا علينـا	..	أتى على الشرك بالمهول
أتى بدين هدى ونـورا	...	لمتقى الله والجهـول

ويلاحظ على مديحه أنه مهلهل النسج ، ضعيف العبارة .

آثـاره :

ولقد مات الدرويش سنة ١٨٥٣[5] ، وترك بعض آثاره مثل[6] :

١ـ ديوانه (الإشعار بحميد الأشعـار).

٢ـ الدرج والدرك (فى مدح خيار عصره وذم شرارهم).

٣ـ رحلة .

٤ـ كتاب فى الخيل .

٥ـ (سفينة) فى الأدب.

---

(١) المرجع السابق ، وأحمد الإسكندرى:(بالاشتراك مع غيره) المفصل فى تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص٣٣٦ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٣٦.
(٢) محمد عبد الغنى حسن : أعلام من الشرق والغرب ٦ ٥ وما بعدها — دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩.
(٣) أشرت إليه دون غيره لاتصاله بموضوع الرسالة.
(٤) على الدرويش : ديوانه ص ٢٢١ طبع بمصر سنة ١٢٨٤ هـ (لم يدون عليه اسم المطبعة)
(٥) الأعلام جـ ٥ ص ٨٥ .
(٦) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ويبدو أن الشاعر على الدرويش أعجب بالبردة ، فدأب على النظر فيها ، وعاود الاطلاع عليها ، ويؤكد ذلك أنه قد أنشد على بحرها ورويها ثلاث قصائد ، اثنتان منها تعدان من البديعيات ـ سبق الحديث عنها [1] ـ ويبلغ عدد أبيات القصيدة الأولى : ثلاثين بيتا ، ومطلعها [2] :

للطرف مطلع بدر الحسن قال : رم

حتى استهل وقلبى بالغرام رمى

كما يبلغ عدد أبيات القصيدة الثانية واحدا وعشرين بيتا ، وأولها [3] :

بديع مطلع حسن الفرد الملسم

براعة تستهل الدمع فى العلم

ويبدو ـ أيضا ـ أن الدرويش تأثر فى مطلعه هذا ، ببديعية ابن حجة الحموى [4] الذى يقول فى مطلعها [5] :

لى فى ابتداء مدحكم ياعرب ذى سلم

براعة تستهل الدمع فى العلم

فواضح أن الشطر الثانى من المطلعين واحد ، مما يقوى فكرة تأثر الدرويش بابن حجة فى مطلع قصيدته ، كما أن فى هذه البديعية دليلا على أن الشاعر قد نظر إلى البردة عند نظمها ، ومن ذلك تأثره فى قوله [6] :

ياعاذلى قسما فيما تضمنه .. (إن المحب عن العذال فى صمم)

بقول البوصيرى [7] :

محضتنى النصح لكن لست أسمعه

إن المحب عن العذال فى صمم

---

(١) انظر ص ٢٣٢ من هذه الرسالة .
(٢) ديوانه ص ٤٠ وما بعدها
(٣) المرجع السابق ص ٥٠ وما بعدها من هذه الرسالة .
(٤) سبق التعريف به فى هامش ص ٢٣٦
(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٦) ديوانه ص ٥٠ وما بعدها
(٧) انظر ص ٩٥ من هذه الرسالة .

فواضح — أيضا — أن الشطر الثانى من البيتين واحد ، مما يؤكد نظر الدرويش إلى بردة البوصيرى .

أما القصيدة الثالثة ، فهى التى تعد من معارضات البردة ، وتبلغ أبياتها : خمسة وخمسين بيتا ، ولقد نظمها الشاعر بمناسبة المولد النبوى الشريف — على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام — وذلك فى عام : ١٢٦٧هـ الموافق عام ١٨٥١م .

ولقد نهج الشاعر فى قصيدته نهج البوصيرى فى بردته ، فبدأها بالغزل وهو غزل تقليدى ، تبدو عليه آثار الصنعة ، وعلامات المحاكاة — ثم انتقل إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببعض الصفات التى مدحه بها سابقوه ، وعرج إلى الحديث عن بعض معجزات النبى (عليه الصلاة والسلام) كما أشار إلى بعض الحوادث التى وقعت إبان مولده الشريف ، ثم انتقل إلى الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحبة أبى بكر (رضى الله عنه) للرسول فى تلك الهجرة ، واستطرد إلى الحديث عن بعض الصحابة الكرام (رضى الله عنهم) مبينا بعض مآثرهم .

ولم ينس الشاعر أن يشير إلى حاكم البلاد فى ذلك الوقت وهو (عباس) — الذى عرف الشاعر بأنه شاعره — فدعا له بالنصر جزاء حفاوته بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم يعود الشاعر إلى بيان فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على كل خلق الله .

وأخيرا يتمنى قبول قصيدته ، مشيرا إلى ما نالته قصيدة البوصيرى من رفعة شأن، وعلو قدر ، وفى أثناء ذلك يعترف بأنه قد حاكاها ، ونظم على منوالها .

تلك هى أهم الأفكار التى تضمنتها قصيدة الدرويش ، وسوف أقف معها بالدراسة والتحليل ، لأبين إلى أى حد يصور الشاعر عصره الجديد فى تلك القصيدة ، وإلى أى مدى تأثر فى نظمها بالبردة .

ولقد بدأ الشاعر قصيدته بالغزل — كما بدأ البوصيرى — بردته

فقال [1] :

يامولدا حَلّ بالأنوار فى الحرم
منى سلاما على أقمار (ذى سلم)
سلبت فى أرضها عقلى بساكنهـــا
وهل يضام نزيل فى حمى (إضـم)[2]
وقد هوى بى الهوى بالبعد بعدهم
من بعدهم ويح أجفانى وبعدهم [3]

يشير الشاعر إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من أنوار ساطعة ، فى تلك الأماكن الطاهرة التى يحبها ، ويحب ساكنيها ، ولذلك فهـو يرسل سلامه إلى أقمار (ذى سلم) الذين أغرم بحبهم غراما شديدا ، سلب عقله ، وشتت فكره ، وأسكب دمعه ، وبخاصة بعد بعدهم البعيد ، الذى جعل شوقه إليهم يكثر ويزيد .

ولقد بدأ الشاعر عبارته فى البيت الأول بهذا النداء (يامولدا) ولكنـه لم يقصد النداء حقيقة ، وإنما جرى على عادة العرب الذين كانوا إذا أرادوا التعجب من أمر عظيم نادوه ، ونزلوه منزلة من يعقل وينادى ، وفى ذلك تشخيص وإيحاء بعظمة المنادى الذى اكتسب هذا الفخر ، وتلك المكانة من مكانـــة من ولد فيه ، ويؤكد ذلك أن الشاعر أتى به منكرا ومنونا ، أضف إلى ذلـــك أن لفظ (الأنوار) زاد المعنى وضوحا وضياء ، وألقى على المطلع بهاء ، وبخاصة أنه جمع، فهو نور على نور .

إن الشاعر قد تأثر فى مطلع قصيدته ببردة البوصيرى ، وآية ذلـــك أن البوصيرى قال : (.. جيران بذى سلم [4]) ، فتابعه الدرويش قائلا : (أقمار ذى سلم) ، ولكنه أرسل إليهم سلامه ، وليس سلام الأحباب كسلام غيرهم ، وإنما هـو

---

(1) ديوانه ص ٢٥٧ .
(2) نزيل : المراد ضيف .
(3) ويح : كلمة تدل على الرحمة بخلاف (ويل) فهى كلمة تدل على العذاب ، وقيل : هما بمعنى واحد .
(4) انظر ص ٨٣ من هذه الرسالة .

سلام حار ، ولعل مما يشير إلى ذلك تقديم الجار والمجرور (منى) وتنكير لفظ (سلاما) .

وإذا تأملت قوله:(وهل يضام نزيل فى حمى إضم) وجدت السؤال يدل على الاستعطاف والاسترحام ، كما أنه بنى الفعل (يضام) للمجهول حتى لا يذكر اسم أحبابه ، بل ستره وكتمه ، وأطلق على نفسه لفظ (نزيل) وفى ذلك إشارة إلى فقره ، وحاجته إلى ذلك الحمى(حمى إضم) ، وهو يتبع البوصيرى فى ذكره لفظ (إضم)[1] .

ولما كان حب الشاعر هذه الأماكن الطاهرة ، وساكنيها الكرام حبا جما، قد أثر فيه تأثيرا كبيرا ،فاشتد ألمه ، وغزر دمعه عندما بَعُد عنهم ، ولعل فى الفعل (هوى) ما يدل على قوة ذلك الحب، وشدة ذلك الوجد، الذى أثر فى الشاعر وأضعفه ، ويؤكد ذلك قوله : (ويح أجفانى ..) ففيه إشارة إلى غزارة دمعه، وكثرة بكائه .

ويبدو أن الشاعر أغرم بالمحسنات البديعية غراما قارب غرامه بأحبابه، فأكثر منها كثرة أثقلت المعنى ، وأذهبت رواء اللفظ ، ومن ذلك:المناسبة بين قوله:(هل ، والأنوار ، وأقمار) والجناس فى قوله : (يضام وإضم) وقوله :(هوى .. والهوى) وقوله : (بالبعد ، وبعدهم) .

ثم ينتقل الشاعر فجأة إلى الغرض الأساسى من القصيدة وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول[2]:

لمهجتى ذمة فى طيبة شغفت ..	فهل تطيب بأوفى الخلق للذمم[3]
إمام كل رسول عند بارئه ..	مبرأ لا تباريه ذوو العصم[4]

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٣) مهجتى : المراد روحى.(فى) بمعنى (مع)، وطيبة : اسم من أسماء المدينة المنورة .

(٤) لا تباريه : المراد لا تماثله.ذوو العصم : أى أصحاب العصمة، والمراد بهم الرسل (عليهم الصلاة والسلام) .

نعم: إن لى عهدا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أفضل من يفى بعهده ، إذ هو أفضل رسل الله ، خلقه الله طاهرا من كل عيب ، ومبرأ من كل شين .

ويبدو أن الشاعر تأثر فى البيت الأول بقول البوصيرى[1] :

فإن لى ذمة منه بتسميتى محمدا

وهو أوفى الخلق بالذمم

ولكن لما كان اسمه : (السيد على الدرويش) ولم تنفعه الذمة — أى العهد — من جهة التسمية ، ألمح الشاعر إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " المرء مع من أحب "[2] وعدّ ذلك ذمة وعهدا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فمدح الرسول ليدل على حبه إياه ، وحق له أن يهنأ بهذا العهد ، لأنه عهد مع (أوفى الخلق بالذمم) — صلى الله عليه وسلم — ومع إمام الرسل (عليهم السلام) الذين لا يبارونه فى حسن خلقه ، وعظيم شمائله .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (لمهجتى) مجازا مرسلا — علاقته الجزئية — وهو يوحى بأهمية ذلك الجزء فى جسم الإنسان — كما أن فى تنكير (ذمة) ما يوحى بعظمتها من جهة ، وشدة أمل الشاعر، وحسن ظنه من جهة ثانية ، أضف إلى ذلك أن فى قوله : (فى طيبة) إيجازا بالحذف ، والأصل : (فى ساكن طيبة) مثلا ، كأن البلدة نفسها قد اكتسبت عظمة وفضلا من عظمة وفضل ساكنها (عليه الصلاة والسلام) ، ويصح أن يكون فى العبارة — أيضا — مجاز مرسل ، علاقته المحلية .

وفى سؤاله : (هل تطيب بأوفى الخلق للذمم) اطمئنان لنفسه ، وتسكين لقلبه ، إلا أن الشاعر — كعهده — لم ينس الإكثار من المحسنات البديعية مثل : الجناس الشبيه بالمشتق فى قوله : (طيبة وتطيب) وقوله : (بارى ومبرأ) ، والتكرار فى قوله : (ذمة والذمم) .

---

(١) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة .

(٢) صحيح مسلم ج ص ٤٩٤ .

ويواصل الشاعر مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

سر الحدوث، ومولى من له قدم

صدق، ومادحه الموصوف بالقدم[2]

فترك مدحي له مدح، وهل قلمي

ونوني في الوصف تحكي (ن والقلم)[3]

فلم يبالغ بما أثنى الإله بـه

عليه، كيف نوفيه بمنتظم

يمدح الدرويش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه سر حدوث هذا العالم، وهو السبب في خلق الدنيا، وسيد المؤمنين، وصاحب الفضل عليهم، مدحه ربه جل وعلا، فما قيمة مدحي إياه ولذلك فإن ترك مدحي إياه (صلى الله عليه وسلم) هو في الحقيقة مدح له؛ لأنه لا يمدح العظيم ويوفيه حقه إلا من عرف قدره، ولا يعرف قدر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا خالقه، وإذا كان الخالق العظيم قد مدحه (صلى الله عليه وسلم)، فكيف لمخلوق مثلي أن يوفيه حقه من المدح والثناء؟

ولقد تأثر الشاعر في هذه الأوصاف بالبوصيري؛ لأنه في قوله : (سر الحدوث) إشارة إلى قول البوصيري : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم)[4] كما أن قوله : (ومادحه الموصوف بالقدم)، وهو الله سبحانه وتعالى، مأخوذ من قول البوصيري عند حديثه عن آيات القرآن : (.. قديمة صفة الموصوف بالقدم)[5] أضف إلى ذلك أن قوله : (مولى من له قدم صدق) — أي سيد المؤمنين، وصاحب الفضل العظيم عليهم؛ لأنه كان سببا في هدايتهم — فيه تلميح إلى قوله تعالى :

---

(١) ديوانه ص٢٥٧ .

(٢) قدم صدق : المراد سابقة فضل، ومنزلة رفيعة، وسميت (قدما) لأن السعي إلى الفضائل يكون غالبا بالقدم، كما سميت النعمة يدا، وإضافتها إلى الصدق لتحققها .

(٣) نوني : المراد محبرتي .

(٤) انظر ص١١٨ من هذه الرسالة .   (٥) المرجع السابق ص١٦٠ .

" .. وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ..الآية(١)" وهذا وصف جديد لم يذهب إليه البوصيرى ، وإن كان قد ذهب إلى مثله بقوله : (محمد سيد الكونين .. البيت) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فترك مدحى له مدح ..) وجدته يشير إلى عجزه عن مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدحا يليق بمكانته ، ولا يخفى أن فى تنكير لفظ (مدح) ما يدل على التعظيم ، كما أن الاستفهام فى قوله : (وهل قلمى ونونى ..) يؤكد عجزه ويقرر اعترافه بفضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى أشار إليه القرآن الكريم فى سورة (القلم) والشاعر يلمح بذلك إلى قوله تعالى : " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ "(٢) .

ولقد أكد الشاعر فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى البيت الثالث ذاكرا أن الله تعالى لم يبالغ فيما أثنى به على نبيه (عليه الصلاة والسلام) ، وفى الاستفهام : (كيف نوفيه بمنتظم) إقرار بعظمة مكانة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وعلو شأنه، وارتفاع قدره ، واعتراف بعجز الشعراء عن المديح اللائق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذه شهادة شاعر مثلهم ، ولذلك عبر بقوله : (نوفيه) أى بصيغة المتكلمين، ولم يقل : (أوفيه) حتى لا يوهم أن غيره فى إمكانه ذلك ، ولكنه رفع ذلك الإيهام ، بعجزهم جميعا عن بلوغ ذلك الأمر .

ولم ينس الشاعر أن يضمن عبارته بعض المحسنات البديعية مثل : :
الطباق بين (الحدوث والقدم) ، والتكرار فى (مدحى ومدح)، والجناس فى قوله:(قلمى ونونى) و (ن والقلم) .

ومهما يكن من شىء فإن الشاعر يؤكد فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :(٣)

وأن لولاه لم تخلق ملائكة ..	ولا الحجاب الذى عند العروج رمى
يكفى السموات تشريفا بوطئته ..	والأرض ، جبريل فيها جملة الخدم

---

(١) يونس / ٢ .
(٢) القلم : ٤ .
(٣) ديوانه ص ٢٥٧ .

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان سببا في خلق الملائكة، ولم أقف على نص يؤيد ذلك، ويمكن أن يكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام، بالنسبة إلى قوله سابقا : (سر الحدوث).

ولا يخفى أن في بناء الفعل (تخلق) للمجهول إشارة إلى أن الفاعل وهو الله (سبحانه وتعالى) معلوم غير مجهول، كما أن في تنكير (ملائكة) ما يدل على العموم.

وإذا تأملت قول الشاعر : (ولا الحجاب الذى عند العروج رُمِــــى) وجدته يشير إلى معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكنه في تلك الإشارة كان موجزا بدرجة كبيرة لم تتناسب مع مقام المدح، إذ كل ما ذكره هــــو أن من فضل الله على رسوله ليلة المعراج أن رفع الحجاب بينه وبينــــه[1]، ولعله يلمح بذلك إلى قوله تعالى : " مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [2] ".

وأين هذه الإشارة من إشارة البوصيري إلى تلك المعجزة العظيمة[3]، وإذا قارنت بين الشاعرين وجدت الفرق كبيرا، والبون شاسعا، كما أن في قول الدرويش : (رمى) ما يوحي بالغلظة التي لا تناسب المقام، ولو قـــال (رفع) مثلا لكان أفضل، ويبدو أنه أتى بذلك اللفظ لضرورة القافية.

ولقد ذكر الشاعر - في البيت الثاني - أن السموات قد شرفت بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في ليلة المعراج، وشاركتها الأرض في ذلك الشرف العظيم، ويبدو أنه يشير إلى الاسراء من بعيد، بذكره لفظ (الأرض)، كما ذكـــر الشاعر أن جبريل (عليه السلام) كان مصاحبا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بل كان من جملة خدمه في تلك الليلة، ولعله يلمح بذلك إلى ما أشارت إليه بعض الأحاديث من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يسأل جبريل (عليه السلام) عن بعض المشاهد، ويجيبه جبريل عنها[4].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص٩.
(٢) النجم : ١١.
(٣) انظر ص١٧٢ وما بعدها من هذه الرسالة.
(٤) تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص٢١.

ويبدو أن الشاعر قد تأثر في عبارته بما شاهده في قصر عباس في عهده، من خدم وحشم ؛ فأتى بلفظي (تشريف) والخدم) .

ولا يخفى أن في قوله : (السموات والأرض) طباقا أفاد الشمول والعموم ، إلا أن كلمة (جملة) غير محبوبة في الشعر .

ولقد انتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من حوادث ، إلا أن هذا الحديث يدل على أن الشاعر لم يرتب أفكاره على حسب وقوع الحوادث تاريخيا ؛ إذ تكلم سابقا على الإسراء والمعراج ، وهنا يتكلم على المولد النبوي بقوله[1] :

تكون الكون نورا عند مولده
كأنه - الآن - موجود من العدم

وكان يوم استضاء الكون وهو دجى
بدرا بدا ، أو نسيما دب في النسم

كيف استنارت قصور الشام إذ خمدت
نار المجوس ، والنار الفولاذ ظمي

فلينفع النار ذو الإيوان إذ طفئت
بماء ساوة إن ينفع على ضرم

فكسر إيوان كسرى مقصر أملا
من قيصر في بني التثليث والصنم[2]

فلا سرير وما اهتزت قوائمه
ولا أمير وما تلقاه ذا وجم

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أن الكون - عندما ولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) - قد شع فيه النور ، وتلألأ الضياء ، فأصبح كأنه مخلوق الآن من العدم ، ولم يدنس بالضلالات ، أو يكدر بالظلمات والجهالات ، ولقد كان في هذا اليوم كأنه بدر كمل ضوؤه ، وعظم ضياؤه ، أو كأنه نسيم عليل أعاد الحياة إلى النفوس .

---

(١) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٢) قيصر : لفظ يطلق على كل ملك من ملوك الروم . بني التثليث : الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة !!!! - وقد كذبوا - (انظر هامش ص ١٢٦ من هذه الرسالة)

ولا يخفى أن البيت الأول قد أثقله الشاعر بتكرار حرف الكاف ثلاث مرات في ثلاث كلمات متقاربة: (تكوّن ، الكون .. كأنه) ، إلا أنه أتى بطباق في قوله : (موجود — و العدم) وضح أثر هذا المولود (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من نور انتشر ، وضياء عمّ وكثر .

وفي البيت الثاني أراد الشاعر أن يبين حالة الكون عندما استضاء بهذا النور الساطع الذي يشبه نور البدر ، كما أكد أثر ذلك النور في الكون بقوله : (وهو دجى) — فكان الكون مظلما — وإذا نور البدر يتلألأ ، أو كأنه كان نسيما — هواء أو روحا — حلّ في الجسم، فرد عليه عافيته أو حياته ، ويبدو أن الشاعر يقصد (بالبدر والنسيم) الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا يخفى ما في التشبيه من بيان أثر الرسول وفضله ، كما لا يخفى أثر تكرار حرف السين في قوله : (نسيما — النسيم) من وقع موسيقي ، بالإضافة إلى أن في اللفظين جناسا شبيها بالمشتق ، وإن كانت كلمة (دبّ) غير شاعرية .

ويتساءل الشاعر — في البيت الثالث — متعجبا : كيف أضاءت قصور الشام ، وخمدت نار المجوس ، فهما أمران متضادان ، وهذا مصدر التعجب — وإذا كان البوصيري قد سبق الدرويش في الإشارة إلى نار المجوس التي خمدت وإلى النهر الذي غاض ساوه[1] ، فإن الدرويش قد زاد عليه الإشارة إلى قصور الشام التي أنيرت ، ولعله يلمح بذلك إلى ما روى أن أمّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) - السيدة آمنة[2] قالت : " لما ولدته — الرسول (صلى الله عليه وسلم) — خرج معه نور أضاءت له قصور الشام .."[3] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فلينفخ النار ذو الإيوان ..) وجدته يشعر بالاستهزاء والسخرية من المجوس وكأنه يقول لهم : إن كنتم أولي قوة ، وأولي بأس شديد

---

(١) انظر ص ١٣٥ من هذه الرسالة .

(٢) هي السيدة : آمنة بنت وهب بن عبد مناف توفيت سنة ٥٧٥ م وقيل غير ذلك (الأعلام جـ ١ ص ١٩) .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ١ ق ١ ص ٦٣ .

فانفخوا ناركم التى أُطفئت ، وأوقدوا شعلتها التى أُخمدت ، ولكن هيهات أن ينفع نفخكم ، لأنكم لا تنفخون على ضرم ، بل تنفخون على فحم شرب من ماء ساوة ، ثم يشير إلى نكتة لطيفة ، لم يشر إليها البوصيرى ، وهى : إن كسر إيوان كسرى وتصدع بعض شرفاته قد قصر أمل قيصر فى أن يظل بنو التثليث مواليين له ، هم والذين يعبدون الأصنام .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى أن أثر المولد كان عظيما فى الجمادات فقال ، (فلا سرير وما احتزت قوائمه) ، والمراد هنا بالسرير سرير الملك ، وكذلك كان أثر المولد عظيما فى الإنسان فقال ، (ولا أمير وما تلقاه ذا وجم) ، ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى ما روى عن ابن عباس أنه قال : " كان من دلالة حمل آمنة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. أنه لم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا "[1] .

ولقد اشتمل البيت الأخير على بعض المحسنات البديعية التى زادت الوقع الموسيقى للأبيات ، ومن ذلك : التكرار فى (نار والنار) والجناس الشبيه بالمشتق بين (كسر وكسرى) ، وبين (مقصر وقيصر) ، كما لا يخفى أثر تكرار النفى الداخل على النكرة فى قوله : (فلا سرير .. ولا أمير) ، ففيه دلالة على العموم والشمول وذلك يقوى الفكرة ويؤكدها .

ويواصل الشاعر حديثه عن أثر مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[2] :

والكفر بات على حال يُساء به .. والعِلْمُ بالحق بشراه على العَلَم
إذ كل عجماء يوم الوضع ناطقة .. وكل ناطقة بالكفر فى بكم
قل لليهود ، يهودوا ، والنصارى غما
نُصرتما ، لوتداعينا إلى حكم
وللنصارى يخوضوا فى بحيرتهم
لا فى بحور لها بَرٌّ بذى سلم

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب جـ ١ ص ١٠٨
(٢) ديوانه ص ٢٥٧ .

يذكر الشاعر أن من آثار مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أن الكفر قد ساءت حالته ، وأن الحق قد شاع خبره ، ولا أدل على ذلك من نطق العجماوات ، وسكوت أهل الضلال وانصرافهم عنه ، همًّا وغمًّا .

ولقد جرد الشاعر من نفسه شخصا يأمره بأن ينصح اليهود والنصارى بأن يرجعوا عن عنادهم ، وأن يتركا الخوض فى أمر هذا النبى الكريم ، فهو بر الأمان لمن اتبعه .

وإذا تأملت قول الشاعر : (والكافريات ..) وجدته قد أسند الفعل (بات) إلى ضمير الكفر ، وفى هذا الإسناد مجاز عقلى أفاد التشخيص ، وإذا كان هذا شأن الأمر المعنوى - الكفر - فما بالك بأهله ، لا شك فى أنهم سيكونون أشد سوءًا منه ، ولعل فى تنكير لفظ (حال) ما يوحى إلى قبحه ، ويؤكد ذلك وصفه بقوله : (يساء به) كما أن فى قول الدرويش : (والعلم بالحق ..) ما يدل على أن الحق قد ذاع وشاع ، لأن ما يكون على العَلَم - الجبل - يراه كل إنسان - غالبا - .

وفى البيت الثانى توضيح وتأكيد لما أجمله فى البيت الأول ، لأن نطق الحيوانات يدل على ابتهاجها وسرورها بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بخلاف أصحاب الكفر فقد خرسوا من شدة حزنهم ، ولعل الشاعر يلمح إلى ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) " أن كل دابة - بقريش - نطقت وقالت : حُمِل برسول الله ورب الكعبة ، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها .. (١) " إلا أن هذا الخبر - على ما فيه من ضعف - يشير إلى الحمل لا إلى المولد ، ويحتمل أن فى عبارة الشاعر : (إذ كل عجماء يوم الوضع ناطقة) إشارة إلى أن هذا المولد كان عظيم الأثر ، ولو فرض أن طُلب من العجماوات أن تشهد بذلك لشهدت .

وكان قول الشاعر : (وكل ناطقة بالكفر فى بكم) تمهيدا للانتقال إلى نصح اليهود والنصارى حتى يرجعوا إلى الحق الذى ظهر ، ويتركوا الجدال الذى

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب جـ ١ ص ١٠٨ .

لا طائل تحته ، ولا فائدة منه ، ويبدو أنه أراد بقوله : (بِرُّ بذى علم) الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ لا شك فى أن الرسول برّ الأمان لمن آمن به ، واتبع النور الذى أُنزل معه ، ولا يخفى أن ألفاظ الشاعر سهلة واضحة ، وإن أثقلها بالمحسنات البديعية مثل : الجناس المحرف بين : (العلم - بكسر العين وسكون اللام - والعلم - بفتح العين واللام) والتكرار فى قوله : (ناطقة) ، والطباق فى قوله : (ناطقة وبكم) ، والجناس المشتق فى قوله : (يهود - ويهودوا) ، وقوله : (نصارى - نصر) ، وقوله : (بحسيرة وحور) ، والمناسبة بين قوله : (بحور وبر) .

ويواصل الشاعر حديثه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

محمد روح عيسى وهو جثته .. تكلمت عن كليم فيه بالعظم

أحيا النفوس ، ومحو الجسم بشرنا
بأن ذا رتبة خير من الكلم

إن ينكروا وصفه غالت نعامتهم
فإنها نِعَمٌ تخفى على النعم[2]

أنار ظلمة دنيانا بضرتها .. وجاز فيها جواز البرء فى السقم

أشار الدرويش فى تلك الأبيات إلى أنه لا يجوز الإيمان برسول ، والكفر بآخر ، لأنهم كلهم رسل الله اصطفاهم لتبليغ شرائعه إلى الناس ، ثم تحدث عن هؤلاء النصارى الذين ينكرون رسالة رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) مبينا أنهم لم يتدبروا أمرها بعقولهم ، بل جانبوا الصواب ، إذ كيف تجحد رسالة نبى كان مبعث صاحبها رحمة مهداة ، ونعمة موصولة ، فأنار الدنيا - بالإيمان - بعد طول ظلام - بالكفر - ونشر الإسلام ، إذ تطهر الدنيا من أدناسها ، كما يُطهر الشفاء الأجسام السقيمة من عللها .

---

(١) ديوانه ص ٢٥٨ .

(٢) : غالت نعامتهم : طاشت عقولهم فهربوا . (نعم) - بكسر ففتح - جمع نعمة - بكسر فسكون - معروفة المعنى (النعم) بفتح النون والعين - واحد الأنعام .

وإذا تأملت قول الشاعر : (محمد روح عيسى وهو جثته ..) وجدته يشير إلى مدى الصلة القوية بين رسول الله عيسى (عليه السلام) ورسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولعله يلمح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد [1] " .

وفى قوله : (أحيا النفوس) كناية لطيفة تشير إلى إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان كما أن قوله : (شالت نعامتهم) يدل على أن هؤلاء المنكرين لم يتدبروا عظمة رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) التى اشتملت على فضائل عظيمة تخفى قيمتها (على الأنعام) إذ لا عقل لها ، وفى ذلك تعريض بهؤلاء المنكرين ، ولا يخفى أن الشاعر قد تأثر فى وصف الآخرة بأنها (ضرة الدنيا) ، بأقوال من سبقه من الشعراء وبخاصة قول البوصيرى : (فإن من جودك الدنيا وضرتها ..) [2] ، كما أن فى قوله : (وجاز فيها جواز البرء فى السقم) تشبيها لطيفا يبين أثر الإسلام ويؤكده ..

ولقد أثقل الشاعر عبارته بالإكثار من المحسنات البديعية مثل : الطباق فى قوله : (روح وجثة) و (البرء والسقم) و (أنسار وظلمة) والجناس المشتق فى قوله : (تكلمت وكليم) و (أحيا وحيى) والجناس المحرف فى قوله : (نعم ونعم) .

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [3] :

سلوا الحمام على ما قال صاحبه
وصاحب الغار والأعداء كالرخم

---

(١) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٠٣ .
(٢) انظر ص ٢٠٨ من هذه الرسالة .
(٣) ديوانه ص ٢٥٨ .

أصمهم عن حديث منه لو نظروا
برق وحمق، فأمسى القلب في صمم

فالجار والغار والمطلوب منه غدوا
كالغمر لم يدرك المعنى من الكلم

يكاد يخبرهم عنه من إضاءته ... به، وهل أنجم تهدى الطريق عمى

فى هذه الأبيات يشير الشاعر إلى مشهد من مشاهد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو : تلك اللحظة التى قال فيها أبو بكر (رضى الله عنه) للرسول (صلى الله عليه وسلم) - وهما فى الغار - : " لو نظر أحدهم - الكفار - إلى موضع قدمه لرآنا " فقال له الرسول : - بثقة واطمئنان - " ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا "(1)، وفعلا أعمى الله أبصار هؤلاء الكفار، فرجعوا إلى ديارهم يجرون ثوب الخزى والعار.

وإذا تأملت قول الشاعر : (سلوا الحمام ..) وجدته يتهكم بهؤلاء الكفار، لأنه يعلم أنهم لن يسألوه، وإذا سألوه - فرضا - فلن يرد عليهم، ولكنه نزله منزلة من يعقل ويسأل، ومعلوم أن حمامتين قد وقفتا على باب الغار بعد دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما ذكرت ذلك بعض كتب السيرة(2).

ولا يخفى ما فى اختيار الشاعر اسم الموصول (ما) من تفخيم وتعظيم، ولم يذكر الشاعر اسم أبى بكر صريحا، بل قال : (صاحبه) ليسجل له شرف الصحبة كما سجلها القرآن الكريم من قبل فى قوله تعالى : " إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. الآية(3) ".

ولقد شبه الشاعر الكفار بالطيور التى تنقض على فريستها - (.. والأعداء كالرخم)- إشارة إلى فظاظتهم وغلظتهم، كما عبر عنهم بالأعداء تشنيعا عليهم.

---

(1) انظر ص١٤٧ من هذه الرسالة .
(2) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(3) التوبة /٤٠ .

والعجب أن هؤلاء الكفار — على الرغم من قربهم من باب الغار — لم يسمعوا حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أبي بكر ، ولقد بين الشاعر علة عدم سماعهم هذا الحديث بقوله: (برق وحق)، وأراد بالبرق نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبالحق حمق هؤلاء الكفار ، ثم أكد ذلك بهذه الكلمة الصادقة: (أعمى القلب في صمم) . ولا يخفى أن الشاعر قد أكد ما ذكره في البيت التالي بقوله : (فالجار والغار ..) إذ أشار إلى جهل هؤلاء الأعداء وأكده بهذا التشبيه (كالقمر) .

وأراد الشاعر أن يشير إلى شدة نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في الغار فذكر أن الغار كاد يخبر عن وجود الرسول بداخله : (يكاد يخبر عنه) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهدايته للناس بقوله : (وهل أنجم تهدى الطريق عمى)، كما أراد السخرية من هؤلاء الكفار الذين عموا عن ذلك النور .

إن الشاعر قد اكتفى بالحديث عن الغار والحمام، وهو متأثر في ذلك بالبوصيرى [1] .

ويبدو أن الشاعر بعدما ذكر صحبة أبي بكر للرسول (صلى الله عليه وسلم) عرج إلى الحديث عن بعض الصحابة فقال [2] :

والفاتح الدين والدنيا الفتى عمر .. أعمر بحبك فيه القلب، تستقم [3]
حيا الحيا ، مصرع الحى الشهيد ندى
مجهز الجيش ذى النورين والكرم [4]
وأهل بيت عن الدنيا قد ارتفعوا
(تحت العباءة) فوق الناس كلهم

---

(١) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة .
(٢) ديوانه ص ٦٥٨ .
(٣) المراد بعمر : أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقد سبق التعريف به في هامش ٦١ من هذه الرسالة .
(٤) المراد بذى النورين : أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) انظر المرجع السابق هامش ٦١ .

باب المدينة حامى البيت صاحبه
ليث إلا له ، عَلِيُّ الجاه والشيم

فى هذه الأبيات يمدح الشاعر بعض أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ففى البيت الأول مدح أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بأن الله قد فتح على يديه كثيرا من البلاد ، فاتسعت فى عهده رقعة الدولة الإسلامية ، ولا شك فى أن هذا فتح للدين ، كما تم الرخاء فى عهده بحسن سياسته وعدله ، وهذا فتح للدنيا [1] ، كما أشار الشاعر إلى شجاعته بقوله : (الفتى عمر) ، ولعله تأثر فى ذلك بقوله تعالى عن أهل الكهف : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) [2] ، ولا شك فى أن من يجسد لسلك الصحابى الجليل فليقتف أثره حيث دفعه ذلك إلى الاستقامة وحسن العمل .

وفى البيت الثانى مدح الشاعر أمير المؤمنين : عثمان بن عفان (رضى الله عنه) بما كان فيه من خصال حميدة مثل شدة الحياء ، وفى ذلك إلماح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنه : " إن عثمان رجل حيى " [3] - و " تستحيى منه الملائكة .. " [4] كما أشار إلى أنه قد مات شهيدا إذ قتل ظلما [5] ، ولعل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) - عندما كان واقفا مع أبى بكر وعمر وعثمان على جبل أحد فاهتز الجبل ، فقال له : اثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان . [6] لعل ذلك يؤكد ما ذهب إليه الشاعر من أنه صرع شهيدا ، ثم أشار إلى حسن جهاده فى سبيل الله بماله عندما جهز جيش العسرة وتبرع بكثير من ماله [7] كما أنه لقب بذى النورين لأنه تزوج بنتى الرسول (صلى الله عليه وسلم) السيدة رقية وبعد وفاتها سنة ٢ هـ [8] تزوج السيدة أم كلثوم (رضى الله عنهما) ولما توفيت سنة ٩ هـ [9] قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : لو كانت لنا ثالثة لزوجناك [10] .

---

(١) أسد الغابة جـ ٤ ص ١٧٠ وما بعدها . (٢) الكهف / ١٣ .
(٣) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٦٢ . (٤) المرجع السابق . (٥) أسد الغابة جـ ٣ ص ٥٩٢ . (٦) المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٨٨ . (٧) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣
(٨) الأعلام جـ ٦ ص ٨٩ . (٩) المرجع السابق .
(١٠) أسد الغابة جـ ٣ ص ٥٨٦ .

وفى البيت الثالث أشار الشاعر إلى أهل بيت النبى (صلى الله عليه وسلم)[1] ووصفهم بطهارتهم عن الدنايا ، وبعدهم عن النقائص ويؤكد ذلك قوله : (وأهل بيت عن الدنيا قد ارتفعوا) ، ولعله يلمح بقوله : (تحت العباءة) إلى ما روى أن السيدة عائشة (رضى الله عنها) قالت : خرج النبى (صلى الله عليه وسلم) غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن على فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء على فأدخله ، ثم قال : " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا [2] ".

وفى البيت الرابع انتقل الشاعر إلى مدح أمير المؤمنين : على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) بسعة علمه وذلك فى قوله : (باب المدينة ..) وهو فى هذا يلمح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " أنا مدينة العلم وعلى بابها .. [3] " . كما أشار إلى شجاعته بقوله : (حامى البيت .. ليث الإله) ـ وإن كان قوله : (ليث الإله) قد عرف به حمزة بن عبد المطلب[4] (رضى الله عنه) ولكن لا مانع من أن يسمى به غيره ممن شاركه فى شجاعته وكفاحه فى سبيل الله ـ ، كما وأشار إلى رفعة شأن الإمام على بقوله : (على الجاه والشيم) .

ثم انتقل الشاعر إلى مدح السيدة فاطمة[5] وولديها : الإمام الحسن والإمام الحسين (رضى الله عنهم) بقوله [6] :

والبضعة الدرة الزهراء فاطمة
وصفوة الصفوة الغراء فى العصم [7]

والنيرين الشهيدين : ابنها حسن
إذ قال للملك إن السم فى الدسم

---

(١) انظر هامش ص ١٧ من هذه الرسالة .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٨٧ ومرط : (بكسر فسكون) كساء من صوف ـ ومرحل : منقوش .
(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٩١ وما بعدها . (٤) هو حمزة بن عبد المطلب ـ عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) المعروف بسيد الشهداء ـ استشهد فى غزوة أحد سنة ٣ هـ (المرجع السابق جـ ٢ ص ٥١) (٥) سبق التعريف بالسيدة فاطمة والإمام الحسين فى هامش ص ١٨ من هذه الرسالة ، أما الإمام الحسن فهو الحسن بن على بن عبد المطلب جده الرسول (صلى الله عليه وسلم) مات سنة ٤٩ (٦) ديوانه ص ٢٥٨ . (٧) البضعه : القطعة . الزهراء : المشرقة .

ريحانة ظمئت فى كربلا نجـــرت

على الحسين عيون العين بالديم[1]

يزيد نار الأسى ، دمع عليه جرى

فى يوم أن خضب الريحان بالعنم

وصف الشاعر السيدة فاطمة (رضى الله عنها) بأنها درة لامعة ، وشمس ساطعة ، وهى صفوة الصفوة من خلق الله ، طهارة وعفة ، وجلالا وكمالا ، ولعله يلمح بقوله : (البضعة) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى[2] ".

ثم أشار إلى الإمام الحسن والإمام الحسين ووصفهما بأنهما (نبيلـــــين) وشهيدين ، فأما الإمام الحسن فقد مات مسموما[3] ، ولعله يشير إلى ذلـــك بقوله : (إذ قال للملك إن السم فى الدسم)، أو لعله أشار بذلك إلـــى تنازله عن الملك حقنا لدماء المسلمين[4] .

وأما الإمام الحسين فقد مات مقتولا فى موقعة (كربلاء) ويبدو أن الشاعر يلمح بقوله : (ريحانة) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الحسن والحسين : " هما ريحانتاى من الدنيا ٠٠)[5] " كما يشير بقوله : (ظمئت ٠٠) إلى ما روى أن الإمام الحسين قتل وهو ظمآن يطلب الماء ، ولكنه منع عنه[6] ولا شـــك

= الوجه ، وقيل : سميت بذلك لأنها لم تحض ، وإذا ولدت طهـــرت بعد ساعة فلم تفتها صلاة ، انظر يوسف النبهانى : الشرف المؤبد لآل محمد ص ١٠٩ مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٦١ .

(١) كربلا : أصلها كربلاء : موضع قريب من الكوفة قتل فيه الإمام الحسين (معجـــم البلدان جـ ٧ صـ ٢٢٩) .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٢٣٢ المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٥) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٣٣ .

(٦) الكامل جـ ٤ ص ٣٩ .

فى أن قتل الإمام الحسين (رضى الله عنه) قد أحزن كثيرا من المسلمين ـ إن لم يكن كلهم ـ فسالت دموعهم ، بل كما قال الشاعر : (فجرت على الحسين عيون الصين بالديم) وفى ذلك تأكيد على شدة الحزن ، وعظيم الأسى .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد ما سبق ـ من شدة الحزن ـ فقال : (يزيد نار الأسى ، دمع عليه جوى) إلا أن فى ذكره لفظ (يزيد) ما يوحى بالتورية ، إذ فيه إشارة إلى يزيد بن معاوية [1] وهو الذى جرت فى أيامه تلك الحوادث الأليمة .

ولقد اشتملت العبارة على ما يلهب المشاعر ، ويحرك الإحساس مثل قوله : (نار الأسى) ، كما أن تنكير لفظ (دمع) يوحى بغزارته ، ويؤكد ذلك لفظ (جوى) أضف إلى ذلك أن فى قوله : (فى يوم أن خضب الريحان بالعتم) ما يؤكد شدة الأسى والأسف على هذا الدم الذى أريق وهذا الجسد الشريف الذى امتهن .

ثم طلب الشاعر أن يرضى الله عن العباس بن عبد المطلب [2] وآله بقوله :

وعم عميه عباسا بكل رضى ⁂ وصفوه وجميع الآل والحشم [3]

ومع ظهور ما أرادة الشاعر توما لسهولة ألفاظه ، فلعله أتى بلفظ (الحشم) للوزن ، وقد تأثر فى ذكره ببيئة القصر الذى كان يمدح صاحبه وهو (عباس الأول) ، إذ كان الدرويش شاعره [4] ، ولذلك لم ينس الشاعر أن يشير إليه ويدعو له بقوله : [5]

من عهده الخامس العباس ما ابتسمت

إلا له الواحد العباس فى الهمم

---

(١) هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ـ ثانى ملوك بنى أمية توفى سنة ٦٤ هـ .

(٢) سبق التعريف به فى هامش ص ١٥ من هذه الرسالة .

(٣) ديوانه ص ٢٥٨ ، ورواية الديوان (عميه) بالتثنية ، والمعلوم أن الرسول لم يكن له إلا عم واحد مسمى بهذا الاسم ، ولعله خطأ مطبعى ، والأصل (وعم عمه) ويؤكد ذلك أن الوزن لن يتغير .

(٤) انظر ص ٢٨١ من هذه الرسالة .

(٥) ديوانه ص ٢٥٩ .

إذ زين الدين بالدنيا بدولتــــــه
دامت ، وقالت له : هنيت فاحتكم

يارب تكسبه خيرا وتنصــــــــــره
بمولد زانــه فى ذلــك الحــرم

يمدح الشاعر عباسا الأول بالشجاعة ، وشدة العزيمة ، وقوة الهمــــة ، وأشار إلى أنه زيّن الدين والدنيا بدولته التى مضى فى حكمه إياها خمــس سنوات ، ثم دعا له بدوام ملكه ، وسأل الله تعالى بأن يرزقه الخــير وأن ينصره، جزاء احتفاله بمولد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

والجدير بالذكر أن الإمام البوصيرى فى بردته قد تحدث عن الصحابــة بعامة ، ولم يشر إلى حاكم عصره ، أما الدرويش فقد ذكر بعض الصحابة بأسمائهم ، كما أشار إلى حاكم عصره .

ثم يخاطــب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله (1) :

ياسيد الرسل لى فكر يضىء بـــه
لفظ المحب ضياء البدر فى الظلم

يا أكرم الخلق ـ لا مستثنيا ملكا ـ
ومفرق الفرقتين : العرب والعجم

هذى قصيدى ، فإن أقبل فمن كرم
منكم غيرى ، وإن أرد د فواندمى

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مناديا إياه نداء يـــدل على رفعة شأنه ، وعلو قدره (ياسيد الرسل) ، ولا عجب فى ذلك فهو سيد الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وهو أكرم الخلق .

ولقد بين الشاعر أن حبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذى ساعده على نظم تلك الأفكار التى اشتملت عليها تلك القصيدة ، كما أن هذا الحـب

---

(1) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

هو الذى هداه إلى الخير ، وأكده بهذا التشبيه (... ضياء البدر فى الظلم) ،ولا يخفى أن الشاعر قد شبه المعنوى بالمحسوس ، وفى ذلك تأكيد وبيان لأثر هذا الحب .

وانتقل الشاعر إلى الإشارة إلى كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى البيت الثانى ، ثم أكده بقوله : (لا مستثنيا ملكا) ولعله ذكر هذه العبارة دفعا لمن يتوهم أنه أراد بقوله : (يا أكرم الخلق) الإنس فقط ، بل هو أكرم المخلوقات كلها إنسا وجنا وملكا ، ثم أشار الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خير العرب والعجم بقوله : (مفوق الفرقتين : العرب والعجم) ، ولعله تأثر فى ذلك بقول البوصيرى [1] :

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

ولا شك فى أن قول الشاعر : (مفرق الفرقتين) بعد قوله : (أكرم الخلق) إطناب،من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، وهو محمود فى معرض المدح ، كما أنه فسر الفرقتين بقوله : (العرب والعجم) ومثل هذا يسمى عند علماء البلاغة (توشيعا) وهو محسن بديعى ـ كما سبقت الإشارة إليه [2] ـ يثير الانتباه ، ويؤكد الفكرة .

وفى البيت الأخير يقدم الشاعر قصيدته إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتواضع يشير إليه قوله : (هذى قصيدى ..) ثم يوضح أنه إن قبل فمن كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى (قد عم غيره) ، وإن لم يقبل فما أعظم ندمه ، وما أشد حزنه .

فضل البوصيرى وبردته :

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح المقصود بقوله (فمن كرم قد عم غيرى) وأن يشير إلى فضل البوصيرى وبردته فقال [3] :

---

(١) انظر ص١٢٠ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق هامش ص١٢١ .

(٣) ديوانه ص٢٥٨ .

يكفى الأباصيرى ما نالت قصيدته
من المقاصد فى حكم وفى حكم

ببراءة أبرأته ثم تسقمنى
برئت من ألمى إن قلت : وا ألمى

لها السباق إلى العلياء مسعدة
تلك القصيدة بالإقبال والنعم

كأنها حين تجلى فى بدائعها
هيفاء تحكى أمانينا بمبتسم

ياعالم السر من مكنون مبسمها
ومسبل الستر من شعر على القدم

فى هذه الأبيات يذكر الشاعر أن الذى قد عمه كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو البوصيرى بسبب قصيدته البردة التى ذاع خبرها وانتشر أمرها ، والتى اشتملت على حكم صادقة ،وأفكار طيبة ، كما أنها كانت سببا فى شفائه من مرضه الذى ألم به .

ثم بين الشاعر أن هذه القصيدة ـ البردة ـ لها فضل السبق إلى المكانة العالية ،والمنزلة الرفيعة ، ببدائعها وروائعها التى تشبه الهيفاء صاحبة الثغر الجميل ، وحين تبكى يزداد جمالها .

إن الذى يعلم سر مبسمها ، ومكنون أمرها ، هو الله سبحانه وتعالى ، الذى أسبل الستر على عباده ، ولم يكشفه عنهم ، فهذا يدل على قدرته .

ثم يتجلى غرام الشاعر بالمحسنات البديعية ،فيأتى بجناس محرف فى قوله : (حكم ـ بضم فسكون ـ وحكم ـ بكسر ففتح) ، وجناس شبيه بالمشتق فى قوله : (براءة ، وأبرأت ،وبرئت) ، أضف إلى ذلك الطباق بين قوله : (أبرأت) وقوله : (تسقم) ، والتكرار فى لفظ (ألمى) .

وينتقل الشاعر إلى الاعتراف الصريح بأنه نظر إلى قصيدة البوصيرى وحاكاها ، فقال[1] :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨ ومابعدها .

جرت فؤادى بألحاظ لها قسم
على الحشا هدبها من أحرف القسم
يزينها بالهيا الإخلاص، عاشقها
قد حاز معرفة من صاحب العلم
ليست مثال قصيد من أسير هوى
إلى فضول بدعوى الفضل متهم
لكن عسى المذنب الدرويش يلحظ من
(أمن تذكر جيران بذى سلم)
فالببغا تتأبل من فضل سيده
محاكيا ، وأنا حاكيتهم بفمى

يقول الشاعر : إن هذه القصيدة الجميلة قد هدت نظرى إليها بألحاظها ، ووقع قلبى أسير حبها ، ولعل السر فيما تبوأته من مكانة عالية، هو أن صاحبها قد زينها بإخلاص حبه، والصدق فيه ، ففتح الله عليه ببركة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

أما قصيدتى فليست مثلها ، وهيهات أن تبلغ مكانتها ، إذ هناك فرق كبير بين البوصيرى وبينى ، ففضله معروف ، أما أنا فمتطفل على موائد هؤلاء الكرام - مادحى الرسول بما فيهم البوصيرى - فإذا حرمت التوسل بسبب ذنوبى - فعسى أن ينالنى بعضه ببركة البوصيرى وبردته التى حاكيتها وكان مثلى كمثل الببغاء الذى يحاكى سيده .

ولعل فى أبيات الشاعر ما يشير إشارة واضحة إلى معارضة بردة البوصيرى، ويبدو أن سبب تلك المعارضة هو إعجابه بها ، ومحاولة النسج على منوالها ، قربة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم ختم الشاعر قصيدته بما شاع فى عهده من تاريخ [1] زمن نظم القصيدة ، فقال [2] :

ختام مولده مسك - مؤرخه
خير النبيين عزنا سيد الأمم
عليه صل وسلم ربنا ، وعلى
أصحابه ، وابتداء الحمد مختتمى

---

(١) التأريخ : - عده بعض الكتاب من المحسنات البديعية - هو أن يأتى الشاعر بكلمة أو بكلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت رقم السنة التى قصدها من تاريخ هجرة النبى أو التاريخ الميلادى ويسبق ذلك لفظ أرخ أو مؤرخا أو غير ذلك من الكلمات المشتقة من (التاريخ) انظر : زهر الربيع ص ٢٦٨ ، تاريخ الأدب الحديث ص ١٥ .

(٢) ديوانه ص ٢٥٩ .

إن ختام مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسك - ويبدو أن الشاعر نظر فى ذلك إلى قوله تعالى : " خِتَامُهُ مِسْكٌ . . " [1] - وكيف لا يكون كذلك وهو خير النبيين عزما ، وهو سيد الأمم - ومعلوم أن الشاعر قد أتى بهذا الوصف لوناسب تأريخ نظم القصيدة - الذى أشار إليه بقوله : (مؤرخه) .

وأخيرا يطلب الشاعر - من الله تعالى - أن يصلى ويسلم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى أصحابه ، وهو فى هذا قد زاد على البوصيرى الذى اكتفى بالصلاة فقط فى قوله : (وأذن لسحب صلاة منك دائمة .... البيت [2]) .

ثم يشير الدرويش إلى حسن الختام بقوله : (وابتداء الحمد مختتمى) .

٢ - معارضة التيمورية :

ولم تقتصر معارضات البردة فى العصر الحديث قبل شوقى - على معارضة الدرويش ، بل هناك - أيضا - معارضة التيمورية .

والتيمورية هى السيدة : عائشة عصمت بنت إسماعيل تيمور ، ولدت فى القاهرة سنة ١٨٤٠م وعاشت فى دنيا الناس ما يقرب من أربع وستين عاما ، إذ توفيت سنة ١٩٠٢ .

وعلى هذا فالشاعرة مصرية المولد والمنشأ والإقامة والوفاة ، وإن كانت تستمد أصلها من ثلاثة عناصر ، الكردى والتركى والجركسى .

فأما أصلها الكردى فيرجع إلى جدها لأبيها " محمد تيمور كاشف " الذى كان ضابطا فى الجيش وتدرج فى كثير من المناصب إلى أن توفى سنة ١٢٦٢ هـ . وأما أصلها التركى فمرده إلى جدها لأمها " عبد الرحمن الإسلامبولى " الذى كان من أصحاب الجاه فى عهده ، كما يرجع أصلها الجركسى إلى أصل والدتها .

---

(١) المطففين : ٢٦ .
(٢) انظر ص ٢١٤ من هذه الرسالة .

نشأتها :

ولقد نشأت السيدة : عائشة التيمورية فى قصر والدها .. الذى تقلب فى مناصب عالية زمنا طويلا ، وكان يجيد التحدث والكتابة ، بست لغات، وهى : التركية والعربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ولعل هذا هو السر فى بقائه مدة طويلة رئيسا للقلم الإفرنجى للديوان الخديوى - وهذا المنصب يعادل الآن منصب (وزير الخارجية) - ولم يقف عند ذلك المنصب ، بل ترقى إلى منصب الرئيس العام للديوان الخديوى[1] .

ومهما يكن من شىء فإن ابنته عائشة قد درجت فى مهد الرفاهية والعز ، تكتنفها فخامة القصور ، ويحيط بها زهو الألقاب ، ولكنها أبت أن تحيا حياة فتيات عصرها بمنأى عن تثقيف العقل ، وتهذيب النفس ، فنشأت نزاعة إلى العلم ، متلهفة على كتب الأدب[2] ، ولعل ذلك مرجعه إلى ما شاهدته فى قصر والدها ، من شعراء وأدباء ، يترنمون ويتسامرون ، إلا أن والدتها كانت تمنعها على تركها التطريز وما شاكله من دروس التربية النسوية ، وإقبالها على كتب الأدب ودواوين الشعر ، ولكن والدها وقف بجانبها يشجعها قائلا لوالدتها : ".. دعى هذه الطفلة للقرطاس والقلم ودونك شقيقتها ، فأدبيها بما شئت .. "[3] كما أحضر لها أستاذين : أحدهما : يحفظها القرآن الكريم ويعلمها الفقه والخط ، والثانى: يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية ، مما ساعدها على إتقان ثلاث لغات : العربية والفارسية والتركية .

زواجها :

ولقد أقبلت على كتب الأدب بشغف وحماس ، لكى تحقق حلمها الذى

(١) عائشة التيمورية : حلية الطراز ص ١٥ وما بعدها - من المقدمة ، طبعة دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٢ .

(٢) زينب فواز : الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ص ٣٠٨ وما بعدها ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١٢ هـ . ومقدمة ديوانها ص ١٦ بتصرف .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١١٥ .

راودها فى فجر حياتها ، إذ كانت تتمنى أن تنضم إلى موكب الشعراء، وتغدو ندا لهؤلاء الأعلام ، الذين تطلعت إليهم ، وأعجبت بهم ، ولكنها فوجئت بأحد أشراف الترك ويدعى: "محمد توفيق زاده" يطلب يدها من أبيها ، ووافق والدها فعلا مع أنها لم تتجاوز الخامسة عشر عاما [1].

وكان من الطبيعى أن تشغلها الحياة الزوجية عن متابعة نشاطها الثقافى وبخاصة عندما أصبحت أما ، ولكنها لم تلبث أن رجعت إلى الاشتغال بالأدب عندما مات زوجها سنة ١٢٩٢ هـ بعد وفاة والدها سنة ١٢٨٩ هـ ، فلم تجد عزاء إلا فى الانصراف إلى الكتب ، تاركة أمر البيت لبنتها "توحيدة"[2] وبدا لها أن تتقن "علم العروض" الذى لم تكن على علم كاف به ، وشاء الله أن تموت ابنتها توحيدة ، وهى مقدمة على زفافها ، فحزنت عليها أمها حزنا كبيرا ، وبكتها بكاء حارا ، حتى ضعف بصرها ، وأصيبت بمرض استمر أربع سنوات ، ثم صعدت روحها إلى بارئها .

آثارها :

تركت التيمورية بعض المؤلفات ، وأهمها [3] :

١- ديوانها العربى (حلية الطراز) .

٢- ديوانها الفارسى ...

٣- نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال (وهى رسالة فى الأدب) .

٤- مرآة التأمل فى الأمور (وهى رسالة فى الأدب أيضا) .

٥- اللقا بعد الشتات (رواية تمثيلية) .

شعرها :

من يقرأ ديوانها العربى (حلية الطراز) يجد أنها قد نظمت الشعر فى كل أغراضه التقليدية تقريبا ، وهى إن ذكرت - أنها نظمت الشعر محاكاة لمن سبقتها من النساء - فى قصيدتها التى منها قولها :

---

(١) مقدمة ديوانها ص١٨ .

(٢) المرجع السابق ص٢٨ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص١٨ ، ص٢١ .

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر
قبلى ذوات الخدر والأحساب[1]

إن ذكرت ذلك فقد بلغت فى نظمها مبلغا حسنا، يؤكده بعض الكتاب بقوله: " .. إن من يوازن بين شعر هذا الديوان، وما كان يجرى عليه الشعر العربى فى ذلك الحين الذى عاشت فيه الشاعرة فإنه سيجد فى شعر (التيمورية) مثلا قويا رائعا من بلاغة الشعراء فى ذلك العصر الذى يعد فجرا للنهضة الأدبية بعد ركود طال مداه ...[2] " ولقد ساعدها على ذلك " أنها درست خير ما كان يدرسه أبناء ذلك الجيل، فضارعت فى النظم أحسن من نظم فيه، فإذا استثنينا البارودى أولا، والساعاتى ثانيا، فشعر السيدة عائشة يعلو إلى أرفع طبقة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر فى أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العرابية[3] .. "

ولعل السبب فى نبوغها يرجع إلى ما كان عندها من استعداد لقرض الشعر، ويؤكد ذلك العقاد بقوله: " .. قد وجدت عائشة لها معلمات وزميلات يقرأن الأدب، ويعرفن الشعر والعروض، ولكن المسألة فى نبوغها ليست مسألة تعليم المرأة، وما وصل إليه من الذيوع والاستحسان، فإن هذا التعليم قد شاع فى عصرنا، حتى أصبح عندنا ألوف من البنات يقرأن كما كانت تقرأ السيدة عائشة تيمور، ويطلعن على أكثر مما اطلعت عليه ... فلو كانت المسألة فى هذا الصدد مسألة (تعليم البنت) لوجب أن يكون لدينا عشرون أو ثلاثون شاعرة فى طبقة التيمورية، أو فى أعلى من طبقتها، وهو غير الواقع فيما نراه ويراه غيرنا، بل الواقع أننا لم نقرأ لمن نشأن بعد السيدة عائشة التيمورية نظما يضارع نظمها، ولا شاعرية تقارب شاعريتها، وإن كان التعليم فى عصرنا أو فى، وسداد العلوم والثقافة .. أكثر وأغنى، .. إنما المسألة هنا، أن الاستعداد للشعر نادر، وأنه بين النساء أندر ....[4] ".

---

(١) ديوانها ص ٢٦٥.
(٢) على الجبلاطى: من أدباء الإعلام المعاصرين ص ٧٥ وما بعدها - مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠.
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١١٥.
(٤) المرجع السابق ص ١١٦.

ويمكنني أن أقول - إن شعر التيمورية - بعامة - جميل النظم ، جيد السبك ، ينساب بلا تكلف للفظ ، ولا تصنع للمهارة ، وإن كان خاليا من العمق .. ولقد ورد في ديوانها مقسما إلى خمسة أقسام[1] :

شعر المجاملة ، والشعر المائلي ، والشعر الغزلي - والشعر (الأخلاقي[2]) ، والشعر الديني ، والابتهالي ، وسأكتفي بالحديث عن شعرها الديني ؛ لأنه شديد الصلة بقصيدتها التي عارضت بها بردة البوصيري ، وهو - شعرها الديني - لم يستغرق في ديوانها أكثر من خمس صفحات[3] ناجت به ربها ، وتوسلت إليه بنبيها (صلى الله عليه وسلم) لكي يغفر ذنبها ، ويستر عيبها .. ومن ذلك قولها[4] :

إلهي سيدي أنت الجليل ... بباب رجائك العبد الذليل

ضعيف الحال منكسر فقير ... كثير المنفق ناصرة قليل

فأنت لذنبه ربٌّ غفور ... كريم صفحة الساعي جزيل

قصدت حماك يامولى الموالي ... أروم العفو ، لي أمل جميل

قصدت حماك ، تستر قبح عيبي

بسر المصطفى إني دخيل

ومن هذا القسم قصيدتها التي عارضت بها بردة البوصيري ، وقد بلغ عدد أبياتها أربعين بيتا ونهجت فيها نهج البردة في أفكارها ووزنها ورويها[5] ، على الرغم من أنها لم تشر إلى ذلك صراحة ، كما أشار الدرويش - سابقا[6] - إلا أن مما يؤكد أنها قرأت بردة البوصيري ، وتأثرت في نظمها بأفكارها ، بل بألفاظها ، أنها أخذت منها بعض أبياتها ، وضمنتها بعض قصائدها ، ومن ذلك قولها :

فما لعيني إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبي إن قلت استفق يهم[7]

---

(١) ديوانها ص١٠١ . (٢) في لفظ (الأخلاقي) خطأ لغوي وصوابه : (الخلقي) ، إذ لا يصح النسب إلى الجمع بل ينسب إلى مفرده ، انظر (منار السالك إلى أوضح المسالك جـ ٢ ص٣٤٦) (٣) ديوانه ص ٢٦٩ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص٢٧٢ (٥) ديوانها ص٢٦٩ وما بعدها .
(٦) انظر ص ٣ من هذه الرسالة . (٧) ديوانها ص٢٢٧ .



فهو من قول البوصيرى :

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ⁂ وما لقلبك إن قلت استفق يهم

ولعل القارئ يدرك الصلة الشديدة بين القولين ، ولولا التغيير الهين في الضمائر لقلت : إنهما بيت واحد .

كما أنها أخذت الشطر الثاني من قول البوصيرى :

وكلهم من رسول الله ملتمس ⁂ غرفا من البحر أو رشفا من الديم

ووضعته فى أحد أبيات قصائدها قائلة :

فحبها بقبول فهو راجية ⁂ (غرفا من البحر أو رشفا من الديم)[1]

ومهما يكن من شئ ، ففى معارضة التيمورية ما يدل على أنها نظرت إلى بردة البوصيرى ، ونهجت نهجها فى كثير من أفكارها ، وسوف أنبه على مثل ذلك فى أثناء تحليلى تلك المعارضة التى بدأتها بقولها [2] :

أمن وميض سرى فى حندس الظلم
أم نسمة هاجت الأشواق من (إضم)[3]
تجددت لى عهدا بالغرام مضى
وشاقنى نحو أحبابى (بذى سلم)
دعا فؤادى من بعد السلو إلى
ما كنت أعهد فى قلبى من القدم
وهاجنى لحبيب عشق منظره
يمحو ويثبت ما بهواه من عدم
يمحو سُلُوى ، كما يمحو إساءته
حبى له ، فعذابى فيه كالنعم

تتساءل الشاعرة عما جدد غرامها ، وألهب شوقها ، أنورُ محبوبها الذى سرى فى الظلام الشديد ، أم الريح الطيبة التى هبت من ناحيته ؟ مما جعل قلبها يتذكره بعد طول نسيان ، بل جعله يستعذب منه كل إساءة وهوان !!

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .   (٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ .
(٣) حندس (بكسر الحاء والدال بينهما نون ساكنة) : الليل الشديد الظلمة .

لقد بدأت التيمورية قصيدتها باستفهام يثير الحس، ويلفت الذهن، وهي متأثرة في ذلك بمطلع بردة البوصيري، ومما يؤكد ذلك: استفهامها بالهمزة، مع ذكر معادلها (أم)، بالإضافة إلى أن محبوبها مثل محبوب البوصيري .. فقد سرى نور من جهته، وهبت ريح طيبة من ناحية دياره في إضم وذي سلم.

ولا شك في أن غزلها تقليدي، إلا أن اعترافها صراحة بغرامها، وعشقها لمنظر حبيبها، لم يحسن منها، وبخاصة أنها هي التي رفعت صوتها مفتخرة بأدبها وعفافها حين قالت: (١)

بيدى العفاف أصون عزّ حجابي

وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقّادة وقريحة ∴ نقّادة قد كملت آدابي

نعم .. إن الحب من سمات الإنسان وطبيعته، ولكن ليس من المقبول إعلانه بهذه الطريقة، وبخاصة إذا كان من أنثى تعيش في مجتمع شرقي، له عاداته وتقاليده وآدابه، ولقد كان من الممكن أن تسلك مسلك البوصيري، الذي جرد من نفسه شخصا يخاطبه ويسأله عن حبه، وما زال يسأله حتى اعترف به بعد نكران، وأقر بعد جحود وكتمان، وهذا — في رأيي — أفضل من التصريح الذي وقع من التيمورية، التي أكدت حبها، وبينت مدى استيلاء محبوبها على إحساسها، فوصفته بأنه: (يمحو ويثبت)، وما كان لها أن تصفه بذلك، وهي التي كانت تقرأ القرآن الكريم، وحفظت منه الكثير، وتعلم أن هذا الوصف مقصور على الله (سبحانه وتعالى)، إذ يقول جل جلاله: "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ .. الآية (٢)". ولكنه الحب الذي ملك عليها أمرها، فمحا سلوها لحبيبها، كما محا إساءته، وجعلها تتحمل في سبيله كل عذاب، بل إن كل عذاب منه نعمة لها: (فعذابي فيه كالنعم) فما أعجب حال المحبين !!

هذا كل ما تضمنته هذه الأبيات، وهي سهلة الألفاظ، ولكنها غير جديدة الأفكار، ولقد زينتها الشاعرة ببعض المحسنات البديعية مثل:

---

(١) ديوانها ص ٢٦٥ . (٢) الرعد ٣٩ .

الطباق فى قولها : (يمحو يثبت) ولا يخفى أن هذا المحسن يشير إلى مدى استيلاء الحب على إحساس محبوبته ـ كما سبق ـ كما أن فى إسناد الفعل (يمحو) إلى الحب مجازا عقليا علاقته السببية ، ولا شك فى أن فى هذا الإسناد تشخيصا لذلك الحب ، وإيماء إلى بيان مقداره وشدته .

ولعل فى تكرار هذا الفعل ما يؤكد شدة هذا الحب الذى ظهرت آثاره ، وانتشرت أخباره ، فكان المشهد الثانى من مشاهد المحبين ، وهو ما أشارت إليه الشاعرة فى قولها :[1]

رام الوشاة سُلُوى عن محبته
ولم أوف لهم عذلا ولم أرم

كيف استتار الجوى يامن تملكنى
وشاهد العشق فى العشاق كالعلم

فياله معرضا عنى ومعترضا
بين الفراغ وقلبى وهو متهم

حسبى من الحب ما أفضى إلى تلفى
وما لقيت من الآلام والسقم

فى هذه الأبيات انتقلت الشاعرة إلى بيان ما يتخيله كل محب ، إذ يتصور أن الوشاة يراقبون نظراته ، ويعدون خطواته ، ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين محبوبه ، وهذا ما سلكته التيمورية ، إذ بينت أن الوشاة يحبون أن تبعد عن حبيبها ، وتنسى محبته ، وتقطع مودته ، ولكنها لم تحقق لهم أملا ، ولم تهتم بعذلهم إياها .

ولقد تساءلت فى عجب : كيف تستر آثار هذا الحب الذى تملكها ، مع أن شواهده ظاهرة كالعلم ، ولكنها ـ مع كل هذا ـ تشير إلى قسوة ذلك المحب الذى تعانى من أجله الكثير ، وهو معرض عنها ، بل إنه ليتهمها بنسيانه .

والشاعرة بعاطفتها الحزينة ـ قد صورت ما يعانيه المحبون من الوشاة المفسدين من ناحية ، وما يقاسونه من آلام الصد ، وآمال الوصل من ناحية ثانية ،

---

(1) ديوانها ص ٢٦٩ .

وإن كانت قد تأثرت فى ذلك بقول البوصيرى : [1]

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت

به عليك عدول الدمع والسقم

إلا أنها تصرفت فى عبارتها بعض التصرف ، كإشارتها إلى إعراض الحبيب مثلا .

ولا يخفى ما فى عبارتها من ألفاظ موحية ، وتراكيب مؤثرة ، مثل استفهامها : (كيف استتار الجوى ..) الذى يدل على قوة الحب الذى تملكها ، كما يشير إلى عدم استطاعتها إخفاء آثاره ، ولعلها حذفت الفاعل لأنه مفهوم من سياق الكلام - أو شجعها على ذلك قصد من الحياء - فى قولها : (يا من تملكنى) وكان الأصل (يا من تملكنى حبه) مثلا ، أضف إلى ذلك أن فى قولها :(نيالـه معرضا عنى ومعترضا ..) تعجبا مليئا بالأسى من صد حبيبها عنها مع عدم استطاعتها الإعراض عنه ، ويبدو أنها عبرت بالموصول فى قولها : (ما أقضى ، وما لقيت) إشارة إلى عظم ما عانته من هذا الحب ، ووضحت ذلك بقولها : (من الآلام والسقم) .

ولقد زينت عبارتها ببعض المحسنات البديعية مثل : رد العجز على الصدر فى قولها : (رام - أرم) وإن كانت قد أثقلت هذا الشطر :(وشاهد العشق فى العشاق كالعلم) بتكرار حرف الشين .

ولعلك تلحظ أن عاطفة الشاعرة فى هذه الأبيات مليئة بالحسرة والندم ، مما جعلها تكتفى من الحب - بهذا القدر ، وقررت وضع نهاية لهذا الأمر ، فقالت فى شجاعة وصراحة [2] :

إنى ردوت عنانى عن غوايته

وقلت : يانفس خلى باعث الندم

ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ

يدعو المنادى ، فتحيا الناس من رجم

---

(1) انظر ص ٩١ من هذه الرسالة .

(2) ديوانها ص ٢٦٩ .

طـه الذى قد كسا إشراق بعثتـه
وجه الوجود سناء الرشد والكـرم
طـه الذى كللت أنوار سنتـــه
تيجان أمته فضلا على الأمـــم

وفى هذه الأبيات تعلن الشاعرة أنها حزمت أمرها ، وتحكمت فـى هواها ، فردته عن غوايته - لأنها يجلب الحسرة ويبعث الندم - ثم وجهته الوجهة السليمة ، ولاذت بالمصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذى هو جدير بالحب، وأهل للإعزاز والتقدير ، إذ هو صاحب الشفاعة العظمى ، يوم يقـوم الناس لرب العالمين ، كما أن بعثته كانت مصدر خير ، وينبوع هناء على العالم وبسببه (صلى الله عليه وسلم) فضلت أمته على سائر الأمم .

يبدو أن الشاعرة عندما يئست من وصل محبوبها ، اتجهت إلى حبيـب ينعم القلب بحبه ، وتقر العين باتباعه ، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلـم) إلا أن الطريق إلى هذا المحبوب الكريم ، يبدأ بالبعد عن الدنايا ، ولذلـك أكدت الشاعرة هذا الأمر بقولها : (إنى رددت ..) فصدرته بإن المؤكـدة وعبرت بالفعل الماضى مسندة هذا الرد إلى ضميرها لمباشرتها إياه بنفسها ، كما أظهرت ندمها على ما فرط منها بقولها : (يا نفس خلى باعث الندم) وكـل هذا بمثابة التخلية قبل التحلية التى أشارت إليها بقولها : (ولــذت بالمصطفى ..) .

والتيمورية بقولها : (إنى رددت ..) قد خالفت البوصيرى الذى لـم يستطع كبح جماح نفسه ، وطلب من يعاونه عليها بقوله : (من لى بـــرد جماح من غوايتها ..[1]) ولكنها مع ذلك قد تأثرت فى عبارتها به ، ويؤكـد ذلك قولها : (بالعنان ..) وهو خاص بالفرس ، وأتى البوصيرى بقولـه : (باللجم) وصرح بذكر الخيل ، ولا يخفى أن فى عبارة التيمورية استعـارة مكنية دلت على حزم أمرها ، ولكن البوصيرى كان صادقا فى طلبه من يساعده على كبح هوى نفسه - وهذا يطابق الواقع - لأن النفس أمارة بالسوء ، فهـى

---

(١) انظر ص ١٠٠ من هذه الرسالة .

تحتاج إلى خبير بأحوالها ، عليم بدسائسها ، ولعله تأثر فى ذلك بمبادئ الصوفية الذين يجعلون للمريد شيخا ، يرشده ويوجهه ، أما التيمورية فقد أظهرت قدرتها على تحكمها فى نفسها ، وإن كان ذلك أمرا طارئا إثر فقدها فى حبها ، ويؤكد ذلك أنها ستطلب من يعينها على نفسها - فيما سيأتى من الأبيات - .

ولا يخفى أن قول الشاعرة : (ولذت بالمصطفى ..) مأخوذ من قول البوصيرى [1] :

يا أكرم الرسل ما لى من ألوذ بــــه
سواك عند حلول الحادث العمـــم

إن تأثر الشاعرة واضح ، ولكنها حاولت التصرف فى بيتها تصرفا حسنا ومن ذلك إشارتها إلى أول مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يوم ينفخ فى الصور ، فيخرج الناس من قبورهم أفواجا ، وهو مشهد صعب حقا ، ويبدو أن التيمورية تلمح بذلك إلى قوله تعالى : " وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِى مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ [2] " ويؤكد ذلك أنها كانت تقرأ القرآن الكريم ، وحفظت نصفه ، وعندما رمدت عيناها ، حزنت لأنها لم تستطع القراءة فى المصحف ، وهذا ما أشارت إليه بقولها [3] :

غدوت بفرقة (الفرقان) صبــا
أسائل فى التلاوة كل تــال
ولولا أن حفظ النصف منه ∴ شفى قلبى لذبت من اشتغالى

ويزيد ذلك تأكيدا أنها عندما شفيت قالت لابنها : " سأنصرف إلى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوى .. [4] " .

---

(١) انظر ص٢٠٨ من هذه الرسالة .
(٢) ق / ٤١ و ٤٢ ، مع مراعاة أن الرسم العثمانى فى المصحف قد حذف اليائين فى قوله تعالى : (يناد المناد .)
(٣) ديوانها ص١٦٤ .
(٤) المرجع السابق ص٧٥ .

وإذا كان البوصيري قد أشار إلى يوم القيامة بقوله : (.. عند حلول الحادث العم) فهذه الإشارة موجزة بالنسبة إلى إشارة التيمورية إليه ، في قولها : (إذ يدعو المنادى فتحيا الناس من رجم) .

ولعل مما يؤكد تأثرها في بعض ألفاظها بالقرآن الكريم أنها ذكرت كلمة (طه) على أنها اسم من أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعلوم أن في القرآن الكريم سورة تسمى بهذا الاسم - طه - إلا أن كثيرا من العلماء قالوا: إن معناها (يا رجل [1]) - وهي مأخوذة في الأصل من اللغة النبطية أو السريانية أو الحبشية - وقيل معناها : يا إنسان ، وقيل معناها في الأصل : (طأها) أي ضع قدميك على الأرض بقوة وثبات ، وقيل غير ذلك ، ويبدو أن من استعملها على أنها اسم من أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) رأى أن الخطاب بعدها موجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى : (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى .. [2]) ... إلا أن هؤلاء لا حجة قوية لهم ، إذ روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى - الذى يمحو الله بى الكفر - وأنا الحاشر - الذى يحشر الناس على قدمى - وأنا العاقب .. [3] " فلم يذكر أن من أسمائه (طه) .

ويلوح لى أن الشاعرة تأثرت في ذلك ببعض المتصوفة الذين ذكروا أن للرسول (صلى الله عليه وسلم) أسماء كثيرة ومن بينهم صاحب دلائل الخيرات [4] ، وأن بعض الكتاب أشار إلى أن أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) كثيرة، ولكن منها ما هو علم ، ومنها ما هو صفة من صفاته .. وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى [5] .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ١١٩ ، تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٢٦٦ .
(٢) طه : ٢ . (٣) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٢٥ .
(٤) هو محمد بن سليمان بن عبد الرحمن الجزولى الشاذلى توفى سنة ٨٧٠ هـ الأعلام جـ ٧ ص ٢١) الجزولى : دلائل الخيرات ص ٢٠ مكتبة القاهرة سنة ١٣٦٩ هـ .
(٥) الدكتور : شعبان إسماعيل : من خصائص الرسول وشمائله جـ ١ ص ٢٥ مطبعة الحسين بمصر سنة ١٩٧٧ .

ومهما يكن من شيء ، فلم تخل عبارة الشاعرة من نكتة لطيفة ، تأمل قولها : (كما إشراق بعثته وجه الوجود ..) تجده يشير إلى عظمة بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأثرها في الوجود ، وهذا التعبير تعبير مجازي — استعارة مكنية — فيه تشخيص وإيحاء ، كأنها تقول : كان العالم في ظلام دامس ، فإذا الشمس أشرقت ، وأرسلت شعاعها على الوجود ، فانقشع الظلام وعم النور ، ولو قالت : (كما إشراق بعثته الوجود ..) لكان أعم وأشمل ، وأتم وأكمل ، ويبدو أنها آثرت التعبير الأول إشارة إلى بدء البعثة إذ كانت سرية ، ثم تدرجت حتى عمت البقاع والأصقاع ، أو أتت به على سبيل المجاز المرسل وعلاقته الجزئية ، واختارته لبيان أن أول ما يتأثر ظاهرا بالنسبة للإنسان هو الوجه ، إذ هو المرآة التي تعكس ما في القلب من حزن وفرح .

ولعل في قولها : (كما) ما يدل على الإحاطة والتمكن ، وإسناده إلى (إشراق) مجاز عقلي ، يوحي بعظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعظمة بعثته ، ويؤكد ذلك قولها : (سناء الرشد والكرم) ؟ فهو كساء عظيم يسمو بالمجد والرفعة ، ويهدي إلى الطريق المستقيم .

ولقد أشارت الشاعرة إلى أن فضل هذه الأمة المحمدية مكتسب من أنوار الشريعة الإسلامية التي بعث الله بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولعل في ذلك إلماح إلى قوله تعالى : " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ... الآية (1) " .

ويبدو أن التيمورية لم تستطع التخلص من بعض الألفاظ التي سمعتها في القصور التي كانت تعيش فيها : ولذلك ذكرت هنا : (كللت وتيجان) .

ولعلك تلحظ أن الشاعرة لم ترتب أفكارها : إذ مدحت الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة ، ثم مدحته بإشراق بعثته ، وأثرها العظيم ، ثم أشارت إلى فضل الشريعة السمحة .

---

(1) آل عمران : ١١٠ .

ومهما يكن من شيء فإنها واصلت مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقولها [(١)] :

نعم الحبيب الذى منّ الرقيب بـه
وهو القريب لراجى المجد والنعـم [(٢)]

روحى الفداء ، ومن لى أن أكون لـه
هذا الفداء وموجودى كمنعـدم [(٣)]

وما هى الروح حتى أفتديـه بهـا
وهى الهفات بغار الظلم والظلـم [(٤)]

والعمر أفنت ثقال الوزر لمحتـه
وهددتـه ظروف الدهر بالتهـم

يبدو أن التيمورية أحست بما فى محبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خير، فمدحته بأنه (نعم الحبيب) الذى منّ الله به على المسلمين ، وجعله رحمة للعالمين ، ثم جعلت نفسها فداء له (صلى الله عليه وسلم) وهذا شرف عظيم لها ، ولكن من يمكنها من ذلك وبخاصة أن نفسها حقيرة لاتساوى شيئا، فوجودها كعدمها ، بالإضافة إلى أنها قد لطخت بالآثام التى أفنت أيام عمرها ، وهددتها حوادث الدهر .

ولعل قولها : (نعم الحبيب) مأخوذ من قول البوصيرى : (هو الحبيب [(٥)]) إلا أن بينهما فرقا كبيرا ، إذ عبارتها تفيد أنه حبيب عالى القدر ، عظيم المنزلة ، أما عبارة البوصيرى فزادت على ما سبق أنه هو الحبيب لا غيره إذ أن تعريف الطرفين (المبتدأ والخبر) يفيد القصر ، وقولها : (منّ الرقيب به)

---

(١) ديوانها ص ٢٦٩ .
(٢) القريب : اسم من أسماء الله تعالى .
(٣) المراد بالروح هنا : النفس .
(٤) الهفات : (بضم الهاء) طائر شرير، والظلم — الأولى — بضم (الظاء وسكون اللام)، وأما الثانية (فبضم يليه فتح) جمع ظلمة (بضم فسكون) — ومعناها واضح .
(٥) انظر ص ١٢١ من هذه الرسالة .

يلمح إلى قوله تعالى : " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ... الآية[١] " وفى ذلك تأكيد لعظم منزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أن قولها : (وهو القريب) يجوز أن يكون وصفا لله تعالى فيكون تلميحا إلى قوله تعالى : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. الآية[٢] " . ويجوز أن يكون وصفا للرسول (صلى الله عليه وسلم) فيكون إشارة إلى جوده وكرمه .

وإذا تأملت قولها : (ومن لى أن أكون له ..) وجدته يشير إلى أن الشاعرة تحقر نفسها ، وتنزل قدرها ، بسبب ما ارتكبته من الذنوب، ثم بينت ذلك بتشبيهها بالطائر الشرير الذى يسكن غارا مظلما ، ولعلها أرادت بالغار جسدها الذى تسكن فيه هذه النفس الظالمة الآثمة.

ولقد أشارت التيمورية إلى أن عمرها مرّ كلمحة ، ولكنه مثقل بالذنوب وفى هذا ندم وحسرة ، ويؤكده المجاز العقلى فى إسناد (أفنى) إلى (ثقال الوزر) . كما أشارت إلى المصائب التى نزلت بها فى قولها : (وبددته صروف الدهر) وفى ذلك القول مجاز عقلى ـ أيضا ـ لأن الفاعل فى الحقيقة هو الله ، إلا أن فى هذا المجاز دلالة على شدة تلك المصائب .

ولما أحست الشاعرة بفداحة ذنوبها ، وسرعة مرور أيام عمرها وذهابها فى اللهو ، واصلت ندمها بقولها :[٣]

أين الرشاد الذى أعددته لغد ... غويت عنه فزلت بالهوى قدمى
من لى بتوب رحلب لو أفوز بها ... كحلت عينا أفاضت دمعها بدم
من لى بأطلال بان عز منظرها ... تسقى بطل من الآماق منسجم[٤]

---

(١) آل عمران ١٦٤.
(٢) البقرة : ١٨٦.
(٣) ديوانها ص ٢٧٠ .
(٤) الطل : (بفتح الطاء) المطر الضعيف.
الآماق : جمع (مُوْق) بضم فسكون : طرف العين مما يلى الأنف .

تحط أثقال وزر لا تقوم بهـــا

شم الرواسى من راس ومنهـــدم

لقد أخذت التيموريـة تسأل نفسها ، سؤال توبيخ وندم : أيـــن العمل الصالح الذى أعددته ليوم القيامة ؟ كما أظهرت حزنها ، لأنهـــا ضلت عن هذا العمل ، أضف إلى ذلك أنها تمنت أن تحج بيت الله الحرام ، وأن تزور تلك الرحاب الطاهرة ، طمعا فى غفران ذنوبها ، التى لا تستطيع الجبال الرواسى حملها .

وإذا تأملت قولها : (.. أعددته لغد) وجدتها تلمح إلى قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. الآية)[1] أما قولها : (زلت بالهوى قدمى) فهو كناية تشعر بالندم وتكشف عـــن عاطفة حزينة ، يؤكد ذلك هذا الدمع الغزير فى قولها : (أفاضت دمعهـــا بدمى) ، وإذا كان الاستفهام فى قولها : (أين الرشاد ..) يشعر بالندم ويفيد التوبيخ ، فإنه فى قولها : (من لى بترب رحاب ..) و (من لـــى بأطلال ..) يفيد التمنى والاستعطاف .

ويبدو أن المراد بقول الشاعرة : (من لى بترب رحاب لو أفوز بها ..) أنها تريد حج بيت الله الحرام ، لأنه هو الذى يكون سببا فى غفران الذنوب ، وهو ما أشارت إليه الشاعرة بقولها : (تحط أثقال وزر) ويؤكد ذلك قـــول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "[2] ، ولذلك تمنت الشاعرة أن تحقق ذلك الأمر ، بل عدت الحصول عليه فوزا عظيما ، وأشارت إلى أنها لو ذهبت إلى تلك البقاع المقدسة لكحلـــت عينيها بترابها ، ومتعت نا ظريها بجمالها وجلالها ، كما تمنت أن ترى آثـــار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، مثل أماكن غزواته وأماكن تعبده ، وغـــير ذلك .

---

(١) الحشر / ١٨ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٢ ص ١٦٤ .

بأن التيمورية تريد أن تسقى هذه الأماكن الطاهرة من دموع عينوهـا ، ولعل ذلك كناية عن ندمها ، وإشارة إلى توبتها ، إلا أن لفظ (الطل) يوحى بقلة الدموع ، ويبدو أنها أرادت به مطلق الدمع بدليل قولها بعد ذلك : (منسجم) .

ومهما يكن من شئ ، فإن فى إسناد الفعل (تحط) إلى ضمير تلك الأماكن ، مجازا عقليا ، يوحى بعظم منزلة تلك الأماكن التى تكون زيارتها سببا فى غفران الذنوب ، ولقد انتقلت الشاعرة انتقالا مفاجئا إلى الحديث عن بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقولها [1] :

فكم ينبع زلال فاض من يده	أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى [2]
والجذع أنّ له من بعده جزعا	لما نأى عنه مولى العرب والعجم
لانت له الصخرة الصماء طائعة	مذ مسها سيد الكونين بالقدم
فيالها معجزات ما لها عدد	أقلها ما بدا نارا على علم

فى هذه الأبيات تشير التيمورية إلى ثلاث معجزات من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) . الأولى : نبع الماء من بين أصابعه الشريفة حتى شرب الصحابة وتوضأوا ، وهذا ثابت بالأحاديث الصحيحة ، ومنها ما روى عن جابر (رضى الله عنه) أنه قال : عطش الناس يوم الحديبية [3] ، والنبى (صلى الله عليه وسلم) بين يديه ركوة [4] — إناء صغير من الجلد يشرب به — فتوضأ ، فجهش الناس نحوه ، قال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ما نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت — راوى الحديث — كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .. [5] » .

ولعل فى تعبير الشاعرة بلفظ (كم) ما يشير إلى تعدد هذه المعجزة وتكرارها ، كما أن فى قولها : (أسقى منه كل ظمى) بعد قولها

---

(١) ديوانها ص ٢٧٠ . (٢) أروى متعدى روى — الأوام : (بضم الهمزة) حر العطش .

(٣) (بضم الحاء وفتح الدال وكسر الباء) قرية قريبة من مكة .

(٤) بفتح الراء والواو بينهما كاف ساكنة .

(٥) صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٤ .

: (أروى الأوام) تأكيدا لهذا الأمر ، ويجوز أنها أرادت بالمبـــارة الأولى الإنسان ، وبالثانية ، الحيوان مثلا . والمعجزة الثانية : أنين الجـذع وهذا ثابت بالأحاديث الصحيحة — أيضا — ومنهما ما روى عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أنه قال : كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يخطب إلى جـذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع ، فأتاه — الرسول — فمسح بيده عليه . . . (١) » .

والمعجزة الثالثة : تلك الصخرة الصماء التى قيل : إن قدمى الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أثرتا فيها عندما وقف عليها ، إلا أننى لم أجد حديثا يشـير إلى ذلك ، غير أنه يوجد فى المسجد الأحمدى بمدينة طنطا بالقرب من ضريح العارف بالله سيدى : أحمد البدوى (رضى الله عنه) يوجد حجـــر عليه أثر قدمين ، ومشهور بين النـاس أنهما للرسول (صلى الله عليه وسلـم) ولكن ليس ذلك على وجه اليقين ، وقد نفى بعض الكتاب أنهما للرسول (صلى الله عليه وسلم) . (٢)

ومهما يكن من شىء فإن معجزات الرسول (عليه الصلاة والسـلام) كثيرة لا يحصيها عدد ، ولعل الشاعرة اكتفت بما ذكرت ، وأشارت إلى كثرتها ، متعجبة من تلك الكثرة بقولها : (فيالها معجزات مالها عدد) .

ومما هو جدير بالذكر أن التيمورية لم تنظر إلى البوصيرى فى تلـــك المعجزات الثلاث لأنه لم يشر إليها ، وإن كان قد أشار إلى غيرها — كما سبق .

ويبدو أن الشاعرة أرادت أن تعتذر عن قلة مديحها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقالت (٣) :

ولا يحيط به مدحى ولو جعلت
جوارحى ألسنا ينطقن بالحكـــم

وإنما أرتجى من مدحه قبسا ∴ يهدى الصراط ويشفى الروح من ألم

---

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٧ .
(٢) العظمة والاعتبار ص ١٦٤ وما بعدها .
(٣) ديوانها ص ٢٧٠ .

إن مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سامية ، ومنزلته عالية ، ومحامده كثيرة ، ولذلك أكدت التيمورية أنها لا تستطيع أن تحيط بشمائله ، ولا تعد كل فضائله ، حتى لو جعلت كل جوارحها ألسنا ناطقة بالفصاحة من القول ، والصدق من الحديث ، وما دام الرسول (صلى الله عليه وسلم) كذلك فهى ترجو أن تنال شعاعا من حبه ، وقبسا من نوره ، يهديها الصراط المستقيم ، وينقى نفسها من دسائسها ، ويشفيها من آلامها .

ولا شك فى أن تلك الفكرة خالية من الخيال ، إذ هى من الواقع لأن مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكبر من أن يحيط به إنسان ، مهما أوتى من الفصاحة والبيان .

ولعلك تلمس فى عبارة الشاعرة ما يدل على ضعفها وعجزها أمام شخصية الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، ومن ذلك قولها : (ولا يحيط به مدحى) فالعجز عن الإدراك إدراك - ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه ، ولعل الفعل : (أرتجى) يوحى بما تعانيه الشاعرة من جهاد نفسها ، الذى أشارت إليه بقولها : (ويشفى الروح من ألم) ، ثم أكدته بقولها :(١)

وكيف لى باتعاظ النفس آمرتى
بالسوء ، ناهيتى عن مورد النعم
فما التعاسى عن خير يقربنى
زلفى النعيم ولا نسقى بمنتظم

وهنا عادت الشاعرة تتساءل - فى أسى - كيف تستطيع وعظ نفسها ، وزجرها عن دسائسها ، إنها تأمرها بالسوء ، وتبعدها عن الخير ، حتى جعلتها تسأم من البحث عما يقربها من الجنة .

وإذا تأملت قولها : (وكيف لى ..) وجدت الاستفهام يفيد الغرابة أو البعد ، لأن هذا الأمر يندر الحصول عليه إلا بشق الأنفس .

ولعل التيمورية متأثرة فى ذلك بالبوصيرى عندما قال : (فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت ..)(٢) . إلا أن بين القولين فرقا كبيرا ، ومن ذلك أن

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها . (٢) انظر ص ٩٧ من هذه الرسالة .

البوصيرى وصف النفس بأنها (أمارة) ، أما التيمورية فوصفتها بأنها (آمرة)، فالتعبير الأول أبلغ من الثانى ، ولذلك عبّر به القرآن الكريم فى قوله تعالى : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ..) (١) .

ويلاحظ أن الشاعرة قد نقضت ما صرحت به سابقا بقولها : (إنى رددت عنانى عن غوايته) (٢) إذ أكدت أنها ردت عنان نفسها ، ولكنها عادت تسأل : (وكيف لى باتماظ النفس ..) ولعلها - بذلك - تبين مكر النفس ، وسعة حيلتها ، وشدة بأسها ، فإذا غلبها صاحبها مرة ، غلبته هى مرات ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (.. إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي .. الآية (٣)) .

وإذا كانت الشاعرة لم تستطع الاهتداء إلى واعظ يصلح نفسها ، ويهذب شأنها ، وصرحت بما يفيد تمكن اليأس من قلبها ، فإنها استدركت عندما وجدت شفاء لعلتها ، ودواء لمرضها ، فقالت (٤) :

لكن لى أسوة أشفى بها وصبى	حسن ارتباطى بحبل غير منفصم
ومنة الله دين وصفه قيـــــــــم	بحجتى إن أخف يوم اللقا يقـــم
وما سوى فوز كونى بعض أمتـــه	ذخرا ، أفوز به من زلة الوصــم
إلا التماسى عفوا بالشفاعة لـــــى	من خاتم الرسل خير الخلق كلهم

وفى هذه الأبيات تجد الإحساس بالأمل بعد اليأس ، وحسن الرجاء بعد القنوط .

إنها أشارت إلى فضل القرآن الكريم إذ فيه شفاؤها ، ودواؤهـــــا ، ولعلها تلمح بذلك إلى قوله تعالى : " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .. (٥) " .

وإذا تأملت قولها : (حسن ارتباطى بحبل غير منفصم) وجدتها ناظرة إلى قول البوصيرى : (لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) ، وكلاهما متأثر فى قوله

---

(١) يوسف / ٥٣ .
(٢) انظر ص ٣١٥ من هذه الرسالة .
(٣) يوسف / ٥٣ .
(٤) ديوانها ص ٢٧٠ .
(٥) الإسراء ٨٢ .

بقوله تعالى : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .. الآية[1] " وبقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن القرآن الكريم إنه : " .. حبل الله المتين[2] " .

إن التيمورية تتوسل إلى الله تعالى بكتابه ، ثم بالدين الإسلامى الذى اتبعته ، وهو نعمة كبرى مِنَ الله مَنَّ بها على عباده :(بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ .. الآية[3] " .

ويبدو أن الشاعرة أرادت أن تلمح إلى قوله تعالى " دِينًا قِيَمًا .. الآية[4] " عندما قالت : (ومنة الله دين وصفه قيم) .

إن ما يدفع عنها الخزى والعار ، وينجيها يوم القيامة من عذاب النار ، كونها بعض أمة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا الانتساب الكريم يؤهلها لالتماس فضل شفاعته العظمى التى خصه الله بها فى الموقف العظيم يوم القيامة إلا أن كلمة (فوز) فى قولها : (وما سوى فوز كونى بعض أمته) لا فائدة منها ، إذ المعنى تام وواضح بدونها فتقول : إنه ليس لى ما ينجينى إلا التماس شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لكونى بعض أمته .

ومما هو جدير بالذكر أن التيمورية توسلت إلى الله تعالى بالقرآن الكريم وباتباعها الدين الإسلامى الحنيف ، ثم أكدت ذلك بكونها بعض أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أما البوصيرى فقد توسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) مؤكدا ذلك بأنه تسمى باسمه حين قال :[5]

فإن لى ذمة منه بتسميتى .. محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ولا يخفى أن عبارة التيمورية أقوى ، وأسباب توسلها أشد وأكثر .

ومهما يكن من شىء فقد ألحت الشاعرة فى رجائها فقالت[6] :

---

(١) آل عمران ١٠٣ .
(٢) سنن الترمذى جـ٤ ص ٣٤٥ .
(٣) الحجرات / ١٧ . (٤) الأنعام / ١٦١ .
(٥) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة .
(٦) ديوانها ص ٢٧٠ .

مددت كف الرجا أرجو مراحمه
وقد حللت به فى بهرة الحرم
(محمد) المصطفى مشكاة رحمتنا
مصباح حجتنا فى بعثة الأمم
يامن به أقتدى يوم الزحام إذا
أبديت ناصية مفحومة الوسم
أقول حين أوافى الحشر فى خجل
إن الكبائر أنست ذكرة اللمم

فى هذه الأبيات يظهر أمل الشاعرة الكبير فى شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويؤكد ذلك أنها مدت يد الضراعة ، ملحة فى طلب الشفاعة ، ثم أشارت إلى عظمة صاحبها ، وأن الله قد اصطفاه ، وجعله نورا هاديا ورحمة للعالمين .

ويبدو أن أمل التيمورية الكبير فى شفاعة رسول الله ، قد قوّى رجاءها ، وطمأن قلبها إلى أنها ستقتدى بالرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم الحشر ، وستسير وراءه يوم تعلو الوجوه غبرة ، ويكسوها الخجل من كثرة الذنوب .

ولا يخفى ما فى الأبيات من أمل مصحوب بالاستعطاف والاسترحام (مددت كف الرجا ..) و (أرجو مراحمه ..) و (يامن به أقتدى ..) ، كما أن فى التصريح باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) — محمد — لذة يحسها القلب ، ويشعر بها الجنان ، وجرسا يطرب له الوجدان ، أضف إلى ذلك كله أن مثل هذا التقسيم فى العبارة (مشكاة رحمتنا — مصباح حجتنا) يملأ الجو نورا ، والقلب سرورا .

ولعل التيمورية نظرت فى قولها : (إن الكبائر أنست ذكرة اللمم) إلى قول البوصيرى : (إن الكبائر فى الغفران كاللمم) (١) إلا أن عبارة البوصيرى يملؤها الأمل ، ويحدوها الرجاء ، أكثر من عبارة التيمورية .

---

(١) انظر ص ٢١١ من هذه الرسالة .

وفى قولها (أقول حين أوانى الحشر فى خجل ٠٠) ما يشير إلى شدة هذا الموقف الذى يجعل الإنسان يخجل من كثرة ذنوبه وآثامه ، ويتحسر على ما فرط منه فى سالف أيامه .

ثم خاطبت الشاعرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مؤكدة طلب شفاعته فقالت[1] :

ياخير من أرتجى إن لم تكن مددى
وازلتى يوم وضع القسط واندمى
فاشفع بحب الذى أنت الحبيب له
لولاك ما أبرز الدنيا من العدم
عليك أزكى صلاة الله ما افتتحت
أدوار دهر ، وما ولت بمختتم

توضح التيمورية أن ندمها سيكون عظيما يوم القيامة إن لم يشفع لها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى لذلك ترجو شفاعته التى هى تكريم من الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) فى الآخرة ، كما أكرمه فى الدنيا ، بل أكرم الدنيا بسببه فأوجدها من العدم ، ولا شك فى أن تلك المنح من الله لنبيه تدل على عظيم منزلته ، وعلو قدره (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعرة : (ياخير من أرتجى ٠٠) تجده يدل على علو المنزلة ، ورفعة الشأن ، ويؤكد ذلك النداء (بيا) والمنادى لفظ (خير) أضف إلى ذلك أن الإتيان باسم الموصول (مَن) يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) معلوم غير مجهول ، ومن ذا الذى يجهل قدر المبعوث رحمة للعالمين !! كما أن لفظ (أرتجى) فعل مضارع فيه إشارة إلى تكرار الرجاء ، وفى ذلك إظهار الأمل وتأكيده ٠٠

ولا يخفى أن قول الشاعرة : (وازلتى ٠٠ واندمى) يدل على شعورها بالأسى والحسرة إن لم يشفع لها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أن قولها : (يوم وضع القسط ٠٠) يشير إلى يوم القيامة ، ولعلها تلمح بذلك إلى قوله تعالى : " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ٠٠ الآية [2] " .

---

(١) ديوانها ص ٢٧ (٢) الأنبياء ص ٤٧ .

وإذا تأملت قولها : (فاشفع يحب الذى أنت الحبيب له ..) تجده يؤكد طلبها الذى أشارت إليه فى البيت الأول وهو طلب الشفاعة ، كما اشتمل على قصر يدل على انفراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحب الله حبا كبيرا من دون غيره :(أنت الحبيب له) .

أما قولها : (لولاك ما أبرز الدنيا من العدم) فهى ناظرة فيه إلى قول البوصيرى : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم)[1] ، وقد بينت أن من وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمثل ذلك يعتمد على أثر غير قوى ، كما أنه يشير إلى أولية النور المحمدى[2] .

ومهما يمكن من شىء فإن التيمورية عندما أرادت أن تختم قصيدتها لم تبعد كثيرا عن نهج البوصيرى الذى ختم قصيدته بالصلاة — فقط — على الرسول (صلى الله عليه وسلم)[3] فختمت هى أيضا قصيدتها بقولها :(عليك أزكى صلاة) ولعل فى تقديم الجار والمجرور ما يدل على القصر ، إلا أن قولها : (أدوار دهر) فيه ثقل لا داعى له ، وكل ما أرادته منه دوام الصلاة فى كل وقت ، وإن كان قولها : (وما ولت بمختتم) يومئ إلى حسن الختام ، وهو من المحسنات البديعية المقبولة عند علماء البلاغة .

٣ — أثر معارضتى الدرويش والتيمورية :

بعدما وقفت مع معارضتى الدرويش والتيمورية بالدراسة والتحليل — فيما سبق — أستطيع أن أقول :

إن معارضة الدرويش تحمل — فى جملتها — سمات الشعر العربى — فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى يمكن أن يطلق عليه " فجر العصر الحديث " .

ولقد كان الشعر فى ذلك الوقت يجرى على الصورة السيئة التى كان يجرى عليها فى العصر العثمانى ، وهى صورة رديئة ، سواء فى الأغراض ، أو المعانى ، أو الأسلوب ، فأما الأغراض فكانت ضعيفة تافهة ، وأما المعانى فكانت مبتذلة

---

(١) انظر ص ١١٨ من هذه الرسالة . (٢) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١٤

ساقطة مكررة ، وأما الأساليب فكانت متكلفة مثقلة بأغلال البديع وما يتصل به من حساب الجمل الذى كان الشعراء - فى ذلك الوقت - يؤرخون به حوادث شعرهم ، وقصائدهم ، ويمكنك أن تقرأ المعارضة للتأكد من أن هذا كله موجود فيها ، ويكفى دليلا قاطعا على أن الدرويش كان يعنى بالمحسنات البديعية ، ويحشرها حشرا - أن تقرأ هذا البيت :

وقد هوى بى الهوى يا لبعد بعدهم

من بعدهم ويح أجفانى وبعدهم

فأى معنى جديد تجده وسط تلك الأثقال البديعية التى زادت البيت ثقلا على ثقل ، وإن شئت فاقرأ هذا البيت - أيضا - :

ختام مولده مسك مؤرخه ∴ خير النبيين عزما سيد الأمم

لتعرف أن الشاعر قد أرخ قصيدته فى سنة ١٢٦٧ هـ وهو مجموع ما تدل عليه حروف الشطر الثانى على حسب ما ابتدعه الشعراء فى العصر العثمانى تبعا لحساب الجمل ، ولم تشفع مناسبة نظم القصيدة عند الدرويش لكى يتخلص من هذا التقليد الموروث ، أضف إلى ذلك ما قلد البوصيرى فيه من أفكار وخاصة فى أحداث المولد الشريف (١) .

والحقيقة أن الدرويش لم يكن بدعا فى هذا الاتجاه ، بل شاركه شعراء عصره ، ولذلك يقول بعض الكتاب:

"..واقرأ دواوين الشعراء الذين عاصروا كلا من (محمد على وعباس الأول وسعيد) مثل: الخشاب(٢) ، والعطار (٣) والدرويش ، فلن تجد سوى صورة لفظية قد تدثرت بثياب غليظة من محسنات البديع ، ولن تجد شعورا ولا عاطفة ، وقيم الشعور والعاطفة ، وكل شىء فى الحياة المصرية خامد جامد ، ولقد تبلدت الحياة فجمد الشعر والشعراء ، ولم يجد هناك إلا التقليد

---

(١) انظر ص ١٣٤ من هذه الرسالة .
(٢) هو : السيد إسماعيل بن سعد - شاعر مصرى توفى سنة ١٨١٥ .
(٣) هو : حسن العطار ، شاعر مصرى توفى سنة ١٨٣٤ .

وهو تقليد قاصر يقف عند النماذج العثمانية ، وما يقرب منها ، تقليد يشهد بقصور الأدب وضعف الذوق ، ويعجز عن التعبير الحر الصادق .. [1] ".

وليس ذلك بغريب .. " .. إذ لم يكن أمام الشعراء — في ذلك الوقت — مُثُلاً عليا يحلمون بها ، إنما كان كل ما يحلم به الشاعر أن يتعلم العروض وصياغة النظم ، ثم يعالج نظما ليس فيه روح ولا حياة ولا عاطفة حقيقية ، وإنما فيه المحاكاة والتقليد .. ومثل هذا النظم لا يُقرأ لأن فيه متعة أدبية ، ولا للاستزادة من الثروة الذهنية ، وإنما يقرأ ليدل على طور من أطوار حياتنا الأدبية .. [2] " . ولعله الطور الذى أشار إليه العقاد بقوله : [3]

" فى الانتقال من دور الركود والجمود فى الشعر إلى دور النهضة والإجادة أربع مراحل ، أو أربع درجات متواليات ، أولها : دور التقليد الضعيف ، أو التقليد للتقليد .. " ، ويؤكد ذلك أيضا بعض الكتاب بقوله [4] :

" ولقد كان المظنون أن يتغير شعراؤنا منذ الحملة الفرنسية ، ومنذ أخذنا نتصل بالحياة الغربية ، ولكن يبدو أن هذه الحياة لم تتعمق إحساس الشعراء فظلوا فى حياتهم الفنية مع القديم ، وظلوا يحجلون فى هذه السلاسل المقوتة من البديع الذى لا تقبله النفس ، ولا يطمئن إليه الذوق ، ولا يأنس له العقل ؛ لأنه لا يحوى معنى ، وإنما هو زخارف لفظية تملق الشعور وتقتله .. "

نعم قد أخذت مصر مع أوائل القرن التاسع عشر فى النهوض ، ولكن (محمد على) وجه هذا النهوض إلى العلم والفن التطبيقى ، ولم يعن بالشعر والشعراء ، فكسد الشعر فى سوقه ، وسوق خليفتيه (عباس وسعيد) ومن أجل ذلك لم يتحرر الشعر المصرى من قيوده الغليظة ، إذ لم توجد بواعث تدفعه إلى هذا التحرر . ولذلك لا يكاد الشعر يخرج من الإطار العثمانى السقيم .

أما النصف الثانى من هذا القرن ، فإننا نجد أن هذا الإطار أخذ فى التغير والتحطم فى بعض جوانبه ، ولعل مما يوضح ذلك معارضة التيمورية

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٣٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨ باختصار .
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨٩ .
(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٣٨ وما بعدها .

التى ظهرت فيها بعض سمات التجديد ، والتخلص من التقليد بعض الشيء ، يدل على ذلك أنها ـ مثلا ـ عندما أرادت الإشارة إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) تجنبت كل ما أشار إليه البوصيرى مثل قولها :

فكم ينبع زلال فاض من يده

أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى

والجذع أنّ له من بعده جزعا

لما نأى عنه مولى العرب والعجم

لانت لـه الصخرة الصماء طائعة

مذ مسها سيد الكونين بالقدم

فأنت ترى أن الشاعرة أشارت إلى : (نبع الماء من بين أصابع الرسول) وإلى (حنين الجذع وأنينه) وإلى (لين الصخرة الصماء) ولم يشر البوصيرى إلى شيء من ذلك ، ولعل فى هذا ما يشير إلى اتجاه الشاعرة نحو التجديد ، ويؤكد ذلك أنها عند توسلها إلى الله (سبحانه وتعالى) قد توسلت بالقرآن الكريم ، ثم باتباعها الدين الإسلامى الحنيف ، ثم بالرسول (صلى الله عليه وسلم) كل هذا فى قولها :

لكن لى أسوة أشفى بها حسبى

حسن ارتباطى بحبل غير منفصم

وسنة الله دين وصفه قيم

بحجتى إن أخف يوم اللقا يقم

وما سوى فوز كونى بعض أمته

ذخرا أفوز به من زلة القدم

أما البوصيرى فقد توسل بأنه قد تسمى باسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقط .

وليس معنى ذلك أن التيمورية لم تتأثر فى قصيدتها ببردة البوصيرى ، لا ، لقد نظرت إليها ، وخاصة فى بعض أفكارها وعباراتها فمثلا قولها :

ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ

يدعو المنادى نتحيا الناس من رجم

هو من قول البوصيرى :

يا أكرم الرسل مالى من ألوذ بـــه

سواك عند حلول الحـادث العمم[1]

وكذلك قولها :

وكيف لى باتعاظ النفس آمرتـــى

بالسوء ، ناهيتى عن مورد النعم

من قول البوصيرى :

فإن أمارتى بالسوء ما اتعظـــت

من جهلها بنذير الشيب والهـــرم[2]

وأقوى ما سبق فى الدلالة على نظرها إلى بردة البوصيرى ، أن الشطـــر الثانى من قولها :

فاشفع بحب الذى أنت الحبيب له

لولاك ما أبرز الدنيا من العـــدم

هو الشطر الثانى ـ مع تغيير قليل ـ من قول البوصيرى :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من

لولاه لم تخرج الدنيا من العـــدم[3]

إن هذا التجديد ـ على الرغم من ضآلته ـ يدل على أن الشعـــراء المصريين قد انصرفوا عن الصور السقيمة التى انتهى إليها الشعر فى موطنهم ورشح لذلك اطلاعهم على الآداب الأجنبية ، وخلو الشعر فيها من هـــذه الأثقال البديعية التى تفسد المعانى وتثقلها ، أضف إلى ذلك أن دواويـــن الشعر القديم قد طبعت ، واطلع المصريون على نماذج لم يكونوا يألفونهـــا ، إذ كانت تخالف فى جملتها النماذج التى كانوا يعرفونها .. فالتفتوا إلـــى أن الشعر العربى وخاصة فى منابعه الأولى كان شعرا طبيعيا ، يصور حيـــاة أصحابه تصويرا رفيعا ...[4]

---

(١) انظر ص٢٠٨ من هذه الرسالة .

(٢) المرجع السابق ص٩٧ . (٣) المرجع السابق ص١١٨ .

(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص٤١ .

ولعل مما يؤكد ذلك قول بعض الكتاب: " فمن جهة كثر طبع الدواوين العباسية وغيرها ، ومن جهة كثرت المدارس والبعوث إلى الغرب ، ونما اتصالنا به عن طريق التعليم والبعوث ، فتغير ذوقنا الأدبى العام لالتقاء كل هذه العوامل والعناصر فى حياتنا ، ورأينا الشعراء الشبان يأخذون فى الانصراف عن مثلنا الأدبية العثمانية ، ويزهدون فيها زهدا شديدا .. أضف إلى ذلك أننا قد نلنا شيئا من حريتنا وكرامتنا، ووجودنا الإنسانى ، ولذلك أخذنا نحقق مطامحنا وآمالنا ، وأخذنا نندفع نحو مثل عليا جديدة ، وكانت هذه المثل تدفعنا إلى إصلاح كل شىء فى حياتنا بحيث يمكن أن نسمى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عصر الإصلاح ، أو عصر محاولة الإصلاح ، وهى محاولة إن يكن الإخفاق السياسى أدركها عند عرابى وإخوانه ، فإن الإخفاق الروحى والعقلى لم يدركها .."[1]

ثم يعلل ذلك الكاتب سبب هذا التقدم بقوله : " .. إذ تقدم رواد من الشعراء يريدون أن يستأنفوا - فى الشعر - حياته الخصبة الأولى ، ويبعثوا فيه الروح التى خمدت عندما تغلغلت العناصر الأجنبية والعثمانية فى حياتنا وحياة العرب من حولنا .. وقد أخذت تباشير هذا النوع فى شعرنا عند (الساعاتى[2] وعبد الله فكرى[3] .. وعائشة التيمورية) غير أنهم لم يتخلصوا تخلصا تاما من البديعيات والمخمسات والتضمينات ، إنما الذى تخلص من ذلك كله هو البارودى ، الذى يعد الرائد المثالى لهذه الحركة ، إذ لم يكن تقليده للقدماء بالمعنى السىء للتقليد ، إنما كل ما هنالك أنه أراد أن يرد إلى شعرنا جزالته ونصاعته ، ورصانته ، فأنقذه من عثرة الأساليب الركيكة ، ورد إليه الحياة والروح ، حياة نفسه ، وروح عصره وقومه فى الفترة التى عاش فيها ، إذ جعله متنفسا حقيقيا لعواطفه ومشاعره ، وما ألم به من أحداث وخطوب .."[4]

ولعل قصيدته التى عارض بها بردة البوصيرى توضح ذلك ، وهذا ما سنراه فى الباب الثالث إن شاء الله .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ بتصرف . (٢) تقدم التعريف به فى هامش ص ٢٣٨ من هذه الرسالة . (٣) هو عبد الله بن محمد عبد الله فكرى ، شاعر وكاتب مصرى توفى سنة ١٣٠٧ هـ . (٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٤٣ وما بعدها بتصرف .

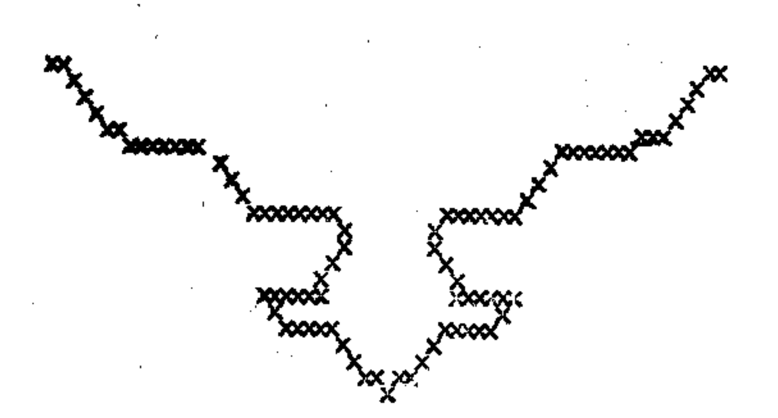
الباب الثالث

معارضة البارودى

الفصل الأول : حياة البارودى

الفصل الثانى : دراسة وتحليل
كشف الغمة فى مدح سيد الأمة

الفصل الثالث : أثر معارضة البارودى



الفصـــــل الأول

حيـــاة البـــارودى

بعدما ذكرت - من معارضات البردة فى العصر الحديث قبل شوقى - معارضتى الدرويش والتيمورية ، فإننى - هنا - أقف مع معارضة ثالثة - تعد من أكثر المعارضات أفكارا ، وأطولها أبياتا - ولذلك أفردت لها بابا كاملا - وهى معارضة البارودى .

والبارودى هو : محمود سامى بن حسن حسنى البارودى ، ولد فى القاهرة سنة ١٨٣٨ [١] وقيل : سنة ١٨٣٩ [٢] ، وفيها - أيضا - شب وترعرع ، فهو مصرى المولد والمنشأ ، وإن كان جركسى الأصل ، إذ كـــان جده لأبيه (عبد الله الجركسى) جركسى الأصل ، كما كان جده لأمه (مراد جلبى) جركسيا أيضا ، وهو الذى اكتسب منه الشاعر لقب (البارودى) ، لأنه كان ملتزما ببلدة (إيتاى البارود) [٣] ، وكان كل ملتزم [٤] ينسب إلى التزامــه فى ذلك العهد .

ولقد كان أجداد البارودى يتصلون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك ، ولذلك كان الشاعر شديد الاعتزاز بهذا النسب ، ولا يفتأ يذكره فى شعـــره ومن ذلك قوله [٥] :

أنا من معشر كرام على الدهـــر أفادوه عزة وصلاحـــــا

وكان والد الشاعر من أمراء المدفعية ، وعمل مديرا لبربر ودنقلـــة - ببلاد السودان - فى عهد محمد على ، ولكنه مات هناك ، تاركا ابنه الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، فحرم من العطف الأبوى وحنانه ، ولكن والدته اهتمت به ، حتى إذا بلغ الثامنة من عمره ، أحضرت له المدرسين فى المنزل -

---

(١) فى الأدب الحديث ج ١ ص١٢٦ والأدب العربى المعاصر فى مصر ص٨٣ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ٩ ٤٣ .والبارودى رائد الشعر الحديث ص٤٦ . (٣) إحدى البلاد التابعة لمحافظة البحيرة بجمهورية مصر .
(٤) الملتزم : هو الذى يقوم بجمع الضرائب ، وما يشبهها غالبا
(٥) البارودى : ديوانه ج١ ص١٧٧ بتحقيق على الجارم ومحمد شفيق ، طبعـــة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

وكان هذا دأب الأسر الكبيرة فى ذلك الوقت ـ ليعلموه ويثقفوه .

واستمرت دراسة البارودى المنزلية أربع سنوات ، درس خلالها كثيرا من المواد التى مكنته من دخول المدرسة الحربية بعد نجاحه فى امتحان القبول سنة ١٨٥١ (١) .

وهنا أقف مع تلك المواد التى درسها الشاعر فى منزله ، إذ شاع بين الكثير من الناس أنه لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، متأثرين فى ذلك بما ذكره أحد الكتاب عندما قال عنه : " هذا الأمير الجليل ، ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهى ذكاؤه ، محمود سامى (باشا) البارودى ، لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة (٢) يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات حسب ما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن .. (٣) " .

ولكن يبدو أن البارودى درس بعض كتب النحو فى دراسته المنزلية ، إذ كان شرط دخول المدرسة الحربية اجتياز امتحان القبول ، وكان هذا الامتحان يعقد فى : القرآن الكريم وشرح الكفراوى ومتن الآجرومية (نحو) ومتن البناء والمقصود (صرف) وعلم الأخلاق ، ومتن السنوسية (توحيد) وعلم الحساب والخط الثلث ، واللغة التركية للأتراك وغلمان الأتراك .. (٤) " وهذه المواد الدراسية قد نقلت من واقع جدول الامتحانات بدفاتر ديوان الجهادية (٥)

---

(١) مقدمة ديوانه ص ٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) ذكر الكاتب هنا لفظ (برهة) بمعنى مدة يسيرة وهذا خطأ شائع ، إذ هذا اللفظ يدل على المدة الطويلة .

(٣) المرصفى : الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٧٤ مطبعة المدارس الملكية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ .

(٤) أحمد عزت : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٧٤ ، ١٧٦ مكتبة النهضة بمصر سنة ١٩٣٨ .

(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٢ ، ٢٤٨ .

ولعل مما يؤكد ذلك الرأى أن بعض الباحثين قد ذهب إلى ذلك فى رسالة علمية عن البارودى [1].

ويبدو أن العقاد كان يتوقع مثل ذلك إذ علق على قول صاحب الوسيلة الأدبية السابق بقوله : "... والأستاذ المرصفى [2] لا يعنى بعبارته هذه إلا أن البارودى لم يتعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض كما كان الطلاب يتعلمون فى عصره فهو لم ينظم الشعر لأنه تعلم العروض كما كان ينظم الشعراء .. ولكنه تعلق بالشعر عن هوى وسليقة ... [3] ".

ويزيد الأمر وضوحا قول أحد النقاد بعد ذكره قول صاحب الوسيلة السابق - أيضا - : " .. ومعنى ذلك أنه لم يستن سنة معاصريه من تعلم النحو والعروض والبديع حتى يحسن نظم الشعر ، وإنما استن سنة جديدة صحح بها موقف الشعر والشعراء ، فردهم إلى الطريقة القديمة ، طريقة الرواية التى كان يتلقن بها الشاعر الجاهلى والأموى أصول حرفته .. [4] ".

ومما لا شك فيه أن المرصفى يهدف إلى إثبات السليقة الشعرية للبارودى إلا أن ذلك لا ينفى أنه تعلم العروض وغيره من علوم العربية لخدمة تلك السليقة، ولعل مما يؤكد ذلك أن الشاعر قد ذكر بعض المصطلحات العروضية عندما وصف شعره بقوله [5] :

لم تبن قافية فيه على خلل

كلا ، ولم تختلف فى وصفها الجمل

فلا سناد ، ولا حشو ، ولا قلق

ولا سقوط ، ولا سهو ، ولا علل [6]

(١) انظر : على الجديدى : البارودى ص ٣٤ ومابعدها ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

(٢) هو : الشيخ حسين المرصفى - أديب مصرى توفى سنة ١٨٩٠ وقيل : سنة ١٨٨٩ - انظر : المفصل فى تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ٣٩٨ .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩٣ .

(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٨٧ ومابعدها .

(٥) ديوانه جـ ٣ ص ١٧٢ ومابعدها . (٦) السناد عيب من عيوب الشعر يطرأ على ما قبل حرف الروى ، وقيل : غير ذلك . انظر : العمدة جـ ١ ص ١٦٩ .

فذكره السناد — وهو عيب من عيوب القافية — يدل على أنه تعلم علم العروض ، وليس فى تعلم الشاعر علم العروض ما يغض من شاعريته ، أو يضعف منزلته ، فإن لكل فن مبادئا وأسسا لابد من تعلمها ، والوقوف عليها ، وغاية ما فى الأمر أن هناك فرقا بين من يتعلم المبادئ — لفن من الفنون — ليتعلم هذا الفن ، ومن يتعلم المبادئ لتهذيب ما لديه من سليقة وحب لهذا الفن .

ولقد كان لدى البارودى استعداد لقول الشعر — من صغره — إذ شغف بقراءة كتب الأدب العربى وهو فى المدرسة الحربية ، أضف إلى ذلك أنه أحب أن يكون شاعرا مثل خاله الذى أشار إليه بقوله[1] :

أتانى الشعر عريق ∴ لم أرثه عن كلالة
كان إبراهيم خالى ∴ فيه مشهور المقالة[2]

ويبدو أن من حسن حظ الأدب أنه عندما انتهى البارودى من دراسته فى المدرسة الحربية كان عباس الأول هو الذى تولى حكم مصر ، وكان من المعوقين للنهضة — كما سبق — فخمدت روح الحماسة فى الجيش وسرح معظمه ، وأغلق كثيرا من المدارس ، ولذلك لم يجد البارودى — وزملاؤه — عملا يقومون به ، أما زملاؤه ، فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة وسرهم البعد عن ميادين القتال ، وأما البارودى فقد ضاق ذرعا بذلك ، إذ كان يود الاشتراك فى الحروب كما اشترك فيها آباؤه وأجداده ، ولعله أراد أن يعوض ذلك الأمل — ولو إلى حين — بقراءة كتب العرب ودواوينهم التى وصفت تلك المعارك وصفا دقيقا تجعل القارئ يسمع قعقعة السلاح ، ويرى نزال الأبطال .

ولما قرأ الشاعر كثيرا فى هذا الشعر العربى ، أحس بما فيه من روعة وجمال يجذبان اللب ، ويحركان اللسان إلى القول ، وخاصة أنه لم يقف عند

---

(١) ديوانه ج ٣ ص ١٩٥ وما بعدها .
(٢) وخاله هو : إبراهيم بن على أغا البارودى ، ولم تذكر المراجع عنه شيئا سوى أنه مات وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . انظر ديوان البارودى ج ٣ هامش ص ١٩٦ .

الحروب وميادينها ، بل تناول الحياة كلها بما فيها من جد وهزل ووصف وحكم.

ومن هنا كان طبيعيا أن يترنم ابن الأيك ، ولكنه وجد أبناء طبقته من الجراكسة يعيرونه بنظم الشعر ، ولكنه لم يعبأ بهم ، إذ هؤلاء يحاكمون الشعراء الذين يطلبون بشعرهم عطف حاكم ، أو عطاء أمير ، ومما شجعه على ذلك أنه رأى كثيرا من الشعراء كانوا أمراء وذوى شأن كبير ، ولم يعبهم نظم الشعر ، بل مجد التاريخ أسماءهم ، مثل: امرئ القيس والشريف الرضى وأبى فراس وغيرهم[1] وهذا ما أشار إليه بقوله[2] :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت
به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل
فلا بد لابن الأيك أن يترنما

سفر البارودى إلى الآستانة :

ويبدو أن البارودى قد مل الحياة فى مصر من غير عمل ، فسافر إلى الآستانة — مقر الخلافة — لعله يجد هناك عملا ، وفعلا التحق بوزارة الخارجية ، ولكنه كان دائم الاطلاع فى كتب الأدب العربى ، ومما شجعه على ذلك أنه وجد هناك — فى الآستانة — ذخائر قيمة ، فأنكب عليها ، وعكف على قراءتها واستظهارها ، ولقد تمكن من إتقان اللغة التركية والفارسية وأن يدرس آدابهما ، ويحفظ كثيرا من أشعارها ، ودعته سليقته الشعرية إلى النظم بهما كما نظم بالعربية .

عودته إلى مصر :

وعندما سافر إسماعيل إلى الآستانة سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر والعرفان للخليفة على توليته حكم مصر ، ألحق البارودى بحاشيته فى أثناء مقامه ، ويبدو

(١) مقدمة ديوانه ص٦ وما بعدها بتصرف . (٢) ديوانه جـ ١ ص ٥٩ .
(٣) مقدمة ديوانه ص ١١ .

أن اسماعيل توسم فيه النجابة والطموح فعاد به إلى مصر فى العام نفسه ، ولم يكن عمر البارودى قد تجاوز الرابعة والعشرين عاما عندما عاد إلى مصر ، ليعمل فى جيشها ، ولم يلبث أن أُوفد إلى فرنسا مع بعض الضباط المصريين لمشاهدة مناورات الجيش الفرنسى السنوية ، ثم سافر هو ومن معه إلى (لندن) للتزود ببعض المعارف العسكرية ، ولما عاد البارودى إلى مصر ، لم يلبث إلا قليلا حتى رقى إلى رتبة (قائمقام) ثم إلى (أميرالاى) وتحقق له الأمل الذى تمناه من زمن بعيد[1] ، فاشترك فى عدة حروب ، وسجل كثيرا من مشاهدها فى شعره ، ومن ذلك قوله[2] :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى
وما جت صدور الخيل ، والتهب الضرب
.. صبرت لها حتى تجلت سماؤها
وإنى صبور إن ألم بى الخطب

ولقد كان البارودى موفقا فى حروبه ، ولذا قربه إسماعيل ، وجعله كاتما لأسراره ، وأوفده إلى الأستانة فى بعض الأمور السياسية — مرتين — وظل يعمل معه مدة اثنتى عشرة سنة .

وعندما أعلنت روسيا الحرب على تركيا سنة ١٨٧ أرسل إسماعيل جيشا مصريا بقيادة البارودى لمعاونة الخليفة ، فأبلى الجيش وقائده بلاء حسنا ولذلك عندما عاد البارودى أنعم عليه برتبة (اللواء) وبعض الأوسمة ، وكان عمر الشاعر — حينئذ — أربعين عاما ، ولم يلبث أن عين مديرا للشرقية ، ثم محافظا للعاصمة[3] .

ولما تولى توفيق حكم مصر ، قرب البارودى إليه ، وجعله وزيرا للأوقاف ثم وزيرا للحربية ، ثم لم يلبث أن عزله عندما دُس بينهما ، ولما اضطربت الأحوال السياسية ، استدعاه توفيق وكلفه بالاشتراك فى الوزارة ، ثم أمره بعد

---

(١) مقدمة ديوانه ص ١٢ وما بعدها . (٢) ديوانه ج ١ ص ١١٥ .
(٣) مقدمة ديوانه ص ٢١ .

ذلك برئاسة الوزارة سنة ١٨٨٢ (١) .

نفيـــه ؟

ولما قامت الثورة العرابية ، كان من بين زعمائها ، وعندما فشلت حوكم معهم ، وحكم عليهم بالنفى خارج البلاد (٢) ، فأقلعت بهم السفينة إلى (سرنديب) (٣) فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ .

ولقد كان للفراق لوعة على نفس الشاعر ، كما كان لبعده عن أهله ووطنه أسى شديد ، ولذلك نظم قصيدة - ترى فيها دموعه ، وتلمس حزنه ، ومنها قوله (٤) :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت

مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبرى أن يعود فعزنى

وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وأخيرا وصلت سفينتهم إلى (كولومبو) فى يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك استقبلهم المسلمون - من أبناء تلك المدينة - استقبالا حارا (٥) .

وتمر الأيام فى المنفى بطيئة ، مثقلة بالهموم والأحزان ، ويزيدها حزنا ، نبأ وفاة زوجة الشاعر فى سنة ١٨٨٥ ، فيبكيها بكاء حارا (٦) فى قصيدة منها : (٧)

يادهر فيم فجعتنى بحليلة

كانت خلاصة عدتى وعتادى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ وما بعدها باختصار .
(٢) انظر محمود سامى البارودى ص ١٥٢ . وما بعدها .
(٣) هى إحدى جزر الهند وسميت فيما بعد (بسيلان) .
(٤) البارودى رائد الشعر الحديث ص ٨٢ .
(٥) محمود سامى البارودى ص ١٥٤ . و (كولومبو) ميناء عاصمة (سرنديب)
(٦) المرجع السابق ص ١٦٤ . (٧) ديوانه جـ ١ ص ٢٣٨ .

ولم يكد يفيق الشاعر من حزنه على زوجته حتى وصله نبأ وفاة ابنته فتجدد حزنه ، وكثر أساه ، ثم شاء الله أن يموت صديقه : عبد الله فكرى ، وأستاذه : حسين المرصفى ، فبكاهما الشاعر بكاء حارا [١] :

ولقد أثرت هذه الأحزان فى الشاعر تأثيرا كبيرا فوهن جسده ، وضعف بصره ، فانتقل إلى (كندى [٢]) سنة ١٨٩٠ تبعا لمشورة الأطباء ، لأن جوها يناسب صحة الشاعر ، وهناك يسترد بعض عافيته ، فيشغل نفسه بالقراءة ويتعلم اللغة الإنجليزية ، ويعلم المسلمين فى (كندى) اللغة العربية ويفقههم فى الدين ، كما يؤم المصلين فى صلاة الجمعة ، ويعتلى المنابر فى مساجد المدينة [٣] .

عودته إلى مصر :

وشاء الله أن يعود الشاعر إلى وطنه سنة ١٩٠٠ [٤] ، وعندما وصلت السفينة إلى مصر ، انهمرت دموعه ، وبخاصة عندما هنأه بالعودة جمع كبير من عشاق الأدب وأهل الفكر ، ولفيف من العلماء ، فنظم الشاعر قصيدة يقول فيها [٥] :

أبابل رأى العين أم هذه مصر ∴ فإنى أرى فيها عيونا هى السحر [٦]

ومنذ عودة البارودى إلى مصر ، أصبحت داره منتدى الشعراء والأدباء ، كما أنه عكف على ديوانه ينقحه ، وكان يملى على كاتبيه : الشيخ ياقوت المرسى والشيخ عطية حسنين إذ فقد بصره فى أيامه الأخيرة [٧] .

---

(١) محمود سامى البارودى ص١٦٦ ومابعدها .
(٢) تبعد عن (كولومبو) حوالى ٧٢ ميلا .
(٣) محمود سامى البارودى ص١٧٠ .
(٤) مقدمة ديوانه ص ٣٥ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص٤٥
(٥) ديوانه جـ٢ ص١٤٤ .
(٦) بابل : من أعظم مدن العالم ـ قديما ـ تقع على الجانب الأيسر من نهر الفرات ، كانت واسعة الشهرة فى جمالها .
(٧) محمود سامى البارودى ص١٩٠ .

وفاتـه :

وفى ديسمبر سنة ١٩٠٤ صعدت روح الشاعر إلى بارئها ، وأمّ المصلين عليه صديقه الشيخ محمد عبده [1].

آثـاره :

١) خلف البارودى ديوانا ضخما من الشعر يقع فى أربعة أجزاء ، طبع منه جزءان على نفقة زوجة الشاعر الثانية ، ثم كلفت وزارة المعارف السيدين : على الجارم [2] ، ومحمد شفيق معروف [3] ، بشرح وتصحيح الديوان وصدر منه جزءان ، وصلا إلى قافية الكاف ، وبعد وفاة الجارم قام الأستاذ محمد معروف بشرح وتصحيح الجزء الثالث الذى طبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ وينتهى بقافية الميم ، وأخبرنى الأستاذ محمد معروف بأنه فى سبيله لطبع الجزء الرابع .

٢) كما خلف البارودى مختارات من الشعر فى أربعة أجزاء كبيرة لثلاثين شاعرا - تقريبا - وقد شرحها وعلق عليها - وقامت زوجته بطبعها على نفقتها بعد وفاته ، وهذه المختارات تدل على حسن ذوق ، وبصر بجيد الشعر، كما يدل تعليقه عليها على سعة اطلاعه ، وغزارة مادته .

٣) ويبدو أن للبارودى مختارات فى النثر سماها (قيد الأوابد) إلا أنها لم تطبع إلى الآن تقريبا [4].

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٢) هو الأستاذ على بن صالح بن عبد الفتاح الجارم - أديب مصرى ، من رجال التعليم ، تدرج فى عدة مناصب حتى أصبح وكيلا لدار العلوم ، توفى سنة ١٩٤٩ (الأعلام جـ ٥ ص ١٠٦) .

(٣) هو الأستاذ / محمد شفيق معروف - أديب مصرى - من رجال التعليم تدرج فى عدة مناصب حتى أصبح مديرا عاما لوزارة التربية والتعليم ثم أحيل إلى المعاش ، وما زال يجاهد بقلمه .

(٤) عمر الدسوقى : محمود سامى البارودى (نوابغ الفكر العربى) ص: ٣٣ وما بعدها . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .

شاعريتـــه :

رزق البارودى موهبة شعرية فذة ، وأتيحت له أسباب كثيرة صقلتهـــا ، ومنها : كثرة قراءته دواوين الشعراء العرب القدامى ، وحفظه الجيد مـــن أشعارهم ، واطلاعه على آداب اللغة التركية والفارسية والإنجليزية ، وكثـــرة أسفاره إلى البلاد الأوربية وغيرها ، مثل : الأستانة وباريس ولندن ونفيه إلـــى سرنديب ، ومشاركته فى كثـــير من الحروب التى خاض غمارها ، وشاهد أهوالها ، وصحبته لبعض المصلحين مثل : السيد جمال الدين الأفغانى ، وانتفاعه بدروسه وآرائه ، وكثرة الأحداث التى وقعت فى عصره ، أضف إلى ذلك كله وراثتـــه عن خاله ، كما سبق تصريحه بذلك .

ولا شك فى أن تلك الأسباب كانت سببا فى صقل ذوقه الأدبـــــى ، وكانت ذات أثر كبير فى معانيه وأخيلته وتصوره للحوادث ، مما جعل شعـــره يمتاز " .. بسطوة القول ، وجزالة اللفظ ، وفحولة النظم ، ورصانة القافيـــة ، وإشراق الديباجة ، حتى ليمكن أن يقال فى غير تردد ، إنه لم يجئ مـــن بعد العصر العباسى الثانى من يبرع البارودى فى هذا الباب أو من يدانيـــه ... (١) " ، ولقد عارض فحول الشعراء من المتقدمين وله الفضل فى رد العصـــر العربى فى هذا العصر الحديث إلى فتوته وقوته ونضارته فى الأعصر المتقادمة ... (٢) " ولذا يعد باعث النهضة الشعرية دون منازع ، وحامل لواء الشعر فى العصر الحديث دون مدافع ..

قال عنه بعض الكتاب : " وهو صاحب مدرسة كبيرة .. يمكن أن نسميها مدرسة النهضة أو مدرسة البعث .. وهى مدرسة حافظت بقوة على تقاليد الشعر العربى ، وكل ما يتصل بشخصيته ومقوماته ، ومن تلاميذ هذه المدرسة : حافظ وشوقى وغيرهما ..

ولقد امتازت هذه المدرسة بأنها لم تحل بين المحافظة على القديـــم وبث عناصر جديدة كثيرة لا يرفضها الذوق العربى الأصيل .. إذ مضـــى

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٤٣ .

كل شاعر من شعراء هذه المدرسة ، يهتدى بطريقة البارودى مضفيا عليها من ملكته الأدبية وما تغذى به من آداب غربية[1] ... ".

ويؤكد الأستاذ العقاد فضل البارودى بقوله : " ... إن الفضل الذى له على عصره أكبر من الفضل الذى لعصره عليه ، فما جاء به من عند نفسه كبير لا يقاس إليه ما يجئ من قدرة معاصرية ، وذلك وحده خليق أن يوشحه زعامة جيله ، ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه ..[2] " ، ثم يبين سبب ذلك الفضل بقوله : " .. قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة ، وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد .. فإذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودى لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تشابهه أو تدانيه ... وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب المصرى ، ترفع الرجل — بحق — إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام ..[3] ".

ومهما يكن من شىء : فإنك إذا تصفحت شعر البارودى وجدته قد جال فى كل غرض ، وصال فى كل فن ، وشعره — بعامة — يأخذ بمجامع القلوب، وتأسرك روعة موسيقاه ، وتماسك أبياته ، وانسجام ألفاظه التى تسترق وتلطف فى موضع الرقة واللطف كالغزل والعتاب ، ويشتد أسرها حين ينشدها فى الحماسة والفخر .

هذا عن شعره — بعامة — أما عن شعره الدينى[4] — بخاصة — فسهل الأسلوب واضح المعنى ، يدور — فى الغالب — حول مناجاته ربه ، وابتهاله إليه مثل[5] :

يا من إليه الوجوه خاشعة	ومن عليه فى الكون معتمدى
مددت كفى إليك مبتهلا	وأنت حسبى ، فلا ترد يدى

---

(1) البارودى رائد الشعر الحديث ص ١٧٠ وما بعدها بتصرف .
(2) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١١٤ .
(3) المرجع السابق ص ٩٠ .
(4) سوف أخص شعره الدينى بمزيد من الإشارة إليه لصلته القوية بموضوع الرسالة ، أما بقية شعره : فانظر مقدمة ديوانه ، والبارودى رائد الشعر الحديث ص ٩٧ وما بعدها .
(5) ديوانه جـ ١ ص ٢٩٥ .

كما يشير إلى أن الموت نهاية كل حى ، وأن التقوى خير زاد ، فيقول [1] :

كل حى سيموت ∴ ليس فى الدنيا ثبوت
ليس للإنسان فيها ∴ غير تقوى الله قوت

ومن شعره الدينى مدائحه النبوية ، وهى قليلة بالنسبة إلى بقية شعره إذ لم تزد على قصيدتين [2] :

الأولى : بلغت أبياتها سبعة وعشرين بيتا ، ومطلعها [3] :

ياصارم اللحظ من أغراك بالمهج
حتى فتكت بها ظلما بلا حرج

ويمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيها بقوله :

هو النبى الذى لولا هدايته
لكان أعلم من فى الأرض كالهمج
أنا الذى بت من وجدى بروضته
أحن شوقا كطير البانة الهزج

ثم يناجى ربه (جل جلاله) متوسلا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

يارب بالمصطفى هب لى وإن عظمت
جرائمى ، رحمة تغنى عن الحجج
ولا تكلنى إلى نفسى فإن يدى
مغلولة ، وصباحى غير منبلج
ما لى سواك ، وأنت المستعان إذا
ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

أما القصيدة الثانية : فهى التى عارض بها بردة البوصيرى ، وسوف أقف معها بالدراسة والتحليل فى الفصل التالى إن شاء الله .

---

(1) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٦ .
(2) هذا الحكم بعد قراءة ثلاثة أجزاء من ديوانه فقط ، لأن الجزء الرابع لم يظهر إلى الآن .
(3) المرجع السابق ج ١ ص ١٥١ وما بعدها .

الفصـــل الثانـــى

دراســة وتحليـــــل

" كشــف الغمّة فــى مدح سيّد الأمّـــة "

لقد تحدثت عن حياة البارودى وشاعريته ، ثم ألقيت الضوء علـــى شعــره بعامة وشعره الدينى بخاصة ، وذكرت أن مدائحه النبوية محصـــورة فى قصيدتين ،وبينت أن القصيدة الأولى بلغت أبياتها سبعة وعشرين بيتا .

ويبدو أن الشاعر أحس بقلة مدائحه النبوية ، فنظم قصيدته الثانية وأطال فيها إطالة كبيرة حتى بلغت أبياتها سبعة وأربعين وأربعمائة بيت ، من بحر البسيط ،ورويها ميم مكسورة ، وضمنها سيرة الرسول (صلى اللــــه عليه وسلم). وهى بذلك تعد معارضة لبردة البوصيرى ـ ولقد سماهـــــا الشاعر : (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) وصدرها بمقدمة قال فيها :

" حمدالله لذاته ، آية الإيمان والإخلاص ، والصلاة والسلام على النبى الأمى وآله ، محجة الخلاص ، وبعد :

فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) من حين مولده الكريم ، إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام[1] ، وسميتها : " كشف الغمة ، فى مدح سيد الأمة " ورغبتى إلى الله أن تكـــون لى ذريعة أمت بها يوم المعاد ، وسلما إلى النجاة من هول المحشر، اللهـــم فحقق رغبتى إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول ـ آمين ـ "[2]

ولقد طبع الجزء الثالث من ديوان البارودى ـ محققا ـ ولم تكن فيــــه تلك القصيدة على الرغم من أنها ميمية الروى ، وهذا الجزء ينتهى بقافية النون ، فاتصلت بمحققه ، أستوضحه سبب عدم وضعها فى الديوان ، فكتب إلىّ ـ مشكوراـ

---

(١) هو : أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ وقيل : سنة ٢١٨هـ

(٢) انظر البارودى : كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢ ، مطبعة الجريدة بسراى البارودى بمصر سنة ١٣٢٧ هـ .

قائلا: " .. إن هذه القصيدة من شعر البارودى ، وإنها قدطبعت مفردة سنة ١٣٢٧ هـ " ويبدو أنه كان مريضا ببصره ، لأنه قال فى رسالته – السابقة – إلىّ: " .. وإذا أنعم الله علىّ بصحة متوسطة ، وأعاد إلىّ نصف بصرى شرحت بمعونة الله تعالى ومشيئته قصيدة (كشف الغمة).

ومهما يكن من شيء فلقد بدأ البارودى هذه القصيدة بقوله [1]:

يارائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام إلى حىّ بذى سلم [2]
وإن مررت على الروحاء فامر لها
أخلاف سارية هتّانة الديم [3]
من الغزار اللواتى فى حوالبها
رىّ النواهل من زرع ومن نعم [4]
إذا استهلت بأرض نمنمت يدها
بردا من النور يكسو عارى الأكم [5]
ترى النبات بها خضرا سنابله
يختال فى حلة موشية العلم [6]

يخاطب الشاعر الريح التى تسبق الغيث ، ويأمرها بأن تسقط المطر على أماكن أحبته فى : " دارة العلم، وذى سلم، والروحاء " لكى تشرب الإبل

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢.
(٢) الرائد : الرسول الذى يتقدم على القوم ليلتمس لهم مكانا خصيبا ينزلون فيه ، وأراد به الشاعر هنا الريح التى تتقدم على الغيث. الدراة : ما أحاط بالشىء. احد الغمام : سُقه بالغيث.
(٣) الروحاء : موضع بين مكة والمدينة . فامرلها : فاستدر لأجلها . الأخلاف: جمع (خلف) – بكسر فسكون – يطلق على ذوات الخف كالثدى للإنسان . سارية هتانة : سحابة كثيرة المطر .
(٤) الحوالب : ما تحد الضرع باللبن والمراد هنا منابع الماء.النواهل : العطاش.
(٥) نمنمت : نقشت وزينت . النور : – بفتح النون مشددة – الزهر بردا : – بضم فسكون – ثوبا ، وجمعه (برود) بضمتين .
(٦) يختال : يتبختر . موشية : مزينة. العلم : المراد : العلامة تكون فى طرف الثوب.

وينمو النبات الذى يكسو الأرض بحلله الخضر ، وأزهاره الجميلة .

ولا يخفى أن البارودى نهج نهج القدماء فى هذا المطلع ، إذ كان الشاعر العربى — يدعو بالسقيا لأرض محبوبته حتى ينبت الزرع ، وتبقى فى مكانها ، فلا ترحل بحثا عن النبات ، ومن ذلك قول البحترى :

نشدتك الله من برق على إضم
لما سقيت جنوب الحزن فالعلم(١)

إن البارودى لم يرد مطلق الغيث ، بل أراده غيثا غزيرا ، يدل على قوله :

(أخلاف سارية هتانة الديم) وقوله : (من الفزار اللواتى فى حوالبها ..) .

ولا يخفى أن فى هذا القول تشبيها رائعا منتزعا من البيئة البدوية ولقد أكد المعنى ووضح الفكرة .

وإذا تأملت قوله : (إذا استهلت بأرض نمنمت يدها ..) تجده قد اشتمل على مجاز عقلى ، لا يخفى أثره فى إظهار أثر المطر الذى يكسو الأرض الجدباء حللا مزخرفة ، وأردية مزينة ، ولعل الشاعر أراد أن يؤكد ذلك الأثر فأشار إلى أنك إذا نظرت إلى النبات ، وهو مورق جميل يهتز مع الريح ، خيل إليك أنه (يختال فى حلة موشية العلم) ، إنها صورة رائعة ، وتجسيم بديع ، كان سببه ذلك الغيث الذى تمنى الشاعر سقوطه على ديار محبوبته ، التى يؤكد حبها بقوله : (٢)

أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأ
أحق بالرى ، لكنى أخو كرم(٣)

---

(١) ديوانه جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٣٠ .
(٣) يبدو أن الشاعر أتى (بإلى) بدل اللام للوزن ، والأصل (أدعو للدار ..)

منازل لهواها بين جانحتي
ووديعة سرها لم يتصل بفمي[1]

إذا تنسمت فيها نفحة لعبت
بي الصبابة لعب الريح بالعلم[2]

أدر على السمع ذكراها فإن لها
في القلب منزلة مرعية الذمم

يدعو البارودي لديار محبوبته بالسقيا مع أنه أحق بالري لشدة عطشه، ولكنه يؤثرها على نفسه، لأن لها مكانة عالية يحفظها في قلبه، ويكتمها بين جوانحه، ثم يذكر أنه إذا تنسم نفحة من رائحتها الذكية، خفق قلبه، واضطرب فؤاده، كما يخفق العلم إذا هزته الرياح.

وفي تلك الأبيات يظهر مدى حب البارودي هذه الأماكن التي يحبها، لأن فيها أحبابه، ولذلك يدعو لها بالسقيا مع أنه أحق بها ـ كما تشير الأبيات إلى ما طبع عليه البارودي من فخر واعتزاز في مثل قوله : (لكني أخو كرم).

ولما كانت هذه الأماكن تخص أحبابه وكان من شرط الحب كتمان أسراره، ولذلك حسنت هذه الكناية اللطيفة من الشاعر : (ووديعة سرها لم يتصل بفمي) فالسر مصون في القلب، وبلغ من قوة كتمانه أنه لم يتصل بفمه فضلا عن فم غيره.

وإذا تأملت قوله : (إذا تنسمت منها نفحة ..) وجدته يشير إلى شدة حسن رائحة هذه الأماكن، ويؤكد ذلك أنه إذا شم عبيرها : لعبت به الصبابة، ولا يخفى أن في ذلك التعبير مجازا عقليا، يدل على أثر هذه الرائحة الطيبة، وقوة ذلك الحب.

ولقد أتى الشاعر بتشبيه محسوس يصور به مدى تغلغل هذا الحب

---

(١) الجانحة: واحدة الجوانح وهي الأضلاع التي تحت الترائب، وهي مما يلي الصدر، كالضلوع مما يلي الظهر.

(٢) تنسمت : المراد وجدت نسيمها . نفحة : المراد رائحة طيبة ـ العَلم : اللواء أي الراية.

فى قلبه وشدة استحواذه عليه فى قوله : (لعب الريح بالعَلم) إن قلبه يخفق، وفؤاده يضطرب من شدة حبه تلك الديار ، ولذلك حق له أن يجرد من نفسه شخصا يطلب منه أن يدير على سمعه ذكراها ، مع أنه ما زال يحتفظ بهواها .

ويبدو أن الشاعر تذكر أيام أحبابه التى مضت فقال : [1]

عهد تولى وأبقى فى الفؤاد لـــه
شوقـا يفل شباة الرأى والهمـم [2]

إذا تذكرته لاحت مخائلــــه
للعين حتى كأنى منه فى حلــم [3]

فما على الدهر لو رقت شمائلــه
فعـاد بالوصل أو ألقى يد السلـم

يقول البارودى : إن زمن حبه قد ذهب ، ولكنه كان عظيم الأثر، إذ ترك فى نفسه لهفة ، وأبقى فى قلبه شوقا كبيرا ، يسيطر على عقله ، ويكفى أنه إذا تذكر تلك الأيام ـ ظهرت صورتها ماثلة أمام عينيه ، وخيل إليه أنه فى حلم ، ثم يتمنى الشاعر أن يصفو دهره، وتعود أيام حبه.

وفى تلك الأبيات تظهر عاطفة الشاعر حزينة على عهد حبه الـــذى ذهب ، وزمن صباه الذى تولى ، ولكنه أراد أن يُبرز أثر ذلك الحب فقال : (وأبقى فى الفؤاد لـه شوقا)، وأكده بقوله : (يفل شباة الرأى والهمم) ثم زاده تأكيدا بقوله فى البيت الثانى : (إذا تذكرته لاحت مخائله ....) كما أن فى قوله : (كأنى منه فى حلم) تشبيها يشير إلى دهشته .

وفى البيت الثالث أمنيـة يرجو الشاعر تحقيقها ، إنه يرجو أن يرق

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ .
(٢) يفل : يكسر . شباة : حد
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ .

دهره ، وتصفو أيامه ، فتعود أيام حبه مرة ثانية : (فما على الدهـــر لو رقت شمائله ..) ولكن هيهات لما يرجوه ، إذ كيف يتحقق له ذلـــك وقد كثرت عليه الخطوب التى أشار إليها بقوله[1] :

تكاءدتنى خطوب لو رميت بهـــا
مناكب الأرض لم تثبت على قـــدم[2]

فى بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تحنو على صنـم[3]

لا أستقر بها إلا على قلـــــــق
ولا ألذ بها إلا على ألـــــم

إذا تلفت حولى لم أجد أثـــرا
إلا خيالى ولم أسمع سوى كلمى

فمن يرد على نفسى لبانتهـــــا
أو من يجير فؤادى من يد السقم[4]

يشير البارودى فى تلك الأبيات إلى تلك الخطوب التى أحاطت به ، وشقت عليه فى تلك البلدة التى انتشرت فيها الوثنية ، وهى (سرنديب) كمـــا أشار إلى ذلك كاتبه[5] — تلك البلدة التى كانت مصدر قلق وألم ، إذ ليس فيها أنيس ولا جليس .

وإذا تأملت قول الشاعر : (تكاءدتنى خطوب ..) وجدته يشير إلـى حزنه وأسفه ، لأن الخطوب شديدة وكثيرة ، ولو أنك (رميت بها مناكب الأرض

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ .

(٢) تكاءدتنى : شقت على .

(٣) أراد بقوله : (فى بلدة ..) جزيرة (سيلان) . العير : بفتح العين وسكون الياء — الحمار الوحشى والأهلى أيضا . والمراد أن هذه البلدة خالية من أسرته وأحبابه كخلو جوف العير من السكان ، (وجوف العير) قيل : إنه منسوب إلى حمار بن مويلع (بالتصغير) رجل من بقايا عاد أشرك بالله فأرسل عليـــه صاعقة أحرقته .

(٤) لبانتها : حاجتها ، وأراد بها الشاعر هنا : عودته إلى وطنه (مصر) بعد أن ذاق مرارة النفى فى (سرنديب) انظر كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ، هامش ص ٤ . (٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

لم تثبت على قدم) ، وفى هذه العبارة ، استعارة مكنية لا يخفى سرها فى الإشارة اللطيفة إلى كثرة المصائب التى ألمت بالشاعر ، كما أنها تشير - أيضا - إلى قوة تحمله ، وحسن صبره.

ولا يخفى أن فى قول الشاعر: (.. أم تحنو على صنم) كناية لطيفة أشار بها إلى أن هؤلاء القوم - أهل سيلان - ليسوا مسلمين .

وإذا تأملت قوله : (فى بلدة مثل جوف العير ..) وقوله : (إذا تلفت حولى لم أجد أثرا إلا خيالى .) أدركت ما يعانيه الشاعر من وحدة قاتلة ، وغربة موحشة .

وكان من الطبيعى أن يخفى الشاعر عودته إلى وطنه ، ولذلك قال : (نحن يرد على نفسى لبانتها ..) وكيف لا يرجو العودة إلى وطنه وهو وحيد طريد ، أضف إلى ذلك أن العلل قد أصابت جسده ، وهذا ما أشار إليه بقوله : (أو من يجير فؤادى من يد السقم) ، وفى هذا القول استعارة مكنية دلت على شدة المرض الذى أصاب الشاعر وتمكنه منه .

إن هذه الأبيات تصور - بوضوح - نفس الشاعر الحزينة ، وقلبه الجريح ، ويؤكد ذلك قوله [1] :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت
عنى رسائل أشواقى إلى إضم [2]
مرت علينا خماصا وهى قاربة
مر العواصف لا تلوى على أرم [3]
لا تدرك العين منها حين تلمحها
إلا مثالا كلمع البرق فى الظلم

---

(١) المرجع السابق ص ٤ ومابعدها .
(٢) القطا : (جمع قطاة) وهى طائر فى حجم الحمامة تذهب لطلب الماء من مسيرة ليلة فترده ضحوة ثم تعود فلا تخطئ موضعها .
(٣) خماصا : جياعا . قاربة : طالبة الماء . لا تلوى : لا تعطف.

كأنها أحرف برقيـة نهضـت

بالسلك فانتشرت فى السهل والعلم[١]

لا شىء يسبقها إلا إذا اعتقلت

بنانتى فى مديح المصطفى قلمى[٢]

يتمنى الشاعر أن لو حملت القطاة رسائل أشواقه إلى أحبابه فى (إضم) ولكن أنى له ذلك ، وقد مرت بسرعة كبيرة ، عندما كانت ذاهبة للتزود من الطعام والشراب.

ولقد أراد البارودى أن يبين سرعة القطاة فأتى بثلاثة تشبيهات، الأول : أنها مرت كمرا المواصف ، الثانى : أنها مرت كلمع البرق فى الظلم - وهذا لا يستغرق إلا وقتا قصيرا - الثالث: أنها مرت كأنها برقية (تلغرافية).

وفى البيت الأخير انتقل الشاعر إلى الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) - وهو الغرض الأساسى للقصيدة - ولذلك قال ، لا شىء يسبق القطاة إلا إذا حبست بنانتى قلمى ، وجعلته يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ويبدو أن البارودى كان يعانى ألم النفى ومرارته، ولذلك أتى بلفظ (اعتقلت).

إن هذا البيت كان تمهيدا للحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى بدأه بقوله :[٣]

محمد خاتم الرسل الذى خضعت

لـه البرية من عرب ومن عجـم

سمير وحى ، ومجنى حكمة ، وندى

سماحة ، وقرى عاف ، ورى ظمى[٤]

---

(١) برقية : نسبة إلى الموصل البرقى المعروف " بالتلغراف ". نهضت : تحركت .
(٢) اعتقلت : حبست . البنانة : الأصبع أو طرفه.
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥ . (٤) سمير وحى : مسامر قرآن أى ملازم له وخاصة فى الليل - مجنى حكمة : مكان أخذ فهم حقائق القرآن ، أو الحديث الشريف.

قد أبلغ الوحى عنه قبل بعثته
مسامع الرسل قولا غير منكتم
فذاك دعوة إبراهيم خالقــه
وسرّ ما قاله عيسى من القــدم

مدح البارودى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الرســل ، أرسله الله رحمة للعالمين فخضعت الخلائق لدعوته - وهذا على سبيــل التغليب - كما أنه كان مشغولا بالقرآن - وخاصة فى الليل - وهو منبع الحكمة ، وكان سمحا كريما ، يكرم الضيفان ، ويروى العطشان ، علمــت الرسل به قبل بعثه ، بل قبل خلقه ، فترقبت ظهوره .

وإذا تأملت عبارة الشاعر وجدته لم يمدح الرسول (صلى الله عليــه وسلم) بوصف جديد ، بل كلها أوصاف مكررة ، ولعله يشير بقوله (مجنى حكمة) إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) كان منبع القول الصادق النافــع ، أو أنه منبع الحديث الشريف ، وذلك من قوله تعالى : " وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَــى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ .. الآية[1] " إذ ذهب بعض المفسريــن إلى أن الحكمة فى الآية هى الحديث الشريــف[2] .

ولقد أشار الشاعر بقوله : (قد أبلغ الوحى عنه قبل بعثته ..) إلــى قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَــةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَأَقْرَرْتُــمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِــنَ الشَّاهِدِينَ[3] " وفيه إشارة - أيضا - إلى ما ورد من أوصاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الكتب السابقة ، ومن ذلك ما قيل : إن وصفه فى التوراة : " يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخب بالأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ... [4] " .

---

(١) الأحزاب / ٣٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٤١١
(٣) آل عمران / ٨١ .
(٤) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الثانى ص ٨٧ وما بعدها .

ويبدو أن البارودى يلمح بقوله : (فذاك دعوة إبراهيم ٠٠) إلى قوله تعالى : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ٠٠ الآية [١]) . لأن هذه الآية هى دعوة إبراهيم (عليه السلام) ، كما يلمح الشاعر بقوله : (وسر ما قاله عيسى ٠٠) إلى قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ٠٠ الآية [٢] " .

ويلاحظ أن ألفاظ البارودى سهلة واضحة إلا أنه قد وقع فيما وقع فيه البوصيرى من خطأ فى قوله : (منكتم) إذ ذلك اللفظ يخالف قواعد اللغة كما سبق [٣] .

نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

انتقل البارودى إلى الإشارة إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [٤] :

أكرم به وبآباء محجلــــة
جاءت به غـرة فى الأعصر الدهم

قد كان فى ملكوت الله مدخـرا
لدعوة كان فيها صاحب العلــم [٥]

نور تنقل فى الأكوان ساطعــه
تنقل البدر من صلب إلى رحــم [٦]

حتى استقر بعبد الله فانبلجت
أنوار غرتـه كالبــدر فى البهــم

يشير البارودى فى هذه الأبيات إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الرفيع ، وكرم آبائه وأجداده ، وأنه سليل بيت عُرف بالمجد والشرف

---

(١) البقرة : ١٢٩ .   (٢) الصف / ٦ .
(٣) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة .
(٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥ وما بعدها .
(٥) ملكوت الله : المراد علمه القديم .
(٦) صلب : (بضم فسكون) ـ المراد ظهر الرجل . الرحم : مقر الجنين

والمولد ، كما أنه جاء نورا فى الظلام ، وكان مدخرا فى علم الله القديم، لشرف النبوة العظيم، ولقد حفظه الله من دنس الجاهلية،فتنقل نوره من آبائه حتى استقر فى صلب أبيه عبد الله .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أكرم به وبآباء محجلة ٠٠) وجدته مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومدح آبائه ، كما أسند المجئ إليهم على سبيل المجاز العقلى؛ لأنهم سببه ، أضف إلى ذلك أن قوله : (فى الأعصر الدهم) يشير إلى حالة العرب قبل مجئ الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كان الجهل منتشرا ،والظلام حالكا .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (نور تنقل ٠ ٠) إلى ما نسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:إنما خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شئ،لم أخرج إلا من طهرة (1) .

ويبدو أن البارودى يلمح بقوله : (حتى استقر بعبد الله ٠٠) إلى ما قيل :إن عبد الله بن عبد المطلب ـ والد الرسول ـ قد مر على امرأة من خثعم ـ وقيل غير ذلك ـ فدعته يستبضع منها ، ولزمت طرف ثوبه ، فأبى وقال :

أما الحرام فالممات دونه

والحل لا حل فأستبينه

ثم مضى إلى امرأته آمنة بنت وهب فكان معها ، ثم ذكر الخثعمية وجمالها ، وما عرضت عليه ، فأقبل إليها فلم ير منها من الإقبال عليه آخرا كما رآه أولا ، فقال : هل لك فيما قلت لى ؟ فقالت : قد كان ذلك مرة فاليوم لا ٠٠ وقالت : أى شئ صنعت بعدى ؟ قال : وقعت على زوجتى آمنة بنت وهب، قالت : والله لست بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت نور النبوة فى وجهك ، فأردت أن يكون ذلك فىّ ، وأبى الله إلا أن يجعله

---

(1) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٣١ .

حيث جعله " وفي رواية أخرى " مررت وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس، ورجعت وليس هي في وجهك ..."(١)، ويبدو أن هذه القصة قد زهدته عليها ، وأنزه والد الرسول عن أن يعود إلى المرأة مرة ثانية موافقا على ما طلبته منه سابقا .

ومهما يكن من شيء ، فإن البارودي يلمح إلى تلك القصة بقولـــه : (جاءت به غرة ..) وأكد ذلك بقوله : (.. فانبلجت أنوار غرته ...) ولا يخفى ما في هذا التشبيه (كالبدر في البهم) من بيان أثر ظهور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإيضاح حال العالم قبيل ظهوره.

زواج عبد الله بن عبد المطلب :

وأشار البارودي إلى زواج والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله(٢)

واختار آمنة العذراء صاحبـــة
لفضلها بين أهل الحل والحرم(٣)

كلاهما في العلا كفء لصاحبه
والكفء في المجد لا يستام بالقيم(٤)

فأصبحت عنده في بيت مكرمـــة
شيدت دعائمـه في منصب سنم

يقول البارودي : إن عبد الله بن عبد المطلب قد اختار آمنة بنت وهب زوجة له، وذلك لفضلها في النسب والحسب ، ولكمالها وطهرها وعفافها ، كمـا أن عبد الله كان - أيضا - من أشرف قبائل العرب ، وبيته من أعـــــز بيوتها .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ القسم الأول ص ٨٥ وما بعدها بتصرف وسيرة ابن هشام جـ١ هامش ص١٦٨ .
(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٦ .
(٣) العذراء : البكر والمراد الطاهرة.صاحبة : زوجة.
(٤) لا يستام: لا يطلب بيعه أو شراؤه،والمراد هنا لا يقدر.

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (العذراء ٠٠) وقوله : (لفضلها بين أهل الحل والحرم) ما يوحى بعفتها وطهارتها ، ووصفه بيت عبدالله بأنه (بيت مكرمة) يدل - أيضا - على عزة أهله ورفعة شأنهم .

ثم انتقل البارودى إلى الإشارة إلى حمل والدة الرسول به بقوله[1]:

وحينما حملت بالمصطفى وضعت
يد المشيئة عنها كلفة الوحم
ولاح من جسمها نور أضاء لها
قصور بصرى بأرض الشام من أمم[2]

إن السيدة آمنة بنت وهب - أم الرسول - حينما حملت بالمصطفى (صلى الله عليه وسلم) لم تجد مشقة فى حمله ، كما أنها حينما وضعته خرج معه نور أضاءت له قصور بصرى بالشام .

ولعل الشاعر يلمح فى البيت الأول إلى ما نسب إلى السيدة آمنة أنها قالت : " ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء ... [3] .

كما يلمح فى البيت الثانى إلى قولها : " لما فُصل منى خرج معه نور أضاءت له قصور بصرى ... [4] " .

والجدير بالذكر أن الدرويش سبق البارودى إلى الإشارة إلى هذا النور الذى أضاءت له قصور بصرى بالشام ، وذلك عند قوله : (كيف استنارت قصور الشام ٠٠ البيت [5]) .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ولقد أشار البارودى إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[6] :

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٦ .
(٢) بصرى - بضم فسكون - مقصور الآخر - بلدة بالشام من أعمال دمشق .
(٣) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص٦٠ .
(٤) انظر هامش ص ٢٩٢ من هذه الرسالة . (٥) المرجع السابق ص ٢٩١
(٦) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٦ .

(ومنذ) أتى الوضع وهو الرفع منزلة
جاءت بروح بنور الله متسم[1]
ضاءت به غرة الإثنين وابتسمت
عن حسنه فى ربيع روضة الحرم[2]

حيثما ولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) شرف الوجود بأكرم مولود، وكان ذلك فى يوم الإثنين من شهر ربيع الأول بمكة المكرمة .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (وهو الرفع منزلة ..) احتراسا لطيفا بعد قوله (أتى الوضع ..)، كما أنه أشار بقوله: (روضة الحرم) إلى مكة المكرمة التى ابتسمت لهذا النبأ العظيم، ولذلك المولود الكريم (صلى الله عليه وسلم).

رضاعه (صلى الله عليه وسلم) :

وانتقل البارودى إلى ذكر رضاع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله[3] :

(وأرضعته) ولم تيأس (حليمة) من
قول المراضع : إن البؤس فى اليتم
فقاض بالدر ثدياها وقد غنيت
لياليا وهى لم تطعم ولم تنم[4]
وانهل بعد انقطاع رسل شارفها
حتى غدت من رفيه العيش فى طعم[5]
فيممت أهلها مملوءة فرحا
بما أتيح لها من أوفر النعم

---

(١) أتى : حان . (٢) روضة الحرم : المراد مكة المكرمة .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٧ .
(٤) الدر : بفتح الدال مشددة — اللبن .
(٥) رسل : بكسر فسكون — شارفها : لبن ناقتها المسنة — رفيه العيش : الرغد اللين .

وقلص الجدب عنها فهى طاعمة
من خير ما رفدتها ثلة الغنم[1]
وكيف تمحل أرض حلّ ساحتها
(محمدٌ) وهو غيث الجود والكرم

يشير الشاعر - فى هذه الأبيات - إلى قصة المراضع اللاتى أعرضن عن رضاع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، لأنه كان يتيما ، إلا أن حليمة السعدية أخذته على الرغم من يتمه وعندما أخذته رأت أشياء أدخلت السرور على نفسها ، وأكدت لها أن هذا المولود له شأن كبير ، ومن ذلك : كثرة لبن ثدييها ، وكثرة لبن ناقتها المسنة ، وإحاطة الخير بها من كل جانب.

ويلاحظ أن البارودى نظم القصة كما روتها بعض كتب السيرة على لسان السيدة حليمة السعدية التى قالت: " قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء ، ... ومعى صبى لنا وشارف .. ، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ، ما يجد فى ثديى ما يغنيه ، ولا فى شارفنا ما يغذيه ، فقدمنا مكة ، فوالله ما علمت منا امرأة إلا عرضن عليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا قيل : يتيم ، تركناه ، وقلنا : ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ، إنما نرجوا المعروف من أب الولد .. فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعا غيرى ... فذهبت ، فأخذته .. فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى، فأقبل علىّ ثدياى بما شاء من لبن ، وشرب أخوه حتى روى ، وقام صاحبى إلى شارفى تلك ، فإذا بها حافل، فحلب ما شرب ، وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة ، فقال لى صاحبى: والله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة.[2] ".

ومهما يكن من شىء فلقد أشار البارودى إلى سرور السيدة حليمة بقوله : (فيممت أهلها مملوءة فرحا) فلفظ (مملوءة) يوحى بسرورها الشديد

---

(١) قلص : ذهب بسرعة . الثلة : الجماعة .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٧٤ بتصرف ، أسد الغابة جـ ٧ ص٦٨ .

وفرحتها الغامرة ، ومالها لا تفرح وقد (قلص الجدب عنها ..) بفضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولذلك حسن تعقيب الشاعر على القصة بقوله :

وكيف تمحل أرض حل ساحتها
(مُحَمَّدٌ) وهو غيث الجود والكرم

وواصل البارودى الحديث عن رضاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :(١)

فلم يزل عندها ينمو وتكلؤه
رعاية الله من سوء ومن وصم

حتى إذا تم ميقات الرضاع لـه
حولين أصبح ذا أيدٍ على الفطم(٢)

وجاء كالغصن مجد ولا ترف على
جبينه لمحات المجد والفهم(٣)

وقد تم عقلا ، وما تمت رضاعته
وفاض حلما ، ولم يبلغ مدى الحلم

لقد مكث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند السيدة حليمة سنتين ترعاه عناية الله ،وتحفظه من كل سوء ، إلى أن تمت مدة رضاعته ، فأصبح ذا قوة على الفطام ، إذ كان قوى الجسم ، نشيط البدن ، تظهر عليه علامات المجد والسؤدد ،وكان مع صغر سنه كبير العقل ، واسع الصدر .

إن نظم البارودى يغلب عليه السرد التاريخى ، ولذلك جاءت هذه الأبيات خالية من العمق ، ما عدا البيت الأخير ، فقد اشتمل على بعض الإشارات اللطيفة التى تدل على أن الله قد خص النبى (صلى الله عليه وسلم) - من صغره - بقوة جسمه ، وكمال عقله ، وحسن خلقه .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٧ .

(٢) ذا أيد : ذا قوة . الفطم : بضم الفاء والطاء - جمع فطيم - بفتح فكسر - الصبى الذى منع من الرضاع .

(٣) مجد ولا : المراد محكم الخلقة قوى الجسم .

شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن شق صدر الرسول بقوله : [١]

فبينما هو يرعى البهم طاف بـه
شخصان من ملكوت الله ذى العظم

فأضجعاه وشقا صدره بيـد
رفيقة لم يبت منها على ألـم

وبعدما قضيا من قلبه وطـرا
تولياه ضلعه بالسلسل الشبم [٢]

ما عالجا قلبه إلا ليخلص من
شوب الهوى ، ويعى قدسية الحكم [٣]

فيالها نعمة لله خص بهـا
حبيبه ، وهو طفل غير محتلم

يشير البارودى إلى قصة الملكين اللذين شقا صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان طفلا يرعى الغنم مع أخيه من الرضاعة .

والجدير بالذكر أن البوصيرى قد أشار إلى الشق قبل البارودى ولكنها كانت إشارة عامة فى قوله : [٤]

أقسمت بالقمر المنشق إن لـه
من قلبه نسبة مبرورة القسم

أما البارودى فقد أشار إلى شق بعينه ، ذاكرا قصته بالتفصيل - إذ من المعلوم أن الشق قد تعدد [٥] - ولذلك غلب على نظمه السرد التاريخى ، ولكنه مع ذلك لم يخل من طرافة ، مثل عدم تألم النبى من هذا

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٨ .
(٢) السلسل الشبم : الماء العذب البارد .
(٣) الشوب : الخلط . يعى : يحفظ ويعقل .
(٤) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة .
(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٨ ص ٤٥١ .

الشق بقوله : (.. لم يبت منها على ألم)، وشل ببيان علة الشق بقوله : (ما عالجا قلبه إلا ليخلص من ..).

ولما كان هذا الأمر يثير العجب والدهشة، حسن قول الشاعر : (فيالها نعمة لله خصصها ..)، إلا أن ذكر كلمة (غير محتلم) بعد كلمة (طفل) يعد حشوا ولعل الشاعر أتى بها للقافية .

والبارودى بتلك الأبيات يشير إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة عن هذه القصة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال " .. بينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا . فأخذانى فشقا بطنى . واستخرجا قلبى فشقاه . فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها . ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه .. (1) ".

قصة بحيرى :

ثم انتقل البارودى إلى ذكر قصة بحيرى (2) بقوله (3) :

وقال عنه بحيرى حين أبصره ... بأرض بصرى مقالا غير متهم

إذ ظللته الغمام الغر وانهصرت ... عطفا عليه فروع الضال والسلم (4)

بأنه خاتم الرسل الكرام ومن ... به تزول صروف البؤس والنقم

إن بحيرى قد رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان فى ركب تجارى إلى الشام . وعرف أنه هو الرسول المرتقب عندما رأى الغمامة تظلله

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ١ ص١٧٨ .
(2) بحيرى - ويكتب أيضا - بحيرا - بالألف: راهب انتهى إليه علم النصرانية (المرجع السابق جـ ١ ص١٩٤) .
(3) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٨ .
(4) انهصرت : مالت . الضال - نوع من الشجر ومثله السلم .

وفروع الشجرة التى كان يجلس تحتها قد مالت عليه . وهذه بعض العلامات التى وردت فى الكتب السابقة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان هذا الراهب على علم بها .

والبارودى يلمح بقوله : (وقال عنه بحيرى حين أبصره ..) إلى القصة الطويلة . التى ذكرتها بعض كتب السيرة والتى انتهت بقوله عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يخاطب عمه أبا طالب : " .. ارجع بابن أخيك إلى بلده . واحذر عليه اليهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغضن به شرا . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .. "[1] .

ويبدو أن البارودى أراد أن يشير إلى أن آيات الرسول قبل البعثة كثيرة فقال :[2]

هذا وكم آية سارت له فمحت * بنورها ظلمة الأهوال والقحم[3]

ما مر يوم له إلا وقلده * صنائعا لم تزل فى الدهر كالعلم

إن الله قد أكرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكثير من الآيات قبل البعثة . وكانت تشير إلى أن شأنه سيكون عظيما .

ولعل فى قول الشاعر : (.. وكم آية ..) ما يدل على الكثرة . إلا أن فى قوله : (ما مر يوم إلا وقلده) خطأ لغويا والصحيح حذف الواو بعد إلا كما سبق[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٩٦ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٨ .
(٣) القحم : - بضم ففتح - جمع قحمة - بضم فسكون - تطلق على معان كثيرة، والمراد هنا : الأمر الشاق الذى يحمل الإنسان على ما يكرهه .
(٤) انظر ص١٥١ من هذه الرسالة .

الصـادق الأمـين :

ولقد أشـار البارودى إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قـد لقـب بالصـادق الأمين بقوله (١) :

حتى استتم ولا نقصـان يلحقـه
خمسا وعشرين من البارع الفهم
ولقبتـه قريش بالأمين علـى
صـدق الأمانة والإيفاء بالذمـم

عندما بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الخامسة والعشريـن كان مثالا للأخلاق العالية، والصفات الحميدة ، ولذلك لقبته قريـش بالصادق الأمين ، لأمانتـه وصدقـه ، ووفائه بعهوده .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (ولا نقصان يلحقه) احتراسـا لطيفـا بعد قوله : (حتى استتم)، ولقد انتقل البارودى إلى الحديث عن تجارة الرسول بمال السيدة خديجة بقوله (٢) :

ودّت خديجة أن يرعى تجارتهـا
وداك منتهـز للخير مغتنـم
فشـد عزمتهـا منه بمقتـدر
ماضى الجنان إذا ما هم لم يخم (٢)
سار معتزما للشام بصحبـه
فى السـير ميسرة المرضى فى الحشم (٤)
فما أناخ بها حتى قضى وطـرا
من كل ما رامه فى البيع والسلم
وكيف يخسر من لولاه ما ربحـت
تجـارة الدين فى سهـل وفى علم

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٨ ومابعدها .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها . لم يخم : لم ينكص ولم يجبن .
(٣) ميسرة : غلام السيدة خديجة (رضى الله عنها) .
(٤) المرضى : بتشديد الياء ـ المختار .

عندما سمعت السيدة خديجة بنت خويلد عن هذا الصادق الأمين، تمنت أن يرعى تجارتها ، ولقد قوى رجاءها ، وشد عزمها، ما علمته من شجاعته ، وحسن تدبيره ، وكل ذلك دفعها إلى عرض ذلك على محمد (صلى الله عليه وسلم) فوافق وخرج بالتجارة إلى الشام يصحبه عبدها (ميسرة) ولم تلبث التجارة أن راجت سوقها ، وعظم مكسبها .

ولا شك فى أن قول الشاعر : (ودّت خديجة ..) يصور مدى شغفها بهذا الصادق الأمين ، ويؤكد ذلك قوله : (وداد منتهز للخير مغتنم) وأحسن الشاعر عندما بين السبب الذى شد عزم السيدة خديجة على أن تتمنى خروج الرسول بتجارتها : أنه مقتدر ، وماضى الجنان ، وقوى العزيمة عالى الهمة .

ولعل قوله : (فما أناخ بها حتى قضى وطرا) يشير إلى قِصَر المدة التى لبثتها القافلة التجارية ، ومع ذلك حققت مكسبا عظيما .

وقد اشتمل البيت الأخير على استفهام يفيد إنكار خسارة الرسول فى تجارة الدنيا ، وهو الذى ربحت على يديه تجارة الدين ، وهذا يدل على أمانته ومهارته ، ولا يخفى أن الطباق فى قوله : (فى سهل وفى علم) يدل على انتشار الدين .

ثم أشار الشاعر إلى أن ميسرة قصّ على السيدة خديجة بعض المشاهد التى شاهدها فى الرحلة فقال[1] :

فقصّ ميسرة المأمون قصته

على خديجة سردا غير منجم

وما رواه له كهل بصومعة

من الرهابين عن أسلافه القدم[2]

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٩ .

(٢) الرهابين : جمع رهبان . القدم : بضمتين ـ المراد المتقدمين .

فى دوحة عاج خير المرسلين بهـا
من قبل بعثته للعرب والعجم[1]
هذا نبى ولم ينزل بساحتهـا
إلا نبى كريم النفس والشيم
وسيرة الملكين الحائمين علـى
جبينه ليظلاه من التهـم[2]

لقد قص ميسرة على السيدة خديجة كل ما رآه فى أثناء رحلته من أخلاق عظيمة، ومعاملة كريمة، كما أخبرها بأن أحد الرهبان رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) نزل تحت شجرة، فقال : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . وذكرت بعض كتب السيرة أن ميسرة قد رأى ملكين يظلان الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الشمس[3] .

ويبدو أن البارودى أراد أن يؤكد ما شاهده ميسرة فوصفه بقوله : (المأمون) . ومع أن الألفاظ سهلة واضحة إلا أن الشاعر قد ذكر لفظ (منجم) وقد سبقه إلى ذلك البوصيرى أيضا[4] مع أن هذا اللفظ لم يرد فى معاجم اللغة المعتمدة كما سبق[5] .

زواج محمد بن عبد الله بالسيدة خديجة :

وانتقل البارودى إلى الحديث عن زواج الرسول بالسيدة خديجة بقوله[6]:

فكان ما قصه أصلا لما وصلت
به إلى الخير من قصد ومعتزم
أحسن بها وصلة فى الله قد أخذت
بها على الدهر عقدا غير منفصم
فأصبحا فى صفاء غير منقطع
على الزمان وود غير منصرم

إن ما قصه ميسرة على السيدة خديجة من أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — فى أثناء ذهابه معه إلى الشام — قد أثار عجبها ، فدفعها ذلك إلى أن تطلب الزواج منه ، ووافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكان زواجا أساسه المحبة والمودة ، ولذلك عاشا فى صفاء دائم ، وود متصل .

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة . عاج : أقام . (٢) التهم : (بفتح التاء والهاء) شدة الحر .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٤) أنظر ص ١٨٨ من هذه الرسالة . (٥) المرجع السابق ص ١٩٢ .
(٦) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٠ .

قصة بناء الكعبة :

وأشار البارودى إلى قصة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود بقوله[1] :

وحينما أجمعت أمرا قريش على
بنايـة البيـت ذى الحجاب والخدم
تجمعت فرق الأحلاف واقتسمت
بناءه عن تراض خير مقتســـم[2]
حتى إذا بلغ البنيان غايتــه
من موضع الركن بعد الكد والجشم[3]
تسابقوا طلبا للأجر واختصموا
فيمن يشد بناه كل مختصـــم
وأقسم القوم أن لا صلح بينهم
من اقتحام المنايا أيما قســم
وأدخلوا حين جدّ الأمر أيديهم
للشر فى جفنـة مملوءة بـــدم
فقال ذو رأيهم : لا تعجلوا وخذوا
بالحزم فهو الذى يشفى من الحزم
ليرض كل امرىء منا بأول مـن
يأتى فيقسط فينا قسط محتكــم

وفى هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أن قريشا قد اتفقت على تجديد بناء الكعبة ، وفعلا تم ذلك، ثم حدث خلاف فيمن يضع الحجر الأسود - إذ من يضعه سيكون صاحب الشرف - وكاد القتال ينشب بين رؤساء القبائل فقال : أكبرهم سنا : لا تختلفوا ، وحكّموا أول داخل عليكم ، فوافقوا على ذلك .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٠ .
(٢) الأحلاف : جمع حلف والمراد بهم من اشتركوا فى بناء الكعبة وهم : عبد الدار وكعب وجمح وسهم ومخزوم وعدىّ .
(٣) الركن المراد به الحجر الأسود ، ويسمى ركنا ، لأنه مبنى فى الركن (سيرة ابن هشام ج ١ هامش ص ٢١٣) . الجشم : بفتحتين - المشقة .
(٤) ذو رأيهم : المراد أكبرهم سنا . الحزم : (الأولى) بفتح فسكون (معروف معناها) والحزم : (الثانية) بفتحتين - المراد بها مرض القلب .

ولا يخفى أن البارودى رسم تلك الصورة من واقع ما ذكرته بعض كتب السيرة [١] إلا أنه أشار إلى عظمة البيت الحرام بقوله : (ذى الحجاب والخدم) كما أشار إلى صورة الخلاف الذى كان يقع بقوله : (.. لا صلح بعضهم من اقتحام المنايا ..).

وإذا تأملت قوله : (وأدخلوا حين جد الأمر أيديهم .. فى جفنة مملوءة بدم) وجدته يشير إلى ما قام به بعض رؤساء القبائل بإحضار جفنة مملوءة بالدم وتحالفوا على القتال حتى الموت ولذلك سموا : (لعقة الدم) [٢].

ومهما يكن من شىء فلقد اتفقوا جميعا على تحكيم أول داخل عليهم وانتظروا هذا الداخل فكان كما قال البارودى :[٣]

فكان أول آت بعدما اتفقوا
(مُحمّدٌ) وهو فى الخيرات ذو قدم

فقال كل رضينا بالأمين على
علم ، فأكرم به من عادل حكم

فأعلموه بما قد كان واحتكموا
إليه فى حل هذا المشكل العمم

فمدّ ثوبا وحط الركن فى وسط
منه وقال : ارفعوه جانب الرضم [٤]

فنال كل امرىء حظا بما حملت
يداه منه ولم يعتب على القسم

حتى إذا اقتربوا تلقاء موضعه
من جانب البيت ذى الأركان والدعم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٢ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١١ .
(٤) الرضم : بفتحتين — أصلها (الرضم) بفتح فسكون — الصخور العظيمة التى بعضها فوق بعض .

مدّ الرسول يدا منه مباركـــة

بَنتْه فى صدف من باذخ سنـــم[1]

فليزد د الركن تيها حيث نال بـه

فخرا أقام له الدنيا على قــدم

لو لم تكن يده مسته حين بـنى

ما كان أصبح ملثوما بكل فـم

لقد كان أول داخل على هؤلاء المختلفين محمد بن عبد الله ، فاطمأنوا إلى حكمه ، إذ كان مشهورا بينهم بالصادق الأمين ، ولما قصوا عليه القصة خلع رداءه ووضعه على الأرض ثم وضع الحجر الأسود فى وسطه ، وأمـــر رئيس كل قبيلة بأن يحمل من طرف ، حتى وصلوا إلى مكان وضع الحجر الأسود ، فأخذه بيده الشريفة ووضعه فى مكانه ، فحل ذلك التصرف الحكيم مشكلتهم ، وحفظ دماءهم ، وصان أرواحهم .

والقصة يغلب عليها جانب السرد فى ألفاظها ، وليس فيها عمق فـــى الفكرة ، إلا أن الشاعر أشار إلى أن الحجر الأسود قد ازداد شرفــا وفخرا بحمل الرسول إياه ، كما ذهب إلى أنه لو لم تكن هذه اليــد المباركة ـ يد الرسول ـ هى التى وضعته ما قبله أحد .

وهو بذلك يشير إلى أن من السنة تقبيل الحجر الأسود فى أعمـــال الحج[2] ، وهى فكرة تدل على ثقافة الشاعر الدينية ، ولكن لم يرد ما يدل على أن السبب فى تقبيل الحجر هو وضع الرسول إياه ، كما أن لفظ (حط) لا يليق ذكره من شاعر كبير كالبارودى الذى تمنى أن يقبل ذلك الحجر بقوله[3]

يا ليتنى والأمانى ربما صدقـــت

أحظى بمعتنق منه وملـــتزم

---

(١) الصدف ـ بفتحتين ـ المراد الحائط المرتفع . الباذخ ـ العالى . السنم : العالى .

(٢) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١١ وما بعدها .

ياحبذا صبغة من حسنه أخذت
منها الشبيبة لون العذر واللمم[1]
كالخال فى وجنة زيدت محاسنها
بنقطة منه أضعافا من القيم[2]
وكيف لا يفخر البيت العتيق بـه
وقد بنته يد فياضة النعم
أكرم به وازعا لولا هدايته
لم يظهر العدل فى أرض ولم يقم
هذا الذى عصم الله الأنام بـه
من كل هول من الأهوال مخترم

إن البارودى — فى هذه الأبيات — يتمنى الذهاب إلى تلك الأماكن الطاهرة والبقاع المقدسة ، لكى يقبل ذلك الحجر الأسود : (ياليتنى والأمانى ربما صدقت ..) .

إلا أنه يرى أن الشبيبة قد أخذت لونها الأسود الجميل من لون هذا الحجر ، ثم أضاف إلى ذلك أن الخال فى الوجنة قد زاد حسنهـا أضعافا مضاعفة ، ولا شك فى أن الخال أسود اللون مثل الحجر أيضا (ياحبذا صبغة من حسنه أخذت ..) ، وقوله : (كالخال فى وجنة زيدت محاسنها ..) .

وإذا تأملت قوله : (وكيف لا يفخر البيت العتيق به ..) وجدته يشيد بمكانة الحجر الأسود أيضا ، حتى حق للبيت الحرام أن يفخر بذلك الحجر لأن الذى وضعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يخفى أن فى قوله : (وقد بنته يد ..) مجازا مرسلا علاقته الجزئية .. أظهر عظم تلك اليد ، وبخاصة أنها (فياضة النعم) .

---

(١) الصبغة : ما يصبغ به والمراد هنا : أثره وهو اللون الأسود . العذر بضمتين — جمع عذار — المراد الشعر الثابت على الخد .
(٢) الخال : النقطة السوداء على الوجنة .

إن صاحب هذه اليد المباركة كان سببا فى ظهور العدل وانتشاره وفى هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، كما أن الله قد عصم به الخلق، وحقن على يديه دماءهم، وكان سببا فى صلحهم .

مقدمات بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وأشار البارودى إلى بعثة الرسول بقوله [1] :

وحين أدرك سن الأربعين وما	من قبله مبلغ للعلم والحكم
حباه ذو العرش برهانا أراه به	آيات حكمته فى عالم الحلم
فكان يمضى ليرعى أنس وحشته	فى شاسع ما به للخلق من أرم [2]
فما يمر على صخر ولا شجر	إلا وحياه بالتسليم من أمم

عندما بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) سن الأربعين ظهرت مقدمات لنبوته وكان منها : الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء - حيث يتعبد ويتأمل فى ملكوت الله ، ولما أكرمه الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت الرسول حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة، واستمر على ذلك إلى أن نزل عليه جبريل بالبعثة [3] ، ولقد سبقت الإشارة إلى بعض هذه الأمور [4] . ويلاحظ أن البارودى يوالى سرده للسيرة النبوية، ويلمح بقوله (وما من قبله مبلغ للعلم والحكم) إلى أن سن النبوة هو سن الأربعين ، كما يلاحظ أن فى قوله : (فما يمر على صخر ... إلا وحياه) خطأ لغويا ، والصحيح حذف الواو بعد إلا - كما سبق [5] .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٢ وما بعدها .

(٢) الشاسع : البعيد - والمراد به غار حراء - وهو على بعد ثلاثة أميال من مكة .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص٢٥٣ .

(٤) انظر ص١٥٢ من هذه الرسالة .

(٥) المرجع السابق ص١٥١ .

بدء البعثة :

واستمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخلو بغار حراء حتى نزل عليه جبريل (عليه السلام) وهذا ما أشار إليه البارودى بقوله [1] :

حتى إذا حان أمر الغيب وانحسرت
أستاره عن ضمير اللوح والقلم
نادى بدعوته جهرا فأسمعها
فى كل ناحية من كان ذا صمم
فكان أول من فى الدارين تابعه
خديجة وعلى ثابت القدم
ثم استجاب رجال دون أسرته
وفى الأباعد ما يغنى عن الرحم
ومن أراد به الرحمن مكرمة
هداه للرشد فى داج من الظلم

أكرم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة التى كلفه بالقيام بتبليغها للناس ، والقيام بأعبائها ، ولذلك قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدعوة الناس إليها .

ولقد أشار البارودى إلى ما بذله الرسول من جهد لتبليغ تلك الدعوة بقوله : (فأسمعها فى كل ناحية من كان ذا صمم) إلا أنه قال عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : إنه (نادى بدعوته جهرا) والمعلوم أن الدعوة بدأت سرية ثلاث سنوات [2] .

ولا يخفى أن الشاعر يلمح بقوله : (فكان أول ..) إلى أن أول من أسلم السيدة خديجة وعلى بن أبى طالب ، ثم أسلم بعد ذلك رجال ليسوا من أقارب الرسول (صلى الله عليه وسلم) [3] .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٢ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص٢٧٤ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٩ وما بعدها .

وإذا تأملت قوله : (وفى الأباعد ما يغنى عن الرحم) وجدته حكمة صادقة - والبيت الأخير يبين أن الهادى فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وهو - أيضا - حكمة صادقة .

الناس والدعوة :

بين البارودى موقف الناس من دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :[1]

ثم استمر رسول الله معتزما
يدعو إلى ربه فى كل ملتئم[2]
والناس منهم رشيد يستجيب له
طوعا ومنهم غوى غير محتشم
حتى استرابت قريش واستبد بها
جهل تردت به فى مارج ضرم[3]
وهذبوا أهل دين الله وانتهكوا
محارما أعقبتهم لهفة الندم
وقام يدعو أبو جهل عشيرته
إلى الضلال ولم يجنح إلى سلم[4]
يبدئ خداعا ويخفى ما تضمنه
ضميره من غواة الحقد والسدم[5]

لقد واصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) تبليغ دعوته إلى الناس، وكان ينتهز فرصة اجتماعهم ، فيعرض عليهم مبادئ دعوته ، فكان الرشيد الذى يستجيب له ، والغوى الذى يعرض عنه ، ولما رأت قريش زيادة عدد المسلمين

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٢ وما بعدها .
(٢) ملتأم : مكان اجتماع القوم .
(٣) المارج : النار التى لا دخان لها . الضرم - المتوقد .
(٤) أبو جهل هو عمرو بن هشام قتل سنة ٢ هـ .
(٥) غواة الحقد : المراد ما لصق به من الحقد .

يوما بعد يوم، هالها الأمر ، فعذبوا المسلمين ، وخاصة الفقراء منهم ، وانتهكوا بذلك حرمات كانت سببا في خزيهم في الدنيا، وستكون سببا في عذابهم في الآخرة ، كما أوعدهم الله بذلك ، ومنهم أبو جهل الذي امتلأ قلبه حقدا على الرسول والمسلمين ، فكان يدعو الناس إلى محاربتهم والوقوف في سبيلهم .

والأبيات سهلة العبارة، واضحة الألفاظ، يغلب عليها السرد التاريخي. ولما كان الكفار قد ظلموا المسلمين وخاصة المستضعفين منهم - حسن من البارودي أن يقول : (١)

لا يسلم القلب من غل ألم به
ينقى الأديم ويبقى موضع الحلم (٢)
والحقد كالنار إن أخفيته ظهرت
منه علائم فوق الوجه كالحمم
لا يبصر الحق من جهل أحاط به
وكيف يبصر نور الحق وهو عم
كل امرئ واجد ما قدمت يده
إذا استوى قائما من هوة الأدم (٣)
والخير والشر في الدنيا مكافأة
والنفس مسئولة عن كل مجترم
فلا ينم ظالم عما جنت يده
على العباد ، فعين الله لم تنم

إن هذه الأبيات تشتمل على حكم صادقة تندد بالظلم، وتنذر الظالمين ، فالقلب الذى دخله الغل هو قلب مريض ، ومهما فعل صاحبه لابد أن يظهر أثر ذلك المرض ، والحقد كالنار مهما حاول الحاقد إخفاء حقده ظهرت علاماته على الوجه ، وإذا كان الحق واضحا ، فإن من أحاط به الجهل لا يبصره

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ١٤ .
(٢) الأديم : الجلد المدبوغ . الحلم : - بفتحتين - القراد العظيم ، ومفرده : حلمة - بفتحتين أيضا .
(٣) هوة الأدم : حفرة القبر .

لأنه كالأعمى ، وكيف يدرك الأعمى النور ، ومهما يكن من شيء فإن كل إنسان سيجد ما قدمته يده يوم القيامة ؛ لأن النفس مسئولة عن كل ما تفعلـــه ولذلك لا يحق لظالم أن يتساهل في ظلم العباد ؛ لأن الله لن يتساهل فـي حسابه .

والملاحظ أن هذه الحكم سهلة الفكرة ، ولا عمق فيها ، ويبدو أن نفي البارودي من مصر إلى سرنديب كان شديدا على نفسه ، ولذلك لا تواتيـه الفرصة إلا ندد فيها بالظلم والظالمين ، ذاكرا أن يوم الحساب آت لاريب فيه .

ولا يخفى أن الشاعر أكد هذه الحكم ببعض التشبيهات ، ومن ذلـــك أنه عندما أراد أن يؤكد أن الحقد لابد أن يترك أثرا في القلب ، أتـــى بمثال محسوس ليوضح المراد ، فذكر أن الجلد إذا أصيب بمرض القراد وشفـي منه ، لابد أن موضع القراد يظهر مهما حاولت إخفاءه ، كما أن البيت الأخير دعوة إلى كل ظالم أن يتدارك أمره ، ويبادر برفع الظلم عن المظلومين ، وفـي التعبير باليد مجاز مرسل - علاقته الجزئية - ولعل الشاعر اختار ذلـــك الأسلوب لبيان أن اليد هي آلة الكسب غالبا .

وإذا تأملت قوله : (فعين الله لم تنم) وجدته يوحي بالتهديد الشديد ، وكنت أود أن يقول الشاعر : (فعين الله لا تنم) لأن النفي (بلا) يشمل الحال والاستقبال ، أما النفي (بلم) فمقصور على الماضي .

الهجرة الأولى إلى الحبشـــة :

ثم أشار البـارودي إلـى هجـرة بعض المسلمين إلى الحبشـــة بقوله :[1]

ولم يـزل أهـل دين الله في نصب

ما يلاقون من كرب ومن زام[2]

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص: ١٤ وما بعدها .

(٢) زأم : المراد شدة الاضطهاد .

حتى إذا لم يمد فى الأمر منزعــة
وأصبح الشر جهرا غيــر منكتــم(١)
ساروا إلى الهجرة الأولى وما قصدوا
غير النجاشى ملكا صادق الذمــم(٢)
فأصبحوا عنده فى ظل مملكـــــة
حصينــة وذمام غير منجـــــذم(٣)
من أنكر الضيم لم يأنس بصحبتـــه
ومن أحاطت به الأهوال لم يقــم

لقد اشتد أذى المشركين بالمسلمين ، وتحملوا كثيرا من الاضطهـاد فى سبيــل دينهم ، وأخيرا هاجروا إلى الحبشة لأن ملكها ـ النجاشــى كان صاحب همة ومروءة ونجدة ، فعاشوا فى جواره ، فكان خير جوار ،وهكذا كل من ينكر الضيم يرحل عنه ، وكل من أحاطت به الأهوال يجب أن يبتعد عنها ، ولا يركن إليها .

وإذا تأملت قول البارودى : (ولم يزل أهل دين الله ..) وجدته يشير إلى مدى حرص ذلك النفر من المسلمين الأوائل على تمسكهم بدينهم ،فتحملوا فى سبيلــه كل مشقة ، بل تركوا وطنهم من أجله ، كما أن قوله : (حتى إذا لــم يمد فى الأمر منزعة ..) كناية لطيفة تشير إلى أن أذى المشركين بالمسلمين قد بلغ حدا لايطاق ،ويدل على ذلك قوله : (وأصبح الشر جهرا غير منكتم) ومعلوم أن لفظ منكتم لم يرد فى كتب اللغة المعتمدة كما سبقت الإشارة إليه(٤)

ولعل قول البارودى عن النجاشى إنه ملك (صادق الذمم) يشير إلــى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : " لو خرجتم إلى أرض الحبشــة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد .. (٥) " . والبيت الأخير حكمة صادقة ، وتوجيهـه سديد ، يتمسك به كل من لا يرضى بالذل ، ولا يقيم على الضيم .

---

(١) لم يمد فى الأمر منزعة المراد لم يعد هناك تحمل للأذى أكثر من ذلك .
(٢) النجاشى : ملك الحبشة فى ذلك الوقت . (٣) منجذم : منقطع .
(٤) انظر ص٨٨ من هذه الرسالة . (٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص٣٤٣

مقاطعة قريش :

ثم تحدث البارودى عن مقاطعة قريش المسلمين بقوله[1] :

وهذ رأى المشركون الدين قد وضحت
سماؤه وانجلت عن صمة الصمم[2]

تألبوا رغبة فى الشر واشتمروا
على الصحيفة من غيظ ومن وغم[3]

صحيفة وسمت بالغدر أوجههم
والغدر يعلق بالأعراض كالدسم

فكشف الله عنها غمة نزلت
بالمؤمنين ، وربى كاشف الغمم

من أضمر السوء جازاه الإله به
ومن رعى البغى لم يسلم من النقم

ولما رأى المشركون أن الدين الإسلامى يزداد انتشارا يوما بعد يوم، ويكثر الداخلون فيه ، زادهم ذلك هما وغما ، ففكروا فى كيد الرسول وأصحابه وذلك بكتابة صحيفة اتفقوا فيها على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب فلا يتعاملون معهم ، ولا يتزوجون منهم ، واستمروا على ذلك ثلاث سنوات ،وعندما هم بعضهم بنقضها أخبر الرسول أبا طالب بأن الأرضة أكلتها إلا باسمك اللهم وكانت هذه الصحيفة معلقة فى جوف الكعبة ، ولم يرها الرسول (صلى الله عليه وسلم) — فذهب بعض المشركين للتأكد من كلام الرسول ، فإذا الأمر كما قال فزاد تعلق المسلمين بنبيهم ، وتزعزع بعض المشركين فى اعتقادهم ، وهكذا كانت الصحيفة فاتحة خير .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٥ .

(٢) الصمة : بكسر الصاد مشددة — الأسد — والمراد هنا الشجاع . الصمم : جمع الصمة .

(٣) الوغم : بفتحتين — الحقد .

والأبيات سهلة المضمون، واضحة الفكرة . أضف إلى ذلك أن البيت الأخير حكمة صادقة تدل على أن الدائرة تدور على الظالم مهما كان شأنه .

وأراد البارودى أن يبين بعض آيات تدل على فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال[1] :

كهى الطفيل بن عمرو لمحة ظهرت
فى سوطه فأنارت سدفة القتم[2]
هدى بها الله دوسا من ضلالتها
فتابعت أمر داعيها ولم تهم[3]

لقد أسلم الطفيل بن عمرو وطلب من الرسول (صلى الله عليه وسلم) آية تكون له عونا على قومه - عندما يدعوهم إلى الإسلام - فدعا له الرسول ، فظهر نور بين عينيه ، فقال : يارب اجعله فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظن قومى أنها مثلة لفراقى دينهم ، فتحول فى رأس سوطه ، وأنار ظلمة الليل عندما ذهب إلى قومه ليلا ، وأسلم منهم كثير ، بسبب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودعوته .

وأتبع الشاعر تلك القصة قصة أخرى بقوله :[4]

وفى الأراشى للأقوام معتبر
إذ جاء مكة فى ذود من النعم[5]
فباعها من أبى جهل فماطله
بحقه وتمادى غير محتشم
فجاء منتصرا يشكو ظلامته
إلى النبى ، ونعم العون فى الإزم[6]

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٦ .
(٢) الطفيل : هو الطفيل بن عمرو بن طريف الأزدى صحابى جليل ، استشهد فى موقعة اليمامة سنة ١٢ هـ (أسد الغابة جـ ٣ ص٨٠) السدفة : بضم فسكون - الظلمة ، القتم : بفتحتين : المراد الليل .
(٣) دوس : قبيلة الطفيل . (٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٦ .
(٥) الأراشى : هو كهلة بن عصام (انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص٤١٦) .
(٦) الإزم :(بكسر الهمزة وفتح الزين): جمع أزمة - فتح فسكون : الشدة .

فقام عنه را يسعى لنصرته
ونصرة الحق شأن المرء ذى الهمم[1]

فدق باب أبى جهل فجاء له
طوعا يجر عنان الخائف الزرم[1]

فحين لاقى رسول الله لاح له
فحل يحد إليه الناب من أطم

فهاله ما رأى فارتد منزعجا
وعاد بالنقد بعد المطل عن رغم

يشير البارودى — فى تلك الأبيات — إلى قصة الأراشى الذى باع بعض الإبل إلى أبى جهل ، ولكنه ماطله فى ثمنها ، فجاء الأراشى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطلب نصرته ، فأخذه الرسول وذهب إلى أبى جهل ، وطالبه بسداد ما عليه ، فأذعن أبو جهل لأمر رسول الله على الرغم من عدائه له ، ووقوفه فى سبيل الدعوة ، وكان السبب فى إذعانه أنه قد ظهر أمامه فحل يريد افتراسه بأنيابه القوية عندما كان الرسول يكلمه ، فخاف وأذعن [2] ولا شك فى أن هذه القصة عبرة لمن يعتبر بالإضافة إلى بيان عظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن خلقه ، وكمال شجاعته ، وصدق البارودى عندما قال : (ونصرة الحق شأن المرء ذى الهمم) كما أن فيها إشارة إلى نصرة الله لنبيه (عليه الصلاة والسلام) وتأييده ببعض المعجزات ، ومنها ما أشار إليها البارودى بقوله [3] :

أتلك أم حين نادى سرحة فأتت
إليه منشورة الأغصان كالجمم[4]

حنت عليه حنو الأم من شفق
ورفرفت فوق ذاك الحسن من رخم[5]

---

(1) الزرم : بفتح الزين مشددة وكسر الراء — المراد الذليل الضيق عليه .
(2) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤١٦ . (3) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٠٧ .
(4) السرحة : الشجرة . الجمم : بضم ففتح — جمع (جمة) بضم الجيم وتشديد الميم — مجتمع شعر ناصية الإنسان ، وقيل : هى التى تبلغ المنكبين .
(5) رخم : بفتحتين — المراد محبة وشفقة .

جاءته طوعا ، وعادت حين قال لها :

عودى ، ولو خليت للشوق لم ترم

يبدو أن البارودى يريد أن يعقد مقارنة بين قصة الأراعى - وما صحبها من تأييد الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) - وبين قصة تلك الشجرة التى دعاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأتت مسرعة ممتثلة أمره ، وعادت عندما أمرها (صلى الله عليه وسلم) بالرجوع.

والجدير بالذكر أن البوصيرى أشار إلى مثل ذلك فى قوله[1] :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة

تمشى إليه على ساق بلا قدم

إلا أن البارودى زاد بيان حنوها على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما تحنو الأم شفقة على ولدها ، ورفرفت فوقه رقة وشفقة ومحبة ، كما زاد أيضا امتثالها أمر الرسول إياها بالرجوع ، ولو تركت هى وشأنها ما عادت لشدة شوقها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهذه من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) التى ثبتت بكثير من الأحاديث الصحيحة [2] .

الإسراء والمعراج :

ويواصل البارودى الحديث عن بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[3] :

وحبذا ليلة الإسراء حين سرى

ليلا إلى المسجد الأقصى بلا أتم[4]

رأى به من كرام الرسل طائفة

فأمهم ثم صلى خاشعا بهم

---

(١) انظر ص ١٤٢ من هذه الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٤ .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٧ .
(٤) أتم : بفتحتين - المراد الإبطاء .

بـــل هـــذا نهضة المعراج حين سما
به إلى مشهـــد فى العز لم يـــرم
سما إلى الفلك الأعلى فنال بـــــه
قدرا يجل عن التشبيه فى العظم
وسار فى سبحات النور مرتقيــــــا
إلى مدارج أعيت كل معتـــــــزم(١)
وفاز بالجوهر المكنون من كلـــــم
ليســـت إذا قرنت بالوصف كالكلـــم

يشـير الشاعر فى تلك الأبيات إلى معجزة الإسراء والمعراج ، ولقـد بدأ إشارته بالثناء على تلك الليلة التى وقعت فيها هذه المعجزة ، ثم ذكـر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد رأى بعض الرسل الكرام فى المسجد الأقصى وصلى بهم إماما ، وبعد ذلك صعد إلى السموات ، وفى ذلك شرف عظيم ، إذ وصل إلى مكان لم يبلغه نبى مرسل، ولا ملك مقربه وكلم ربه بكلام يجل عـــن الوصف .

ولا يخفى ما فى الأبيات من سرد ، كما أنها خلت من عمق الفكرة ، ولعلـه يلمح بقوله : (بلا أتم) إلى أن هذه المعجزة تمت بسرعة ، كما أن قولــه : (ثم صلى خاشعا بهم) بعد قوله : (فأمهم) يعد حشوا، ويبدو أنه أتى بـــه للوزن .

ثم ذكر البارودى أن معجزة الإسراء والمعراج (٢) :
ســـر تحار به الألباب قاصــــرة
ونعمة لم تكن فى الدهر كالنعـــم
هيهات يبلغ فهم كنه ما بلغـــت
قرباه منه وقد ناجاه من أمـــــم
فيالها وصلة نال الحبيب بهـــــا
ما لم ينله من التكريم ذو نســــم

(١) مدارج : جمع مدرجة ـ بفتح فسكون ـ الممر ، والمراد المكان العالى القدر .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ١٨ .

فاقت جميع الليالى فهى زاهــــرة
بحسنهـا كظهــور النار فى العلـم[1]

إذا كان الإسراء ، أمرا خارقا للعادة ، فالمعراج أكثر منه ، ولذلك يقول عنه البارودى: إنه سر تقف أمام عظمته العقول قاصرة عن فهم حقيقته ، وهو ـ أيضا ـ نعمة منّ الله بها على نبيه (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ ناجى ربه، وحظى بتكريم لم يحظ به غيره، ولذلك فإن هذه الليلة التى وقعت فيها تلك المعجزة فاقت ما عداها من الليالى ، وأصبحت مضيئة بجلالهـا ، كضياء النار على العلم .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (سر تحارر به الألباب..) ما يؤكد مكانة تلك المعجزة،وعظم قدرها ، كما أن قوله : (هيهات يبلغ فهم..) يشــير إلى عجز العقول ـ مهما سمت وارتقت ـ عن فهم تلك الأسرار الإلهيـــــة، والنفحات الربانية،فاستحقت بذلك تفخيم أمرها،ولذلك قال الشاعر: (فيالهـا وصلة نال الحبيب بها..) .

إن تشبية الشاعر ظهور تلك الليلة بين ما عداها من الليالى بظهور ضياء النار على الجبل ضعيف لا يناسب المقام ، ولا يوحى بالمراد ، ولو اكتفى بقوله: (فاقت جميع الليالى ..) لكان أفضل.

فرض الصـــلاة :

ثم انتقل البـارودى إلى الحديث عن فرض الصلاة بقوله : [2]

هذا وقد فرض الله الصلاة علــى
عباده وهداهم واضح اللقـــم

فسارعوا نحو دين الله وانتصبــــوا
إلى العبادة لا يألون من سـأم[3]

---

(1) زاهرة : مضيئة . فى : بمعنى (على) .
(2) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص١٨ .
(3) لا يألون من سأم : المراد لا يتركونها .

ولقد ظل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى الإسلام دون كلل أو ملل، فكان يستقبل الناس فى البادية وفى الحضر ، ويعرض دعوته عليهم فى السهول وفى الجبال ، وكان من أثر ذلك أن استجاب الأنصار لدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فدخلوا فى دين الله ، وتمسكوا بعهدهم مع رسول الله خير تمسك ، وبإسلام الأنصار استكملت الدنيا نضارتها ، إذ كانوا أغنياء، كما قوى بهم الدين، إذ كانوا أقوياء ، فأذاقوا بأسهم كل جبار عنيد ، ولذلك أشرقت بهم الظلمات ، وخمدت من قوتهم أنفاس الأعداء .

إن البارودى يشير إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى تبليغ الدعوة بأكثر من معنى، فهو : (لم يفتر ولم يجم) بل كان (يستقبل الناس فى بدو وفى حضر)، وكان (ينشر الدين فى سهل وفى علم) .

وإذا تأملت حديثه عن الأنصار وجدتهم قد دخلوا فى دين الله عن طيب نفس، واطمئنان قلب: (واعتصموا بحبله عن تراض ..)، كما أنه أشاد بما لديهم من مال ، وما عندهم من قوة وفتوة : (فاستكملت بهم الدنيا ..) ثم أكد ذلك فى قوله : (قوم أقروا عماد الحق ..) وزاد ذلك تأكيدا فى البيت الأخير : (فكم بهم أشرقت أستار داجية) .

موقف قريش من بيعة الأنصار : [1]

ولقد أشار البارودى إلى موقف قريش من بيعة الأنصار بقوله : [2]

فحين رأى قريشا ذكر بيعتهم
ثاروا إلى الشر فعل الجاهل العرم

وبادهوا أهل دين الله واهتضموا
حقوقهم بالتمادى شر مهتضم [3]

فكم ترى من أسير لا حراك به
وشارد سار من فج إلى أكم [4]

(١) المراد ببيعة الأنصار بيعة العقبة الثانية - والعقبة مكان قريب من منى فى طريق المنحدر من عرفات إلى مكة - وفيها تعاهد الأنصار على نصرة رسول الله (سيرة ابن هشام ج٢ ص٤٩) .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ١٩٠ (٣) بادهوا : المراد فاجأوا .
(٤) الفج : الطريق الواسع بين جبلين .

وعندما علمت قريش نبأ بيعة الأنصار رسول الله على أن يمنعـــوه بما يمنعون منه نساءهم وأولادهم .. فقدوا صوابهم ، ولجأوا إلـــى الشر ، ففاجأوا المسلمين ، وسلبوهم حقوقهم ، واستولوا على أموالهم، بـــل تحكموا فيهم، فأصبح بعضهم أسيرا ، وبعضهم هاربا يلتمس النجاة - مـــن بطشهم - في الجبال .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (فحين وافى قريشا ذكر بيعتهم ..) إلى بيعة العقبة الثانية ، وهي التي علمت قريش أخبارها فثارت ثائرتها .

الرسول يأمر أصحابه بالهجرة الى المدينة :

ثم ذكر البارودي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة في قوله [1] :

فهاجر الصحب إذ قال الرسول لهم :
سيـروا إلى طيبـة المرعية الحـرم
وظـل في مكة المختار منتظـــرا
إذنا من الله في سـير ومعـــتزم
فأوجست خيفـة منه قريش ولـــم
تقبل نصيحا ، ولم ترجع إلى فهـم [2]
فاستجمعت عصبا في دار ندوتهـــا
تبغي به الشر من حقد ومن أضـم [3]
ولود رت أنها فيما تحاولـــــه
مخذولة، لم تسم في مرتـع وخـم
أولى لها ثم أولى أن يحيق بهـــا
ما أضمرته من البأساء والشجـــم [4]

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص١٩ .
(٢) فأوجست خيفة : وقع في نفسها الخوف والفزع .
(٣) دار ندوتها : المراد دار الندوة التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها (سيرة ابن هشام جـ ٢ ص٩٣) أضم : بفتحتين - المراد : حسد .
(٤) الشجم : بفتح الشين مشددة وفتح الجيم - الهلاك - وقيل: المكروه .

لقد أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بالهجرة إلى المدينة، لأنها مكان أمن وسلام ، واستمر فى مكة منتظرا أمر الله بالهجرة ، ولكن قريشا فزعت وخافت من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبخاصة عندما أمر صحابته بالهجرة إلى المدينة وبقى هو بمكة ، ولم تفكر تفكير العقلاء ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتآمرون على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولو كانوا يعلمون أنهم سيخذلون فى إلحاق الأذى بالرسول، ما سلكوا هذا المسلك المشين، الذى هو أولى أن يحيق بهم .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (فأوجست خيفة ..) ما يوحى بشدة خوف قريش وفزعها ، ويبدو أن الشاعر تأثر فى ذلك بقوله تعالى : "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى"[1] ، كما أن فى قوله : (.. ولم تقبل نصيحا ...) ما يشير إلى عناد قريش واستكبارها ، أضف إلى ذلك أن فى قوله : (..لم تسم فى مرتع وخم) استعارة مكنية توحى بتشبيه هؤلاء المشركين بالأنعام التى ترعى فى مرتعها ، إلا أن الشاعر قيد ذلك المرتع بأنه (مرتع وخم) بسبب ظلمهم وعنادهم ، ولذلك حاق بهم الذل والخزى .

مؤامرة :

ثم أشار البارودى إلى مؤامرة المشركين على الرسول بقوله :[2]

إنى لأعجب من قوم أولى فطن
باعوا النهى بالعمى والسمع بالصمم[3]

يعصون خالقهم جهلا بقدرته
ويعكفون على الطاغوت والصنم[4]

فأجمعوا أمرهم أن يبغتوه إذا
جن الظلام وخفت وطأة القدم[5]

---

(١) طه : ٦٧ . (٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٠ .

(٣) الفطن : بكسر الفاء وفتح الطاء - جمع فطنة - بكسر فسكون - وهى الحذق ، النهى : بضم النون مشددة وفتح الهاء - العقل .

(٤) الطاغوت : المراد الشيطان أو كل ما يصرف عن عبادة الله .

(٥) جنّ الظلام : المراد دخل .

وأقبلوا موهنا فى عصبة غـــدر

من القبائل باعوا النفس بالزعم[1]

يعجب الشاعر من تصرف هؤلاء القوم الذين ألغوا عقولهم ، فتركـوا ما ينفعهم ، واتجهوا إلى ما نفع لهم فيه ، فلقد عصوا خالقهم ، ولم يقدروه حق قدره ، بل عبدوا أصناما صنعوها بأيديهم ، واتبعوا شياطينهم ، وأجمعوا أمرهم على مفاجأة الرسول (صلى الله عليه وسلم) — إذا دخل الليل — وضربه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (إنى لأعجب ..) استهزاء وسخرية ، من هؤلاء الكفار الذين لم يفكروا كما ينبغى ، فألغوا عقولهم ، وصموا آذانهم ، ويؤكد الشاعر ذلك بقوله : (يعصون خالقهم جهلا بقدرته) كما أن فيـــه تهكما لهؤلاء الكفار الذين يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم ، كما سجـــل القرآن ذلك فى قوله تعالى : " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّـــى يُؤْفَكُونَ "[2] ومع كل هذا يجهلون قدره ، ويعصون أمره ، بل يعبـــدون غيره !!

وإذا تأملت قول الشاعر : (باعوا النهى بالعمى والسمع بالصمـــم) ، وجدته قد اشتمل على استعارة تصريحية تبعية دلت على عدم إحسان هؤلاء الكفار التصرف إذا استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فبئس تصرفهم .

<u>كشف المـــؤامرة :</u>

ولقد ذكر البارودى أن الله (سبحانه وتعالى) قد أظهر لنبيه ما بيته الكفار بقوله :[3]

فجاء جبريـل للهادى فأنبـــأه

بما أسرّوه بعد العهد والقسم

---

(١) الموهن : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الهاء — نحو من نصف الليـــل ، وقيل : حين يدبر الليل — الزعم : بفتح الزين مشددة وفتح العين : المراد الطمع .

(٢) الزخرف / ٨٧ .

(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٠ .

فمذ رآهم قياما حول مأمنه
يرمون ساحته بالشر والفقم[1]
نادى عليا فأوصاه وقال له :
لا تخش والبس ردائى آمنا ونم
ومرَّ بالقوم يتلو وهو منصرف
(يسٓ)، وهى شفاء النفس من وصم
فلم يروه وزاغت عنه أعينهم
وهل ترى الشمس جهرا أعين الحنم[2]

جاء جبريل (عليه السلام) بخبر النبى (صلى الله عليه وسلم) بما تعاهد عليه المشركون ، وأمره بأن لا ينام فى فراشه فى تلك الليلة ، ولذلك أمر النبى (صلى الله عليه وسلم) على بن أبى طالب بأن ينام فى فراشه، ويتدثر بردائه، ثم خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمشركون حول داره ، ولكن الله أعمى أبصارهم فلم يروه.

ولقد صدر الشاعر الفعل (جاء) بالفاء دلالة على سرعة مجىء جبريل (عليه السلام) فهى تفيد الترتيب والتعقيب ، وفى ذلك بيان سرعة نصرة الله نبيه ، وحفظه من كيد هؤلاء المشركين.

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (ومر بالقوم يتلو وهو منصرف يسٓ) إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة[3] أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما خرج من بيته قرأ قوله تعالى : (يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ..) إلى قوله تعالى : (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)[4]، وقد أخذ حفنة من التراب ونثرها عليهم.

وأكد الشاعر عدم رؤية الكفار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فشبههم بالبوم وشبه نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالشمس ، ولقد قيل : إن البوم لا يبصر نهارا ، بل لا يظهر نهارا[5]، وفى ذلك دلالة على ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه.

(1) الفقم : بفتحتين ـ المراد الأمر العظيم الذى ينذر بالشر.
(2) الحنم : بفتحتين (جمع حنمة) وهى البومة (3) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص٩٦
(4) يس / ٨ـ٩ . (5) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص: ٢٦٦ طبعة دار التحرير للطبع والنشر بمصر سنة ١٩٦٥.

الأمر بالهجرة :

ثم بين البارودى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أمر بالهجرة إلى المدينة فى قوله[1] :

وجاءه الوحى إيذانا بهجرته
فيمم الغار بالصديق فى الغسم[2]

فما استقر به حتى تبوأه
من الحمائم زوج بارع الرنم[3]

بنى به عشه واحتله سكنا
يأوى إليه غداة الريح والرهم[4]

إلفان ما جمّع المقدار بينهما
إلا لسر بصدر الغار مكتتم

كلاهما ديدبان فوق مربأة
يرعى المسالك من بُعْد ولم ينم[5]

أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة،فذهب إلى أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) واتجها معا إلى غار ثور فى الظلمة . ولما استقرا فى الغار أتت حمامتان،وعششتا على وجه الغار . وكأنهما إلفان جمع بينهما القدر . وكانا كحارسين يرعيان الطرق من بُعد . ولم يطرق النوم أعينهما .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وجاءه الوحى إيذانا بهجرته ..) وجدته يدل على أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة . كما يدل على سرعة امتثاله أمر الله ويؤكد ذلك الفاء فى قوله : (فيمم الغار ..) .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢٠ ومابعدها .
(٢) الغسم : بفتحتين ــ المراد الظلمة .
(٣) الرنم : بفتح الراء مشددة وفتح النون ــ الصوت .
(٤) الرهم : بكسر الراء مشددة وفتح الهاء ــ قطرات المطر الخفيفة .
(٥) ديدبان : حارس ــ المربأة : المكان المرتفع .

وفى البيت الثانى وما يليه يصف الشاعر الحمامتين اللتين عششتـا على وجه الغار بأنهما: (إلفان ..) جمع الله بينهما لمهمة سرية (بصـدر الغار ..) و (كلاهما ديدبان) يقف كل منهما على مكان مرتفع، يراقبان الطرق فى يقظة تامة .

ولم يقف أمرهما عند ذلك الوصف، بل كانا كما قال البارودى[1] :

إن حنّ هذا غراما أو دعا طربـا
باسم الهديل أجابت تلك بالنغم[2]
يخالها من يراها وهى جاثمـة
فى وكرها كرة ملساء مـن أدم[3]
إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت
روت غليل الصدى من حائر شبم[4]
مرقومة الجيد من مسك وغاليـة
مخضوبة الساق والكفين بالعنـم[5]
كأنما شرعت فى قانئ سـرب
من أدمعى فغدت محمرة القدم[6]

يبدو أن البارودى أراد أن يوضح أن إحدى الحمامتين كانت ذكـرا والأخرى أنثى ، ولذلك قال : إن الذكر إذا غنى غراما أو طربا بصوته المعروف بالهديل ، ردت عليه أنثاه بنغم جميل ، ومن ينظر إليها ـ وهى نائمة على صدرها فى وكرها ـ خيـل إليه أنها كرة ملساء من الجلد ، وإن رفرفت كانت تتجـه نحو الظل ، أما إن هبطت فكانت تروى ظمأها من هذا الماء العذب ، أضـف إلى ذلك أنها كانت مطوقة العنق بالمسـك والطيب ، مخضوبة الساق والكفين باللون الأحمر ، كأنها دخلت فى دمعى الشديد الحمرة والسائل بغزارة ، ولذلـك كانت محمرة القدم . ولا يخفى أن الشاعر قد أجاد فى وصف الحمامتين ، كما أشار

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢١ .
(٢) الهديل : صوت الحمام ، ويطلق على الذكر منه ، وقيل: فرخ كان على عهد (نوح) (عليه السلام) صاده جارح فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه .
(٣) جاثمة : واقعة على صدرها . (٤) الحائر : مجتمع الماء .
(٥) مرقومة : مطوقة أو معلمة ـ الغالية ـ أخلاط من الطيب . (٦) شَرعت : دخلت ـ قانئ : شديد الحمرة ـ السرب: الجارى .

إلى دمعه الغزير الذى مزج بدمه ، ولعله تذكر أيامه السالفة ، وما آل إليه حاله من نفى وتشريد .

العنكبوت :

وإذا كان البارودى قد أشار إلى الحمامتين اللتين وقفتا على باب الغار ، فإنه قد أشار إلى شىء آخر، كان على وجه الغار أيضا، بقوله[1]:

وسجف العنكبوت الغار محتفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم[2]

قد شد أطنابها فاستحكمت ورست
بالأرض لكنها قامت بلادعم[3]

كأنها سابرى حاكه لبق
بأرض سابور فى بحبوحة العجم[4]

وارت فم الغار عن عين تلم به
فصار يحكى خفاء وجه ملتثم

فياله من ستار دونه قمر
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم[5]

يشير البارودى إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة .. أن العنكبوت قد ستر وجه الغار - بعد ما دخله الرسول - بنسيجه المحكم ، فستر مَنْ بداخله عن العيون ، إلا أن البارودى أشار إلى أن العنكبوت حينما فعل ذلك كان (محتفيا) بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم وصف نسيجه بأنه كان نسيجا محكما أشبه الخيمة التى شدت حبالها، وأحكم بناؤها على الرغم من أنها لم تقم على عمد ، بل إن هذا النسيج كان كأنه ثوب حاكه لبق بأرض سابور، تلك البلدة التى شهرت بصنع الثياب الجيدة .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢١ وما بعدها .

(٢) سجف - بفتح السين وفتح الجيم مشددة - المراد ستر . محتفيا : متلطفا ومبالغا فى الإكرام مع فرح وسرور . (٣) الإطناب: جمع طنب بضمتين - حبل الخباء . دعم : - بكسر ففتح - المراد عمد - بضمتين .

(٤) سابرى : ثوب رقيق جيد النسج منسوب إلى (سابور) - موضع ببلاد العجم وصواب النسب إلى ذلك الموضع (سابورى) - بحبوحة : - بضم فسكون - وسط الدار .

(٥) ظلم (الأولى) - بضم فسكون - وظلم (الثانية بضم ففتح) - ومعناهما واضح .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (وسجف المنكبوت الغار محتفيا ..) تهكما وسخرية من هؤلاء الكفار الذين كانوا يطاردون الرسول ويريدون به شراً — وهم أصحاب المقول — . والمنكبوت يحتفى بالرسول ويحافظ عليه!! ويلاحظ أن الشاعر يشبه بيت المنكبوت بالخيمة فى الاستحكام لا فى القوة؛ لأن الله تعالى أخبر أن بيت المنكبوت ضعيف فى قوله : " وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ .. الآية[1] ".

وإذا تأملت قول الشاعر : (نياله من ستار دونه قمر ..) وجدته يشبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالقمر .. . وذلك (يجلو البصائر) أى ينظف القلوب من الظلم ومن الظلام . ولعل فى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : (وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..)[2] والمراد من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ولقد اشتملت الأبيات على بعض المحسنات البديعية مثل : المناسبة بين لفظى : (غم وملتثم)، والجناس المحرفين لفظى : (ظلم وظلم) .

ثم أشار البارودى إلى أن الرسول مكث فى الغار ثلاثة أيام بقوله[3] :

فظل فيه رسول الله معتكفـــا
كالـــدر فى البحر أو كالشمس فى الغسم[4]

حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت
أكباد قوم بنار اليأس والرغـــم[5]

أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى
من عنده السر من خل ومن حشـــم[6]

وسار بعد ثلاث من مبـاءتـــه
يؤم طيبـــة مأوى كـل معتصـــم[7]

---

(١) المنكبوت / ٤١. (٢) المائدة : ١٦ (٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٢ .
(٤) الغسم : بضم ففتح — المراد قطع السحاب. (٥) الإرجاف : المراد الأخبار أو البحث
(٦) المراد بالخل : أبو بكر الصديق — والحشم عامر بن فهيرة — مولى أبى بكر — توفى سنة ٤ هـ (أسد الغابة جـ ٣ ص ١٣٧) — ولعل من الحشم أيضا هنا عبد الله بن أرقط — أو أريقط — دليل الرسول فى الطريق إلى المدينة وكان على دين قريش .
(٧) المباءة : المنزل والمراد الغار .

لقد مكث الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى غار ثور ثلاثة أيام، وعندما يئس المشركون من معرفة مكانه، ورجعوا خائبين، أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بإعداد الراحلة قاصدا المدينة .

ويلاحظ أن الشاعر قد شبه الرسول بالدر وهو فى البحر، وبالشمس التى حجبتها بعض السحب فى قوله : (كالدر فى البحر أو كالشمس فى الغسم) ولا يخفى أن ذلك التشبيه قديم ، كما أن الرسول أفضل من ذلك .

وأحسن الشاعر عندما أشار إلى حالة الكفار بقوله : (واحترقت أكباد قوم بنار اليأس والوغم)، ولعل فى تنكير (قوم) ما يوحى بالتحقير والسخرية .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر عن طيبة أنها: (مأوى كل معتصم) ما يشير إلى مكانتها ، وعظم شأنها .

<u>قصة أم معبد :</u>[1]

ولقد أشار البارودى إلى بعض المشاهد التى حدثت عندما كان الرسول فى طريقه إلى المدينة بقوله[2] :

فحين وافى (قديدا) حل موكبه
بأم معبد ذات الشاء والغنم[3]

فلم تجد لقراه غير ضائنة
قد اقشعرت مراعيها فلم تسم[4]

فما أمرّ عليها - داعيا - يده
حتى استهلت بذى شخبين كالديم[5]

---

(١) أم معبد هى : عاتكة بنت خالد : الخزاعية - قيل إنها أسلمت وحسن إسلامها وعمرت، ولكن لم تعرف سنة وفاتها (أسد الغابة جـ ٧ ص١٨٢) .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢٢ وما بعدها .
(٣) (قديد) موضع بين مكة والمدينة . (٤) ضائنة : الأنثى من الغنم . اقشعرت: أمحلت . (٥) شخبين - بفتح فسكون ، وضم فسكون أيضا - مثنى شخب وهو اللبن الخارج من الضرع عند الحلب.

ثم استقل وأبقى فى الزمان لهـا
ذكرا يسير على الآفاق كالنسم

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو : فى طريقه إلى المدينة نزل مكانا يسمى (قديدا) فقصد هو ومن معه خيمة لا مرأة تدعى (أم معبد) ، وسألوها تمرا أو لحما يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا سوى شاة ، فقال لها الرسول : (صلى الله عليه وسلم) هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم فدعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه قائلا : اللهم بارك لها فى شاتها ، ثم مسح على ضرعها — فدرت لبنا كثيرا ، فشربوا جميعا حتى رووا ، وارتحلوا عنها ، تاركين لها كثيرا من اللبن أيضا .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (قد اقشعرت مراعيها ..) ما يوحى بشدة هزال تلك الشاة ، كما أن فى قوله : (استهلت بذى شخبين كالديم) ما يشير إلى كثرة ما درته من اللبن ، ولعل الشاعر أراد بقوله : (ثم استقل وأبقى ..) أن هذه القصة قد بقيت تذكر على مدى الأيام ، وسجلتها كثير من كتب السيرة ، وذلك لما اشتملت عليه من إشارة عظيمة إلى فضل الله ونعمته على الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قصة سراقة[1] :

ولم تكن قصة أم معبد هى كل ما حدثت فى أثناء هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بل هناك قصة أخرى ، أشار إليها البارودى بقوله[2] :

فبينما هو يطوى البيد أدركه
ركضا سراقة مثل القشعم الضرم[3]

حتى إذا ما دنا ساخ الجواد به
فى برقة فهوى للساق والقدم[4]

---

(١) هو سراقة بن مالك بن جشعم صحابى جليل — أسلم وحسن إسلامه — توفى سنة ٢٤ هـ وقيل : غير ذلك (انظر : أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٣٢ وما بعدها) .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٣ .

(٣) القشعم الضرم : النسر الجائع . (٤) ساخ الجواد : ذهبت قوائم الفرس فى الأرض . برقة : بضم فسكون : أرض غليظة فيها حجارة مختلطة بالرمل والطين .

فصاح مبتهلا يرجو الأمان ، ولو
مضى على عزمه لانهار فى رجم

وكيف يبلغ أمرا دونه وزر
من العناية لم يبلغه ذو نسم

فكف عنه رسول الله وهو به
أدرى ، وكم نقم تفترعن نعم

يشير البارودى إلى قصة سراقة بن مالك الذى علم أن قريشا جعلت مائة بعير لمن يقتل محمدا (صلى الله عليه وسلم) أو يأسره .. فرجا سراقة أن يفوز بهذه الجائزة ، فركب فرسه ، وأخذ يتعقب أخبار النبى وصحبه فكبت به فرسه مرارا ، ولكنه ظل يواصل المسير حتى ظهر أمامه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فساخت أقدام فرسه فى الأرض ، ولم يمكنه تخليصها إلا بعد أن طلب الأمان من الرسول على أن يرجع ويكتم خبره عن الناس ، بل يعمل على صرف نظر من تسول له نفسه البحث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأعطاه الرسول عهدا وأمانا ، ورجع سراقة إلى مكة .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فبينما هو يطوى البيد ..) وجدته يشير إلى ما كان يكابده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى أثناء هجرته من مشاق السفر ومتاعب الطريق ، كما أن البارودى صور حالة سراقة بقوله : (أدركه ركضا سراقة ..) ، ولعل مما يؤكد سرعته تقديم الحال (ركضا) أضف إلى ذلك التشبيه (القشعم الضرم) الذى يوحى بفظاعة تلك الحالة التى كان عليها سراقة .

ولكنك إذا قرأت قول الشاعر : (حتى إذا ما دنا ساخ الجواد به ..) أدركت سرعة نصرة الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) وحفظه من كل سوء ، بل العجب أن ينقلب حال سراقة : (فصاح مبتهلا يرجو الأمان ..) .

ولا يخفى أن فى قوله : (وكيف يبلغ أمرا دونه وزر ..) ما يؤكد رعاية الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وعنايته به ، وبخاصة أن الاستفهام يدل على التعجب والاستبعاد .

كما أشار البارودى إلى كرم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعظيم خلقه

بقوله : (نكف عنه رسول الله ..)، ولعل الشاعر يلمح بقوله :(.. وهو بسه أدرى) إلى أن الله قد أعلم رسوله أن سراقة سيسلم، فيما بعد .

وإذا تأملت هذه الحكمة الصادقة : (وكم نقم تفترعن نعم) وجدت الشاعر يشير بذلك إلى أن سراقة خرج من مكة ليبحث عن الرسول ، وليدل عليه الكفار، فإذا به يعود مدافعا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكتمان أمره، وصرف الأنظار عن البحث عنه ، فسبحان من حفظ رسوله حتى وصل سالما إلى المدينة واستقبله أهلها استقبالا رائعا ، أشار إليه البارودى بقوله[1]:

ولم يزل سائراً حتى أناف على
أعلام طيبة ذات المنظر العمم[2]

أعظم بمقدمه فخرا ومنقبـــــة
لمعشر الأوس والأحياء من جشم[3]

فخر يدوم لهم فضل بذكرتــــه
ما سارت العيس بالزوار للحـــرم

يوم به أرخ الإسلام غرتــــــه
وأدرك الدين فيه ذروة النجـــم[4]

لقد واصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيره حتى أشرف على المدينة التى خرج أهلها يستقبلونه بنفوس مشتاقة لرؤيته ، وقلوب فرحة بمقدمه، الذى سيفخرون به على مدى الأيام .

وإذا تأملت قول البارودى : (أعلام طيبة ذات المنظر العمم) وجدته يشير إلى أن المدينة قد ازينت لاستقبال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما لها لا تزين ، وقد اكتسب أهلها (فخرا ومنقبة) بقدوم الرسول إليهم ، وفى هذا القدوم فخر يدوم لهم فضل بذكرته) ، ولا يخفى أن فى تنكير لفظ (فخر) ما يوحى

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٢ وما بعدها .
(٢) أناف : أشرف .
(٣) جشم : المراد الخزرج .
(٤) النجم : جمع نجم .

بعظمه ، كما أن الفعل (يدوم) فعل مضارع يدل على التجدد والاستمرار ، أكده الشاعر بقوله : (ماسارت العيس ..) إلا أنه انتزع تلك العبارة من وحى البيئة البدوية ، وفى ذلك دلالة على أن البارودى قد نهج نهج الشعراء السابقين ، وسلك طريقهم ، ولا يخفى أن لفظ (الزوار) غير شعرى وإن كان عربيا .

وفى البيت الأخير : (يوم به أرخ الإسلام غرته ..) إشارة إلى أن يوم الهجرة يعد ميلادا جديدا للإسلام ، ونصرا للمسلمين ، ولذلك أرخ به المسلمون على يد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، إذ هو الذى أشار بذلك [1]

وقد حسنت إشارته ، لأن هذا اليوم قد ارتفعت فيه راية الإسلام ، كما أشار إلى ذلك البارودى بقوله : (وأدرك الدين فيه ذروة النجم) .

<u>بناء المسجد النبوى :</u>

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن بناء المسجد النبوى بقوله [2] :

ثم ابتنى سيد الكونين مسجده
بنيان عز فأضحى قائم الدعم
واختص فيه (بلالا) بالأذان وما
يلفى نظير له فى نبرة النغم [3]

لقد بنى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسجده فى المدينة فى أول عهده بها ، كما اختار (بلالا) - لحسن صوته وشدته - ليؤذن فى ذلك المسجد .

والجدير بالذكر أن بلالا شهر بأنه مؤذن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويبدو أن هذه الشهرة هى التى جعلت الشاعر يقول : (واختص فيه بلالا ..) ولا ينفى ذلك وجود مؤذن غيره للرسول (صلى الله عليه وسلم) [4] .

(١) انظر : الموسوعة الميسرة ص١٢٣٦ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢٤ .
(٣) بلالا : هو بلال بن رباح الحبشى - مؤذن الرسول (صلى الله عليه وسلم) توفى سنة ٢٠ هـ . وقيل غير ذلك (انظر : أسد الغابة جـ١ ص٢٤٣ ومابعدها .)
(٤) ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ١ ص٣١ المطبعة المصرية (غير مؤرخ) .

ثم ذكر البارودي بعض ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة بقوله [1] :

حتى إذا تم أمر الله واجتمعت
له القبائل من بُعد ومن زمم [2]

قام النبي خطيبا فيهم فأرى
نهج الهدى ، ونهى عن كل مجترم

وعمهم بكتاب حض فيه على
محاسن الفضل والآداب والشيم

فأصبحوا في إخاء غير منصدع
على الزمان وعزّ غير منهدم

عندما استقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة وأتت إليه بعض القبائل - من كل مكان - مسلمة ، خطب الرسول خطبة جامعة بين فيها طريق الهدى ، وحث عليها ، وأظهر طريق الضلال ونهى عنها .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (وعمهم بكتاب حض فيه على ..) إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر بكتابة كتاب بين المهاجرين والأنصار، لموادعة اليهود في المدينة ، وحسن معاملتهم [3].

وإذا تأملت قوله : (فأصبحوا في إخاء غير منصدع) وجدته يشير إلى أن الأوس والخزرج - الأنصار - أصبحوا متحابين بعد أن كانوا متحاربين متنافرين ، وربما أشار الشاعر بذلك إلى المؤاخاة [4] التي قام بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين والأنصار وأكدها بقوله [5] :

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ .
(٢) زمم : بفتحتين - المراد قرب .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١١٩ وما بعدها .
(٤) المؤاخاة : هي جعل لكل أنصاري أخا من المهاجرين لتذهب عنهم وحشة الغربة ولتعويضهم عن مفارقة الأهل والعشيرة ، وليشد بعضهم أزر بعض .
(٥) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٤ وما بعدها .

وحين آخى رسول الله بينهم
آخى عليا ، ونعم العون فى القحم[1]

هو الذى عزم الله الطغاة به
فى كل معترك بالبيض محتدم

فاستحكم الدين واشتدت دعائمه
حتى غدا واضح العرنين ذا شمم[2]

وأصبح الناس إخوانا وعمهم
فضل من الله أحيا هم من العدم

يشير البارودى إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين آخى بين المهاجرين والأنصار بقى على بن أبى طالب فقال له الرسول :(صلى الله عليه وسلم) " أنت أخى فى الدنيا والآخرة "[3]

وبهذه المؤاخاة أصبح المهاجرون والأنصار إخوانا ، تقوى المسلمون ، واشتدت دعائم الدين .

ولا يخفى أن الشاعر فى تلك الأبيات قد أشار إلى فضل على بن أبى طالب الذى أبلى بلاء حسنا فى كثير من المعارك.

وإذا تأملت قوله : (فاستحكم الدين ...) وجدته اشتمل على استعارة مكنية توحى بانتشار الإسلام وقوة المسلمين ، كما أن فى قوله : (حتى غدا واضح العرنين ذا ، شمم) كناية لطيفة توحى بعزة المسلمين وعظيم أثر الإسلام الذى أحيا الناس من العدم ، وجعلهم إخوانا متحابين ، وهذا من فضل الله وكرمه .

---

(١) القُحم : الأمور العظيمة الشاقة.
(٢) العرنين : المراد الأنف .
(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ١٠٦

فرض الجهاد [1] :

ولقد انتقل البارودى إلى الحديث عن فرض الجهاد بقوله [2] :

هذا وقد فرض الله الجهاد على
رسوله ليبث الدين فى الأمم

فكان أول غزو سار فيه إلى
(ودان) ثم أتى من غير مصطدم [3]

ثم استمرت سرايا الدين سابحة
بالخيل جامحة تمشى باللجم [4]

فرض الله الجهاد على رسوله وعلى المسلمين، لنشر الدين ، فكان أول غزوة خرج فيها جيش المسلمين هى غزوة (ودان) إلا أن ذلك الجيش رجع من غير قتال ؛ إذ سبقت عير قريش ، ولكن سرايا المسلمين ظلت منتشرة فى نشاط وقوة .

وإذا تأملت قول البارودى : (هذا وقد فرض ..) وجدته سردا تاريخيا، ولفظا غير شعرى ، وما أشبهه بعبارات المتون ، كما أن قوله : (ليبث الدين ..) يوحى بأن الجهاد فرض لنشر الدين ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الجهاد فرض للدفاع عن المسلمين ، وتمكين من يحب الدخول فيه من دخوله ، ولو قال الشاعر : (ليبث الأمن فى الأمم) مثلا لكان أفضل، وأبعد عن الشبهة السابقة ، التى عرفت فيما بعد بين أعداء الدين (بانتشار الإسلام بحد السيف) كما سيأتى .

---

(١) فرض الجهاد ، قبيل الهجرة ، وقيل : بعد الهجرة . (انظر زاد المعاد ج ٢ ص٥٨ وما بعدها) .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٥ .

(٣) المراد بالغزوة : القطعة من الجيش يكون على رأسها الرسول حارب فيها أم لم يحارب . ودان : (بفتح الواو وفتح الدال مع تشديدها)ـ قرية بين مكة والمدينة بالقرب من الأبواء ، ولذلك سميت (غزوة الأبواء) أيضا (سيرة ابن هشام ج١ص٢٢٣)

(٤) السرايا: جمع سرية وهى القطعة من الجيش يكون على رأسها قائد من قبل رسول الله ولم يخرج هو فيها .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (ثم استمرت سرايا الدين سابحة ..) ما يوحى بقوة جيش المسلمين وكثرة سراياه التى أشار إلى بعضها بقوله[1] :

سريـــة كان يرعاها عبيــدة فـــى
صوبه وحمزة فى أخرى إلى التهم[2]

وغزوة سار فيها المصطفى قدمـــا
إلى (بواط) بجمع ساطع القتـــــم[3]

لقد بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبيدة بن الحرث علـــى رأس سرية، كما بعث حمزة بن عبد المطلب على رأس سرية أخرى، وخرج (صلـى الله عليه وسلم) فى غزوة إلى (بواط) ولكنه لم يجد أحدا .

ولا يخفى أن الشاعر لم يذكر إلى أين اتجهت سرية عبيدة بن الحـرث مع أن ابن هشام ذكر أنها سارت حتى وصلت إلى أسفل (ثنية المرة)[4] ولم يحدث فيها قتال[5] ، كما لم يحدد البارودى وجهة سرية حمزة مع أن ابن هشام - أيضا - ذكر أنها وصلت إلى (سيف البحر)[6] ثم حدث صلح بـــين المسلمين والمشركين فى تلك السرية[7] .

وواصل البارودى الإشارة إلى جهاد المسلمين بقوله[8] :

ومثلها بعـــث (ذات العشيرة) فـــى
جيش لهام كموج البحر ملتطـم[9]

وسار سعد إلى (الخرار) يقدمــــه
سعد ولم يلتفى مسعاه من بشـــم[10]

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٥ وما بعدها .
(٢) عبيدة هو عبيدة بن الحرث بن المطلب، توفى سنة ٢ هـ (أسد الغابة ج٣ ع ٥٥) صوب: جهة . حمزة : هو حمزة بن عبد المطلب، التهم : المراد الشام .
(٣) بواط (بضم ففتح - وقيل : بفتحتين أيضا - جبل من جبال جُهَيْنة بالقرب من المدينة .
(٤) ثنية - بفتح الثاء وكسر النون وفتح الياء مشددة - المرة - بفتحتين : ماء بالحجاز بالقرب من بادية مكة . (٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ . (٦) سيف/ بكسر السين ساحل البحر . (٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ وما بعدها . (٨) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٦ . (٩) ذات العشيرة - بضم العين وفتح الشين وسكون الياء - موضع بالقرب من ينبع . (١٠) سعد : هو سعد بن أبى وقاص صحابى جليل توفى سنة ٥٥ هـ

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج على رأس غزوة اتجهت نحو ذات العشيرة في جيش كبير ، كما بعث سعد بن أبي وقاص على رأس سرية وصلت إلى (الخرار) ولكنه عاد بغير قتال .

وإذا كان الشاعر قد ذكر أن جيش المسلمين في غزوة ذات العشيرة كان كبيرا :(جيش لهام ..) فإن البوصيري قد سبقه في قوله : (.. كموج البحر ملتطم)[1] ، كما أنه لم يذكر أن ذلك الجيش قد رجع بغير قتال[2] .

ومهما يكن من شيء فإن البارودي ما زال يسرد بعض الغزوات والسرايا بقوله[3] :

وبعث (سفوان) الخيل سابحة
بكل معتزم للقون ملتزم[4]

وتابع السير (عبد الله) متجها
تلقاء (نخلة) مصحوبا بكل كمي[5]

وحولت قبلة الإسلام وقتئذ
من وجهة القدس نحو البيت ذي العظم .

أشار البارودي في هذه الأبيات إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان على رأس غزوة اتجهت إلى (سفوان) ولكنه لم يحارب إذ لم يجد أحدا فعاد إلى المدينة ، وأرسل عبد الله بن جحش على رأس سرية اتجهت ناحية (نخلة) ولما مرت به عير لقريش استاقها بعد حرب ، وفي ذلك الوقت حولت القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام .

---

* وقيل : غير ذلك : (انظر أسد الغابة جـ ٢ ص ٣٦٩) (الخرار) بفتح الخاء وفتح الراء مشددة ـ موضع قرب الجحفة . البشم : بفتحتين ـ التخمة والسأم .
(١) انظر ص ١٨٤ من هذه الرسالة . (٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٦ وما بعدها .
(٤) سفوان : بفتحتين ـ واد بالقرب من بدر (للقون) لعله تحريف وأصله (للقوس) . أ و (للقرن) أي المماثل كما سيأتي .
(٥) عبد الله : هو عبد الله بن جحش صحابي جليل توفي سنة ٣ هـ (أسد الغابة جـ ٣ ص ١٩٥ (نخلة) فتح فسكون ـ موضع بين مكة والطائف .

ولا يخفى أن البيت الأول يشير إلى قوة جيش المسلمين الذى خرج إلى (سفوان) ، والجدير بالذكر أن هذه الغزوة تسمى غزوة بدر الأولى[1] ، أما غزوة بدر الثانية ويطلق عليها بدر الكبرى[2] - فأشار إليها الهاروني بقوله[3] :

يوم المصطفى (بدرا) فلاح لـه
بدر من النصـر جلى ظلمة الوخم
يوم تبسم فيه الدين وانهملـت
على الضلال عيون الشرك بالسجم[4]
أبلى (على) به خير البلاء بما
حباه ذو العرش من بأس ومن همم[5]
وجال (حمزة) بالصمصام يكسؤهم
كما يفرق منهم كل مزدحم[6]

قاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) جيش المسلمين فى غزوة بدر الكبرى ، فكان النصر حليفه فى ذلك اليوم الذى ارتفعت فيه راية الحق ، وانخفضت فيه بل انفجرت فيه رءوس الشرك وأعوان الباطل .

يبدو أن الشاعر كان يختصر القول فيما سبق - من سرايا وغزوات - ويسرع الخطى ليقف مع هذا اليوم الذى لاح للرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه (بدر من النصر جلى ظلمة الوخم) وليشيد بذلك اليوم الذى (تبسم فيه الدين ..) ، ولم يقف أثره عند ذلك الحد ، بل (انهملت على الضلال عيون الشرك بالسجم) بسبب ذلك اليوم العظيم ، وما له لا يكون كذلك ، وقد أبلى المسلمون فيه بلاء حسنا ، يتجلى فيما قام به على بن أبى طالب من بسالة وكفاح ، كما يظهر فيما أظهره حمزة بن عبد المطلب من شجاعة ونضال ، لقد كان نضال المسلمين عظيما ، وكفاحهم كبيرا ، ولذلك تفرق جمع أعدائهم بل تمزقت أوصالهم .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٨ .   (٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٧ .
(٤) السجم : بفتحتين - الدمع .   (٥) المراد بعلى : على بن أبى طالب .
(٦) المراد : بحمزة - حمزة بن عبد المطلب الصمصام : السيف الصارم الذى لا ينثنى . يكسؤهم : يتتبع آثارهم ، والمراد يقتلهم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (يوم تهمم فيه الدين ٠٠) وقوله : (وانهملت على الضلال ٠٠) تجد في كل منها استعارة مكنية أكدت أثر ذلك اليوم ، ووضحت وقع ذلك الانتصار ٠

ولقد اختار الشاعر ألفاظا ناسبت المقام ، مثل :(النصر ، أبلى ، بأس ، وهم ، وجال ، والصمصام ، ويكسؤهم ٠٠) ٠

ولم يقف الشاعر عند ذلك الوصف بل أكده بقوله[1] :

وغادر الصحب والأنصار جمعهم
ولبس فيه كمى غير منهزم

تقسمهم يد الهيجاء عادلة
فالهام للبيض والأبدان للرخم[2]

كأنما البيض والأيدى صوالجة
يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم[3]

لم يبق منهم كمى غير منجدل
على الرغام وعضو غير منحطم[4]

إن البارودى يؤكد بسالة الصحابة ، ويظهر شجاعتهم ، فهم لم يتركوا ساحة القتال إلا بعد ما هزموا جيش المشركين هزيمة منكرة ، وقضوا عليهم قضاء مبرما ٠

وإذا تأملت قول الشاعر : (وغادر الصحب والأنصار ٠٠) وجدته يؤكد الفكرة السابقة ، فالصحابة المجاهدون (غادروا جمعهم) ولعل فى لفظ غادر ما يدل على أنهم تركوا ذلك المكان وكلهم نشاط وقوة ، ولم يرغمهم أحد على مغادرته ٠

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢٠٨ ٠
(٢) الهيجاء : الحرب ٠ الهام : الرؤوس ٠
(٣) الصوالجة : عصى معوجة الطرف يضربها الكرة ٠ القمم : بكسر ففتح ـ المراد : الرءوس
(٤) الرغام : ـ بضم الراء مشددة ـ التراب ، منحطم : منكسر ٠

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل الأنصار ، فذكرهم بعد قوله : (الصحب)، ومعلوم أنهم يدخلون فى ذلك الوصف فيكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، للاهتمام بأمرهم ، وتفخيم شأنهم .

ولا يخفى أن فى قول البارودى : (تقسمتهم يد الهيجاء ..) استعارة مكنية توحى بمهارة الجنود المسلمين ، وتحكمهم فى رقاب أعدائهم .

ولقد رسم الشاعر صورة لعب فيها التشبيه دورا كبيرا ، وذلك فى قوله : (كأنما البيض بالأيدى صوالجة ..) فالجنود المسلمون متحكمون فى سيوفهم كما يتحكم اللاعب فى عصاة التى يلعب بها الكرة ، ولكن المسلمين هنا يلعبون بماذا ؟ إنهم يلعبون برؤوس الكفار !!!

ولعل الشاعر أراد أن يشير إلى أن جيش الكفار لم يخل من جنود أقوياء ، ولكنهم مع ذلك : (لم يبق منهم كمى غير منجدل ..) .

إن هذه المعركة لم تستغرق وقتا طويلا ، ولذلك قال البارودى[1] :

فما مضت ساعة والحرب مسعرة
حتى غدا جمعهم نهبا لمقتسم

قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة
بالمشرفية والمران كالرجم[2]

فأين ما كان من زهو ومن صلف
وأين ما كان من فخر ومن شمم[3]

جاءوا وللشر وسم فى معاطسهم
فأرغموا والردى فى هذه السمم[4]

من عارض الحق لم تسلم مقاتله
ومن تعرض للأخطار لم ينم

عندما بدأت هذه الحرب ، واشتعل أوارها ، واشتد وطيسها ، هجم

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٢٨ .
(٢) المشرفية : السيوف ـ المران : بضم الميم وفتح الراء المشددة ـ الرماح . الرجم : المراد النجوم التى يرمى بها . (٣) الصلف : المراد الكبر والغرور .
(٤) المعاطس : المراد الأنوف .

المسلمون على أعدائهم هجمة فرقت جمعهم ، وشتت شملهم ، كما أعملوا سيوفهم في رقابهم ، وسلطوا رماحهم على أجسادهم .

وإذا تأملت قول البارودي : (فما مضت ساعة ..) وجدته يدل على أن الحرب لم تلبث طويلا ثم وضعت أوزارها ، ولكن بعد أن مزق الأعداء كل ممزق ، ويؤكد ذلك قول الشاعر : (قد أمطرتهم سماء الحرب ..) فهذا تعبير مجازي يوحي بكثرة ما نزل على الكفار من ضربات متلاحقة ، بسيوف مزهقة .

ولا يخفى أن في قول البارودي : (فأين ما كان من زهو ومن صلف ..) استهزاء وسخرية من هؤلاء الكفار الذين ملأ الكبر صدورهم ، ويبدو أن الشاعر يلمح بذلك إلى أبي جهل الذي قال - عندما أشار بعض المشركين بالرجوع بغير قتال لما نجت القافلة - : " لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم فيه ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .. (١) .

ولعل مما يؤكد ذلك قول الشاعر : (جاءوا وللشر وسم في معاطسهم ..) فهذا كناية عن شدة ميلهم للشر ، وثقتهم الكبيرة في قوتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن ذلوا وهلكوا على أيدي المسلمين الذين يدافعون عن الحق ، وهكذا : (من عارض الحق لم تسلم مقاتله ..) وبهذه الحكمة الصادقة ختم الشاعر حديثه عن غزوة بدر الكبرى ، ثم استأنف حديثه عن جهاد المسلمين في مواقع أخرى بقوله (٢) :

فما انقضى يوم بدر بالتي عظمت
حتى مضى غازيا بالخيل في الشكم

فيم (الكدر) بالأبطال منتحيا
(بني سليم) فولت عنه بالرغم (٣)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٢٠ بتصرف .
(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٨ وما بعدها .
(٣) الكدر : بضم الكاف وسكون الدال : ماء لبني سليم - إحدى القبائل العربية - قرب المدينة .

وسار في غزوة تدعى (السويق) بها
ألقاه أعداؤه من عظم زادهم[1]

ثم انتحى بوجوه الخيل (ذا أمر)
ففر ساكنه رعبا إلى الرقم[2]

وأم (فرعا) فلم يثقف به أحدا
ومن يقوم أمام العارض الهزم[3]

بعد انتصار المسلمين في بدر لم يلبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) طويلا في المدينة ، بعد ذلك الانتصار الكبير على المشركين .

إذ خرج على رأس جيش سار حتى وصل إلى (الكدر[1]) ولكنه لم يلق كيدا ، فعاد إلى المدينة . ثم خرج لملاقاة بعض المشركين في غزوة سميت (السويق) ، ولكن المشركين فروا أيضا . فاتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى مكان يدعى (ذا أمر) لمحاربة أهله ، ولكنهم تركوا ديارهم وهربوا إلى الجبال . ثم اتجه إلى (الفرع) لمحاربة أهله الذين أرادوا أن يغيروا على المدينة . ولكنه لم يجد هناك أحدا .

وهكذا يسرد البارودي عدة غزوات خرج فيها المسلمون ولكنهم لم يحاربوا . ويبدو أن المشركين كانوا عندما يسمعون قرب وصول جيش المسلمين يفرون تاركين ديارهم وذلك خوفا من قوة ذلك الجيش الذي أشار إلى كثرته وقوته البارودي في قوله . (ومن يقوم أمام العارض الهزم) .

---

(1) السويق : بفتح السين مشددة وكسر الواو — دقيق الشعير أو الحنطة إذا حمص وقد يمزج باللبن والعسل والسمن . وسميت الغزوة بذلك الاسم لأن المسلمين عندما اقتربوا من المشركين رمى المشركون أزوادهم تخفيفا عن أنفسهم حتى يستطيعوا الفرار من المسلمين .

(2) ذو أمر : (أمر) بفتحتين — موضع بنجد قريب من ديار غطفان .
الرقم : — بفتحتين — جبال دون مكة بديار غطفان .

(3) فرع : — بضمتين . وقيل : بضم فسكون — قرية قريبة من المدينة .
العارض : السحاب المعترض في الأفق .
الهزم : — بفتح فكسر — الذي لرعده صوت .

وإذا كانت هذه الغزوات ضد المشركين ، فإن أول غزوة ضد اليهود هي التي أشار إليها البارودي في قوله : (١)

ولف بالجيش حيي (قينقاع) بما
جنوا ، فصار لهم من معشر قزم (٢)

وسار زيد بجمع نحو (قردة) من
مياه نجد ، فلم يثقف سوى النعم (٣)

إن أول غزوة ضد اليهود كانت غزوة بني قينقاع الذين اتجه إليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما نقضوا عهدهم معه .

ولعل الشاعر يشير بقوله : (.. بما جنوا ..) إلى السبب المباشر للغزوة وهو : إهانتهم لزوجة رجل من الأنصار وقتلهم أحد المسلمين .. فخيرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين الإسلام أو الجلاء ، ولكنهم تحصنوا بحصونهم خمسة عشر يوما ، والمسلمون يحاصرونهم إلى أن اضطروا إلى التسليم والجلاء إلى الشام (٤) .

ولقد بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) زيد بن حارثة على رأس سرية اتجهت نحو (قردة) ولكنه لم يجد سوى النعم فأخذها وعاد إلى المدينة .

يوم أحد :

ثم أشار البارودي إلى غزوة أحد بقوله (٥) :

ثم استدارت رحا الهيجاء في أحد
بكل مفترس للقرن ملتهم (٦)

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) قينقاع : بفتح القاف وسكون الياء وتثليث النون والضم أشهر - حي من اليهود كانت منازلهم محيطة بالمدينة - قزم - بفتحتين - أراذل .
(٣) زيد هو : زيد بن حارثة صحابي جليل استشهد سنة ٨ هـ : (أسد الغابة ج٢ ص ٢٨١ وما بعدها) . (قردة) بفتحتين - اسم ماء بناحية نجد .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٧ باختصار . (٥) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٠ وما بعدها . (٦) القرن : - بكسر القاف وسكون الراء - المماثل في الشجاعة ، وبفتح القاف مع سكون الراء : المماثل في السن .

يوم حنين تيه الجد واتضحت
جلية الأمر بعد الجهد والسأم

قد كان خبرا وتمحيصا ومغفرة
للمؤمنين ، وهل برء بلا سقم

مضى (على) به قدما فزلزلهم
بحطة أوردتهم مورد الشجم

وأظهر الصحب والأنصار بأسهم
والبأس فى الفعل غير البأس فى الكلم

خاضوا المنايا فنالوا عيشة رغدا
ولذة النفس لا تأتى بلا ألم

لقد كانت غزوة أحد بلاء واختبارا للمسلمين ، الذين أظهروا شجاعة فائقة ، وبسالة نادرة ، وصبروا وصابروا على الكفاح ، واستشهد منهم كثير.

وإذا تأملت قول الشاعر ، (ثم استدارت رحا الهيجاء ..) وجدته يلمح إلى تفهيم نتيجة الحرب التى كانت فى صالح المسلمين أول الأمر ولكنها ما لبثت أن تغيرت لصالح المشركين بعدما خالف الرماة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .(1)

ولا يخفى أن فى قول البارودى : (قد كان خبرا وتمحيصا ومغفرة ..) تلميحا إلى قوله تعالى : " وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .. (2) " كما أن هذه الحكمة الصادقة : (وهل برء بلا سقم) تشير إلى أن الفلاح لابد أن يسبقه ما ينغصه ، وأن النصر لابد معه من الكفاح والمشقة .

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٩ وما بعدها .
(2) آل عمران ١٤١ ـ ١٤٢ .

وإن كان الشاعر أشاد بكفاح على بن أبى طالب فى تلك الغزوة فى قوله: (مضى على به قدما فزلزلهم..) فإنه أشاد أيضا بكفاح كل الصحابة الذين اشتركوا فى تلك الغزوة ، ولا سيما الأنصار ، وذلك فى قوله : (وأظهر الصحب والأنصار بأسهم)، ويتحفنا البارودى - كمهدنا به - بحكمة صادقة تبين الشجاع من الجبان : (والبأس فى الفعل غير البأس فى الكلم).

ثم أشار الشاعر إلى هؤلاء الصحابة الذين استشهدوا فى تلك الغزوة بقوله : (خاضوا المنايا فنالوا عيشة رغدا) ، ولعله يلمح بذلك إلى قوله تعالى : " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .. الآيات[1] ".

ثم يؤكد البارودى أن الإنسان لا ينال ما يرجوه إلا بالتعب وذلك فى قوله : (ولذة النفس لا تأتى بلا ألم) ، وهذا قول تصدقه الأيام .

ويواصل الشاعر حديثه عن غزوة أحد بقوله[2]:

من يلزم الصبر يحمد فى عواقبه
والماء يحسن وقعا عند كل ظمى

لو لم يكن فى احتمال الصبر منقبة
لم يظهر الفرق بين اللؤم والكرم

فكان يوما شديد البأس نال به
كلا الفريقين جهدا وارى الحدم[3]

أودى به حمزة الصنديد فى نفر
نالوا الشهادة تحت العارض الرزم[4]

أحسن بها ميتة أحيوا بها شرفا
والموت فى الحرب فخر السادة القدم

---

(١) المرجع السابق ١٦٩ - ١٧١ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢١ .
(٣) الحدم : - بفتحتين - اشتداد الحر والمراد شدة القتال .
(٤) الصنديد : السيد الشجاع . الرزم : - بفتح الراء مشددة وكسر الزين - الكثير الذى لا ينقطع - وأراد الشاعر بالعارض الرزم . الغبار المثار من حوافر الخيل .

لا عار بالقوم من موت ومن سلب
وهل رأيت حساما غير منثلم (١)

يشير البارودى إلى بعض الحكم التى تسلى النفس ، وتثبت القلب ، ومنها : إن عاقبة الصبر محمودة ، والإنسان إذا صبر ثم نال ما تمناه شعر بقيمة صبره ، كما أن الماء لا يعرف قيمته إلا الذى اضطر إلى العطش ، وكذلك الصبر يظهر اللئيم والكريم .

ثم يشير الشاعر إلى أن يوم أحد كان شديد البأس على المسلمين والكافرين ، ولقد استشهد فيه حمزة بن عبد المطلب الصحابى الشجاع ، كما استشهد معه كثير من الصحابة فى ساحة القتال ، فما أحسن ميتتهم التى جعلتهم فى عداد الغرثاء الشجعان ، ولا عار عليهم فى ذلك ؛ لأن الأبطال هم الذين يموتون فى المعارك ، وفى ذلك فخر كبير لهم ، ولا عار على المسلمين إذا هزموا فى جولة ، فإن لكل جواد كبوة ، ولكل حسام ثلمة .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (نالوا الشهادة تحت العارض العرم) إشارة إلى أن هؤلاء الأبطال ظلوا يناضلون دون فرار أو استسلام على الرغم من شدة المعركة ، كما أن فى قوله : (أحسن بها ميتة أحيوا بها شرفا) نكتة لطيفة أثارها ذلك الطباق بين الموت والحياة ، والعجيب أن موتهم كان سببا فى إحياء شرفهم إذ استشهدوا والشهيد حى يرزق ـ كما سبق ـ أضف إلى ذلك أن قوله : (والموت فى الحرب فخر السادة القدم) يشير إلى شجاعة هؤلاء الأبطال المسلمين ، وهو كلام حكيم يجرى مجرى المثل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يخفف من وقع الهزيمة على نفوس المسلمين بقوله : (وهل رأيت حساما غير منثلم) .

ثم يتحدث عن بعض ما فعله الرسول فى تلك الغزوة بقوله (٢) :

---

(١) منثلم : منكسر الحد .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢١ وما بعدها .

فكان يوم جزاء بعد مختبر
لمن وفى وجفا بالعز والرغم

قام النبى به فى مأزق حرج
ترعى المناصل فيه منبت الجمم[1]

فلم يزل صابرا فى الحرب يفثؤها
بالبيض حتى اكتست ثوبا من العنم[2]

وردّ عين ابن نعمان قتادة ، إذ
سالت فعادت كما كانت بلا لتم[3]

يقول البارودى: إن يوم أحد كان يوم جزاء بعد اختبار، فمن وفى كان العز والشرف جزاءه ، ومن جفا كان الذل والخسران عقابه ، ولقد قام النبى (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ويكافح على الرغم من التضييق على المسلمين، ولكنه صابر وجاهد حتى سكنت حدة الحرب ، وكان من آيات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى تلك الغزوة أن رد عين قتادة بن النعمان إلى مكانها بعد أن وقعت على وجنته ، فعادت كما كانت ، بل كانت أحسن من السليمة [4] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (قام النبى به فى مأزق حرج ..) وجدته يشير إلى ما أصبح عليه جيش المسلمين بعد مخالفة الرماة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوقع الاختلاف بين صفوفهم، وتفرق شملهم، إلا أن الرسول ظل صابرا ، وأخذ يجمع الصفوف ، وعاد الجميع إلى حمل السيوف .

ولا يخفى أن قول الشاعر : (فلم يزل صابرا فى الحرب .. البيت) يدل على أن المسلمين قتلوا كثيرا من المشركين بسيوفهم (حتى اكتست ثوبا من العنم) أضف إلى ذلك أن المحسن البديعى — اللف والنشر فى قوله :

---

(١) المناصل : جمع المنصل — بضم الميم وسكون النون وضم الصاد وفتحها — السيف والمراد بالجمم هنا : الرقاب .
(٢) يفثؤها : يكسر حدتها ويسكنها .
(٣) قتادة بن النعمان سبق التعريف به فى هامش ص ١٥٥ من هذه الرسالة . لتم : — بفتحتين — المراد : جرح أو أثره .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٦

(.. لمن وفى وجفا بالعز والرغم) يشير إلى جزاء المؤمن الذى وفى ، وعاقبة الكافر الذى جفا ، فلا شك فى أن جزاء من صدق ما عاهد الله عليه يكون الجنان ، كما أن جزاء من حاد الله ورسوله يكون الهلاك والخسران .

لم يهن المسلمون بعد غزوة أحد، بل انتصروا فى كثير من السرايا والغزوات التى أشار البارودى إلى بعضها بقوله : (١)

وقد أتى بعد ذا (يوم الرجيع) بما
فيه من الغدر بعد العهد والقسم (٢)
وثار نقع المنايا فى (معونة) من
بنى سليم بأهل الفضل والحكم (٣)
ثم اشرأبت لخفر العهد من سفه
(بنو النضير) فأجلاهم عن الأطم (٤)
وسار منتحيا (ذات الرقاع) فلم
تلق الكتائب فيها كيد مصطدم (٥)
وحل من بعدها (بدرا) لوعد (أبى
سفيان)، لكنه ولى ولم يحم (٦)
وأم (دومة) فى جمع وعاد إلى
مكانه وسماء النقع لم تغم (٧)

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٢ ومابعدها .
(٢) الرجيع : - بفتح الراء مشددة وكسر الجيم - ماء لهذيل بناحية الحجاز بين مكة وعسفان . (٣) معونة :- بفتح الميم وضم العين - مكان شرقى المدينة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم . (٤) اشرأبت مدت عنقها ، والمراد مالت . خفر العهد عدم الوفاء به . بنو النضير : قبيلة من اليهود كانت بواد ظاهر المدينة .
(٥) ذات الرقاع : اسم الغزوة، سميت باسم مكان قريب من أرض غطفان ، أو لأن المسلمين لفوا على أرجلهم رقاعا من كثرة السير وقيل غير ذلك (سيرة ابن هشام جـ٣ ص١٥٨) .
(٦) أبو سفيان : هو أبو سفيان بن حرب كان يحارب الرسول ثم أسلم ، وتوفى سنة ٣١ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ٣ ص١١) .
(٧) دومة : - بضم الدال وفتح الميم - مدينة على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة وتسمى (دومة الجندل) .

أشار الشاعر بقوله : (يوم الرجيع) إلى أن رهطا من (عضل والقارة) ـ من قبائل العرب ـ قدموا على الرسول ، وطلبوا منه أن يرسل معهم بعض صحابته ليفقهوهم فى الدين ، فأرسل معهم ستة من الصحابة ، ولكنهم غدروا بهم وقتلوهم ، وكان ذلك فى مكان يدعى (الرجيع) (١) .

وأما (معونة) فقد قتل فيها ما يقرب من أربعين صحابيا من القراء ، كانوا قد ذهبوا إلى ذلك المكان لدعوة أهله إلى الإسلام ، ولتعليمهم قراءة القرآن (٢) ، ولكنهم غدروا بهم وقتلوهم .

وأما (بنو النضير) فلقد أردوا الغدر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) بإلقاء صخرة عليه فأخبره جبريل (عليه السلام) بأمرهم فقام متظاهرا بأنه يقضى حاجة ، ثم عاد إليهم وحاصرهم حصارا شديدا ، حتى سألوه الجلاء فأجلاهم عن الحصون (٣) .

كما خرج هو وبعض أصحابه لمحاربة بعض القبائل التى أرادت بالمسلمين سوءا ، ولما وصل إلى (ذات الرقاع) لم يجد أحدا فعاد إلى المدينة (٤) .

ولقد قال : أبو سفيان للرسول (صلى الله عليه وسلم) ـ بعد أحد ـ " الموعد بيننا وبينكم بدر من العام القابل " ، فخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمقابلة أبى سفيان فى الموعد المذكور فى (بدر) ولكنه ـ أبا سفيان ـ ولى خوفا من مقابلة المسلمين (٥) .

كما علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن فى (دومة الجندل) جماعة يظلمون من يمر بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة ، فخرج إليهم ، ولكنهم هربوا عندما علموا بخروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليهم (٦) .

---

(١) انظر القصة بالتفصيل فى سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٢٧ وما بعدها . (٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٤٢ وما بعدها . (٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٧ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٦٣ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٦٨ .

غـزوة الخنـدق :(١)

ولقد أشار البارودى إلى غزوة الخندق بقوله :(٢)

ثم استثارت قريش وهى ظالمـة
أحلافها وأنت فى جحفل لهـم(٣)
تستمرىء البغى من جهل وما علمت
أن الجهالة مدعاة إلى الثلـم(٤)
وقام فيهم أبو سفيان من حنـق
يدعو إلى الشر مثل الفحل ذى القطم(٥)
فخندق المؤمنون الدار وانتصبوا
لحربهم كضوارى الأسد فى الأجـم(٦)
فما استطاعت قريش نيل ما طلبت
وهل تنال الثريا كف مستلـم(٧)

ولما رأت قريش ما أصبح عليه المسلمون من قوة يرهب جانبها ، وشدة يخشى بأسها ، تآمرت مع بعض أحلافها على العدوان عليهم ، وشجعهم على ذلك أبو سفيان ، ولكن المسلمين حفروا خندقا حول المدينة ، وظلوا بها استعدادا لملاقاة أعدائهم ، الذين لم يستطيعوا نيل ما طلبوه ، وهيهات أن يستطيعوا ذلك.

وإذا تأملت قول البارودى : (ثم استثارت قريش ..) وجدته يشير إلى الدور الكبير الذى قامت به قريش فى تأليب بعض القبائل على المسلمين (وهى ظالمة) فى ذلك، ولكنها (تستمرىء البغى) وتستحسن الظلم

---

(١) الخندق : حفرة عميقة حول المدينة كسور يمنع من دخولها .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٣٢ وما بعدها . (٣) أحلافها : المراد بهم غطفان ، وبنى النضير ، وبنى أسد ، وبنى مرة ، وبنى سليم وغيرهم .
(٤) تستمرىء : تستطيب . الثلم : المراد الهلاك . (٥) حنق : غيظ - القطم - بفتحتين - الهياج . (٦) فخندق المؤمنون الدار : المراد حول الدار . ضوارى : جياع .
(٧) الثريا : نجم.

(وما علمت أن الجهالة مدعاة إلى الثلم) وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، حيثما كانوا .

وأحسن الشاعر حينما صور حالة أبي سفيان وهو يشجع القبائل على ظلم المسلمين ، ـ أحسن الشاعر حينما صوره ـ بفحل هائج ، وحيوان شارد .

وأما المسلمون فقد حفروا الخندق حول المدينة : (وانتصبوا لحرب) أعدائهم بشجاعة وتلهف ، كما ينتظر الأسد الجائع فريسته في عرينه ، ولا شك في أن الشاعر أحسن عندما شبه المسلمين بالأسود ، وشبه المدينة بالآجام ، (كضواري الأسد في الأجم) ، ثم بين فشل قريش في هدفها بقوله : (فما استطاعت قريش نيل ما طلبت) بل أكد أن ذلك بعيد كل البعد أن يتحقق لها بقوله : (وهل تنال الثريا كف مستلم) ، وهذا مستحيل بالمشاهدة .

ثم أكد الشاعر فشل قريش فقال (1) :

رامت بجهلتها أمرا ولو علمت
ماذا أعد لها في الغيب لم ترم

فخيب الله مسعاها وغادرها
نهب الردى والصدى والريح والطسم (2)

فقوضت عمدالترحال وانصرفت
ليلا إلى حيث لم تسرح ولم تسم

وكيف تحمد عقبى ما جنت يدها
بغيا وقد سرحت في مرتع وخم

قد أقبلت وهي في فخر وفي جذل
وأدبرت وهي في خزي وفي سدم

من يركب الغي لا يحمد عواقبه
ومن يطع قلبه أمر الهوى يهم (3)

---

(1) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٣٤ ومابعدها .

(2) الصدى (بالقصر) العطش ، الطسم :ـ بفتحتين ـ المراد زوال أثرهم من تلك الأماكن التي نصبوا فيها خيامهم .

(3) يهم : المراد يضل .

لقد رامت قريش السوء بالمسلمين ، ولو علمت أن الله تعالى لن يحقق ظلمها ، بل سيخيب ظنها ، وسيجعل عاقبة بغيها وخيمة عليها ، ما تمنت ذلك ، فلقد سلط الله عليهم ريحا شديدة في ليلة مظلمة باردة ، فأكفأت القدور ، وأطفأت النيران ، وهدمت الخيام ، وهكذا تكون عاقبة الظالمين .

وإذا تأملت قول البارودى : (رامت بجهلتها أمرا ..) وجدته يدل على شدة ما أصاب قريشا من ندم نتيجة ظلمها ، ولعل الشاعر نكر (أمرا) لتذهب النفس فيه أى مذهب ، كما أن في قوله : (فخيب الله مسعاها) ما يدل على سرعة نصر الله المؤمنين،تشير إلى ذلك تلك (الفاء) التى تدل على الترتيب والتعقيب ولقد سلط الله عليهم جندا كثيرا ،أشار إليها الشاعر في قوله : (نهب الردى والصدى والريح ..) .

ولعل في قول البارودى : (فقوضت عند الترحال ..) ما يدل على شدة الريح ، كما أن قوله : (.. لم تمرح ولم تسم) يوحى بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء الأعداء ، وأكد ذلك البارودى بقوله : (وكيف تحمد عقبى ما جنت يدها بغيا ..) ، ولا يخفى أن في لفظ (يدها) مجازا مرسلا علاقته الجزئية ، يشير إلى جرم ما ارتكبه هؤلاء الكفار بتلك الأيدى الأثيمة ويؤكده لفظ (بغيا) .

إن هؤلاء الأعداء لم يفكروا بعقولهم فما أشبههم بالأنعام ، بل هم أضل ،لأنهم سرحوا (في مرتع وخم)،ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة أنزلت الظالمين منزلة الأنعام ، وبينت عاقبتهم الوخيمة .

ولقد أحسن الشاعر في هذه المقابلة [1] : (قد أقبلت وهى في فخر وفي جذل) ، (وأدبرت وهى في خزى وفي سدم) إذ بينت - بوضوح - حال الأعداء عند ذهابهم للاعتداء على المسلمين ، ثم سجلت خزيهم وفشلهم عند عودتهم .

---

(١) المقابلة : هى الجمع بين أمور متقابلة - كل بضده على الترتيب ، وهى من المحسنات البديعية (انظر : زهر الربيع ص ١٦٨) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يؤكد عاقبة الظلم والظالمين ، فقال قـولا سديدا : (من يركب الغى لا يحمد عواقبه) ثم بين أن الهوى من الهوان ، ومن أطاع هواه كان مآله الخسران : (ومن يطع قلبه أمر الهوى يهم) .

وواصل البارودى حديثه عن كفاح المسلمين وجهادهم فقال [1] :

ثم انتحى بوجوه الخيل ساهمـة
(بنى قريظة) فى رجراجة حطـم [2]

خانوا الرسول فجازاهم بما كسبوا
وفى الخيانة مدعاة إلى النقـم

وسار ينحو (بنى لحيان) فاعتصموا
خوف الردى بالموالى كل معتصم [3]

وأم (ذا قرد) فى جحفل لجـب
يستن فى لاحب باد وفى نسـم [4]

وزار بالجيش غزوا أرض (مصطلق)
فما اتقوه بغير البيض فى الخـدم [5]

وفى (الحديبية) الصلح استتب إلى
عشر ولم يجر فيها من دم هـدم [6]

بعد غزوة الخندق اتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ـ علـى رأس غزوة ـ إلى (بنى قريظة) لأنهم نقضوا عهدهم معه ، فكان جزاؤهم قتـل الرجال وأسر النساء والصبيان [7] ، كل هذا بسبب خيانتهم ، كما اتجه الرسـول ـ بعد ذلك ـ إلى منازل (بنى لحيان) وهم الذين غدروا بأصحاب (الرجيع) ،

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥٠٣ وما بعدها . (٢) انتحى : قصـد . ساهمة : المراد متغيرة من التعب . بنو قريظة : قوم من اليهود كانوا بظاهر المدينة . رجراجة : المراد كبيرة . حطم : بضم ففتح ـ أراد به الشاعر : أن جيش المسلمين كبير يحطم كل ما يجده . (٣) بنو لحيان : قبيلة بناحية عسفان (طبقات ابـن سعد جـ ٢ ق ١ ص ٥٦) . الموالى : مكان قريب من المدينة : وأراد به الشاعر الجهات المرتفعة ـ فيه . (٤) ذو قرد ـ بفتح القاف والراء ـ موضع قريب مـن المدينة جهة غطفان . لاحب : طريق واسع واضح . نسم ـ بفتحتين ـ : المراد الطريق الدارس . (٥) مصطلق : المراد بهم : بنو المصطلق وهم بطن من خزاعة يسكنون قرب المدينة . البيض : النساء . (٦) الحديبية : سبق التعريف بها فى هامش ص ٣٢٢ من هذه الرسالة . هدم : المراد هدر . (٧) انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٧ وما بعدها .

ولكنهم هربوا فى شعاب الجبال عندما علموا باتجاه الرسول إليهم ، فعاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة (١)

ثم قصد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — ذا قرد — فى جيش كبير ، عندما أغار بعض المشركين على لقاح لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانت ترعى بالغابة — مكان بقرب المدينة — ولذلك تسمى هذه الغزوة — أيضا — غزوة الغابة (٢) — ثم عاد المسلمون إلى المدينة (٣) .

وكذلك خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) — على رأس غزوة — عندما علم أن بنى المصطلق يجمعون له فخرج إليهم ، ولقيهم على ماء يسمى (المريسيع (٤)) وهزمهم هزيمة منكرة وأسر نساءهم وأولادهم (٥) .

ولقد اتجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة معتمرا ، ولكن قريشا منعته ، فنزل فى مكان يدعى (الحديبية) — وجرت بينه وبين قريش مفاوضات على : رجوع الرسول هذا العام من غير عمرة على أن يأتى العام القابل فيعتمر هو ومن معه ، فوافق الرسول ورجع إلى المدينة ، والشاعر يلمح بقوله : (استتب الصلح إلى عشر) إلى ما اتفق عليه المسلمون والمشركون من وضع الحرب عن الناس عشر سنين (٦) .

غزوة خيبر (٧) :

وإذا كان البارودى قد مر مرورا سريعا على بعض الغزوات السابقة فإنه قد وقف طويلا مع غزوة خيبر ، فقال (٨) :

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٢٧ .
(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ١ ص ٥٨ . (٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها . (٤) المريسيع — بضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين — اسم ماء قريب من (قديد)
(٥) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٤٧ ومابعدها .
(٦) المرجع السابق — جـ ٣ ص ٢٦٤ ومابعدها .
(٧) خيبر : مدينة تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربى .
(٨) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٣٦ .

وجاء (خيبر) في جأواء كالحـــة
بالخيل كالسيل ، والأسياف كالضـــرم[1]

حتى إذا امتنعت شم الحصون على
من رامها بعد إيغال وقتحـــــم[2]

قال النبي : سأعطي رايتي رجـــلا
يحبني ويحب الله ذا الكـــــرم

ذا مرة يفتح الله الحصون علـــى
يديه ليس بفرار ولا بــــــرم[3]

فما بدا الفجر إلا والزعيم علـــى
جيش القتال (عليّ) رائع العلـــم

خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) على رأس غزوة إلى يهود خـــيبر ؛ لأنهم اشتركوا ضده في غزوة الخندق ، كما ألبوا عليه بعض الأعراب[4] ، فخرج الرسول إليهم في ليلة مظلمة ، وكان جيشه مزودا بالخيول الكثيرة ، والسيـــوف القاتلة ، ففتح المسلمون بعض حصون خيبر ، واستعصى عليهم بعضها ، فقال الرسول : سأعطي الراية - غدا - رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ذا قوة وفتوة ، يفتح الله الحصون على يديه ، وفي الصباح كان على رأس الجيش : علي بن أبي طالب .

ولا يخفى أن الشاعر يشـير إلى قوة جيش المسلمين بقوله : (بالخيـــل كالسيـــل ، والأسياف كالضرم) ، كما يشـير إلى قوة بعض حصون اليهـــــود بقوله : (حتى إذا امتنعت شم الحصون ..) ، وفي هذا دلالة على جبن اليهود الذين يخافون المواجهة ، وإنما يحاربون وهم داخل حصونهم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (قال النبي ..) وما بعده من الأبيات وجدتـــه

(١) جأواء : سوداء - كالحة : عابسة .
(٢) الإيغال : المراد الإمعان في السير إلى أرض العدو .
(٣) مرة : - بكسر الميم وفتح الراء مشددة - قوة . برم - بفتح فكسر - : ضجر .
(٤) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٢٠٢ .

يدل على منزلة على بن أبى طالب ، الذى طلبه الرسول ليحمله الراية ، ولكنه كان كما قال البارودى [1] :

وكان ذا رمد فارتد ذا بصـــــر
بنفثة أبرأت عينيــه من ورم [2]

فسار ممتزجا حتى أناخ علــــى
حصون خيبر بالمسلولـة الخذم [3]

يمضى بمنصله قدما فيلحمـــــه
مجـرى الوريد من الأعناق واللمم [4]

حتى إذا طاح عنه الترس تاح لــه
باب فكان له ترسا إلى العتم [5]

باب أبت قلبه جهدا ثمانيـــــة
من الصحابة أهل الجد والعزم [6]

كان على بن أبى طالب — عندما طلبه الرسول — مصابا برمد — فتفل الرسول فى عينيه فبرىء لوقته ، وتسلم الراية متوجها إلى حصون خيبر مع جنوده ، أصحاب السيوف المسلولة القاطعة ، وأخذ يضرب بسيفه ضربات قاتلة ، وعندما سقط عنه الترس ، وجد بابا استخدمه مكان الترس .

ولا شك فى أن الشاعر فى هذه الأبيات يواصل الإشارة إلى مكانة علــى ابن أبى طالب ، إلا أنه ذكر معجزة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى شفاء عين على ، عندما تفل فيها الرسول ، وهى معجزة ذكرتها كتب السيرة وأيدتهـا كتب الأحاديث [7] .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٦ ومابعدها .
(٢) نفثة : المراد تفلة من ريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) .
(٣) المسلولة : المراد السيوف . الخذم : — بضمتين — القاطعة .
(٤) يلحمه : المراد يطعمه .   (٥) طاح : سقط — الترس : ما يتوقى به . تاح : تهيأ — العتم : الظلام ، والمراد أن ذلك الباب استعمله على بن أبى طالب حتى وقف القتال آخر النهار .
(٦) العزم : — بفتحتين — وأصله بفتح وسكون — الصبر والقوة .
(٧) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص٢٩٠ ، وصحيح مسلم جـ ٥ ص١٧٢ .

ويبدو أن الشاعر قد تأثر في عبارته (فارتد ذا بصر ..) بقوله تعالى:
" فَارْتَدَّ بَصِيرًا .. الآية[1] ".

وإذا تأملت قول البارودي : (يمضي بمنصلة ..) وجدته يشير إلى مهارة علي بن أبي طالب في الحرب، ودقته في طعناته القاتلة، التي تصيب (مجرى الوريد ..)، ويبدو أن قول الشاعر : (من الأعناق واللمم) يعد حشوا بعد قوله : (من الوريد)، ولعله ذكره للتأكيد أو للقافية .

والبارودي يلمح بقوله : (حتى إذا طاح منه الترس ..) إلى قصة علي بن أبي طالب التي تدل على قوته وشجاعته ، إذ سقط منه الترس فوجد أمامه بابا قويا فاتخذه ترسا له ، مع أن ذلك الباب لم يستطع حمله ثمانية من الصحابة الأقوياء[2]، وهذا يدل على قوة علي بن أبي طالب وفتوته ، ويؤكد ذلك قول البارودي[3] :

فلم يزل صائلا في الحرب مقتحما
غيابة النقع مثل الحيدر القرم[4]
حتى تبلج فجر النصر وانتشرت
به البشائر بين السهل والعلم
أبشر به يوم فتح قد أضاء به
وجه الزمان فأبدى بشر مبتسم

لقد ظل علي بن أبي طالب يصول ويجول - في غزوة خيبر - ويقتحم الحصون ، ويخترق الصفوف غير هياب ولا وجل ، حتى ظهرت بشائر النصر التي لم تلبث أن انتشرت في كل مكان ، فاستبشر المسلمون .

وإذا تأملت قول البارودي : (فلم يزل صائلا ..) وجدته يدل على مهارة ذلك القائد، الذي يصول ويجول ، ولا شك في أن ذلك يدل على شجاعته ، ومما يؤكد ذلك قول الشاعر : (مثل الحيدر القرم) فهو تشبيه يوضح الفكرة ويثبتها .

(1) يوسف / ٩٦ . (2) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٠ .
(3) كشف الغمة في مدح سيد الأمم ص ٣٧ . (4) غيابة النقع : المراد كثرة الغبار
الحيدر : الأسد .

ولا يخفى أن قول البارودى : (حتى تبلج فجر النصر ..) يدل على أن النصر لم يكن دفعة واحدة ، بل كانت له مقدمات ومشاورة وهذا يشير إلى قوة حصون اليهود من جهة ، وعلى مهارة الجنود المسلمين وقائدهم من جهة ثانية .

ولقد كان انتصار المسلمين فى خيبر أمرا عظيما ، ولذلك سرّوا بسببه ، ولم يقف ذلك السرور على الإنسان ، بل (قد أضاء به وجه الزمان فأبدى بشر مبتسم) ففى هذه العبارة استعارة مكنية لا يخفى أثرها فى بيان عظمة ذلك النصر .

عودة بعض مهاجرى الحبشة يوم فتح خيبر :

إن يوم انتصار المسلمين فى خيبر كان يوما عظيما بسبب ذلك النصر المبين ، وبسبب أمر آخر أشار إليه البارودى فى قوله [1] :

أتى به (جعفر) الطيار فابتهجت
بعوده أنفس الأصحاب والحشم [2]

فكان يوما حوى عيدين فى نسق
فتحا ، وعود كريم طاهر الشيم

وعاد بالنصر مولى الدين منصرفا
بلا طيبة فى عز وفى نعم [3]

يالهما من نعمتين عظيمتين ، وفرحتين كبيرتين ، وقعتا فى يوم واحد : نعمة فتح خيبر ، ونعمة عودة بعض مهاجرى الحبشة وعلى رأسهم جعفر ابن أبى طالب ، ولذلك قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر [4] " .

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٧ .
(٢) جعفر الطيار هو جعفر بن أبى طالب (سبق التعريف به فى هامش ص١ من هذه الرسالة) وسمى (بالطيار) لقول الرسول : - لما قطعت يداه فى الحرب - أثابه الله بذلك جناحين يطير بهما فى الجنة . (أسد الغابة جـ ١ ص٢٤٢ وما بعدها باختصار) الحشم : أراد به الشاعر أسرة الرجل وقبيلته .
(٣) مولى الدين : المراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (٤) سيرة ابن هشام جـ٣ ص٢١

عمرة القضاء [1] :

ولقد أشار البارودى إلى خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة قاصدا مكة لأداء العمرة بقوله [2] :

ثم استقام لبيت الله معتمرا
لنيل ما فاته بالهدى للحرم

سرية مؤتة [3] :

ثم أشار إلى سرية مؤتة بقوله [4] :

وسار (زيد) أميرا نحو (مؤتة) فى
بعث تلاقى بها الأعداء عن كثم [5]

فبدأ المسلمون الجند واقتتلوا
قتال منتصر للحق منتقم

فطاح (زيد) وأودى (جعفر) وقضى
تحت العجاجة (عبد الله) فى قدم [6]

لا عار بالموت فالشهم الجرىء يرى
أن الردى فى المعالى خير مغتنم

لقد خرج جيش المسلمين متجها إلى مؤتة - وكان على رأسه زيد بن حارثة - والتقى الفريقان، وقاتل المسلمون وكافحوا إلى أن سقط زيد شهيدا ، فحمل الراية بعده جعفر بن أبى طالب، ولكنه استشهد أيضا ، فحمل الراية بعده عبد الله بن رواحة الذى استشهد فى ميدان القتال .

---

(١) سميت بذلك لأنها كانت بدل العمرة التى لم يؤدها الرسول فى عام الحديبية .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٧ . (٣) مؤتة : بضم فسكون - اسم موضع بالشام - وهى سرية لأن الرسول لم يخرج على رأسها إلا أن ابن هشام ذكر أنها غزوة ولم يذكر سببا لذلك (سيرة ابن هشام جـ ٣ ص٣٢٢) .
(٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٨ . (٥) عن كثم : المراد من قرب . (٦) العجاجة : - بفتح العين - اجتماع الغبار والدخان - والمراد بها المعركة . عبد الله : هو عبد الله بن رواحة صحابى جليل ، استشهد سنة ٨ هـ (أسد الغابة جـ٣ ص٢٣٨) .

ولا يخفى أن الشاعر مرّ مرورا سريعا على سرية مؤتة ، وخاصة على استشهاد القواد الثلاثة ، ويبدو أنه اكتفى بالحكمة التى نظمها فى البيت الأخير : (لا عار بالموت فالشهم الجرئ ..) — والتى تدل على عظمة الموت فى سبيل تحقيق الأمور العظيمة ، ولا سيما الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة التوحيد .

فتح مكة :

وانتقل البارودى إلى الحديث عن فتح مكة بقوله [1] :

وحين خاست قريش بالعهود ولم
تنصف وحارت عن الأشواء فى نقم [2]

وظاهرت من (بنى بكر) حليفتها
على (خزاعة) أهل الصدق فى الذمم [3]

قام النبى لنصر الحق محتزما
بجحفل لجموع الشرك مخترم

لقد نقضت قريش عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) نساعدت (بنى بكر) حليفتها — فى الاعتداء على (خزاعة) حليفة المسلمين فكان من الطبيعى أن يقوم الرسول والمسلمون بنصرة خزاعة ، فخرج على رأس جيش كبير متجها إلى مكة .

ثم وصف البارودى جيش المسلمين بقوله [4] :

تبدو به البيض والقسطال منتشر
كالشهب فى الليل أو كالنار فى الفحم [5]

لمع السيوف وتصهال الخيول به
كالبرق والرعد فى مغدودق هزم [6]

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٨ .
(٢) خاست : نقضت . (٣) بنو بكر ، وخزاعة قبيلتان عربيتان .
(٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٨ وما بعدها .
(٥) القسطال : الغبار . (٦) مغدودق هزم : المراد المطر الكثير الذى لا يتماسك .

عرمرم ينسف الأرض الفضاء إذا
سرى بها ويدك الهضب من خيم[1]

كانت أسلحة ذلك الجيش كثيرة ، تثير الرهبة ، فالسيوف تلمع ، والخيل تصهل والجنود كثيرون .

أراد الشاعر أن يرسم صورة واضحة لقوة جيش المسلمين ، فأتى بتشبيه يؤكد الفكرة ويوضحها وذلك فى قوله : (تبدو به البيض والقسطال منتشر ..) فالسيوف من شدة لمعانها وكثرتها وسط الغبار الكثير الذى تثيره الخيول تشبه ((الشهب فى الليل أو كالنار فى الفحم) ، أضف إلى ذلك أنه أراد أن يؤكد شدة لمع السيوف، وقوة صهيل الخيول فقال : (كالبرق والرعد فى مغدودق هزم) ولا يخفى أن فى العبارة لفا ونشرا مرتبا ، زاد الفكرة وضوحا وجمالا ، بالإضافة إلى المناسبة بين (البرق والرعد والمطر)— فى مغدودق — ، ثم بين البارودى أن عدد ذلك الجيش كبير فى قوله : (عرمرم ينسف الأرض الفضاء ..) وليس ذلك فقط ، بل و(يدك الهضب ..) .

أما صفات هؤلاء الجنود ، فأشار إليها الشاعر فى قوله[2] :

من الكماة التى ذلت لعزتها
معاطس لم تذلل قبل بالخطم[3]

من كل محتزم بالصبر معتصم
للقرن ملتزم ، فى البأس مهتزم[4]

طالت بهم همم نالوا السماك بها
عن قدرة ، وعلو النفس بالهمم[5]

---

(١) عرمرم : كثير — الهضب : المراد المرتفع — خيم — المراد : جبل .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٣٩ .
(٣) الخطم :— بضمتين — جمع خطام — بكسر الخاء — والمراد الحبل الذى تقاد به الإبل . (٤) محتزم : بضم فسكون ففتح فكسر المراد المستوثق . مهتزم — بزنة سابقه — المراد الذى له صوت أو المتسرع .
(٥) السماك : نجم .

بيض أساورغلب قساورة
شكس لدى الحرب مطعامون فى الأزم(١)
طابت نفوسهم بالموت إذ علموا
أن الحياة التى يبغون فى العدم

إن جنود هذا الجيش الكبير قد اتسموا بكل الصفات الحميدة ، فهم شجعان ،لا يخشون النزال ، ولا يرهبون القتال ،فعندهم صبر جميل ،وعزم أكيد على النيل من أعدائهم ، وهمتهم عالية ، وأنفسهم مهذبة ، جمعوا بين الشرف والسؤدد ، والشجاعة وإكرام الضيف .

وإذا تأملت قول الشاعر : (فيه الكماة التى ذلت لعزتها ٠٠) وجدته يشير إلى شجاعة هؤلاء الجنود المسلمين ، أضف إلى ذلك أن قوله ، (٠٠ لم تذلل قبل بالخطم) فيه تحقير لأعدائهم وتنزيلهم منزلة الأنعام .

ولا يخفى ما فى قول البارودى : (من كل معتزم بالصبر محتزم ٠٠ البيت) من تقسيم جميل ، وموسيقى رائعة ، بالإضافة إلى ما اشتمل عليه البيت من صفات جليلة ، أكدها بتلك الكناية اللطيفة فى قوله : (طالت بهم هم نالوا السماك بها ٠٠) ، ثم زادها تأكيدا بقوله : (بيض أساورة ، غلب قساورة ٠٠) .

ولعل البارودى قد أحسن عندما وصف هؤلاء الجنود بأنهم يستعذبون الموت فى سبيل الله : (طابت نفوسهم بالموت ٠٠) مبينا أنهم بذلك يحيون الحياة الحقيقية وصدق الله العظيم فى قوله : " وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٠٠)(٢)

إن ألفاظ الشاعر مناسبة للفكرة وملائمة للغرض مثل :(الكماة ، القرن ، فى البأس،شكس)، أضف إلى ذلك بعض المحسنات البديعية التى زادت المعنى وضوحا مثل : الجناس الناقص بين قوله : (أساورة وقساورة).

---

(١) بيض : المراد ذو شرف . أساورة : المجيدون الرمى بالسهام . غلب : بضم فسكون ـ غلاظ الرقبة ـ وهو وصف تمدح به السادة ـ القساورة:جمع قسورة ـ بفتحتين بينهما سكون ـ الأسد . شكس ـ بضم فسكون ـ صعاب الأخلاق.
(٢) الأعلى / ١٧ .

ثم انتقل البارودى إلى وصف خيل المسلمين بقوله [1] :

ساسوا الجياد فظلت فى أعنتها
طوع البنانة فى كر ومقتحم [2]

تكاد تفقه لحن القول من أدب
وتسبق الوحى والإيماء من فهم [3]

كأن أذنابها فى الكر ألوية
على سفين لأمر الريح مرتسم [4]

من كل منجرد يهوى بصاحبه
هوى الأجادل اللحم [5]

لقد علم هؤلاء الجنود خيلهم فنون الحرب فهى تحسن الكر والاقتحام، بل إنها لتفهم معنى الأمر ، وتسبق الإشارة ، وإذا نظرت إلى أذنابها عندما تكر كانت كأنها أعلام مرفوعة على سفينة ممتثلة أمر الريح . أضف إلى ذلك أنها سريعة تنقض بصاحبها على عدوه، كما ينقض الصقر الشديد الجوع على اللحم .

إن وصف البارودى خيل المسلمين بارع ، فإذا تأملت قوله : (ساسوا الجياد فى أعنتها .. البيت) وجدته يشير إلى أن هذه الجياد قد أتقنت فن الحرب ، أضف إلى ذلك أنها : (تكاد تفقه لحن القول ..) وما أحسن ذلك القيد الجميل : (من أدب) الذى يرفع شأن تلك الخيل التى (تسبق الوحى والإيماء من فهم) .

ولا يخفى إبداع الشاعر فى تصويره أذناب الخيل وهى تكر ، إنه يشبهها بالأعلام المرفوعة على سفينة تهتز ذات اليمين وذات الشمال تبعا لاتجاه الريح .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٣٩ . (٢) ساسوا الجياد : المراد ذللوها وعلموها . الأعنة : جمع عنان – بكسر العين – المراد : لجام الفرس .
(٣) لحن القول : المراد معناه . الوحى : الإشارة . (٤) ألوية : المراد أعلام . سفين : جمع سفينة . مرتسم : – بضم فسكون ففتح فكسر – : ممتثل .
(٥) منجرد : سباق – يهوى : المراد ينقض . الأجادل اللحم – بكسر الحاء – الصقر الشديد الشهوة إلى اللحم .

إن البارودى حينما وصف خيل المسلمين ، وصفها وصف مجرب لها ، مقاتل عليها ، ولذلك لا عجب ولا غرابة فى إحسانه ، فهذا هو المنتظر منه ، وهو الذى مارس عليها عدة حروب ، وكان خلالها القائد المظفر - كما سبق .

ثم أشار البارودى إلى سيوف الجنود المسلمين ورماحهم بقوله[1]:

والبيض ترجف فى الأغماد من ظمأ
والسمر ترعد فى الأيمان من قرم[2]

من كل مطرد لولا علاقته
لسابق الموت نحو القرن من قرم[3]

كأنه أرقم فى رأسه حمة
يصغى كبد الأعادى بابنة الرقم[4]

كانت سيوف المسلمين تضطرب فى أغمادها من شدة الظمأ ، كما كانت رماحهم تهتز فى أيديهم ولولا علاقتها لسابقت الموت نحو هؤلاء الأعداء من شدة جوعها وشهوتها إلى لحومهم .

وإذا تأملت قول البارودى : (والبيض ترجف فى الأغماد ..) وجدته يشير إلى متانة هذه السيوف وليونتها ، ولقد أحسن الشاعر عندما بين علة الاضطراب بقوله : (من ظمأ) تدفع بذلك ظن من يتوهم أنها تضطرب خوفاً مثلاً ، وأيضاً أحسن فى قوله عن الرماح : (والسمر ترعد فى الأيمان من قرم) فإذا كانت السيوف ستروى ظمأها بدماء الأعداء فإن الرماح ستذهب جوعها بأجسادهم .

ولا يخفى ما فى قوله : (من كل مطرد لولا علاقته لسابق الموت ..) من إشارة لطيفة إلى حرص هذه الرماح على النيل من هؤلاء الأعداء ، وشدة تلهفها على لحومهم .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣٩ وما بعدها .
(٢) ترجف : تضطرب ـ السمر : الرماح .
(٣) مطرد : الرمح .
(٤) الأرقم : أخبث الحيات ـ حمة : ـ بضم ففتح ـ السم ـ يصغى : ينتزع ابنة الرقم : المراد الصمة والداهية .

ولقد شبه الرمح بحية خبيثة في رأسها السم الزعاف الذى يصيب قلوب هؤلاء الكفار إصابة مؤكدة لا برء منها ، ولا حياة معها ، كل ذلك في قوله : (كأنه أرقم في رأسه حمة ..) .

إن ألفاظ الشاعر مناسبة لفكرته ، ولعله قيد (البيض بأنها ترجف في الأغماد) إشارة إلى أن المسلمين كانوا حريصين على فتح مكة سلما .

وبعد وصف الجيش وأسلحته ، أشار البارودى إلى دخول الرسول مكة بقوله[1]:

فلم يزل سائرا حتى أناف على
أرباض مكة بالفرسان والبهم[2]

ولفهم بخميس لو يشد على
أركان رضوى لأضحى مائل الدعم[3]

فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا
أن اللجاجة مدعاة إلى الندم

ريعوا فذلوا ولولا شوا لوقرتهم
ضرب يفرق منهم مجمع اللمم[4]

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا جزعا
للصلح ، والحرب مرقاة إلى السلم

وأقبل النصر يتلو وهو مبتسم
(المجد للسيف ليس المجد للقلم)

واصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيره مع جيش المسلمين حتى اقترب من مكة فقسم الجيش وأمر كل قسم بالدخول من ناحية بحيث يطوق الجيش كله مكة — دون قتال — فلما رأى أهل مكة جيش المسلمين يحيط بهم من كل ناحية خافوا وطلبوا الصفح من الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ما سلف منهم ، وبذلك فتحت مكة سلما .

وإذا تأملت قول البارودى : (ولفهم بخميس ..) وجدته يلمح إلى ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تقسيم الجيش إلى عدة فرق وكل فرقة تدخل مكة من طرف[5] .

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمم ص ٤٠ (٢) أرباض مكة : الفضاء الذى حولها .
(٣) رضوى : — بفتح فسكون مع القصر — اسم جبل بالمدينة .
(٤) ريعوا : فزعوا — وقرتهم : سكنهم . (٥) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢ وما بعدها .

كما أن حديثه عن جيش المسلمين : (.. لو يشد على أركان رضوى ..) يشير إلى كثرة ذلك الجيش إذ بلغ عدده عشرة آلاف تقريبا [2] ، فكان من الطبيعى أن يفزع أهل مكة من هذا العدد الكبير ، ولذلك (أقبلوا يسألون الصفح ..) ؛ لأنهم رأوا أنه لا قِبَل لهم بهؤلاء الفرسان (فاستسلموا جزعا للصلح ..) .

ثم أشار البارودى إلى حكمة صادقة وهى : (الحرب مرقاة إلى السلم) وليس المقصود الحرب لذاتها ، وإنما المقصود الإشارة إلى أن القوة ـ غالبا ـ تجلب الهيبة ، فالرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج من مكة مهاجرا إلى المدينة عندما كان المسلمون قليلى العدد ، واشتد أذى المشركين بهم ، بل تآمروا عليهم ، واليوم ـ يوم فتح مكة ـ عاد الرسول إلى مكة ، ولكنها عودة قوية بجيش : (لو يشد على أركان رضوى لأضحى ماثل الدعم) ، فماذا يفعل أهل مكة أمام ذلك الجيش ، إنهم لم يفعلوا شيئا ، لأن قائد الجيش وهو ـ الرسول ـ (صلى الله عليه وسلم) قد سألهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ .. قالوا : خيرا ، أخ كريم .. ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء [2] ، فأعلن عفوه صراحة بعد أن دخل مكة : (وأقبل النصر يتلو وهو مبتسم ..) إنها عبارة لطيفة فيها تشخيص وإيحاء بعظمة ذلك النصر الذى كان يبتسم عندما كان يقرأ : (المجد للسيف ليس المجد للقلم) ، إن هذه العبارة تؤكد القول السابق : (الحرب مرقاة إلى السلم) ـ من جهة ، ومن جهة ثانية تدل على أن البارودى قد تأثر فى شعره بالمتنبى ، إذ هى من قوله : [3] :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى
(المجد للسيف ليس المجد للقلم)

---

(1) المرجع السابق جـ ٤ ص : ١٣ .
(2) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٦ .
(3) ديوان المتنبى (بشرح العكبرى) جـ ٢ ص ٤٢٢ .

ومهما يكن من شيء ، فلقد كان فتح مكة أمرا عظيما ، جعل الشاعر يقول [١] :

يا حائر اللب هذا الحق فاض لـه
تسلم ، وهذا سبيل الرشد فاستقم [٢]
لا يصرفنك وَهْم عن ترقبـــه
إن التوهم حتف العاجـز الوخـم [٣]
هذا النبي وذاك الجيش منتشـر
ملء القضا فاستبق للخير تغتنـم
فالزم حماه تجد ما شئت من أرب
وشم نداه إذا ما البرق لم يشـم [٤]
واحلل رحالك وانزل نحو سدتـه
فإنها عصمة من أعظم العصـم [٥]
أحيا به الله أموات القلوب كمـا
أحيا النبات بفيض الوابل الـرزم

ينصح الشاعر الحائر المتردد باتباع الدين الإسلامي،لأنه هو الحق الذي في اتباعه السلامة ، أما عداه من الأفكار والمعتقدات ، فما هي إلا وَهْم فاسد ، واعتقاد خاطيء ، والدليل على ذلك وجود الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد آمن به ذلك الجيش المنتشر (ملء القضاء) من كل يوم يؤمن به كثيرون (فاستبق للخير تغتنم) ، وادخل في دين الله تسلم ، وتمسك بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تكرم ، ومن الزلل تُعصم .

وإذا تأملت قول الشاعر : (لا يصرفنك وَهْم ..) وجدته يشير إلى أن

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٠ ومابعدها .
(٢) اللب: - بضم اللام مشددة : العقل .
(٣) الوهم : بفتح فسكون : الظن .
(٤) أرب : بفتحتين - حاجة . شم نداه : اطلب معروفه.
(٥) سدته : المراد ساحته.

الدين الإسلامى هو الدين الحق . أما ما عداه فهو وَهْم فاسد ، يدفع صاحبه إلى الاعتقاد عقباه . وهذا ما أشار إليه بقوله : (إن التوهم حتف العاجز الوخم) وهو قول حكيم . وحكمة صادقة تحذر من التوهم.

ولقد أشار الشاعر إلى منزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (فالزم حماه تجد ما شئت من أرب) ، كما أشار إلى كرمه بقوله : (وشم نداه إذا ما البرق لم يشم) والمراد : اطلب معروفه فى وقت الشدة ، وفى وقت الجدب . تجد جودا كبيرا وخيرا كثيرا ، ثم أكد ذلك بقوله : (واحلل رحالك وانزل نحو سدته).

ولا يخفى ما فى قوله : (أحيا به الله أموات القلوب ..) من بيان أثر بعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس ، كما أن فى قوله : (كما أحيا النبات بفيض الوابل الرذم) تشبيها لطيفا وضح المعنوى وبين أثره.

ولقد كان فضل الله على رسوله عظيما - عندما فتح مكة سلما - ولذلك أشار البارودى إلى ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما تمت هذه النعمة بقوله : (١)

حتى إذا تم أمر الصلح وانتظمت
به عقود الأمانى أى منتظم

قام النبى بشكر الله منتصبا
والشكر فى كل حال كافل النعم

وطاف بالبيت سبعا فوق راحلة
قوداء ناجية أمضى من النسم (٢)

فما أشار إلى بد بمحجنه
إلا هوى ليد مغلولة وفم (٣)

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤١ .

(٢) قوداء : - بفتح فسكون - طويلة الظهر والعنق . ناجية : سريعة - النسم : بفتحتين - الريح .

(٣) بد : - بضم الباء - الصنم . المحجن : بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الجيم - العصا المعوجة الرأس .

نعم تم الصلح ، وانتشر السلم ، فشكر الرسول ربه ، وطاف بالبيت سبعا ، كما قضى على الأصنام التى كانت حول الكعبة.

ولا يخفى ما فى قول البارودى : (حتى إذا تم أمر الصلح ..) من إشارة لطيفة إلى أن السلام قد انتشر ، وأن الأمن قد عم ، ولذلك كان شأن ذلك الصلح عظيما ، إذ (انتظمت به عقود الأمانى أى ننتظم).

ولعل الشاعر أراد بقوله : (والشكر فى كل حال كافل النعم) بيان أثر الشكر ، ولعله يلمح بذلك إلى قوله تعالى : " لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. الآية [1] ".

والشاعر يلمح بقوله : (فما أشار إلى به ..) إلى ما روى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما دخل مكة وطاف بالبيت ، وجد أصناما حول الكعبة ، فجعل يشير بقضيب فى يده إليها ويقول : " جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [2] " فما أشار إلى صنم منها إلا وقع .. [3] .

ولا يخفى أن فى قوله : (لبه مغلولة وقم) كناية عن سكوت هذه الأصنام وسكونها ، وعدم استطاعتها الكلام ، أو الدفاع عن نفسها ، وفى هذا تحقير لها ولمن يعبدها من دون الله .

غزوة حنين : [4]

ثم انتقل البارودى إلى الحديث عن غزوة حنين بقوله [5] :

وفى (حنين) إذ ارتدت (هوازن) عن
قصد السبيل ولم ترجع إلى الحكم [6]

---

(1) إبراهيم/ ٧ . (2) الإسراء / ٨١ . (3) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٢ .
(4) سبق التعريف بها فى هامش ص ١٤١ من هذه الرسالة.
(4) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤١ .
(5) هوازن : ـ بفتح الهاء والواو ـ إحدى قبائل العرب ـ الحكم : المراد به دريد بن الصمة ، وكان شيخا كبيرا اشترك مع هوازن برأيه ومعرفته بالحرب ، ولقد أشار برجوع النساء والأولاد ، ولكن لم يؤخذ برأيه قتل سنة ٨ هـ .

سرى إليها بجحر من ململمة
طامى السراة بجوج المحض ملتطم(١)

حتى استذلت وعادت بعد نخوتها
تلقى إلى كل من تلقاه بالسلم(٢)

يهم (الطائف) الفناء ثم ضى
عنها إلى أجل نوا لخطب مكتتم(٣)

وبفتح مكة سقطت دولة الأصنام ، ودانت للإسلام جموع العرب ، إلا قبيلة هوازن التى قال أشرافها : " قد فرغ محمد من قتال قومه فلنغزه قبل أن يغزونا (٤) " ، ولما سمع الرسول ذلك جمع جيشا كبيرا وخرج إليهم ، وقاتلهم قتالا مريرا حتى انتصر عليهم ، وأسر كثيرا منهم ، كما فر بعضهم إلى الطائف فتوجه إليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحاصر أهلها مدة ثم تركهم ورجع داعيا ربه،قائلا : " اللهم اهد ثقيفا ، وائت بهم .. (٥) " .

وإذا تأملت قول البارودى : (سرى إليها بجحر من ململمة ..) وجدته يشير إلى كثرة جيش المسلمين ، كما أن قوله عن هوازن : (حتى استذلت وعادت بعد نخوتها ..) يشير إلى شدة هزيمتها .

غزوة تبوك : (٦)

ولقد أشار البارودى إلى غزوة تبوك بقوله (٧) :

---

(١) ململمة : - بضم ففتح فسكون - الجماعة من الجيش كثيرة العدد . طامى السراة : المراد مرتفع .
(٢) نخوتها : عظمتها ، والمراد تمردها .
(٣) الطائف : بلدة قريبة من مكة ، الفناء : - بفتح الفين وشديد النون - المراد كثيرة الأهل والأعناب والفواكه وغيرها .
(٤) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٢٢٩
(٥) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٠٣ و (ثقيف) إحدى قبائل العرب .
(٦) تبوك : - بفتح فضم - موضع فى بادية الشام .
(٧) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٢ .

وحين أوفى على وادى تبوك مضى
إليه ساكنها طوعا بلا رغم
فصالحوه وأدوا جزية ورضوا
بحكمه ونهيج الرشد لم يهم
ألفى بها عين ماء لا تبض فسد
دعا لها انفجرت من سائغ شبم[1]
وراود الغيث فانهلت بوادره
بعد الجمود بمنهل ومنسجم
وأم طيبة مسرورا بعودته
يطوى المنازل بالوخادة الرسم

بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الروم جمعت الجموع تريد غزو بلاده ، فجهز جيشا كبيرا ، وخرج إليهم ، ولما وصل إلى تبوك لم يجد جيشا كما سمع ، فأقام هناك أياما فجاءه صاحب (أيلة) وأهل (جرباء) وأهل (أذرح)[2] وغيرهم ، فصالحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على إعطاء الجزية[3] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وحين أوفى على وادى تبوك ..) وجدته يشير إلى أن أهل هذه البلاد قد أتوا رسول الله (طوعا بلا رغم) ولم يبدوا حربا ، بل : (أدوا الجزية ورضوا بحكمه) .

وأحسن الشاعر فى قوله : (نهج الرشد لم يهم) لأنه حكمة صادقة تحث على التفكير السديد ، وتبين عاقبة العقل الرشيد .

ولقد أشار البارودى إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة ، من أن الناس — فى تلك الغزوة — قد أصبحوا ولا ماء معهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فدعا الرسول ربه فأرسل الله (سبحانه وتعالى) سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء[4] .

---

(١) لا تبض : لا تسيل . (٢) (أيلة وجرباء وأذرح) أسماء قرى قريبة من تبوك .
(٣) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٢٤٨
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٥ .

ولما عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة ، لم يلبث إلا قليلا حتى توالت الوفود عليه ، وهذا ما أشار إليه الشاعر في قوله[1] :

ثم استهلت وفود الناس قاطبة
إلى حماه فلاقت وافر الكرم
فكان عام وفود كلما انصرفت
عصابة أقبلت أخرى على قدم

توافدت الوفود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان من بينهم : وفد بني كلاب ووفد بني سعد بن بكر ، ووفد بني ثعلبة ووفد بني فزارة وغيرهم[2] .

ثم أشار البارودي إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أرسل رسلا من قِبَله لبعض الملوك في قوله[3] :

وأرسل الرسل تترى للملوك بما
فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم

ولقد كان رد هؤلاء الملوك مختلفا ، فمنهم من رد ردا حسنا ، مثل : المقوقس ملك مصر ، والنجاشي ملك الحبشة ، ومنهم من رد ردا سيئا ، مثل : كسرى ملك الفرس وغيره[4] .

بقية السرايا :

وأشار البارودي إلى كثير من سرايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله[5] :

---

(1) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٢ .
(2) انظر طبقات ابن سعد جـ ١ ق٢ ص٣٨ وما بعدها .
(3) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٢ .
(4) طبقات ابن سعد جـ١ ق ٢ ص١٥ وما بعدها .
(5) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٢ .

وأم (غالب) أكناف (الكديد) إلى
(بني الملوح) فاستولى على النعم[1]
وحين خانت (جذام) فل شوكتهـا
(زيد) بجمع لرهط الشرك مقتسم[2]
وسار منتحيا (وادي القرى) فمحا
(بني فزارة) أصل اللوم والقزم[3]
وأم خيبر (عبد الله) في نفـر
إلى (اليسير) فأرداه بلا أمم[4]
يمم (ابن أنيس) عرض (نخلة) إذ
طغى (ابن ثور) فأصماه ولم يخم[5]

لقد اتجه غالب بن عبد الله إلى بني الملوح بالكديد ، فاستولى على بعض إبلهم ، كما اتجه زيد بن حارثة إلى جذام ، ثم إلى وادي القـرى حيث قاتل بني فزارة ، وسار عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله ، ثم قصد عبد الله بن أنيس إلى نخلة حيث قتـل أبا سفيان بن خالد الهذلي لأنه كان يريد محاربة رسول الله .

ثم أشار البارودي إلى بعض السرايا الأخرى بقوله[6] :

ثم استقل (ابن حصن) فاحتوت يده
على (بني المنبر) الطرار والشجم[7]

---

(١) غالب : هو غالب بن عبد الله الليثي صحابي جليل توفي سنة ٨ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ ٤ ص٣٣٦) . الكديد : بفتح الكاف وكسر الدال - اسم ماء بالقرب من عسفان .
(٢) جذام : قبيلة عربية كانت بالقرب من وادي القرى .
(٣) بنو فزارة : قبيلة عربية كانت بوادي القرى .
(٤) عبد الله : هو عبد الله بن رواحة - اليسير بن رزام اليهودي كان يجمع جيشا لمحاربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قتل سنة ٦ هـ .
(٥) ابن أنيس هو : عبد الله بن أنيس صحابي جليل - مات سنة ٤ هـ (طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ١ ص٣٦) وابن ثور : هو أبو سفيان بن خالد الهذلي قتـل سنة ٤ هـ .
(٦) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٣ .
(٧) ابن حصن هو : عيينة بن حصن بن بدر ، أسلم بعد الفتح ، ولم تعرف سنة وفاته ، (أسد الغابة جـ ٤ ص٣٣١) . (بني المنبر) : بطن من بني تميم - إحدى =

وسار (عمرو) إلى (ذات السلاسل) في
جمع لهام لجيش الشرك مصطلم[1]

وغزوتان لعبد الله ، واحـــــدة
إلى (رفاعة) والأخرى إلى (إضم)[2]

وسار جمع (ابن عوف) نحو (دومة) كي
يفصل صوة أهل الزور والتهم[3]

وأم بالخيل (سيف البحر) محترساً
(أبو عبيدة) في صابة جشم[4]

وسار (عمرو) إلى (أم القرى) لأبي
سفيان لكن عدته مهلة القسم[5]

وأم (مدين) زيد فاستوت يده
على العدو وساق السبي كالغنم[6]

اتجه عيينة بن حصن إلى بني العنبر ، كما سار عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل بجيش كبير ، وقصد عبد الله بن عتيك خيبر لقتل رفاعة الجشمي لأنه أراد محاربة الرسول ، كما قصد إضم في نفر من المسلمين ، وسار عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ، واتجه أبو عبيدة إلى سيف البحر في جيش كبير ، كما قصد عمرو بن أمية مكة لقتال أبي سفيان ، ولكنه فر منه ، واتجه زيد بن حارثة إلى مدين فقاتل الأعداء ، وسبى كثيراً من نسائهم وأولادهم .

- القبائل العربية ـ الطرار : المختلسون . الشجم : ـ يضمئون ـ الخبثاء .

(١) (عمرو) : هو عمرو بن العاص صحابي جليل توفي سنة ٤٣ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٤٥) ذات السلاسل : اسم موضع من أرض بني عذرة قرب المدينة .

(٢) المراد بقوله : (غزوتان) : سريتان . (وعبد الله) هو : عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي صحابي جليل توفي سنة ١٢ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٠٦) . رفاعة : هو رفاعة بن قيس الجشمي قتل سنة ٦ هـ .

(٣) (ابن عوف) هو عبد الرحمن بن عوف صحابي جليل ، توفي سنة ٣١ هـ (أسد الغابة جـ ٣ ص ٤٨٠) . (٤) أبو عبيدة : أبو عبيدة عامر بن الجراح صحابي جليل توفي سنة ١٨ هـ (أسد الغابة جـ ٣ ص ١٢٨)

(٥) عمرو : هو عمرو بن أمية الضمري صحابي جليل قتل آخر أيام معاوية سنة ٦٠ هـ وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ ٤ ص ١٩٣) (٦) مدين : قرية بالشام .

ثم ذكر البارودي ما بقي من سرايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله [1]:

وقام (سالم) بالعضب الجراز إلى
(أبي عفك) فأرداه ولم يجم [2]

وانقض ليلا (عمير) بالحسام على
(عصماء) حتى سقاها علقم العدم [3]

وسار بعث فلم يخطئ (ثمامة) إذ
رآه فاحتازه غنما ولم يلم [4]

ذاك الهمام الذي لبى بمكة إذ
أتى بها محلنا في الأشهر الحرم

وبعث (علقمة) استقرى العدو ضحى
فلم يجد في خلال الحي من أرم [5]

ورد كرز إلى العذراء من غدروا
(يسار) حتى لقوا برحا من الشجم [6]

وسار بعث ابن زيد للشآم فلم
يلبث أن انقض كالبازي على الرخم [7]

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٣ .

(٢) سالم هو سالم بن عمير صحابي جليل ، توفي في خلافة معاوية (أسد الغابة جـ ٤ ص ٣١١) . (أبو عفك) هو أبو عفك — ويقال أبو عفك — أحد المنافقين .

(٣) عمير هو عمير بن عدي الخطمي صحابي جليل (لم تعرف سنة وفاته) . (أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٨٥) وعصماء هي : عصماء بنت مروان كانت قد نالت فقتلت سنة ٢ هـ .

(٤) ثمامة هو : ثمامة بن أثال الحنفي أسلم وحسن إسلامه ، توفي سنة ١٢ هـ . (المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٥)

(٥) علقمة هو : علقمة بن مجزز ، صحابي جليل قتل في عهد عمر بالحبشة (المرجع السابق جـ ٤ ص ٨٧) .

(٦) كرز هو كرز بن جابر صحابي جليل قتل سنة ٨ هـ ، وقيل غير ذلك (المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٦٨) العذراء : المراد بها المدينة . يسار : عبد كان يرعى لقاح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقتله بعض البجليين وأخذوا اللقاح وهربوا (سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩١) .

(٧) ابن زيد هو : أسامة بن زيد بن حارثة صحابي جليل توفي في آخر أيام معاوية سنة ٥٨ هـ وقيل : غير ذلك (أسد الغابة جـ ١ ص ٧٩ وما بعدها) .

لقد خرج سالم بن عمير على رأس سرية لقتل أبى عفيك عندما ظهر نفاقه[1]، كما انقض عمير بن عدى على عصماء بنت مروان فقتلها لأنها نافقت أيضا[2]، وأسر ثمامة الحنفى، ولكنه أسلم ... وذهب إلى مكة معتمرا — بعد إسلامه — وكان يلبى قبل دخوله مكة وأخذ يلبى بعد دخولها أيضا حتى أخذته قريش لتضرب عنقه ، ولكن قائلا منهم قال : دعوه لأنكم تحتاجون إلى اليمامة فى طعامكم فخلوه ، فقال الحنفى بعد ذلك :

ومنا الذى لبى بمكة معلنا
برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم[3]

ولعل البارودى تأثر فى قوله هذا :

ذاك الهمام الذى بمكة إذ ... أتى بها معلنا فى الأشهر الحرم

بما قاله هو عن نفسه ، فى البيت السابق .

كما أرسل الرسول علقمة بن مجزز فى سرية إلى الحبشة ولكنه لم يلق كيدا لمرجع[4]، وخرج كرز بن جابر على رأس سرية استطاعت أن ترد هؤلاء الذين قتلوا (يسارا) إلى المدينة، حيث قتلوا جميعا[5]، وأرسل الرسول أسامة بن زيد على رأس سرية إلى الشام[6].

ثم أشار البارودى إلى سبب نظمه تلك الغزوات والسرايا بقوله[7] :

فهذه الغزوات الغر شاملة
جمع البعوث كدر لاح فى نظم

نظمتها راجيا نيل الشفاعة من
خير البرايا ومولى العرب والعجم

---

(1) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٨٤ .
(2) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٧ .
(3) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٨ .
(4) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٨٩ .
(5) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩٠ .
(6) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩١ .
(7) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٣ وما بعدها .

هـو النبي الذى لولاه ما قبلـت
وجـاة آدم لما زل فـي القـدم

إن الشاعر قد نظم غزوات الرسول وسراياه راجيا نيل شفاعته التي لولا مقام صاحبها عند الله ما قبل توبة آدم عليه السلام ، ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى ما ورد في بعض كتب السيرة من أن الله قد غفر لآدم عندما توسـل إليه بالرسول (صلى الله عليه وسلم).[1]

<u>البارودى ورؤيـاه رسول اللـه :</u> [2]

حسبى بطلعته الغـراء مفخـرة
لما التقيت به فى عالم الحلـم
وقـد حبانى عصاه فاعتصمت بهـا
فى كل هول فلـم أفـزع ولم أهـم
فهى التى كان يحبو مثلها كرمـا
لمن يود وحسبى نعمـة بهـم
لـم أخش من بعدها ما كنت أحذره
وكيـف وهى التى تنجى من الغمم
كفى بها نعمة تعلو بمفخرتهـا
نفسـى وإن كنت سلوا من القيـم

يشير الشاعر - مفتخرا - إلى أنه رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فـى المنام ، وقـد أهدى إليه عصاه التى كان يهدى مثلها إلى من يحبه ، ولقـد أدخلت تلك الرؤيا السرور على قلب الشاعر ، وجعلته يتمسك بالعصا الكريمة - تمسكا معنويا - ، التى جعلته يثبت أمام الشدائد ، غير خائف منها .

ولعل فى قول الشاعر : (حسبى بطلعته الغراء مفخرة) ما يشير إلـى مقدار ما أدخلته هذه الرؤيا من سرور على نفس الشاعر ، وحق له ذلك ، إذ رؤيا

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٣ وما بعدها .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٤ .

الرسول شرف كبير ولا تتأتى إلا لمن هام قلبه بحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) حبا صادقا ، ولعل مما زاد فرح الشاعر تلك العصا التى أهداها الرسول إليه ، وتمست بها الشاعر فأصبح (لا يفزع ولا يهم) ويؤكد قيمة تلك العصا هذا المجاز المقلى فى قول الشاعر : (وهى التى تنجى من الغمم) ، بل إن الشاعر ليعدها نعمة عظيمة : (كفى بها نعمة تعلو بقبضتها نفس).

والشاعر يلمح بقوله : (فهى التى كان يحبو مثلها كرما) إلى بعض الصحابة الذين أعطاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) عصاه مثل : عبد الله ابن أنيس ، الذى ذكرت بعض كتب السيرة أن الرسول أعطاه عصاه ، وقال له : تخصر بهذه فى الجنة..[1] فى رواية " أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : لِمَ أعطيتنى هذه العصا ؟ فقال له : آية بينى وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصرون — الذين يتكئون على العِصِىّ — يومئذ ، ... فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى مات ، ثم أمر بها فضمت فى كفنه ثم دفنا جميعا [2].

ويبدو أن البايودى أشار بقوله : (... وإن كنت سليبا من القيم) إلى أنه فى ذلك الوقت — وقت الرؤيا — كان سليب الحرية بنفيه من بلده بعيدا عن أهله وأحبابه ، ومع ذلك فقد فرح برؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأنها أصبحت خير سلوى لنفسه التى تحدث عنها بقوله [3] :

وما أبرئ نفسى وهى آمرة
بالسوء ما لم تعقها خيفة الندم
فياندامة نفسى فى المعاد إذا
تعوذ المرء خوف النطق بالبكم

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ١ ص ٣٦.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٦٨.

(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٤.

يوضح الشاعر أنه لايبرئ نفسه مما اقترفته ، لأنها يطبعها آمرة بالسوء ، ما لم ينصحها عنه خوف الندم يوم القيامة ، ثم تعجب الشاعر من هول الندم في ذلك اليوم ، وخاصة عندما يؤثر الإنسان عدم الاعتراف بالذنوب ، خشية إعلان فضائحه وآثامه التي اكتسبها .

ولا يخفى أن الشاعر مقتبس من القرآن الكريم قوله : (وما أبرئ نفسي ..) كما أنه تأثر في حديثه عن النفس بالبوصيري - كما سبق - ولكنه تصرف في هذا الحديث تصرفا حسنا - كما سيأتي -

ولعل قول البارودي :(فياندامة نفسي في المعاد ..) يشعر بعظيم خوفه من ذنوبه ، إلا أنه ذكر أن أمله في عفو الله كبير ، وذلك في قوله(١):

لكنني واثق بالعفو من ملك
يعفو برحمته عن كل مجترم
وسوف أبلغ آمالي وإن عظمت
جرائمي يوم ألقى صاحب العلم
هو الذي ينعش المكروب إذا علقت
به الرزايا ويغني كل ذي عدم
هيهات يخذل مولاه وشاعره
في الحشر ، وهو كريم النفس والشيم
فمدحه رأس مالي يوم مفتقري
وحبه عز نفسي عند مهتضمي
وهبت نفسي له حبا وتكرمة
فهل تراني بلغت السول من سلمي

إذا كان من شأن الإنسان الخطأ ، فإن من واجبه أن يتوب إلى الله وأن لا ييأس من رحمة الله، ولذلك نجد البارودي قد اتهم نفسه بسوء الفعل ، وعظيم الجرم ، ولكنه هنا قد ندم على تفريطه ، ثم أكد ثقته في عفو الله ،

---

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٤ .

فى رحمته الواسعة ، بل زاد تأكيده بأنه سوف يبلغ كل آماله — مهما عظمت جرائمه — يوم يلقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ به تفك الكروب ، وتحل المشاكل ، ويأتى الفنى — فى الدنيا — وهيهات أن يخذل شاعره فى الآخرة بعدما كان سببا فى نصره فى الدنيا .

إن أمل الشاعر فى عفو الله كبير ، ويشير إلى ذلك أنه : (عفو من مليك بعفو برحمته) ، فما دام صاحب العفو ملكا ، وصاحب الذنب عبدا ، وقد أقـــر العبد بذنبه لمولاه ، وتوسل إليه بحبيبه ومصطفاه — صاحب العلم — فهيهات أن يخذل الرب عبده ، وهيهات أن ينسى الحبيب شاعره .

ولعل آمال الشاعر التى يتطلع إليها هى التى وضحها فى قوله : (هو الذى ينعش المكروب ..) وتتلخص فى فك الكرب وحل المشاكل ، ولا شـــك فى أنها آمال دنيوية ، دفع الشاعر إليها : غربته فى منفاه ، إذ كان هـــذا النفى شديدا على نفسه ، ولذلك كان كثير الإشارة إليه ، دائم الشكوى منه .

ومما يؤكـــد ذلك أنه أتى بقوله : (هيهات يخذل مولاه وشاعره فى الحشر ..) وعدا فى الآخرة ، ثم عاد فيبين أن مدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) هـــو رأس ماله يوم مفتقره ، كما أن حبه عز نفسه عند ظلمه وذله ، والظلم لا يكون إلا فى الدنيا ، ولعل هذا يرجح أن اليوم الذى تمنى فيه لقاء (صاحـــب العلم) هو اليوم الذى يستطيع فيه زيارة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، بعـــد حج بيت الله الحرام ، ويؤكد ذلك أنه كان شديد الاشتياق إلى حج بيت الله ، كما سيأتى الحديث عند قوله : (فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بها ..) .

ويبلغ حب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبلغا كبيرا ، فيهب نفسه له ، ثم يتساءل بعد ذلك : (هل ترانى بلغت السؤل من سلمى) ويبـــــدو أنه لم يسلم من الأذى ، ولم يبلغ سؤله من السلم ، لأنه قال [1] :

---

(1) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٤ وما بعدها

إنى وإن مال بى دهرى وموج بــــــــ
ضهم أشاط على جمر النوى أدمـــــى
لثابت العهد لم يحلل قوى أملــــــــ
يأس ، ولم تخط بى فى سلوة قدمـــى
لم يترك الدهر لى ما أستعين بــــه
على التجمل إلا ساعدى وفمـــــــى
هذا يحبر مدحى فى الرسول وذا
يتلو على الناس ما أوحيه من كلمى

يبين البارودى — فى هذه الأبيات — مدى ما ألمت به الخطــوب ، ووقع عليه الظلم إذ جرد من رتبه ، وأخذ ماله ، ونفى من وطنه ، وأصبح غريبــا عن أهله وأصحابه ، ومع كل هذا لم تخط قدمه نحو اليأس خطوة ، ولـــم يتسرب الوهن إلى نفسه لحظة ، على الرغم من أن الدهر ما زال يلاحــقه بالمصائب ، ولم يترك له ما يساعده على الصبر إلا يده وفمه ، فأما يـــده: فيحبر بها مدحه فى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأما فمه: فهو الذى يسمع الناس هذا المديح .

ولعل الشاعر يشير بقوله : (لم يترك الدهر ما أستعين به ..) إلـــى ما أصابه فى المنفــى من مرض نحل جسمه ، وأضعف بصره ، بالإضافة إلـــى وفاة زوجته وبعض أولاده ، ولفيف من أصحابه ، إذ كانت تبلغه أنباء وفاتهم — وهو بعيد عنهم — فلم يملك إلا أن يبكيهم فى قصائده بكاء حارا .

ويلاحظ أن الشاعر كثيرا ما ينسب وقوع ما ألم به إلى الدهر مثل : (مــال بى دهرى — لم يترك الدهر ..) مما يوهم بسخطه ، إلا أنه فى مقدمـــــة ديوانه قال : " .. وقد يقف الناظر فى ديوانى هذا على أبيات قلتها فـــى شكوى الزمان ، فيظن بى سوءا من غير روية يجيلها ، ولا عذرة يستبينهــــا ، فإنى إن ذكرت الدهر ، فإنما أقصد به العالم الأرضى لكونه فيه ، من قبيل ذكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه ، كقوله تعالى : " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ..)[1] أى — أهل القرية) فهو كما ترى يعبر بطريق المجاز .

(١) يوسف / ٨٢ .

ولما ذكر الشاعر أن بدء تحبير مدائحه فى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفمه بنشـر ذلك المديح ، خاطب الرسول بقوله [1] :

ياسيد الكونين عفوا إن أثمت فلى
بحبكم صلة تغنى عن الرحم
كفى بسلمان لى فخرا إذا انتسبت
نفسى لكم مثله فى زمرة الحشم [2]
وحسن ظنى بكم إن مت يكلؤنى
من هول ما أتقى فى ظلمة الرجم
تالله ما عاقنى عن حبكم شجن
لكننى موثق فى ربقة السلم
فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بها
ذريعة أبتغيها قبل مخترمى

يتمنى الشاعر أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سببا فى عفو الله عنه إذا أثم ، لأنه يحبه حبا قويا ، تفوق قوته صلة الرحم ، مثلما انتسب سلمان إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبيته وهو لا يمت لآل البيت بصلة النسب ، ثم يتمنى الشاعر أن يكون فى زمرة خدم الرسول ، ويبين أنه لم يمنعه من زيارته حزن ، ولكنه مقيد الحرية ، مسلوب الإرادة ، ويتشوق إلى زيارة المصطفى (عليه الصلاة والسلام) وحج بيت الله الحرام ، لعل ثواب ذلك ينفعه فى الآخرة .

ولا يخفى أن الشاعر قد تأثر بمن سبقه فى وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه (سيد الكونين [3]) ، كما أنه يلمح بقوله : (كفى بسلمان لى فخرا ..) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " سلمان منا أهل البيت [4] ومعلوم أن سلمان (رضى الله عنه) كان يخدم الرسول ، وكان الرسول يحبه

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٦ ٥٤ .
(٢) سلمان : هو سلمان الفارسى أبو عبد الله أسلم وحسن إسلامه ، واشترك فى بعض الغزوات مع الرسول ، توفى سنة ٣٥ هـ وقيل : غير ذلك (أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧) .
(٣) انظر ص ١٢ من هذه الرسالة . (٤) أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧ .

على الرغم من أنه كان فارسى الأصل ، ولما كان البارودى فارسى الأصل أيضا ، افتخر بخدمة سلمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتمنى أن يكون خادما للرسول مثله ، لعله يحظى بحب رسول الله ، وينال شفاعته.

ولقد عانى الشاعر عدة نفسه ، فظل يشكو غربته ولذلك يقول[1] :

شكوت بثى إلى ربى لينصفنى
من كل باغ عتيد الجور أو هكم[2]
وكيف أرهب حيفا وهو منتقم
يهابه كل جبار ومنتقم
لا غرو إن نلت ما أملت منه فقد
أنزلت معظم آمالى بذى كرم

يخبر البارودى أنه شكا حزنه إلى ربه لينصفه من كل ظالم ، أو شرير ثم يتساءل متعجبا ، كيف يرهب ظلم الناس مع أن الله منتقم ، يخاف منه كل جبار مهما كان شأنه ، فلا عجب إن نلت ما أملته منه جل جلاله، إذ وكلت كل أمورى إلى عظيم كريم.

ولا يخفى أن الشاعر نظر فى قوله : (شكوت بثى إلى ربى) إلى قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ..[3]) ، وألفاظه مناسبة للفكرة غير أن لفظ (لا غرو) غير شعرى وإن كان عربيا ، ولا أدرى لماذا أنزل (معظم آماله) ولم ينزلها كلها ، وخاصة أنه أنزلها (بذى كرم) ولعله أراد آماله العظيمة فقدم الصفة على الموصوف مبالغة .

ولا يفتأ الشاعر يرجو مغفرة ذنوبه ، وقبول توبته ، ولذلك يقول[4] :

يا مالك الملك هب لى منك مغفرة
تمحو ذنوبى غداة الخوف والندم

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٥.

(٢) هكم : شرير . (٣) يوسف ٨٦ . (٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٥ .

وامنن عليّ بلطف منك يعصمني
زيغ النفس يوم أخذ الموت بالكظم(١)
لم أدع غيرك فيما نابني فقني
شر العواقب واحفظني من التهم
حاشا لراجيك أن يخشى العثار وما
بعد الرجاء سوى التوفيق للسلم
وكيف أخشى ضلالا بعدما سلكت
نفسي ـ بنور الهدى ـ في مسلك قيم

يتضرع الشاعر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ طالبا مغفرته الواسعة يوم القيامة ، كما يرجونه ـ جل وعلا ـ أن يمن عليه في الدنيا بلطف منه يعصمه من زيغ القلب عند خروج الروح . ثم يؤكد أنه لم يلجأ لأحد غير الله فيما نابه من بلاء ، لانه هو الذي بيده الضروالنفع ، ثم ينزه الله تعالى عن أن يخيب رجاء من رجاه ، ثم يتساءل متعجبا كيف يخشى الضلال بعدما سلكت نفسه ، واطمأن إلى الدين الإسلامي ـ وسار في طريق الاستقامة ببركة نور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهدايته التي حمل مشعلها .

والأبيات ـ في عمومها ـ تؤكد خشوع الشاعر وخضوعه لله سبحانه وتعالى ، لأنه مالك الملك ، بيده مقاليد الأمور ، وهو الذي يعفو ويغفر ، ولذلك فهو أحق بالدعاء وجدير بالرجاء ـ ولا شك في أن هذا يلقي ضوءا على مدى فهم الشاعر لأمور دينه ، ومعرفته صفات الله .

ثم اتجه البارودي إلى بيان حبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله(٢) :

ولي بحب رسول الله منزلة ∴ أرجو بها الصفح يوم الدين عن جرمي
لا أدعي عصمة لكن يدي علقت ∴ بسيد من يرد موعاته يعصم
خدمته بمديحي فاعتلوت على ∴ هام السماك ، وصار المعدمن خدمي

---

(١) يعصمني : المراد يقيني ولعل الشاعر ضمن الفعل (يعصم) معنى (يقي) فلم يذكر حرف الجر ـ الكظم : مخرج النفس والمراد خروج الروح .

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٦ .

وكيف أرهب ضيما بعد خدمته
وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي
باسم له في سماء العرش محترم

يبين الشاعر أنه نال منزلة عالية بحبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويرجو ـ بسبب هذه المنزلة ـ أن يعفو الله عن ذنوبه ، لأنه ليس معصوما من الخطأ ، ولا يحق له أن يدعي العصمة ، وأمله كبير في عفو الله ، وفي شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد ادعى الشاعر أنه خدم رسول الله عندما مدحه ، وهو في هذا قد وقع فيما وقع فيه البوصيري عندما قال : (خدمته بمديح أستقيل به .. [1]) ، والواقع أن من يمدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يخدمه وإنما خدم نفسه بما يناله من الثواب في الآخرة ، وعلو المكانة في الدنيا ، ولعل البارودي أشار إلى بعض ذلك بقوله : (.. فاعتلوت على هام السماك ، وصار السعد من خدمي) فهو لم يرتفع ارتفاع السماك بل ارتفع على هامه ، وفي هذا التعبير تشخيص يوحي بعلو المنزلة ، ورفعة المكانة .

وإذا كان هذا شأن البارودي عندما مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحق له أن يتساءل متعجبا : كيف يرهب الظلم بعد خدمة نبي الله ثم يشير إلى حكمة صادقة ، ويأتي بقول حكيم : (وخادم السادة الأجواد لم يضم) ـ فهو بذلك يدل على أمله الكبير في شفاعة الرسول وكنت أود أن يقول (لا يضم) حتى تشمل المستقبل أيضا لأن (لم) تشير إلى الماضي فقط .

ولقد أشار الشاعر إلى نقطة أخرى لعلها تقربه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي تسميته باسم للرسول (في سماء العرش محترم) وهو (محمود) ، ولعله يلمح بذلك إلى ما ذكرته بعض كتب السيرة من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر نعم الله عليه ثم قال : ((وشق لي اسما من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد .. [2])) .

---

(١) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة . (٢) ابن كثير السيرة النبوية جـ ١ ص ١٩٦ بتحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٤ .

والجدير بالذكر أن حسان بن ثابت أشار إلى ذلك بقوله (١) :

وشق له من اسمه ليجله

فذو العرش محمود وهذا محمد

ومهما يكن من شيء، فإن البارودي يستبعد أن لا يشفع له الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الآخرة بعدما تسمى باسمه ، ولا يخفى أن التوسل إلى الرسول بالتسمية باسمه قد سبق إليه البوصيري في قوله : (فإن لي ذمة منه بتسميتي .. (٢)).

ثم أشار البارودي إلى نفحة من نفحات الرسول قد شملته في الدنيا فقال (٣) :

أبكاني الدهر حتى إذا لجئت به

حنا علي وأبدى ثغر مبتسم

فهو الذي يمنح العافين ما سألوا

فضلا ويشفع يوم الدين في الأمم

نور لمقتبس ، ذخر لملتمس

حرز لمبتئس ، كهف لمعتصم

بث الردى والندى شطرين فانبعثا

فيمن غوى وهدى بالبؤس والنعم

فالكفر من بأسه المشهور في حرب

والدين من عدله المأثور في حرم

لقد توالت المحن على الشاعر ، ولما توسل إلى الله برسوله ، عطف عليه الرسول مبتسما إشارة إلى قرب اليسر ، وهذا يدل على كرمه (صلى الله عليه وسلم) ومما يؤكده أنه (يمنح العافين ما سألوا فضلا ..) في الدنيا ، ويشفع يوم القيامة في الأمم ، ففضله كبير ، ومنزلته عظيمة ، ونوره يهدي من اقتبس منه ، وعطاؤه واسع لمن التمسه ، وقلبه كبير يحنو على البائسين ، كما أنه ملاذ

---

(١) انظر ص ١٣ من هذه الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .
(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

لمن لجأ إليه ، ثم أشار البارودي إلى أن الرسول كريم رقيق القلب ومع ذلك كان شجاعا .

ويؤكد ذلك أنه أعمل سيفه فى رقاب الكفار ، ولا يخفى ما فى قوله (نور لمقتبس ، ذخر لملتمس .. البيت) من موسيقى رائعة ، وتقسيم جميل ، كما لا يخفى أثر اللف والنشر المرتب فى قوله : (بث الردى والندى .. فمن غوى وهدى .. بالبؤس والنعم) أضف إلى ذلك ما بين هذه الألفاظ من طباق دل على العموم والشمول .

ولعل قول الشاعر : (فالكفر من بأسه .. البيت) يؤكد ما سبق من شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعدله ، ومما يزيد الفكرة وضوحا وقوة أن الشاعر جعل (الكفر — نفسه — من بأسه .. فى حرب) كما جعل (الدين — نفسه — من عدله .. فى حرم) ففى التعبير مجاز لا يخفى أثره ، كما بين ألفاظه طباق أكد الفكرة ، وبين شطرى البيت تقسيم جميل ، نشأت عنه موسيقى رائعة.

تقصير الشاعر فى مديحه :

أشار البارودى إلى تقصيره فى مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

هذا ثنائى وإن قصرت فيه فلى
عذر ، وأين السها من كف مستلم
هيهات أبلغ بالأشعار مدحته
وإن سلكت سبيل القالة القدم
ماذا عسى أن يقول المادحون وقد
أثنى عليه بفضل منزل الكلم

وهنا يعترف الشاعر بتقصيره فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا أمر طبيعى ، لأن الشعراء جميعا — ومن بينهم البارودى — لا قبل لهم بالإحاطة بشمائل الرسول (عليه الصلاة والسلام) العظيمة ، وصفاته

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

الحميدة ، وكل شمائله وصفاته عظيمة محمودة .

ولقد برر الشاعر تقصيره بعلو قدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنه، وأكد ذلك بهذا الاستفهام : (وأين السها من كف مستلم) وفيه ـ أيضا ـ تشبيه للتقريب فقط ، ثم يؤكد تقصيره بقوله : (هيهات أبلغ ..) ويذكر أنه سلك طريق من تقدموا فى هذا المضمار ـ فقط ـ ولعل فى هذا اعترافا ضمنيا بتأثر الشاعر فى نظمه تلك القصيدة بالبوصيرى وغيره ممن نظموا فى مدائح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولا يخفى أن فى قوله : (ماذا عسى أن يقول المادحون) تقليلا لكل ما يقوله الشعراء من ثناء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) لو قورن بثناء الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وهذا ما يؤكده قوله : (.. وقد أثنى عليه بفضل منزل الكلم) ولعله يلمح إلى قوله تعالى ، (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1]) وغير ذلك من الآيات التى تدل على فضله الكبير ، ومنزلته العالية .

إهداء القصيدة إلى الرسول :

أهدى الهاروى قصيدته إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله[2] :

فهاكها يارسول الله زاهرة
تهدى إلى النفس ريا الآس والبرم[3]

وسمتها باسمك العالى فألبسها
ثوبا من الفخر لا يبلى على القدم

غريبة فى إسار البين لو أنست
بنظرة منك لا ستغنت عن النسم

لم التزم نظم حبات البديع بها
إذ كان صوغ المعانى الغر ملتزمى

وإنما هى أبيات رجوت بها
نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم[4]

(1) القلم : ٤ . (2) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٤٦ وما بعدها .
(3) الآس : شجر ذو رائحة طيبة . البرم ـ بفتحتين ـ ثمر زكى الرائحة أيضا .
(4) بذة الرمم : المراد الرمم المتفرقة .

تشرفت فيها خيد المدح فانتظمت
لحسن منتثر منها ومنتظم

يقدم البارودى قصيدته إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهى وضاح مشرقة ، تهدى إلى النفس رائحة طيبة ، ومنظرا جميلا ، وخاصة أنها تحمل اسم الرسول (عليه الصلاة والسلام) وكان ذلك سببا فى تمجيدها ورفعة شأنها ، كما كان سببا فى خلودها ، ومع أنها نظمت والشاعر فى المنفى إلا أنها احظيت بنظرة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لاستغنت عن كل أنيس وجليس .

ولعل الشاعر يلمح بقوله : (وسمتها باسمك العالى ..) إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر"[1] ، إذ سماها :كشف الغمة فى مدح (سيد الأمة) كما سبق .

ويبدو أنه أراد بقوله : (لم ألتزم نظم حبات البديع بها ..) أنه لم يجعلها بديعية من قصائد البديعيات التى ضمنت مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الإشارة إلى أنواع البديع[2] ، لأن الشاعر لم يكن هدفه ذلك ، بل كان صوغ المعانى الطيبة كل ما يرنو إليه ، راجيا نيل شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة .

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن تسيبه فى أول القصيدة بقوله[3] :

صدرتها بنسيب شف باطنه
عن عفة لم يشنها قول متهم

لم أتخذه جزافا بل سلكت به
فى القول مسلك أقوام ذوى قدم

تابعت كعبا وحسانا ولى بهما
فى القول أسوة بر غير متهم

---

(١) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ ومابعدها .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٧ .

والشعر معرض ألباب عرج بـــه
ما تقتـــه يـد للآدلبـ والحكم

نعم صدر الشاعر قصيدته بالنسيب ، ولكنه نسيب عف ، بعيد عن كل ما يشين ، كما أنه لم يكن بدعا فى ذلك إذ سلك مسلك السابقين ممن مدحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبدأوا قصائدهم بالنسيب ، وخاصة كعب بن زهير وحسان بن ثابت ، ولا شك فى أن الشعر معرض كبير يضم ما تخطه يد الآداب ، وما تنظمه عقول الشعراء.

ولا يخفى أن فكرة الشاعر واضحة ، وهو يعترف صراحة بمتابعة السابقين وإن كان لم يشر إلى البوصيرى صراحة فقد أشار إليه ضمنا فى قوله (... أقوام ذوى قدم) ، إلا أن الشاعر استخدم ألفاظا ليست شاعرية مثل (جزافا) و (مسلك).

وبعدما بين الشاعر علة الإتيان بالنسيب فى أول القصيدة قال[1] :

فلا يلمنى على التشبيب ذو عنت
فبلبـل الروض مطبوع على النغـم

وليس لى روضة ألهو بزهرتهـــا
فى معرض القول إلا روضة الحـرم

فهـى التى تيمت قلبى وهمت بهـا
وجدا وإن كنت عف النفس لم أهـم

معاهد نقشت فى وجنتى لهـــا
أيدى الهوى أسطرا من عبرتى بـدم[2]

يطلب الشاعر أن لا يلومه أحد على بدء قصيدته بالنسيب ، فقد وضح علة ذلك ، كما يذكر أنه لا حيلة له فى ذلك الأمر ، إذ الشاعر كبلبل الروض لابد أن يقف على كل شجرة ، ويتغنى على كل زهرة ، ثم بين أنه لم تكن لـه روضة إلا روضة الحرم ، تلك الروضة الشريفة التى تيمت قلبه ، فهام بها ، وأحبها

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧.
(٢) معاهد: جمع معهد وهو المنزل الذى لا يزال القوم إذا بعدوا عنه رجعوا إليه ، والمراد به هنا الأماكن المقدسة عند المسلمين.

حيا ضيفهما لأنهما أهل لعظيمة ، وكم بكى شوقا إليهما .

ويبدو أن الشاعر كان لديه إحساس بأن نسيبه سيكون موضع مناقشة — كما سيأتى — ولذلك عمد إلى بيان دوافع الإتيان به ، ولا يخفى أن قوله (بلبل الروض مطبوع على النغم) يشير إلى شاعريته وتشبيه نفسه بالبلبل الصداح ، ولكنى لا أوافقه على قوله : (ليس لى روضة ألهو بزهرتها) إذ أن روضة الحرم تنزه عن اللهو وخاصة من المسلمين — ولو قال الشاعر : (ليس لى روضة أشدو بنضرتها) مثلا لكان أفضل .

ولقد أحسن الشاعر فى قوله : (وإن كنت عف النفس لم أهم) بعد قوله : (فهى التى تيمت قلبى وهمت بها وجدا) فهو بمثابة الاحتراس اللطيف الذى يؤكد نزاهة الشاعر ، وعفة نفسه .

ولا يخفى أن فى إسناده النقش إلى أيدى الهوى استعارة مكنية توحى بشدة حبه تلك الأماكن الحبيبة إلى قلب كل مؤمن ، مهما تفاوت هذا الحب ، والتى يتطلع إلى زيارتها كل مسلم ، ومنهم الشاعر الذى قال [1] :

يا حادى العيس إن بلغتنى أملى
من قصده فاقترح ما شئت واحتكم

سر بالمطايا ولا ترفق فليس فتى
أولى بهذا السرى من سائق حطم

ولا تخف ضلة وانظر فسوف ترى
نورا يريك مدب الذر فى الأكم [2]

وكيف يخشى ضلالا من يؤم حمى
(مُحَمّدٍ) وهو مشكاة على علم

هذى مناى وحسبى أن أفوز بها
بنعمة الله قبل الشيب والهرم

يجرد الشاعر من نفسه سائقا للإبل ويخاطبه واعدا إياه أن يعطيه ما يشاء ، إذا بلغه أمله من الوصول إلى تلك الأماكن الطاهرة ، ثم يطلب

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٧ ومابعدها .
(٢) الذر : — بتشديد الذال مفتوحة — صغار النمل .

منه السير بسرعة إلى تلك الأماكن دون رفق أو بطء ، لأن هذا سفر عظيم إلى أماكن عظيمة ، وذلك يتطلب سائقا لا يخشى أن يضل الطريق ، وكيف يضل الطريق وأمامه نور عظيم يستطيع أن يرى بواسطته أدق الأشياء ، إنه نور النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) الذى سوف يحظى بزيارته ، وهذه هى أمنيته التى يود الفوز بها — بفضل الله — قبل أن يحلل بينه وبينها بسبب الشيخوخة .

والملاحظ أن الشاعر يسلك مسلك الشعراء السابقين ، فى مخاطبته حادى العيس ، ولقد سبقه البوصيرى فى ذلك عندما قال : (وأطرب العيس حادى العيس ... (١)) وكان يمكنه أن يخاطب قبطان سفينة ، أو قائد طائرة ، مثلا ولكنه أراد متابعة السابقين كما صرح قبل ذلك .

ومهما يكن من شيء فإن الشاعر يحب تلك الأماكن الطاهرة حبا كبيرا ، يدل على ذلك أنها أمله : (إن يلفتنى آملى) كما أنه يأمر الحادى بسرعة السير على أن يعطيه كل ما يحبه .

ولا يخفى أن فى قوله : (.. نور أبريك مدب الذر فى الاكم) إشارة لطيفة إلى عظم نور النبى (عليه الصلاة والسلام) ثم يؤكد ذلك بهذا الاستفهام التعجبى الذى يثير البهجة ، ويقوى العزيمة : (وكيف يخشى ضلالا من يوم حمى .. محمد ..) .

إن أمل الشاعر فى الله تعالى كبير ، ولذلك يقول : (٢)

ومن يكن راجيا مولاه نال به
ما لم ينله بفضل الجد والهمم
فاسجد له واقترب تبلغ بطاعته
ما شئت فى الدهر من جاه ومن عظم

---

(١) انظر ص ٤١٢ من هذه الرسالة .

(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٨ .

هو المليك الذى ذلت لعزته
أهل المصانع من عاد ومن إرم (١)
يحيى البرايا إذا حان المعاد كما
يحيى النبات بشؤبوب من الديم

يبين البارودى أن ما يتمناه ممكن الحصول، لأن الله قادر على كل شىء ، وهو لم يرج سواه ، ومن رجا مولاه نال ما تمناه بفضل الله لا بفضل الجد والهمم ، والشاعر بذلك لا يقلل من قيمة الجد والهمم العالية، وإنما يريد أن يبين أن الجد سبب من الأسباب التى تحقق المطلوب ، إذا أراد الله حصوله، وإلا فلا ، فالمعول كله على الله ، ولذلك أمر بالسجود له ، والاقتراب منه ، بالطاعة التى هى أساس النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة (فاسجد له واقترب تبلغ بطاعته .. ماشئت ..)، ثم يبين الشاعر أن قدرة الله فوق كل قدرة ، وهى التى ذلت لعظمتها أقوى الأمم والقبائل : (هو المليك الذى ذلت لعزته ..).

ولا يخفى ما فى البيت الأول من عبارة صادقة تحث على إفراد الله تعالى بالرجاء والدعاء ، كما لا يخفى اقتباس الشاعر قوله : (فاسجد له واقترب ....) من قوله تعالى : (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (٢)) وفى ذلك دليل على الطريق الصحيح الموصل إلى رضا الله سبحانه وتعالى .

ولعل فى قوله : (أهل المصانع) تلميحا إلى قوله تعالى عن قوم هود (عليه السلام) : " وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (٣) " ومما يقوى ذلك أنه ذكر بعد : (أهل المصانع) عاد وإرم ، وفى ذكر ذلك إشارة إلى أنه نظر إلى البوصيرى ، الذى أشار إليهم من قبله ، فى قوله عن آيات القرآن الكريم : (وهى تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم (٤)).

---

(١) المصانع جمع مصنع ، والمراد به القصر.
(٢) العلق / ١٩.
(٣) الشعراء / ١٢٩
(٤) انظر ص ١٦٠ من هذه الرسالة .

وفى البيت الاخير إشارة لطيفة إلى أن إحياء الله الموتى أمر ممكن ، وشبهه بإحياء النبات إذا نزل عليه الماء ، وهذا أمر شاهد محسوس ، فالشاعر شبه حالة بحالة ، ووضح المعنوى وأكده ، بالمحسوس المشاهد .

ولما كان يوم القيامة يوما شديد الهول ، عظيم الوقع ، لجأ الشاعر إلى ربه قائلا (١) :

ياغافر الذنب والالباب حائرة
فى الحشر والنار ترمى الخوف بالضرم
حاشا لفضلك وهو المستعاذ به
أن لا تمن على ذى خلة عدم
إنى لستشفع بالمصطفى وكفى
به شفيعا لدى الاهوال والقحم
فاقبل رجائى فما لى من ألوذ به
سواك فى كل ما أخشاه من فقم (٢)

يتضرع الشاعر إلى الله تعالى ، طالبا غفران ذنبه لانه (غافر الذنب) وحاشا لفضله أن لا يمن على ذى عيوب ، فيسترها ، وأن لا يتفضل على ذى كروب فيفرجها ، كما توسل بالنبى (صلى الله عليه وسلم) راجيا شفاعته .

ولعل الشاعر يشير بقوله : (والالباب حائرة فى الحشر والنار ..) إلى موقف الناس يوم القيامة ، يعمهم الذهول ، ويغشاهم الكرب من شدة الزحام ، وقرب الشمس من الرؤوس ، وغزارة العرق ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : " وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى .. الآية (٣) " وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق .. (٤) " .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الامة ص ٤٨ .
(٢) فقم : بضم ففتح - أصله بضم فسكون - اللحى والمراد ذنبه .
(٣) الحج : ٢ .
(٤) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٧١٥ .

ولا يخفى أن الشاعر يشير إلى شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة عندما يقول كل نبي: نفسي نفسي ، ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنا لها ، أنا لها . كما سبق [1].

ولقد ألح الشاعر في غفران ذنوبه، ثم عاد يؤكد ذلك بقوله : (فاقبل رجائي ..) وإن كان قوله : (فما لي من ألوذ به سواك ..) مأخوذا من قول البوصيري (يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به سواك .. [2]) إلا أن البوصيري يخاطب به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والماوردي يناجي به ربه (سبحانه وتعالى) .

ثم انتقل الشاعر إلى ختام قصيدته بقوله [3]:

وَصَلِّ رَبِّ على المختار ما طلعت
شمس النهار ولاحت أنجم الظلم
والآل والصحب والأنصار من تبعوا
هداه واعترفوا بالعهد والذمم
والمنن على عبدك الجاني بمغفرة
تمحو خطاياه في بدء ومختتم

لقد ختم الشاعر قصيدته كما ختمها سابقوه ، بالصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة دائمة بدوام طلوع الشمس في النهار، وظهور النجوم في الليل ، كما طلب الصلاة على الآل والصحب والأنصار .

ولا يخفى ما في ذكره لفظ النهار بعد لفظ الشمس، وذكره لفظ الظلام بعد أنجم، من إطناب محبوب في المديح ، كما أن ذكره لفظ الأنصار بعد لفظ الصحب من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، ولعله أراد مكافأة الأنصار

(١) انظر ص ١٢١ من الرسالة .
(٢) المرجع السابق ٢٠٨.
(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٤٨.

على ما قدموه للإسلام والمسلمين في بدء الدعوة من نصرة فذكرهم مرتين ، إلا أن ذكره (الذمم) بعد (العهد) حشو ، ويبدو أنه ذكره للقافية .

ومهما يكن من شيء فقد ختم الشاعر قصيدته بتواضع لله تبارك وتعالى عندما طلب منه مغفرة تمحو ذنوبه ، ولكنه آثر أن يعبر بما يدل على خضوعه وخشوعه لله فقال : (عبدك العاني) ليكون ذلك مبررا لقبول الدعاء وتلبية الرجاء ، وبخاصة أنه أضاف لفظ (عبد) إلى الضمير العائد على الله جل جلاله ، وفي ذلك تشريف أي تشريف ، ثم أتى بما يدل على حسن الختام بقوله : (في بدء ومختتم) ، وهذا ما يعرف عند علماء البلاغة بحسن الختام، وهو لون لطيف من المحسنات البديعية .

وعندما انتهيت من دراسة (كشف الغمة) وتحليلها ، رأيت إتماما للفائدة أن أشير إلى أثرها ، وهذا ما سنراه في الفصل الآتي إن شاء الله .



الفصل الثالث

أثر معارضة البارودى

لعلى بعد عرض قصيدة البارودى- كشف الغمة فى مدح سيد الأمة- دراسة وتحليلا ، أكون أول من كشف اللثام عنها ، ومما يقوى ذلك قول بعض الكتاب : " إنها - كشف الغمة - إحدى غرر البارودى ، وهى على أهميتها ما تزال مجهولة من كثير من أدبائنا ونقادنا المعاصرين ، على كثرة ما تناولوا من دراسات فى أدب البارودى[1].

ومما لا شك فيه أن تلك القصيدة معارضة من معارضات بردة البوصيرى فى العصر الحديث،إذ نسجت على وزنها ، ورويها ، وغرضها . ولا يقدح فى عدها معارضة للبردة أنها زادت عليها فى بعض الأفكار ، أو أخذت طابعا غير طابع البردة من ناحية ترتيب أفكارها ، تبعا لسيرة ابن هشام ، كما صرح الشاعر بذلك فى مقدمتها ، إذ لم يشترط أحد من النقاد فى المعارضة ألا تزيد القصيدة اللاحقه على القصيدة السابقة فى عدد الأبيات أو أن تأخذ نمطها من أوله إلى آخره ، وإلا كان ذلك تقليدا معيبا ، يصيب الأدب بالعقم والجمود .

ولقد أكد كثير من النقاد والكتاب أن قصيدة البارودى معارضة لبردة البوصيرى[2]، ولا يقدح فى ذلك قول الدكتور زكى مبارك : " .. إنه لم يتأكد من أن البارودى رمى إلى معارضة البوصيرى "[3] لأن الدكتور زكى كما قال عنه أحد الكتاب: يشك فى كل شىء[4].

---

(١) الدكتور سعد الدين الجيزاوى : هدية مجلة منبر الإسلام ، السنة (٢٥) العدد (٣) ص ٨١.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٤ ومحمود سامى البارودى (للحديدى) ص ٧٢ ، والمعارضة فى شعر شوقى ص ٨٥ ، والبارودى رائد الشعر الحديث ص ١٤٩ ، والشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودى فيه ص ٦١ ، والدكتور سعد الدين الجيزاوى : الملحمة فى الشعر العربى ص ٣٨ طبعة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ ، وفاروق خورشيد (بالاشتراك مع غيره) : محمد فى الأدب المعاصر ص ١٠٥ المكتب الفنى للنشر بمصر سنة ١٩٥٩ .

(٣) الموازنة بين الشعراء ص ١٩٥ بتصرف. (٤) الدكتور / عبد الحسيب طه : النصوص الأدبية فى العصر الحديث ص ٥٣ طبعة السعادة بمصر سنة ١٩٧١ .

كما لا ينفى المعارضة أن البارودى لم يشر إلى البوصيرى عندما أشار إلى متابعته كعبا وحسانا فى مدحهما الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [١]:

تابعت كعبا وحسانا ولى بهما
فى القول أسوة بر غير متهم

لأنه إذا لم يشر صراحة إلى البوصيرى فقد أشار ضمنا عندما نكر أن قصيدته لم تتضمن أنواع البديع بقوله [٢]:

لم ألتزم نظم حبات البديع بها
إذ كان صوغ المعانى الغر ملتزمى

إذ من المعلوم أن القصائد التى نظمت فيها أنواع البديع هى (البديعيات) وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض أصحابها نظروا فى نظمها إلى بردة البوصيرى [٣]، ومن إشارة البارودى إليها نعلم أنه قرأها وفهم سياقها، فصرفه عنها ثقلها بأنواع البديع، فاتجه إلى الأصل - وهو البردة - ولكنه حينما اتجه إليه لم يقف معه فى كل خطواته، كيف؟ وهو شاعر كبير، وباعث النهضة الشعرية فى العصر الحديث، فلابد إذن أن يخالف الأصل أية مخالفة حتى يأتى بجديد وتظهر فيه ملامح شخصيته.

وبالرغم من كل ذلك فأنا أرجح أن البارودى قرأ بردة البوصيرى، ولعل مما يؤكد ذلك أنه تبع البوصيرى فى بعض أفكاره التى يعد هو أبو عذرتها، ومن ذلك توسله إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه فى الاسم بقوله [٤]:

فإن لى ذمة منه بتسميتى
محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٧.
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.
(٣) انظر ص ٣٧ ٪ من هذه الرسالة.
(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤.

فتبعه فيه البارودى وتصرف فيه تصرفا قليلا بقوله [١]:

أم كيف يخذلنى من بعد تسميتى
باسم له فى سماء الموفق محترم

أضف إلى ذلك تصرفه فى قول البوصيرى [٢]:

خدمته بمديح أستقيل بــــه
ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم

إذ قال بعد إضافة يسيرة [٣]:

خدمته بمديح فاعلوت على
هام السماك وصار السعد من خدمى

ولعل مما يقوى فكرة قراءة البارودى بردة البوصيرى ، أننى عثرت على أبيات نسبت إليه ولم تنشر فى ديوانه ، يقرظ فيها تشطير الشيخ عبد القادر الرافعى للهمزية [٤] — والهمزية هى قصيدة البوصيرى كما سبق — وقال فى ذلك التقريظ [٥]:

ألا إن خير القول ما كان حائزا
مدى السبق فى مدح النبى محمد

وأبدع ما سار الرواة بذكره
قصائد حبر من (أبوصير) أمجد

وأجمعها للقول همزية سمت
برونقها ما بين نسر وفرقد

فقلد (عبد القادر) الشهم جيدها
بحلية تشطير كدر منضد

تسلسل فى أثنائها مثل ما جرت
جداول فى أثناء روض مورد

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة . (٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤٦ .

(٤) سبق التعريف به فى هامش ص ٢٤١ من هذه الرسالة .

(٥) نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد ص ١٢٦ .

فبشرى له إذ نال أفضل رتبــــة
بمدح رسول بالكتاب مؤيــــد
ولا زال ملحوظا بعين عنايــــة
يروح بها فى خير حال ويغتدى

ويبدو أن هذا التقريظ كان لتشطير الرافعى للهمزية قبل أن يشطر البردة - أيضا - ويضمها فى كتاب واحد أطلق عليه : (نيل المراد فـــى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد) .

ولا يقدح فى الاستشهاد بهذه الأبيات عدم ورودها فى ديوانه ، لأن شعره لم يطبع كله هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ذكر أحد النقاد - فى بحث علمى عن البارودى - أنه عثر على أبيات للشاعر لم يسبق نشرها فى أثناء استعانته ببعض أفراد أسرة البارودى عند إعداد ذلك البحث العلمى [(١)].

وليس من المعقول أن يقرأ البارودى همزية البوصيرى ويقرظها لمشطرها ، ولا يقرأ البردة مع أنها أكثر منها شيوعا ، وأوسع انتشارا .

على أن الذى لا شك فيه أن البارودى عارض كثيرا من الشعراء السابقين فى قصائدهم مثل : أبى فراس والمتنبى وغيرهما [(٢)] وهذا يبين إمكان معارضتـــه البوصيرى إن لم يؤكده .

متى نظم البارودى قصيدتــه ؟

لم يذكر الشاعر تاريخا لهذه القصيدة ، ولكن الراجح أنه نظمها وهو فـى المنفى - سرنديب - وهذا ما صرح به بعض الكتاب [(٣)] ، ولعل مما يقوى ذلـك قول الشاعر [(٤)] :

---

(١) محمود سامى البارودى (للحديدى) ص ١٦٢ ، ١٧١ .
(٢) البارودى رائد الشعر الحديث ص ١٤٦ ، والشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودى فيه ص ٨١ وما بعدها ، والموازنة بين الشعراء ص ٣١٤ وما بعدها .
(٣) البارودى رائد الشعر الحديث ص ٩٣ ، محمود سامى البارودى (للحديدى) ص ١٧٢
(٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٥ وهامشها .

تكاءدتني خطوب لو رميت بهـــــا
مناكب الأرض لم تثبت على قـدم
فى بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تجثو على صنم

إذ أشار كاتب الشاعر فى منفيه الأخيرة ـ ياقوت المرسى ـ إلى أن الشاعر أراد بقوله : (فى بلدة مثل جوف العير ٠٠) سرنديب ، إذ كان أغلب أهلهـا بوذيين ، ولا شك فى أن كاتب الشاعر أقرب الناس إليه ، وقد صحح النسخة المطبوعة قبل طبعها على نسخة الشاعر بعد أن قرئت عليه ، وعليها بعض التعليقات كما ذكر الكاتب نفسه (١) .

أضف إلى ذلك ما قاله ـ كاتب الشاعر أيضا ـ عند قول البارودى (٢) :

فمن يرد على نفســى لبانتهــا
أو من يجبر فؤادى من يد السقم

المراد باللبانة : الحاجة ، وأراد بها الشاعر عودته إلى وطنه المحبوب مصر ، وقد نال بغيته ، فعاد إليه فى ٦ من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ .

ولعل مما يؤكد ذلك أيضا قول الشاعر مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٣) :

تالله ما عاقنى عن حيكم شجن ∴ لكننى موثق فى ربقة السلم

فالشاعر يوضح أن الذى منعه من الذهاب إلى مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أنه (موثق ٠٠) أى مقيد الحرية فى منفاه .
ومما يوحى بأن البارودى نظم (كشف الغمة) فى منفـاه ـ بالإضافـة إلـى

---

(١) المرجع السابق هامش ص ٤٨ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ وهامشها .
(٣) المرجع السابق ص ٤٥ .

ما خيلق قوله عن تلك القصيدة (١)

وسمتها باسمك العالى فألبسها
ثوبا من الفخر لا يبلى على القدم

غريبة فى إسار البين لو أنست
بنظرة منك لا ستغنت عن النسم

أتأثر البارودى فى قصيدته (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) بمعارضتى الدرويش والتيمورية أم لا ؟

يبدو لى أن البارودى لم يتأثر فى قصيدته بمعارضة الدرويش ولعل مما يقوى ذلك اختلاف قصيدتيهما فى الأفكار وطرق التعبير عنهما ، بالإضافة إلى اختلافهما فى عدد الأبيات .

كما أنه لم يتأثر فى قصيدته بقصيدة عائشة التيمورية؛ لأنها نشرت قصيدتها عندما كان البارودى فى المنفى ، إذ أن ديوانها طبع الطبعة الأولى بالمطبعة العامرية الشرقية بمصر سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) [٢] وكان الشاعر فى ذلك الوقت قد أمضى فى منفاه ما يقرب من ثلاث سنوات ، إذ نفى — كما سبق — سنة ١٨٨٢ وعاد إلى وطنه سنة ١٩٠٠م [٣] ، ولعل مما يؤكد ذلك اختلاف القصيدتين فى كثير من الأغراض وطرق معالجتها بالإضافة إلى اختلافهما فى عدد الأبيات أيضا .

ومهما يكن من شىء فإن قصيدة البارودى تعد من أولى القصائد الإسلامية فى العصر الحديث — إن لم تكن هى الأولى — وبخاصة فى طولها ، وتعدد أفكارها وترتيبها ، ولعل الذى ساعد على ذلك أن الشاعر قد نظمها على نسق أفكار سيرة ابن هشام كما صرح هو بذلك فى مقدمته إياها ، إلا أن هذا الترتيب كان سببا من الأسباب التى جعلت القصيدة أشبه بالسرد التاريخى فى معظم أبياتها ، ولذا قال عنها بعض الكتاب [٤] . " .. ولا نقول فى

---

(١) المرجع السابق ص٤٦ وما بعدها . (٢) ومعارضتها فى ص٤٥ من طبعة هذا الديوان . (٣) انظر ص٣٤٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٤) محمد فى الأدب المعاصر ص١٠٥ .

القصيدة — كشف النعمة — أكثر من أنها (وصف) لسيرة (محمد) منذ مولده إلى قرب أن يموت — فى تموس على صنيعين لسالفه — للبارودى — :
أحدهما : لابن هشام فى السيرة ، والآخر : للبوصيرى فى (الكواكب الدرية) أى البردة ، فتأثر البارودى بالأول تاريخيا ، وتأثر بالثانى فنيا ، وبين الرجلين كان رب السيف والقلم يصول ويجول .

أما الحقيقة التاريخية : فيعلم الدارسون أنها أكثر غناء ... لدى ابن هشام .. وأما الحقيقة الفنية : فلم تبرز بالصورة التى كان ينبغى أن يقدر عليها البارودى .. فهى فى غير مستواه ..)

ويؤكد هذا القول كاتب آخر بقوله : (والترتيب الذى سار عليه البارودى ليس ميزة فنية ، فقد قيد انطلاق عواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته فى إطار موسوم ، ففترت العاطفة الشعرية فى أكثر القصيدة ، وأصبحت منظومة تاريخية ، كتلك المنظومات التى تعرف بالمتون .. [1])

أضف إلى ذلك السرد التاريخى ما اشتملت عليه القصيدة من ألفاظ وعبارات غير شعرية مثل : (وحينما) — حلت بالمصطفى ... (ومذ) أشى الوضع ... (فبينما) هو يرعى البهم .. (وقال) عنه ... (وحين) أدرك سن الأربعين .. (هذا) وقد فرض الله الصلاة ..

ولا شك فى أن مثل هذه العبارات أولى بها أن تكون فى قصة نثرية لا فى قصيدة شعرية ، وبخاصة عند شاعر كالبارودى ، مما جعل بعض الكتاب يقول عنه : هو (.. يحكى قصة ، ويستخدم عبارات القصة اللازمة (فيما .. وحين) إنه يرسم البعد الزمنى ويحدده ، كما يفعل القاص ، أو كان ينبغى أن يفعل لأنه (ينظم) سيرة ، ولم يحاول أن ينفصل بسيرة .. [2])

وأقول — إنصافا للحقيقة — إن حرارة العاطفة لم تنطفئ فى القصيدة كلها وإنما كانت تشتعل جذوتها عندما يناجى الشاعر ربه ، أو يتشوق إلى زيارة

---

(١) محمود سامى البارودى (للحديدى) ص١٧٣ .
(٢) محمد فى الأدب المعاصر ص١٠٩ .

الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو يصف ما أتحمله من الخطوب ، وما حل به من الآلام والظلم ، ويظهر ذلك واضحا في قوله مناجيا ربه (جل وعلا)[1]:

يا مالك الملك هب لي منك مغفـــرة
تمحو ذنوبي غداة الخوف والنـــــدم

وامنـــن علـــي بلطـــف منك يعصمـــــني
زيـــغ النهـــى يوم أخذ الموحد بالكظم

وقوله مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم)[2]:

تالله ما عاقني عن حيكم شجـــــــن
لكنـــني موثق في ربقـــة السلـــم

فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بهـــــا
ذريعـــة أبتغيها قبل مخترمـــــي

البارودي لم يقتصر على سيرة ابن هشام :

إن قصيدة (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) تدل على أن البـــارودي لم يقتصر على سيرة ابن هشام ، وإنمـــا قرأ غيرهـــا من كتب السيرة ، ويؤكد ذلك أنه أشار إلى وقوف حمامتين على وجه الغار ، كما نسج العنكبـــوت خيوطه على باب الغار أيضا ، عندما كان الرسول (صلى الله عليه وسلـــــم) مهاجرا[3] ، ولم يرد ذلك في سيرة ابن هشام التي صرح الشاعر بأنه سيضمنها قصيدته[4] ، وزيادته على ما فيها يشـــير إلى ثقافته الإسلامية التي اكتسبهـــــا من اطلاعه ، وقراءته بعض كتب السيرة الأخرى[5] ، ولعلها تشير أيضا إلـــى أن البارودي قرأ بردة البوصيري ، إذ صرح البوصيري في بردته بذكر الحمـــام والعنكبوت في تلك المناسبة بقوله[6]:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت علـــى
خـــير البرية لم تنسج ولم تحـــم

(١) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٥٠٤ ، (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها ،
(٣) المرجع السابق ص ٢١ ومابعدها ،
(٤) المرجع السابق ص ٢٠
(٥) الروض الأنف جـ ٢ ص ٤ وطبقات ابن سعد جـ ١ ق ١ ص ١٥٤ ،
(٦) انظر ص ١٤٥ من هذه الرسالة

وإذا تأملت قصيدة البارودى - كشف الغمة - وجدتها تشير - أيضا - إلى أن الشاعر قد ترك بعض الأفكار والحوادث دون الإشارة إليها مثل :

١- وفاة والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو فى بطن أمه[1]، نعم ذكر البارودى أن الرسول ولد يتيما فى قوله[2] :

وأرضعته ولم تيأس حليمة من ... قول المراضع إن البؤس فى اليتم

ولكن ذلك لا يكفى ، وكان فى إمكان الشاعر استغلال تلك الفكرة ليشير إلى عناية الله بنبيه من قديم ، ولعل فى قوله تعالى : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى[3] " ما يؤكد تلك الفكرة .

٢- وفاة والدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ما زال طفلا صغيرا وكانت فرصة للشاعر يشير فيها إلى ما حل بالرسول من أحداث ومدى وقع ذلك على نفسه[4].

٣- كفالة جده عبد المطلب ، وعنايته به ما يقرب من سنتين ، ثم وفاته ، وأثر ذلك فى الرسول (صلى الله عليه وسلم)[5].

٤- تردد الرسول على غار حراء قبل نزول الوحى ، واعتكافه فيه الليالى ذوات العدد ، وخلوته فى ذلك المكان الموحش[6].

٥- لحظة نزول الوحى بقوله تعالى : (اقْرَأْ)[7]، ومما هو جدير بالذكر أن بعض الشعراء أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ومنهم الشاعر : عبد الله شمس الدين[8] الذى يقول قصيدة طويلة ومنها[9] :

صلى عليه الله نورا هاديا

متعبدا فى غاره لم يسأم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمم ص ٢
(٣) الضحى / ٦ .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٩ .
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٠ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٣ ومابعدها .
(٧) العلق / ١
(٨) عبد الله شمس الدين شاعر مصرى توفى سنة ١٩٧٧ .
(٩) مجلة الشبان المسلمين السنة (٤٩) العدد (٣) ص١٨ وهذه القصيدة آخر قصائد الشاعر قبيل وفاته .

هيمان ، تضرع للسماء دموعه
في تيه مشتاق بوجد مفعم
يارب ، ياربى إليك تطلعت
روحى ، وحبك مستثار في دمى
حتى أتى الروح الأمين يضمه
ضما على رهبوته المتبسم
اقرأ نبى الله ، اقرأ وابتهل
وبذكر ربك يانبى ترنم
اقرأ وربك ملهم سبحانه
قد علم الإنسان ما لم يعلم

وإذا كانت هذه القصيدة ليست من معارضات البردة ، فهناك بعض الشعراء الذين أشاروا إلى ذلك في معارضاتهم – كما سيأتي [١].

٦– موقف السيدة خديجة عندما رجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المنزل خائفا – بعد نزول الوحى – ولما قص عليها ما رأى طمأنته – قائلة : له " أبشر يابن عم واثبت .. " [٢] وكان يمكن الشاعر أن يتحدث عن ذلك مبينا فطنة السيدة خديجة وحسن تصرفها، ويلمح إلى سيدات اليوم ليتعلمن منها – كما فعل بعض الشعراء – كما سيأتي [٣].

٧– موقف الرسول عندما ذهبت جماعة من قريش إلى عمه أبى طالب تطالبه بأن يمنع ابن أخيه من سب آلهتهم، ولما طالبه أبوطالب بذلك قال الرسول " ياعم – والله لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " فلما رأى أبوطالب ذلك منه قال له : اذهب يابن أخى فقل ما أحببت .. [٤] ، وكان في إمكان

---

(١) انظر ص ٥١٨ من هذه الرسالة .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٥ .
(٣) انظر ص ٦٢٠ من هذه الرسالة .
(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٨ .

الشاعر أن يتحدث عن ذلك مبينا تمسك الرسول بالحق مهما كلفه .

٨ــ أثر وفاة السيدة خديجة (رضى الله عنها) وهى التى كانت تقف بجانب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتناصره بنفسها ومالها ، وتتحمل معه الأذى .

وكذلك أثر وفاة أبى طالب ، وهو الذى كان يقف بجانب الرسول مدافعا عنه ، ولقد كان لوفاة السيدة خديجة وأبى طالب أثر عظيم فى نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) . اذ حزن عليهما حزنا شديدا بل لقد سمى العام الذى توفيا فيه (عام الحزن) كما أن قريشا لم تنل من الرسول إلا بعد وفاتهما [1].

٩ــ بناء مسجد (قباء) [2] الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

" لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ... الآية [3] .

والجدير بالذكر أن الشاعر أحمد محرم [4] أشار إلى ذلك المسجد فى قصيدة طويلة ، ومنها مخاطبا الرسول ﷺ [5]:

ياحياة النفوس جئت (قباء)
جيئة الروح تبعث المقبورا

ارفع المسجد المبارك واصنع
للبرايا صنيعك المشكورا

معقل يعصم النفوس ويأبى
أن يجعل الهوى بها أو يجورا

أوصها بالصلاة فهى علاج
أو سياج يذود عنها الشرورا

١٠ــ بعض الصحابة الذين كانت لهم مواقف عظيمة ومنهم :

أ ــ المقداد بن عمرو [6] الذى قال للرسول (صلى الله عليه وسلم) قبول

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٥ ومابعدها . (٢) قباء : (بضم ففتح) موضع قريب من المدينة .

(٣) التوبة / ١٠٨ . (٤) أحمد محرم شاعر مصرى توفى سنة ١٩٤٥

(٥) أحمد محرم : ديوان مجد الإسلام تصحيح محمد الجيوشى . ص ١٥ مطبعة المدنى بمصر سنة ١٩٦٣ .

(٦) هو: المقداد بن عمرو بن مالك صحابى جليل توفى فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٣ هـ .

غزوة بدر " يارسول الله : أمض لما أراك الله ، فنحن معك " .[1]

ولقد أشار الشاعر أحمد محرم إليه فى قصيدة طويلة منها :[2]

ما أصدق المقداد حين يقولهـــا
حرى ، وبعض القول نار تلفح

إنا وراءك يا (محمد) نبتغـــى
ما الله يعطى المتقين ويمنح

ب ـ الحباب بن المنذر[3] ، الذى أشار على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبيل غزوة بدر بتغيير المكان وردم الآبار القريبة مـــن المشركين ، ووجد الرسول فى ذلك الرأى خيرا ولذلك نزل عـــن رأيه ووافق عليه [4] ، ولقد أشار إلى هذا الموقف الشاعـــر أحمد محرم ، فى قصيدة طويلة ومنها [5] :

مكر الحبـاب بهم فغور ماءهم
والمكر فى بعض المواطن أنجح

جـ ـ نعيم الأشجعى [6] الذى أتى الرسول (صلى الله عليه وسلـــم) يطلب منه أن يأمره بشىء يفعله ضد اليهود والأحزاب ـ لأنـــه أسلم سرا ـ فى غزوة الخندق ، ثم قال له الرسول :خـذّل عنا مـا استطعت إنما الحرب خدعة ، فقام نعيم بخدعة فرقت صفوف اليهود والمنافقين [7] وما أحسن قول (أحمد محرم) وهو يشير إلى ذلك:[8]

أقبل نعيم هداك ربك ساريـــا
وكفى بربك ذى الجلالة هاديا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٥٣ ٠ (٢) ديوان مجد الإسلام ص ٣٩٠

(٣) هو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى صحابى جليل توفى فى خلافة عمر ابن الخطاب نحو سنة ٢٠هـ ٠ (٤) سيرة ابن هشام جـ ٢ص ٢٥٩ ومابعدها ٠

(٥) ديوان مجد الإسلام ص ٤٠ ٠ (٦) هو : نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى صحابى جيل توفى فى خلافة عثمان بن [illegible] ،نحو سنة ٣٠ هـ ٠

(٧) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٣

(٨) ديوان مجد الإسلام ص ١٦١ ٠

جئت النبى ، فقلت : إنى مسلم
من أشجع لم يدر قومى ما بيه
مونى بما أجبت فى القوم الألى
نرهوا الرشاد فكن لأمرك واعيا

ولا شك فى أن هذه المواقف من هؤلاء الصحابة كانت تستحق التنويه إليها ، والإشادة بها ، إذ هى دليل على قوة إيمانهم ، وصدق اعتقادهم ، وجميل تضحياتهم فى سبيل ربهم .

١ ـ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) [1] وأثرها فى أصحابه ، وبخاصة عمر بن الخطاب الذى لم يصدق ذلك ـ أول الأمر [2] ـ والجدير بالذكر أن (أحمد محرم) أشار إلى بعض ذلك بقوله [3] :

مات الرسول المجتبى ، مات الذى
أحيا نفوس الناس وهى رمائم
مات الرسول فكل أفق عابس
أسفا عليه ـ وكل جو قاتم
... طاشت لمصرعه عقول رجح
ووهت قوى مشدودة وعزائم [4]
... صلى عليك الله ، إن قضاءه
حتم ، وإن زعم المزاعم حالم

وإذا كنت قد بينت بعض الأفكار التى وردت فى سيرة ابن هشام وأغفلها البارودى فى قصيدته ، فإننى سأشير إلى بعض الأفكار التى تحدث عنها البارودى بإيجاز ، وكان الأولى به أن يطنب فى الحديث عنها لما لها من أهمية كبيرة ، ومن ذلك :

---

(١) توفى الرسول (على الراجح) فى يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٣ وما بعدها .
(٣) ديوان مجد الإسلام ص ٤٥٠ .
(٤) لفظ (لمصرعه) غير مناسب للمقام .

أ — حديثه عن المسجد النبوى الذى أشار إليه فى بيت واحد ثم أردفه ببيت آخر، تحدث فيه عن (بلال) — مؤذن الرسول ، وكان الأولى بالبارودى أن يشير إلى اشتراك الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى بناء ذلك المسجد وحمله التراب بنفسه وفى ذلك دعوة إلى العمل، وعدم الاغترار بالمناصب مهما علت ، ولعل هذا ما أشار إليه الشاعر (أحمد محرم) بقوله[1]:

المسجد الثانى يقام بيثرب
وحمد البانى يجدّ ويعمل
هذا رسول الله فى أصحابه
لا يشتكى عطيا ولا يتمهل
يأتى ويذهب بينهم ، فلثم
بالترب يغشى وجهه ويكلل

أين هذا من قول البارودى[2]:

ثم ابتنى سيد الكونين مسجده
بنيان عز فأضحى قائم الدعم
واختص فيه بلالا بالأذان وما
يلفى نظير له فى نبرة النغم

ولعلك تلاحظ أنه أشار إلى بلال — بأن الرسول اختصه بالأذان لحسن صوته ، وهذا تعليل جميل ، وأجمل منه لو أشار — أيضا — إلى تحمله التعذيب فى سبيل عقيدته، وهذا ما أشار إليه أحمد محرم بقوله[3]:

أذّن (بلال) لك الولاية لم تتح
لسواك إذ تدعو الجموع فتقبل
الله ألبسك الكرامة واصطفى
لك ما يحب المؤمن المتوكل

---

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٢٢.
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٤.
(٣) ديوان مجد الإسلام ص ٢٥.

يا طول ما عذبت فيه ، فلم تصل
تهفو التي ابتغى الغواة السبل
أحد إليهك ، ما كذبت ، وما لسن
يرجو النجاة على سواء مصطفى

أين هذا من قول البارودى الذى خلا من التحليق والبراعة ، ومع ذلك فالشاعران البارودى ومحرم قد قصرا فى بيان أهمية المسجد من كونه مكانا للعبادة ، ومحكمة للقضاء ، ومقرا للقيادة العامة لجيش المسلمين ، ومدرسة لتعليم أمور الدين ، وغير ذلك.

والجدير بالذكر أن بعض الشعراء الذين عارضوا بردة البوصيرى — بعد شوقى — قد أشاروا إلى مثل ذلك — كما سيأتى أما إشارة البارودى فكانت فى بيتين اثنين وهما : (١)

هذا وقد فرض الله الصلاة على
عباده وهداهم واضح اللقم
فسارعوا نحو دين الله وانتصبوا
إلى العبادة لا يألون من سأم

إن إشارة البارودى إلى الصلاة مبتورة ، وكان الأولى به أن يشير إلى أهمية الصلاة ، وكيف أنها تصل العبد بربه ، كما أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وغير ذلك من الفوائد العظيمة التى أشار إلى بعضها شاعر النبى الشيخ الخطيب (٢) فى قوله (٣) :

إن الصلاة بها الصلات عبقة
وبها يكون من الصلاء نجاكا (٤)

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥١٨ (٢) سيأتى التعريف به فى ص ٦٣٩ من هذه الرسالة
(٣) محمد خليل الخطيب : وحى الحديث ص ٧ ومابعدها (لم يدون عليه اسم المطبعة) وطبع سنة ١٩٥٩.
(٤) الصلاء : النار .

وإذا بليت من الزمان بشـــدة
فافزع لها تفـزع بها مولاكـا
هي قرة العينين ، جالية الرضـا
هي في الخطوب الحالكات ضياكا
وعماد دين الله ، باب فتوحـــه
وطريق جنته ، وسر هناكـــا
وأجل ما يدنيك من مـــولاكـــا
ويحط عنك ولو يجم خطاكـــا
هي طهرة وصحة وسماحــــة
ورياضـة ووجاهة وسماكـــا
ريحان أرواح ، منابع فكـــرة
إشراق أنوار ضياء سماكـــا
تدعو إلى خير الخلال وإنهـــا
لمن الفواحش كلها تنهاكـــا
فاسكن بها قلبا ، وسكّن قالبـــا
فبها تناجي خير من ناجاكـــا
واطرح بها غيّرا ، وقل متبتـــلا
إياك نعبد ربنا إياكـــا

جـ ـ وإذا كانت شخصية البارودي العسكرية قد ظهرت في قصيدتــه كشف الغمة وخاصة عندما أشار إلى غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكثير من سراياه ، فإنه لم يبين الحكمة من توجيه هـذه السرايا ، وخاصة أن بعض الناس ينظر إليها على أنها ضــرب من قطع الطريق ، مع العلم أن تلك السرايا يرجع سببها كما ذكر بعض الكتاب (١) إلى :

ا ـ إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، ذلك الضعف

---

(١) الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة ص ١٩٢ بتصرف مطبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٢

الذى مكن قريشا فى مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم ، واغتصاب ديارهم وأموالهم ، ومن حق المسلمين أن يمنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها .

٦ـ إنذار قريش عقبى طيشها ، فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه ونكلت بالمسلمين فى مكة ، ثم ظلت ماضية فى غيها ، لا تسمح لأحد من أهل مكة بالدخول فى دين الله .

فى كشف الغمة تقليد وتجديد :

ولا يخفى أن قصيدة البارودى قد اشتملت على ما يؤكد تقليده الشعراء السابقين ولكنه لم يقف عند ذلك التقليد ، بل أضاف جديدا أملاه عصره ومن ذلك: تمنيه أن تحمل القطاة رسائل أشواقه إلى أحبابه ، وفى هذا تقليد ظاهر للسابقين ، إذ كانوا يتمنون ذلك ، بل إن منهم من تمنى أن يستعير جناح ذلك الطائر ليطير به إلى أحبابه ، ومن هؤلاء: العباس بن الأحنف الذى يقول (١) :

بكيت إلى سرب القطا حين مر بى ∴ فقلت : ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من معير جناحه ∴ لعلى إلى من قد هويت أطير (٢)

أما ما قاله البارودى فهو (٣) :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت
عنى رسائل أشواقى إلى إضم
مرت علينا خماصا وهى قاربة
مر العواصف لا تلوى على إرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها
إلا مثالا كلمح البرق فى الظلم
كأنها أحرف برقية نبضت
بالسلك فانتشرت فى السهل والعلم

---

(١) العباس بن الأحنف : ديوانه ص ٧٣ وما بعدها مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ ويلاحظ أننى وجدت هذه الأبيات ضمن قصيدة طويلة فى ديوان قيس بن الملوح ـ أيضا ـ ص ٣٣ . المطبعة العامرة العثمانية بمصر سنة ١٣٠٩ . (٢) فى بعض الروايات (هل من يعير . .)
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٤ وما بعدها .

فالشاعر إلى جانب تمنيه أن تحمل القطاة رسائله إلى أحبابه ، شبه مرورها بسرعة بمر الرياح ، ولمح البرق ، وهذا تشبيه قديم ، إلا أنه أضاف جديدا عندما شبهها ـ القطاة ـ وهى تمر بسرعة ـ أيضا ـ بأحرف برقية (تلغرافية) قد حملتها الأسلاك . ولا شك فى أن ذلك التشبيه أثرا من آثار عصر البارودى ، ولعل هذا ما أشار إليه بعض الكتاب بقوله عنه [1] : .. كان يصور نفسه وبيئته ووطنه تصويرا صادقا ، ومن تمام هذا الصدق فيه شعوره الدقيق بعصره ، لا بأحداثه فحسب ، بل أيضا بمخترعاته ، وكان يجريها فى تشبيهاته واستعاراته كقوله فى الغزل :

وسرت بجسمى كهرباءة حسنه
فمن العروق بـه سلوك تخبر [2]

أضف إلى ذلك ـ أيضا ـ أن فى القصيدة دلالة على انتقال الشعر العربى فى مصر من مرحلة العناية بالمحسنات البديعية التى كانت تحشر حشرا ، فتثقل اللفظ ، وتعقد الأسلوب ، ـ الانتقال من تلك المرحلة ـ إلى مرحلة التحرر من البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، مع جزالة الألفاظ ، ومتانة الأسلوب ـ غالبا ـ وهذا ظاهر بوضوح فى ثنايا القصيدة .

ولعل من أهم آثار قصيدة البارودى (كشف الغمة) ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ أنها تدل على وجود الملحمة [3] فى الشعر العربى ، وترد بذلك على من زعم أن الشعر العربى خلو من الملاحم [4] .

وإذا تأملنا مميزات الملحمة كما ذكرها بعض النقاد ، عندما قالوا : إن الملحمة تمتاز بأنها : [5]

١ـ تشتمل قصتها على حوادث خطيرة تدور فى المادة حول بطل عظيم .

٢ـ تكون لغتها فخمة ، رفيعة الأسلوب ، ومن وزن قوى متين ـ والملحمة عادة وزن واحد لا تخرج عنه .

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر صفحة ٩١ . (٢) ديوان البارودى جـ ٢ ص ٧٤ .
(٣) هى قصيدة طويلة تسرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة ، وتصف أعمال أبطال عظام ، كما تصف الحروب وغير ذلك .. انظر : الملحمة فى الشعر العربى ص ٧ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ٥٥ ، وأحمد أمين (بالاشتراك مع غيره) : التوجيه الأدبى ص ١٨٩ ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٩ . (٤) الدكتور : محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ص ١٤٩ ، طبعة دار نهضة مصر الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٣ ، والملحمة فى الشعر العربى ص ٢٠ . (٥) التوجية الأدبى ص ١٨٩ وما بعدها .

٣ـ تشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المألوف ، ويكون أشخاصها مزيجا من الأبطال العظام ، ومن الآلهة أحيانا ، الذين يشتركون في الوقائع وينصرون فريقا على فريق..

إذا تأملنا هذه المميزات ثم تأملنا قصيدة البارودى وجدناها قد اشتملت على أكثر صفات الملحمة ، كالإشادة بالبطولة الإسلامية متمثلة في كفاح النبي (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه ضد المتصدين لإحباط دعوته ، والمناهضين لهذا الدين الإسلامي ، مع ذكر تأييد الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم).. كما أن وزنها قوى ، ورويها واحد ، ولا يضيرها أن خلت من تصوير صراع بين آلهة لأن ذلك ما تأباه العقيدة الإسلامية ، كما أن بعض النقاد ذكروا أن هذه الصفة ليست من الصفات الضرورية للملاحم[1].

وقد أشار بعض النقاد إلى هذا الأثر بقوله : "..ومما يلفت النظر في شعرنا الحديث شيوع الملاحم والمطولات ، وأول من بدأ المطولات ذات الطابع الإسلامي في العصر الحديث هو : محمود سامى البارودى ـ فقد أنشأ قصيدة كبرى بلغت سبعة وأربعين وأربعمائة بيت بعنوان (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) ، وهي على وزن وروى قصيدة البردة المشهورة للبوصيرى ، وموضوعها السيرة النبوية أيضا ، إلا أن البارودى قد شرح وفصل وضمن قصيدته معارك أكثر مما تضمنته قصيدة البوصيرى..[2]".

بل إن بعض الكتاب قد أكد ذلك الأثر وزيادة بقوله : " ولا نشك في أن هذه الملحمة هي التي أوحت إلى حافظ إبراهيم أن ينظم مطولته عن عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه)[3]... كما أوحت إلى أحمد محرم ملحمته (أو الياذته)

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠.
(٢) الملحمة في الشعر العربي ص ٣٨.
(٣) مطلع تلك المطولة :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها
أنى إلى ساحة (الفاروق) أهديها

انظر ديوان حافظ جـ ١ ص ٣٩ ومابعدها .

فى السيرة النبوية [1]... وعبد الحليم المصرى فى بكريته [2]... ومحمد عبد المطلب فى علويته [3]... وأيضا استضاء بها شوقى كما استضاء ببردة الأبوصيرى فى قصيدته (ريم على القاع بين البان والعلم [4]) .

وإذا صح ما قاله هذا الكاتب ، فإنه يثير فى النفس تساؤلا وخاصة حول شوقى ، لأن قصيدته من معارضات البردة ـ أصحيح تأثر شوقى فى نظمه (نهج البردة) ببردة البوصيرى فحسب ، أم بها وبغيرها ؟

وهذا ما سنراه فى الباب الرابع إن شاء الله .

---

(١) وأول تلك الملحمة :

أملأ الأرض يا محمد نورا ∴ واغمر الناس حكمة والدهورا

انظر ديوان مجد الإسلام ص ٣ .

(٢) عبد الحليم المصرى شاعر مصرى فى العصر الحديث توفى سنة ١٩٢٢ . وبكريته نسبة إلى أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ، ومطلعها :

أفضى أبا بكر عليهم قوافيا .. وأمطر لسانى حكمة ومعانيا

انظر : عبد الحليم المصرى : بكرية المصرى ص ٧ مطبعة مدرسة بنى سويف الصناعية سنة ١٩١٩ . (٣) سيأتى التعريف بعبد المطلب عند الحديث عن معارضته ص ٥٧٧ من هذه الرسالة ، وعلويته : نسبة إلى على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) وأولها :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما ∴ فهل جعل النجوم بها مراما

انظر ديوان عبد المطلب ص ٢٣٠ . (٤) البارودى رائد الشعر الحديث ص ١٤٩ .

الباب الرابع

معارضة شوقي

الفصل الأول : شوقي من مولده إلى وفاته

الفصل الثاني : دراسة وتحليل نهج البردة

الفصل الثالث: قيمة معارضة شوقي .

الفصـــــل الأول

شوقي من مولده إلى وفاتـــــه

بعدما تحدثت عن قصيدة البارودي – كشف الغمة في مدح سيد الأمة – وتناولتها بالدراسة والتحليل، ثم بينت أثرها ، سأتحدث – هنا – عن (نهج البردة) لشوقي .

وشوقي هو : أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي ، ولد في القاهرة سنة ١٨٦٨[1] ، وقيل : سنة ١٨٧٠[2] وهذا هو الراجح [3] .

ومما هو جدير بالذكر أن نسب شوقي ينتهي – من جهة أبيه – إلى الأكراد فالعرب ، وإلى الأتراك من جهة أمه ، إلا أن في نسبه عرقاً جركسيا من جهة جدته لأبيه ، وعرقا يونانيا من جهة جدته لأمه .

ومهما يكن من شيء فالشاعر مصري المولد والمنشأ والإقامة ، ولذلك تحدث عن مصر قائلا : – إنها بلادي ، وهي منشئي ومهادي ، ومقبرة أجدادي ، ولي بها ولدان (علي وحسين ثم أمينة بعد ذلك) ، ولي في ثراها أب وجدان ، ومحض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان .[4]

ولقد نشأ الشاعر في كنف والده الذي كان يعمل أمينا للجمارك المصرية وكان في رغد من العيش ، ولما بلغ شوقي سن الرابعة أدخله أبوه مكتب

---

(١) المتنبي وشوقي وإمارة الشعر ص٣٩ ، الإسلام في شعر شوقي ص٤ ، الرافعي وحي القلم جـ ٣ ص٣٤٧ بتعليق محمد سعيد العريان مطبعة الاستقامة بمصر – الطبعة الثالثة سنة ١٩٥١ .

(٢) الدكتور ماهر حسن : أحمد شوقي ص٨ طبعة دار الكاتب العربي بمصر سنة ١٩٦٩ – الدكتور طه وادي مختارات من شعر أمير الشعراء أحمد شوقي ص ٩٥ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ .

(٣) لأنه موافق ما في شهادة الميلاد : انظر أحمد شوقي ماهر ص ٩ ، وكذلك موافق ما في شهادة الليسانس التي نالها من باريس في الحقوق . انظر : مختارات من شعر أمير الشعراء ص ٩٥ .

(٤) الدكتور : محمد صبري : الشوقيات المجهولة ص٥ وما بعدها ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ .

الشيخ صالح ،ثم أدخله المدرسة الابتدائية ، فالثانوية ، وكان متفوقا في دراسته على الرغم من صغر سنه.

وعندما انتهى من دراسته في المرحلة الثانوية ، دخل مدرسة الحقوق ومكث بها سنتين ، ثم التحق بقسم الترجمة الذي أنشىء في المدرسة نفسها ومكث به عامين أيضا ، ولما نال الإجازة أرسله الخديوى توفيق في بعثة إلى فرنسا لكي يدرس الحقوق والآداب الفرنسية ،فسافر سنة ١٨٨٧ ، وقضى في فرنسا أربع سنوات نال خلالها إجازة الحقوق ، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٩١ ، بعد أن تشبع ذوقه وعقله بحضارة الفرنسيين ، وثقافتهم ، وأدبهم ، وكان يتقن في ذلك الوقت ثلاث لغات ، وهي : العربية والتركية والفرنسية .

ولقد ألحقه الخديوى بحاشيته ،وكان يكلفه ببعض المهام الرسمية ، ومن ذلك أنه أوفده لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين المنعقد (بجنيف) سنة ١٨٩٤ ، والجدير بالذكر أنه أنشد في ذلك المؤتمر قصيدته التي مطلعها[1]:

همت الفلك واحتواها الماء ∴ وحداها بمن تقل الرجاء

وانتهز فرصة وجوده في تلك البلاد الجميلة ، فتنقل بين مدنها متمتعا بمناظرها الرائعة ، ثم غادرها بعد انتهاء المؤتمر إلى (بلجيكا) فزار بعض مدنها الكبرى ، ورجع إلى وطنه وعمله.

وصار شوقي شاعر القصر ، وأطلق عليه شاعر العزيز ، وقد تغنى بذلك في قوله[2]:

شاعر العزيز وما ∴ بالقليل ذا اللقب

ثم تدرج في عدة مناصب حتى تولى رئاسة (القلم الإفرنجى).

ولما مات الخديوى توفيق ، وتولى العرش بعده ابنه الخديوى عباس زاد في إكرام شوقي وتقريبه ، فجعله أنيس مجلسه ، ورفيق رحلته ، فوق أنه شاعره،

---

(١) الشوقيات جـ ١ص ١ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٨ .

فأصبح مسموع الكلمة ، مجاب الرجاء ، يقصده ذوو الحاجات ، فكان لا يرد طالبا .

نفـــى شوقـــــى :

وعندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ — وكان الخديوى عباس يصطاف وحده فى بلاد الترك — خلعه الإنجليز ، ومنعوه من الرجوع إلى مصر — بحجة أنه تركى الهوى ، راض عما فعله الأتراك من انضمامهم فى الحرب إلى صفوف الألمان أعداء الإنجليز [1] — كما اضطهدوا كثيرا من الوطنيين وشردوا المقربين إلى الخديوى عباس ومنهم شاعره (شوقى) فأبعد عن مصر سنة ١٩١٥ بعد أن اختار (برشلونة) ببلاد الأندلس مستقرا له [2] ، وهناك عانى شدة الغربة وآلامها ، والوحدة ووحشتها ، ولكن نفيه كان أحسن حالا من نفى البارودى ، إذ كانت مدته خمس سنوات تقريبا ، كما أن بلاد الأندلس أحسن حالا من (سرنديب) إذ كانت بها الآثار العربية والإسلامية [3] ، بالإضافة إلى أن الشاعر قد صحب معه أولاده وزوجته وهذا يخفف أثر الغربة ، ولوعة البعد ، أما البارودى فكان — كما سبق — وحيدا فى منفاه الذى استمر ما يقرب من سبعة عشر عاما . (٤)

ولعل مما يؤكد راحة شوقى فى منفاه بعض الشىء قوله : " .. ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى فى غير أوقات النزهة ، ومشاهدة السينما فأستوعب منها ما لم أكن قد استوعبته ، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول : إنه ليس فى الأدب العربى ، كتاب لكبار الأدباء لم أستوعبه فى خلال السنين الخمس التى عشتها بأسبانيا .. وقد ساعدتنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الإسكندرية ، وجمال المناظر التى تحاكى الآستانة فى رشاقتها ونظامها ، وهذا إلى أخلاق الأهالى التى تميل إلى الأخلاق الشرقية العربية ، مما جعل بينى وبينهم ألفة حسنة شعرت خلالها بأنى بين أبناء وطن واحد ، لا سيما أن هناك من العائلات الراقية من تفتخر بأنها من أصل عربى ، وتنتسب إلى بنى أمية .. فى هذا الجو وفى ذاك

---

(١) المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ص ٤٠ .

(٢) أحمد شوقى ص ٩٨ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٩ ومابعدها .

(٤) انظر ص ٣٤٣ ومابعدها من هذه الرسالة .

الوسط نشأت نشأة أخرى فى الأدب العربى ، واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام ، وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورهــا ومنظومها ، فحصلت منها على ثروة لم أفز بها من قبل .. [1]

ولقد بدأ شوقى يملى أولاده دروسا فى اللغة العربية .. ثم شـرع فى تعلم اللغة الأسبانية ، وقد تعلمها فعلا ، ولكن نطقه لها لم يكن سليما [2].

ومع أن جو أسبانيا كان قريبا من جو الإسكندرية – كما قال شوقى – إلا أنه أحس بلوعة البعد عن مصر وأهلها ، وأشتد شوقه إليها وإلى نيلها . ولذلك بعث إلى شاعر النيل (حافظ إبراهيم) بأبيات ثلاثة يقول فيها [3] :

ياساكنى مصر إنا لا نزال على
عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو
شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

عودة شوقى إلى مصر :

ومهما يكن من شىء فلقد ظل شوقى فى بلاد الأندلس حتى سمح لــه بالعودة فى نهاية سنة ١٩١٩ [4] ، ففرح فرحا كبيرا ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه عندما وصل إلى أرض الوطن سنة ١٩٢٠ حياه بقصيدة طويلة ومنهـا قوله : [5]

---

(١) طاهر الطناحى : صور وظلال من حياة شوقى وحافظ ص٨٦ بتصرف مطبعة دار الهلال سنة ١٩٦٧.
(٢) أحمد شوقى ص١٠٢.
(٣) ديوان حافظ جـ ١ ص١٣٦.
(٤) أحمد شوقى ص١١٥.
(٥) الشوقيات جـ ١ ص٥٦.

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأني قد لقيت بك الشبابا

وكل مسافر سيؤوب يوما
إذا رزق السلامة والإيابا

ولقد كان في استقبال شوقي عدد كبير من الناس وعلى رأسهم كثير من الشعراء والأدباء ، فانفعل انفعالا شديدا ، وتأثر تأثرا كبيرا ، وهو يسمع ويرى هذا الفيض من المشاعر فأحس أنه يخلق من جديد .

عاد شوقي ولم يعد أميره ، فوجد باب القصر مغلقا أمامه ، كما وجد أن مصر قد تغيرت ، وأن الثورة الوطنية قد شبت ، وأن الحركة القومية قد انتفضت وبلادها في حاجة إلى الصوت القوى الذى ينطق باسمها ، ويعبر عن قضاياها ، ويصور آمالها ، فتحول شوقي من شاعر الأمير إلى شاعر الشعب ، تصور آماله وآلامه ، ومن ذلك حديثه عن الدستور في قوله [1] :

تطالب بالحق في أمة ∴ جرى دمها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأساطيلها ∴ ولكن بدستورها تفتخر

وحديثه عن الجلاء [2] :

والله ما دون الجلاء ويومه ∴ يوم تسميه الكنانة عيدا

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يتحدث عن مصر وحدها ، كيف والوطن العربي جسم واحد ، فكان يحلق هنا وهناك ، ويصل صوت البلبل إلى كل بيت عربي ، ويفرح تارة بخير يتحقق ، ويبكي تارة أخرى إذا ألم خطب ، أو نزل بلاء ، ومن ذلك قصيدته في نكبة دمشق التي مطلعها [3] :

سلام من صبا (بردى) أرق ∴ ودمع لا يكفكف يا دمشق [4]

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٥ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٧ .
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٨ .
(٤) (بردى) : بفتحتين مع القصر — نهر يمر بدمشق .

تكريم شوقي :

ولقد تجلت عبقرية شوقي بعد عودته من المنفى ، وطلع على الناس بعدها أنضج فكرا ، وأصفى قريحة ، وأقوى شاعرية — ولعل ذلك بسبب كثرة مشاهده وزيادة تجاربه ، ووفرة اطلاعه على الآداب الشرقية والغربية كما سيأتي — ولمع نجمه ، لا في سماء مصر وحدها ، بل في سماء الوطن العربي كله ، ولذلك اتفقت كلمة البلاد العربية ، على أنه أمير شعرائها ، ولم يكتفوا بترديدهم صيحات متفرقة في بلدان العروبة ، بل سجلوها في إجماع رائع على لسان وفودهم التي اجتمعت بالقاهرة سنة ١٩٢٧ وأعلنوا زعامة شوقي الشعرية ، وبايعته أميرا على الشعراء(١) ، ووقف حافظ إبراهيم يعلن ذلك بقوله (٢) :

أمير القوافي قد أتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وفاته :

وظل شوقي — بعد مبايعته أميرا على الشعراء — يتغنى على قيثارة الشعر حتى صعدت روحه إلى بارئها في سنة ١٩٣٢ (٣) :

آثاره :

ولقد ترك شوقي ثروة أدبية قيمة منها :

١ــ ديوانه الشوقيات (أربعة أجزاء) .

٢ــ ديوانه دول العرب وعظماء الإسلام .

٣ــ أسواق الذهب (نثر) .

---

(١) أحمد شوقي ص ١٥٨ وما بعدها ، حسين شوقي : أبي شوقي ص ١٤٤ ومابعدها . مكتبة النهضة المصرية بمصر سنة ١٩٤٧

(٢) ديوانه جـ ١ ص ٨٥ .

(٣) أحمد شوقي ص ١٩٣ .

٤ - مسرحيات شعرية مثل : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير ، وعنترة ، والست هدى ، وغيرها .

هـ - مسرحيات نثرية مثل : أميرة الأندلس ، ولادياس ، وورقة الآس - وغيرها [1].

شاعريتـــه :

كان شوقى شاعرا رحب الأفق ، واسع التصرف مخصب الشاعرية ، تصرف فى جميع فنون الشعر ، وأتى فيها بالمعجب المجاب ، ولقد عارض كبار شعراء العربية فى أروع قصائدهم ، فما كبا خياله ، ولا وهن نسجه ، ولا سقط معناه ، أضف إلى ذلك ظهور شخصيته قوية فى شعره ،الذى تلمس فيه روحه وعصره وثقافته الواسعة ،وخياله المحلق ، وموسيقاه العذبة .

وشاعرية شوقى مدينة فى صقلها بعدة أمور منها :

كثرة قراءته شعر السابقين،وحفظه الجيد منه وبخاصة روائع البحترى وأبى تمام والمتنبى والشريف الرضى وأبى فراس وغيرهم ، بالإضافة إلى ثقافتـه الواسعة ،وبخاصة العربية والفرنسية [2] ، وكثرة رحلاته وأسفاره إلى البلاد الأوربية وغيرها مثل بلجيكا ، وفرنسا ،والأندلس ، ولبنان ، وسورية .. ولا شك فـى أن تلك الرحلات هيـأت له الاطلاع على مشاهد جميلة ، ومناظر رائعـة، وسعت خياله ، ونمت مواهبه ، كما أن عناصر جنسه - عربى ، كردى ، تركى شركسى ، يونانى - تؤذن - كما قال بعض الكتاب- منذ أول الأمر بأنـه سيكون شاعرا كبيرا ، وبخاصة أنه يجمع بين الجنسين،العربى واليونانى ، اللذين يشتهران من قديم بالشعر والشاعرية [3] ، أضف إلى ذلك أنه أعين على الشعر بفراغه له أربعا وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا منقسم الخاطر ، علـى سعة فى الرزق ،وبسطة فى الجاه ، وعلو فى المنزلة [4] ، ولا تنس تأثـره

---

(١) انظر : مختارات من شعر أمير الشعراء ، أحمد شوقى ص٩٨ ومابعدها .

(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٤) وحى القلم جـ ٣ ص ٣٥١ .

فى أول أمره بأستاذه البارودى ، " وكأنما كان هديته إلى وطنه ، إذ تمثل طريقته تمثلا دقيقا ، وكأنما أشرب روحه .. فإذا هو كأستاذه يملك ناصية اللغة وزمام التعبير بها ملكا لم يتم لشاعر فى عصره ، وكأنما سخرت له قيثارة الشعر العربى ليستخرج منها أرصن الأنغام حينا ، وأعذبها حينا آخر." [(١)] ولم يقف عند ذلك الحد بل حاول أن يفوق أستاذه ، " وأن يحوز قصب السبق فى الشعر التمثيلى ، فأخذ ينشر مسرحياته .. وبذلك عرب هذا الفن الجديد لأول مرة فى تاريخ شعرنا الحديث... [(٢)] " ، مما جعل بعض الكتاب يقول عنه [(٣)] :

" هذا هو الرجل الذى يخيل إلى أن مصر اختارته دون أهلها جميعا لتضع فيه روحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها .. .. فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر .. "

وإذا كان شعره قبل نفيه قد قيد بقيود القصر الذى كان يعيش فيه ، والخديوى الذى كان تابعا له ، فإن شعره بعد نفيه قد تحرر من كل قيد فأضحى قوى الصوت ،طويل النفس ، شجى النغم ، صادق العاطفة، معبرا عن آمال الشعب [(٤)].

هذا عن شعره بعامة ، أما عن شعره الدينى [(٥)] — بخاصة — فسهل الأسلوب ، واضح المعانى ،يتألف من قصائد ومقطعات ، وأبيات منثورة اقتضاها المقام ، ودعا إليها تشعب النهج فى بعض القصائد [(٦)] ، وبعض أفكار هذا اللون من الشعر تدور حول مناجاته ربه ، وتضرعه إليه [(٧)] :

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث ص ١٧١ .   (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) وحى القلم جـ ٣ ص ٣٤٤ بتصرف .   (٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١١٧ بتصرف .
(٥) أفردت الحديث عن شعر شوقى الدينى لصلته بموضوع الرسالة .
(٦) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٢٧ .
(٧) الشوقيات جـ ١ ص ٢٢٤ .

سبحانك اللهم خير معلم
علمت بالقلم القرون الأولى

أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا

وإيمانه بقضائه وقدره [1] :

سبحان من لا عز إلا عزه
يبقى ولم يك ملكه ليزولا

لا تستطيع النفس فى ملكوته
إلا رضا بقضائه وقبولا

وتسليمه بأن الموت نهاية كل حى ، وإشارته إلى أن بعد الموت بعثا [2] :

سنة الله فى العباد وأمر
ناطق عن بقائه لن يردا

وإلى الله ترجع النفس يوما
صدق الله والنبيون وعدا

ومن شعره الدينى : مدائحه النبوية ، التى بلغت أربع قصائد تقريبا بالإضافة إلى بعض الأبيات التى وردت فى ديوانه (دول العرب وعظماء الإسلام [3]) وفى بعض القصائد الأخرى مثل مرحبا بالهلال [4] .

فالقصيدة الأولى بلغت أبياتها تسعة وتسعين بيتا بعنوان (ذكرى المولد) ومطلعها [5] :

به هجر يتيمه ٭ كلا جفنيك يعلمه [6]

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٥ . (٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٤ .
(٣) انظر ، أحمد شوقى : دول العرب وعظماء الإسلام ص٢٣ ومابعدها مطبعة — مصر سنة ١٩٣٢ . (٤) الشوقيات جـ ١ ص ٢٣١ ومابعدها .
(٥) أحمد شوقى : كرمة ابن هانىء نشر توفيق الرافعى ص٧٠ ومابعدها مطبعة المعاهد بمصر سنة ١٩٢٣ . (٦) فى الشوقيات جـ٢ ص ١٧٠ (به سحر ..) ويلاحظ أن أبيات الغزل هى المذكورة فقط فى الشوقيات .

ومنها فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) [1]:

تبارك من بـه أسـرى ∴ وجـلّ الله مكرمـه
بربـه بيتـه الأقصـى ∴ ومطلعـه ومعلمـه

والقصيدة الثانية، بلغت أبياتها واحداً وسبعين بيتا، وعنوانها (ذكرى المولد) ومطلعها [2]:

سلـوا قلـبى غداة سلاوتابا ∴ لعل على الجمال له عتابا

ومنها فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) [3]:

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى	بمدحك بيد أن لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيـان	إذا لم يتخذك له كتابـا
مدحت المالكين فزدت قدرا	فحين مدحتك اقتدت السحابا

والقصيدة الثالثة: عنوانها (الهمزية النبوية) وبلغ عدد أبياتها واحداً وثلاثين ومائة بيت ومطلعها [4]:

ولد الهدى فالكائنات ضيـاء
وفـم الزمـان تبسـم وثنـاء

ومنها فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) [5]:

يامن له الأخلاق ما تهوى العـلا
منها وما يتعشق الكبـراء
لو لم تقم دينا، لقامت وحدهـا
دينـا تضئ بنوره الآنـاء

وأما القصيدة الرابعة: فهى (نهج البردة) التى عارض بها شوقى بردة البوصيرى، وهى التى سأقف معها بالدراسة والتحليل فى الفصل الثانى إن شاء الله تعالـى.

---

(١) كرمة ابن هانئ، ص ٧٤.
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٥٩.
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٦٢.
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢١.
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣.

الفصل الثاني

دراسة وتحليل : نهج البردة

لقد تحدثت عن حياة شوقي وشاعريته ، ثم ألقيت الضوء على شعره بعامة ، وشعره الديني بخاصة ، وذكرت أن من شعره الديني مدائحه النبوية التي بلغ عدد قصائدها أربع قصائد تقريبا ، بالإضافة إلى بعض الأبيات المنثورة في قصائد أخرى منظومة في مناسبات مختلفة.

وإذا كنت قد تحدثت عن ثلاث قصائد من هذه القصائد الأربع ، فسوف أتحدث هنا عن القصيدة الرابعة وهي (نهج البردة) التي بلغ عدد أبياتها تسعين ومائة بيت ، ولا يخفى أنني أفردت الحديث عنها ، لأنها من معارضات بردة البوصيري ، إذ هي من بحر البسيط، ورويها ميم مكسورة ، وأفكارها تدور حول مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

سبب نظمها :

ولقد نظم شوقي هذه القصيدة بمناسبة عودة الخديوي عباس حلمي الثاني من الأراضي الحجازية بعد أدائه فريضة الحج ، وقد أهداها الشاعر إلى الخديوي قائلا :

" المليك المعظم مولانا الحاج عباس حلمي الثاني .

" مولاي " — رأى الله لهذا العبد الخاضع ، شاعر بيتك الكريم أن يمشي بنور العلم الفرد المغفور له (البوصيري) صاحب القصيدة الشهيرة (بالبردة) في مدح خير الأنام (عليه الصلاة والسلام) ، فنظمت هذه الكلمة التي أسأل الله ، وأرجو من رسوله قبولها ، وجعلها يامولاي لحجتك المبرورة (تذكارها — ١٣٢٧) كلما تناقل الناس أخبارها " — " عبدكم شوقي "[1] .

وقد تفضل مولانا الأستاذ الأكبر — شيخ الجامع الأزهر — الشيخ

---

(1) كرمسة ابن هانئ ، ص٣٢ .

سليم البشرى[1] ، تتكفل بشرحها للناس ، فدخلت البركة على أبياتها من كل مكان ، وحسن قبولها من المليك نهاية الإبداع والإحسان .[2]

هذا هو سبب نظم شوقى (نهج البردة) وتاريخ ذلك النظم كما ذكره الشاعر نفسه ، إلا أن بعض الكتاب ذكر أن الشاعر قد نظم تلك القصيدة لتكون بمثابة اعتذار لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسبب هروبه من أداء فريضة الحج مع الخديوى عباس ، الذى خرج لحج بيت الله الحرام وصحبه معه ، ولكنه كان يخشى كثيرا من متاعب الطريق وركوب الإبل والسير فى صحارى العرب ، كما أنه كان يعلم أن الخديوى لن يقبل عذره إذا اعتذر إليه ، فتظاهر بالرضا والاستعداد للسفر معه ، ولما وصل ركب الخديوى إلى مدينة (بنها) — عاصمة محافظة القليوبية الآن — انفلت منه واختبأ فى دار صديق له بها ، وأخذ الخديوى يبحث عنه ، فلم يعثر عليه ، ولم يعرف مكانه ، فواصل الركب سيره إلى الأراضى الحجازية ، ولكن الشاعر ندم على فعلته ..[3] .

وهذا الرأى وجيه ، ولعل مما يقويه أن الشاعر لم يشر فى قصيدته إلى الخديوى عباس ، ولو ببيت واحد ، ولو كان — الذى دفعه إلى نظمها هو حج الخديوى لهنأه فيها بالحج ، أو أشار إليه ، كما فعل فى قصيدته (إلى عرفات) ومطلعها[3] :

إلى (عرفات) الله يا ابن محمد

عليك سلام الله فى عرفات[4]

---

(١) هو الشيخ سليم بن أبى فراج بن سليم البشرى — تعلم بالأزهر ، وتدرج فى عدة مناصب إلى أن تولى مشيخة الجامع الأزهر ، توفى سنة ١٩١٧ (الأعلام ج ٣ ص ١٨٠) . وقد اطلعت على شرحه (نهج البردة) الذى أطلق عليه (توضيح النهج) ويقع فى مائة صفحة من الحجم المتوسط تقريبا ، وتوجد نسخة منه فى قصر الثقافة بطنطا ، وليس عليه اسم المطبعة ولا سنة الطبع وهو شرح ميسر ، سهل العبارة ، لطيف الإشارة وقد انتفعت به ، وزدت عليه ما تطلبه المقام من دراسة وتحليل وموازنة ، وقد شكك الدكتور زكى مبارك فى نسبة هذا الشرح للشيخ سليم ونسبه إلى ابنه الشيخ (عبد العزيز البشرى المتوفى سنة ١٩٤٣) — الموازنة بين الشعراء ص ١٨٣ .

(٢) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٣٢ .

(٣) أحمد التاجى : (أحمد شوقى) — قصص أبطال العرب — ص ١٢ وما بعدها مطبعة الحلبى (غير مؤرخ) .

(٤) عرفات : المراد الجبل الذى يقف عليه الحجاج على مقربة من مكة — ابن محمد : المراد به الخديوى عباس .

ومهما يكن من شيء فلقد بدأ الشاعر قصيدته (نهج البردة) بقوله [1] :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم [2]

رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم [3]

لما رنا حدثتني النفس قائلة
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي [4]

جحدتها ، وكتمت السهم في كبدي
جرح الأحبة عندي غير ذي ألم

بدأ شوقي قصيدته بغزل تقليدي ، أشار فيه إلى أن محبوبته قد أحلت سفك دمه في الأشهر الحرم — التي كان محرما فيها القتال ، صونا للدماء — عندما وجهت سهام عينيها إليه .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين جمال محبوبته الذي أسره، فشبهها أول الأمر بالريم ، ثم شبهها — ثانيا بالجؤذر دلالة على جمال عينيها ، واتساعهما ، ويبدو أنه قصد من وراء ذلك التشبيه تأكيد جمال محبوبته والمغالاة فيه ، حتى يرفق به غيره ، فلا يلومه ولا يعذله ، ولعل مما يؤكد ذلك قوله : (رمى القضاء) فما دام الأمر أمر القضاء فلا مجال للعذل واللوم .

وعجب أمر هذا الشاعر الذي شبه نفسه بالأسد ، ثم يستنجد بولد البقرة الوحشية (يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم) ، ولعل المراد هنا أنه يطلب — باستعطاف — نظرة حب وعطف من محبوبته ، ولذلك قال : (لما رنا حدثتني النفس ..)

---

(1) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٠ .

(2) ريم : أصله (رئم) فخفف بقلب الهمزة ياء ، وهي الظبي الخالص البياض . القاع : الأرض السهلة المطمئنة .

(3) جؤذر : ولد البقرة الوحشية .

(4) رنا : — بفتح أوله — أدام النظر مع سكون الطرف .

ولقد أدامت محبوبته نظرها إليه ، فأسرته ، واستولت على لبه ، بعد أصابت كبده ، إلا أن الحب من شرطه الكتمان ، ولذلك جحد شوقى جراحه وكتم آلامه ـ (جحدتها ، وكتمت السهم فى كبدى ٠٠) ثم أتى بحكمة صادقة ، وقول يجرى مجرى المثل فى عالم المحبين (جرح الأحبة عندى غير ذى ألم) ويبدو أنه نظر فى ذلك إلى الشطر الثانى من قول المتنبى [(١)] :

إن كان سركم ما قال حاسدنا ⁂ (فما لجرح إذا أرضاكم ألم)

ومع أن ألفاظ الشاعر سهلة ، وعبارته واضحة ، إلا أننى أرى أن قوله : (يا ويح جنبك ٠٠) غير مناسب للمقام ، إذ لا معنى لإصابة (الجنب) فى مقام الحب ، وكذلك لا معنى لإصابة (الكبد) فى المقام نفسه ، فلا الجنب ولا الكبد محلان للحب والتألم بسببه ـ حتى لو كان ذلك على سبيل المجاز ـ ولو أسند الشاعر ذلك إلى (القلب) لكان أولى ، كما أن لفظ (رنا ٠٠) أتى به شوقى إشارة إلى أن (محبوبته قد أدامت نظرها إليه) ولا أدرى أ ذلك مدح أم ذم ، لأن دوام النظر يوحى بعدم الحياء ،

ويبدو أن الشاعر قد جرد من نفسه شخصا يقف معه فقال له [(٢)] :

رزقت أسمح ما فى الناس من خلق

إذا رزقت التماس العذر فى الشيم

يا لائمى فى هواه ، والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم [(٣)]

لقد أنلتك أذنا غير واعية

ورب منتصت والقلب فى صمم [(٤)]

ولما قال شوقى : (جرح الأحبة عندى غير ذى ألم) ، كان فى هذا

---

(١) ديوانه (بشرح العكبرى) جـ ٢ ص ٢٨٨ ٠

(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٠ ٠

(٣) شفك الوجد : أنحل جسمك ٠

(٤) انتصت : سكت سكوت مستمع ٠

القول تصريح بحبه، فتوقع الشاعر أن يلومه اللائمون على هذا الحب فمهد لذلك بقوله : (رزقت أسمح ما فى الناس من خلق ..) فإذا كان من طبعك التماس الأعذار للناس فقد رزقت خلقا كريما .

ويبدو أن ذلك القول لم يصرف اللائم عن لومه ، فقال الشاعر : (يالائمى فى هواه ..) الذى قدره الله علىّ ، لو ذقت طعم الهوى ، وأضناك الجوى ما لمتنى ذلك اللوم ، الذى لا أثر له عندى ، لأننى سمعته بأذنى ، وانصرفت عنه بقلبى .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (رزقت ..) حضا على الاتصاف بتلك الصفة ، وإذا كان قد نظر فى قوله : (يالائمى فى هواه ..) إلى قول البوصيرى : (يالائمى فى الهوى العذرى معذرة ..) فإنه قد أشار إشارة لطيفة إلى أنه لا مسئولية له عن هذا الحب لأن (الهوى قدر) ، كما أنه نظر فى قوله : (لقد أنلتك أذنا ..) إلى قول البوصيرى : (محضتنى النصح لكن لست أسمعه ..) وإن كان قد أتى بحكمة صادقة فى قوله : (ورب منتصت والقلب فى صمم) ، ولا يخفى أثر الطباق فى قوله : (منتصت وصمم) إذ أثار الحس ، وحرك النفس .

ثم خاطب الشاعر محبوبته بقوله [1] :

يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبدا
أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم [2]

أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى
أغراك بالبخل من أغراه بالكرم [3]

سرى فصادف جرحا داميا فأسا
ورب فضل على العشاق للحلم [4]

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٠ ومابعدها .
(٢) الناعس : الوسنان .
(٣) آلو : المراد به هنا التقصير والمنع .
(٤) أسا الجرح يأسوه : داواه .

يخاطب الشاعر محبوبته ، متمنيا لها السلامة من الهوى حتى لا ينالها ما ناله من النصب والأرق ، ثم جعل نفسه فداء لها ، بل ولخيالها ، ثم أشار إلى أن محبوبته بخيلة ، لأنها لا تزوره ، أما خيالها فكريم ، لأنه يزوره ، ويأسو جراح قلبه التي أدماها غياب محبوبته عنه ، وشوقه إليها .

ولا يخفى ما في الأبيات من دلالة على عناية الشاعر بمحبوبته مثل : (.. لا ذقت الهوى أبداً ..) و (أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى ..) ، كما أن في الأبيات ما يدل على أثر الحب في نفس الشاعر وحاله ، مثل : (أسهرت مضناك..) و (.. صادف جرحا داميا فأسا..) .

ولقد اشتملت الأبيات على بعض المحسنات البديعية مثل : (الطباق) بين قوله : (أسهرت) وقوله : (فنم) ولا يخفى أثره في بيان حالة الشاعر وحرصه على راحة محبوبته ، ومثل التكرار والطباق في قوله : (أغراك بالبخل من أغراه بالكرم) وفي ذلك بيان ما عليه محبوبته من تمنع، وهو محبوب بالنسبة للنساء ، أما طيفها فيزوره كثيرا، ولا أدري كيف يأسو ذلك الطيف جرح الشاعر، وكان حقه أن يزيده شوقا إلى محبوبته ، فتزداد آلامه ، وتشتد علله، مثل عمر بن أبي ربيعة الذي يقول[1] :

إن طيف الخيال حين ألمّا

هاج لي ذكره وأحدث همّا

ولكن يبدو أن هناك بعض المحبين الذين يتسلون بطيف محبوباتهم، ويرون أن ذلك الطيف يخفف عنهم تباريح الهوى، ولواعج البعد .

ولذلك قال الشاعر : (ورب فضل على العشاق للحلم) ولعل في تصديره بلفظ (رب) ما يدل على قلة ذلك النوع من العشاق .

ويبدو أن الشاعر كان يحب أكثر من واحدة، يشير إلى ذلك قوله[2] :

---

(١) ديوانه ص ٣٢٢ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤١ .

من المواشي بانا بالرملي وقفــا
اللاعبات بروحي ، السافحات دمي[1]
السافرات كأمثال البدور ضحى
يغرن شمس الضحى بالحلي والعصم[2]
القاتلات بأجفان بها سقـــم
وللمنية أسباب من السقــم
العاثرات بألباب الرجال وما
أقلن من عثرات الدل في الرسم[3]
المضرمات خدودا أسفرت وجلت
عن فتنة تسلم الأكباد للضرم

إن هذه المحبوبة كانت مع ترائبها من المتبخترات في مشيتهن ، الفاتنات بجمالهن ، اللائي لعبن بروح الشاعر ، وسفكن دمه ، وكانت وجوههن كالبدور ، بل إن الشمس كانت تغير من جمالهن ، كما كانت أجفانهن مؤثرات ، ويقع حبهن في قلوب الرجال ، وخدودهن حمر ، ولا يعلم من يراها من الفتنة بها .

وإذا تأملت هذه الأبيات وجدتها تشير إلى جمال هؤلاء المحبوبات ، وعجيب أمر شوقي في حبهن ، والملاحظ أنه بالغ في وصف محاسنهن ، ويبدو أنه نسي أن القصيدة في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا يليق أن تصدر بمثل هذا الوصف ، كما أشار إلى ذلك بعض النقاد ومنهم ابن حجة الحموي [4]

---

(١) المواشي : جمع ماشية - وهي المتبخترة . السافحات : السافكات .
(٢) السافرات : جمع سافرة ويقال أسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها . الحلي : بفتح الحاء وسكون اللام - ما تتزين به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الأحجار . العصم - بكسر ففتح جمع عصمة - أي القلادة .
(٣) العاثرات : جمع عاثرة - من العثرة وهي الزلة والسقطة والمراد الواقع حبهن في قلوب الرجال . الدل : - بفتح الدال - قريب المعنى من الهدى وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك .
(٤) خزانة الأدب ص ١٤ ، حيث يقول : "إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ، ويطرح محاسن المرد والتغزل في ثقل الأرداف ، ودقة الخصر ، وبياض الساق وحمرة الخد .. وما أشبه ذلك"

ومهما يكن من شيء فقوله : (من المواشي بانا بالربى وقنا ..) يشير إلى حسن قوامهن ، ولطافة قدودهن ، إلا أن قوله : (السانحات دمى) — وإن دل على مدى أثرهن في قلب الشاعر — يشير من أول وهلة إلى شراستهن .

ويبدو أن الشاعر نسي أن البدور لا تكون إلا في الليل ، عندما قال : (كأمثال البدور ضحى ..) ، وأما قوله : (يغرن شمس الضحى بالحلى والعصم) فيشير إلى جمالهن المجلوب ، ولو كان جمالهن طبيعيا لما احتجن إلى (الحلى والعصم) غالبا .

ولعل مما يؤكد ذلك قوله : (الضيات خدودا أسفرت وجلت ..) إذ ذلك يشير إلى أنهن يغر من خدودهن بما يضعنه من مساحيق وغيرها مثلا ، وهذا المعنى ما يفهم من تعبير الشاعر باسم الفاعل (المضرمات ..) أضف إلى ذلك أن قوله : (العاثرات بألباب الرجال ..) يشير إلى كثرة انكشافهن على الرجال ، ويبدو أن الشاعر يصف وصيفات القصور ، لاربات الخدور !! وقد أعجب بعض الكتاب بتلك الأوصاف، ومنهم الدكتور زكي مبارك الذي قال عنها : وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله : (العاثرات بألباب الرجال ..) فقد جعلهن يمشين على القلوب فيعثرن بقلب بعد قلب وإن لم يسلمن من عثرات الدلال ، وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل[1]) ولكل وجهة هو موليها .

ولم يكتف شوقي بذلك الوصف بل أضاف إليه قوله[2] :

الحاملات لواء الحسن مختلفا
أشكاله وهو فرد غير منقسم

من بيضاء أو سمراء زينتا
للعين والحسن في الآرام كالعصم[3]

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ١٩٣ ، بتصرف

(٢) الشوقيات جـ ١ ص ١٩٤ .

(٣) الآرام : جمع رئم . العصم : جمع أعصم وهو ما فيه (العصمة) — بضم العين — وهي بياض اليدين ، والعصماء من المعز — البيضاء الذراعين وسائرها أسود أو أحمر .

يرعن للبصر السامى ، ومن عجب
إذا أشرن أسرن الليث بالعنم[1]

وضمت خدى وقست الفؤاد رىى
يرتعن فى كنس منه وفى أكم[2]

إنهن جميلات ، مع اختلاف أوصافهن ، وتعدد أشكالهن ، ومن عجيب أمرهن أنهن يفزعن إذا نظر إليهن أحد ، وإذا أشرن إلى الليث أسرنه ، مما جعل الشاعر يستسلم لهن ، ويفتح قلبه لهن كلهن ، يرتعن فيه كما يحببن .

ولا يخفى أن فى قوله : (الحاملات لواء الحسن ..) تشخيصا للحسن ، كما أن فى حملهن لواءه ، كناية لطيفة تشير إلى شدة حسنهن .

ولقد بين شوقى الإجمال فى قوله : (مختلفا أشكاله ..) بقوله : (من كل بيضاء ..) ، وفى قوله : (يرعن للبصر السامى) إشارة إلى حيائهن وخفرهن ، كما قال بعض الكتاب[3] ، ولا يخفى ما فى قوله : (إذا أشرن أسرن الليث بالعنم) من شدة تأثير هؤلاء القاتنات ولعله يقصد بالليث نفسه ، ويقويه قوله السابق : (رمى القضاء بعينى جوذر أسدا) ولقد اشتملت تلك العبارة على جناس ناقص بين قوله (أشرن وأسرن) وفيه إشارة ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ إلى سرعة التأثير ، وضعف ذلك الأسد الذى يؤسر بإشارة أصبع ، ومما يؤكد ذلك الضعف قول الشاعر : (وضمت خدى ..) لأن ذلك كناية عن الاستسلام والخضوع .

ثم عاد الشاعر إلى مخاطبة محبوبته الأولى بقوله :[4]

يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه
ألقاك فى الغاب أم ألقاك فى الأطم[5]

---

(١) يرعن : بضم الياء ـ وفتح الراء ـ يخفن .
(٢) الكنس : ـ بضمتين ـ جمع كناس ـ بكسر ففتح ـ وهو مستقر الظباء فى الشجر .
(٣) الموازنة بين الشعراء ص ١٩٣ .
(٤) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٥) اللبد : بكسر اللام مشددة وفتح الباء ـ جمع لبدة وهى الشعر المتراكب بين كتفى الأسد .

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه
أن المنى والمنايا ضرب الخيم[1]

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر
وأخرج الريم من ضرغامة قرم

بينى وبينك من سمر القنا حجب
ومثلها عفة عذرية العصم

لم أغش مغناك إلا فى غضون كرى
مغناك أبعد للمشتاق من إرم[2]

يخاطب الشاعر محبوبته ويمدح أباها بشجاعته وقوة بأسه ، ثم يسألها : أيلقاها فى الغاب - مسكن الأسود مثل أبيها - أم يلقاها فى القصر - حيث تنزل الفاتنات من أمثالها - ؟ ويبدو أنه ذهب للقائها فى بيتها ، ولكنه رأى هولا وخزنا ، لقد رأى أن مناه - محبوبته - وسبب منيته فى ذلك المسكن فأبوها شهم جرئ يحمى الديار ويصونها ، فإذا دخل ذلك البيت ورآه - أبوها ، فإن نهايته محتومة ، ولذلك تعجب من صنع الله الذى خلق من الشهامة والجرأة والقوة -(الصمصامة الذكر) - ، لينا ورقة (الغصن)، بل من أخرج الريم من الأسد ، ثم صرح لها بأن زيارتها قد حال دونها أمران :
الأول : ما أقامه أبوها من حراسة شديدة ، وحماية منيعة حول البيت.
الثانى : عفته التى تزجره وتنهاه عن ذلك ، ثم أكد بأنه لم ير منزلها إلا فى الحلم ، ووجده أبعد للمشتاق من مدينة إرم.

وإذا تأملت قوله : (يابنت ذى اللبد ..) وجدته كناية عن الأسد ، وصف بها الشاعر والد محبوبته ، كما أن قوله : (أم ألقاك فى الأطم) يدل على أن بيت محبوبته حصن منيع ، ولا يخفى ما فى جمعه بين (المنى والمنايا ...)

---

(١) : عن : - بفتح العين وفتح النون مع تشديدها - ظهر ، ضرب الخيم : المكان الذى تقام فيه الخيمة .
(٢) لم أغش مغناك : لم آت منزلك ، وسمى مغنى ؛ لأنه غنى به أهله.

من دلالة قوية على بعده عن محبوبته ، وعدم القرب من منزلها ، لأن فى قربه منيته .

ولقد أكد الشاعر قوة أبيها ، ومضاء عزمه فشبهه بالسيف (صمصامة ذكر) كما شبه محبوبته بالغصن فى الليونة والرقة ، ثم زاد ذلك تأكيدا ، فشبه أباها ـ مرة ثانية ـ بالأسد الشديد الشهوة إلى اللحم ، وشبه محبوبته بالريم ، ولا يخفى أن فى البيت دلالة على قدرة الله .

وأحسن الشاعر عندما قرر بُعده عن محبوبته بأمرين : شدة الحراس وعفته وكنت أود أن يقدم عفته على الحراس .

ولعله أراد أن يبين بعد ديار محبوبته فذكر أنها أبعد من إرم .

النفس والدنيا :

وانتقل الشاعر إلى تحذير نفسه ـ من مكر الدنيا بعد يأسه من وصل محبوبته فقال [1] :

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية
وإن بدا لك منها حسن مبتسم [2]

فضى بتقواك فاها كلما ضحكت
كما يفض أذى الرقشاء بالثرم [3]

مخطوبة منذ كان الناس خاطبة
من أول الدهر لم ترمل ولم تئم

يفنى الزمان ويبقى من إساءتها
جرح بآدم يبكى منه فى الأدم

يعظ الشاعر نفسه، ويحذرها من حب الدنيا، والانخداع بزخرفها ، ولا سبيل إلى التغلب عليها إلا بتقوى الله (سبحانه وتعالى) لأنها فتنة، وما زال الناس

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢) مبتسم : المراد الابتسام أو محله وهو الثغر .
(٣) أذى الرقشاء : سمها ، الثرم : كسر السن من أصلها .

يرغبونها — أكثر مما يجب — ويركنون إليها ، ولذلك فتنتهم،وأغرتهم بحبها ، ومع أنها لا تدوم ، إلا أن إساءتها لا تنتهى، ولذلك فإن آدم (عليه السلام) — وهو أول الناس خلقا — لن ينس مكرها ، وخداعها وإبليس آخر الزمان.

ولعل الشاعر أراد أن يشير إلى حقارة الدنيا ، فأضافها إلى ضمير النفس فى قوله : (يانفس دنياك..) ، ولا يخفى أن فى قوله : (تخفى كل مبكية وإن بدالك منها حسن مبتسم) استعارة مكنية ، توحى بتشخيص الدنيا ومدى تفننها فى غرورها وخداعها .

كما أن فى قوله : (فضى بتقواك فاها كلما ضحكت) استعارة مكنية أيضا ، أكدت الاستعارة المكنية السابقة ، كما بينت الطريق فى علاج خداع الدنيا ، التى شبهها الشاعر بالحية فى قوله : (كما يفض أذى الرقشاء بالثرم) وفى هذا التشبيه إيضاح وبيان المعنوى عن طريق أمر حسى ، وزاد الشاعر تشبيهها آخر يوضح حالة الدنيا ومدى الإقبال عليها ، فشبهها بعروس جميلة غرت الناس بجمالها ، فهم دائما يخطبونها ، وهى أيضا تخطبهم بزخرفها ، وهى مستمرة فى ذلك الحال لم يمت لها ابن ، ولم تفقد لنفسها زوجا (مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ..).

وفى البيت الأخير إشارة إلى شدة مصيبة الدنيا ، وعظم بلائها (يفنى الزمان ويبقى من إساءتها ..) كما فيه إشارة إلى قصة آدم (عليه السلام) [(1)] حينما أغواه إبليس بالأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ليكون من الخالدين فى الدنيا (جرح بآدم يبكى منه فى الأدم).

ويواصل شوقى وعظ نفسه بقوله : [(2)]

لا تحفلى بجناها أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم [(3)]

---

(1) قصص الأنبياء ج ١ ص ١ ومابعدها .
(2) الشوقيات ج ١ ص٢٤٣ .
(3) لا تحفلى : لا تهتمى ولا تكترثى — جناها : بفتح الجيم — ما يجتنى من الشجر أو يقطف من الثمر، والمراد : عطاؤها ، جنايتها : المراد ما يقع فيها من البلاء .

كم نائم لا يراها وهى ساهـــــرة
لـــولا الأمانـى والأحلام لم ينـم
طورا تمدك فى نعمى وعافيـــة
وتـارة فى قـرار البؤس والوصـــم
كـم ضللتك ومن تحجب بصيرتـه
إن يلق صابا يرد أو علقما يســــم (١)

يقول الشاعر لنفسه : لا تكترثى بالدنيا سواء أتتك بعطاء ، أو ببـلاء ، فإنها إلى انتهاء ، وكم من الناس قد ركنوا إليها ، واطمأنوا بها ، وشغلـــوا عما يجـرى فيها من العبر والعظات ، وهى تتفنن فى خداعهم ، وتسهــــر على الكيد لهم ، ولولا أنها تخدعهم بالأمانى الكاذبة والأحلام الخادعـــة ما ناموا ، وعجيب أمر هذه الدنيا التى تارة يكون الإنسان فيها صحيحا معافى، وتارة يصبح فى ضروب من الشقاء والألم ، وكثيرا ما ضللتك الدنيا وفتنتك ، ومن تفتنه ، تعلـب عقله فلا يستطيع تمييز الحلو من المر ، أو الضار من النافع .

إن قول الشاعر : (لا تحفلى بجناها أو جنايتها) يشـير إلى عــــدم الاهتمام بما يقع فى هذه الدنيا من عطاء يسر ، أو بلاء يحزن ، وأحسن الشاعر عندما جمع بين لفظى : (جناها وجنايتها) ـ بينهما جناس شبيه بالمشتق ـ فلعل قرب اتحاد حروفهما يدل على قرب التلازم بينهما فى تلك الحياة .

وأضاف الشاعر اللفظين (جناها وجنايتها) إلى ضمـير يعود على الدنيا لوقوعهما فيها .

ولعل قول شـوقى (الموت بالزهر مثل الموت بالفحم) يؤكد الفكــــرة السابقة ، بصورة حسية ، فالموت اختناقا بسبب شدة أريج الزهر ، كالمـــوت اختناقا بسبب شدة دخان الفحم ، فالنتيجة واحدة، والفرق بينهما لا قيمة له ، ولا يخفى أن قول الشاعر : (كم نائم لا يراها وهى ساهرة ..) يدل على كثرة من يفتن بزخرف هذه الحياة ، ويغفل عن مصائبها ، كما أن الطباق بين قولـه : (نائم وساهرة) قد جذب الانتباه ، وبين غفلة من يخدع بالدنيا .

(١) الصاب : جمع صابة شجر مر . العلقم : الحنظل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح عدم استقرار الدنيا على حال فقال :(طورا تمدك فى نعمى وعافية ٠٠) ولا يخفى أن فى إسناد الفعل (تمد) إلى ضمير يعود عليها مجازا عقليا يوحى بالتشخيص ، كما أن المقابلة بين قوله : (نعمى وعافية) وقوله : (البوس والوصم) تؤكد أن التقلب والتغيير من شيمة تلك الحياة وهذا يتطلب عدم الانخداع بها ، والاطمئنان إليها ٠

ثم يخاطب الشاعر نفسه ويوبخها فى قوله : (كم ضللتك)أى فتنتك الدنيا كثيرا ، ثم بين أثر تلك الفتنة ، بأنها — الدنيا — تسلب عقل من تفتنه ، وتجعله (إن يلق صابا يرد أو علقما يسم)٠

ثم تحسر الشاعر على نفسه بقوله[1] :

يا ويلتاه لنفس راعها ودهـا
مسودة الصحف فى مبيضة اللمم[2]

ركضتها فى مريع المعصيات وما
أخذت من حمية الطاعات للتخم[3]

هامت على أثر اللذات تطلبها
والنفس إن يدعها داعى الصبا تهم

يبدو أن الشاعر فتن بالدنيا كثيرا ، ولذلك تفجع على نفسه عندما وجد الشيب قد حل — وهو ينذر بدنو الأجل غالبا — وصحيفة عمله قد اسودت بسبب كثرة المعاصى التى اقترفها ، واللذات التى غرمها ٠

إن حسرة الشاعر على نفسه كبيرة ، يشير إليها قوله : (ياويلتاه لنفس ٠٠) ويؤكد هذه الحسرة تلك الكناية التى فى قوله : (مسودة الصحف) فهى كناية عن كثرة الذنوب ، ويزيدها تأكيدا تلك الكناية التى فى قوله :(مبيضة اللمم)

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٣٠
(٢) دهاه : الأصل دهاها أى أصابها ٠
(٣) ركضتها أصل الركض تحريك الرجل ، ويقال ركضت الفرس برجلى إذا استحثثته ليعدو ، والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها فى طريق الغواية ، مريع : خصيب ٠

فهى كناية عن الشيب ، ولا يخفى أثر الطباق الذى بين قوله : (مسودة ومبيضة) فهو يشير إلى التناقض الكبير بين الأمرين ، وفى ذلك زيادة التفجع على هذه النفس .

وإذا تأملت قوله : (ركضتها فى مريع المعصيات ..) وجدته قد اشتمل على استعارة مكنية إذ شبه نفسه بالفرس تشبيهها مضمرا فى النفس ، وفى ذلك إشارة إلى كثرة استرسال تلك النفس فى المعاصى ، وعدم احتمائها من شدة السواقب بطاعة الله ، ويؤكد الشاعر ذلك بقوله : (هامت على أثر اللذات تطلبها ..) إذ فى إسناد الفعل إلى ضمير النفس مجاز عقلى ، يوحى بتشخيصها ، ويبين مدى حرصها على تلك اللذات ، ثم أتى الشاعر بحكمة صادقة فى قوله : (والنفس إن يدعها داعى الصبا تهم) وفى ذلك بيان طبيعة النفس البشرية ، وهو متأثر فى ذلك بالبوصيرى — كما سيأتى فى باب الموازنة .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض الكتاب قال : " إن الشاعر قد زاد هاء السكت بعد كلمة (ويلتا) فى حالة الوصل ، والمشهور أنها لا تزاد إلا فى الوقف [١] " ، ولكنى وجدت أن علماء اللغة قالوا : قد يعطى الوصل حكم الوقف وذلك قليل فى الكلام كثير فى الشعر [٢] .

علاج النفس :

ثم أشار الشاعر إلى بعض ما يصلح النفس ، ويشفيها من دائها فقال [٣] :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير عافية
والنفس من شرها فى مرتع وخم

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى . ص ١٢٥
(٢) منار السالك ج ٢ ص ٣٥٩ .
(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣ .

تطغى إذا مكنت من لـذة وهـوى
طغـى الجياد إذا عضت على الشكم

إن صلاح النفس فى تمسكها بالأخلاق الحسنة ، والصفات الحميدة ، فإذا تمسكت بذلك فإن الخير يعمها، والعافية تحيط بها ، أما إذا مالت إلـى الأخلاق السيئة، والصفات الذميمة ، فإن الهلاك نهايتها ، والخسران مآلهـا وهى إذا تمكنت من الهوى طغت وبغت ، كما يطغى الجواد إذا عض على اللجام.

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (صلاح أمرك ..) بيان قيمة الأخلاق الحسنة ، ويؤكد ذلك تكرار لفظ الأخلاق ، كما يزيد ذلك تأكيدا تقديم الجـار والمجرور على متعلقه فى قوله : (للأخلاق مرجعه) والأصل (مرجعه للأخلاق) وفى ذلك اهتمام بالمقدم والعناية به لأهميته.

ولقد كرر الشاعر (لفظ ـ النفس) أكثر من مرة ـ فى تلك الأبيات فعبر بالمظهر محل المضمر ، ولعل ذلك للاهتمام بأمرها ، والعناية بشأنها ، ولا يخفى ما فـى البيت الثانى من مقابلة بين شطريه ـ تقريبا ـ وفى ذلك إشارة إلى قيمة الأخلاق الحسنة ، وعاقبة الأخلاق السيئة ، وبيان ما يعود على النفس من تمسكهـا بهذه أو تلك .

وفى البيت الأخير بيان تحكم النفس وطغيانها إذا تمكنت من هواها ، وأحسن الشاعر عندما وضح مدى ذلك الطغيان بتشبيهه بطغيان الجياد إذا عضـت على اللجام ، فليس من السهل تخليصه منها ، أو السيطرة عليها ، وفى ذلـك بيان الأمر المعنوى بأمر محسوس لتوضيحه وتقريره.

غفران الله ، وشفاعة رسول الله :

عندما رأى الشاعر كثرة ذنوبه ، لم ييأس من رحمة الله ، ولكنه نـدم وقال [1] :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمـل
فى الله يجعلنى فى خير معتصـم

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٤.

ألقى رجائى إذا عز المجير على
مفرج الكرب فى الدارين والغمم

إذا خفضت جناح الذل أسأله
عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة
قدمت بين يديه عبرة الندم

يبين شوقى أن أمله كبير فى عفو الله ورحمته — مهما عظم ذنبه وأن رجاءه فى شفاعة رسول الله عظيم ، مهما كثرت خطاياه .

وإذا تأملت قول الشاعر : (إن جل ذنبى عن الغفران ..) وجدته يبين أنه من شدة حسرته على نفسه التى أفرطت فى المعاصى ، تخيل أن ذنوبه إن جلت عن الغفران فى الظاهر لعظمها وكثرتها — ولعل ما يوحى بذلك اختيار الشاعر لفظ (إن) الذى يشير إلى الشك بعض الشىء ، بخلاف (إذا) مثلا إن كان ذلك كذلك فله أمل كبير فى رحمة الله . ويبدو أن الشاعر من شدة حزنه نسى أن جواب الشرط جملة اسمية فيجب اقترانه بالفاء[1] ولعل قوله : (فى خير معتصم) يبين ويؤكد عظم أمله فى الله .

وفى البيت الثانى يشير الشاعر إلى شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه مفرج الكرب فى الدنيا ، بإخراج الناس من الظلمات إلى النور . وفى الآخرة بالشفاعة العظمى فى يوم المحشر العظيم . ولذلك يبين الشاعر أنه عندما يسأله الشفاعة فى ذلك الوقت سيكون سؤاله يسيرا . (لم أسأل سوى أمم) ؛ إذ ماذا يكون شوقى فى ذلك العدد العظيم الذى ستشمله شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك اليوم بإذن الله تعالى .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (إذا خفضت جناح الذل ..) كناية لطيفة تشير إلى تواضع الشاعر وانكساره . ويقوى ذلك قوله : (وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ..) إذا تقدم الناس بأعمالهم فليس له ما يقدمه إلا (عبرة الندم) . ويبدو أن الشاعر نسى أن الندم فى ذلك الوقت لا يفيد .

---

(١) منار السالك جـ٢ ص٢٢٢

ويواصل الشاعر مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن
يمسك بمفتاح باب الله يغتنم[2]

فكل فضل وإحسان وعارفة
ما بين مستلم منه وملتزم[3]

علقت من مدحه حبلا أعز به
في يوم لا عز بالأنساب واللحم

يزرى قريضى زهيرا حين أمدحه
ولا يقاس إلى جودى ندى هرم

يبين شوقى أنه توسل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمكانته العظيمة عند الله ، كما أنه مفتاح يوصل إلى رحمة الله ومغفرته ـ وأن الله قد أجرى على يديه كل فضل وإحسان ومعروف ، ثم ذكر الشاعر أنه بمدحه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصبح ذا صلة به تنفعه يوم القيامة يوم لا عز بالأحساب ولا بالأنساب ولا بالقرابة ، أضف إلى ذلك أنه حين مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فاق بمدحه مدح زهير هرما ، ولا يقاس جود الشاعر ـ الذى حصل عليه بسبب مدحه الرسول ـ بعطاء زهير ـ الذى حصل عليه بسبب مدحه هرما ـ فهناك فرق كبير بين الممدوحين.

وإذا تأملت قول الشاعر : (لزمت باب أمير الأنبياء ..) وجدته يشير إلى دوام توسله إلى الله برسوله (صلى الله عليه وسلم) إلا أن لفظ (أمير) لا يليق بمقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويبدو أن الشاعر متأثر في بعض ألفاظه ببيئة القصور التى كان يعيش فيها مع الخديوى وغيره .

كما بين شوقى أن من يتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) يغنم لأنه يوصله إلى رحمة الله وفضله ، كما أن الله قد أجرى على يديه كل خير.

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ص ٢٤٤ .   (٢) أمير الأنبياء : المراد : الرسول (صلى الله عليه وسلم)

(٣) عارفة : المراد معروف.

ولا يخفى أن البيت الثانى بيان وتوضيح وتعليل للبيت الأول .

وإذا كان الشاعر قد بين ماعاد عليه من مدحه الرسول بقوله : (علقت من مدحه حبلا أعز به ..) فإنه قد ذكر أن شعره — حين يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) — يفوق شعر زهير حين يمدح هرما ، أضف إلى ذلك كثرة جوده بالنسبة إلى ندى هرم ، وكل هذا يبين فضل الرسول وكرمه (صلى الله عليه وسلم) .

وألفاظ الشاعر واضحة سهلة إلا أن التعبير بقوله : (باب الله) لا يليق بالمقام ، كما أن لفظ (مستلم) غير مستعمل فى معناه ، لأنك تقول : استلمت الحجر أى لمسته بالقبلة أو باليد ، ولا شك فى أن مراد الشاعر هنا غير ذلك ، ويبدو أنه تأثر فى ذلك بقول البوصيرى : (.. إلا استلمت الندى من خير مستلم) وهذا — أيضا — خطأ كما سبق [1].

واستمر شوقى فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [2] :

محمد صفوة البارى ورحمته
وبغية الله من خلق ومن نسم

وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة
متى الورود وجبريل الأمين ظمى [3]

سناؤه وسناه الشمس طالعة
فالجرم فى فلك والضوء فى علم [4]

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صفوة الله من خلقه أجمعين ، وهو المبعوث رحمة للعالمين ، وهو صاحب الحوض المورود يوم القيامة ، كما أنه عالى المنزلة . رفيع المكانة

---

(١) انظر ص ١٥١ من هذه الرسالة .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٤ .
(٣) سبقت الإشارة إلى الحوض فى هامش ص ٦٨ ١ من هذه الرسالة .
(٤) سناؤه : رفعته ، سناه : نوره . الجرم : المراد الجسم — فلك — بفتحتين — المراد مكان العلم : المراد العالم .

ولا يخفى أن فى قوله : (محمد صفوة البارى ورحمته٠٠) إشارة إلى عظم مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك قوله : (وصفية الله من خلق ومن نسم) ، ولعل الشاعر أتى بالظاهر محل الضمير في قوله :(وصفية اللهُ وكان أصله (وصفيته) لتأكيد فضل الرسول والاستلذاذ بذكر الله (سبحانه وتعالى) إلا أن ذكر لفظ (من نسم) بعد لفظ (من خلق) بعد حشوا ، ويبدو أن الشاعر أتى به للوزن٠

وفى البيت الثانى إشارة إلى حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ،ومما هو جدير بالذكر أن لكل نبى حوضا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " إن لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإنى أرجو أن أكون أكثرهم واردة " ،ولهذا لم يوفق الشاعر فى قوله : (يوم الرسل سائلة متى الورود) ، أضف إلى ذلك أنه قد أخطأ فى قوله : (وجبريل الأمين ظمى) لأن الملائكة ـ ومنهم جبريل عليه السلام ـ لا يأكلون ولا يشربون [(١)] ، فكيف ينسب شوقى الظمأ إلى جبريل ؟ ، والعجيب أن يفسر بعض الكتاب معنى كلمة (ظمى) بأنه متلهف على الشفاعة إشفاقا على الناس[(٢)] ولم يذكر ما يؤيد ذلك ٠

ثم أشار الشاعر إلى علو مكانة ـ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنه بقوله : (سناؤه وسناه الشمس طالعة) إنه يشبه : علو مكانة الرسول وهدايته بالشمس إذا كانت طالعة ، ولا شك فى أن الرسول أفضل من ذلك إلا أن الشاعر أتى بهذا التشبيه للتقريب ، ولا يخفى أثر الجناس الذى فى قوله : (سناؤه وسناه) إذ أشار إلى جمع الرسول بين الرفعة والنور أى الهداية ،وأكد ذلك بقوله : (فالجرم فى فلك والضوء فى علم) أى أن الجسم فى مكانه،ولكن هدايته منتشرة فى العالم كله٠

---

(١) انظر شرح البيجورى على الجوهرة ج ٢ ص ١٠٩٠

(٢) الإسلام فى شعر شوقى هامش ص٦٣٠

نسب الرسول :

وأشار شوقى إلى نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :[1]

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته
من سؤدد باذخ فى مظهر سنم

نموا إليه فزادوا فى الورى شرفا
ورب أصل لفرع فى الفخار نمى

حواه فى سبحات الطهر قبلهم
نوران قاما مقام الصلب والرحم

إن النجم على ارتفاعه لم يدرك ما أدركه آباء الرسول وأصوله من السيادة والشرف الذى اكتسبوه من نسبتهم وانتمائهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كرمه الله ، فخلق نوره ثم أفاض عليه من نوره ، فكان نورا على نور.

ولا شك فى أن الشاعر يشيد بنسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : (قد أخطأ النجم ..) وأحسن عندما عبر (بما) التى تفيد التفخيم والتعظيم ، وذلك فى قوله : (ما نالت أبوته ..) ثم وضح ما أجمله فى العبارة السابقة بقوله : (من سؤدد باذخ ..) ، وهذا من قبيل الإطناب الذى يكون محبوبا فى معرض المدح .

وإذا كان المألوف والمعهود أن يشرف الفرع بأصله ، فقد أحسن الشاعر عندما خالف ذلك المعهود ، وذهب إلى أن آباء الرسول وأصوله هم الذين شرفوا بانتسابهم إليه (صلى الله عليه وسلم) وذلك فى قوله : (نموا إليه فزادوا فى الورى شرفا ..) ولا شك فى أن ذلك يؤكد فضل الرسول وعلو منزلته التى جعلت الشاعر يشير إلى بعضها مخالفا المعهود ، ولما كان شرف الأصل بفرعه يكون نادرا حسن من الشاعر أن يقول : (ورب أصل لفرع فى الفخار نمى) .

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٥ .

ويبدو أن الشاعر قد تأثر فى نظمه بفكرة من ذهبوا إلى سبق النور المحمدى[1] فقال : (حواه فى سبحات الطهر قبلهم ..) .

وإذا كان الله قد أكرم نبيه قبل خلقه فأفاض عليه من نوره، فلقد أكرمه ببيان علاماته وصفاته فى الكتب السابقة قبل وجوده أيضا ، ولذلك[2] :

لما رآه بحيرا قال : نعرفه
بما حفظنا من الأسماء والسيم

يشير شوقى فى ذلك البيت إلى قصة بحيرا عندما رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو مع عمه أبى طالب فى طريقه إلى الشام[3] .

ثم أشار الشاعر إلى ذهاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى غار حراء ، قبل نزول الوحى بقوله[4] :

سائل حراء وروح القدس هل علما
مصون سر عن الإدراك منكتم

كم جيئة وذهاب شرفت بهما
بطحاء مكة فى الإصباح والغسم

ووحشة لابن عبد الله بينهما
أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحى فيها قبل مهبطه
ومن يبشر بسيمى الخير يتسم[5]

لقد اختار الرسول (صلى الله عليه وسلم) غار حراء ليتعبد فيه قبل نزول الوحى ، وهذا الاختيار كان لسر عظيم لا يعلمه أحد إلا الله ، ولو سألت

---

(١) انظر ص ١٢٤ من هذه الرسالة .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥
(٣) انظر ص ٣٦٦ من هذه الرسالة .
(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .
(٥) مهبطه : المراد هبوطه . يبشر : بضم أوله وفتح ما قبل آخره .

الغار وجبريل (عليه السلام) عن ذلك السر ما علا عنه شيئا ، كما أن بطحاء مكة قد شرفت بسير الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليها ، عندما كان يذهب إلى الغار ، وإن كان فى وحشة عن الناس ، لكنه كان فى أنس رب الناس (جل جلاله) إذ كان يشعر بأن هداية الله تحوطه ، وعنايته ترعاه .

وإذا تأملت قوله : (سائل حراء وروح القدس ..) وجدته يشير إلى أن الشاعر قد جرد من نفسه شخصا وأمره بأن يسأل (حراء وروح القدس) ولعل لفظ (سائل) يوحى بتكرار السؤال ، والإضافة فى قوله : (مصون سر) من إضافة الصفة إلى الموصوف ،ولعل ذلك يوحى بأن هذا السر لم يعلم به أحد مهما كان شأنه ، ويؤكد ذلك لفظ (منكتم) وإن كان فى هذا اللفظ خطأ لغوى ـ كما سبق ـ[1] .

ولا يخفى أن قول الشاعر (كم جيئة وذهاب ..) يوحى بكثرة ذهاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى غار حراء ورجوعه منه إلى بيته ، مما يدل على طول مدة تعبد الرسول قبل الرسالة ، ولعل الطباق بين قوله : (الإصباح والغسم) يوحى بالمواظبة على ذلك .

وإذا تأملت الطباق بين قوله : (وحشة ... والأنس) أدركت مدى ماعاناه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وحشته عن الناس ، ولكنه كان يأنس بربه الذى هو خير أنيس ، إلا أن لفظ (أشهى) غير مناسب للمقام .

وإن كان قول الشاعر : (يسامر الوحى فيها قبل مهبطه ..) يشير إلى شوق الرسول إلى جبريل (عليه السلام) ، فإن قوله : (ومن يبشر بسيمى الخير يتسم) حكمة صادقة توحى بأن للخير دلائل تظهر آثارها على صاحبه .

ثم أشار شوقى إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أشار إلى بعض الإرهاصات فى قوله [2] :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ
فاضت يداه من التسنيم بالسنم[3]

---

(١) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة .
(٢) الشوقيات ـ جـ١ ص ٢٤٥ ومابعدها .
(٣) التسنيم : ماء بالجنة يجرى فوق الغرف ، والمراد هنا الماء العذب مطلقا .

وظللته فصارت تستظل بـــه
غمامة جذبتها خيرة الديم

محبة لرسول الله أشربها
قمائد الدير والرهبان فى القمم[1]

إن الشمائل إن رقت يكاد بها
يغرى الجماد ويغرى كل ذى نسم

ذكر الشاعر — فى البيت الأول — قصة الصحابة عندما لم يجدوا ماء ، وشكوا ذلك إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوضع يده فى إناء ، ففاض الماء وشربوا جميعا — كما سبق[2] — .

وفى البيت الثانى يشير إلى قصة الغمامة التى كانت تظلل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورآها بعض الرهبان فوقروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأحبوه لما علموا عنه من صفاته وشمائله — أنه الرسول الذى أشارت إليه الكتب السماوية التى كانت بين أيديهم[3] .

وإذا تأملت قول الشاعر : (.. فاضت يداه ..) وجدته يشير إلى كثرة الماء الذى فاض من يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن الشاعر أسند الفيض إلى يدى الرسول وقد ذكرت الأحاديث — كما سبق — ما يفهم منه أن الرسول وضع يدا واحدة ، ولعل قوله : (من التسنيم بالسنم) يشير إلى عذوبة ذلك الماء ، لأنه فى الأصل ماء بالجنة .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (وظللته فصارت تستظل به ..) ما يشير إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ الغمامة التى أتت لتظلل الرسول صارت تستظل هى بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لأنها صارت فى ركابه الشريف فنالها شرف من شرفه المعظم ، أما قوله : (غمامة جذبتها خيرة الديم) فيقول عنه بعض الكتاب : " لا توافقه على أن أجود المطر هو الذى جذب السحابة لأنه لا مطر بغير سحاب ، وكان الصواب أن يقلب التعبير فيقول : إن الغمامة

---

(١) قمائد جمع قميدة ، وقمائد الدير ملازموه من متنسكة النصارى .
(٢) انظر ص ٣٦٣ من هذه الرسالة .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .

حملت أجود المطر (١) ".

ولعل فى قول الشاعر : (إن الشمائل إن رقت ..) دعوة صريحة إلى حسن الأخلاق ، لأن الأخلاق الحسنة (يكاد بها يغرى الجماد ويغرى كل ذى نسم)ولا يخفى أن فى تكرار الفعل (يغرى) والطباق بين (الجماد وكل ذى نسم) ، فى هذين الأمرين مما يؤكد أثر حسن الخلق ، وإن كان فى العبارة شىء من المبالغة فقد خففها لفظ (يكاد).

نزول الوحى :

ولقد أشار شوقى إلى نزول الوحى أول مرة بقوله (٢) :

ونودى اقرأ ،تعالى الله قائلها
لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أذن للرحمن فامتلأت
أسماع مكة من قدسية النغم (٣)
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها
وكيف نفرتها فى السهل والعلم
تساءلوا عن عظيم قد ألم بهم
رمى المشايخ والولدان باللمم

لقد نزل الوحى أول ما نزل بقوله تعالى : (اقرأ) ، ثم أمر الرسول بدعوة الناس إلى توحيد الله ، وكان لتلك الدعوة صداها العظيم فى مكة، ولذلك أصيبت قريش بالحيرة ، بل أصابها مس من الجنون .

ولا يخفى أن الشاعر قد عبر بالفعل المبنى للمجهول فى قوله : (ونودى اقرأ) لمعرفة المنادى (جل جلاله)، ثم عظمة الشاعر بقوله : (تعالى الله قائلها) ويبين أن ذلك الأمر لم يسبق نزوله إلى أحد قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (لم تتصل قبل ..) ولعل فى ذلك إشارة إلى

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص ٥٨ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٦ . (٣) أذن للرحمن - ببناء الفعل للمجهول - المراد دُعى إلى توحيد الله ، قدسية النغم : المراد الصوت المنزه عن التطريب .

تكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين مدى جهر الرسول بالدعوة وإعلانها فقال : (هناك أذن للرحمن ..) لقد جهر الرسول بالدعوة إلى توحيد الله حتى لقد (امتلأت أسماع مكة ..) فضلا عن أهلها ، إلا أن قريشا قد أصيبت بالحيرة ، ونفرت من هذه الدعوة ، لأنها تدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، وتحثهم على عبادة إله واحد ، ولذلك عجبوا كيف يجعل محمد الآلهة إلها واحدا ، إلا أن قول الشاعر : (قدسية النغم) غير ملائم المقام ، لأن المقام يقتضى (قدسية الكلم) مثلا أما (قدسية النغم) فتشير إلى النغمة البعيدة عن التطريب والمنزهة عن إيقاع الأصوات ، وما لهذا كان هنا ، فى ذلك المقام .

وإذا كان قول الشاعر : (فلا تسل عن قريش ..) يفيد عدم جدوى السؤال لأن إجابته واضحة ، فإن قوله : (كيف حيرتها ..) يشير إلى عظم تلك الحيرة كما أن قوله : (وكيف نفرتها ..) يوضح موقفها من تلك الدعوة ، ولا يخفى أن الطباق فى قوله : (السهل والعلم) يدل على نفرة قريش فى كل مكان .

ولعل قول الشاعر : (تساءلوا عن عظيم ..) يشير إلى قوله تعالى : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)[1] ، وإذا كان فى قوله : (.. رمى المشايخ والولدان بالـلمم) كناية عن دهشتهم العظيمة التى شملت الصغير والكبير منهم ، فإن لفظ (المشايخ) غير لائق التعبير وخاصة من شاعر كشوقى

ولقد كان موقف قريش من دعوة الرسول موقفا غريبا ولذلك قال لهم شوقى[2] :

يا جاهلين على الهادى ودعوته
هل تجهلون مكان الصادق العلم

لقبتموه أمين القوم فى صغر
وما الأمين على قول بمتهم

فاق البدور ، وفاق الأنبياء فكم
بالخَلق والخُلق من حسن ومن عظم[3]

---

(١) النبأ / ١ ، ٢ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٤٦ ٢
(٣) الخلق — الأولى — بفتح الخاء — والثانية بضمها .

التفت الشاعر إليهم وأخذ يؤنبهم، لأنهم بغوا على الرسول ودعوته فاتهموه بالكذب ، مع أنهم - قبل الرسالة - كانوا يلقبونه (الأمين) وكيف يكون أمينا ثم يرمى بالكذب ، ولقد جمع بين حسن الصورة ، وطهارة السريرة ، وعظمة السيرة (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا تأملت قول الشاعر : (ياجاهلين ..) وجدته قد ناداهم بما ينادى به البعيد ، لأنهم بعدوا عن كل خلق حسن ببغيهم على الرسول وإعراضهم عن دعوته ، كما أن لفظ (جاهلين) يشير إلى أن تصرفهم مبنى على الجهل والظلم والبغى ، ثم وبخهم بقوله : (هل تجهلون مكان الصادق العلم) ولا شك فى أنهم لا يجهلون ذلك ، فالاستفهام إنكارى ، وإذا كان الشاعر قد وبخ قريشا بقوله : (ياجاهلين ..) فإنه قد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه الهادى وهو الصادق العلم .

وأقام الشاعر البرهان على كذب هؤلاء القوم وظلمهم بقوله : (لقبتموه أمين القوم فى صغر) ثم أتى بكلمة يؤكد بها فكرته فقال : (وما الأمين على قول بمتهم) وفى البيت طباق بين قوله (أمين ، متهم) ولعل الشاعر أتى به ليدل على استحالة اجتماعهما (الأمانة والاتهام) فى شخص واحد .

ثم بين الشاعر أنه لا موضع لاستنكار هؤلاء بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فالله قد اصطفاه كما أنه قد جمع له كل الصفات الحسنة ، والأخلاق الكريمة ، فلقد (فاق البدور) فى حسن خلقه ، كما (فاق الأنبياء) فى عظم خلقه ، ولا يخفى أن فى البيت الأخير لفا ونشرا مرتبا فى قوله : (البدور ، الأنبياء ، الخلق ، الخلق الحسن ، العظم) ولعله يشير إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من كل ناحية : الخليقة بفتح الخاء - والخلقية - بضمها - .

القـرآن الكريـــم :

وأشار شوقى إلى معجزة القرآن الكريم بقوله (١) :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت
وجئتنا بحكيم غير منصرم (٢)

---

(١) الشوقيات جـ١ ص ٢٤٦ . (٢) حكيم : المراد به القرآن الكريم من قوله تعالى : "يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ " يس / ١ ، ٢ .

آياتــه كلما طال المدى جـــدد
يزينهــن جــلال المتــق والقــدم
يكــاد فى لفظة منه مشرفـــــــة
يوصيك بالحــق والتقــوى وبالرحــم

ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى بعض ما فاق به الرسول (صلى اللـه عليه وسلم) الأنبياء (عليهم السلام) فذكر أن كل نبى كان يأتى بمعجزة تنتهى بانتهاء مدته ، أما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد جاء بالقرآن الكريـم ، الذى هو معجزة خالدة على مدى الأزمان ، كما أن آياته قديمة ـ لأنها كـلام الله القديم ـ ولكنها محدثة بالنسبة إلى نزولها ، إذ كانت تنزل منجمـــة على حسب الوقائع ، أضف إلى ذلك فصاحتها العالية .

وإذا تأملت حديث الشاعر عن القرآن الكريم وجدته لم يصفه إلا بما وصفه به البوصيرى ـ فهو باق وقديم وحديث وبليـغ ـ بل إن الشاعر قد تـــرك بعض الصفات التى ذكرها البوصيرى ـ وسيأتى الإشارة إليها فى باب الموازنة أضف إلى ذلك أن ذكر لفظ (القدم) بعد لفظ (المتق) يعد حشوا ، وأرى أن لفظ (المتق) غير مناسب للمقام ، إذ يستعمل كثيرا فى مجال الخمر .

وفى قول الشاعر : (يكاد فى لفظة منه مشرقة ..) إشارة إلى بلاغـــة القرآن الكريم ، وضرب لذلك مثلا : إذ اللفـــــظ الواحد منه يشتمل على كثـير من الأوامر التى تنفع الناس فى دينهم ودنياهم ، إلا أننى أرى أن لفـــــظ (يكاد) لم يساعد على تحقيق تلك الفكرة ، التى أراد الشوقى توضيحهـــا ،

فى حين أن القرآن الكريم غنى بالألفاظ النامــة الجامعة التى تحتاج فـــى شرحها إلى مجلدات ، واللفظ الواحد منها يوحى بالحق والتقوى وصلة الرحـم بل وأكثر من ذلك ، ولعل أقرب مثال على ذلك لفظ (الاستقامة) ولهـــذا كله كنت أحب ألا يقول الشاعر : (يكاد ..) .

فصاحـة الرسـول :

وبعـــدما أشـــار الشاعـــر إلى فصاحـة القرآن الكريم ، انتقل إلــــى الحديث عن فصاحة الرسول بقوله [1] :

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٧ .

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة
حديثك الشهد عند الذائق الفهم[1]

حليت من عاطل جيد البيان به
في كل منتثر في حسن منتظم[2]

بكل قول كريم أنت قائله
تحيي القلوب ، وتحيي ميت الهمم

يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه أفصح من نطق بالعربية ، وأن حديثه حلو كالشهد ، يحس حلاوته من يتذوق البيان ، بل إن بلاغة ذلك الحديث قد زانت البيان العربي مثلا في نثر له جمال الشعر ، كما كان لهذا الحديث أثر كبير في غذاء القلوب ، وتثقيف العقول .

وإذا تأملت قول الشاعر : (يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ..) وجدته ينادي الرسول (صلى الله عليه وسلم) نداء يشعر برفعة المكانة وعلو المنزلة ، كما أن في قوله : (أفصح) نكتة لطيفة وهي الإشارة إلى ما عرف عن العرب من أنهم أهل فصاحة وبيان ، ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أفصحهم جميعا ، وهذا ما يشير إليه أفعل التفضيل ، وأحسن الشاعر عندما شبه حديث الرسول بالشهد في الحلاوة والعذوبة ، وفي هذا تشبيه المعنوي بالمحسوس لتأكيده وبيان أثره ، ولا يخفى أن حديث الرسول أعظم من ذلك .

وأراد الشاعر أن يوضح أثر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : (حليت من عاطل جيد البيان ..) ولا يخفى أن في العبارة استعارة مكنية إذ شبه الشاعر البيان بالمرأة الحسناء التي رمز لها بالجيد ، فكأن حديث الرسول زاد البيان العربي جمالا على جماله ، وعذوبة فوق عذوبته ، ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين فضل حديث الرسول على النثر وعلى الشعر ، فأتى بهذا الطباق في قوله : (منتثر ومنتظم) .

ولقد أكد الشاعر فكرته السابقة في البيت الأخير وخاصة في الشطر الثاني

---

(١) الضاد : المراد اللغة العربية .
(٢) عطل : عطلت المرأة عطلا إذا لم يكن عليها حلي .

بقوله : (تحيي القلوب ، وتحيي ميت الهمم) ، ولا يخفى أن في العبارة مجازا، فإحياء القلوب مجاز عن تأثرها ، كما أن إحياء الهمم مجاز عن تحفيزها بعد غفلتها، ولا شك في أن تكرار الفعل (تحيي) يؤكد أثر ذلك الحديث ، كما أن الطباق في قوله : (تحيي وميت) يبين مدى ما بلغه ذلك الحديث من تأثير كبير .

مولد الرسول :

ثم أشار الشاعر إلى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

سرت بشائر بالهادي ومولده
في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

تخطفت مهج الطاغين من عرب
وطيرت أنفس الباغين من عجم

ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القدم

لقد سرت البشارة بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الشرق والغرب مؤذنة بمشرق النور الذي سيمحو الظلام ، وظهور العدل الذي سيدفع الظلم ولذلك أدرك الظالمون من العرب والعجم أن نهايتهم قد آن وقتها ، فدخل الرعب قلوبهم ، بل إن شرف إيوان كسرى قد انصدعت من قوة الحق ، لا من ضربة المعول .

وإذا تأملت قول الشاعر : (سرت بشائر بالهادي ومولده) وجدت أن في إسناد الفعل (سرى) إلى (البشائر) مجازا عقليا ، يوحي بتشخيص تلك البشائر وفي ذلك تعظيم لها ولما تحمله من أخبار سارة ، ولا يخفى أن في قول الشاعر (في الشرق والغرب) طباقا يشير إلى انتشار تلك البشائر في كل البقاع كما أن في قوله : (مسرى النور في الظلم) بيان سرعة مسرى تلك البشائر وأثرها ، ويؤكد ذلك هذا الطباق الذي بين قوله : (النور والظلم) ، فكما أن النور يسري بسرعة ، ويظهر بوضوح في الظلام ويقضي عليه — أيضا — ، كذلك تلك البشائر انتشرت بسرعة (تخطفت مهج الطاغين .. وطيرت أنفس الباغين ..) ولا يخفى

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٧ .
(٢) القدم : — بضمتين — جمع قدوم : اسم آلة معروفة .

أن بين قوله : (عرب وعجم) طباقا يشير إلى عموم أثر تلك البشائر ، كما أن بين قوله : (طاغين وباغين) جناسا ناقصا يبين نوع بعض من أثرت فيهم تلك البشائر

ولعل الشاعر أراد أن يوضح أن بشائر المولد الشريف لم تؤثر فى الإنسان فحسب بل أثرت فى الجماد أيضا فقال : (ريعت لها شرف الإيوان ..) وأكد ذلك بقوله : (من صدمة الحق ، لا من صدمة القدم) .

ولا يخفى أن الشاعر قد نهج فى ذلك الحديث نهج السابقين وخاصة البوصيرى ـ كما سيأتى ـ أضف إلى ذلك أن ذلك الحديث يشير إلى أنه لم يرتب أفكاره ترتيبا زمنيا ـ إذ مدح الرسول ـ ثم تحدث عن نسبه ، وببعثته وبعض معجزاته وفصاحته ، ثم تحدث عن مولده !!! وكان من الأفضل الحديث عن مولده قبل ذلك كله .

حالة العالم قبيل بعثة الرسول :

ثم بين شوقى حالة العالم قبيل بعثة الرسول بقوله [1] :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة
لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شبه
ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : كان الناس قبيل بعثتك فى جهالة جهلاء ، و ضلالة عمياء ، فالفوضى حالهم ، والأصنام

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٧ .

آلهتهم ، والظلم ديدنهم ، والبغى شعارهم ، والكبر رداؤهم ، وتحكم الحكام فى رعيتهم ، فسفكوا الدماء ، وتكلوا بالأبرياء ، كما فتك الأقوياء بالضعفاء .

وإذا تأملت قول الشاعر : (أتيت والناس فوضى ..) أدركت أن المفاسد قد انتشرت ، وأن العقول قد ألغيت ولا أدل على ذلك من الإخبار عن الناس بقوله :(فوضى) ومما يؤكد هذا الأمر قوله : (لا تمر إلا على صنم قد هام فى صنم) فالمقصود بالصنم الأول ذلك الإنسان الذى ألغى عقله ، وتنازل عن كرامته فعبد صنما لا يضر ولا ينفع .

إن العقول هى الحارس الأمين على حرية الناس وأمنهم ، فإذا ما ألغى الناس عقولهم كان ذلك تمهيدا لانتشار الظلم ، ولذلك أحسن شوقى عندما قال : (والأرض مملوءة جورا ..) بعد قوله السابق : (أتيت والناس فوضى ...) وفى هذا إشارة لطيفة إلى قيمة العقل الناضج ، والفكر السديد .

ثم خص الشاعر بالذكر كلا من كسرى فارس ، وقيصر الروم ، لظهور بغى الأول ، وكبر الثانى ، وما ترتب على ذلك حتى بلغ بهما الأمر إلى أنهما : (يعذبان عباد الله ..) دون ذنب ارتكبوه ، أو جرم فعلوه ، بل بلغت بهما القسوة إلى أنهما (يذبحان ..) عباد الله كما تذبح الشياه !.!.

وأحسن شوقى فى قولـه مخاطبا الرسول :(.. كما ضحيت بالغنم ..) ولعل فى ذلك إشارة لطيفة إلى فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الـذى ينبع من الشريعة السمحة وفعل هذين الحاكمين الظالمين الذى ينبع من شريعة الغاب ، ومكر الذئاب .

ولا شك فى أن هناك فرقا كبيرا من الذابح والمذبوح والهدف من الذبح فى كل من أشار إليهم شوقى .

ولعل الشاعر خص دولتى الفرس والروم بالذكر ، لأنهما كانتا من أقوى الدول فى ذلك الوقت ، كما كانتا أشد من غيرهما علاقة بالعرب ، وأقرب من سواهما جوارا لجزيرة العرب التى بعث فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ثم أشار شوقي إلى أن الأقوياء ـ بعامة ـ كانوا يفتكون بالضعفاء، كما يفتك الأسد بولد الضأن، أو كما يلتهم الحوت صغار السمك.

ولا يخفى أن حديث الشاعر عن حالة العالم قبيل بعثة الرسول يؤكد ما ذكرته ـ سابقا ـ من عدم ترتيب أفكاره ترتيبا زمنيا على حسب وقوعها.

الإسراء والمعراج :

ثم أشار الشاعر إلى معجزة الإسراء والمعراج بادئا بالإسراء ـ في قوله[1] :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه
والرسل في المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت به التفوا بسيدهم
كالشهب بالبدر أو الجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذي خطر
ومن يفز بحبيب الله يأتمم

يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : يارسول الله :لقد أسرى بك الله ليلا إلى المسجد الأقصى، وكان في استقبالك عدد من الملائكة والرسل، فلما حللت بذلك المسجد التفوا حولك ثم صلوا وراءك.

ويلاحظ أن الشاعر أراد أن يصور حفاوة الملائكة والرسل برسول الله فقال : (إذ ملائكه والرسل .. على قدم) فهم قائمون متأهبون لاستقباله، وعندما حل بذلك المكان (التفوا بسيدهم) وهذه صورة أخرى للحفاوة إذ صورهم الشاعر يلتفون حول الرسول التفافا كالتفاف النجوم حول البدر. ولا يخفى أن الشاعر شبه الرسل بالشهب كما شبه الرسول بالبدر، ثم شبه ذلك الالتفاف تشبيها آخر بأنه كالتفاف الجند حول العلم.

ولعل الشاعر أراد أن يبين فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فالتفت من

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٧.

من الخطاب (خطرت) إلى الغيبة (بسيدهم) ولعله أتى بهذا اللفظ ناظرا إلى قول الرسول : (أنا سيد ولد آدم ..) .

وإذا تأملت قوله : (صلى وراءك منهم كل ذى خطر ..) وجدت أنه يشير إلى حفاوة أخرى ، وتفضيل آخر ، وهو أن هؤلاء الرسل على عظم خطرهم ، ورفعة شأنهم ، جعلوا الرسول إمامهم ، لأن الصلاة خلفه شرف كبير .

ثم أتى الشاعر بحكمة صادقة فى قوله : (ومن يفز بحبيب الله يأتمم) ولا يخفى أن هذه العبارة تحث على الائتمام بالرسول (صلى الله عليه وسلم) واتخاذه قدوة ، ولعل العبارة قد خانت الشاعر فوقع فيها نوع من القلب والأصل (ومن يأتم برسول الله يفز) .

ثم أشار الشاعر إلى المعراج بقوله [1] :

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم
على منورة دريـة اللجم [2]
ركوبة لك من عز ومن شرف
لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعته
وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها
على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل كل نبى عند رتبته
ويا محمد هذا العرش فاستلم

قطعت السموات كلها — سماء بعد سماء — بل علوت فوقها مارابهؤلاء الأنبياء ، وأنت على البراق الذى لاتشبهه الجياد الكريمة ، ولا الأينق العظيمة ،

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢) منورة درية اللجم : المراد البراق .

فتبارك من خلق فأبدع ، فقدرته ليست محل الشك أو الريبة ، ويؤكد ذلك أنك بلغت مكانا عليا ، لا يمكن أن يبلغه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ولا يستطيع ذو جناح الوصول إليه ، ولا يتمكن ذو قدم من الحصول عليه.

ولا يخفى ما فى قول الشاعر : (جبت السموات أو ما فوقهن بهم..) من إشارة لطيفة إلى مرور الرسول (صلى الله عليه وسلم) على بعض الأنبياء فى السموات — كما أشارت إلى ذلك كثير من الأحاديث — إلا أن الشاعر ذكر أن الرسول عرج إلى السموات فوق البراق عندما كنى عنه بقوله :(على منورة درية اللجم) ثم صرح عنه بعض التصريح فى قوله : (ركوبة لك من عز ومن شرف ..) والصحيح أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صعد إلى السموات على المعراج ، لا على البراق [1]. كما أن قوله : (ركوبة لك ..) توحى بأن البراق خاص بالرسول ، ولكن الحقيقة أن الأنبياء كانوا يركبونه قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) [2] ، ولا يخفى أن لفظ (ركوبة) غير لائق بالمقام.

ولما كان أمر الإسراء والمعراج خارقا للمادة وفوق تفكير العقل البشرى فقد أحسن شوقى عندما قال : (مشيئة الخالق البارى..) ثم أكد تلك الفكرة بحكمة صادقة فى قوله : (وقدرة الله فوق الشك والتهم).

وإذا تأملت قول الشاعر : (حتى بلغت سماء لا يطار لها ..) وجدته يشير إلى أن الرسول قد ارتفع إلى مكان لا يستطيع أحد أن يرتفع إليه مهما كان شأنه ثم أكد فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (وقيل — أى بلسان الحال — كل نبى عند رتبته) فى السماء التى هو فيها ، أما أنت يامحمد فارتفع واقترب : (يامحمد هذا العرش فاستلم) ولا يخفى أن فى تلك العبارة كناية تشير إلى رفعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وزيادة فضله على بقية الرسل.

ثم أشار شوقى إلى أن الله قد أخبر رسوله ببعض الأمور الغيبية بقوله [3] :

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٤٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٢٠ ومابعدها و ص ٤٠.
(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٨.

خططت للدين والدنيا علومهمـــا
يا قــارئ اللوح بــل يا لامس القلــم

أحطت بينهما بالسر وانكشفـــت
لك الخزائن من علم ومن حكــم

ضاعف القرب ما قلدت من منــن
بــلا عداد وما طوقت من نعـــم

يشير الشاعر إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد علم الناس أمور دينهم ودنياهم ، وذلك من فضل الله الذى علمه ما لم يكن يعلم ، بل أنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى .

وإذا تأملت قول شوقى : (خططت للدين ..) وجدته قد اشتمل على كناية لطيفة تشير إلى أن الرسول قد علم الناس أمور دينهم ودنياهم ، كما أن قوله : (يا قارئ اللوح ، بل يا لامس القلم) قد اشتمل ـ أيضا ـ على كنايـــة تدل على أن الله قد أطلع نبيه على بعض الغيبيات ، ولا يخفى أن قولــه : (أحطت بينهما بالسر ..) تأكيد للفكرة السابقة ، كما أن قوله : (وضاعف القرب ..) يؤكد فضل الله على رسوله ، بتكريمه ، وزيادة نعمه عليه .

هجـرة الرســـــول :

وانتقل شوقى إلى الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة
لولا مطاردة المختار لم تســـــم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعـــوا
همس التسابيح والقرآن من أمـــم؟

وهل تمثل نسج العنكبوت لهـــــم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخــم؟

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٨ ومابعدها .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ركن الدين لم يقم[1]
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم[2]

جرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه بقوله : سل أهل الشرك الذين كانوا حول غار ثور يبحثون عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لماذا رجعوا خائبين ولم يدخلوا الغار ؟ أرأوا النور الوضاء داخل الغار فخشوا الاقتراب منه، أم عواهه؟ أسمعوا تسبيح الرسول وقراءته القرآن فتملكهم الرعب ، أم صموا عنه ؟ أم خيل إليهم نسج المنكبوت الواهن غابا منيعا ، والحمام السواجع رخما يتخطفهم ، فمنعهم كل ذلك من دخول الغار ، ورجعوا خائبين.

وإذا تأملت قول الشاعر : (سل عصبة الشرك حول الغار سائمة) وجدت فيه استعارة مكنية ، لا يخفى أثرها في تشبيه هؤلاء المشركين بالأنعام كما أن لفظ (مطاردة ..) يوحى بما عاناه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من هؤلاء المشركين.

ويبدو أن الشاعر أراد التهكم بهؤلاء المشركين فأتى بهذه الأسئلة : (هل أبصروا ..؟ أم سمعوا ..؟) (وهل تمثل نسج المنكبوت..؟) ولكن السؤال الأول كان حقه أن يكون بالهمزة لوجود معادلها (أم) كما هو معلوم عند علماء البلاغة ، إلا إذا أراد الشاعر الإضراب[3].

ولقد أجاد الشاعر حينما أشار إلى رجوع هؤلاء المشركين خائبين بقوله : (فأدبروا ..) ثم أتى باستعارة مكنية لطيفة بينت أن اللعنات كانت

---

(١) الجارين : الرسول وأبى بكر.
(٢) جناح الله : المراد لطفه وستره — يضم — الأولى — بفتح الياء وضم الضاد وتشديد الميم مضمومة — أما الثانية فهى بضم ففتح فكسر ومعناها ظاهر.
(٣) التخليص فى علوم البلاغة ص ١٥٦.

تصب عليهم من كل جانب (ووجوه الأرض تلعنهم ٠٠) ثم أكد هزيمتهم بهذا التشبيه اللطيف:(كباطل من جلال الحق منهزم)٠

إن عناية الله كانت ترعى رسوله ، ورعايته كانت تشمله ٠ وهذا ما أشار إليه شوقى بقوله : (لولا يد الله بالجارين ماسلما ٠٠) ثم أكد ذلك بقوله: (تواريا بجناح الله واستترا ٠٠) وأتى بحكمة صادقة فى قوله : (ومن يضم جناح الله لا يضم) وهى تشير إلى أهمية لطف الله وستره ، ولا شك فى أن فى ذلك حثا على طلب رضا الله ، حتى يكون الطالب فى حفظ الله وكنفه٠

توسل الشاعر إلى الرسول :

ثم توسل الشاعر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه فى الاسم وذلك فى قوله : (1)

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى

وكيف لا يتسامى بالرسول سمى ؟

يشير الشاعر إلى أن من حقه أن يفخر بالانتساب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه فى الاسم ، ثم يسأل : (كيف لا يتسامى بالرسول سمى) ، وشوقى فى هذا ناظر إلى البوصيرى ـ كما سيأتى فى باب الموازنة ـ .

فضل البوصيرى وبردته :

ويعترف شوقى بفضل البوصيرى وبردته بقوله (2) :

المادحون وأرباب الهوى تبع

لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم (3)

---

(1) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٩٠

(2) المرجع السابق الصفحة نفسها ٠

(3) الفيحاء : المراه المظيمة٠

مديحه فيك حب خالص وهـــوى
صادق الحب يملى صـادق الكلـم

الله يشهد أنى لا أعارضـــــــه
من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ومـــن
يغبط وليك لا يذمم ولا يلـــــم

هذا مقام من الرحمن مقتبـــس
ترمى مهابته سحبان بالبكـــــم[1]

يشـير الشاعر إلى أن من مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعـد البوصـيرى قد تـأثر فى مدحه بالبوصيرى وبردته ، ثم ذكر أن مديح البوصيرى كان أساسه الحب الخالص لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأشار إلى أنـه لم يقصـد معارضة البوصيرى بقصيدته (نهج البردة) ـ وإن وجدت شـروط المعارضة ـ وإنما هو بعض الغابطين ، ثم ذكر أن مدح الرسول أمر عظـيم لا سبيل إلى الإجادة فيه إلا بمدد من الله.

وإذا تأملت قوله : (المادحون وأرباب الهوى تبع..) وجدته يشـير إلى أن كثيرا من المادحين بل كل المادحين ـ الذين أتوا بعد البوصيرى ـ قد تـأثروا فى مدائحهم بصاحب البردة، ثم أكد ذلك بلفظ (تبع) لأنـه مصـدر ، وأخبر به ، للمبالغة ، ثم وصف شوقى البردة بكونها (الفيحاء ذى القدم) وهذه شهادة عظيمة للبردة .

ولا يخفى أن قول شوقى : (مديحه فيك حب خالص وهوى) بيان سبب إجادة البوصيرى فى مديحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو الحب الخالـص وأكد ذلك بحكمة صادقـة فى قوله : (وصادق الحب يملى صادق الكلم) .

وينفى شوقى أنه عارض البوصـيرى بقوله : (الله يشهد أنى لا أعارضه) ثم علل لذلك النفى بقوله : (من ذا يعارض صوب العارض العرم) وفـى ذلك

---

(١) سحبان : هو سحبان وائل أحد فصحاء العرب الذين يضـرب بهـم المثل فى الفصاحة .

القول اعتراف صريح ببلوغ البوصيرى فى مدائحه مبلغا كبيرا ، وإجادته فيهما إجادة حسنة .

وإذا تأملت قول الشاعر : (وإنما أنا بعض القابطين ..) وجدته يشير إلى تواضع الشاعر الذى جعله بمثابة تقديم العذر حتى لا يكون هدفا للنقد مثلا ، ويؤكد ذلك قوله : (ومن يغبط وليك لايذمم ولا يلم) وهو حكمة صادقة تجرى مجرى المثل .

ثم أشار الشاعر إلى عظيم مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ورفعة شأنه ، بقوله :(هذا مقام من الرحمن ..) فأشار بذلك إلى أنه لا يستطيع أحد مهما كان فصيحا أن يحيط بشمائل الرسول الكريمة كلها بل إن الإشارة إلى بعضها تحتاج إلى توفيق من الله .

مدح الرسول :

وانتقل شوقى إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

البدر دونك فى حسن وفى شرف
والبحر دونك فى خير وفى كرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت
والأنجم الزهر ما واسمتها تسم[2]

والليث دونك بأسا عند وثبته
إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمى

تهفو إليك — وإن أدميت حبتها
فى الحرب — أفئدة الأبطال والبهم[3]

محبة الله ألقاها — وهيبته
على (ابن آمنة) فى كل مصطدم

كأن وجهك تحت النقع بدر دجى
يضىء ملتثما أو غير ملتثم

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٩ ومابعدها . (٢) واسمتها : نافستها فى الحسن والرفعة تسم : تغلبها . (٣) حبتها : المراد سويداء القلوب .

بدر تطلع فى بدر فغرتـــه
كغـــرة النصـــر تجلو داجى الظلم

يمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه : أحسن من البـــدر، وأكرم من البحر، وأثبت من شم الجبال ، وأعظم ارتفاعا وضياء من النجوم ، وأشد بأسا من الأسد ، ثم ذكر أن الرسول محبوب حتى من أعدائه الذين أعجبوا ببطولته وشجاعته .

وإذا تأملت قوله : (شم الجبال إذا طاولتها انخفضت ٠٠) وجدتــه يشير إلى ثبات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويؤكد ذلك لفظ (شـــم) والتعبير بلفظ الجمع فى (الجبال) كما أن قوله :(انخفضت) كناية عن ظهورهـــا قصيرة بالنسبة إلى ارتفاع قدر الرسول، وعلو شأنه . ولا يخفى أن الإضافـــة هنا من إضافة الصفة إلى الموصوف زيادة فى التأكيد .

وكذلك قوله : (والأنجم الزهر ما واسمتها تسم) يدل على ارتفاع مكانـــة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشدة ضوئه ، وعظيم هدايته ، أضف إلى ذلـــك أن قوله : (والليث دونك بأسا ٠٠) يدل على شجاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشدة بأسه ، وأحسن الشاعر عند تقييـد شدة بأس الأسد بقوله : (عند وثبته) إذ فى تلك الحالة يكون الأسد أشد بأسا ، ومع ذلك يكون هـــذا البأس الشديد أقل من بأس الرسول (إذا مشى إلى شاكى السلاح كمى).

ثم أشار الشاعر إلى أن شجاعة الرسول وبطولته كانتا سببا فى حـــب الأعداء إياه على الرغم من أنه يصيب قلوبهم بضربته ، وذلك فى قوله:(تهفو إليك ـ وإن أدميت حبتها فى الحرب ـ أفئدة الأبطال ٠٠). ويبين شوقى أن تلك المحبة قد ألقاها الله (على ابن آمنة) وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أننى أرى أن ذكر اسم والدة الرسول هنا غير مناسب للمقام ، أضف إلى ذلك أن الإنسان ينسب إلى والده لا إلى والدته .

أما قول الشاعر : (كأن وجهك تحت النقع بدر دجى ٠٠) فهو كما قـــال أحد الكتاب[1]: تصوير للبطولة فى أعلى درجاتها ، لأنه وصف وجه النبـــى

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص٦٠ .

بالإشراق والاستبشار والتطلق حيث تعبس الوجوه وتكفهر ، ولعله نظر إلى قول المتنبي [1] :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

ولا يخفى أثر الطباق في قوله : (ملتثما وغير ملتثم) فهو يدل على أن وجه الرسول مشرق دائما ، كما أن قوله : (بدر تطلع في بدر ..) يلمح إلى انتصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في غزوة (بدر) ولا يخفى أن بين قوله :(بدر وبدر) جناسا ، ألقى على الألفاظ نورا على نور ، وأكد الشاعر إشراق وجه الرسول بقوله : (غرته كغرة النصر تجلو داجي الظلم) ولا يخفى أن في الكلام تشبيها لطيفا ، واستعارة مكنية جميلة ، ساعد كل ذلك على بيان الفكرة وتوضيحها ، إلا أن ذكر لفظ (الظلم) بعد لفظ (دجى) يعد حشوا ، ولعل الشاعر أتى به للقافية .

وواصل شوقي مدح الرسول بقوله [2] :

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة
وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

الله قسّم بين الناس رزقهم
وأنت خيرت في الأرزاق والقسم

إن قلت في الأمر لا أو قلت فيه نعم
فخيرة الله في لا منك أو نعم

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وأنت أحييت أجيالا من الرمم

والجهل موت ، فإن أوتيت معجزة
فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

مدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفات تبين فضل الله عليه ،

---

(1) ديوانه جـ٢ ص٣٠٠ (2) الشوقيات جـ١ ص٢٥٠

ومنها : أن الله أشار إلى يتمة فى القرآن الكريم ، وأن الله خيّره فى مقدار رزقه ، كما أعطاه عقلا رشيدا ، ورأيا سديدا إلى جانب عصمته ، وأحيا على يديه كثيرا من الناس بإخراجهم من ظلمات الضلال والجهل، إلى نور الهداية والعلم .

وإذا تأملت قوله : (ذكرت باليتم فى القرآن تكرمة) وجدته يشير إلى قوله تعالى : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ [1] " ، ثم بين الشاعر أن هذا الذكر يدل على تفرد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى صفاته، وأتى بما يوضح ذلك فقال : (وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم) .

ولا يخفى أن قوله : (الله قسّم بين الناس رزقهم) يدل على قدرة الله وإرادته ، ولكنه جعل ذلك القول تمهيدا لقوله : (وأنت خيرت فى الأرزاق والقسم) ، ولعله يلمح بذلك إلى ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أن الله تعالى قد عرض عليه أن يجعل له (بطحاء مكة ذهبا)، فأبى وقال : لا يارب ولكن أشبع يوما .. وأجوع يوما ــ كما سبق [2] ــ ولا شك فى أن ذلك يدل على عظم مكانة الرسول عند ربه (جل جلاله) .

أما قوله : (إن قلت فى الأمر لا أوقلت فيه نعم ..) فيدل على كمال عقله ، وصحة رأيه، وبُعد نظره ، وتوفيق الله إياه .

ثم أشار شوقى بقوله : (أخوك عيسى دعا ميتا فقام له) إلى أن الأنبياء كلهم أخوة ــ وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم [3]) ــ كما أنه يلمح بقوله : (دعا ميتا ..) إلى معجزة رسول الله عيسى (عليه السلام) وهى إحياء الموتى بإذن الله ، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : " .. وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. الآية " [4] .

---

(١) الضحى / ٦ .

(٢) انظر ص١١٨ من هذه الرسالة .

(٣) المرجع السابق ص٢٩٦ .

(٤) آل عمران / ٤٩ .

ولعل الشاعر مهد بقوله : (أخوك عيسى ..) ليبين فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (وأنت أحييت أجيالا من الرمم) ، ولا يخفى أن فى العبارة استعارة تصريحية تبعية ، رفعت شأن العِلْم وأكدت قيمته ، وأشارت إلى أن الجهل موت . وهذا ما صرح به الشاعر فى قوله : (والجهل موت) ففى هذه العبارة تشبيه بليغ ، لا يخفى أثره فى التشنيع على الجهل والتنفير منه ، ولذلك قال الشاعر مجردا من نفسه شخصا يخاطبه ـ : (فإن أوتيت معجزة ، فابعث من الجهل ، أو فابعث من الرجم) ويصح أن يكون الخطاب للرسول ، ويكون قوله : (فإن أوتيت) للتحقيق ، كما تقول لابنك : إن كنت ابنى فافعل كذا ، ويكون الأمر فى قوله : (فابعث) بمعنى الخبر [1] ، والرأى الأول أرجح ، لأنه يوجه كلامه لكل من يتأتى له الخطاب : إذا كنت تريد فعل شئ يشبه المعجزة ، فهو تعليم الجاهل ، وذلك لأنه يماثل بعث الميت ، ولا يخفى أن فى عبارة الشاعر استعارة تؤكد نتيجة الجهل وعواقبه .

الحرب فى الإسلام :

ثم تحدث شوقى عن الحرب فى الإسلام بقوله : [2]

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم [3]

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

فى هذه الأبيات يشير الشاعر إلى فرية افتراها بعض أعداء الإسلام قائلين : إن الإسلام

---

(١) توضيح النهج ص ٨٥ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥١ .
(٣) سفسطة : المراد بها : إلباس الباطل ثوب الحق .

قد انتشر بحد السيف[1] ، وهم فى هذا مفترون .

وإذا تأملت قول الشاعر : (قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس..) وجدته يشير إلى تلك الفرية ، إلا أنه لم يشر إلى صفة هؤلاء القائلين إما لشهرتهم بما افتروه وإما لتحقير شأنهم ، وعدم الاكتراث بهم .

ولما ردّ عليهم زعمهم ، وسفه رأيهم، بقوله : (جهل وتضليل أحلام وسفسطة..) فهمنا فى تلك العبارة عدة أمور منها : إن الذى دفعهم إلى تلك الفرية هو جهلهم بوقائع التاريخ ، أو تجاهلهم إياها ، وإن هدفهم من وراء هذه الشبهة تضليل العقول عن فهم حقائق الأمور،وهم فى هذا يلبسون الباطل ثوب الحق ، ولكن الشاعر قد كشف عن الحقيقة بقوله مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم..)،وفى هذا القول كنايتان لطيفتان ، تشيران إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يستعمل السيف،ولم يخض غمار الحروب إلا بعدما دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأوذى هو ومن معه ، وهذا ما يشير إليه التاريخ الصحيح الذى يشهد بأن الرسول مكث فى مكة ثلاث عشرة سنة تقريبا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، متحملا هو وأصحابه كل عنت وأذى من الكفار ، ولم يقف أمامهم بسيف ، ولم يكرههم حتى يكونوا مؤمنين .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (لما أتى لك عفوا كل ذى حسب..) غمط هؤلاء الذين أسلموا ولم يكونوا من ذوى الحسب ، وكانوا فقراء ، بل كانوا عبيدا مثل بلال بن رباح الحبشى وغيره ، إلا إذا أراد الشاعر (بذوى الحسب) أصحاب العقول ، — فالعقل كما يقال خير حسب — فيكون كلامه حينئذ لا غبار عليه ، وإن كان فيه كلفة ، أضف إلى ذلك أنه إذا صح تسليط السيف على الجهال — الظالمين — فى قوله : (تكفل السيف بالجهال والصم) فكيف سلط على (الصم) كما قال الشاعر ؟ ويبدو أنه أتى بلفظ (الصم) للقافية .

ولقد أتى الشاعر بحكمة صادقة استخلصها من واقع هذا العالم المادى الذى

---

(1) حياة محمد ص ٥٧٧ ـ ط العقاد : ما يقال عن الإسلام ص ١٢٩ وما بعدها — طبعة دار الهلال سنة ١٩٦٦ ، والعقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١ وما بعدها — طبعة دار القلم سنة ١٩٦٦ .

لا تحترم فيه غير القوة ، ولا يهاب فيه إلا صاحب الصولة ، تأمل ذلك في قوله :
(والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا ..) ولعل الشاعر يميل إلى معاملة السيئة
بالسيئة كما قال الله تعالى : "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. الآية " ؛ لأن من الناس
من إذا دفعت بالتي أحسن سيئاتهم ظنوا ضعفك ، واستهوشوا عرضك ولحمك
فهؤلاء يعاملون بقانون : (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ .. الآية) [1] إذ في ذلك حسم طمعهم ، وهذا ما أشار إليه شوقي
بقوله : (.. وإن تلقه بالشر ينحسم) .

ويبدو أنه أتى بلفظ (الشر) مريدا به (القوة) على سبيل المشاكلة [2] ، ولا
يخفى أثرها في بيان المعاملة بالمثل ، فيرجع المعتدى خشية أن يقتص منه .

ثم جرد الشاعر من نفسه شخصا يقول له [3] :

سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم [4]

طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها
في كل حين قتالا ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

لولا مكان لعيسى عند مرسله
وحرمة وجبت للروح في القدم

لسمر البدن الطهر الشريف على
لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم

جل المسيح وذاق الصلب شانئه
إن العقاب بقدر الذنب والجرم

أخو النبي وروح الله في نزل
فوق السماء ودون العرش محترم [5]

---

(١) البقرة : ١٩٤ . (٢) هي : ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوعه في صحبته .. انظر التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٥٦ وما بعدها .
(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٠٥ وما بعدها .
(٤) الغلم : بفتح فكسر الهائج الثائر . (٥) روح الله : أي روح منه ، لأنه نفخة من أمره قال تعالى "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا .. الآية " التحريم/١٢ .

يبين الشاعر مدى ما لحق بالمسيحية وأهلها - من ظلم وتشريد ، عكس ما يدعيه بعض الأدعياء من أنها نشرت بالسلم لا بالحرب كالإسلام .

وإذا تأملت قول شوقي : (سل المسيحية الغراء ..) وجدته نزل المسيحية منزلة من يسأل ويجيبه وفي ذلك مجاز لا يخفى أثره في توجيه السؤال إليها مباشرة حتى تنبئك عما لحقها وأهلها من أذى واضطهاد ، ويؤكد ذلك قوله : (كم شربت بالصاب من شهوات الظالم ..) ولعل العبارة تشير إلى كثرة ما وقع بالمسيحيين من ظلم وكيد وتشريد [1] ، وهذا ما وضحه الشاعر بقوله : (طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها ..) .

ثم يبين شوقي كيف دافع المسيحيون عن المسيحية وحملوا السلاح في وجه الظالمين بقوله : (لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ..) وفي ذلك رد حاسم على من زعم أن القتال صاحب الإسلام فحسب ، أما المسيحية فهي دين سلام ، ولم يحمل أهلها السلاح في وجه أحد ، يريد من وراء ذلك تفضيل المسيحية على الإسلام ، وتفضيل رسول الله عيسى (عليه السلام) على رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤكد ذلك ما نقله أحد الكتاب من أحد هؤلاء المفترين إذ قال : " .. ففرق بين أحدهما يفرض بقوة السلاح قانون الحاكم الأعلى الذي لا محيص عنه (يقصد رسول الله محمد) ، وآخر يجتذب ناسه بقوة الحب: حب الأب الجامع الشامل المعطوف (يقصد رسول الله عيسى) [2] ، وقال آخر : " .. إلا أن الرسول - محمدا - مادام قد أمسك أن يكون مسامحا ، وما دام قد ذهب إلى أن ينتصر للحق بالاغتيال الخفي والحرب المشنونة .. فقد طبع نفسه ودينه بطابع الضعف البشرى والفناء .. [3] " .

إن مثل هذا الغثاء ، وذلك الهراء ، هما اللذان دفعا الشاعر للحديث عن المسيحية حتى يقرع الحجة بالحجة ، والتاريخ خير شاهد على مدى ما اتصف به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تسامح ، وليس معنى ذلك أن نبي الله .

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٨٩٩ وما بعدها .
(٢) الدكتور / حلمي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة ص ١١٨ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

عيسى لم يكن كذلك ، بل إنه كان كذلك أيضا ، ولكن الظلم هو الظلم .

وأراد الشاعر أن يهون ما دبره الظالمون لعيسى (عليه السلام) فقال : (لولا مكان لعيسى عند مرسله .. لحرم البدن الطهر الشريف على لوحين ..) فما الذى فعله نبي الله (عيسى) حتى يدبر له ذلك ؟ إنه لم يفعل شيئا سوى أمره الناس بعبادة الله وحده ، ولعلك تلاحظ أن عبارة الشاعر تدل على احترامه لنبي الله (عيسى) ، ولِمَ لا يكون كذلك وهو مسلم ، وإسلامه يأمره بالإيمان برسل الله جميعا : " لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ .. الآية "[1] وهذا الإيمان بهم يتطلب احترامهم .

ولقد أراد الظالمون صلب نبي الله عيسى (عليه السلام) ولكن الله حفظه وهذا ما أشار إليه شوقي بقوله : (جل المسيح وذاق الصلب شانئه) ، وفى ذلك دلالة على أن الشاعر متمسك بقول الله : " وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ .. الآية[2] " . ولما كان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله كانت هذه الحكمة صادقة : (إن العقاب بقدر الذنب والجرم) ، ولا يخفى أنها بمثابة الزجر لمن تسول له نفسه الاعتداء على غيره ، لأن عين الله لا تنام .

وفى البيت الأخير يؤكد الشاعر أن عيسى (عليه السلام) أخو محمد (صلى الله عليه وسلم) أى فى الرسالة ، فلا معنى للتعصب لأحدهما ضد الآخر ، ثم أكد رفع عيسى (عليه السلام) ، فقال : (.. وروح الله فى نزل فوق السماء)

إن حديث الشاعر عن المسيحية ، وما عاناه أهلها من تشريد وتعذيب يدل على ثقافته التاريخية ، ولعله أول من أشار إلى العرب فى الإسلام مفندا مزاعم الأفاكين — كما سيأتى —

ثم خاطب شوقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله[3] :

علمتهم كل شيء يجهلون به

حتى القتال وما فيه من الذمم

---

(١) البقرة / ٢٨٥ . (٢) النساء / ١٥٧ .

(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٠٢ .

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم
والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات في زمن
ما طال من عمد أو قر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة
في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروشواعتلت سرر
لولا القذائف لم تثلم ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة
ولم نعد سوى حالات منقصم

يبين الشاعر أن رسول الله قد علم المسلمين كل شىء، حتى قوانين الحرب، وما فيها من العهود، ودعاهم إلى الجهاد دفاعا عن الدين والنفس والوطن .

ثم ذكر الشاعر أنه لولا الجهاد ما رأينا دولا ذات حضارة، وأخرى اندثرت حضارتها لضعفها، واعتداء المعتدين عليها .

وإذا تأملت قول الشاعر : (علمتهم كل شىء ..) وجدته يشير إلى اهتمام الرسول بكل ما ينفع أمته، إلا أن قوله : (يجهلون به) بعد قوله : (علمتهم كل شىء) يعد حشوا، لأنه كيف يعلمهم كل شىء إذا لم يكونوا جاهلين به !! وفى قوله : (حتى القتال وما فيه من الذمم) تأكيد بذكر الخاص بعد العام، وذلك للاهتمام بشأنه، وفيه ـ أيضا ـ تلميح إلى ما كان يوصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه عند القتال مثل قوله : " .. ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا .. (1) " .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم ..) بيانا لفائدة الجهاد، حتى لا يطمع فى المسلمين طامع، أو يتجبر عليهم ظالم، ثم أتى بحكمة صادقة أملتها ظروف العصر، وذلك فى قوله : (والحرب أس نظام الكون والأمم) ولعله يريد بلفظ (الحرب) القوة ثم أكد تلك الفكرة بقوله : (لولاه لم نر

---

(1) زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ ٢ ص ٦٤ وما بعدها .

للدولات في زمن ..) فلولا القوة لم نر دولة تقدمت وأخرى هوت حضارتها لضعفها وفي قوله: (ما طال من عمد أوثق من دعم) كناية لطيفة عما يستقيم به نظام الممالك ويرتفع به شأن الأمم ، وهذا كله مشاهد (في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم) ولا يخفى أن في العبارة طباقا بين قوله : (الغر والدهم) أكد الفكرة ووضحها إذ التقدم مشاهد في عصور العلم أكثر من مشاهدته في عصور الجهل .

ولعل الشاعر يحث المسلمين على أن يكونوا أقوياء ، فقال : (لما الأمم مالت عروش ..) ثم يعرض قيمة القوة المادية بقوله : (لولا القذائف لم تثلم ولم تصم) وهذا هو المشاهد في عالم اليوم، ثم أكد تلك الفكرة بقوله : (أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة . .) أي أن القوة المادية هي التي مكنت الصليبيين في التحكم في أجزاء كثيرة من العالم ، وكم حاربوا دولا ، وأوقدوا نارا للحرب ، وهم الذين يتباهون بأنهم أهل سلم وسلام ، وحب ووئام، ولم يستطع أحد أن يرميهم بشيء طالما يرمونا به ، مع أننا (لم نعد سوى حالات منقصم) للدفاع عن أنفسنا ، لا للاعتداء على غيرنا .

وأراد الشاعر أن يصف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويبين شجاعتهم فقال [1] :

مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها

ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم

على لوائك منهم كل منتقم

لله مستقتل ، في الله معتزم [2]

مسبح للقاء الله مضطرم

شوقا على سابح كالبرق مضطرم

لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى

بعزمه في رحال الدهر لم يرم

بيض مفاليل من فعل الحروب بهم

من أسيف الله لا الهندية الخذم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٢) على لوائك : المراد تحت لوائك .

كم فى التراب إذا فتشت عن رجل
من مات بالعهد أو من مات بالقسم
لولا مواهب فى بعض الأنام لما
تفاوت الناس فى الأقدار والقيم

يخاطب شوقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا : حينما تدعى إلى الحروب يا رسول الله — تلبى النداء مع جنود شجعان ، وأبطال ذوى بأس شديد ، يجاهدون فى سبيل الله ، ويتشوقون إلى الشهادة ، وجيادهم نشيطة مسرعة ، وسيوفهم لامعة قاطعة ، ثلمت من الحروب .

وإذا تأملت قوله : (مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها ..) وجدته أتى بالفعل (دعيت) مبنيا للمجهول ، وفى ذلك إشارة لطيفة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يدع إلى الحرب ، بل كان هو الذى يدعى إليها ، ويجبر على خوضها لا لشئ ، إلا لأنه يحب السلام ، فإذا لم يجد مفرا من القتال كان كما قال الشاعر : (قمت لها ترمى بأسد ويرمى الله بالرجم) خرج إلى القتال وهو على أتم استعداد لها ، بجنوده الشجعان ، ولا يخفى أن فى قوله : (ترمى) كناية عن ندبه إياهم للجهاد ، كما أن فى قوله : (بأسد) تشبيها لطيفا يدل على قوة الصحابة وشجاعتهم ، ولما كان الرسول يحارب أعوان الكفر ، وإخوان الشيطان أحسن الشاعر فى قوله : (ويرمى الله بالرجم) لأن الرجوم لا يرمى بها إلا الشياطين ، ففى هذا التعبير يشبه الشاعر الكفار بالشياطين لأنهم يصدون عن سبيل الله ، ولعل الشاعر يقصد تشبيه رماح الصحابة بالرجم فيكون فى الكلام استعارة مكنية توحى بمهارة الصحابة وقدرتهم على إصابة الأعداء .

ثم أكد شوقى قوة هؤلاء الصحابة وشجاعتهم فقال : (على لوائك منهم كل منتقم ..) إنه يصفهم بأنهم تحت لواء رسول الله — فنعم اللواء ونعم صاحبه — وهم ينتقمون لله ، ويجاهدون فى سبيل الله ، وكل منهم : (مسبح للقاء الله مضطرم شوقا ..) إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، ولذلك يقاتل (على سابح كالبرق مضطرم) فإذا كان الجندى كما قال الشاعر : (مسبح ومضطرم) وفرسه : (سابح وضطرم) بل و (كالبرق) فإن هذا يدل دلالة كبيرة على صدق النية فى الجهاد ، وقوة العزيمة ويؤكد ذلك تلك الاستعارة المكنية فى قول الشاعر : (لو صادف الدهر يبغى نقلة ..) ويزيده تأكيدا تشبيه العزم بالسهم — بجامع المضاء والنفوذ فى كل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أن هؤلاء الجنود قد جمعوا كل ما يحقق لهم النصر على أعدائهم ، فأشار إلى سيوفهم بقوله : (بيض مفاليل) ويجوز أن يكون هذا الوصف لهم فشبههم بالسيوف لإزهاق نفوس الأعداء فيكون من قبيل التشبيه البليغ ، (مفاليل) ترشيح للتشبيه بالسيوف ، وأحسن عندما قال : (من أسيف الله لا الهندية الخذم) ، لأن هذا يدل على متانة تلك السيوف ، إذ صنع الله يفوق صنع البشر ؛ لأنه خالق القوى والقدر .

وإذا تأملت قوله : (كم في التراب إذا فتشت عن رجل من مات بالعهد ..) وجدته يشير إلى كثرة استشهاد هؤلاء الصحابة ، لأنهم عاهدوا الله على الجهاد حتى الاستشهاد ، فصدقوا في عهدهم ولعل الشاعر نظر في ذلك إلى قوله تعالى: « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. الآية (1) » إلا أن قوله : (كم في التراب) غير مناسب للمقام ، ولو قال (كم في الجنان ..) لكان أولى ، ألم يصح قول الله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .. الآيات) (2) .

ثم أشار الشاعر إلى تفاوت الناس في المنازل تبعا لتفاوتهم في الأقدار والقيم بقوله : (لولا مواهب في بعض الأنام لما تفاوت الناس ..) وفي ذلك إشارة إلى أن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم ينالوا تلك الدرجات العالية إلا بصدقهم مع الله ، وجهادهم في سبيل الله ، وهذا يدفع الناس إلى التسابق إلى ما يرضي الله ، لكي ينالوا أعظم الثواب من الله تعالى .

إن ألفاظ الشاعر مناسبة للفكرة مثل : (الهيجاء ، أسد ، الرجم ، لوائك مقتحم ، مضطرم ، بيض ، مفاليل ، الخذم) ، ولا يخفى أن الشاعر أتى ببعض المحسنات البديعية التي لا يخفى أثرها في توضيح الفكرة ، مثل التكرار في (مضطرم) و (الدهر) و (مات) .

الشريعة الإسلامية :

ثم تحدث شوقي عن الشريعة الإسلامية فقال (3) :

---

(1) الأحزاب / ٢٣ .　　(2) آل عمران / ١٦٩ — ١٧١ .

(3) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٣ وما بعدها .

شريعة لك فجرت العقول بها
عن زاخر بصنوف العلم ملتطم (١)
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحلي للسيف أو كالوشي للعَلَم
غراء حامت عليها أنفس ونهى
ومن يجد سلسلا من حكمة يحم
نور السبيل يساس العالمون بها
تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ في الخلق مرتسم
لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
مشت ممالكه في نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة
رعى القياصر بعد الشاء والنعم

يبين الشاعر أن الشريعة الإسلامية شريعة العقل والحكمة ، وإذا كان جوهرها التوحيد ، فإن العلم هو زينتها ، ولذلك سلمت بها العقول النيرة ، واستعافتها النفوس المهذبة ، كما أنها تهدى إلى أحسن السبل ، وأحكامها صالحة لكل زمان ومكان ، وتسمو بأصحابها إلى العلا .

وإذا تأملت قول الشاعر : (شريعة لك ..) وجدت لفظ (شريعة) نكرة منونة ولعل ذلك إشارة إلى تعظيمها ، كما أن لفظ (لك) يفيد اختصاص الرسول بها ، لأنها نزلت عليه وقوله : (فجرت العقول بها) يبين أثرها الكبير في العقول وخاصة ، أنها كشفت عن (زاخر بصنوف العلم ملتطم) ولا يخفى ما في قوله : (زاخر) ـ صفة لموصوف محذوف وهو البحر ـ من استعارة تصريحية أشارت إلى سعة تلك العلوم ، وغزارة تلك المعارف التي أتت بها تلك الشريعة .

وإذا كان لب هذه الشريعة هو (التوحيد) فإن العلم حوله : (كالحلي للسيف أو كالوشي للعلم) ولا يخفى ما في التشبيهين من إيضاح وبيان منزلة العلم بالنسبة إلى

---

(١) عن : بمعنى (من) .

تلك الشريعة . ثم بين الشاعر مدى إقبال الناس على تلك الشريعة فقال : (غـــراء حامت عليها أنفس ونهى ..) ففي هذه العبارة استعارة مكنية، ولعله ذكر النهى بعد الأنفس إشارة إلى تأثير الشريعة الكبير في النفوس والعقول معا . وأكـــد تلك الفكرة بحكمة صادقة تجرى مجرى المثل في قوله : (ومن يجد سلسلا من حكمة يحم) . وفي ذلك حث على الإقبال على كل ما ينفع .

إن هذه الشريعة تنير الطريق لمن يهتدى بهديها . فهي (نور السبيل يساس العالمون بها) بل إنها (تكفلت بشباب الدهر والهرم) ولا يخفى ما في هـــذه العبارة من كناية لطيفة عن أول الزمان وآخره أو عن حالتي إقباله وإدباره . وهي تؤكد صلاحها لكل زمان ومكان . وهذا ما ذكره الشاعر صراحة في قوله : (يجرى الزمان وأحكام الزمان على حكم لها نافذ ..) ولا يخفى أن في قوله : (يجرى الزمان) مجازا مرسلا، والأصل (يجرى أهل الزمان) كما أن الشاعر عبر بالمظهر موضع المضمر في قوله: (وأحكام الزمان) وكان حقه (وأحكامه) ولعل ذلك للعناية بأمر الزمان الذي يتغير فيه كل شيء . ومع ذلك لم تتغير أحكام الشريعة الإسلامية وهذا يدل على أن اللـــه جعلها صالحة لكل زمان ومكان . كما يدل على عظيم علمه جل جلاله .

ولقد أراد الشاعر بيان أثر تلك الشريعة فقال : (لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت) وزاد ذلك بيانا وتأكيدا بقوله : (مشت ممالكه في نورها التمم) ويبدو أن الشاعر قـــد فك الإدغام في قوله :(التمم) للقافية . وكان أصله (التام) .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد أنارت للمالك طريقها . فإنها جعلت من العرب أهل البدو الضعاف . جعلت منهم سادة على ملك كسرى وقيصر : (وعلمت أمـــة بالقفر نازلة رعى القياصر ..) وهكذا تغير حال العرب الذين كانوا يرعون (الشـــاء والنعم) وأصبحوا سادة وقادة بفضل الشريعة الإسلامية .

ولم يقف أمر الشريعة عند ذلك الحد . بل أشار الشاعر إلى صفات أخـــرى بقوله [1] :

كم شيد المصلحون العاملون بهـــا

في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٤ .

للعلم والعدل والتمدين ما عزموا
من الأمور وما شدوا من الحزم

سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم

ساروا عليها هداة الناس فهي بهم
إلى الفلاح طريق واضح العظم

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم
وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا
على عميم من الرضوان مقتسم

يذكر شوقي أن من أثر الشريعة الإسلامية أنها كانت سببا في إقامة ملك عظيم على يد المصلحين الذين تمسكوا بها في كل مكان ، وكان أساس هذا الملك بالعلم والعدل ، كما كانت سببا في فتح كثير من بلاد العالم ، التي ذاق أهلها حلاوتها ، وهدتهم إلى طريق الفلاح والنجاح .

وإذا تأملت قوله : (كم شيد المصلحون العاملون بها ..) وجدته يدل على كثرة ما شيده هؤلاء المصلحون ، وأحسن الشاعر عندما وصفهم بأنهم :(العاملون بها) ثم أتى بطباق يدل على العموم والشمول في قوله : (في الشرق والغرب) وهذا يؤكد أثر الشريعة السمحة التي أقام المصلحون بسببها: (ملكا باذخ العظم) .

ولا يخفى أن في قول الشاعر : (للعلم والعدل والتمدين ما عزموا من الأمور) بيانا لأهم الأسس التي أقام عليها هؤلاء المصلحون ذلك الملك العظيم ، مما جعل الناس يعجبون بتلك الشريعة الإسلامية ، ويقبلون على النهل (من سلسالها الشبم) وفي هذه العبارة مجاز لا يخفى أثره في بيان حسن تلك الشريعة والإشارة إلى عظمة أحكامها التي تجذب الناس إليها .

ولقد أكد الشاعر الفكرة السابقة بقوله : (ساروا عليها هداة الناس ..) فهذا يدل على أن جزاء من تمسك بهذه الشريعة وسار عليها ، وأخذ بأحكامها ، حالة كونه داعيا الناس إليها ، أنه يحظى بطريق (إلى الفلاح .. واضح العظم) .

ولعل قول الشاعر : (لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم ..) يشير إلى قوة أسس وأحكام تلك الشريعة ، ولا يخفى أن في إسناد الفعل يهدم إلى (الدهر) مجازا مرسلا يوحي بتشخيص الدهر وبيان أثره ـ كما أن في قوله : (ركنا شاد عدلهم) استعارة مكنية توحي بمتانة ذلك البناء الذي أسس على أحكام تلك الشريعة ومنها العدل ، وأتى بحكمة صادقة تؤكد وهن البناء الذي يقوم على الظلم في قوله : (وحائط البغي إن تلمسه ينهدم) وفي تلك العبارة استعارة مكنية ، كما أن قوله : (تلمسه) يوحي بشدة ضعف ذلك البناء الذي ينهدم هدما تلمسه.

والبيت الأخيرين جزء من يعمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، كما يدعو الناس إلى العمل بها إن في ذلك نيل (السعادة في الدارين ..) ويبدو أن الشاعر أراد أن يشير إلى أن الداعي إلى الخير له ثواب عظيم ، مثل ثواب من يفعل ذلك الخير ، فقال : (واجتمعوا على عميم من الرضوان مقتسم) .

ثم بين شوقي أن الدين الإسلامي ليس شريعة فحسب ، بل شريعة وحضارة فقال [1] :

دع عنك روما وآثينا وما حوتا
كل اليواقيت في بغداد والتوم [2]

وخل كسرى وإيوانا يدل به
هوى على أثر النيران والأيم [3]

واترك رعمسيس ، إن الملك مظهره
في نهضة العدل ، لا في نهضة الهرم [4]

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ وما بعدها .
(٢) روما : مدينة إيطالية ، يطلق عليها (المدينة الخالدة) وهي مركز ثقافي وفني وديني منذ عهد طويل ، وبها ـ الفاتيكان ـ مقر البابوية ـ انظر الموسوعة الميسرة ص ٨٩٨ ، آثينا : مدينة تاريخية زعيمة الحضارة والديمقراطية في العالم الإغريقي القديم ، كما أنها عاصمة بلاد اليونان ، وهي مركز ثقافي وديني وبها مقر الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ، انظر المرجع السابق ص ٥٢ . بغداد : مدينة عراقية كانت عاصمة للدولة العباسية ومركزها في العلم والحضارة مشهور غير منكور . التوم : جمع تومة وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .
(٣) الأيم : المراد الدخان . (٤) رعمسيس : اسم بعض الفراعنة ـ حكام مصر القدماء ـ ويطلق على طائفة من حكام الأسرتين ١٩ ، ٢٠ انظر الموسوعة الميسرة ص ٨٧٩ . الهرم : المراد أهرامات مصر ، وهي كثيرة وأشهرها الأهرامات الثلاثة التي توجد بالجيزة ـ إحدى محافظات جمهورية مصر العربية ـ وهي التي بناها قدماء

يشيد الشاعر بحضارة بغداد التى كانت أعظم وأكمل، وأكثر قوى من حضارة روما وآثينا وفارس ومصر في إنسانيتها ونهوضها

وإذا تأملت قوله : (.. كل اليواقيت فى بغداد ..) وجدته يشير إلى حضارة بغداد التى كانت عاصمة للخلافة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية ، كما أن قوله : (وخل كسرى وإيوانا ..) يشير إلى حضارة بلاد فارس التى ذهب رواؤها ، واندثرت معالمها ، لأنها لم تكن قائمة على أساس متين ، وآية ذلك ، أن إيوان كسرى (.. هوى على أثر النيران ..) ولعل الشاعر يقصد بالنيران تلك النار التى أطفئت يوم مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما سبق .

ولا يخفى أن فى قوله : (واترك رعمسيس ..) إشارة إلى حضارة مصر الفرعونية، ولقد أتى الشاعر بحكمة صادقة فى قوله : (إن الملك مظهره فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم) وهو فى هذه العبارة يبين أن العدل أساس الملك ، وأن الحضارة لا ينهض بناؤها ولا يقوى صرحها إلا إذا قامت على أساس متين من الأخلاق العظيمة والصفات الحميدة ، والتى تنهض بالنفوس ، وتنقى القلوب ، وليست النهضة فى هرم يشيد ، أو فى مصنع يقام ، مع الظلم المنتشر ، أو الخلق السيء أو النفس الأمارة بالسوء ، ويبدو أن الشاعر يمد الحضارة كل الحضارة فيما كانت قائمة على أسس معنوية بجانب الأسس المادية ، لأنها هى التى تبقى ، أما الحضارة التى تقوم على الناحية المادية فحسب ، فهى لا تلبث أن تنهار ، ولذلك قال [1] :

دار الشرائع روما كلما ذكرت
دار السلام لها ألقت يد السلم [2]

ما ضارعتها بيانا عند ملتئم
ولا حكتها قضاء عند مختصم

ولا احتوت فى طراز من قياصرها
على رشيد ومأمون ومعتصم [3]

من الذين إذا سارت كتائبهم
تصرفوا بحدود الأرض والتخم

= المصريين ، الذين منهم (رعمسيس) الذى أشار إليه الشاعر ، وهو لم يقصده بعينه بل يقصد ملوك مصر القدماء بعامة . (١) الشوقيات جـ١ ص ٢٥٥ ومابعدها .

(٢) دار السلام : اسم من أسماء (بغداد) .

(٣) رشيد / المراد هارون الرشيد ، أحد الخلفاء العباسيين ، بلغت الدولة العباسية أوجها فى عهده توفى سنة ١٩٣ هـ ، مأمون : المراد عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، خليفة عباسى توفى سنة ٢١٨ هـ ، معتصم : المراد أبو إسحاق محمد المعتصم ابن هارون الرشيد ، خليفة عباسى توفى سنة ٢٢٧ هـ .

ويجلسون إلى علم ومعرفـــة
فلا يجادلون فى عقل ولا فهم
يطأطىء العلماء الهام إن نهضوا
من هيبة العلم لا من هيبة الحكم
ويمطرون فما بالأرض من محـل
ولا بمن بات فوق الأرض من عـدم

يبين الشاعر فضل دار السلام — وهى عاصمة الخلافة الإسلامية فى عهد العباسيين كما سبق — فيقول : إذا كانت روما قد عرفت بعظم قوانينها ، وفصاحة شعرائها ، وقوة ملوكها ، فإن دار السلام قد فاقتها فى كل ذلك .

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (دار الشرائع روما ..) إشارة إلى ما عرفت به روما قديما من شهرتها فى وضع القوانين ، إلا أن قوله : (كلما ذكرت دار السلام لها ..) يبين فضل دار السلام على روما ، ويؤكد ذلك تلك الاستعارة المكنية فى قوله : (ألقت يد السلم) إذ توحى بالتسليم لها بالفضل .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يوضح ما أجمله فى البيت الأول فقال : (ما ضارعتها بيانا ..) وفى هذه العبارة تصريح بكثرة وفصاحة الخطباء والشعراء فى بغداد ولعل الشاعر يشير بقوله : (عند ملتأم) إلى ما عرف عن الرومانيين أنهم كانوا إذا نزل بهم أمر عظيم نفروا إلى بعض الأماكن العامة للاستماع إلى الخطباء والشعراء ، كما كان الخطباء يخطبون أمام القضاة فى المحاكم (1) .

ثم أشار الشاعر إلى فضل آخر لدار السلام بقوله : (ولا حكتها قضاء عند مختصم) يقول : إن روما لم تضارع دار السلام فى قضائها وهذا حق لأن دار السلام كانت تحكم بين الناس بشريعة الله ، أما روما فكانت تحكم بقوانين وضعها الناس ، وفرق كبير بين شريعة الله وقانون البشر ، بل إن شريعة الله أجل من أن يقاس بها غيرها .

أما قوله : (ولا احتوت فى طراز من قياصرها ..) فهو إشارة إلى فضل الخلفاء المسلمين فى دار السلام على قياصرة روما ، وأشار الشاعر إلى (رشيد ومأمون ومعتصم)

---

(1) التوجيه الأدبى ص ٤٥ وما بعدها .

لأن الحضارة الإسلامية فى عهدهم قد بلغت عظمتها . ويبدو أن الشاعر ذكرهم على سبيل المثال لا الحصر بدليل قوله : (من الذين إذا سارت كتائبهم تصرفوا ..) وفى ذلك إشارة إلى كثرة جيوشهم، وشجاعة أبطالهم .

ثم ذكر شوقى أن الخلفاء المسلمين قد جمعوا إلى شجاعتهم وقوتهم، تواضعهم للعلم والمعرفة بقوله : (ويجلسون إلى علم ومعرفة ..) فكانوا علماء فقهاء . بل كانوا : (لا يدانون فى عقل ولا فهم) حتى إن العلماء احترموهم وأجلوهم (من هيبة العلم لا من هيبة الحكم) ولا يخفى أن فى قوله : (يطأطىء العلماء الهام إن نبغوا) كناية عن تواضع العلماء للحكام . إلا أن لفظ (يطأطىء) لا يناسب مقام العلماء .

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن كرم هؤلاء الحكام بقوله : (ويمطرون فما بالأرض من محل ..) ولا يخفى أن فى تلك العبارة استعارة مكنية تشير إلى غزارة عطاء الخلفاء وشموله . ويؤكد ذلك قوله : (ولا يمن بات فوق الأرض من عدم) .

والملاحظ أن الشاعر قد رفع مكانة الخلفاء المسلمين وخاصة من ذكر أسماءهم . كما أشار إلى علمهم وكرمهم . ويبدو أنه نسى أن المأمون ـ كما ذكرت كثير من الكتب هو مؤيد فكرة خلق القرآن الكريم . وكم أوذى فى عهده من العلماء الذين رفضوا ذلك كما نهج المعتصم نهجه بعد وفاته[1] .

ثم أشار شوقى إلى فضل بعض الخلفاء المسلمين بقوله [2] :

خلائف الله جلوا عن موازنة
فلا تقيسن أملاك الورى بهم[3]

من فى البرية كالفاروق معدلة؟
وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم[4]

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٥ . عبد الحليم الجندى : أحمد بن حنبل ص ٢٤٥ . ص ٢٦٣ وما بعدها ـ مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٣) أملاك : جمع ملك (بفتح فكسر) معروف .

(٤) الفاروق : المراد به عمر بن الخطاب ـ ابن عبد العزيز هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان أحد خلفاء بنى أمية . عرف بورعه وتقواه . توفى سنة ١٠١ هـ انظر مروج الذهب جـ ٣ ص ١٤٣ وما بعدها .

وكالإمام إذا ما فض مزدحمـــــا
بمدمع فى مآقيــــه القوم مزدحم
الزاخر العذب فى علم وفى أدب
والناصر الندب فى حرب وفى سلم

يشيد الشاعر بمكانة خلفاء المؤمنين ، المتأخرين مثل الرشيد والمأمون والمعتصم ، والمتقدمين مثل عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز والإمام على (رضى الله عنهم جميعا) .

وإذا تأملت قوله : (خلائف الله جلوا عن موازنة) وجدته يشير إلى رفعـــة هؤلاء الخلفاء ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه أضاف (خلائف) إلى لفظ الجلالـــة فاكتسب المضاف من المضاف إليه التشريف والتكريم ، ثم زاد ذلك تأكيدا بقوله : (جلوا عن موازنة) فالشاعر يجلهم عن الموازنة بأحد مهما كان شأنه ولذلك قـــال : (فلا تقيسن أملاك الورى بهم) .

ولا يخفى أن الشاعر يشيد بعدل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فى قوله : (من فى البرية كالفاروق معدلة) بل إنه يستبعد أن يجد من يشابهه فى عدله ، ويؤكد ذلك هذا الاستفهام الدال على البعد .

كما أشاد الشاعر بشدة ورع الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ولعله أتى به بعد عمر ابن الخطاب مع بعده عنه فى الزمن لشبهه فى ورعه ، بالإضافة إلى اتحادهما فى الاسم .

ثم انتقل شوقى إلى الإشادة بأمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى أوتى الفصاحة والبيان فإذا خطب فى جمع انفض ذلك الجمع والدموع تملأ عينيه من شدة التأثيــــر ، ولا يخفى ما فى تكرار لفظ : (مزدحم) من بيان قوة تأثير الإمام ، وكيف لا يؤثـــر وهو (الزاخر العذب فى علم وفى أدب) ولا يخفى ما فى العبارة من عموم ، مـــرده إلى ما يشير إليــــه قوله : (علم وأدب) ثم أكد الشاعر فضل الإمام بقوله : (والناصر الندب فى حرب وفى سلم) ، ولا يخفى — أيضا — أثر الطباق فى قولـــه (حرب وسلم) إذ يبين عظمة الإمام وشجاعته فى كل أموره .

ثم أشار الشاعر إلى خليفة آخر بقوله : (١)

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٦ .

أوَ ابن عفان والقرآن فى يـــده
يحنـو عليـــه كما تحنو على الفطـم
ويجمع الآي ترتيبا وينظمهـــا
عقدا بجيد الليالى غير منفصـــم
جرحان فى كبد الإسلام ما التأما
جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمـــى

يتحدث شوقى عن بعض مآثر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وخص بالذكر منهـا ملازمته للقرآن الكريم وجمعه .

وإذا تأملت قوله : (والقرآن فى يده يحنو عليه كما تحنو على الفطم) وجدتـه قد اشتمل على تشبيه يبين مدى ملازمته للقرآن الكريم ، كما أن فى قوله : (ويجمـع الآى ترتيبا وينظمها عقدا ..) إشارة لطيفة إلى ما روى أنه جمع القرآن الكريـم فى نسخ موحدة ووزع بعضها على الأمصار، ولا يخفى أن فى قوله : (بجيد الليالى غير منفصم) استعارة مكنية أكدت أثر ذلك الجمع.

ولعله أراد بقوله : (جرحان فى كبد الإسلام ما التأما) الإشارة إلى مقتـل عثمان (رضى الله عنه) ، وهذا ما صرح به قوله : (جرح الشهيد وجرح بالكتـاب دمى)،(فجرح الشهيد) إشارة إلى مقتله ، (وجرح بالكتاب) إشارة إلى ما روى أنه عندما قتل كان يقرأ القرآن فى مصحف كان أمامه أو فى حجره فسال الدم عليه [١] ، وأصل العبارة (جرح دمى به الكتاب) نقلبت للمبالغة أو للقافية .

ولا يخفـى أن البيت قد اشتمل على استعارة مكنية فى قوله : (كبد الإسـلام) وهى تشير إلى منزلة أمير المؤمنين عثمان فى الإسلام من جهة ومن جهة ثانيـة تبين أن إصابته كانت قاتلة ، ولذلك استشهد بسببها ، أضف إلى ذلك أن الشاعر قد أتى فى البيت — أيضا — بمحسن بديعى هو التوشيع ، ولا يخفى أثره فـى المست الذهن ، وشد الانتباه.

ثم تحدث شوقى عن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) بقوله [٢] :

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٥ ومابعدها .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٦ ومابعدها .

وما بلاء أبى بكر بمتهم
بعد الجلائل فى الأفعال والخدم
بالحزم والعزم حاط الدين فى محن
أضلت الحلم من كهل ومحتلم
وحدن بالراشد الفاروق عن رشد
فى الموت وهو يقين غير منبهم
يجادل القوم مستلا مهنده
فى أعظم الرسل قدرا كيف لم يدم
لا تعذلوه إذا طاف الذهول به
مات الحبيب فضل الصب عن رغم

إن بلاء أبى بكر فى إعزاز كلمة الدين ونصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يشك فيه أحد، ولقد ثبت فى وقت المحن التى تاهت منها عقول الراشدين وتحيرت من شدتها أنظار المفكرين .

وإذا تأملت قوله : (وما بلاء أبى بكر بمتهم) وجدته يشير إلى ما قام به أبو بكر من أعمال سجلها له التاريخ ، وحفظتها له الأجيال ، فهو أول من آمن بالرسول من الرجال ، وصاحبه فى الغار ، وأيد الرسول ونصره بنفسه وماله ، وغير ذلك كثير ، ولذلك حسن قول الشاعر : (بعد الجلائل فى الأفعال والخدم) .

ويبدو أن الشاعر أراد بيان بعض تلك الأفعال فقال : (بالحزم والعزم حاط الدين فى محن ..) ففى هذه العبارة يشير شوقى إلى موقف أبى بكر العظيم من حروب الردة التى حارب فيها كل من خرج عن تعاليم الإسلام ، ولعل الجناس الناقص فى قول الشاعر (الحزم والعزم) يبين قوة أبى بكر فى تلك الحروب ويؤيد ذلك قوله : " والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه .. (1) " .

أضف إلى ذلك أن قوله : (حاط الدين) يدل على حمايته بأمر الدين وخاصة فى أشد الأوقات وأصعبها التى (أضلت الحلم من كهل ومحتلم) وفى هذه العبارة

---

(1) محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٧٣ وما بعدها مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٣٧٠ هـ .

كناية عن شدة تلك المحن كما أن بين لفظى (كهل ومحتلم) طباقا أفاد عموم وشمول تلك المحن التى أثرت فى الكبير والصغير •

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن محنة أخرى ثبت فيها أبو بكر ولم يثبت أمامها أقوى الناس عقلا ، وذلك فى قوله : (وجدن بالراشد الفاروق عن رشد فى الموت •) إنه يشير إلى موقف عمر بن الخطاب من وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ أسرع إلى سيفه وتوعد من يقول إن الرسول قد مات (يجادل القوم مستلا مهنده فى أعظم الرسل ••) كما أن قول الشاعر : (كيف لم يدم) يدل على الغرابة ولكن أبا بكر عندما حضر وكشف عن وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووجده قد مات ، خرج إلى الناس ، قائلا : "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت (1)" ، ثم قرأ قول الله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ •• الآية (٢) •

ويشير الشاعر إلى التماس العذر لعمر بن الخطاب بقوله : (لا تعذلوه إذا طاف الذهول به) ، ثم علل سبب عدم اللوم بقوله : (مات الحبيب فضل الصب عن رغم) ولا يخفى أن فى قوله : (مات الحبيب) تسجيلا لمحبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما أن لفظ (فَضَلَّ) يوحى بشدة تأثر عمر بن الخطاب ، بوفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودخول الفاء على ذلك اللفظ يوحى بسرعة ذلك التأثير إلا أن لفظ (الصب) هنا غير مناسب للمقام ، ولو قال : (الحب) بكسر الحاء ـ مثلا لكان أفضل •

الصلاة والسلام على رسول الله :

ولقد دعا الشاعر ربه قائلا :(٣)

يارب صل وسلم ما أردت على
نزيل عرشك خير الرسل كلهم

محيى الليالى صلاة لا يقطعها
إلا بدمع من الإشفاق منسجم

---

(١) حياة محمد ص ٥٠٥ ومابعدها •   (٢) آل عمران / ١٤٤

(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٧ •

مسبحا لك جنح الليل محتملا
ضرا من السهد أو ضرا من الورم
رضية نفسه لا تشتكى سأما
وما مع الحب إن أخلصت من سأم

يدعو شوقى ربه ويطلب منه (جل جلاله) أن يصلى ويسلم على خير رسله الذى يحيى الليل بالصلاة والتسبيح ، دون ملل أو كلل •

ولا يخفى أن الشاعر قد جمع الصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : (يارب صل وسلم ••) وهو فى هذا قد زاد على كل من سبقه من أصحاب معارضات بردة البوصيرى، إذ ذكروا الصلاة فحسب ، إلا الدرويش الذى طلبهما أيضا ، فهو الذى سبق الشاعر فى ذلك [1] •

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (خير الرسل كلهم) فإن قوله : (نزيل) غير مناسب للمقام •

ولا يخفى أن فى قوله : (محيى الليالى صلاة لا يقطعها ••) إشارة إلى تهجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد سبق البوصيرى إلى ذلك [٢] إلا أن الشاعر قد زاد على البوصيرى الإشارة إلى بكاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خشية ربه ، والإشارة — أيضا — إلى تسبيح الرسول ، ولعله فى هذا ناظر إلى قوله تعالى : "وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً" [٣] •

وفى قوله : (محتملا ضرا من السهد أو ضرا من الورم) إشارة إلى طول قيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصبره دون سأم : (رضية نفسه لا تشتكى سأما) •

ولقد أتى شوقى بحكمة صادقة فى قوله : (وما مع الحب إن أخلصت من سأم) وفى ذلك إشارة لطيفة إلى أثر الإخلاص فى الحب •

ثم واصل الشاعر التضرع إلى الله بقوله : [٤]

---

(١) انظر ص ٣٠٦ من هذه الرسالة •

(٢) المرجع السابق ص ٤١١ •

(٣) الإنسان / ٢٦ •

(٤) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٧ ومابعدها •

وصل ربى على آل له نخب
جعلت فيهم لواء البيت والحرم

بيض الوجوه ، ووجه الدهر ذو حلك
شم الأنوف ، وأنف الحادثات حمى

وأحمد خير صلاة ضلك أربعة
فى الصحب ، صحبتهم مرعية الحرم

الراكبين إذا نادى النبى بهم
ما هال من جلل واشتد من عمم

الصابرين ونفس الأرض واجفة
الضاحكين إلى الأخطار والقحم

يطلب شوقى من الله تعالى أن يصلى على آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — المعروفين بالكرم والشجاعة — وعلى أربعة من أصحابه الذين وقفوا بجانبه فى أشد الأوقات وأصعبها ، صابرين ، راضين ، ولعله يقصد (أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى) رضى الله عنهم جميعا .

ولا يخفى أن الشاعر وصف آل البيت بأنهم :(نخب ... فيهم لواء البيت والحرم) وفى ذلك إشارة إلى رفعتهم ، وعظم مكانتهم ، وهذا ما أكده بقوله : (بيض الوجوه ووجه الدهر ذو حلك) وفى العبارة كناية عن كرمهم وخاصة فى وقت الشدة ، كما فى العبارة استعارة مكنية وضحت أثر الدهر ، ثم وصفهم بأنهم : (شم الأنوف ، وأنف الحادثات حمى)، ولا يخفى أن فى العبارة كناية عن شجاعتهم وشدة بأسهم ، وكناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر ، بالإضافة إلى استعارة مكنية أوحت بتشخيص الحادثات وبيان عظمها .

ولقد أشار الشاعر إلى فضل بعض الصحابة ، وبين رفعة شأنهم بقوله : (صحبتهم مرعية الحرم) كما بين شجاعتهم بقوله :(الراكبين إذا نادى النبى بهم) وفى ذلك كناية لا يخفى أثرها فى تأكيد قوتهم وطاعتهم رسول الله ، أضف إلى ذلك أنه وصفهم بقوله : (الصابرين ونفس الأرض واجفة)، والعبارة توحى بتشخيص الأرض ، وتشير إلى ثبات هؤلاء الصحابة وصبرهم، ورضاهم بقضاء الله وقدره.

التوسل برسول الله :

ولقد توجه شوقي إلى ربه بالدعاء قائـــلا : (١)

يارب هبت شعوب من منيتهـــــا
واستيقظت أمم من رقـدة العـدم

سعد ونحس وملك أنت مالكــــه
تديـــل من نعم فيه ومن نقـــم

رأى قضاؤك فينا رأى حكمتـــه
أكرم بوجهك من قاض ومنتقـــم

فالطـف لأجـل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفـا ولا تسـم

يارب أحسنت بدء المسلمين بـــه
فتمم الفضـل وامنح حسن مختتم

يدعو الشاعر ربه بأن يلطف بالمسلمين، ويخلصهم من الأغلال وقيود الضعف لينهضوا من كبوتهم، كما نهضت كثير من الشعوب .

ولا يخفى أن في قوله : (هبت شعوب من منيتها ، واستيقظت أمم ..) استعارة تصريحية بينت حال تلك الأمم التي تصاب بالاستعمار والتأخر، كما أن في قوله : (سعد ونحس ..) طباقا يشير إلى قدرة الله ، وأكد ذلك بقوله : (وملك أنت مالكه تديل من نعم فيه ومن نقم) ، وفي العبارة طباق في قوله : (نعم ونقم) يؤكد الفكرة السابقة .

وإذا تأملت قوله : (رأى قضاؤك فينا رأى حكمته ..) وجدته يشير إلى الرضا بقضاء الله لأنه هو الذي يتصرف في ملكه بحكمة لا يعلمها إلا هو (جل جلاله) .

أما قوله : (فالطف لأجل رسول العالمين بنا ..) فيشير إلى توسله إلـــى الله تعالى برسوله (صلى الله عليه وسلم) لكي يلطف بنا ولا يحكم فينا ظالمـــا

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٨ .

أو مستبدا ، ولا يزد قوم الرسول (صلى الله عليه وسلم) (خسفا ٠٠) ولعـــل هذا يشير إشارة واضحة إلى أن الشاعر يتشفع للمسلمين جميعا بالإضافة إلـى تشفعه لنفسه ، وهذه حسنة من حسناته التى سبق إليها ، إلا أن كلمة (لأجل) ليست شعرية ، وإن كانت عربية ، فهى أشبه بالعامية ٠

ثم ختم الشاعر قصيدته بقوله : (يارب أحسنت بدء المسلمين به ٠٠٠٠) ويبدو أنه يشير إلى سبق النور المحمدى ـ كما سبق ـ ومهما يكن من شىء فهو يطلب من الله أن : (يتم الفضل ٠٠) على المسلمين جميعا بحسن الختـــام، ولا يخفى ما فى قوله : (وامنح حسن مختتم) من إشارة بديعية لطيفة إلى حســن الختام٠

وبعد ما انتهيت من دراسة (نهج البردة) وتحليلها ، ســوف أشــير إلى قيمتهـا فى الفصـل التالـــى إن شاء اللـــه ،

الفصـــل الثالـــث

قيمـة معارضـة شوقـى

لقد وقفت مع قصيدة (نهج البردة) متناولا أفكارها بالدراسة والتحليل ، وسوف أبين قيمتها ، ومدى ما أضافته من أفكار إلى المدائح النبوية .

ومما لا شك فيه أن تلك القصيدة معارضة من معارضات البردة ، إذ توافرت فيها شروط المعارضة ، من اتحاد الوزن والروى والغرض ، ولا يقدح في ذلك ما ذكره أحد الكتاب بقوله : " ولم يدع شوقى لقصيدته أنها معارضة لبردة البوصيرى بل اعترف أنها محاكاة واحتذاء واقتداء ، وشتان ما بين المعارضة والاحتذاء ، لأن المعارضة تحمل دعوى التحدى والتفوق وإدراك ما عجز عنه الأول ، أو على الأقل تتضمن دعوى المناظرة والمسامتة والمساواة ، أما الاحتذاء فلا يحمل إلا المتابعة والمشابهة والاقتداء ، وفى هذا معنى التلمذة والإقرار بتفوق المتبوع ، وسواء أكان اعتراف شوقى باحتذاء البوصيرى حقيقة أم لونا من الكياسة والمجاملة ، فإنه قد أكد ذلك مرات :

أولا : فى تسمية قصيدته بنهج البردة ، وفى هذه التسمية نفسها غناء ومقنع ، لأن النهج : الطريق الواضح ، ونهج فلان نهج فلان أى سلك سبيله .

ثانيا : فى قوله بكتاب إهدائها إلى الخديوى : " رأى الله لهذا العبد الخاضع شاعر بيتك الكريم أن يمشى بنور العلم المغفور له البوصيرى ـ صاحب القصيدة المشهورة بالبردة ـ فى مدح خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام فنظمت هذه الكلمة التى أسأل الله ، وأرجو من رسوله قبولها " .

ثالثا : قوله فى القصيدة نفسها :

الله يشهد أنى لا أعارضه

من ذا يعارض صوب العارض العرم؟

وإنما أنا بعض الغابطين ومن
يغبط وليك لا يذم ولا يلم

فهو يشهد الله أنه لم يقصد معارضته ، لأنها فوق طاقته ، ويؤكد هذا بقوله: إنه لا أحد يستطيع أن يعارض السحاب الهتون ، أو يحاكى بقدرته المطر الغزير ، وكأنما لم يجد فى هذا الاعتراف ما ينفى عنه النزوع إلى المعارضة فعقب عليه بأنه أحد الذين يغبطون البوصيرى.. (١) ".

ولا يخفى أن فى هذا القول مايدل على أن صاحبه يعد من شروط المعارضة التحدى، وهذا ما لم يقله أحد، بل إن التحدى دافع من الدوافع التى تدعو إلى المعارضة — كما أشرت إلى ذلك سابقا — (٢).

أما من جهة تسمية القصيدة بنهج البردة لا بمعارضة البردة ، فهذا قول يثير العجب ، إذ لم يشترط أحد من النقاد على الشاعر المعارض أن يسمى قصيدته (معارضة كذا) ، بل إن ذلك الكاتب نفسه يقول : " ولا شك — فى — أن بردة البوصيرى راقت كثيرا من الشعراء فحاكوها وعارضوها .. (٣) " ثم ذكر بعض الشعراء الذين فعلوا ذلك ، ولم أجد أحدا منهم سمى قصيدته معارضة البردة ، أضف إلى ذلك أن الشاعر عارض البحترى فى سينيته ، كما عارض شعراء آخرين فى قصائدهم — كما سبق — فما رأيته سمى إحدى تلك القصائد بمعارضة كذا .

وأما من جهة ما قاله شوقى من أنه لم يعارض البوصيرى ، فهذا النفى ليس على إطلاقه ، بل هو نفى المعارضة القائمة على التحدى ، والراجح أن الشاعر عارض البردة بدافع الإعجاب ، وهذا ما أشار إليه أحد الكتاب بقوله : " .. نستطيع أن نقول .. إن نهج البردة لم يفته من خصائص المعارضة إلا إرادة الغلبة والسبق فهذه ينفيها شوقى .. (٤) ".

---

(١) الإسلام فى شعر شوقى ص ٤٢ باختصار .
(٢) انظر ص ٢٥٧ من هذه الرسالة .
(٣) الإسلام فى شعر شوقى ص ٣٨ .
(٤) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٣٦ ، المعارضة فى شعر شوقى ص ٧ ١١٠٠/

ومهما يكن من شئ ، فإن نهج البردة معارضة لبردة البوصيرى ، ويؤكد ذلك كثير من النقاد [1] ، وهذا ليس بغريب على شوقى إذ كان كما قال أحد الكتاب: " .. كالجواد المتعق الكريم ينافس حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنه منهم ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته ليجعل شوقى أشعر من شوقى ... (٢) " .

ويبدو أن الشاعر قرأ قصيدة التيمورية التى عارضت بها بردة البوصيرى ومما يشير إلى ذلك أنه أشار إلى معجزة نبع الماء من بين أصابع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : [3]

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ
فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وقد سبقته التيمورية إلى الحديث عن ذلك بقولها [4] :

فكم بنبع زلال فاض من يده
أروى الأوام وأسقى منه كل ظمى

والراجح أنه قرأ قصيدة البارودى (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) — ويبدو أنه اقتبس منها بعض العبارات ونظر إلى بعض ما تضمنته من معان فمثلا قال البارودى فى وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) : [5]

سمير وحى ، ومجنى حكمة ، وندى
سماحة ، وقرى عاف ، ورى ظمى

---

(١) انظر : الدكتور ماهر حسن : شوقى شعره الإسلامى ص ١٠٨ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧ ، والبارودى رائد الشعر الحديث ص ١٤٩ ، والأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١١٢ والمعارضة فى شعر شوقى ص ١٧٢ ، ومحمد فى الأدب المعاصر ص ١٣٢ ، والدكتور شوقى ضيف : شوقى شاعر العصر الحديث ص ٧٤ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .

(٢) وحى القلم ج ٣ ص ٣٤٤ ومابعدها .

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤) حلية الطراز ص ٢٧٠ .

(٥) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥ .

فقال شوقى مشيرا إلى معنى البارودى فى الجملة الأولى [1] :

يسامر الوحى فيها قبل مهبطه

ومن يبشر بسيمى الخير يتسم

وعندما قال البارودى [2] :

وهم المصطفى بدرا فلاح لـه

بـدر من النصر جلى ظلمة الوهم

قال شوقى [3] :

بدر تطلع فى بدر فغرتـه

كغـرة النصر تجلو داجى الظلم

وواضح ما بين القولين من توافق ، وإن تصرف شوقى فى قوله بعض التصرف، أضف إلى ذلك أن البارودى قال فى علو نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطهارة آبائه [4] :

نور تنقل فى الأكوان ساطعه

تنقل البدر من صلب إلى رحم

فقال شوقى فى الفكرة نفسها [5] :

نمـاه فى سبحات الطهر قبلهم

نوران قاما مقام الصلب والرحم

ولا يخفى أن مثل ذلك يدل على أن الشاعر قد تأثر فى قصيدته بقصيدة البارودى ، ولا يقدح فى ذلك أنه تصرف فيما أخذه ، لأن هـذا هو المتوقع من أى شاعر يأخذ من غيره ، ولعل هذا يؤكد ما قاله أحد النقاد وهو يتحدث عن قصيدة البارودى بقوله : (" ولا نشك فى أن هذه الملحمة

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٥ .
(٢) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٢٧ .
(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٤) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٦ .
(٥) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٥ .

_ كشف الغمة فى مدح سيد الأمة _ هى التى أوحت إلى حافظ إبراهيم أن ينظم مطولته عن عمر .. وأيضا استضاء بها شوقى كما استضاء ببردة الأبوصيرى فى ميميته: " ريم على القاع بين البان والعلم "(١).

إن تأثر شوقى فى شعره بالبارودى ليس غريبا ، فلقد أشار إليه كثير من الكتاب . ومن ذلك قول أحد النقاد : " .. كل من يقرأ _ شعر _ شوقى يحس الصلة القوية بينه وبين البارودى ، ثم بينه وبين شعراء العرب.. (٢) ".

" وكأن القدر ساق البارودى ليكون رائد الطريق لشوقى ، فلم يلبث حسين فتح عينيه على الوجود الفنى أن رأى مصباحه يضيء ، فسار على هديه واحتذى على أمثلته ونماذجه ، وتخرج شوقى فى شعره وعلى ديوانه ، فلم ينحرف إلى بديعيات ولا إلى مبالغات ، بل اتخذ مذهب أستاذه فى صب قوالبه ونحت تراكيبه .. (٣) ".

وليس معنى ذلك أن شخصية شوقى لم تظهر فى قصيدته (نهج البردة) أو أنه قلد السابقين فحسب لا . لقد ظهرت شخصيته بوضوح فى تلك القصيدة ، ومما يدل على ذلك نسيبه الذى بدأنا به ، وإن كان قد نهج فيه نهج السابقين إلا أنه أطنب فيه إطنابا كبيرا لا يليق بقصيدة يمدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولعل مثل هذا هو الذى جعل بعض الكتاب يقول عنه: إنه مزدوج الشخصية (٤)، وإن كان _ الراجح _ أنه ليس كذلك لأنه إنسان كغيره من البشر تعرض له مغريات المتعة واللهو ، فكان يرى الأوانس فى القصور التى كان يحل بها بالقرب من الخديوى ، ويشاهد الوصيفات وهن فى أبهج صورة ، وأجمل هيئة ، فيصف ما شاهده ، سواء عن لوعة وحب ، أم عن صنعة متقنة ، ليست نابعة من قلبه بل نابعة من نفسه _ كما قال ذلك أحد أصحابه (٥)، ويبدو أن مثل ذلك هو الذى

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث . ص١٤٦.

(٢) شكيب أرسلان : شوقى أو صداقة أربعين سنة ص١٤٠ ،مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٣٦.

(٣) شوقى شاعر العصر الحديث ص٤٣.

(٤) مقدمة ديوان الشوقيات بقلم الدكتور / محمد حسين هيكل ص٨ ومابعدها. وانظر رائد الإسلام فى شعر شوقى ص١١ ومابعدها .

(٥) أحمد محفوظ : حياة شوقى ص١١٥ مطبعة مصر (غير مؤرخ).

جمله يقول نص نهج البردة : (من الموانس بانا ٠٠) و (اللاعبات بروحى ، السافحات دمى) و (والسافرات كأمثال الدمى) و (القاتلات بأجفان بها سقم ٠٠) و (المائرات بألباب الرجال ٠٠) و (المضرمات خدودا أسفرت) و (الحاملات لواء الحسن مختلفا ٠٠) وغير ذلك مما يشير إلى تأثره فى نظمه بما عرض له من مغريات اللهو فى بيئته المترفة ، وحياته المنعمة ، فى قصر الخديوى ، كما تأثر — أيضا — بما يعرض له من دواعى الإنابة والزهد ولعل هذا هو الذى جعله يقول فى نهج البردة[1] :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل

فى الله يجعلنى فى خير معتصم

بل لعله هو الذى جعله يوصى بأن يكتب على قبره بيتان من نهج البردة[2] ، ثانيهما البيت السابق وأولهما :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى

وكيف لا يتسامى بالرسول سمى[3]

وظهرت شخصيته أيضا فى استعماله بعض الألفاظ التى كان يسمعها وهو يعمل بحاشية الخديوى مثل : (للبصر السامى) و (لزمت باب أمير ٠٠) و (نزيل عرشك ٠٠) و (قدسية النغم) وغير ذلك كثير ، منتشر فى ثنايا القصيدة ومما يؤكد ذلك قول الأستاذ العقاد : " ولعله — شوقى — لم ينس البلاط وهو يصف السماء ومنازل (التشريفات) فيها ، فقال فى مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) :

وقيل كل نبى عند رتبته ∴ ويا محمد هذا العرش فاستلم[4]

وإذا تأملت قصيدة شوقى — نهج البردة — وجدت انفصال أفكارها واقتضاب بعضها ، ثم معاودتها بعد أن ظن القارئ أن الشاعر قد مضى إلى هدف جديد بعيد ، فمثلا : أشاد بنسب الرسول وأبوته ، ولم يعقب

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٢) صور وظلال من حياة شوقى وحافظ ص ١٤ .

(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٤) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٤٠ وما بعدها .

على هذا بما يقتضيه سير الزمن وترابط الحوادث، فيتحدث عن مولده وما صاحبه من بشائر وخوارق، بل عقب عليه بسفر النبي إلى الشام .. ثم انتقل من هذا إلى تهتل النبي بغار حراء، ثم تحدث عن بعض معجزاته، ثم عاد إلى غار حراء .. ثم عاد إلى أبوة النبي وإلى مولده .. [1]..

إن عدم ترتيب أفكار القصيدة يثير سؤالا: أيرجع ذلك إلى ما كان في طبيعة شوقي من أنه - كما قال عنه ولده -: كان سريع التقلب كالمحيط [2]، أو أنه - كما قال عنه أحد أصحابه -: كان في أخلاقه الملل، فهو ملول قلق لا يستقر [3]، أم أن عاطفته لم تكن صادقة في مدحها، لأن مقام مدح الرسول مقام عال كما قال هو [4]:

هذا مقام من الرحمن مقتبس

ترمى مهابته سحبان بالبكم

وكيف يمدح الرحمن، وهو - كما قال عنه أحد أصحابه - قد نظم كل قصائده الدينية ومن بينها نهج البردة وهو في ظل شبابه وفي إبان عبثه ولهوه، وكلفه بالخمر، واعتلاف إلى ملاعب اللهو [5]، بل كان لا يصوم ولا يصلى لاعتلال صحته، وأبى أن يحج مع عباس الثاني لإرهاق أعصابه، مع يسر الرحلة، وسهولتها .. [6] " والعجيب أن يقول ذلك الكاتب بعد ذلك مباشرة:

" ولكنه كان عميق الإيمان، عمقا تغلغل في جميع كيانه، كان لا يذكر اسم الله مجردا قط، بل كان يتبعه بلفظي (سبحانه وتعالى) ولم يذكر اسم النبي مجردا البتة، بل كان يصلي ويسلم عليه دائما، وما مررت معه في طريق

---

(١) الإسلام في شعر شوقي ص١١٦ باختصار.
(٢) أبي شوقي ص١٠.
(٣) حياة شوقي ص٥٧.
(٤) الشوقيات ج١٠ ص٢٤٦.
(٥) حياة شوقي ص١١٤.
(٦) المرجع السابق ص٨٤.

وصادفتنا جنازة محمولة إلا وقف تعظيما لها .. وعنف أبنه حسينا لحديثه عن الدين حديثا فيه غرارة الصبا ..[1] " .. أقول أكان بمستفيض ذلك

كذلك، أم أن نهج البردة كانت أول قصيدة يمدح فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم تكن تجربته الشعرية قد تهيأت للنظم فى هذا المضمار فاعتمد على تقليد من سبقه مضيفا إليه ما أوحت به شاعريته ، وما أملته عليه بيئته ، ولعل هذا هو الصحيح ، ويؤكده أن الشاعر قد أحسن أيما إحسان فى همزيته التى مدح بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتى تعد من أحسن قصائده فى المدائح النبوية [2] ، فكانت تجربته الشعرية فى هذا المضمار قد نضجت ، ويؤكد ذلك أنه خالف همزية البوصيرى ـ التى قيل: إنه قد عارضها ـ فى كثير من النواحى [3] .

ومهما يكن من شئ ، فلم تخل نهج البردة من لطائف منها : إنها تدل على أن ناظمها يكاد يكون أول من أشار إلى مراحل الوحى الأولى عندما قال [4] :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها

لم تتصل قبل من قيلت له بفم

وتدل أيضا على أنه يكاد يكون أول من وصف حالة الناس قبل البعثة المحمدية ، وصور ما انتشر بينهم من مفاسد فى الحكم والأخلاق بقوله [5] :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلا على صنم قد هام فى صنم

والأرض مملوءة جورا مسخرة

بكل طاغية فى الخلق محتكم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) النصوص الأدبية فى العصر الحديث ص ١٧٥ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٦ ومابعدها .

(٤) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧ .

ضيطر الفرس يمضى غورعيتـه
وقيصر الروم من كبر أصم عـم

يعذبان عباد الله فى شبـه
ويذبحان كما ضحيت بالغنـم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلـم

وكنت أود أن يشير الشاعر عقب ذلك إلى أثر الشريعة الإسلامية — التى جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) — فى أخلاق الناس إذ عبدوا إلها واحدا ، وتركوا عبادة الأصنام ، وانتشر بينهم الحب والوئام ، وكان الرسول يشاور أصحابه ، ولم يستبد برأيه ، كما عطف الغنى على الفقير ، وساعد القوى الضعيف ، وأصبح الناس إخوانا متحابين .

ولكن الشاعر ذكر بعد وصف حالة الناس قبيل البعثة، الحديث عن الإسراء والمعراج ، وبعد ذلك بما يقرب من ستين بيتا ، تحدث عن الشريعة الإسلامية بقوله: (١)

شريعة لك فجرت العقول بها
عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم

غراء حامت عليها أنفس ونهى
ومن يجد سلسلا من حكمة يحم

نور السبيل يساس العالمون بها
تكفلت بشباب الدهر والهرم

يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ فى الخلق مرتسم

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٢٥٢ .

لما اختلت دولة الإسلام واتسعت

مشت مما لكه فى نورها التمم

وعلمت أمة بالقفر نازلـــــة

رعـى القياصر بعد الشاء والنعم

ولا يخفى أن الشاعر لو ذكر هذا القول الجميل ، بعدما تبين انتشار الظلم والفساد ، لكان أفضل .

وتدل نهج البردة — أيضا — على أن ناظمها يكاد يكون أول من أشار إلى فصاحة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وحسن بيانه ، وأثر ذلك فى البيان العربى ، بقوله (١) :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبـة

حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان بـه

فى كل منتثر فى حسن منتظـم

بكل قول كريم أنت قائلــه

تحيى القلوب وتحيى ميت الهمم

كما تدل أيضا على أنه يكاد يكون أول من ترد على مزاعم بعض أعداء الإسلام الذين زعموا أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وفند تلك المزاعم بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة بقوله (٢) :

قالوا : غزوت ورسل الله ما بعثوا

لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطـة

فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب

تكفل السيف بالجهال والعمم

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥١ .

كما أنه ردعلى من زعم أن المسيحية انتشرت دون قتال ، بقوله[1] :

سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم

طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها
فى كل حين قتالا ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

وبين إيذاء أعداء المسيحية لرسول الله عيسى .(عليه السلام) بقوله[2] :

لولا مكان لعيسى عند مرسله
وحرمة وجبت للروح فى القدم

لسمّر البدن الطهر الشريف على
لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم

جل المسيح وذاق الصلب شانئه
إن العقاب بقدر الذنب والجرم

أضف إلى ذلك أنها تدل أيضا على أن (شوقى) يكاد يكون أول من أشاد بخصائص الإسلام ، ونوه بحضارته ، ووازن بين الفكر الإنسانى على مدى أربعة عشر قرنا ، وبين ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من شريعة سامية ، بقوله[3] :

كم شيد المصلحون العاملون بها
فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم

للعلم والعدل والتمدين ما عزموا
من الأمور وما شدوا من الحزم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ .

دع عنك روما وآثينا وما حوتــــا
كل اليواقيت فى بغداد والتيم
وخل كسرى وإيوانا يدل بـــه
هوى على أثر النيران والأيـــم
واترك رعمسيس ، إن الملك مظهره
فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكــــرت
دار السلام لها ألقت يد الســــلم

ولعل إشارة شوقى إلى أثر الشريعة الإسلامية كانت من أصداء الوعى الدينى العام الذى أثمرته دعوة جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما ممـــن قام ببيان مزايا الإسلام ، والدعوة إلى العمل بأحكامه ، والرجوع إلـــى تشريعاته ، ونبذ التشريعات التى قذف بها إلينا الغرب.(١)

وبعد .. فلعل نهج البردة — بما اشتملت عليه من أفكار جديـدة ، قد فتحت المجال ، ولفتت الأذهان إلى أفكار أخرى جديدة أشار إليها الشعراء الذين عارضوا بردة البوصيرى بعد شوقى ، وهذا ما سنراه فى البـــاب التالى إن شـــاء اللـــــه .

---

(١) الدكتور / محمد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر الحديث ص٤٨ ٣ بتصرف مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .



الباب الخامس

معارضات البردة بعد شوقي

الفصل الأول : عرض موجز لمعارضات البردة •
(بعد شوقي)

الفصل الثاني : أثر معارضات البردة
(بعد شوقي)

الباب الخامس

الفصل الأول

عرض موجز لمعارضات البردة (بعد شوقى)

بعدما تحدثت عن معارضة شوقى ، وبينت قيمتها ، سوف أذكر فى هذا الفصل بعض معارضات البردة بعد شوقى ، وسأعرض كل معارضة عرضا سريعا ، مبينا أهم ما اشتملت عليه من أفكار وبخاصة الأفكار الجديدة التى لم يتناولها أصحاب المعارضات من قبله أو تناولوها ولكن بإيجاز.

ولقد اتجهت فى ترتيب هذه المعارضات اتجاها أساسه : تقديم المعارضة على حسب تاريخ نظمها إن وجد ، فإن لم يوجد فعلى حسب تاريخ طبعها إن ذكر ، فإن لم يذكر فعلى تاريخ طبع الديوان الذى اشتمل عليها ، وإلا فعلى تاريخ وفاة ناظمها ، كما مهدت لكل معارضة بإشارة موجزة إلى حياة ناظمها.

المعارضة الأولى : (ظل البردة) :

يبدو أن أولى معارضات البردة بعد شوقى معارضة (عبد المطلب) وهو : محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر ، ولد سنة ١٨٧١[1] ، وقيل سنة[2] ١٨٧٢م فى (باصونة) ــ إحدى قرى مركز جرجا ، التابع لمحافظة سوهاج ــ.

ولقد ولد الشاعر ونشأ فى بيئة دينية ، إذ كان والده ، متفقها ، متصوفا ، تعقد حلقات الذكر فى منزله ، وفى خلالها يلقى على الناس الدروس الدينية ، ولقد حظى ابنه ــ مع صغر سنه ــ بالاستماع إلى بعض تلك الدروس ، ويبدو أن

(١) الأعلام جـ ٧ ص ١٢٥ ، مقدمة ديوانه ص م ومابعدها ،
(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٧١.

الوالد حرص على أن يحفظ ابنه القرآن الكريم ، ولذلك أرسله إلى كُتاب القرية ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم ، ودرس بعض الأحاديث النبوية والأحكام الفقهية ، مما أهله للجلوس مكان والده يعظ الناس — وهو ما زال فى العقد الثانى من حياته — فأعجب به بعض أصدقاء والده وأشاروا عليه بإلحاق ولده بالأزهر الشريف ، ووافق الوالد ، وفى مصر أقبل الشاعر على دروس العلم، والتزود بكثير من المعارف الأدبية ، وظل على ذلك حتى التحق بدار العلوم سنة ١٨٩٢ ، بعد أن أصبحت لديه ثروة من غرر القوافى ، وجيد النثر فمكنه كل ذلك من النظم فى كثير من الأغراض الشعرية ، ونال إعجاب أساتذته وزملائه .

وعندما تخرج فى دار العلوم سنة ١٨٩٦ عين مدرسا بالمدارس الابتدائية بسوهاج ثم نقل إلى المدارس الثانوية ، ثم أختير مدرسا بالقضاء الشرعى ، واستمر على ذلك حتى اختير مدرسا بدار العلوم سنة ١٩٢١ ، وانتدب للتدريس فى تخصص اللغة العربية بالأزهر سنة ١٩٢٨ ، وظل ينفع الناس بعلمه ويطربهم بشعره ، حتى أتاه اليقين سنة ١٩٣١ (١).

آثـــاره :

توفى عبد المطلب بعد أن ترك ثروة أدبية منها : (٢)

١ — ديوان شعره (طبع بعد وفاته).
٢ — تاريخ أدب اللغة العربية — ثلاثة أجزاء (مخطوط) .
٣ — كتاب الجولتين فى آداب الدولتين — الأموية والعباسية — (مخطوط)
٤ — إعجاز القرآن (مخطوطة).
٥ — رواية (الزباء) (مخطوطة).
٦ — رواية (ليلى العفيفة) (مخطوطة) .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٣٤ وما بعدها وأحمد الإسكندرى (بالاشتراك مع غيره) المنتخب من أدب العرب ج ١ هامش ص ٩٦ — مطابع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٤.

(٢) الأعلام ج ٧ ص ١٢٥.

شاعريتـــه :

كان الشيخ محمد عبد المطلب شاعرا مطبوعا ، قال الشعر فى كل أغراضه ـ تقريبا ـ ويمتاز شعره بمتانة نسجه ، وإحكام قوافيه ، وإن كان بدويا فى خياله ومعانيه وألفاظه ـ غالبا ـ حتى لقب بالشاعر البدوى[1] ، ولعل مرد ذلك إلى تمسكه بعروبته ، وغيرته الشديدة عليها .

ولم يخل شعره من تلك الملاحظة إلا فى بعض القصائد ، مثل قصيدته (ظل البردة) ـ تقريبا ـ وهى التى مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) معارضا بها بردة البوصيرى ، إذ هى من بحر البسيط ، ورويها ميم مكسورة ، وغرضها مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والملاحظ أن الشاعر لم يشـــر إلى ذلك ، كما أشار شوقى وغيره ممن تأثروا فى مديحهم بالبردة ، ويبدو أنــه اكتفى بدلالة اسم القصيدة (ظل البردة) على تأثره فى نظمها بالبردة .

ومهما يكن من شىء ، فإن قصيدة (ظل البردة) تعد من القصائد الطوال إذ يبلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين ومائة بيت ، ولم تعرف سنة نظمها ، ولا سنة طبع ديوان الشاعر الذى اشتمل عليها بالتحديد ، إلا أن مقدمة ديوانه تشير إلى أن الديوان طبع سنة ١٩٣٢ بعد وفاة الشاعر سنة ١٩٣١[2] ، وعلى الرغم من أن (شوقى) قد توفى سنة ١٩٣٢ ، فإننى قدمت الحديث عن قصيدة (نهج البُردة) ، لأنه نظمها سنة ١٩١٠ ـ كما سبق .

والراجح أن عبد المطلب نظم قصيدته (ظل البردة) بعد قصيدة شوقى (نهج البردة) ولعل ما يؤكد ذلك قول أحد الكتاب عن عبد المطلب : " .. لقد نهج منهج من سبقه ، وتبع مدحة الأبوصيرى ، و نهج البردة لشوقى ، فكتب قصيدة سماها (ظل البردة) ولكنها تقل عن السابقتين .. "[3] .

---

(١) المنتخب من أدب العرب جـ ١ هامش ص ٩٦ .

(٢) انظر مقدمة الديوان ص جـ وما بعدها .

(٣) صحيفة دار العلوم ـ السنة الثالثة ، العدد الثانى (أكتوبر سنة ١٩٣٦) ص ٨٧ .

ويقول كاتب آخر : " .. وله ـ عبد المطلب ـ في سيد المرسلين قصيدة ..... سماها (ظل البردة) ، ولعله تبع شوقي حين نظم (نهج البردة) فأبى إلا أن يحاكي بردة البوصيري مثله وهذا ميدانه ، وليس ميدان شوقي .. [1] .. " .

ولم يتخل عبد المطلب عن نهج السابقين ، ولذلك بدأ قصيدته (ظل البردة) بغزل تقليدي يقع في حوالي خمسة أبيات ، وأولها قوله [2] :

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهرم
سار طوى البيد من (نجد) إلى الهرم
ياساري الطيف يجتاب الظلام إلى
جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم

يبين عبد المطلب أن الذي حرك شوقه إلى أحبابه هو خيالهم الذي قطع الظلام من (نجد) إلى (مصر) على الرغم من حلول الشيب به ، وطعنه في السن .

وإذا تأملت قوله : (ياساري الطيف ..) وجدت النداء يدل على الاستعطاف وبخاصة أنه لم تنم عينه ، ولم يهدأ جفنه من حين رؤياه ، ولا يخفى أثر الجناس في لفظي : (الهرم) إذ فيه إشارة إلى شدة الشوق مع كبر السن وبعد المكان .

ويواصل الشاعر وصف حالته ، وبيان شدة لوعته بقوله [3] :

يابرق مالك لا تحكي جوى كبدي
إذا تألقت ليلا في نديهم
ويا صبا روحي روحي فقد ذهبت
بها النوى بعد عهد البان والعلم [4]

إنه يخاطب البرق الذي لم ينقل لوعة قلبه ، وحرقة كبده من شدة حبه ، عندما ظهر ليلا عند أحبابه ، كما يخاطب الريح ويطلب منها أن تهب برائحتها الطيبة

---

(١) في الأدب الحديث جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٢) ديوانه ص : ٢٥٧ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) روحي ـ الأولى ـ بفتح الراء وكسر الواو مشددة ـ أدخلي الراحة على روحي ـ الثانية بضم الراء والمراد نفسي . النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد وهي مؤنثة لاغير .

التى حملتها عند هبوبها من ناحية أحبابه، لترد إليه روحه التى ضاقت بسبب بعدها عن أحبابها .

ولا يخفى أن الشاعر قد نزل البرق منزلة من يعقل عندما ناداه بقوله : (يابرق ..) وأيضا نزل الصبا منزلة من يعقل فناداها بقوله : (وياصبا ..) ثم أمرها بقوله : (روّحى) وهذا شأن المحبين ، الذين أضناهم الحب ، وأرقهم الشوق ، ويؤكد ذلك قوله ، :(لاتحكى جوى كبدى ..) ، بالإضافة إلى المجاز العقلى فى قوله : (ذهبت بها النوى ..) إذ يبين شدة ما يعانيه بسبب بعده عن أحبابه الذين يسكنون (البان والعلم) ، ويبدو أنه نظر فى ذلك إلى قول البوصيرى : (ولا أرقت لذكر البان والعلم) .

ومهما يكن من شىء ، فإن الشاعر يواصل حديثه عن لوعته بسبب فراقه أحبابه ثم يبين أسفه بسبب تلك الخطوب التى فرقت العرب ، فذهب عزتهم ، وفقدوا مكانتهم ، بقوله (١) :

لله أيام كنا ، والموجود لنا
يجرى القضاء بما شئنا على الأمم
إذ يرفع الله بالدين الحنيف لنا
على الذرا ـ دولة خفاقة العلم

ولا يخفى ما فى قول الشاعر : (لله أيام كنا ..) من أسف شديد على ذلك (الوجود) الذى كان (لنا) معشر المسلمين ، إلا أن فى قوله : (يجرى القضاء بما شئنا على الأمم) مبالغة غير محبوبة ، لأن القضاء يجرى على حسب تقدير الله ومشيئته ، لا (بما شئنا) وإن أتى بما أحببنا فهو من تقدير الله أيضا .

ويبدو أن الشاعر أراد أن يبين أثر الدين فقال : (إذ يرفع الله بالدين الحنيف لنا .. دولة) ، كما أن قوله : (على الذرا) يشير إلى ما ناله المسلمون من رفعة بسبب الدين الحنيف ، ويؤكد ذلك تلك الكناية التى فى قوله : (خفاقة العلم)

---

(١) ديوانه ص ٢٥٧ .

إذ أشارت إلى عزة تلك الدولة وعظم شأنها .

ثم أشار الشاعر إلى أن الذي بنى مجد المسلمين هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [1] :

مجد بناه المفدى قاض الوجود به

نورا له قامت الدنيا من العدم

طه أبو القاسم المبعوث من مضر

إلى البرية من عرب ومن عجم [2]

ولا يخفى أن قوله : (.. نورا له قامت الدنيا من العدم) مأخوذ من قول البوصيري : (لولاه لم تخرج الدنيا من العدم) ، كما أن الشاعر قد نهج نهج التيمورية فى ذكر لفظ (طه) على أنه اسم من أسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) [3] .

ويتحدث عن حالة العالم قبيل بعثة الرسول (صلى الله علية وسلم) بقوله [4] :

ولو ترى قبلها الدنيا وما لقيت

من البلاء ، وماذا قت من النقم

والناس ضلال قفر فى مسارحها

هيم من السرح أو غفل من الغنم

ضلوا سواء النهى فاستمسكوا عمها

بكل حبل من الأهواء منجذم

ولقد حل البلاء بالناس ، الذين ضلوا وهاموا فى كل سبيل ، ولم يتمسكوا إلا بأهوائهم الفانية ، وشهواتهم الزائلة .

وأحسن الشاعر عندما شبه الناس فى ذلك الوقت بالغنم الضالة أو الإبل التى تسرح فى مراعيها ، لأنهم قد [5]

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) أبو القاسم : كنية الرسول (صلى الله عليه وسلم) - مضر - بضم ففتح - أحد أجداد الرسول . (صلى الله عليه وسلم)
(٣) انظر ص٣١٦ من هذه الرسالة .
(٤) ديوانه ص٢٥٧ . (٥) المرجع السابق ص٢٥٨ .

تفرقوا شيعا فى الكفر وانقسموا
شتى نباءوا بما يخزى من القسم
هذا عن الحق بالأفلاك فى عمه
وذلك بالنار عن نور الجلال عمى
وذا يوءله من لا يستجيب له
من ناطق بشر أو صامت صنم

لقد انقسموا فى معتقداتهم ، فمنهم من يعبد النجوم والكواكب، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد بشرا ، أو يؤله حجرا . ولا يخفى أن الشاعر بذلك قد شرح ما أجمله شوقى فى قوله : (أتيت والناس فوضى..) (1)

ثم يشير الشاعر إلى بعض الصفات السيئة التى انتشرت بين الناس فى ذلك الوقت بقوله (2) :

قبائل وشعوب لا يعطفها
إخاء صدق ولا قربى من الرحم
وسوقة وملوك حال بينهما
ما حال بين سباع الجو والنعم

إن أواصر المحبة والصداقة قد فقدت بين الناس ، فلا عطف بينهم، ولا صدق فى الإخاء ، ولا صلة رحم ، كما أن الملوك فى قصورهم العالية يتنعمون بما لذ وطاب ، أما الرعية فهى فى بؤس شديد ، ولا يخفى ما فى قوله : (ما حال بين سباع الجو والنعم) من إشارة لطيفة إلى ما عليه الملوك من نهب حقوق رعيتهم ، وبعدهم عنهم .

ويواصل الشاعر حديثه عن معاملة الملوك لرعيتهم ، ذاكرا أن الملوك لا هَمّ لهم إلا الجلوس على كرسى العرش والتحكم فى الرعية فينتشر الجهل والظلم ، والأحقاد والبغضاء (3) .

---

(1) الشوقيات جـ ١ ص٢٤٧ .
(2) ديوانه ص٢٥٨ .
(3) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ثم انتقل إلى الحديث عن قريش وأثرها بقوله [1] :

لولا قريش سقى الله الوجود بهـا
غوثا من الأمن فى غيث من الديم

قوم إذا ابتدر الناس العلا نهضـوا
فى زاخر من تليد المجد ملتطم

هم خيرة الله مذ كانوا وصفوتـه
وجيرة الله فازوا منه بالذمـم

يشير عبد المطلب إلى أن قريشا كانت سببا فى انتشار الأمن ، وكثرة الخير ولا يخفى ما فى قوله : (قوم إذا ابتدر الناس العلا نهضوا ..) من إشارة إلـى رفعة شأن هذه القبيلة من زمن قديم ، ويؤكد ذلك قوله (هم خيرة الله مـذ كانوا وصفوته ..) ولعل الشاعر يلمح بذلك إلى قيامهم بأمر البيت الحرام ، ويقوى ذلك قوله : (وجيرة الله ..) ويبدو أنه يشير أيضا إلى قوله تعالى: " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ .. الآيات [2] " .

ويفصّل ما أجمله فى الحديث عن قريش بقوله [3] :

ياموئل النـاس والأيام واجفـة
بأهلها ، وسعير البأس فى حـدم

وعصمة الناس إن ضاق القضاء بهـم
فأموا إلى موئل منكم ومعتصـم

فقريش محل إكرام الناس وخاصة عند الشدائد ، وهى ملاذهم الذى إليـه يلجأون ، وبه يعتصمون .

ولا يخفى أن الشاعر كرر لفظ الناس فوضع الظاهر موضع المضمر ، ولعل فـى ذلك إشارة إلى تأكيد فضل قريش على الناس .

ثم ذكر أن من فضل قريش على الناس أن ظهر منها الرسول (صلى اللـه عليه وسلم بقوله : [4]

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) قريش / ١ — ٤ .
(٣) ديوانه ص ٢٥٩ .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

تصوب المجد من أعلى ذوائبكم
نورا أطل على الآفاق من شمم

ولا يخفى أنه عبر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالنور إشارة لطيفة إلى قوله تعالى : " قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ .. [1] .

وأشار عبد المطلب إلى أن والدة الرسول ذات الطهر والعصم قد حملت به ، وأن الله تعالى قد سواه وصورة في أحسن صورة ، وزكاه بأفضل الآداب والحكم ، وإذا كان قد ولد يتيما فإن الله قد آواه [2] .

ويبدو أن الشاعر لم يتأثر في نظم قصيدته بالبوصيري والتيمورية وشوقي فحسب ، بل تأثر في ذلك بالبارودي أيضا [3] يدل على ذلك إشارته إلى الخير الذي عم السيدة حليمة السعدية عندما أرضعت الرسول بقوله : [4]

واستقبل الدهر بالنعمى مراضعه
إلى هوازن يجري الغيث بالنعم
يا سعد حي بني سعد بما صنعت
فقاتهم ، وانشر البشرى بحيهم
خير المراضع من أم القرى رجعت
أما لأكرم مكفول وملتزم

ويشير عبد المطلب إلى خلوة الرسول في غار حراء ، يؤنسه جلال الله في وحدته ، وظل على ذلك حتى نزل عليه الوحي بقوله [5] :

مستأنسا بجلال الله يشهده
في الغار بين خشوع البيد والأكم
حتى تبين أعلام النبوة فيه
ما قد رأى ثم لم يرتب ولم يهم

---

(1) المائدة / ١٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٥٩ .
(٣) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص ٧ .
(٤) ديوانه ص ٢٦٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٦١ .

أوحى إليه كما أوحى إلى رسـل
من قبله بالهدى والملة القيم
بالنور بالحق بالعرفان أرسله اللـ
ـه الذى علم الإنسان بالقلم

ولا يخفى أن فى قول الشاعر : (الذى علم الإنسان بالقلم) إشارة لطيفة إلى أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"[1] ، ومما هو جدير بالذكر أن (شوقى) أشار إلى ذلك بقوله : (ونودى أقرأ ٠٠)[2]

وذكر الشاعر أن بعض الكفار عندما أخبرهم الرسول بأمر دعوته ، زلزلت أقدامهم ، وطاشت عقولهم ، ولهذا كان هذا الأمر قد أشار إليه البوصيرى[3] والبارودى[4] ، وشوقى[5] فإن الشاعر قد زاد عليهم بيان معاملة الرسول لهؤلاء الناس بقوله[6] :

يحنو عليهم وإن صدوا بحلمهم
رفق الولى وبر السيد الخضم[7]
وكم طغوا لم يقابلهم بما صنعوا
قلب تخلى عن العدوان والأضم
ومن يقد مثله قوما أطعهم
منه بمنزلة الأبناء والحشم

إن هؤلاء الكفار كانوا يغلظون فى القول للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومع ذلك كان يحنو عليهم ، ويرفق بهم ويعاملهم بالحسنى، بل كان ينزلهم منزلة

---

(١) العلق ١ـ ٥٠
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٦ ٠ (٣) انظر ص ١٨٠ من هذه الرسالة ٠
(٤) المرجع السابق ص ٣٧٧ ٠ (٥) المرجع السابق ص ٢١ ٥٠
(٦) ديوانه ص ٢٦١ ٠
(٧) الخضم : المراد السمح النفس عند العطاء ٠

أبنائه وحشمه ، ففرق كبير بين خُلُق الأصفياء وطيش السفهاء .

وانتقل الشاعر إلى الإشارة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو هؤلاء القوم ويتحداهم بالقرآن الكريم الذى عجزوا عن الإتيان بمثله (١) :

ثم أشار إلى أن بعض العقلاء الذين أثار الله قلوبهم قد أسلموا بقوله : (٢)

إلا فريقاً جلا نور اليقين لهم
عن ظلمة الشك بالعرفان والفهم

وذكر منهم السيدة خديجة ، والإمام على بن أبى طالب وأبا بكر الصديق (رضى الله عنهم) ، وأشار إلى أن هؤلاء الثلاثة قد أحرزوا قصب السبق ، لأنهم أول من أسلموا ، ثم وصف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم أبطال شجعان (٣) .

وأشار عبد المطلب بعد ذلك إلى مؤامرة قريش على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله تعالى قد حفظه وأمره بالهجرة ، كما تحدث عن الغار الذى دخله الرسول وصحبه ، ولم ينس أن يشير إلى الحمام والعنكبوت وما كان لهما من دور كبير فى تضليل الكفار (٤) .

وأحسن عندما ذكر أن ورق الربا قد بكت لبكاء البيت والحرم عندما هاجر الرسول إلى المدينة فى قوله (٥) :

لما نحا (يثرب) أهتز الحصى وبكت
ورق الربا لبكاء البيت والحرم

كما أشار إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو وأصحابه بقوله : (٦)

تأذن الله أن تغشى كتائبه
منازل الشرك فى نجد وفى تهم
وشيمت البيض فاهتز الحجاز لها
واستنت الخيل فى شوق إلى اللجم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢ .   (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ص ٢٦٣ .   (٦) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ثم وصف جيش الرسول بأن جنوده قد أسلموا أنفسهم لله ، ولذلك خاضوا كثيرا من المعارك بسيوفهم القاطعة ، ودروعهم القوية ، وخص بالذكر يوم بدر فقال عنه [1] :

يوم بنى الله أركان الحنيف بـــه
على دعائم عــز غير منهـدم
صفت سماء الليالى منذ ليلتـــه
على الأيام فلم تظلم ولم تغـم

ولا يخفى ما فى قوله :(صفت سماء الليالى ..) من كناية لطيفة بينت أثر انتصار المسلمين فى غزوة بدر .

ثم يخاطب الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله [2] :

ياقائد الجيش يمضى تحت رايتـــه
من عسكر الله جند غير منهزم
إن كان جبريل من (أركان حربك) فى
(بدر) فحمزة والكرار فى الحشم [3]
فى آلك الغر مذ كانوا وهم بشـــر
ما فى الملائك من أيد ومن كـرم
ويانبيا سقى الدنيـا بملتـــــه
روق الحضارة من سلسالها الشيم

يبين عبد المطلب أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يقود الجيش ويرتب صفوفه كما أن صحابته (عسكر الله) قد حفظهم الله فأيدهم بنصره ، وقد استعمل الشاعر لغة الجيش الحديث فى قوله : (أركان حربك) ، وهو يلمح بقوله : (إن كـــان جبريل ..) إلى اشتراك الملائكة فى غزوة بدر مع المسلمين ضد الكفار [4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٤ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) الكرار : المراد به على بن أبى طالب .
(٤) انظر طبقات ابن سعد جـ٢ ق ١ ص ٩ ومابعدها .

ولعل عبد المطلب نظر فى بيته الأخير إلى قول شوقى عن الشريعة الإسلامية وحضارة المسلمين (٠٠ وأنهلوا الناس من سلسالها الشيم) [١] .

والملاحظ أن قصيدة الشاعر قد انتهت بنهاية غير منتظرة ، ويبدو أن بعض أبياتها قد فقد ، ومما يثير الدهشة أن ينظم الشاعر قصيدة فى (علي ابن أبى طالب) - وهى المعروفة بالعلوية - بلغت أبياتها خمسة وثلثمائة بيت [٢] .

وينظم فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قصيدتين ، الأولى بلغت أبياتها اثنى عشر بيتا ومطلعها [٣] :

إليك أجل المرسلين مدائح

تواقيك ما غنى على الأيك صائح

والثانية - وهى ظل البردة - بلغت أبياتها ثلاثة وعشرين ومائة بيت - كما سبق - او كان المنتظر أن تزيد مدائح الرسول على مدائح غيره ، ولعل هذا مما يقوى فكرة فقدان بعض الأبيات من قصيدة (ظل البردة) كما سبق ،

ومهما يكن من شىء فإن قصيدة عبد المطلب (ظل البردة) تشير إلى تقليده وتجديده ، فأما تقليده ، فظاهر فى بدئه القصيدة بالغزل ، وفى حديثه عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى إشارته إلى الخير الذى عم السيدة حليمة السعدية بسبب إرضاعها الرسول ، وفى حديثه عن القرآن وفصاحته ، ووصفه صحابة رسول الله ، وحديثه عن هجرة الرسول وإشارته إلى الغار والحمام والعنكبوت وغير ذلك من الأفكار التى تشير إلى تأثر الشاعر فى قصيدته بالبوصيرى والتيمورية والبارودى وشوقى - كما سبق - وأما تجديده فواضح فى إضافته بعض الأفكار الجديدة مثل : أسفه على تفكك العرب، وذهاب قوتهم ، وإشارته إلى حسن معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للكفار المعاندين ، ومقابلة غلظتهم وأذاهم بالصفح واللين ، وذكره فضل قريش ورفعة شأنهم من قديم الزمان وتلميحه إلى نزول جبريل (عليه السلام) ومعه بعض الملائكة فى غزوة بدر ، أضف إلى ذلك أن الشاعر قد فصل بعض الأفكار التى أجملها من سبقه ، مثل حديثه عن حالة العالم قبيل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) ديوانه ص ٢٣٠ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٢ ٩ .

المعارضة الثانيـــة : ((معارضة الحملاوى))

بعدما أشرت إشارة سريعة إلى معارضة عبد المطلب سأتحدث هنــا عن المعارضة الثانية وهى معارضة الحملاوى.

والحملاوى هو : أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوى[1]، ينتهى نسبــه إلى السيدة فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) كما أشار إلى ذلك فى بعــض قصائده بقوله[2] :

وإن لى نسبا ينمى لفاطمـــة
بنت النبى ، ونعم الأم زهراء
فكيف لا أرتجى جدى ونصرتــه
والجد إن عز عزت منه أبناء

ولقد ولد الحملاوى سنة ١٢٥٦هـ / م ، بقرية (منية حمل) – إحدى قــرى محافظة الشرقية – وتربى فى حجر والده ، الذى أرسله – عندما شب – إلــى كتاب القرية – فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ثم حفظ القرآن الكريم ، وتلقــى كثيرا من العلوم الشرعية والأدبية عن أفاضل عصره، وواصل تعلمه حتى دخــل مدرسة دار العلوم التى شغف بعلومها ، مما جعله يقبل على الدراسة بنهم وشوق حتى نال إجازة التدريس سنة ١٨٨٨ م ، ثم عين مدرسا بالمدارس الابتدائية بوزارة المعارف ، ثم مدرسا بدار العلوم حتى سنة ١٨٩٧ ، إذ ترك مهنـــة التدريس ، واشتغل بالمحاماة فى المحاكم الشرعية ، وفى أثناء عمله أقبـــل على التحضير لنيل شهادة العالمية من الأزهر ، فنال بغيته ، وكان بذلـــك أول من جمع بين العالمية وإجازة التدريس من دار العلوم ، ثم قام بتدريـــس التاريخ لطلاب الأزهر الشريف ، حتى سنة ١٩٢٨ ، إذ ترك العمل مؤثـــرا الراحة لكبر سنه حتى توفى سنة ١٩٣٢.[3]

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٧٧ ومابعدها ، ومقدمة كتابه شذا العرف فى فن الصرف ص٥ وما بعدها [illegible]

(٢) ديوانه أخرجه من أصوله (مصطفى السقا) جـ ١ ص ٣٥ الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٥٨.

(٣) شذا العرف ص٦ ومابعدها .

آثاره :

لقد مات الحملاوى بعد أن ترك نخبة ممتازة من تلامذته مثل : الشيخ عبد العزيز جاويش المتوفى سنة ١٩٢٩ ، والشيخ أحمد الإسكندرى المتوفى سنة ١٩٣٨ ، وغيرهما من رجال العلم ورواد الأدب ، أضف إلى ذلك بعض المؤلفات القيمة مثل :

* شذا العرف فى فن الصرف .
* وزهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع .
* ومورد الصفا فى سيرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .
* وديوانه يضم شعره .
* وقواعد التأييد فى عقائد التوحيد [١]

شاعريته :

إذا قرأت شعر الشيخ الحملاوى ، وجدت معظمه فى مناجاة الله سبحانه وتعالى ، وطلب مغفرته ، ومدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، ومدح بعض العلماء وخاصة الإمام الشافعى (رضى الله عنه) .

وشعره بعامة ـ يمتاز بسهولة ألفاظه ووضوح معانيه ، ويظهر ذلك واضحا فى قصيدته التى مدح فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعارض بها بردة البوصيرى وقد بلغت أبياتها ستة وسبعين بيتا تقريبا " وذكر بعض الكتاب أن اسم تلك القصيدة (منهاج البردة) ، وقد نظمها الشاعر وهو فى طريقه إلى الحج .[٢]

وإذا صح ذلك القول ، كان تاريخ نظم هذه القصيدة سنة ١٣٠٤هـ ، وهو العام الذى حج فيه الشاعر [٣] ، أو سنة ١٣٣١ هـ وهو العام الذى أدى فيه العمرة [٤] :

ومهما يكن من شئ ، فإننى لم أجد للقصيدة اسما فى ديوان الشاعر ، بل صدرت بالعبارة : وقال يمدح المصطفى صلى الله عليه وسلم [٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ وما بعدها . (٢) المدائح النبوية ص ٢٠٤
(٣) ديوان الحملاوى جـ ١ ص ٧٧ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٥ .
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٨ .

ولقد نهج فيها نهج البوصيرى فى بردته ، ولم يخالفه إلا فى مطلعها ، إذ لم يبدأها بالغزل ، بل بدأها بمناجاة خالقه ، والابتهال إلى رازقه ، يطلب رحمته ، ويرجو مغفرته ، ويطمع فى قبول توبته ، ودوام ستره بقوله[1] :

يا غافر الذنب من جود ومن كرم
وقابل التوب من جان ومجترم
ومسبل الستر إحسانا ومرحمة
على العصاة بغيض الفضل والكرم
اقبل متابى واغفر ما جنته يدى
واستر عيوبى ، وباعدنى عن التهم

ويستمر الشاعر فى مناجاة ربه ، طالبا منه (جل جلاله) أن يطهر نفسه وجوارحه من كل سوء فيقول[2] :

وخلّص النفس من غمى ومن غير
واغسل فؤادى من ظلم ومن ظلم
وصن بفضلك منى كل جارحة
عن المعاصى وعن داء وعن سقم
وعافنى واعف عنى كلما خطرت
خواطر الغى فى صحوى وفى حلمى

ثم يعلن الشاعر أسفه ، وندمه على تفريطه فى جنب الله ، بقوله[3] :

يارب إن كنت قد فرطت فى صغرى
فإننى اليوم قد أفرطت فى الندم
ضيعت عمرى فى لهو وفى لعب
وفى ارتكاب المناهى غير محتشم
وكنت فى غفلة عن كل موعظة
كأن سمعى عن الوعاظ فى صمم

---

(١) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٩ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها .

ويدرك الشاعر أن عفو الله كبير ، فلم يقنط ولم ييأس ، بل رجا أن يشمله لأنه مؤمن ، ويداوم على شكر الله وذكره ، وقراءة القرآن ، كما أنه يحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فيقول (١) :

يارب عفوك للعاصين متسع
وبحر جودك مورود لكل ظمى

فاجعل بفضلك حسن العفو يشملنى
واغسل ذنوبى وما ألممت من لمم

فإن قلبى بالتوحيد متلبس
والشكر دأبى وآى الذكر من كلمى

وديدنى هيبة المولى وخشيته
وعن حقوقك لم أغفل ولم أنم

وحب خير الورى عندى وعترته
وصحبه فرض عين قد سرى بدمى

ولا يخفى ما فى قوله : (فرض عين . .) من تأكيد حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن هذه العبارة عبارة فقهية يبدو أن الشاعر اكتسبها من دراسته فى الأزهر - كما سبق -

ويؤكد الشيخ الحملاوى أن ما سبق ذكره - من توحيد الله وذكره وحب الرسول وآل بيته - هو كل معتقده الذى يدخره ليوم الحساب ، فإن قبله الله فقد تحقق حسن ظنه ، وإن رده فقد عظم ندمه ، واشتد حزنه على مافرط منه ، ولكنه يطمع فى عفو الله ، وفى شفاعة رسول الله ، فيقول (٢) :

هذا اعتقادى وهذا كل مدخرى
لموقف أنت فيه جامع الأمم

فإن قبلت فهذا حسن معتقدى
وإن رددت عرضى زلة القدم

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٩ ومابعدها .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٠ .

لكن لى أملا فى العفو يطمعنى

وفى شفاعة خير العرب والعجم

ولا يخفى أن الشاعر بقوله : (وفى شفاعة خير العرب والعجم) قد عرج على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم واصل مدحه بقوله (1) :

محمد سيد الكونين من نطقت

له الجبال وحيته بغير فم

ولا يخفى أن قوله : (محمد سيد الكونين) مأخوذ من قول البوصيرى : (محمد سيد الكونين والثقلين ..) (2) ، ولعله يشير بقوله : (.. من نطقت له الجبال ..) إلى تسليم الحجر على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما سبق (3) ، ثم يتحدث عن معراجه (صلى الله عليه وسلم) بقوله (4) :

ومن دنا فتدلى من حظيرته

كقاب قوسين أو أدنى مع العظم

والجدير بالذكر أن الشيخ الحملاوى لم يشر إلى إسراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بل ذكر المعراج فحسب وأشار إلى أن الله قد أكرم نبيه (صلى الله عليه وسلم) فى تلك الليلة بأشياء لا يعلمها إلا هو ، بقوله (5) :

وكان ما كان مما ليس يعلمه

سوى المهيمن والمختار فى القدم

ثم يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن الله قد جمّله وكمّله بقوله (6) :

سبحان من بصفات الفضل جمّله

فنال أعلى العلا فى الخلق والشيم

---

(1) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها . (2) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .
(3) المرجع السابق ص ٢٧٥
(4) ديوانه جـ ١ ص ١٤٠ .
(5) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها .
(6) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها .

السيد المصطفى المختار من مضر

ذخر المساكين مثلى واسع الكرم

ويؤكد حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (1) :

إنى أرى حبه دينا ومعتقدا

وحب عترته ذخرى ومعتصمى

كما مدحه (صلى الله عليه وسلم) بأنه خير من سجد لله ، وأن نوره قد أضاء الظلمات ، وأنه خير مرسل للخلق كلهم بقوله (2) :

ياخير من سجدت لله جبهته

وقام للحق إجلالا على قدم

ومن أضاء الدياجى نور غرته

فانشق صبح الهدى فى الحل والحرم

وإذا كان بعض الشعراء ممن عارضوا البردة قبله قد بينوا حالة الناس قبيل بعثته (صلى الله عليه وسلم) - كما سبق - فإنه قد أشار إلى ذلك أيضا ولكنه أضاف جديدا بقوله (3) :

أتيت والناس فى غى وفى عمه

مثل السوائم من بهم ومن نعم

وعاكفون على الأوثان دينهم

وأد البنات ولو فى الأشهر الحرم

فلا يخفى أن الشاعر على إيجازه قد ذكر جديدا وهو (وأد البنات) تلك العادة القبيحة التى كانت منتشرة قبل الإسلام ، والجدير بالذكر أنه لم يشر إليها أحد ممن عارض البردة قبل الشاعر .

ثم يتحدث الشيخ الحملاوى عن القرآن الكريم، إلا أنه تابع البوصيرى فى حديثه عن القرآن ، بل أخذ منه شطرا بأكمله فى قوله : (4)

آياته محكمات كلها عبر ∴ (قديمة صفة الموصوف بالقدم)

---

(1) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها . (2) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها وما بعدها .

(3) المرجع السابق ج ١ ص ١٤١ . (4) المرجع السابق ج ١ الصفحة نفسها و ص ١٦٠ من هذه الرسالة .

ويبدو أنه نظر إلى معارضة الدرويش وخاصة عندما بين حال الكفر عندما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[1] :

والكفريات على حال يساء به
والعلم بالحق بشراه على العلم

فقال الشيخ الحملاوى [2] :

فأدبر الشرك فى ذل وفى ضعة
وأصبح النور يعلو أرفع القمم

ولا يخفى ما بين القولين من صلة وإن تصرف الحملاوى فى قوله تصرفا حسنا .

ويصف الشاعر صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالشجاعة والإقدام وشرف هدفهم ، فكان العز قائدهم ، والنصر رائدهم ، ولذلك لم يستكينوا ولم يضعفوا ، وكيف يستكينوا والرسول يرشدهم ، إلا أنه أخذ شطرا من البوصيرى أيضا فى البيت الأول من قوله[3] :

غر الوجوه بها ليل غطارفة
(من كل قرم إلى لحم العدا قرم) [4]

فما استكانوا لأعداء ولا وهنوا
بل استعانوا بصدق القصد والهمم

فالعز قائدهم ، والنصر رائدهم
فى كل أمر به إعزاز دينهم

والمصطفى صفوة الخلاق يرشدهم
إلى المعالى بحسن الفعل والكلم

ثم يشير الحملاوى إلى سبق النور المحمدى ـ كما سبق ـ بقوله[5] :

---

(١) ديوان الدرويش ص ٢٥٧ .
(٢) ديوان الحملاوى ج ١ ص ١٤١ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٢ .
(٤) ص ١٨٠ من هذه الرسالة .
(٥) ديوان الحملاوى ج ١ ص ١٤٢ .

ياسيداً قبل خلق الكون من أزل
وكان آدم فى الصلصال لم يقم

وواصل توسله بالرسول (صلى الله عليه وسلم) راجيا شفاعته يوم القيامة ، لأنه أحق بذلك ، إذ هو من ذوى الأرحام بقوله [1] :

وكن لذنبي شفيعا آخذا بيـــدى
يوم المعاد ، فإنى من ذوى الرحم

ويبين موقف الناس يوم الحشر ، واضطرابهم فى الموقف العظيم ، وخاصة عندما تنشر الصحف ، إلا أنه ينظر إلى بردة البوصيرى فيأخذ شطرا من البيت الثانى فى قوله [2] :

إذا العيوب بدت ، والصحف قد نشرت
فى موقف بجميع الخلق مزدحـــم
وماجت الناس من خوف ومن فـــزع
(إذا الكريم تجلى باسم منتقـــم)[3]

بل إنه يتوسل إلى الرسول بتسميته باسمه ، فيأخذ بيت البوصيرى ولم يزد عليه شيئا إلا أنه وضع اسمه مكان اسمه ، وقال [4] :

(فإن لى ذمة منه بتسميـــتى
بأحمد وهو أوفى الخلق بالذمم)[5]

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته ، بإهداء مدحه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم يشير إلى قلة ذلك المديح ، بل يعلن عجزه عن مدح الرسول من بعدما مدحه الله بقوله : [6] (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فيقول [7] :

مدحته ، وكأنى حين أمدحـــه
أهديت للبحر قطرات من الديـــم
لا أستطيع ولا غيرى مدا ثحـــه
من بعدما قد أتى فى (نون والقلم)

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٤٣ . (٢) المرجع السابق جـ ١ الصفحة نفسها .
(٣) انظر ص ٢٠٨ من هذه الرسالة . (٤) ديوان الحملاوي جـ ١ ص ١٤٣ .
(٥) انظر ص ٢٠٤ من هذه الرسالة . (٦) القلم / ٤ .
(٧) ديوان الحملاوى جـ ١ ص ١٤٣ .

ولا يخفى أن الشاعر قد أحسن فى جعل مديحه هدية إلى الرسول بخلاف البوصيرى الذى جعله (خدمة له) عندما قال : (خدمته بمديح أستقيل به ..) [١].

ولعل الحملاوى نظر فى البيت الثانى ، إلى قول الدرويش [٢] :

فترك مدحى له مدح ، وهل قلمى

ونونى فى الوصف تحكى (ن والقلم)

ثم يطلب الشاعر من الله تعالى أن يصلى على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآله وصحبه وأتباعه بقوله [٣] :

صلى الإله عليه كل آونة

ما أطرب الورق بالألحان والنغم

والآل والصحب والأتباع قاطبة

فى كل مبتدأ منى ومختتم

وبعد هذا العرض السريع لتلك المعارضة يمكننى أن أقول : إن هذه المعارضة قد قلت أفكارها ، وضاقت أغراضها ، ولم تشتمل على أفكار جديدة سوى الإشارة إلى (وأد البنات) ، بالإضافة إلى أن مطلعها لم يبدأ بالغزل بل بدىء بالتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى).

وإذا كان الشاعر لم يشر إلى تأثره فى نظمها إلى البوصيرى ، فإن فيها دلالة قوية على نظره إلى البردة وإلى معارضة الدرويش ـ كما سبق.

المعارضة الثالثة : (النفحة الأحمديه فى مدح خير البرية)

بعدما تحدثت عن المعارضة الثانية للشيخ الحملاوى ، سأتحدث عن المعارضة الثالثة وهى : (النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية) وقد نظمها الشيخ : أحمد فهمى محمد ، المولود فى الجيزة سنة ١٨٩٦ ، ونشأ كما ينشأ

---

(١) انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة .
(٢) ديوان الدرويش ص ٢٥٧.
(٣) ديوان الحملاوى جـ ١ ص ١٤٣.

أمثاله فى ذلك الوقت ، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم حفظ القرآن الكريم ودخل المدرسة الابتدائية ، وواصل دراسته حتى التحق بمدرسة القضاء الشرعى ، وتخرج فيها ، ليشغل وظيفة محام شرعى ، وظل يمارس تلك الوظيفة إلى أن توفى سنة ١٩٧٥ (١) .

آثاره :

توفى الشيخ أحمد فهمى وترك بعض المؤلفات والقصائد مثل :

١ـ ذكرى الإمام الشافعى .
٢ـ آية النظيم ترد عن آى الذكر الحكيم .
٣ـ النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية .
٤ـ ريحانة الرسول : الإمام الحسين .
٥ـ الزهراء فى مدح خاتم الأنبياء .
٦ـ الدرة المصاء فى مدح خاتم الأنبياء .
٧ـ تاريخ كريمة الدارين (السيدة نفيسة) . (٢)

وغير ذلك من المؤلفات والقصائد التى تشير إلى أنه قد شغف بالمدائح النبوية ، وبآل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويبدو أنه تأثر فى نظمه كثيرا بالإمام البوصيرى ، فنظم قصيدة عارض بها همزيته ومطلعها : (٣)

أى فخر يضم ذاك الثناء
تتسامى بنظمه الشعراء

كما عارض أيضا بردته بقصيدته : (النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية) وقد نظمها فى سنة ١٣٥٢ هـ ، وعدد أبياتها ثلاثة وستون وثلثمائة بيت تقريبا ، ولقد تأثر فى نظمها (بنهج البردة) لشوقى أيضا ، ولعل ما يؤكد ذلك أنه خالف البوصيرى و (شوقى) فى مطلعيهما فقال (٤) :

---

(١) هذه المعلومات من أحد أفراد عائلة الشاعر بعد وفاته .
(٢) انظر أحمد فهمى محمد : كريمة الدارين ص١٢٢ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧١ هـ .
(٣) أحمد فهمى محمد / الزهراء فى مدح خاتم الأنبياء ص٣ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧٠ هـ
(٤) أحمد فهمى محمد : النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية ص٤ مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٦٨ هـ .

دع ذكر ريم وذكرى البان والعلم
وانهض لذكر ربيع الناس والحرم
واذكر حديثا عن المختار مشرقه
منور بين وضاء ومبتسم
وهذب النفس بالذكرى وآيتها
فإنها الآية الكبرى لمختتم
وأيقظ القلب بالقرآن تقرؤه
فإنه العروة الوثقى لمعتصم

فهو يدعو إلى ترك الغزل ، ويحث على الإقبال على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى تهذيب النفس ، وإيقاظ القلب بالقرآن الكريم ، ولا يخفى أنه يشير بقوله : (دع ذكر ريم) إلى قول شوقى : (ريم على القاع ..) كما يشير بقوله : (وذكرى البان والعلم ..) إلى قول البوصيرى : (.. ولا أرقت لذكر البان والعلم) .

ثم يحذر من هوى النفس وخداعها فيقول : [1]

فالنفس أمارة بالسوء ما تركت
وإن تصنها لمست الخير من أمم
تمضى على أثر اللذات هائمة
وتسلك السوء فى رغب وفى نهم

ولا يخفى أنه نظر فى الشطر الأول من البيت الثانى إلى قول شوقى : (هامت على أثر اللذات تطلبها ..) [2] ، ثم يعلن ندمه وأسفه على تفريطه ، ومقارفته الذنوب ، مبينا أن الوفاء قد عز ، وأن الصدق قد قل ، وأن الناس قد فسدت أخلاقهم ، ثم يأمر مخاطبه بقوله : [3]

فكن على حذر ممن تصاحبه
ولا يغرنك منه ثغر مبتسم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٣
(٣) النفحة الأحمدية ص ٥ .

تقاطع الناس من حقـــده ومن حســد

وقطعوا شجنة الإحسان والرخـــم

فلا زيارة بين القوم خالصـــــــــة

ولا وفاء ولو كانـوا ذوى رحــــم

وإذا كانت هذه الفكرة تبدو جديدة،إلا أنه نظر فى البيت الأخـــير إلى قول عبد المطلب[1] :

قبائل وشعوب لا يعطفهـــــــــا

إخاء صدق ولا قربى من الرحـــم

ثم يبين أن الدين يدعو إلى الوحدة ، ويأسف لاتحاد بلاد الغرب وانقسام بلاد الشرق بقوله[2] :

الدين يأمـــر بالإيلاف شيمتــــه

وحبــذا عصمة الإسلام فى اللحم

والله يأمر بالإحسان منقبـــــــة

منه وينهى عن العوراء فى الكلـم

... فيا أساى وشمـل الغرب ملتئـــم

والشرق يقضى بشمل غير ملتئـــم

ويا أسى بانقسام الرأى نملتــــــه

ويا سرورا برأى غير منقســـــــم

ويدعو إلى الوحدة ، ونبذ عوامل الشر والاختلاف فيقول[3] :

فوطدوا إخوتــى فى الدين وحدتكـم

فوحدة الدين حبل غير منفصـــم

ولا تجعلوا البغى ظهرا إنه درج

إلى القطيعة والبغضاء والأضـــم

---

(١) ديوان عبد المطلب ص٢٥٨ .

(٢) النفحة الأحمدية ص٥ .

(٣) المرجع السابق ص٦ .

وينصح بالتمسك بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، ثم يعرج على مـــدح الرسول فيقول [1] :

واستمسكوا بكتاب الله واتبعـــوا

هَدْى النبى فمن يتبعه لا يضـم

محمد الشافع المختار منبتـــه

عمت مآثره فى العرب والعجـــم

وخاتم الرسل خير الخلق كلهـم

ورحمة الله فى الدارين والنعـــم

ثم يصف الرسول بأنه صاحب الحوض المورود يوم القيامة ، وأنه قد فـاق الرسل فى الخلق، وفاق البدر فى الرفعة والعظمة ، كما أنه قد كملت صفاتـــه، وعظمت شمائله ، وأنه لم يردّ سائلا قط ، ولم يمنّ بما أعطاه ، ومع ذلك كـان كثير الصوم، ولا يخفى أنه نظر إلى قول البوصيرى (وشد من سغب أحشاءه وطوى ..) فقال [2] :

وشد أحشـاءه والبطن من سغـب

وباعه النفس عن مترفه النهـم

كما نظـر إلى قوله : (وراودته الجبال الشم من ذهب ..) فقال ولكن بتصـرف حسن ، وتعبير جميل [3] :

ولو أراد أحال الله أجبلــه

تبرا فما مال عن زهد وعن شمم

رأى عبودية الرحمن مفخـــرة

عن أن يرى ملكا ذوباذخ العظم

فخر الرسالة أغناه وأقنعـــه

تجرى بحكم لها فى الكون مرتسم

ويمضى الشاعر فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشيرا إلى أنه لـم

---

(١) المرجع السابق ص٦٠
(٢) المرجع السابق ص٨٠
(٣) المرجع السابق ص٩٠

يضعف أمام الشدائد،ولم يثنه إيذاء الكفار عن مواصلة دعوته ، كما بين أن كل الأنبياء قد أوذوا ، وأن هذا الإيذاء بمثابة اختبار لهؤلاء الأخيار فقال[1] :

لم يحتفل بالذى لاقاه فى عنت
من العداة ، وإن كانوا ذوى وغم
كل النبيين عانوا فى حياتهم
والله يمتحن الأخيار من قدم

ثم يشير إلى ما نزل ببعض الأنبياء مثل يونس وآدم وأيوب فيقول [2]:

من قبل يونس ناجى ربه فنجا
مما دهاه وما وافاه من غمم
وقبله آدم ، أغواه شانئه
فحل فى الأرض بعد الخلد والطعم
ثم اجتباه وولاه خلافته
فى أرضه وهداه بارئ النسم
أيوب ناداه من ضر فأنقذه
مما به وحماه شرة الحطم

ولا يخفى أنه يشير إلى قصة يونس (عليه السلام) عندما نجاه الله من الغرق ثم أخرجه من بطن الحوت الذى التقمه[3] ، كما يشير إلى قصة آدم (عليه السلام) عندما وسوس إليه الشيطان فأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، ثم تاب الله عليه[4] ، ويتحدث عن قصة أيوب (عليه السلام) مع المرض الذى عافاه الله منه[5]، ويستمر الشاعر فى الحديث عن الأنبياء فيذكر نبى الله إبراهيم (عليه السلام) الذى ألقى فى النار، ثم نجاه الله من الحرق وجعلها بردا وسلاما عليه[6] ، إلى أن يتحدث عن

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) قصص الأنبياء جـ ١ ص ٣٨٦ ومابعدها .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢ ومابعدها .
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٦٠ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨١ ومابعدها .

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله [1]:

أنساض مولده برا ومكرمة
وقد أضاء فجاج الأرض من ظلم

والكون يزداد إشراقا ومبهجة
من ساطع بضياء الله متسم

وينهج نهج السابقين فيشير إلى تصدع الإيوان ، وخمود النار ، وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

ثم يذكر أن المسيح (عليه السلام) قد بشر بالرسول (عليه الصلاة والسلام) فقال [2] :

بشرى المسيح به من قبل بعثته
عنوان دعوته من آصف القدم

ولا يخفى أنه نظر فى ذلك إلى قول البارودى [3] :

فذاك دعوة إبراهيم خالقه
وسر ما قاله عيسى من القدم

ويشير إلى قصة بحيرا ، وتظليل الغمامة ، وحنين الجذع ، وتسبيح الحصى ، وسجود الأشجار ، وغير ذلك مما أشار إليه البوصيرى فى بردته ، ومن عارضه من بعده البوصيرى وقول صاحب النفحة الأحمدية .

ثم يتحدث عن تعبد الرسول فى غار حراء ، ونزول الوحى فيقول [4] :

سائل حراء ، وجبريل الأمين به
ليعلماك بسر غير منبهم

ولا يخفى أنه نظر فى ذلك إلى قول شوقى : (سائل حراء وروح القدس ..) [5] .

---

(١) النفحة الأحمدية ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢ .
(٣) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٥٠ .
(٤) النفحة الأحمدية ص ١٤ .
(٥) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٧ .

كما نظـر إلى قول عبد المطلب : (٠٠ أرسله الله الذى علم الإنسـان بالقلم) [1] فقال : [2]

وقـد أهـاب بـه جبريـل يبدهـــه
بذكـر من علم الإنسان بالقلم

ويؤكد نظره إلى شوقى بقوله :

ناداه باقـرأ كلام الله تفقهــــه
وقـد وعـى القلب ما لم يتصل بفم

إلا أنه يشـير إلى قصة ذهابه إلى (ورقة بن نوفل) ، الذى طمأنـه بأنه سيكون نبيا ، كما يشـير إلى موقف السيدة خديجة التى طمأنت الرســول فقال [3] :

وحين وافى إلى ابن نوفل سكنـت
منه الجوارح فى روح وفى سلـم
لما اطمأن له زالت مخاوفــــه
وكان فى رده ما شد فى العـــزم
ومن خديجة ما قد زاد عزمتـــه
فيحمل الكل أو يسخو على الرحـم

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة لم يشـر إليها أحد من الشعراء الذيـــن عارضوا البردة قبله ، ثم يستمر الشاعر فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيذكر أنه متصف بأحسن الصفات مثل : الرفق والإحسان والصدق والعفو والحلـــم والصـ .

ثم يتحدث عن القرآن الكريم فيما يقرب من خمسة وعشرين بيتا ، ولكنه لم يخرج فى حديثـه عن السابقين ، بل قد استعان بكثـير من عباراتهم مثل قولـــــه

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ٢٦١ .
(٢) النفحة الأحمدية ص ١٥ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

من آيات القرآن الكريم[1] :

محكمات فما فيهن من شبه
مفصلات فما يبقين من وهم

فلا يخفى أنه نظر إلى قول البوصيرى : (محكمات فما تبقين من شبه ..)[2]

ثم يشير إلى حالة الناس عندما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم)[3] :

أتى النبى وفوضى الأمر ضاربة
والناس تخنع للشيطان والصنم
والأرض قد ملئت جورا ومظلمة
من كل طاغية بالعسف محتدم

إن تأثره فى ذلك بشوقى ظاهر إلا أنه أحسن عندما بين أثر رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد القول السابق مباشرة فقال :[4]

فنشرت فى بقاع الأرض الويبة
من العدالة فى حزم وفى نظم
وأشرقت من سنا التوحيد أفئدة
وغشى الشرك فى أثوابه الدهم
من شرعة فجر الألباب زاخرها
وتابعته بمنهل ومنسجم

ثم يتحدث عن الإسراء والمعراج ولكنه لم يزد عمن سبقه شيئا ، بل قد تابع (شوقى) فى قوله[5] :

جبت السموات أو ما فوقهن بهم
على منورة درية اللجم
ركوبة لك من عز ومن شرف
لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ .
(٢) انظر ص ١٦٢ من هذه الرسالة .
(٣) النفحة الأحمدية ص ٢٠ .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٥) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٨ .

فقال هو [١] :

جاب السموات والأبراج مرتقيـــا

على البراق ، وسر الله فى اللجم

ركوبة من بديـع الله مسنمهـــا

فى سقفها العز ، لا فى الأينق الرسم

فلا يخفى أن الشاعر قد أخذ ألفاظ شوقى كلها تقريبا ، كما تابعـه فى عروج الرسول على البراق وقد ذكرت ـ سابقا ـ أن هذا غير صحيح [٢] .

ويشير الشيخ أحمد فهمى إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكنه نظر إلى من سبقوه فقال [٣] :

سل عن قريش دعاة الشرك إذ نهضوا

إلى مطاردة المختار فى زمم

ولا يخفى أنه من قول شوقى ـ مع تصرف قليل ـ [٤] :

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة

لولا مطاردة المختار لم تسم

وكذلك قوله [٥] :

فأجمعوا أمرهم فى دار ندوتهـم

فى قتله ، وتناجوا فى دجى الدهم

من قول البارودى بتصرف أيضا : [٦]

فاستجمعت عصبا فى دار ندوتها

تبغى به الشر من حقد ومن أضم

ثم يذكر الشاعر أن الله قد أخبر رسوله بمؤامرة المشركين ، كما أمره بالهجرة

---

(١) النفحة الأحمدية ص ٢٢ •

(٢) انظر ص ٥٢١ من هذه الرسالة •

(٣) النفحة الأحمدية ص ٢٢ •

(٤) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٨ •

(٥) النفحة الأحمدية ص ٢٣ •

(٦) كشف الغمة ص ١٠ •

ولكنه دخل الغار حتى تيأس قريش من اللحاق به ، والشاعر متأثر فى ذلك كله بشوقى، فإذا قال شوقى[1] :

لولا يد الله بالجارين ما سلما

وعينه حول ركن الدين لم يقم

قال الشاعر بتصرف قليل أيضا [2] :

يد من الله قد مدت لصفوته

لولا رعايته للدين لم يقم

ثم يشير إلى حبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول [3] :

يالائمى فى هوى المختار معذرة

فلو سلكت سبيل الوجد لم تلم

دع عنك لومى فإنى عنك فى شغل

بحبه وودى غير منكتم

ولا يخفى أن الشاعر قد نظر إلى قول البوصيرى : (يالائمى فى الهوى العذرى معذرة ..)[4] .

كما لا يخفى أن فى لفظ (منكتم) خطأ لغويا — كما سبق[5]

وأشار إلى دعوة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بقوله[6] :

قد قام يدعو لدين الله فى خلق

من الدماثة والإحسان فى الكلم

وما يجادل إلا بالذى حسن

من البيان وفى لين وفى رحم

وإن رأى منهم فى القول مجهلة

وافى بحلم ورد الغيظ فى كظم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٩ .
(٢) النفحة الأحمدية ص ٢٥ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) انظر ص ٩٣ من هذه الرسالة .
(٥) المرجع السابق ص ٨٨ .
(٦) النفحة الأحمدية ص ٢٦ .

ثم يشير إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيذكر شجاعته ،وموقف قريش منه ،ولكنه ينظر إلى قول شوقى (بالأمس مالت عروش ..) [1] ويقول [2] :

بالأمس مادت عروش من وطائدها

ووطدت سرر فى غاية الدعم

ويبين أن سبب الحرب هو مقابلة الشر بالشر فيقول :

فلا غرابة فى غزو ومعترك

فالشر إن تلقه بالشر ينحسم

ولا يخفى أن الشطر الثانى مأخوذ من قول شوقى [3] :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به

ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

ثم يمدح صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم شجعان ، باعوا أنفسهم لله ، وبأنهم صائمون عن اللذات ، قائمون فى الأسحار ، صابرون فى البأساء ، ولكنه ينظر إلى قول البوصيرى : (وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا ..) [4] ، فيقول : [5]

فسل حنينا إذا ما شئت أو أحدا

ويوم بدر وسائل كل مصطلم

ثم يبين بعض مزايا الإسلام الذى انتشر بسرعة على أيدى هؤلاء الصحابة الأبطال فيقول [6] :

سرعان ما افتتحوا الأقطار واحتملوا

نهيزة الفتح والإسلام فى قمم

.. وشيدوا قبة بالعدل قد وسمت

بميسم الله لم تثلم ولم تصم

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) النفحة الأحمدية ص ٢٨ .

(٣) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ .

(٤) انظر ص ١٨٨ من هذه الرسالة .

(٥) النفحة الأحمدية ص ٣٠ .

(٦) المرجع السابق ص ٣٤ .

حرية القول مرفوع اللواء لهمـــا
كل سواسية فى نصفة الحكم
لا فرق بين أمير طاب محتده
و سوقة فى حدود الله والحرم

ويشير إلى أن حضارة الإسلام قائمة على أسس قوية، وصفات حسنة، كالعدل والوفاء بالعهد والصدق فيقول :

رمسيس فى رمسه يشدو بعدلهم
وقبة العدل فاقت قلة الهرم
وما عرفنا لهم خلفا ولا كذبا
ولا عهودهم مخفورة الذمم

ولا يخفى أنه نظر فى البيت الأول إلى قول شوقى [1] :

واترك رعمسيس إن الملك مظهره
فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم

ولكنه تصرف فيه تصرفا حسنا ، إذ بين مدى تمسك هؤلاء الصحابة بالعدل حتى إن رمسيس وهو فى رمسه يشدو به ؟

ويتحدث عن الدين الذى كان سببا فى نشر الثقافة ، وانتشار العلم فى كثير من البلاد ، التى أصبحت كعبة يقصدها كل من أراد أن يتعلم فيقول [2] :

فالدين ألزم للأرواح ما عظمت
والدين داعية الأرواح للعظم
.. تزهو حواضرهم بالعلم طلبتهم
وأصبحت كعبة البلدان والأمم
(دار السلام) بأهل النهج مشرقة
و (مصر) تتبعها فى نهضها العمم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٢) النفحة الأحمدية ص ٣٥ .

كذاك (قرطبة) من أرض أندلس
وغيرها من حمى خفاقة العلم

وإذا كان شوقى قد أشار إلى دار السلام[1] فإن الشاعر زاد على ذلك إشارته إلى مصر ، وقرطبة ، وهما بغير شك منبع من منابع الثقافة الإسلامية والعربية .

وينتقل الشيخ أحمد نهمى إلى التوسل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبينا أنه بمدحه الرسول قد زاد شرفا ، ويرجو أن ينال شفاعته ، كما يشير إلى قربه من الرسول بالاشتراك معه فى الاسم، وهذه فكرة سبقه إليها غيره — ممن عارض البردة — فيقول[2] :

لئن أخذت بمدح زادنى شرفا
فإننى برسول الله فى عصم[3]
وأستقبل ذنوبى فى شفاعته
إلى سنى من الرضوان مقتسم
جاهى إليه من الزلفى بتسميتى
وأننى فى هواه غير متهم
فكان حظى من التوفيق تسميتى
بما تسمى به فى سالف القدم

ويستمر فى بيان حبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشيرا إلى أنه قد نال كل خير ، بسبب مدحه (صلى الله عليه وسلم) وما وقع فى شدة إلا فرجت بسببه أيضا .

ثم يشير إلى أنه لم يعارض بردة البوصيرى ، بل هو ناهل من فيض صاحبها فيقول[4] :

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٥ . (٢) النفحة الأحمدية ص ٣٨ .
(٣) يلاحظ أن الشاعر أتى (بالفاء) فى جواب الشرط المسبوق بقسم والصحيح عدم الإتيان بها ، لأن الجواب للمتقدم وهو القسم . انظر : المنار السالك جـ ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها .
(٤) النفحة الأحمدية ص ٤٠ ، ما الكتى : رسالتى، والمراد قصيدتى .

وما أعارض فى مدحى وماألكتى
يتيمة البردة الزهراء فى تحم
فإنى ناحل من فيض صاحبها
وما أفاض من الآيات والحكم
وتلك منزلة تسمو بآيتها
إلى مقام من الإحسان مزدحم

ولا يخفى أن الشاعر ينفى معارضة البردة التى سببها التحدى ، لانفى المعارضة مطلقا ، لأنها واضحة ، ولكن بسبب الإعجاب .

وأخيرا يناجى الشاعر ربه ، متوسلا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول [1] :

فيا إلهى بخير الخلق تنقذنا
من الضلال بنور العلم والحكم
وهب لنا رحمة واسلك بنا رشدا
وجد بعفوك فى فيض وفى كرم
يارب صل وسلم ما زنا قمر
على النبى مدى الأفلاك والنجم
وصل رب على الآل الألى شرفوا
بجاه طه وحق الله والحرم
وصحبه الغر ثم التابعين لهم
والمسلمين بفيض منك منسجم

ثم يدعو الله بأن يخلص بلاد الشرق من كل سوء ، ولعله يقصد به الاستعمار وأعوانه ، وأن يجمع قلوب المسلمين ، ويوفقهم ، ويجمع كلمتهم فيقول [2] :

وواتنا بملاك الأمر نملكه
وأيقظ الشرق من نوم ومن وهم

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

وارفع بحق رسول الله رايتــــــه

ونحه عن طريــق الـذل والقحم

واجمع قلوب بنى الإسلام تحفزهـــم

إلى الإخاء ومحمود من الشيـــم

وأيّد اللهم بالتوفيق أمتـــــه

ولا تزد وهيها صدعا ولا تمـــم

ولترأب الصدع فى توحيد كلمتهـــا

بوحدة الرأى فى عزم ومعتـــزم

واكتب لنا صفحات النصر مشرقـــة

وهب علينـا وباعدنا من النقـــم

ثم يؤكد تضرعه إلى الله ، وأمله الكبير فى العفو عن ذنوبه ، وفى نيـــل رضاه ورجوه منه (جل جلاله) أن يطهر نفسه من الغل والحسد ، - وأخــيرا يختم قصيدته بقوله [1] :

يارب ما دمت بالإحسان مبتدئـى

فاجعل وفاتى على الإيمان مختتمى

وبعد : فإن الشاعر قد قلد وجدد ، فقلد فى حديثه عن الأفكار التى تحدث عنها سابقوه ممن عارضوا البردة ، ولكنه لم يكن يقلد تقليد الجامد ، يدل علــى ذلك أنه قد فصّل ما أجمله سابقوه فى كثير من الأفكار مثل : حديثه عن جهـــاد النبى (صلى الله عليه وسلم) وجهاد صحابته ، وبيان مآثرهم ، وبيان عظمة الديـن الحنيف، ونشر الثقافة والعلم ، أضف إلى ذلك توسله برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتضرعه إلى الله (سبحانه وتعالى) .

وجدد فى إشارته إلى أن الاسلام يندد بالشقاق والاختلاف - ويدعو إلــى الوحدة والائتلاف ، وفى نصيحته بالتمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية معا ، وفى إشارته - أيضا - إلى حديث ورقة بن نوفل للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما نزل عليـــه الوحى أول مرة ، وغير ذلك ، مما كان سببا فى أن تصل أبيات تلك القصيدة إلى ثلاثـــة وستين وثلثمائة بيت كما سبق .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

المعارضة الرابعة : " نظام البردة " أو " ذكرى محمد "

بعدما تحدثت عن معارضة : (النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية) للشيخ أحمد فهمى محمد ، سأتحدث عن معارضة : (نظام البردة) للشاعر باكثير .

وهو : الشاعر القصصى : على أحمد باكثير ، ولد فى حضرموت سنة ١٩١٠ ونشأ مع والده التاجر، الذى كان يجوب البلاد العربية وغيرها فى تجارة يعود بخيراتها إلى وطنه (حضرموت) ، وأخيرا استقر به المقام فى إحدى جزر أندونيسيا وتسمى (سورابايا) وكان معه ابنه (على) الذى كان حينئذ فى الثامنة من عمره ، ومع ذلك كان يساعد أباه فى حرفته ، ويقضى وقته فى قراءة كتب الأدب ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك أنه قد حفظ قسطا من القرآن الكريم على بعض شيوخ حضرموت كما تلقى أصول اللغة العربية هناك أيضا ، فكان كل ذلك سببا فى تنمية موهبته الأدبية مما جعله يكمل حفظ القرآن الكريم ، ويقبل على كتب العرب ودواوين شعرائهم ، أضف إلى ذلك أنه أتقن اللغة الإنجليزية .

ولقد تزوج الشاعر — وعاش قرير العين إلا أن القدر فجعه فى زوجته ، فحزن عليها حزنا شديدا ، دفعه إلى ترك موطنه الجديد ، ورحل إلى الحجاز سنة ١٩٣٢ ، وبعد سنتين رحل إلى القاهرة ، ثم التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية ، وكان دائم البحث فى كتب الأدب ، كما كان يشارك فى كثير من المناسبات بشعره حتى ظهر فى الأوساط الأدبية وكان ما زال طالبا فى الكلية ، التى تخرج فيها سنة ١٩٣٨ ، ثم عمل مدرسا بإحدى المدارس الثانوية فى المنصورة سنة ١٩٤٠ ، ولكنه لم يقطع صلته بالقاهرة بل كان دائم الاتصال بأدبائها وشعرائها ، ثم قوى ذلك الاتصال عندما نقل إلى القاهرة ، ولكنه ترك التدريس سنة ١٩٥٥ ، وعمل بوزارة الثقافة بعد أربعة عشر عاما قضاها مدرسا ، ثم عين مديرا للمكتب الفنى للرقابة على المصنفات ، إلى أن توفى سنة ١٩٦٩م .

آثاره :

ولقد ترك الشاعر كثيرا من المؤلفات الأدبية من بينها خمس قصص

وإحدى وثلاثين مسرحية مطبوعة - ومنها :

وا إسلاماه ، وسيرة شجاع ، وحرب البسوس - بالإضافة إلى ما يقرب من ثلاث عشرة قصة ومسرحية معدة للطبع (١) .

شاعريته :

ولقد كان باكثير شاعرا مجيدا ، حلو العبارة ، سهل الألفاظ سار في شعره على النهج العربي ، إلا أنه قد قطع شوطا كبيرا في الشعر المطلق الحديث ، ويبدو أنه اضطر إليه كما يفهم من قوله : " .. إن أحد الأساتذة الأجانب قال في دروس الجامعة ، إنه لا وجود في لغتكم العربية لهذا الفن - يقصد الشعر المرسل - ولا يمكن أن ينجح ، فاعترضت عليه قائلا : أما إنه لا وجود له فهذا صحيح ، لأن لكل أمة تقاليدها الفنية وكان من تقاليد الشعر العربي التزام القافية ، ولكن ليس هناك ما يحول دون إيجاده في اللغة العربية ، فهي لغة طيعة ، تتسع لكل شكل من أشكال الأدب والشعر ، فأعرض عني ، وشعرت بأن عليّ أن أتحدى هذا الزعم وأدحضه بالبرهان العملي .. (٢) " .

وإذا صح ذلك القول من الشاعر ، فإنني كنت أود أن لا يسلك هذا الطريق ، لأنه يخالف طبيعة الشعر العربي ، وهو كما قال : " .. لكل أمة تقاليدها الفنية .. " وبخاصة أن الذي تحداه كان أستاذا أجنبيا ، ولعله أراد بذلك أن يصرفه هو وغيره من الشعراء العرب عن لغتهم العربية ، والشعر العربي الأصيل .

ومهما يكن من شيء فإن للشاعر شعرا قد نظمه على النهج العربي الأصيل - الموزون المقفى - ومنه قصيدته التي سماها (ذكرى محمد ، أو نظام البردة) وقد بلغت أبياتها ستة وخمسين ومائتي بيت (٣) ، وهي المعارضة

---

(١) علي أحمد باكثير : فن المسرحية ص ٥ ومابعدها الطبعة الثانية بمطبعة المعرفة بمصر سنة ١٩٦٤ - من أدباء الإسلام المعاصرين ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

(٣) نظام البردة ص ٣ وما بعدها مطبعة الشباب بمصر سنة ١٣٥٢ هـ .

التى سأتحدث عنها ،وقد نظمها الشاعر فى شهر رجب سنة ١٣٥٢ هـ ، وطبعها فى السنة نفسها ، ولكن فى شهر ذى الحجة ،

ويبدو أنه كان يعانى كثيرا من الهموم والمتاعب ، كما يفهم من مطلع تلك القصيدة وهو [١] :

يا نجمة الأمل المغشى بالألم
كونى دليلى فى محلولك الظلم
فى ليلة من ليالى القر حالكة
صخابة بصدى الأرواح والديم

فهو يخاطب نجمة أمله التى ظهرت أمامه فى تلك الليلة، ذات الظلام الشديد ، والبرد القارس ، ويطلب منها أن ترشده إلى ما يزيل حيرته ، ويكشف غمته ، ويستمر فى بيان حالته النفسية ، التى جعلته يرتاب فى نفسه ، ويأسف على حال العرب الذى تغير ، إذ تقاسمت بلادهم دول الغرب الذين يريدون هدم الدين ، فيقول [٢] :

أرنو إلى (يعرب) والدهر يعرضها
رواية البؤس بعد العز والنعم
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها
إلى المهالك سوق الشاء والنعم
وأرى (الدين) والأعداء توسعه
فتكا يضاف إلى أدوائه القدم

ويتعجب الشاعر من أن الدين يحارب فى داره وبين القائمين على أمره ، ثم يتحسر على شبابه الذى ولى ، دون أن يحقق فيه آماله وأهدافه فيقول [٣] :

ويح الشباب وقد سدت أوائله
والحوض دونى وإنى لا أزال ظمى

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ص٤ .

(خمس وعشرون) لم أدرك بها غرضا
مرت عليّ مرور الطيف فى الحلم
ياويلتاه ! أ بغى أن أسود إذا
ولى الشباب وما فيه من الصرم
هيهات هيهات إن الشيب مجبنة
تصد عما يريد المجد من قمم

ولا يخفى أنه فى قوله : (ياويلتاه) قد أتى بهاء السكت فى حالة الوصل ، كما فعل شوقى [1] .

ثم اهتدى الشاعر إلى الانتقال من هذا المكان الذى ركبته فيه الهموم ، إلى مكان آخر ، لعله يجد فيه ما يزيل همه ، فيقول مجردا من نفسه شخصا يخاطبه [2] :

فاجمع متاعك واركب ظهر سابحة
هول تسير بلا رحل ولا لجم
تجرى فتبصر بالأشياء مدبرة
كأن منهزما فى إثر منهزم
تطوى البلاد كما مر المؤرخ فى
لمح بمختلف الأعصار والأمم
حتى إذا وجدت عيناك نفسك فى
ربوع (طيبة) ذات المنهل الشبم
فيمم (المسجد الميمون) فى أدب
بقلب مدكر فى ثغر مبتسم

، إن الشاعر يتوجه إلى المدينة المنورة ، ولقد أحسن حينما صور سرعة فرسه وطيها البلاد بالمؤرخ الذى يشير فى مدة قصيرة إلى كثير من الأزمنة والأمكنة ، ثم بين أنه سيتوجه إلى المسجد النبوى فى أدب ، ويكمل نصحه

---

(١) انظر ص ٥١٠ من هذه الرسالة .
(٢) نظام البردة ص ٤٠ .

فى قوله : [1]

واعمد إلى (الروضة) الفنا فحى بها
خير الخلائق من عرب ومن عجم
قل السلام على فخر الوجود على
خير النبيين ، طه المفرد العلم
واستجل سيرته قدام روضته
بحر الكمال ، بلا زيغ ولا وهم

ولا يخفى أن ألفاظ الشاعر سهلة إلا أن لفظ (قدام) - وإن كان عربيا - غيرى شعرى .

ومهما يكن من شيء فإنه يجعل روضة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هدفه لكى يسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صاحب السيرة الحسنة ، والقدوة الطيبة ، والجامع لكل صفات الكمال بلا شك أو تردد .

ثم ينتقل إلى بيان وظيفة المسجد على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله [2] :

كان الرسول هنا يملى هدايته
على الأنام بلا عى ولا لمم
كان الرسول هنا يلقى نصائحه
فيطربون لها أشجى من النغم
كان يقضى هنا بين الورى حكما
أكرم بأحمد من قاض ومن حكم
وكان من ههنا يزجى كتائبه
لنصرة الدين من أصحابه البهم
ويستشيرهم فى المشكلات به
وفيه يستقبل الوافدين بالنعم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ص ٥ .

وفيه يلقى وفود الناس آتيــــة

من كل صوب بثغر منه متبسـم

وفيه يبعث بالذكرى رسائلــه

ورسله لملوك العرب والعجـم

هنا ثوى رجل الدنيا وواحدهـا

هنا ثوى خير من يسعى على قـدم

وهكذا أشار الشاعر إلى وظيفة المسجد فى عهد الرسول (صلى اللـه عليه وسلم) إشارة جامعة، فهو مدرسة للتعليم ، ومحكمة للقضاء ، ومركز لقيـادة الجيش ، و (مجلس للشعب) تحل فيه مشاكل الأمة ، وهو مثل (وزارة الشئون الاجتماعية) ، توزع فيه المطايا على الفقراء والمحتاجين ، أضف إلى ذلـك أنه كان منزلا لضيافة الوفود التى تأتى من كل مكان ، كما كان (كوزارة الخارجية) تخرج منه رسائل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ملوك ورؤساء الأمم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام .

والجدير بالذكر أنه لم يشر أحد ممن عارض البردة قبل (باكثير) إلى تلك الناحية الجليلة ، إلا أن قوله عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) :(هنا ثـوى رجل الدنيا وواحدها) ليس مناسبا للمقام .

بالإضافة إلى ما يوهمه من وصف ينزه عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ولقد انتقل الشاعر بعد حديثه عن دفن رسول الله فى هذا المكان الطاهر ، إلـى الحديث عن مولده الشريف ، وفى هذا دلالة على أنه لم يرتب أفكاره ترتيبـا زمنيا ، والجدير بالذكر أنه لم يتحدث عن تصدع الإيوان وغيره من الأحداث الـتى أشار إليها سابقوه ، وإنما قال [١] :

جاءت به الدرة العصماء (آمنــة)

فأشرق الكون من أنواره العمـم

واهتز أهل السموات العلا طربـا

بمقـدم الكون بما فيـه من أمـم

---

(١) المرجع السابق ص٦٠ .

.. وسبحت ربها الأعلى الملائك عـــن
شكـــر وشــمــر بها حمى الظلم والظلم

ثم يتحدث الشاعر عن نشأة الرسول ، ويبين أن الله قد حفظه من دنس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرا ، بل عرف بكل خلق حسن ،كان سببا فى إعجاب السيدة خديجة به ، وزواجها منه ، ويشير الشاعر إلـــــى موقفها من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ طمأنته عندما نزل عليه الوحــى أول مرة ، وإذا كان الشاعر قد سبق بتلك الفكرة ، فلقد أضاف إليها الإشـــارة إلى أن تعليم الفتيات ينهض بالإسلام ، فقال [1] :

كذلك لن ينهض الإسلام من ضمـــة
حتى نرى (غيده) ينهضن بالعلم
كيف النهوض وشق من جرا رحكـــم
عضو أشل ، وشق غير محتـــزم

ولا شك فى أن المرأة المسلمة التى تعلمت أمور دينها تستطيع أن تنشىء أجيالا ، متفقهين فى دينهم .

ويبدو أن الشاعر أتى بتلك الفكرة بعد حديثه عن السيدة خديجـــة لتكون مثالا يحتذى ، إذ اختارت الرسول زوجاً لحسن خلقه ، لا لمال ولا لغيره وعندما بعث ساعدته بمالها ، كما صدقته حين كذبه الناس ، وصبرت معــــــه على الشدائد .

وينتقل باكثير إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه طلق الوجــه ، يعفو عمن ظلمه ، ويقبل العذر ، كما كان شجاعا فى الحروب ، ثابت الجأش فى الميدان كريما يعطى ولا يمن ، زاهدا يطوى الليالى ولا يتبرم .

ثم يقف أمام شبهة أثارها أعداء الإسلام ، وهى كثرة نساء الرسول (صلـى الله عليه وسلم) فرد عليهم ردا مقنعا قائما على الحجة والبرهان ، مبينا لهم أن الرسول لم يتزوجهن لشهوة ، إذ لو كان كذلك لاختارهن شابات لا مسنات ، وإنمـــا

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

الذى دفعه إلى ذلك كله، إما خدمة الدين ، وتوطيد الصلات بينه وبين أصحابه مثل: زواجه بالسيدة عائشة[1] والسيدة حفصة[2]، وإما إنسانيته ورحمته مثل: زواجه بالسيدة سلمة[3]، والسيدة : سودة بنت زمعة[4] إذ مات زوجاهما ولم يكن لهما من يعولهما فتزوجهما الرسول من أجل ذلك.

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يسبق بمن أشار إلى تلك الفكرة ، ولعل حوادث العصر هى التى دفعته إلى ذلك عندما أثيرت تلك الشبهة[5] ولذلك يقول[6] :

وما تزوج تسعا كى يلذ بهــا
إذن لما اختار من يحبون للهرم
لكنه كان يرجو أن يتم بــه
نشر الهداية فى الأقوام باللـوم
كما تزوج من بعض ليكفلهــا
ومن تفـز برسول الله لم تئـم

ثم أشار الشاعر إلى حالة الناس قبل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين أن حكمة الله اقتضت إرسال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك الوقت ليوضح طريق الخير للناس ، ويرشدهم إليه ، عن طريق القرآن الكريم، ذلك الكتاب الباقى ، والمعجزة الخالدة ـ ولم يخرج فى ذلك كله عن سابقيه.

ثم انتقل إلى فرية انتشار الإسلام بالسيف ، فذكر أن الحرب لم تشرع إلا للدفاع عن الدين وأهله ، وفى مناهضة الظلم والظالمين ، فقال[7] :

---

(١) هى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق توفيت سنة ٥٧ هـ ، وقيل غير ذلك (أسد الغابة جـ ٧ ص ١٩٢).

(٢) هى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ، توفيت سنة ٤١ هـ وقيل غير ذلك (المرجع السابق جـ ٧ ص ٦٧).

(٣) سبق التعريف بها فى هامش ص ٧٦ من هذه الرسالة .

(٤) هى السيدة : سودة بنت زمعة بن قيس توفيت فى آخر خلافة عمر بن الخطاب بنحو سنة ٢٢ هـ (أسد الغابة جـ ٧ ص ١٥٨).

(٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧٨ وما بعدها ، الدكتور أحمد الحوفى : لماذا عدد النبى زوجاته ص ٣ وما بعدها مطابع الأهرام بمصر سنة ١٩٧٤ .

(٦) نظام البردة ص ٧ .   (٧) المرجع السابق ص ١٠

لم يشرع الحرب إلا فى مدافعة
عن دعوة الحق ، أو فى كف مهتضم

والجدير بالذكر أن الشاعر قد سبق فى ذلك بشوقى الذى قال فى ذلك فأجاد [1] ، ولقد بين أن الدين يدعو إلى العلم والأخلاق المالية ، والمعزة والمساواة بين الناس ، ثم تحدث عن الطهارة والصلاة وغيرها من أركان الإسلام ، فقال [2] :

يرى (الطهارة) من أسمى شعائره
لا يقبل الله نسك الأغبر الدسم

وفى (الصلاة) مناجاة تطهر من
نفس المصلى وتوميها لدى الهمم

وفى (الزكاة) دواء لا مثيل له
لكشف ما حاق بالدنيا من الأزم

أما (الصيام) فترويض النفوس على
حمل الشدائد فى صبر بلا برم

وكم جلا الطب من أسراره عجبا
يزيل ما عى عنه الطب من سقم

و (الحج) مؤتمر للمسلمين به
تنجو قوائم ليضحوا قادة الأمم

وكم به من دروس جد نافعة
لو أن آذانهم خلو من الصمم

ولا يخفى أن الشاعر قد أحسن فى تلك الإشارة اللطيفة إلى بعض أركان الإسلام ، وبخاصة أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد من الشعراء المعارضين .

ثم يشير باكثير إلى أن من فضائل الإسلام أنه سوى بين الرجال والنساء فى الحقوق والفرائض الدينية ، اللهم إلا ما تقضيه الطبيعة من مخالفة ومن ذلك أنه كلف الرجل بالقيام بأمر بيته ، والإنفاق على زوجته ، ولو كانت

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥١ .   (٢) نظام البردة ص ١٠ ومابعدها .

أموالها لا تحصى ، وذكر أيضا أن وظيفة المرأة الحقيقية تكون فى بيتها ، إذ تعنى بأمر زوجها وأولادها ، وأشار إلى أن من مزايا الإسلام أيضا أنه أطلق حرية المرأة فى التصرف فى مالها بالبيع أو غيره ، مبينا أن نسوة (فرنسا) لم يحصلن على تلك الحقوق حتى بعد الثورة التى قامت من أجل تحقيق المساواة[1] بل إن نساء أوربا كن كمتاع البيت[2] ، يقول الشاعر[3] :

ساوى النساء حقوقا بالرجال سوى
ما يقتضيه اختلاف الخلق والشيم
.. يرى (أنوثتها) أرقى فضائلها
فلا تذلها بأهوان ولا تسم
تكون آمرة فى البيت ناهية
تعنى بتربية الأولاد بالرحم
هذى وظيفتها الفطرية ارتسمت
فى سنة الله قبل اللوح والقلم
تكون فى مالها طلقا مخولة
حتى التصرف فى بيع وفى سلم
فسل نساء (فرنسا) هل حصلن على
حق التصرف بعد (الثورة) العمم
وهل تذكر (أوربا) زمان ترى
نساءها كمتاع البيت والمجم

ولعل الشاعر بذلك يرد على بعض أعداء الإسلام الذين قال بعضهم : " إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى ، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية ، فى القرن السابع الميلادى ، ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنسانى ... إنه يحرم المرأة من كل حقوقها ، ويعتبرها أحط من الرجل ، وإنه يبيح الرق وإنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة

---

(١) انظر : الدكتور أبو الفتوح رضوان بالاشتراك مع غيره : أصول العالم الحديث ص ١١٢ مطابع مؤسسة روز اليوسف بمصر سنة ١٩٧٦ . (٢) حياة محمد ص ٣٤٦ .
(٣) نظام البردة ص ١١ .

أسرى حرب ورقيقا ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة " محمد " – صلى الله عليه وسلم – ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب ، والذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح .. "[1] ، ولا يخفى ما فى ذلك القول من جهل بأحكام الإسلام وأخلاق المسلمين – وخاصة الصحابة – وحسن معاملتهم ، ولا يخفى أيضا أن الرق كان منتشرا قبل الإسلام[2] ، وللإسلام فضل كبير فى العمل على القضاء عليه ، وفى الحث على إكرام العبيد ، ولذلك قال الشاعر بعد قوله السابق مباشرة[3] :

وسنّ (للرق) ما يقضى عليه على
مدى الزمان مع التدريج والسلم

حاط (الموالى) بالحسنى وعاملهم
كالمالكين مع التخفيف فى الجرم

سنّ (الكتاب) لإطلاق الأسار كما
دعا ورغب فى الإعتاق للنسم

وسنّ فى فك أسرى الحرب فديتهم
بالمال أو عتقهم بالمن والكرم

إن الشاعر يشير فى تلك الأبيات إلى بعض الوسائل التى تقضى على الرق فى الإسلام ، ومن ذلك أن الإسلام قد أوجب على من يقتل مؤمنا خطأ عتق رقبة مؤمنة ، يقول الله تعالى : " وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ .. الآية[4] " وكذلك على من يحنث فى يمينه ، يقول الله تعالى فى بيان كفارة اليمين : " .. فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. الآية[5] " وكذلك على من يظاهر من زوجته ثم يعود لما قال ، يقول الله تعالى : " وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. الآية[6] " بل لقد شرع الإسلام

(١) الاتجاهات الوطنية ج١ ص ٢٤٠ ، ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢) الدكتور أحمد الحوفى : سماحة الإسلام ص ٢٠٥ ومابعدها مطابع شركة الإعلانات الشرقية بمصر سنة ١٩٦٣ ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠١ ومابعدها ، ما يقال عن الإسلام ص ١٤٥ ومابعدها . (٣) نظام البردة ص ١١ .
(٤) النساء / ٩٢ (٥) المائدة / ٨٩ .
(٦) المجادلة / ٣ .

إخراج الزكاة لتحرير الرقاب بقول الله تعالى : " .. وفى الرقاب والغارمين .. .. الآية[1] " .

ويشير الشاعر بقوله : (حاط الموالى بالحسنى وعاملهم ..) إلى مثل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يحث على حسن معاملة الأرقاء والخدم : " إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم[2] " .

كما يشير بقوله : (رغب فى الإعتاق للنسم) إلى أن الإسلام رغّب فى إعتاق العبيد ، ومن ذلك قول الله تعالى : " وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ .. [3] " وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أيما رجل أعتق امرأ مسلما ، استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار[4] " .

ويلمح بقوله : (ومن فى فك أسرى الحرب فديتهم ..) إلى قوله تعالى عن أسرى الحرب : " .. فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. الآية [5] " .

ولعل ذلك البيان الواضح يقطع تلك الألسنة الكاذبة التى لم يسلم منها الإسلام الحنيف ، ولم يسلم منها نبى الإسلام (صلى الله عليه وسلم) .

ومن تلك المفتريات ما أشار إليها الشاعر بقوله : [6]

و (محنة الإفك) برهان يدل على
صدق النبى ، وينفى سائر التهم[7]

---

(1) التوبة / ٦٠ .
(2) صحيح البخارى جـ ٨ ص ١٩ .
(3) البلد / ١٢ ، ١٣ .
(4) صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٨٨ .
(5) محمد / ٤ .
(6) نظام البردة ص ١٢ .
(7) المراد (بمحنة الإفك) ما عرف (بحديث الإفك) ويتلخص فى اتهام السيدة عائشة زوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بخيانته ، لأنها تخلفت عن العودة مع ركب الرسول (صلى الله عليه وسلم) العائد من غزوة بنى المصطلق ، إذ كانت تقضى حاجتها ... فسار القوم ظنا منهم أنها فى هودجها ولما رجعت إلى مكان المسلمين لم تجدهم ، فنامت مكانها عسى أن يعود من يأخذها ، ولكن أحد الصحابة كان قد تأخر عن الركب أيضا ـ عندما رآها استرجع فاستيقظت ، وركبت بعيره إلى المدينة ، فلما رأى المنافقون ذلك أرادوا أن يكيدوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) باتهام السيدة عائشة بخيانته ، وتبعهم فى ذلك بعض المؤمنين ، ولكن الله برأها ، وأنزل فى حقها قرآنا يتلى ، انظر : سورة النور / ١١ ـ ١٩ ، وحياة محمد ص ٣٥٥ وما بعدها .

لله فيها — وطه فى تبلبلـــــه —

من هولها — حكم تسمو على الفهم

لو كان من قلبه هذا الكتاب سمــا

قضى زمانا طويلا وهو فى غمم

يعذب الشك قلبا منه ممتلئــا

بالحب والطهر مغيارا على الحرم

ولا يخفى أن الشاعر أشار إلى أن حديث الإفك يدل على أن القرآن الكريم من عند الله ، لا من عند رسول الله ، إذ لو كان من عنده لما استمر مدة حزينا مهموما على ما أشيع — كذبا وزورا — عن السيدة عائشة ، هو وبعض صحابته، ولكن الله كشف كربته ، وأزال غمته ، بنزول الوحى ببراءة السيدة عائشة، التى أشار إليها الشاعر بقوله[1] :

حتى أتى الوحى بالآيات معلنة

براءة الطهر ذات القدس والعصم

زوج النبى ، ابنة الصديق صاحبه

خير الورى بعد خير الخلق كلهم

فأشرقت أوجه الأصحاب من فرح

وجللت أوجه الأعداء بالسخم

ولا يخفى ما فى البيت الأخير من بيان أثر تلك البراءة فى نفوس الصحابة الذين كانوا فى هم كبير ، وأثرها — أيضا — فى هؤلاء الأعداء أصحاب النفوس الخبيثة .

ويواصل الشاعر حديثه عن المنافقين الذين كانوا يكيدون للإسلام وللرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله حفظهما من كل سوء ، ثم يعرج على الحديث عن وقوع السحر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول[2] :

ويستحيل وقوع السحر فيه كما

روى الرواة بلا نقد ولا فهم

---

(١) ظل البردة ص١٢ .
(٢) المرجع السابق ص١٣ .

دست عليهم فراحوا يلهجون بها
والله يغفر عنهم زلة القدم
وكم لأعداء دين الله من بدع
قد ألصقوها به ثأرا لملكهم

يشير الشاعر إلى ما روى عن السيدة عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت سحر رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) رجلٌ من بنى زريق يقال له : لبيد بن الأعصم .. الحديث[1] . ويبين أن هذا زعم مفترى على الرسول، وضعه أعداء الإسلام الذى قضى على دولة أصنامهم ، ومعتقداتهم الباطلة ، والجدير بالذكر أن العلماء قد انقسموا حول هذا الأمر إلى قسمين بعضهم يمنع وقوعه ، وبعضهم يجيزه مبينا أن ذلك لا يتعارض مع العصمة [2] .

والجدير بالذكر أيضا أن الشاعر لم يسبق فى الإشارة إلى تلك الأفكار بأحد من الشعراء المعارضين. ثم يظهر باكثير أسفه على تحول الأمة الاسلامية من قوة إلى ضعف وما ذلك إلا لأنها أخذت بظاهر الأعمال وتركت جوهرها ، فيقول — مخاطبا — الرسول (صلى الله عليه وسلم) — عن الأمة الإسلامية إنها [3] :

حاكتك فى صور الأعمال تتبعها
وما اقتدت بك فى عزم ولا همم
ولا كمال ولا صدق ولا خلق
ولا اجتهاد ولا عز ولا شمم

ويبدو أنه أراد أن يفصّل ما أجمله فى البيت الأول ، فذكر أن المسلمين لا يتلون القرآن ويفهمون معانيه ، بل يتلونه بغير تدبر ، وإذا رأيتهم وهم يتلونه أو يستمعون إليه، خيل إليك أنه يتلى على قوم سكارى لا يتأثرون ، أو على أموات لا يسمعون، فيقول [4]

ولا تقوم إلى القرآن تقرؤه
إلا أمالى بالألحان والرنم
كأنما أنزلت آى الكتاب لكى
تتلى على شرب راح أو على رجم

---

(1) صحيح البخارى جـ ٧ ص١٧٦ ، جـ ٨ ص٩٣ (٢) زاد المعاد جـ ٣ ص١٠٤
(٣) نظام البردة ص١٢٠ (٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

وذكر أيضا أن فريقا من المسلمين قد أعجبوا بحضارة الغرب ، فاتجهوا إليها تاركين تراثهم الرائع ، وحضارتهم التى شهد الغرب بعظمتها [(١)] ، فيقول [(٢)] :

رأوا (أوربا) فراحوا يكفرون ـ على
جهل ـ يدينهم الموروث والشيم

وأنكروا مجد آباء لهم شهدت
لها فحول رجال الغرب بالقدم

وما لذلك غير الضعف من سبب
فالضعف أصل جميع البؤس والنقم

ويتضرع إلى الله تعالى لكى يمنا برحمته ، لأن الغرب مستيقظ ، أما الشرق فنائم ، كما أن العرب فى غفلة عن الخطر الذى يهددهم ، بل يعادى بعضهم بعضا ، والعدو يتربص بهم ، فيقول [(٣)] :

يارب رحماك إن الغرب منتبه
والشرق مشتغل بالنوم والسأم

والعرب فى غفلة عما يهددها
لم تعتبر بليالى بؤسها الدهم

ياويحها تتعادى والعدو على
أبوابها يرقب الأحداث عن كثم

ويؤكد الشاعر تضرعه ، مبينا أنه يكون سعيدا إذا سعدت أمته ، ويكون شقيا إذا ذلت ، ويتوسل إلى الله برسوله (صلى الله عليه وسلم) وبالقرآن الكريم قائلا : [(٤)]

يارب ياصاحب العرش العظيم ومن
تحى الإرادة منه دارس الرمم

بما بعثت به خير الأنام أجر
يارب أمته من صمة الصمم

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٤ وما بعدها ، ص ٢٦٩ وما بعدها .
(٢) نظام البردة جـ ١٤ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

.. فطهر الكون مما فيه من رجس
ومن فسوق ومن ظلم ومن أزم
فلا دواء له مما يكابده
إلا هداية خير الرسل كلهم

ثم يرجو من الله أن لا يحرمه من شفاعة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولا من الشرب من حوضه ، ثم يدعوه (جل جلاله) طالبا مغفرته له ولوالده ووالدته وزوجته وغيرهم فيقول (١) :

واغفر ذنوب أبى فضلا ووالدتى
وزوجتى وذوى قرباى والرحم
وصل أزكى صلاة منك دائمة
على الرسول ، رسول الرحمة القسم

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يسبق بمن طلب مغفرة ذنوب أبيه وأمه وزوجته بالتفصيل مثله ،

ويطلب من الله (سبحانه وتعالى) الرضا عن صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخاصة أبى بكر والفاروق عمر ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وهو فى ذلك ناظر إلى شوقى فى نهجه (٢) .

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته بقوله : (٣)

واختم بمسك يفوح على
(محمد) خير مبد ، ومختتم
ما أومض البرق فى الظلماء من إضم
وما عطا الريم بين البان والعلم

ولا يخفى أنه يشير بالشطر الأول من البيت الثانى إلى بردة البوصيرى التى نظر إليها فى بعض أفكاره ، كما يشير بالشطر الثانى إلى نهج البردة لشوقى التى نظر إليها - أيضا - فى بعض أفكاره .

---

(١) نظام البردة ص ٥١ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥٦
(٣) نظام البردة ص ٥١ .

وبعد ذلك المرض أرى أن معارضة باكثير — نظام البردة — قد تناولت أفكارا كثيرة لم يتعرض لها من سبقه من أصحاب معارضات البردة ، مثل : بيان رسالة المسجد ، وحثه على تعليم المرأة ، وبيان أن الإسلام قد أنصفها بإعطائها حقوقا لم تحصل عليها المرأة الأوربية التى تتباهى بالحضارة والتقدم، كما تحدث عن بعض أركان الإسلام مبينا بعض فوائدها ، أضف إلى ذلك أنه قد رد على بعض المفتريات التى افتراها أعداء الإسلام مثل : تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وموقف الإسلام من الرق ، وما شرعه للقضاء عليه وحديث الإفك ، بالإضافة إلى تناوله الأفكار التى تناولها سابقوه ، وأحسن فى تناولها ، وطريقة الحديث عنها مثل : حديثه عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

(المعارضة الخامسة) " قُربتى "

وأما المعارضة الخامسة فهى معارضة الشاعر : محمود محمد جبر — المعروف بشاعر آل البيت ، وقد ولد فى مغاغة — إحدى بلاد محافظة المنيا — سنة ١٩٠٦ ، وعندما شب ذهب إلى كتاب القرية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى المدارس الابتدائية فالثانوية إلى أن حصل على شهادة (البكالوريا) فعمل بالصحافة مدة ، ثم عمل بوزارة الأوقاف التى لم يستمر فيها طويلا، إذ نقل إلى وزارة الزراعة للعمل بها ثم عمل موظفا بالسكة الحديد ، ومنها أحيل إلى المعاش ، ولا زال يشدو بقصائده، وخاصة فى المناسبات الدينية .

ولقد كان الشاعر كثير القراءة فى كتب العرب ودواوين شعرائهم ، فنمت موهبته ، وترنم بكثير من القصائد ، ولكنه قصرها على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، وكان ذلك سببا فى لقبه (شاعر آل البيت) .

والجدير بالذكر أن الشاعر قد زار كثيرا من الدول الإسلامية والعربية ، مثل : الكويت والحجاز ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين سنة ١٩٤٨ ، وكان يلقى قصائده فى تلك البلاد وخاصة فى المناسبات الدينية .

كما نشرت لـــه المجلات المصرية وغيرها كثيرا من القصائد مثـــل: مجلة منبر الإسلام ، ومجلة المسلم ، ومجلة لواء الإسلام ،ومجلة الوعى الإسلامى .

وشعره يمتاز بسهولة لفظه ، ولطف معناه ، وإن كان خاليا من عمق الفكرة ترى ذلك واضحا فى ديوانه (شاعر آل البيت) ، وديوانه (مزامير الإيمان)[1] وأيضا فى قصيدته : (قُربتى) - أو نهج جديد للبردة - وهى التى عارض بها بردة البوصيرى ،وبلغ عدد أبياتها تسعة وخمسين ومائة بيت ، وقد نظمهـــا الشاعر فى سنة ١٩٤٢[2] .

ولقد بدأها بالغزل على عادة معظم الشعراء العرب فى بدء قصائدهم[3] فقال[4] :

ورقاء (مكة) بين البان والعلم
ناحت فأذكت بقلبى لاعج الضرم

هاتى نواحك ياورقاء إن لنـــا
فيما تنوحين محبوبا من النغم

قد هجت شوقى فما لى راح يسحرنى
هب النسائم يسرى من ربى (سلم)

ولا يخفى أن الشاعر يبين أن ورقاء مكة قد ألهبت شوقه ، كما أن النسيم الذى هب من جهة (ربى سلم) قد ملك لبه ، وماله لا يكون كذلك وقلبه مشتاق إلى أرض الحبيب الذى أفصح عنه بقوله[5] :

---

(١) كل هذه المعلومات من الشاعر نفسه .
(٢) طبعت تلك القصيدة فى كُتيب بمطابع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٤٢. انظر : ديوانه (شاعر آل البيت) ص ٢١١ طبعة دار الطباعة القوميـــة بمصر سنة ١٩٥٩.
(٣) ولقد وضع الشاعر تلك القصيدة فى ديوان (شاعر آل البيت) ص ٢٤ وما بعدها - إلا أنه حذف منها أبياتا كثيرة وجعل مطلعها :

صلى عليك إلهى بارئ النسم
يامبعث النور فى الأكوان من قدم

(٤) قربتى ص ٢١.
(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

يا رمل (مكة) هل أبقى النسيم على
خطو الرسول .. بروحى موضع القدم

ولم يطلك إلا أن يبوح بذلك الحب ، ويعلن ذلك الشوق بقوله :[1]

ياسيد الرسل مابالشوق عنك غنى
ولا الحنين ولا جرحى بملتئم
ماذا يطهر قلب الصب من درن
إلا هيام يراعى الحق والذمم

ثم يتحدث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله[2] :

درجت تحبو على أرض قد اكتسبت
منك الطهارة والتقديس من قدم
صوادح الطير حامت حول أيكتها
تزجى إلى الروض لحن الصادح الرنم

وأخذ يبين الأحداث التى وقعت فى ذلك اليوم من تصدع الإيوان ، وانطفاء النيران، وغير ذلك مما تحدث عنه سابقوه ممن عارضوا البردة ، كما تحدث عن حالة العالم قبل مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقبيل بعثته ، فالظلم منتشر ، والفساد معلن ، ولما بعث (صلى الله عليه وسلم) كشف الله به الغمة، وهدى على يديه الأمة[3] :

ثم أشار إلى بعض ما لاقاه الرسول من أذى واضطهاد ، واختار الحديث عن ذهاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى الإيمان بعد أن اشتد به إيذاء كفار مكة .. فقال[4] :

إن أنس لا أنسى يوما سرت منتقلا
حصاة (مكة) نحو (الطائف) الأمم
وصبيتك من الغلمان شرذمة
حتى دميت بروحى ما جرى ودمى

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ ومابعدها .
(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .

.. وقلت ثمة ربى أنت أعلم بـــــى

فاكشف عن السمع إن القوم فى صمم

إن الشاعر يلمح إلى إيذاء أهل الطائف للرسول (صلى الله عليه وسلـــم) إذ سلطوا عليه سفهاءهم، فرموه بالحجارة، وأدموا قدمه (صلى الله عليه وسلم) ، والجدير بالذكر أن الشاعر لم يسبقه أحد ممن عارض البردة إلى الإشارة إلـــى تلك الفكرة ، وفى البيت الثالث يشير إلى دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلـم) : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى .. الخ)[1] ثم أشار إلى أخلاق الرسـول (صلى الله عليه وسلم) التى يعجز عن حصرها ووصفها الواصفون مهما أوتوا مـــن فصاحة وبيان ، كما أشار إلى شجاعته وخاصة فى غزوتى بدر وأحد .

ويبين الشاعر أننا لو اتبعنا شرع الله لارتفع شأننا بقوله :[2]

لو أننا يارسول الله غايتنـــــــا

ما قد شرعت لسدنا سائر الأمـم

ثم يذكر جهاد الصحابة وشجاعتهم التى مكنتهم من حرب الفرس والـروم ونشر الإسلام فى كثير من البلاد ، كما يبين أنهم اتصفوا بالصفات الحسنـــــة والمبادىء الكريمة ، فيقول[3] :

قوم أغاروا على الأعجام واقتحموا

أبواب (فارس) فانظر أى مقتحـــم

وملكوا الشام والأمصـــار وافتتحـــوا

ملك القياصر بالوخادة الرســــــم

العدل والحلم والإنفاق ديدنهـم

والصدق فى القول والتحفيز للهمـم

الله والشرع والقرآن رائدهـــم

ومن يلذ بحدود الله يعتصـــــم

ويشير إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل انشقاق القمر

---

(١) انظر حياة محمد ص١٨٧ ومابعدها .
(٢) قريـــتى ٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص٢٨ .

ومعجزة شاة أم معبد، التي در لبنها على الرغم من هزالها ، عندما حلبها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو فى طريقه من مكة - مهاجرا - إلى المدينة ، ويختم تلك الإشارة بقوله[1] : .

يا أم معبد من يلق الرسول يجد
من رحمة الله ألوانا من الكرم

ثم ينتقل إلى الحديث عن المعراج - مع أنه وقع قبل الهجرة على الصحيح - ولكنه لم يقف عند طريقة إشارة السابقين إلى تلك المعجزة ، بل زاد على ذلك بيان إمكان حدوثها وكأنه يرد بذلك على من ينكرها فيقول[2] :

معراجه صلوات الله تكلؤه
وقوة الله شىء بالغ العظم
والكهرباء أليست كشف تجربة
تلقى الضياء على أسرار ربهم
آيات مولاى تترى كل آونة .
سبحان من علم الإنسان بالقلم
أيؤمنون بذر سوف يهلكهم
ويكفرون بوحى بارئ النسم

ويشير إلى أن بعض هؤلاء المنكرين قد اخترعوا الذرة، واستخدموها فى الدمار والخراب بقوله[3] :

يارب يارب إن القوم قد فجروا
وفجروا الذر للإضرام والحمم
والأمر أمرك فاهلكهم بما صنعوا
وانقذ عبادك من حتف ومخترم

ويشكو إلى الله تعالى عدم تعاون الناس وتعاطفهم فيقول[4] :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ص ٣٢ .

الله لو أننا سرنا توأزرنا ∴ روح من الحمد لا روح من البرم

الله لو أننا كنا سواسية ∴ لم ندع إلا إلى عدل ونحتكم

.. الله الله لو هبت جحافلنا ∴ لنصرة الشرق لم نجنح إلى الغسم

وصار أمر الهدى شورى وألفتنا

عهد نبيه من دون ما قسم

الله الله كان المسلون إذن

بين السماكين لا فى وصمة الــزرر

ياسيدى لى شكاتى أنت تعلمها

وذا حنينى وذا جرحى وذا ألمى

ويبدو أن الشاعر نسى ترتيب أفكاره — زمنيا — ولذلك يقول [1] :

عُد بى إلى الغار والمختار منعزل

عن الخلائق يجلو صفحة الظلم

ثم بين الفرق بين معاملة الرسول للكفار ومعاملتهم إياه فيقول [2] :

قد كنت أكبرهم قلبا وأرحمهم

وكنت منقذهم من وهدة العدم

فما لهم حين أزجيت الهدى انقلبوا

وحاربوا الدين دين الحق والقيم

ويمدح الشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبينا بعض صفاته الكريمة ثم يعترف بعجزه عن الإحاطة بمناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول [3] :

قال الرواة كثيرا فى مناقبه

ماذا أقول ، وماذا يبتغى قلمى

.. العجز عجزى فما يسمو له أحد

من ذاك يستطيع أن يرقى إلى النجم

العجز عجزى فمن ذا يستطيع إذن

حصر المكارم والأخلاق والشيم

---

(١) قريتى ص ٣٤ . (٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥ ومابعدها .

المجز عجزى ولى فى المجز مفخرة
أنى عييت هنا فى ساحة البهم
ياسيدى لم أجد فى القول شافية
تشفى الغليل وترضى بغية النهم

ويخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبينا أنه يحبه حبا شديدا بقوله[1] :

ياسيدى هل أحب الناس سيدهم
كما أحبك لا .. والحق ملء فمى
أقسمت بالقلب مابالقلب غيركمو
الحب ياسيدى .. يجرى هنابدمى

ويستمر الشاعر فى بيان حبه للرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يتحدث عن نسبه الشريف ، وأنه من قبيلة رفيعة القدر ، عظيمة الشأن ، وأنه قد زادها شرفا فيقول[2] :

من يستطع يارسول الله يشبهكم
فى دوحة المجد أو فى دولة الشيم
من يارسول الهدى يجرى يلاحقكم
وأنت فيما نرى فى قمة القمم

ثم يجرد من نفسه شخصا ينصحه قائلا[3] :

أخرج من القلب أضغانا تلوثه
واغسل ثيابك واهجر صحبة الهكم
أقبل على الله واسلك نهج من وصلوا
بحبهم لرسول الله واعتصم
سر نحو روضته زحفا إن انقطعت
بك الوسائل تغنم كل مغتنم

ويبين قيمة حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى القلب والنفس والروح بل والكون فيقول[4] :

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧
(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٩ .
(٤) قريتى ص ٤٠ .

ماقيمة القلب قلبا لست تسكنـه
أليس كالحجر الجلمود من وهـم
ما قيمة النفس لولا ما يخالجهـا
من حبها وهي عنك العمر لم تـرم
ما قيمة الروح لولا ما يطهرهـا
وأنت وحدك طهر الروح من قـدم
ما قيمة الكون لولا نور طلعتـه
أقسمت بالنور أن أسمى إلى (الرقم) (١)

ويواصل الشاعر مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه فرد في أخلاقه ومنزلته ، إلى أن يصف ذلك اليوم الذى قبض فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ كان يوما شديدا وقعه على المسلمين، بل على الأرض والسماء ، والجماد والحيوان فيقول (٢) :

في حيرة من دموع الأرض هل فـرح
أن قد سعدت به أم تلك من أزم
أما السماء فلا أدرى أهاطلهـا
غيث على القبـر أم فيض من الألـم
ما للمدينة كان البشـر يملؤهـا
فأصبحت في وجوم غبـرة الأدم
وهذه الطـير لم تـبرح مطارحها
ماذا دهاها وحول الحى لم تحـم

ولا يخفى ما في الأبيات من عبارات مؤثرة مثل : (دموع الأرض ، من أزم ، غيث على القبر ، فيض من الألم ، فأصبحت في وجوم غبرة الأدم ، ماذا دهاها)، إنهـا عبارات توحى بأن أمرا عظيما قد حدث ، وتشير إلى أن خطبا أليما قد وقع ، ولقد أحسن الشاعر في اختيارها ، إذ ليس هناك أفضل من رسول الله ، وليس هنـاك عزيز نبكى على موته مثل رسول الله ، والجدير بالذكر أنه لم يسبق بمثل ذلك التفصيل .

ويعترف الشاعر بتقصيره في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثـم

---

(١) الرقم — بفتحتين فسكون — جبل بمكة .

(٢) قريتي ص ٤١ .

يشير إلى تأثره فى نظم قصيدته بالبوصيرى فيقول [1] :

إلى (البوصيرى)أحنى الهام معترفا
بالفضل والسبق فى مدح وملتزم
تى (قربتى) يا أخى فى الحب أرسلها
إلى الحبيب فهل يرضيه مصمى؟
أزجيتها درة يكفى بها شرفا
ذكر النبى بقلب مخلص وفم
عينى تقر بها إن قال قائلها
يارب صل على المختار فى القدم

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته بالتضرع إلى الله تعالى أن يصلى على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعترته ، وأن يقبل شعره ومديحه فيهم ، وأن ييسر له حج بيت الحرام فيقول [2] :

يارب صل على (طه) وعترته
واقبل قريضى ، وهب لى زورة الحرم
محمد أنت نور النور فى غسق
وأنت ياسيدى بدئى ومختتمى

وبعد ، فلئن ضاقت أغراض تلك المعارضة ، وقلّت أفكارها ، لم تخل من جديد إلى جانب التقليد ، مثل الإشارة إلى إيذاء الرسول فى الطائف وبيان سعة صدره ، وكبير حلمه وعفوه ، بالإضافة إلى الرد على من ينكرون معراج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتفصيله أثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

المعارضة السادسة : ((بُشرَى العاشقين بهلوغ سيّد المرسلين))

وأما المعارضة السادسة فهى معارضة الشيخ : محمد خليل الخطيب ، الملقب بشاعر النبى (صلى الله عليه وسلم)، ولقد ولد فى (نيدة) - إحدى قرى مركز إخميم بمحافظة سوهاج - سنة ١٩٠٩ ، ونشأ حيث ولد ، وعندما شب دخل كتاب القرية فحفظ القرآن الكريم بعدما تعلم مبادئ القراءة والكتابة ثم التحق بمعهد أسيوط الدينى ، ومنه انتقل إلى القسم العالى بالقاهرة بعد حصوله على الشهادة الثانوية الأزهرية - وكان من أوائل الناجحين فيها ، ثم حصل على الشهادة العالمية سنة ١٣٥٠ هـ ، كما حصل على شهادة التخصص فى اللغة العربية سنة ١٣٥٤ هـ ، ثم حصل على شهادة العالمية سنة ١٩٣٦م .

ولقد عمل مدرسا بمعهد طنطا الدينى حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٧٤ ولا يزال يُدَرِّس العلم حسبة لله ، وينفع الناس بندواته ومحاضراته الأسبوعية بمسجد المحافظة بمدينة طنطا .

شاعريته :

نظم الشيخ الخطيب الشعر وهو صغير ، ثم ازدادت شاعريته بازدياد ثقافته العربية والدينية ، إلا أنه قد قصر نظمه على مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته ، ولعل بيئته كان لها أثر كبير فى ذلك الاتجاه إذ كان والده (رحمه الله) حافظا لكتاب الله، وعالما يفقه الناس فى أمور دينهم .

مؤلفاته :

وللشيخ الخطيب مؤلفات كثيرة منها :

١- إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام .

٢- القصص الحق .

٣- روضات الخطيب .

٤- رباعيات الخطيب.
٥- كشف الغطاء في شرح حكم سيدي أحمد بن عطاء.
٦- غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب.
٧- نقاية التصوف وشرحها.
٨- التراجم المهمة للأربعة الأئمة.
٩- الكافية الكبرى.
١٠- بشرى العاشقين ببلوغ سيد المرسلين[1].

وهي التي عارض بها بردة البوصيري، وهي من أطول معارضات البردة في العصر الحديث - إن لم تكن أطولها - إذ بلغ عدد أبياتها ثلاثة وستين وخمسمائة بيت تقريبا، وقد نظمها في سنة ١٣٦٢ هـ[2].

وهي نفحة نبوية، كما قال الشيخ وهو يهديها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم):

ياسيد الخلق يانور الوجود ومن
أولاك مولاك ما أولاك من عظم

أهديك (بشرى) وبا بشرى الألى عشقوا
خير الأنام فنالوا حب حبهم

.. نظمتها ويقيني أن فضلكمو
أمدني بمعانيها وبالكلم

فاقبل هدية منسوب لكم وبكم
أشعاره أصبحت نورا على علم

والجدير بالذكر أن الشيخ لم يبدأ قصيدته بالغزل، بل بدأها بمطلع رآه في نومه كما قال: ".. رأيت مطلعها - بشرى العاشقين - في المنام، فكان بشرى تحققت بزيارة خير الأنام، وقد مدت إلي يده الكريمة (صلى الله عليه وسلم) في سنة - بكسر السين - مرتين، فأهويت إليها بفمي مرتين[3]".

---

(١) هذه المعلومات من الشيخ نفسه.
(٢) بشرى العاشقين ص٤٩.
(٣) المرجع السابق ص٢.

ومهما يكن من شئ فإن مطلع تلك القصيدة قد اشتمل على بشرى يتمناها كل مسلم وعى[1] :

بشرى لنا معشر العشاق من قدم
فقد بلغنا إمام العرب والعجم

وأفضل الخلق فى خَلْقٍ وفى خُلُق
عليه أثنى إله الخلق بالعظم

ويشير الشيخ إلى أن الله قد صلى على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكذلك ملائكته بقوله[2] :

عليه صلى ، كذا صلت ملائكة
وعمره خصه الرحمن بالقسم

وبالصلاة مع التسليم تكرمة
الله ألزم من ألقى يد السلم

ومن يصلى عليه مرة فله
عشر من الله ذى الآلاء والكرم

ولا يخفى أن قوله : (عليه صلى ..) يشير إلى قول الله تعالى : " .. إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[3] " وهذا ما أكده بالبيت الثانى ، كما أن قوله : (وعمره خصه الرحمن بالقسم) يلمح إلى قوله تعالى : " لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ..[4] " ، وفى البيت الثالث إشارة إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "من صلى علىّ واحدة صلى الله عليه عشرا "[5] .

ولا شك فى أن ذلك كله يبين عظم منزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ربه (سبحانه وتعالى). ثم تحدث الشيخ عن حالة العالم قبل بعثته (صلى الله عليه وسلم) فذكر أن الظلم كان منتشرا ، بالإضافة إلى عبادة الأصنام

---

(١) المرجع السابق ص ٣ .　(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) الأحزاب / ٥٦ .
(٤) الحجر / ٧٢ .
(٥) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٧ (طبعة دار التحرير) .

وشرب الخمر ، ووأد البنات ، وإذا كان قد سبق بمن أشار إلى تلك الأفكار فإنه قد زاد أنكارا أخرى مثل حمل الإماء على البغاء ، ومثل تأخير الأشهر الحرم ، وهو ما عرف بالنسيء — فقال :[1]

وربما حملوا بعض الإماء على
بيع العفاف بمرذول من القيم

والبعض يسطو على بعض فلا سلم
غير الحرام ، وغير الأربع الحرم

وربما نسئوها إذ تعن لهم
فيها مصالح تدعوهم لسفك دم

ولا يخفى أن البيت الأول يلمح إلى قوله تعالى : " ٠٠ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٠٠ الآية[2] ، كما أن البيت الثالث يشير إلى قوله تعالى : " إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ٠٠ الآية[3] ،

ولقد بين الشيخ الخطيب تحكم ملوك الفرس والروم فى رعيتهم ، وانتشار الظلم بينهم ، ثم انتقل إلى الحديث عن العرب فذكر أن منهم رجالا يتصفون بالكرم وحفظ الجوار ، إلا أن أحسنهم هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله[4] :

وإن أحسنهم رأيا وأعظمهم
نفسا وأكرمهم فى البدء والختم

محمد صفوة البارى ورحمته
والذخر والنعمة الكبرى على النعم

ويبدو أن الشيخ قد نظر إلى نهج البردة لشوقى ، لأن الشطر الأول من البيت الثانى هو من قول شوقى[5] :

محمد صفوة البارى ورحمته ٠٠ وبغية الله من خلق ومن نسم

---

(١) بشرى العاشقين ص ٤ ومابعدها ٠
(٢) النور / ٣٣ (٣) التوبة / ٣٧ ٠
(٤) بشرى العاشقين ص ٥٠ (٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٤٤ ٠

ومهما يكن من شئ ، فقد انتقل إلى الحديث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله (١) :

يا ليلة ولد الهادى الأمين بها
تالله ما ليلة تحكيك فى العظم
بك الحبيب أتى ، أعظم بمقدمه
أكرم به فهو خير الخلق كلهم
ما زال من طاهر يهدى لطاهرة
حتى بدا ملكا فى صورة النسم

ثم يذكر بعض الأحداث التى تحدث عنها معارضو البردة قبله مثل تصدع الإيوان وغير ذلك ، كما تحدث عن الخير الذى عم السيدة حليمة السعدية بسبب إرضاعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأشار إلى شق صدره (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا كان الشيخ قد سبق بمن أشار إلى تلك الأفكار ، فإنه قد أشار إلى فكرة جديدة لم يتحدث عنها من سبقه وهى : وفاة والد الرسول وهو فى بطن أمه ، ووفاة والدته وهو فى السادسة من عمره فقال (٢) :

وأم خير الورى وافى الحمام ، وهل
ينجو من الموت غير الواحد الحكم
إن كان حين قضت فى سن سادسة
فإن والده قد مات فى الرحم
ووالداه من التكريم حسبهما
أن أنجبا خير من يمشى على قدم
وإن أصلهما سام وأمرهما
يوم الجزاء لرب واسع الكرم

ويبدو أن الشيخ يشير بقوله : " .. وأمرهما .. يوم الجزاء لرب واسع الكرم " إلى اختلاف العلماء فى مصير أبوى الرسول (صلى الله عليه وسلم). أهما ناجيان لأنهما من أهل الفترة أم لا ؟ (٣)

---

(١) بشرى العاشقين ص ٥ . (٢) المرجع السابق ص ٨ .
(٣) شرح البيجورى على الجوهرة جـ ١ ص ٣٦ .

ثم أشار إلى كفالة جده عبد المطلب إياه ، وحفاوته به ، وكفالة عمه أبى طالب بعد وفاة جده بقوله [1] :

وجده شيبة عاد الكفيل له
ولم يشب بأذاة بالغ السرام [2]

.. وقد أناط به شيخ الأباطح من
بعد الوفاة فكان البرذا الرحم [3]

كما تحدث عن بعض صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأشار إلى بعض مالقيه من قومه من الأذى ، وألمح إلى تعذيب بعض أصحابه مثل بلال وغيره مما دفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لأنه كان يتوسم فى ملكها الخير فيقول [4] :

وحينما وصلوها واصلوا ملكا
كأنه ملك فى العدل والرحم

فجاوروا خير جار عنده آمنوا
دينا ودنيا ولم يلحق أذى بهم

وذكر أن قريشا قد قاطعت الرسول وأصحابه ثلاث سنوات بعهد قطعوه على أنفسهم فى الصحيفة التى أكلتها الأرضة إلا (باسمك اللهم) والجدير بالذكر أن البارودى قد أشار إلى ذلك فى معارضته [5] .

ثم تكلم الشيخ على الإسراء والمعراج فأشار إلى ما أشار إليه سابقوه ممن عارضوا البردة ، ولكنه قد زاد بعض الأفكار مثل تأخر جبريل عن الرسول وهو فى السماء ، قائلا له (صلى الله عليه وسلم): "إلى هنا ينتهى مقامى ولو تقدمت لاحترقت" نجد ذلك فى قوله [6] :

---

(1) بشرى العاشقين ص ٩ .
(2) شيبة : عبد المطلب ، الرأم / العطف .
(3) شيخ الأباطح : أبو طالب .
(4) بشرى العاشقين ص ٩ .
(5) كشف الغمة ص ١٥ .
(6) بشرى العاشقين ص ١٤ .

ومذ تأخر جبريل هتفت بـــــه

أيترك الخل من يهواه فى زأم

فقال : ذا موضعى ، لو قدر أنملـة

جاوزته كنت بالأنوار ذا عـــدم

وزاد أيضا الإشارة إلى فرض خمسين صلاة ثم خففت إلى أن صارت خمسا فى العمل، وخمسين فى الأجر والثواب بقوله (١) :

وقد غدت بكثير من مراجعـــــة

خمسا لدى فعلها خمسين فى القيم

ثم رد على من أنكر الإسراء والمعراج بقوله (٢) :

تبّا لمن أنكر الإسراء وهـــو يـــرى

كم طائرات تجوز الصوت فى الرسم

ولا غرابة فى حشر الكرام لــــــه

مستقبلين فليسوا من ذوى العـــدم

وأمـــر معراجــه لا بُعد فيه علــــى

غير الذى قلبه بالبعد عنه رمـى

وذكر الشيخ أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أخبر الناس بأمـــــر إسرائه، فالسعيد من صدقـه، والشقى من كذبه ، ثم انتقل إلى الحديث عـن الهجرة، فبين ما اتفق عليه المشركون من قتل الرسول ولكن الله حفظه، وأمـــره بالهجرة فخرج من بيته وهو يقرأ (يس)، ثم ذهب إلى أبى بكر فذهبا سويـا إلى الغار، فجاءت حمامتان ، ووقفتا على باب الغار ، كما نسج العنكبوت خيوطه، ثم أشار إلى قصة سراقة ، وقصة أم معبد ، واستقبال أهل المدينة له (صلـى الله عليه وسلم) بالبشر والتكبير قائلين (٣) :

الله أكبر هذا النور نورنـــــا

الله أكبر شكرا واهب النعـم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ص١٦ .
(٣) المرجع السابق ص٢٠ .

وانتقل إلى مدح أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوصفهم بأنهم أعزة فى تواضعهم ، شجعان فى حروبهم ، باعوا نفوسهم لله[1] :

ومن يبع نفسه لله فاز بما
يبنيه منه بداريه من النعم

حازوا رضاه ، وعنه قد رضوا وهمو
أحبابه وله أعظم بحبهم

وإذا كانت تلك الأفكار قد أشار إليها معارضو البردة قبل الشيخ الخطيب فإنه قد زاد على من سبقه الوصية باحترام الصحابة وعدم الخوض فيما جرى بينهم من الحروب، ولعله يقصد بذلك ما جرى بين على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان[3] من حرب ، فقال[4] :

إياك إياك خوضا فى شجارهم
فكلهم ذو اجتهاد للثواب نمى

هم شيدوا الدين بل هم بلغوه فمن
رماهمو ضرب الإسلام فى الدعم

إن سالموا بعضهم أو حاربوا فهمو
لله ما فعلوا ، والحكم للحكم

فاحفظ لسانك واحذر أن تحركه
بما يجرك فى داريك للندم

ثم أشار إلى القرآن الكريم، فوصفه بأنه معجزة لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ،إذ معانيه لا تحد ، ولا يمل قارئه ، أضف إلى ذلك أن الله قد حفظه من التبديل والتحريف ويوصي بتلاوته والتمسك به بقوله[5] :

فمل إليه وعنه لاتمل أبدا
وروّ نفسك من سلساله الشبم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .   (٢) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ ق ١ ص ٢١ .
(٤) بشرى العاشقين ص ٢٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٥ .

•• من يتخذه إماما قاده لهدى
ومن يدع أمره فى النار ينقحم

ويتحدث عن فصاحة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التى تشهد بها سنته المطهرة ، ويشير إلى أنها تلى القرآن فى المنزلة ،كما أنها فصلت مجمله ، بقوله [1] :

يا أفصح الناس من بدو وحاضرة
لقد حببت بيانا جامع الكلم
الله أكبر إن الذكر منزلة
أولى ، وقولك يتلو الذكر فى العظم
فصلت بالسنة الغراء مجمله
فكان أدنى الجنى من كف مستلم

ويتحدث عن الشريعة الإسلامية التى ساوت بين الناس ، ولو أن المسلمين طبقوا أحكامها لعصمتهم من الزلل ، ووقتهم شر الفتن والمحن ، فيقول [2] :

والملة السمحة الغراء جئت بها
نورا من الله يجلو داجى الظلم
الناس أجمع فى أحكامها شرع
فذو الثراء كرب الخلة العدم
عمّت وتمّت فلو أن الورى أخذوا
بحكمها لغدوا فى أوثق العصم
هى الدواء لداء الكون أجمعه
والله ما غيرها يشفى من الوصم
إن الدواء عليم الداء قدره
فيه الشفاء لداء الفرد والأمم

وينتقل إلى الحديث عن سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحكيمة التى كانت سببا فى جمع المسلمين بعد تفرقهم — ولعله يشير بذلك إلى

---

(١) المرجع السابق ص٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص٢٧ .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار — فيقول [1] :

يا أكمل الخلق من كل العقول إذا
له أضيفت غدت فى غاية العدم

لو لم يكن منك إلا أن نظمتهمو
بعد التفرق نظم الخط بالقلم

غشد بعضهمو بعضا فلو وقعت
شكاة بعض شكا كل من الألم

ويبين أننا لو اقتدينا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) لحلت مشاكلنا ، وانتشر العدل بيننا ، فيقول [2] :

ولو مشى العصر فى منهاجه لرأى
حل المشاكل ميسورا بغير دم

وعمه نور عدل السلم فانقشعت
غياهب الحرب والإجحاف والظلم

ويستمر فى بيان حسن معاملة الرسول ، من إحسانه إلى المسئ ، ومن عفوه عن الظالم ، ومن لينه فى غير ضعف ، وشدته فى غير عنف ، فكل ذلك كان سببا فى تحويل الأعداء إلى أصدقاء ، والبغضاء إلى محبة .

ويشير الشيخ إلى معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيذكر منها معجزات كثيرة مثل : حنين الجذع ، وتسليم الأشجار والأحجار ، وانشقاق القمر، وإذا كانت هذه المعجزات قد أشار إليها بعض معارض البردة قبل الشيخ فإنه زاد عليهم بعض المعجزات الأخرى مثل : تكثير الطعام القليل ، حتى أكل منه رجال كثيرون [3] . وحلبه الشاة الهزيلة [4] ، وإخبار الذئب عن نبوته (صلى الله عليه وسلم) [5] وكلام الشاة المسمومة له [6] ، وغير ذلك كثير ، بل إن الشيخ

---

(1) المرجع السابق ص٢٨ .
(2) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(3) طبقات ابن سعد ج ١ ق ١ ص١١٧ .
(4) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص١١٨ ، (وهذه الشاة غير شاة أم معبد)
(5) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص١١٤ .
(6) المرجع السابق ج ١ ق ١ ص١١٣ .

قد عد كل فعل الرسول معجزة فقال[1] :

من يبتغى عد آى المصطفى العلم
وكله آية ، فى الفعل ، فى الكلم

فى الوصل فى الهجر فى ضيق وفى سعة
فى الأخذ فى الرد ، فى حرب وفى سلم

فى العفو فى الأخذ ، فى حلم وفى غضب
فى الزهد ، فى الجود فى الإيفاء بالذمم

وانفرد الشيخ بالحديث عن اليهود ، فذكر أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، ويتعاملون بالربا ، وغير ذلك فى قوله[2] :

إن اليهود وقانا الله شرهمو
فى اللؤم قد بلغوا الأقصى من الرقم

كم استطالوا على من أرسلوا سفها
وقتلوهم ، وكم آذوا لربهم

بالمصطفى استفتحوا من قبل مبعثه
وبعده جحدوا المعروف كابنهم

العجل قد عبدوا ، والزور قد شهدوا
والله قد جحدوا ، خاسوا بعهدهم

كم للربا أكلوا ، كم للخنا فعلوا
لم ينه بعضهم بعضا عن الجرم

ولا يخفى أن البيت الثانى يشير إلى قوله تعالى : " .. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[3] " .
كما أن البيت الثالث يلمح إلى مثل قوله تعالى : " .. وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. الآية[4] " والبيت الرابع يشير إلى مثل قوله تعالى : " .. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ

---

(١) بشرى العاشقين ص٢٩ .
(٢) المرجع السابق ص٣٢ ومابعدها .
(٣) البقره / ٦١ .
(٤) المرجع السابق/٨٧ .

الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ .. الآية [1] ".

كما يلمح البيت الخامس إلى قوله تعالى : " وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ .. الآية [2] "، وقوله تعالى : " كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ .. الآية [3] ".

ومهما يكن من شيء ، فإنه انتهز فرصة حديثه عن الربا ، فذكر أنه يفتك بمال الإنسان ، بل أشار إلى أن الله يحارب اثنين : من يتعامل بالربا ، ومن يحارب أولياء الله فقال [4] :

من خال أن الربا يربو الشراء بـه
غر تخيـل أن الشحم في ورم [5]

تراه يربو ولكن في نهايتـه
بالمال يفتك فتك الليث بالغنم

ما حارب الله غير اثنين : رب ربـا
ومن لأحبابه آذى ولم يجـم

ولا يخفى أن البيت الثالث يشير إلى قول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. الآية [6] "، وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي الذي يرويه عن الله (عز وجل) : " من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب - الحديث [7] ".

ثم يتحدث عن زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسر تعددهن ، وإذا كان (باكثير) قد سبق الشيخ في الحديث عن ذلك [8] فإن حديثه كان موجزا ، أما الشيخ فقد فصّل تلك الفكرة ، وأخرس الألسنة ، بحججه القوية ، وبراهينه الساطعة ، فقال [9] :

---

(١) المرجع السابق / ٩٢ (٢) المائدة / ٦٢

(٣) المرجع السابق / ٧٩ . (٤) بشرى العاشقين ص ٣٤ .

(٥) غر (بكسر الغين) الذي لم يجرب الأمور فيسهل خداعه .

(٦) البقرة / ٢٧٨ ، ٢٧٩ . (٧) صحيح البخاري جـ ٨ ص ١٣١

(٨) انظر ص ٤٦١ من هذه الرسالة (٩) بشرى العاشقين ص ٣٥

لله أزواجه اللائى شرفن بـــه
ونلن ما لم تنل أنثى من العظم
قد ضمهن رسول الله فى كنف
ومن يضم رسول الله لا يضــم
أنس لوحشته ، عون لدعوتـــه
بث لشرعته ، أمن من السأم
أحواله ذكرت ، آدابه نشـــرت
أحكامه نقلت للناس كالحكـــم
ما يمنع الغيد أن يعلمن من رجـل
علمن من غادة من غير محتشـم

يبين الشيخ فى تلك الأبيات أن زوجات الرسول كان لهن فضل كبير فى تعليم الناس أمور دينهم – ولعله يقصد بذلك السيدة عائشة بخاصة إذ روت عن الرسول أحاديث كثيرة – وبخاصة فى تعليم النساء الأمور الدينية الخاصة بهن .

ثم ينتقل إلى الرد على ما يثيره أعداء الإسلام من شبه حول تعدد زوجات الرسول فيقول : (١)

قد جاز خمسين عاما وهو مقتصـر
على خديجة ذات الحزم والكـرم
وما ابتغى غيرها حتى قضت كرمـا
وحسن عهد وإحسانا على قـدم
لو أنه لابتغى الأبكار مثل دمـى
د ون الأيام الألى أدنى إلى هرم
لكنه الدين يبغى أن يؤيـــده
ومن يقل فيه لا ينطح سوى الهرم

نعم لو كان زواج الرسول من أجل الشهوة كما يزعم الزاعمون ، فلماذا اقتصر أول أمره على زواج السيدة خديجة ولم يتزوج غيرها إلى أن ماتت

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها .

وكان سنّه إذ ذاك خمسين عاما ، أضف إلى ذلك أن من تزوجهن بعد وفاة السيدة خديجة كان أغلبهن مسنات ثيبات أرامل ، والذى يتزوج لشهوة يختار الجميلات اللائى لم يتزوجن من قبل ، فما رد هؤلاء الأفاكين على تلك الحجة ، بل لماذا لم يتحدثوا عن الأنبياء السابقين ، إذ كان منهم من تزوج مائة وأكثر من ذلك ، كما قيل عن نبى الله داود [1] ونبى الله سليمان [2] (عليهما السلام) ، وهذا ما أشار إليه الشيخ فى قوله : [3]

كم نال داود من أنثى ، وكم ملكت
يدا سليمان من ريم ومن عصم

كما بين حكمة زواجه (صلى الله عليه وسلم) [4] :

وليس منهن إلا من تزوجها
لحكمة لم تكن تخفى على فهم

مكافئا أهلها ، أو عاقدا صلة
بقومها ، أولها مرعية الحرم

أو هادما عادة فى قومه رسخت
والهدم بالفعل فوق الهدم بالكلم

كزينب ، والذى ينص إليه هوى
فيها على رأسه يهوى إلى الحطم

لم يهوها غادة عذراء خالية
فكيف والزوج محبوب إليه نمى

الله زوجها مختارة فقضى
على المعرة فى أنثى دعيهم

إنه يلمح بقوله : (مكافئا أهلها) إلى زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعائشة وحفصة [5] ، وبقوله : (أو عاقدا صلة بقومها) إلى زواجه

---

(١) انظر قصص الأنبياء ج ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٧ .
(٣) بشرى العاشقين ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٥) سبق الحديث عنهما فى ص ٦١١ من هذه الرسالة .

بميمونة[1] وصفية[2] ، وبقوله : (أولها مرعية الحرم) إلى زواجه بسودة وأم سلمة[3] ، كما أشار بقوله : (أوهادها عادة ..) إلى زواجه بزينب بنت جحش[4] لإبطال عادة التبني التي كانت منتشرة عند العرب ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد زوجها المتبناه زيد بن حارثة ، ويشير الشاعر بقوله : (الله زوجها مختارة ..) إلى قوله تعالى : " .. فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا .. الآية[5] " .

كما يشير بقوله : (لم يهوها غادة عذراء خالية ..) إلى ما ذكره المستشرقون الكاذبون ، أن الرسول مرّ ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب فوقع منها في قلبه شيء لجمالها ، فقال: "سبحان مقلب القلوب .. [6] " وقد كذبوا فيما قالوا ، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الذي زوج زينب لزيد ، وهي ابنة عمته ، وربيت بعينه ورعايته ، فكانت معرفته بها قوية [7] ، ولو أرادها لنفسه زوجة ما منعه أحد ، ولكنها الافتراءات الخبيثة ، والادعاءات الكاذبة ، لعن الله من افتراها .

والجدير بالذكر أن الحديث عن السيدة زينب بنت جحش لم يشر إليه أحد ممن عارض البردة قبل الشيخ ، كما أشار إلى فكرة جديدة أيضا في قوله[8] :

وقد منحن نكاح الغير تكرمة

لقدرهن وقدر السيد الفخم[9]

---

(1) هي السيدة : ميمونة بنت الحرث الهلالية ، توفيت سنة ٥١ هـ ، وقيل : غير ذلك (أسد الغابة جـ ٧ ص ٢٧٤) .
(2) هي السيدة : صفية بنت حيي بن أخطب توفيت سنة ٣٦ هـ ، وقيل : غير ذلك (المرجع السابق جـ ٧ ص ١٧١) .
(3) سبق الحديث عنهما في ص ٦٢١ من هذه الرسالة .
(4) هي السيدة / زينب بنت جحش الأسدية توفيت سنة ٢٠ هـ (المرجع السابق جـ ٧ ص ١٢٥) .
(5) الأحزاب/ ٣٧ .
(6) حياة محمد ص ٣١٥ وما بعدها .
(7) المرجع السابق ص ٣٢٢ .
(8) بشرى العاشقين ص ٣٦ .
(9) يلاحظ أن دخول (أل) على لفظ (غير) هنا غير فصيح .

ما كان إيذاؤه منكم وليس لكـم
زواج أزواجه فلتحذروا نقصـى
وحقهن كحق الأم مفتـرض
وإن تزوجن فالزوجات كالخـدم

إن الشيخ يشير فى تلك الأبيات إلى منع زوجات الرسول من الزواج من أحد من بعده ، لأن منزلتهن بمنزلة الأم ، ولعله يشير بقوله : (ما كان إيذاؤه ..) إلى قوله تعالى : " .. وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. الآية [1] " ولمح بقوله : (وحقهن كحق الأم ..) إلى قوله تعالى : " النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. الآية [2] " ثم انتقل الشيخ إلى الإشارة إلى فكرة جديدة أيضا فى قوله [3] :

وما أحل بعدل فوق واحـدة
من الحلائل إلا حل لـلأزم
من زوجة ألمت أو سره سئمـت
أو أنها عقمت أو كان ذا غلـم [4]
إن لم يبح غيرها إن كان متقيـا
لا فى عناء وإلا مال للجـرم
ومن يملهن إن يكثرن فى عـدد
عن الذكور وقد أودى الوفى بهم

إنه يرد على من عاب على الإسلام إباحته للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، فأشار إلى أن ذلك موقوف على العدل بينهن ، ولعله يشير بذلك إلى قوله تعالى : " .. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. الآية [5] " .

---

(١) الأحزاب / ٥٣ .
(٢) المرجع السابق / ٦ .
(٣) بشرى العاشقين ص٣٧ .
(٤) ذا غلم : صاحب الشهوة الشديدة
(٥) النساء / ٣ .

ولقد أحسن الشيخ عندما أشار إلى أن التعدد مع العدل لا غبار عليه وخاصة فى وقت الضرورة مثل : إذا مرضت الزوجة بمرض ، لا تأمل البرء منه ، ولا تستطيع معه القيام بحقوق الزوج ، أو تدبير شئون المنزل ، فهل من المروءة أن يطلقها زوجها ، وهى فى حاجة قصوى إلى الرعاية ، أضف إلى ذلك أنها لو كانت فقيرة وليس لها عائل فماذا تصنع ؟ أليس من الإنصاف أن يبقيها الزوج فى عصمته ويتزوج عليها بمن ترعى بيته ، وتعصمه من الزلل ، وتكفل له الذرية ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله : (من زوجة الست) .

كما أشار بقوله : (أو أنها عقمت) إلى أن التعدد جائز - مع العدل إذا عقمت الزوجة ، واشتاق الرجل إلى ولد يبهج حياته ، فماذا يصنع ؟ أيطلق زوجته التى لا ذنب لها فى العقم - وقد تكون معدمة ولا عائل لها - أم يمسكها ويتزوج بأخرى ؟ أعتقد أن من الإنصاف والوفاء أن يمسك الرجل زوجته ويتزوج بأخرى ، وأما قوله : (أو كان ذا غلم ..) فيشير به إلى سبب آخر يجيز التعدد - مع العدل - وهو إذا كان الزوج شديد الشهوة إلى الجماع وزوجته لها طاقة محدودة ، فإذا لم يتزوج بأخرى ، فإما أن يلجأ إلى الحرام ، وإما أن يلحق الضرر زوجته ، وإما أن يلحقه ضرر إذا كان ذا ورع وتقوى ، والإسلام لا يرضى بالضرر لأحد ، وكذلك قوله : (ومن يصلحهن ..) فيه إشارة لطيفة تبيح التعدد وهى ماذا تصنع الشابات إذا مات كثير من الشباب فى الحرب ؟ أمن الإنصاف أن نتركهن للعبث والفجور أم يباح التعدد ؟ إن أى منصف لو تدبر حكمة التعدد ، ما وسعه إلا أن يقول : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا ورسولا .

لقد عالج الشيخ الفكرة علاجا حاسما ، وأضيف - الباحث - أن التعدد كان قبل الإسلام ، ولم يحرم فى شريعة من الشرائع الإلهية [1] ، وقد ذكرت سابقا أن بعض الأنبياء كان متزوجا بأكثر من واحدة [2] ، ومن فضائل الإسلام أنه أجاز التعدد ولكن مع العدل .

إن الله سبحانه وتعالى قد شرع الزواج لأنه سكن ومودة ، قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً .. الآية [3] » .

---

(١) سماحة الإسلام ص١ ومابعدها ، حقائق الإسلام ص١٦٩ ومابعدها .
(٢) انظر ص ٦٥٢ من هذه الرسالة . (٣) الروم / ٢١ .

فإذا لم توجد الألفة والمحبة بين الزوجين، ووجد الشقاق وعز الوفاق بينهما ، أوليس من العدل أن يتفرقا بالحسنى ؟ ومن أجل ذلك شرع الإسلام الطلاق ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله[1] :

وما الطلاق إذا عز الوفاق سوى
إحدى فضائل هذا الدين والحكم

والجنة البيت فيه العطف من سكن
والنار بيت خلا من فيه عن رأم

إلا أن الإسلام قد حرص كل الحرص على التوفيق بين الزوجين فحث على محاولة الإصلاح بينهما بقوله تعالى : " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا .. الآية[2] .

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن الرق فى الإسلام فذكر أنه كان منتشرا فى كثير من البلاد قبل بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الإسلام قد رغب فى العتق ، فقال[3] :

والرق فى كل صقع كان منتشرا
وكم لمن رق فى ذا العهد من خدم

.. كم حبب الله فى عتق الركاب وكم
أغرى لتكرم بالإنعام والكرم

والجدير بالذكر أن الشاعر (باكثير) قد سبق الشيخ إلى تلك الفكرة ، كما سبقه هو - وغيره أيضا[4] - ممن عارض البردة قبله إلى الحديث عن الحرب فى الإسلام التى قال عنها[5] :

إن الألى زعموا أن الحنيفة قد
نشرت بالسيف هم فى غاية الوهم

الحق بان فمن يبغ الهدى فله
ومن يشأ غيره فى النار ينحطم

---

(١) بشرى العاشقين ص٣٧ .
(٢) النساء / ٣٥ .
(٣) بشرى العاشقين ص٣٨ .
(٤) انظر الشوقيات ج١ ص٢٥١ ، ونظام البردة ص١٠ .
(٥) بشرى العاشقين ص٣٩ .

لقيت فى عشــرة فيهم جهرتبهـــا

والصحب مالا يحد الوصف من ألــم

ولا يخفى أن فى البيت الثانى إشارة إلى قوله : " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. الآية [1] " كما فى البيت الثالث تلميح إلى أن الرسول قد مكث فى مكة عشر سنوات يدعو الناس إلى الإسلام بالحسنى ، ومع ذلك لقى هو وأصحابه من مشركى مكة كل أذى وتعذيب أفلا يدل كل ذلك على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يزعم الزاعمون؟

ثم انتقل الشيخ إلى بيان الطريق الموصل إلى رضا الله سبحانه وتعالى، فنظم بعض النصائح التى قد حث عليها الدين — ولعل الذى دفعه إلى ذلك كثرة أتباعه ومريديه — إذ هو منتسب إلى السادة الشاذلية — ومن ذلك قوله : [2]

يا ناشد الوصل خذ وصف الطريق له

وجدّ فيها عسى تدنو من الحكم

أمسك فؤادك إلا عن تذكـــره

وبيتك الزم وجد بالدمع مثل دم

ولا يخفى أن البيت الثانى يلمح إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) " ... أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك .. [3] " ثم ينصح الشيخ بصدق العزم على طاعة الله ، والاستقامة على الطريق القويم ، والصدق فى المعاملة ، وإخلاص الوجه لله ، ويحث على ملازمة العبادة القائمة على العلم والإخلاص لأهميتهما فيقول [4] :

واعبده بالعلم والإخلاص إنهمـــا

روح العبادة من فعل ومن كلـم

ويتجه إلى التحذيـــر من النفس كما فعل البوصيرى [5] — ولكن بتصـــرف

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) بشرى العاشقين ص ٤٠ .

(٣) انظر ص ١٠٩ من هذه الرسالة .

(٤) بشرى العاشقين ص ٤٠ .

(٥) انظر ص ١٠٢ من هذه الرسالة .

جميل — فيقول [١] :

وخالف النفس واحذر مكرها أبـــدا
فقد تدس وحى السم فى الدســـم

وأعطها حظها المشروع تقـوبـــه
على المسـير ، وإن تحسمه ينحسم

ثم يحذر من الدنيـا وفتنتها — كما فعل شوقى [٢] — فيقول مع تصرفـــه تصرفا طيبا [٣] :

ولا تغرنك الدنيا وبهجتهـــا
فإنها والذى فيها إلى عـدم

هى المتاع قليلا فانيا ، أبـــه
تبيع حظك فى الأخرى من النعم؟

ويذكر أن علاج قسوة القلب هو التأمل فى القبور ومن فيها فيقول [٤] :

وإن قسا القلب فالأجداث موعظـــة
بها ترق وتهمى عبرة النــدم

إذا تأملت من فيها فلست تـــرى
مفرقا بين صيد الناس والخـــدم

وينتقل إلى بيان علو مكانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفعة شأنـــه ولعله نظر إلى قول البوصيرى [٥] :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهـم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فقال [٦] :

إذا تعديت وصف الواحد الحكـم
فصف بما شئـت رب الحكم والحكـم

---

(١) بشرى العاشقين ص ٤٠ .
(٢) انظر الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٣) بشرى العاشقين ص ٤١ .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٥) انظر ص ٦ ١٢ من هذه الرسالة .
(٦) بشرى العاشقين ص ٤٢ .

ولو جمعت بنى الإنسان مبتغيـــا
وصف النبى وما فيــه من الشيــم
.. وحاولوا مدحه ما كان ما بلغـــوا
إلا خيال السها فى الماء فى الظلم

ويشــير إلى شفاعته (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، يوم يتزاحم الناس وتقترب الشمس من الرؤوس فيقول [١] :

سبحان من خص يوم العرض أحمــده
بعرض جاه وفضل باذخ سنم
تزاحم الناس ، جم الذعر ، عم أذى
سال الحميـم إلى أن صار كاللجم
وازدادت الشمس حرا صاهرا وغدت
من الرءوس كقاب القوس فى الكتم
وقد تمنوا من اللأواء منصرفــــا
إلى الحساب ولو يفضى إلى الحطم

ثم يشــير إلى ذهاب الناس إلى الأنبياء كى يشفعوا لهم ، فيقــول كل منهم : نفسى نفسى إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول : أنا لها أنا لهــا ، كما ورد فى حديث الشفاعة [٢] ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله [٣] :

فكلهم قال نفسى مبديا أسفـــا
إن الذى رمتموه دونه قدمــى
وإن بغوا من إمام الرسل شافعهم
أجاب : إنى بها الموعود من قــدم
وراح يسجد تحت العرش يحمد من
له المحامد حمدا جل عن نســم
فنودى ارفع وقل يسمع وسلن تنــل
واشفع تشفع فأنت الحب ذو الهمم

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .
(٢) انظر ص ٢٠٩ من هذه الرسالة .
(٣) بشرى العاشقين ص ٤٣ .

ويتحدث عن حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى يَرِده المؤمنون من أمته يوم القيامة، فيقول [1] :

يا صاحب الحوض يوم الحشر أبيض من
در وأطيب من مسك لدى شمم

.. عليه أمتك الغـــراء واردة
وغيرها ذيد ذود الضرب من نعم [2]

ويتوسل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله [3] :

يا ذا الوسيلة إنى قد تخذتك لى
وسيلة يوم ألقى سوء مجترمى

أنا المفرط فيما قد أمرت به
وأنت لى فرط فانشلن من شجم

إن لم تكن لى ومالى من ألوذ به
سوى الحبيب فمن لى يا أبا الكرم؟

ثم يدعو الله تعالى، طالبا غفران ذنبه ، وتيسير أمره فيقول [4] :

يا غافر الذنب يارب العباد ويا
رحمن يابر جد بالبر والرحم

واغفر لنا ما مضى والطف بنا ولنا
يسر طريقك واجعلنا ذوى همم

ويبشر محبى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم سيكرمون ، ويطلب منهم أن يمدحوه (صلى الله عليه وسلم) ويسيروا على نهجه ، فيقول [5] :

بشرى لكم عاشقى المختار أنكمو
مجاوروه غدا فى ساحة الكرم

بالله ربكمو أثنوا عليه معى
وتابعوا نهجه وامشوا على القدم

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٢) الضرب : المراد الضريب .
(٣) بشرى المشتاقين ص ٤٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٨ .

وأيدوا شرعه تأييــده تجـــــــدوا
فتحــا ونصــرا وتأييــدا من الحكـــم

ويبين أن المحب الحقيقي هو الذي يؤدي الفرائض ولا يضيعها ، كمــا يؤدي النوافل أيضا فيقول [1] :

ليس المحــب الــذي يلقــى أوامر مـــن
أحبــه ومــتى يحسمه يقتحـــم
بل المحب الذي يقضــى نوافلـــــه
قضــاء مفروضــه والنهى لم يـــرم

ويتوسل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكه معه في الاســـم كما فعل ذلك بعض معارضي البردة قبله [2] ، إلا أنه زاد عليهم ما يؤكد حبه إذ سمى أولاده بأسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول [3] :

محمد قــد دعاني والـــدى وبـــه
أدعو بني ، أرجى حسن فعلهـم
محمد ، مصطفى ، محمود ،أحمد ، لـــــى
نســل ، وكلهمو باسم الرسول سمــى
وما دعانا لذا إلا الوداد ... ، وأن
نلقى بيمنـــك أمنا يوم مــــزدحم

ثم يختم قصيدته بالبشرى التي بدأها بها ، طالبا المغفرة لشيوخــه وتلاميذه ، ولمن أحبه ، ولمن قلاه ، كما يدعو الله ، طالبا منه (سبحانه وتعالى) الصلاة والسلام على رسول الله وشيعته فيقول [4] :

بشــرى لنا معشــر العشــاق من قــدم
فقد بلغنا إمام العرب والعجـــم
يا ربنا بخطيب الأنبياء أنــــــــل
ابن الخطيب رضاء غير منجـــــزم

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها . (٢) انظر ص٢٠٤ من هذه الرسالــة ، وكشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٤٦ ، الشوقيات جـ١ ص٢٤٩ ، النفحة الأحمدية ص ٣٨ وديوان الحملاوي جـ ١ ص١٤٣ ، قريتي ص ٤٢ .
(٣) بشرى العاشقين ص٤٨ . (٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

واغفر لأشياخه والتابعين ومن
أحبه أو قلاه وارأف بهم

وصل رب على داعه وشيعته
سلما وأنلنا حسن مختتم

وبعد : فإن معارضة (بشرى العاشقين) قد فاقت كل المعارضات التى سبقتها فى عدد الأبيات ، كما اشتركت معها فى بعض الأفكار ، وزادت عليها فى أفكار أخرى مثل : الإشارة إلى وفاة والد الرسول ، والرسول فى بطن أمه ، ووفاة والدته وهو ابن ست سنوات ، وكفالة جده عبد المطلب إياه ، ثم كفالة عمه أبى طالب ، والنهى عن الخوض فيما جرى بين بعض الصحابه من حروب ، والحديث عن اليهود وما اتصفوا به من غدر وقبح ، أضف إلى ذلك الدفاع عن بعض الشبهات التى أثارها أعداء الإسلام مثل : تعدد الزوجات فى الإسلام ، ومشروعية الطلاق ، كما زاد الشيخ بيان الطريق إلى الله والحث على أداء الفرائض والنوافل .

المعارضة السابعة : (السعيدية فى مدح خير البرية)

وأما المعارضة السابعة فهى معارضة الشاعر : محمد السعيد عبد القادر برج المولود سنة ١٩٢٣ فى (نواج) — إحدى قرى مركز طنطا بمحافظة الغربية —

ولقد نشأ فى قريته ، ولما نما جسمه دخل الكتاب فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بمعهد طنطا الدينى ، ولما أكمل المرحلة الثانوية ، دخل كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٤٤ ، وتخرج فيها سنة ١٩٤٨ ثم التحق بمعهد التربية العالى بالإسكندرية سنة ١٩٥٠ ، وعمل مدرسا بالمدارس الابتدائية فالإعدادية ، ثم الثانوية إلى أن عين موجه قسم سنة ١٩٦٨

شاعريته :

ولقد نظم الشعر وهو طالب فى التعليم الثانوى ، ساعده على ذلك حفظه كثيرا من قصائد الشعراء العرب وخاصة شوقى وحافظ ، والجدير بالذكر أنه قال فى كل أغراض الشعر تقريبا [1] ، ولما اتصل بشيخه الشيخ محمد خليل الخطيب

---

(١) هذه المعلومات من الشاعر نفسه .

صاحب المعارضة السادسة ـ قصر شعره على مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأول قصيدة مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) هى قصيدته المحمدية التي ما زالت مخطوطة عنده ومطلعها :

محمد نعمة من واهب النعم
محمد سيد الكونين من قدم

وهى على نهج قصيدة البوصيرى التى تسمى المحمدية أيضا ومطلعها (١) :

محمد أشرف الأعراب والعجم
محمد خير من يمشى على قدم

وعندما أعطاه شيخه قصيدة (بشرى العاشقين) وقرأها فكر فى إنشاء قصيدة على نهج البردة (٢) ، فكانت معارضته (السعيدية فى مدح خير البرية) التى نظمها سنة ١٩٦٩م ، وبلغ عدد أبياتها ثمانية عشر وخمسمائة بيت تقريبا ، والجدير بالذكر أيضا أنه قد تأثر فى نظمها بقصيدة الشيخ الخطيب ، كما يرجع إليه الفضل فى تسميتها باعتراف ناظمها نفسه . (٣)

ولقد بدأها الشاعر بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله فقال (٤) :

الحمد لله رب العرش والقلم
من أرسل الرسل بالآيات والحكم

ثم الصلاة على من نور طلعته
أبهى من البدر فى داج من الظلم

محمد خير خلق الله قاطبة
وأفضل الناس من عرب ومن عجم

ثم أشار إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحسن خلقه ، وغزير علمه ، وبين عجزه عن مدحه مدحا يليق بمقامه الكبير فقال (٥) :

ففضل طه محيط ليس يحصره
شط فكيف يوفى قدره كلمى ؟

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٢٢٦ .
(٢) محمد السعيد برج : السعيدية فى مدح خير البرية ص ٥ مطبعة السماح الكبرى بطنطا سنة ١٩٧٠ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ص ٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٩ .

ويشير إلى حالة العالم قبل مولده (صلى الله عليه وسلم) ولكنه لم يزد على ما قاله معارضو البردة قبله ، فالظلم منتشر ، والناس يعبدون الأصنام ويشربون الخمر ، وقيصر الروم وكسرى فارس كل منهما يتحكم فى رعيته ، وظل الحال على ذلك حتى ظهر نور النبى (صلى الله عليه وسلم) فانقشع الظلام ، وهذا ما أشار إليه الشاعر بقوله[1] :

حتى أتى خير خلق الله قاطبة

فأشرق الفجر يمحو حلكة العتم

وزلزل البغى واندكت معالمه

والظلم صار جريحا بادى الألم

كما ذكر أن إيوان كسرى قد تصدع ، وأن دولة الروم قد دالت ، وأن ساوة قد غاضت بحيرتها ، وغير ذلك من الأحداث التى أشار إليها معارضو البردة قبل الشاعر إلا أنه زاد الإشارة إلى خيبة أبرهة ، الذى أتى ليهدم الكعبة فى العام الذى ولد فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال[2] :

فى عام مولده قد خاب أبرهة

وأشرب الذل فى كأس من الندم

ثم أشار إلى شق صدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو صغير فقال[3] :

قد شق ربى صدر الطهر فى صغر

فاعجب لشق بلا نصل ولا ألم

وأودع الله فيه حكمة وتقى

فصدر أحمد كنز العلم والحكم

فيه السماحة فى أحلى مظاهرها

وفى حناياه علم البدء والختم

يستمر الشاعر فى الإشارة إلى فضل الله على رسوله ثم يتحدث عن نشأته وأخلاقه فيقول[4] :

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ص ١٤ .

قد شب عفا تقيا طاهرا ورعـــا

موشحا بسنا الأخلاق والعصـــم

.. عفا أمينا نقى القلب متصفـــا

بالصبر والحلم والإحسان والكرم

وينظر إلى قول شوقى :(١)

خططت للدين والدنيا علومهمـــا

ياقارئ اللوح بل يالامس القلـم

فيخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أخذ الشطر الأول ، قائلا(٢) :

خططت للدين والدنيا علومهمـــا

ياذروة المجد بل ياقمة الشمـــم

ويواصل مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيشـير إلى صبره وعفوه وشجاعته وكرمه، ثم ينظر إلى قول البوصيرى : (فمبلغ العلم فيه أنه بشر..(٣)) فيأخـــذه ويقول(٤) :

فمبلغ العلم فيـه أنـــه بشـــر

وأنه بلسم شاف لذى سقـم

وينتقل إلى الحديث عن الإسراء والمعراج ، ولكنه ينظر إلى سابقيه من أصحاب المعارضات ــ وخاصة شوقى ــ فيقول(٥) :

أسرى به الله والأمـلاك تخدمـــه

والله يرعاه من حرم إلى حـــرم

حتى أتى المسجد الأقصى فشرفـــه

والرسل قد وقفوا فى موكب فخـم

ثم ينظر إلى قول الشيخ الخطيب(٦) :

وقد تأخر جبريل هتفت بـــــه

أيترك الخل من يهواه فى زأم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٨.

(٢) السميدية ص ١٥.

(٣) انظر ص ١٢٩ من هذه الرسالة .

(٤) السميدية ص ١٥.

(٥) المرجع السابق ص ١٧.

(٦) بشرى العاشقين ص ١٤.

فقال ذا موضعى لو قـدر أنملـة
جاوزته كنت بالأنوار ذا عـدم

فيقول [1] :

جبريل فوق ضفاف النور منتظـر
يقول هذا مكان دونه قدمـى
كل له عند رب العرش منزلـة
فإن علاها بنور الحق ينعـدم

ويبدو أنه قصّـر عن شيخه ، وخاصة أن الشيخ قد أشار إلى الخلة وهـى تقتضى الصاحبة.

ثم يشيـر إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيتحدث عن مؤامـرة قريش على قتل الرسول ، ولكن الله يأمره بالهجرة، فيخرج من بيته والكفار يحيطون به ولكنهم [2] :

لم يبصروا المصطفى ، فالله يحرسـه
ومن يكن فى رحاب الله لم يضـم

كما يتحدث عن الغار ، والحمامتين ، والعنكبوت ، ويشير إلى قصة سراقة ، واستقبال أهل المدينة للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالبشر والتكبير [3]:

ويثرب هزها شوق لرؤيتـه
فرددت مرحبا ياكاشف الظلـم
وألسن الحال قد صاحت مهللـة
الله أكبر دالت دولة الصنـم

ولا يخفى أن الشاعر قد نظر فى بيتيه إلى قول الشيخ الخطيب [4] :

وحينما أبصروا خير الورى هتفـوا
الله أكبر هذا كاشف الظلـم

---

(١) السعيدية ص١٧.
(٢) المرجع السابق ص ١٩.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠.
(٤) بشرى العاشقين ص ٢٠.

ولكنه تصرف فيما نظر إليه تصرفا حسنا ، كما هو واضح .

ثم أشار الشاعر إلى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمدحهم بالشجاعة والثبات والكرم[١] :

هم الجبال ثباتا ، والبحر نـدى

هم البدور سنا أعظم بضوئهـم

.. كم جاهدوا فى سبيل الله فانتصروا

إن الجهاد طريق النصر من قـدم

كما ذكر أنهم رهبان بالليل وفرسان فى النهار ، باعوا أنفسهم فى سبيل اللـه ، .. واستمر فـى مدحهم حتى انتقل إلى الحديث عن موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أهل مكة عند ما فتحها وعفا عنهم قائلا[٢] :

ماذا تظنون أنى فاعل بكـم ؟

قالوا : أخ يأسر الأعداء بالرأم

فقلت ما قاله الصديق ، فانطلقوا

فأنتم اليوم أحرار بلا جـرم

لله أنت فكم أحسنت محتسبا

إلى الأعادى وهذا منتهى الكرم

ولا يخفى أن الشاعر يشير بقوله : (فقلت ما قاله الصديق ..) إلى قـول الله تعالى على لسان نبيه يوسف (عليه السلام) عند ما قال لإخوته : " .. لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[٣] ".

ثم تحدث عن القرآن الكريم فذكر أن آياته مفصلة ، ولا يستطيع أحـد أن يعارضها ، كما حث على تلاوته بقوله[٤] :

إذا أردت غنى الدنيا وضرتهـا

فروّ نفسك من سلساله الشبـم

والجدير بالذكر أن الشطر الثانى هو من قول الشيخ الخطيب[٥] :

---

(١) السعيدية ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) يوسف / ٩٢ .

(٤) السعيدية ص ٢٣ .

(٥) بشرى العاشقين ص ٢٥ .

فمل إليه وعنه لا تمل أبـــدا
ورِّ نفسك من سلساله الشيـــم

ويشير إلى سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبينا فصاحته (عليه الصلاة والسلام) فيقول [1]:

يا أفصح الناس باديهم وحاضرهم
أعطاك ربك قولا جامع الكلم

فصّلت ما فى كتاب اللـــه من درر
بالقول والفعل والتوجيه والحكم

ولا يخفى أن الشاعر قد نظر إلى قول شيخه [2]:

يا أفصح الناس من بـــدو وحاضـــرة
لقد حييت بيانا جامع الكلـــم

ويتحدث عن الدين الإسلامى الحنيف، مشيرا إلى أنه يحث على العـــدل والصدق والبر ، والحب ، والرحمة ، وأنه جعل الناس سواسية ، لا فضل بينهـــم إلا بالتقوى، ويبين أن فى اتباع الدين علاجا للمشاكل ، ورنمة وسؤددا [3]:

فالدين ترياق ما فى الكون من علـل
والدين يشفى عضال الداء والسقم

لو طبق الناس رأى الدين لامتلكـــوا
أزمة المجد واقتادوا سنا النجـــم

وينتقل إلى الحديث عن معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيشير إلى أنها كثيرة لا حصر لها بقوله [4]:

كم معجزات لخير الخلق قاطبة
فاقت نجوم السماء فى العد والرقم

---

(١) السعيدية ص ٢٤ .
(٢) بشرى العاشقين ص ٢٦ .
(٣) السعيدية ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها .

ثم يذكر منها ، تسليم الأحجار والأشجار ، وحنين الجذع ، وانشقاق القمر ، وتظليل الغمامة ، وغير ذلك مما أشار إليه معارضو البردة قبله .

ويتكلم على الحرب في الإسلام ، ويبين كذب من يقول إن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، ويشير إلى أن الحرب شرعت لحماية الدين وصيانة العرض ، ورد الظلم ، بقوله [1] :

فالحرب قد شرعت تحمي الديانة من
ظلم وتمنع هتك العرض والحرم

ثم يتحدث عن شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، ويذكر أيضا ذهاب الناس إلى الأنبياء طالبين منهم أن يتشفعوا لهم ، ولكن كل واحد منهم يقول : نفسي نفسي ، إلا محمداً (صلى الله عليه وسلم) فيطلب من الله الشفاعة فيشفعه الله ، وينيله سؤاله [2] :

فقال أحمد ما يخفى ولا عجب
فإنه حب رب واسع الكرم

ثم يتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) كي يشفع له يوم القيامة بقوله : [3]

فكن شفيعي يوم الحشر يا أملي
ففي يديك لواء الحمد والكرم

ولا يخفى أن في قوله : (ففي يديك لواء الحمد ..) إشارة إلى قول الرسول : " .. وبيدي لواء الحمد ولا فخر .. " [4] .

ثم يتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) طالبا غفران ذنبه ، وذنب المسلمين [5] :

فاغفر ذنوبي يارب الورى كرما
بجاه أحمد يا وهاب للنعم

---

(1) المرجع السابق ص ٢٧ .
(2) المرجع السابق ص ٢٨ .
(3) المرجع السابق ص ٢٩ .
(4) انظر ص ١٢٠ من هذه الرسالة .
(5) السعيدية ص ٢٦ .

واغفر ذنوب جميع المسلمين فهم
أتباع طه إمام العرب والعجم

ويختم قصيدته بالصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[1] :

رباه صل وسلم كل ثانية
على الشفيع، وهبنا حسن مختتم

وبعد ... :

فإن معارضة (الدعيدية) على الرغم من طولها، قد قلت أفكارها الجديدة ، كما ظهر فيها تأثر ناظمها بأصحاب معارضات البردة الذين سبقوه، وبخاصة الشيخ الخطيب.

ومهما يكن من شيء، فإن معارضات البردة في العصر الحديث كثيرة ، وليس في الإمكان حصرها والحديث عنها كلها .

ولذلك اكتفيت بذكر إحدى عشرة معارضة ظهرت فيها آثار قيمة سأشير إليها في الفصل التالي .. إن شاء الله

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠.

الفصل الثاني

أثر معارضات البردة بعد شوقي

بعدما وقفت – في الفصل السابق – مع بعض معارضات البردة بعد شوقي ، وبينت أهم الأفكار الجديدة التي قد اشتملت عليها ، يمكنني أن أشير – في هذا الفصل – إلى أهم آثار تلك المعارضات التي تتلخص فيما يأتي :

١ – إنها تشير إلى أن معظم ناظميها قد تأثروا في نظمهم إياها بظروف العصر ، ولذلك لم يبدأوها بالغزل ، وإذا كان بعضهم – وهو قليل – قد بدأها بالغزل ، فإن أبيات غزلهم كانت لا تتعدى أصابع اليد ، بالإضافة إلى أن ذلك الغزل قد بعد عن الأوصاف المادية والتشبيهات الحسية .وترى ذلك واضحا في معارضة عبد المطلب[1] ، ومعارضة باكثير [2] ، ومعارضة محمود جبر [3] ، وإذا قارنت بين غزل شوقي في نهجه ، وغزل هؤلاء في معارضاتهم ، وجدت غزلهم في إشارة خفيفة ، وعبارة عفيفة ، أما غزل شوقي فقد استغرق أربعا وعشرين بيتا ، بالإضافة إلى ما اشتمل عليه من تشبيهات لا يصح ذكرها في قصيدة يمدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك لم يرض صاحب (النفحة الأحمدية) عن هذا المسلك فقال في مطلع قصيدته [4] :

دع ذكر ريم وذكرى البان والعلم

وانهض لذكر ربيع الناس والحرم

ويبدو أن الشيخ الخطيب أراد أن يلبي طلب صاحب النفحة الأحمدية فقال في مطلع معارضته [5] :

بشرى لنا معشر العشاق من قدم

فقد بلغنا إمام العرب والعجم

---

(١) ديوانه ص ٢٥٧ .

(٢) نظام البردة ص ٣ .

(٣) قربتي ص ١٠٢ .

(٤) النفحة الأحمدية ص ٤ .

(٥) بشرى العاشقين ص ٣ .

ويأتى صاحب (السعيدية) فيبدأ معارضته بمطلع أشبه بمطالع المتون إلا أنه أحسن حالا ممن بدأها بالغزل فيقول :[1]

الحمد لله رب العرش والقلم
من أرسل الرسل بالآيات والحكم

٢- إنها تؤكد ما ذكرته سابقا من وجود الملحمة فى الشعر العربى[2] : وبخاصة بعد أن بلغت قصيدة (الخطيب) ثلاثة وستين وخمسمائة بيت تقريبا ، بل يمكن أن نستخرج من معارضات البردة قبل شوقى وبعده (ملحمة عربية) بحذف الأفكار المكرورة ، وضم الأفكار الجديدة من كل قصيدة[3] ، فتصبح لدينا قصيدة واحدة من بحر واحد وقافية واحدة ، " وليس بشرط - كما قال بعض الكتاب - أن تأتى مطابقة لما توارثه الناس من ملاحم إغريقية ورومانية ، فإن لكل شعب طابعه الخاص الذى يميز عمله من عمل غيره من الشعوب الأخرى[4] ".

٣- إنها قد فندت كثيرا من الشبهات التى أثارها أعداء الإسلام ، وإذا كان شوقى قد أشار فى نهجه إلى شبهة انتشار الإسلام بالسيف ، وكشف زيفها ، كما أشار إلى حضارة الإسلام ، فإن أصحاب معارضات البردة من بعده ، قد أكدوا ما ذكره ، وفصلوا ما أجمله[5]، وزادوا عليه :

أ - الرد على شبهة تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع بيان الحكمة من هذا التعدد،بالإضافة إلى الإشارة إلى تحريم زواج زوجات الرسول من أحد من بعده[6]

ب - الرد على شبهة تعدد الزوجات فى الإسلام ، وبيان الحكمة من ذلك ، والإشارة إلى أن التعدد كان موجودا فى الشرائع السابقة ولم تحرمه أى شريعة ، ولما جاء الإسلام أكد جوازه مع العدل

---

(١) السعيدية ص ٩ . (٢) انظر ص٤٨٣ من هذه الرسالة .
(٣) الملحمة فى الشعر العربى ص ٤ .
(٤) مجلة الثقافة ص٧٣ من العدد (٣٦) سنة ١٩٧٦ .
(٥) الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ ، ونظام البردة ص ١٠ وبشرى العاشقين ص ٣٩ .
(٦) نظام البردة ص٧ ، وبشرى العاشقين ص٣٦ .

بين الزوجات[1] ، ثم حدده بأربع نسوة فحسب ، والإشارة إلى حقوق المرأة فى الإسلام[2] .

جـ ـ الرد على شبهة مشروعية الطلاق فى الإسلام[3] ، مع بيان الهدف منه ، ومتى يقدم الزوج عليه .

د ـ الرد على شبهة وجود الرق فى الإسلام ، ببيان أنه كان موجودا فى الأمم السابقة ، وللإسلام الفضل فى العمل على القضاء عليه ، بما شرعه من كفارات وغيرها[4] .

هـ ـ الرد على منكرى الإسراء والمعراج[5] .

٤ ـ إن معارضات البردة بعد شوقى ـ بالإضافة إلى معارضاتها قبل شوقى ـ قد ساعدت على البحث فى كتب اللغة ومعاجمها التماسا للقوافى ـ وخاصة إذا كانت القصيدة طويلة النفس ـ فأحيت بذلك ألفاظا كادت تزهق ، كما ظهرت فيها معان جديدة اقتبست من القرآن الكريم والسنة النبوية[6] .

٥ ـ إنها قد أفادت الأدب العربى ، نموا واتساعا ، وتجديدا وابتداعا ، وأضافت إليه ثروة رائعة من بديع الخيال ، وجزالة الأسلوب ، وسمو التعبير ، وإذا كانت تلك المعارضات قد ظهر فى بعضها السرد التاريخى ، أو ضعف العبارة ، فلعل ابن خلدون كان يشير إلى سبب ذلك بقوله : " .. ولهذا كان الشعر فى الإلهيات والنبويات قليل الإجادة فى الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول ، لأن معانيها متداولة بين الجمهور ، فتصير مبتذلة لذلك ... [7] " وعلق أحد الكتاب على ذلك بقوله : " وهذا صادق فى كثير من الشعر الدينى والملمى ،

---

(١) بشرى العاشقين ص٣٧ .   (٢) نظام البردة ص ١١ .
(٣) بشرى العاشقين ص٣٧ .
(٤) نظام البردة ص ١١ وبشرى العاشقين ص ٣٨ .
(٥) قوتى ص٣١ وبشرى العاشقين ص١٦ .
(٦) انظر ص٣٥٧ وما بعدها و ص ٥٢١ من هذه الرسالة .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٠ .

لأن حقائق الدين وحقائق العلم غير متفاوتة ، فلا يجد الشاعر فيهما مجالا للمبالغة والتوسع ، وغيرهما ، مما يقوم عليه الشعر ، ويتفاوت فيه الشعراء .. والدينيات حقائق لا يبدل فيها الشعر ولايغير ، والنبويات .. لا مجال فيها للمبالغة والإغراق .. لأن الموضوع الذى يتناوله الشاعر فى النبويات : السيرة والمدح ، والسيرة تاريخ وعلم ، والمديح النبوى أوصاف تمليها المحبة ، ولكنها مقيدة .. [1] ، وأرى أن ذلك القول صحيح ، ولكنه مع ذلك لا يمنع من إجادة الشاعر فى عبارته ، وإبداعه فى طريقة تناوله لفكرته .

٦ـ ومهما يكن من شىء فإن تلك المعارضات لم تخل من أفكار جديدة .. ، وعبارات فريدة ، وعاطفة جياشة ، تدل على أن بعض المعارضات الشعرية (بعامة) ومعارضات البردة ـ بخاصة ـ ليست كلها انفعالا ذهنيا يدل على التقليد والمحاذاة ـ فحسب ـ ولا ينبىء عن أصالة ومقدرة ، تدفع الشاعر إلى تسجيل خواطره بعد اتباع وترسم ، كما يشير إلى ذلك الدكتور أحمد زكى أبو شادى بقوله : " ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح فى شىء ، بل هو محض صناعة ، والشعر قبل كل شىء عاطفة فكرية عميقة الجذور ، لا بهرج سطحى زائف ... [2] " .

ولقد فات صاحب هذا الرأى ـ كما قال بعض الكتاب ـ أن يعلم أن من المعارضات ما يعمد الشاعر فيها إلى التسابق الأدبى ، ليثبت تفوقه الشاعرى دون أن يمس الموضوع صداه الوجدانى ، أو يفيض به إحساسه الداخلى ، فيلجأ إلى الاصطياد الذهنى محاولا إثبات براعته ، وهذا الضرب من المعارضة يصدق عليه حكم الدكتور حين يصفه بمحض الصناعة ذات البهرج السطحى الزائف .

أما المعارضة التى تأتى عن طريق هيام الشاعر بموضوع القصيدة وإحساسه الصادق بتياراتها الوجدانية ، وخضوعه العاطفى لمعانيها المتصلة بأيمانه ومثله ، فتلك معارضة تجد روافدها الصافية من أعذب

---

(١) طراز البردة جـ ١ ص ٥ ومابعدها بتصرف .
(٢) مجلة أدبى جـ ٢ ص ٢١٤ سنة ١٩٣٦ .

موارد النفس ، والشاعر حين يندفع إلى النظم فى ميدان إنما يستمد وقوده من جيشان عاطفته ، وحرارة شعوره ، فهو حينئذ ينقل عن موج يتلاطم فى صدره بأصدق التيارات ، وكأن القصيدة التى يحاول معارضتها كانت لشدة لصوقها بقلبه مفتاحا أدارة الشاعر فى صدره فانفرج عن ساحات غامرة الأبهاء ، رائعة الأضواء ، وهذا ما كان من أكثر معارضى بردة البوصيرى[1] ، إذ أن حبهم الصادق ، لنبى الإسلام كان يتوقد فى جوانحهم توقدا يتطلب التنفيس ، وقد رأوا فى قصيدة البوصيرى طريقا يقود إلى التعبير عن هذه المواطف المتأججة فسلكوه ، وأرضوا بذلك حاجة وجدانية قاهرة ، حين تخففوا بالتعبير الشعرى عن بعض ما يحملون من جذوات الحنين ...[2] مما يدل على أن معظم هذه المعارضات معارضات أصيلة لاتعتمد التلفيق الذهنى ، وإنما هى حنين قلب يتحدث وإحساس يفيض ، وإن تفاوت ذاك الحنين وذلك الإحساس .

٧ ـ إنها بما اشتملت عليه من أفكار جديدة ـ انفردت بها كل معارضة ـ تقريبا ـ دون غيرها[3] ـ تدل على أن المعارضة فى ذاتها لا تتنافى مع الأصالة ، " ولا تسلب الشاعر عنصر الذاتية ـ كما قال بعض الكتاب ـ لأن الأصالة والذاتية لا تعنى تفرد الإنسان بعمله وانقطاعه عن كل من سبقه أو صاحبه ، ولكن تعنى الانبثاق من ذات الشاعر وذات الشاعر كذات كل إنسان مرتبطة تمام الارتباط بمجرى الحياة من حولها ، متأثرة كل التأثر بجميع ما يقع أمامها من صور ومشاهدات[4] " . ولذلك أشار ابن رشيق إلى أن " اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز وتركه كل معنى سبق إليه جهل ، ولكن المختار له .. أوسط الحالات[5] " . ومما يؤكد ذلك أننا رأينا البارودى قد انفرد بالإشارة التفصيلية إلى غزوات الرسول وسراياه[6] ، وكذلك انفرد شوقى بسبقه إلى الحديث عن جهاد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مفندا شبهة انتشار الإسلام

---

(١) انظر كشف الغمة ص٤٦ ، والشوقيات جـ ١ ص٢٤٤ ، والنفحة الأحمدية ص٢٥ ، قريتى ص٣٧ ، بشرى العاشقين ص٤٨ .

(٢) النصوص الأدبية فى العصر الحديث ص١١٣ . (٣) انظر ص٥٧١ ، ٥٨٩ ، ٦٣٠ ، ٦٦٢ من هذه الرسالة . (٤) المعارضة فى شعر شوقى ص٤١ . (٥) العمدة جـ٢ ص٢٨١ .

(٦) انظر كشف الغمة ص٢٥ وما بعدها .

بالسيف ، وانفرد كذلك يسبقه إلى الحديث عن الحضارة الإسلامية [١] ، كما انفرد باكثير بالحديث عن رسالة المسجد ، وسبق إلى تفنيد مزاعم أعداء الإسلام حول تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وحول الرق فى الإسلام ، أضف إلى ذلك بيانه ما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق لم تحصل عليها المرأة الأوربية ، التى تفتخر بالحضارة والمدنية [٢] وانفرد الشيخ الخطيب بتفنيد شبهة جواز تعدد الزوجات فى الإسلام ومشروعية الطلاق فى الإسلام ، وبيان الطريق إلى الله [٣] .

وليس معنى ذلك أن كل معارضات البردة فى العصر الحديث قد بلغت حد الجودة والإتقان ، بل منها ما غلب عليه التقليد والمتابعة مثل معارضة (السعيدية) التى تابع فيها صاحبها معارضة (بشرى العاشقين) — لشيخه الشيخ الخطيب — بخاصة ، وغيرها بعامة ، ومنها ما ظهر فيها ضعف العبارة ، وقلة الأفكار مثل: معارضتى الدرويش والتيمورية ، وهذا يؤكد أن المعارضة فى نفسها لا تغنى عن القصيدة الرديئة شيئا ، كما لا تغض من القصيدة الجيدة شيئا [٤] .

٨ — إنها بتناولها ما اشتملت عليه من الأفكار ، وما تضمنته من المعانى بالتفصيل والإجمال وغير ذلك — ترد على من قال : " إن المعارضة لون من ألوان السرقة ، بيد أنها تمتاز عن السرقة حين يراد بها أخذ اللفظ والتعبير فحسب ، أما مطلق السرقة فهو صادق على المعارضة . " [٥] ولا يخفى أن ما يؤكد بُعد معارضات البردة عن السرقة أن معظم ناظميها — إن لم يكن كلهم — قد أشاروا إلى تأثرهم فيها ببردة البوصيرى وغيرها من معارضاتها [٦] وهذه الإشارة تنفى السرقة عن أصحابها لقول بعض النقاد إن السرقة : " انتحال عمل الغير مع تجاهل صاحبه . " [٧] .

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص٢٥١ ومابعدها . (٢) نظام البردة ص٥ ، ٧ ، ١١ .
(٣) بشرى العاشقين ص١٦ ، ٣٧ ، ٤٠ . (٤) الأخلاق فى شعر شوقى ص٣٧ .
(٥) المعارضة فى شعر شوقى ص٣١ .
(٦) انظر ص٢٠٥ ، ٥٣٤ ، ٦١٢ ، ٦٣٨ من هذه الرسالة .
(٧) السرقات الأدبية ص٢٧ .

ولعل ذلك يشير إلى أن السرقة لا تكون إلا إذا أخذ الشاعر لفظ أو معنى من سبقه ، ولم يضف شيئا من عنده ، وتجاهل الشاعر الذى أخذ منه ، وهذا ما أشار إليه أحد الكتاب بقوله : " إن السرقة الأدبية لا تكون سرقه حقيقية إلا إذا سطا الأديب أو الشاعر على صياغة شاعر من الشعراء ، وعلى خياله ، وانتحل شخصيته فى تعبيره الذى يميزه عمن سواه مع الأخذ من معناه أو لفظه ، أما أخذ المعنى مجردا أو صوغه صياغة فنية أخرى يبث فيها الشاعر روحه ، ويطبعها بطابعه فليس ذلك بسرقة .. [1] ".

أما القول بأن (مطلق السرقة يصدق على المعارضة) فهذا مردود بقول حسان بن ثابت [2] :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا

بل لا يوافق شعرهم شعرى

فهو ينفى السرقة عن نفسه ، مع أنه قد عارض وناقض — كما سبق [3] — ما يدل على أن المعارضة عنده تختلف عن السرقة .

وإذا كان أبو هلال [4] : قد عدّ المعارضة والسرقة شيئا واحدا وأطلق عليه اسم (الأخذ)، فإنه قد ذكر أن الأخذ ضرورى للشاعر ، وأنه ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول معانى من تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، بشرط أن يكسوها لفظا من عنده ، ويبرزها فى معرض يظهر فيها تأليفه وإخراجه ، فيزيد حسنها [5] .. ، بالإضافة إلى أن بعض النقاد قد ذكر أنه ليس بمسروق ما يشترك فيه الناس من المعانى [6] وإنما تقع السرقة فى المعانى الخاصة التى ابتدعها منشئها ، ولم تستفض بتداولها [7] .

---

(١) صور وظلال من حياة شوقى وحافظ ص ٥١ . (٢) ديوانه ص ١٧٤ .
(٣) انظر ص ٢٥٠ من هذه الرسالة . (٤) هو : أبو هلال العسكرى من علماء النقد والبلاغة توفى سنة ٣٩٥ هـ . (٥) أبو هلال : الصناعتين بتحقيق محمد أبى الفضل والبجاوى ص ١٩٦ طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٥٢ . (٦) اتجاهات النقد الأدبى العربى ص ٢١١ (٧) على الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه بتحقيق محمد أبى الفضل والبجاوى ص ١٨٩ مطبعة — الحلبى بمصر سنة ١٩٦٦ .

وليس بخاف أن معظم المعانى التى وردت فى البردة قد استفاضت وشاعت ، وأصبحت متداولة .

٩ ـ إنها تشير إلى أن معارضات البردة بخاصة، والمعارضات فى الشعر العربى بعامة ـ بما فيها من اتحاد الوزن والقافية والغرض ـ تيسر مهمة الناقد فى مجال الموازنة ، وتساعده على الوصول إلى الحكم الصحيح أو القريب منه ، وذلك لأن الموازنة بين شاعر وآخر ـ كما يقول بعض الكتاب ـ كثيرا ما تصاب بالتعثر ، أو بالطعن فيها ، بحجة أن هذا الشاعر لم يحسن ،لأنه قد صعب على نفسه ونظم فى بحر لا ينظم فيه كثير من الشعراء ، أو سار على قافية غريبة ، تحتاج إلى مقدرة لا تتأتى إلا للفحول من الشعراء ، وذلك الشاعر قد أحسن ،لأنه قال فى غرض مطروق ، واختار قافية سهلة [1].

وكل هذا لا يتأتى إذا كانت الموازنة بين قصيدتين ـ أو أكثر ـ من بحر واحد ، وقافية واحدة ، وغرض واحد ، كما أن مجال الموازنة يكون أسهل، ويكون الحكم إلى الصواب أقرب ، ولعل مما يؤكد ذلك قول الآمدى[2]: " .. فإن كنت ـ ادام الله سلامتك ـ ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة ، وحلو اللفظ ، وكثرة الماء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك ، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة ، فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكنى أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول : أيهما أشعر فى تلك القصيدة ، وفى ذلك المعنى .. [3] ".

---

(١) المعارضة فى شعر شوقى ص ٥١ بتصرف .

(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى من علماء النقد والبلاغة توفى سنة ٣٧٠ هـ أو سنة ٣٧١هـ.

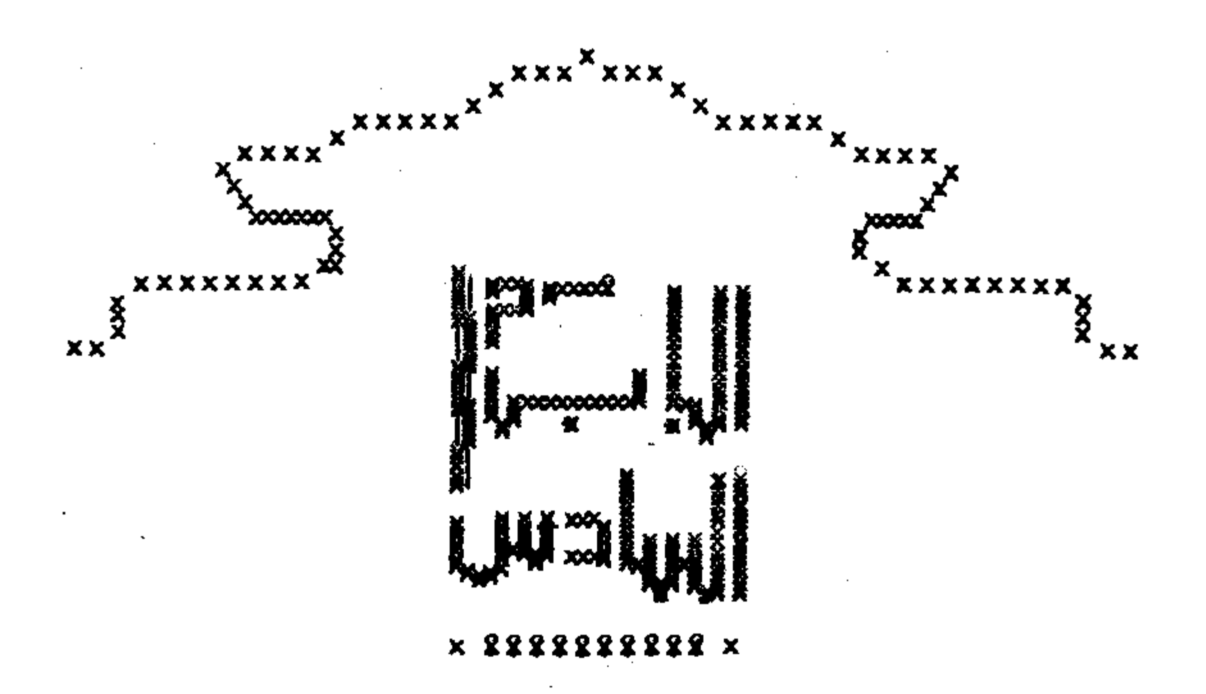
(٣) الآمدى : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ـ تحقيق السيد صقر ص ٥ ومابعدها الطبعة الثانية بمطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢.

ويبدو أن ذلك الاتجاه هو الذى جعل الدكتور زكى مبارك عند موازنته " بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة .. " يقول : "ولهذا البحث أهمية كبيرة ، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة ، وسيرينا كيف تتصاول العقول ، وكيف تتسابق القرائح .."[1] ولهذا كله أفردت بابا للموازنة بين البردة ومعارضاتها فى العصر الحديث لنرى إلى أى مدى استطاع الشاعر المعارض ـ بكسر الراء ـ أن يتناول فكرة الشاعر المعارض ـ بفتح الراء ـ ولنعرف أصاغها صياغة فنية أخرى يبث فيها روحه ، ويطبعها بطابعه لكى تتسق مع ذوقه ، وتتفق مع إحساسه ، أم قصّر فى تناولها ـ وعجز عن الإضافة إليها ؟

وهذا ما ستراه فى الباب التالى إن شاء الله ...



(١) الموازنة بين الشعراء ص ١٠٦ .



الموازنة

بين

البردة ومعارضاتها

في

العصر الحديث

بعد هذا العرض الطويل لبردة البوصيرى ومعارضاتها فى العصر الحديث ، رأيت أن أنهى ذلك بموازنة بينهما ، حتى نعرف إلى أى مدى تأثر اللاحق فى معارضته بمن سبقه ، ولنرى أقلد سابقه دون زيادة أو نقصان أم قلده فى بعض الأفكار ، وجدد فى أخرى .

وإذا كان للشاعر السابق فضل السبق ، فليس معنى ذلك أن يجرد الشاعر الذى تلاه وعارضه من كل منقبة ومأثرة ، بل يجب النظر فى قصيدتى الشاعرين ، فإذا زاد المتأخر فى معانيه وأخيلته ، أو حاز شرفا بأسلوبه وصياغته ، كان له من الفضل مثل ما كان للشاعر المتقدم ، بل هو — كما قال ابن رشيق — أولى به من مبتدعه [1] ، أما إذا ساوى الشاعر المعارض أو قصر عنه حكم عليه بالقصور والتأخر وعدم القدرة على مجازاة الشاعر الذى سبقه .

وليس كل هدفى من هذه الموازنة هو تفضيل شاعر على آخر أو تفضيل نص على نص ، فهذا ليس بلازم دائما ، إذ النقد الأدبى يكون توضيحا كما يكون ترجيحا ، وربما كان التوضيح والوصف أجدى على الباحث والأدب ، فليس يخلو شاعر من ميزة تفضله عن نظيره مهما تكن قيمتها .

وأعلن بادى الأمر أننى سأوازن بين بردة البوصيرى ومعارضتى البارودى وشوقى فحسب وذلك لما للبارودى وشوقى من منزلة كبيرة بين النقاد ، وفى مجالس الأدب ، ولأن معظم من عارض البردة بعدهما قد نظر إليهما فى كثير من الأفكار ، وليس معنى ذلك أن غيرهما لم يزيدوا شيئا عليهما ، بل قد أضافوا جديدا ، أشرت إليه فيما سبق [2] .

كما أبين — أيضا — أن موازنتى ليست قاطعة فى نتائجها ، إذ لكل إنسان وجهته ، ولكل باحث رأيه ، ومجال النقد فسيح ، وقد يوافقنى القارئ وقد يخالفنى

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٩٠ .   (٢) انظر : ص ٥٨٩ ، ص ٦١٣ ، ص ٦٣٠ ، ص ٦٦٢ من هذه الرسالة .

فالمشارب تختلف ، والأذواق تتنوع ، وخاصة إذا تقاربت أوجه التماثل بين القصيدتين أو الشاعرين ، إذ كثيرا ما يبلغ الكلام في الحسن مبلغا يملك مجامع القلوب ، وإذا حاول الناقد التعبير عن هذا المجال ، استعصى عليه البيان .

ولعل مما يؤكد ذلك ما روى أن إسحاق الموصلي [1] قال : " قال لي المعتصم : أخبرني عن معرفة النظم وبينها لي ، فقلت : إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصفة " [2] ، كما أنه قد سئل عن شعرين متقاربين وقيل له : اختر أحدهما ، ولما اختار أحدهما ، قيل له : من أين فضلت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقال : لو تفاوتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا وفضلت هذا بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان [3] " .

ومن هنا يتضح أن منهاج الموازنة ليس سهلا ، وأنه يستدعى كثرة الدربة ، وطول الملابسة ، حتى يكون الحكم أقرب إلى الصحة ، بعيدا عن الغبينة والوكس ، ولعل مما يؤيد ذلك قول بعض النقاد : " إن الموازنة هي أدق ألوان النقد وأدعاها إلى التفكير ، وأحوجها إلى سلامة الذوق والسليقة ، وقوة الملاحظة . [4] " كما أشار بعض النقاد - أيضا - إلى خطرها ، مبينا بعض ما يجب أن يتحلى به الناقد ، فقال : " إن الموازنة نوع من القضاء ، والناقد كالقاضي فكما يجب على الحكم أن ينزه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك يجب على الناقد أن يبرئ نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء .. [5] " ثم قال : " .. فإذا أردت أن توازن بين شاعرين ، فامتحن نفسك قبل ذلك ، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تسيطر عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك منهم ظنين .. وإن رأيت نصرة الأدب ، والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع ، وأنت في

---

(١) هو : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلي - من أشهر ندماء الخلفاء ، وكان عالما بالأشعار ، توفى سنة ٢٣٥ هـ .

(٢) الموازنة القسم الأول جـ ٣ ص ٤١٤ .

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها بتصرف .

(٤) على الجبلاطي (بالاشتراك مع غيره) الذوق البلاغي ص ١٠٤ - مطبعة الجهاد بأسيوط (غير مؤرخ) .

(٥) الموازنة بين الشعراء ص ٣٢ وما بعدها .

نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد .. فتقدم إلى الموازنة ، وثق أن الرغبة فى نصرة الحق حليفة الفوز المبين[1]".

كما ذكر بعض القواعد التى يجب أن يلتزمها الناقد بالنسبة لمن سيوازن بينهما فقال[2]:

١- يجب أن يذكر الناقد حياة من يوازن بينهما بالتفصيل ، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف وعلى الأخص إذا مرت حياتهما فى غمرة من الغمرات الدينية أو فتنة من الفتن السياسية .

٢- ويجب أن يذكر الحالة الصحية لكل شاعر ، ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتدال ، وأن يقدر السن التى قيل فيها ما يريد وزنه ونقده .

٣- ويجب أن يحدد الصفات التى اشترك فيها من يوازن بينهما ، والصفات التى انفرد بها كل واحد منهم .

٤- وأن يدقق النظر فى تمييز المعانى المبتدعة- التى لم يسبق إليها- من المعانى المسبوقة، ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذى سبق إليه ، وكيف هذبه ، وكيف بسطه .

٥- وأن يعد ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد أخذه وما ابتكره ، وما انفرد به ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ثم يغلب عليه حين يقصر فى تأديته ، وقد يبتكر المعنى ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية فى الأداء .

٦- وأن يبين أسباب السبق ، وأسباب التخلف ، وأن يحد ما لكل شاعر من المعانى الموضعية التى اقتضاها زمانه ومكانه ، والمعانى الإنسانية التى تصلح لجميع الناس ، مع تباين الأمكنة واختلاف العصور .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ وما بعدها بتصرف .

ولا يخفى أنني قد أشرت إلى حياة كل من البوصيري[1] ، والبارودي[2] ، وشوقي[3] ، وسوف أوازن بين قصائدهم من ناحية ما يأتي :

(١) بناء القصيدة .
(٢) الأفكار وترتيبها .
(٣) الوحدة العضوية .
(٤) العاطفة ومدى صدقها .
(٥) الخيال .
(٦) الأسلوب .

(١) بناء القصيدة :

والمراد ببناء القصيدة - كما قال بعض النقاد : " التخطيط الهندسي والنسق الفني لتلك البنية الفنية ، بحيث تبدو بناء واضح المعالم ، بارز السمات متكامل الأطراف ، وتتوالى أجزاؤها في تسلسل طبعي ، وترابط ، بشكل محكم ترابطا مبنيا على التداعي والتناسب لا على القسر والاغتصاب[4] " .

وفي تلك الناحية يعرض النقاد لكثير من المسائل ومن أهمها :

أ - مطلع القصيدة .
ب - التخلص من المطلع إلى الغرض .
جـ - الخاتمة .

وقبل الحديث عن تلك المسائل أحب أن أشير إشارة سريعة إلى مدى توفيق البوصيري في اختياره وزن قصيدته البردة ، ولقد سبق أن ذكرت أن هذه القصيدة من بحر البسيط الذي وزنه (مستفعلن فاعلن) ويدخله الخبن فيصبح (مستفعلن فعلن)[5] ، ويبدو أن البوصيري قد وفق في اختيار هذا

---

(١) انظر ص ٤٤ ومابعدها من هذه الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٧ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ٤٨٧ ومابعدها .
(٤) الدكتور عبد الرحمن شعيب : في النقد الأدبي الحديث ص ٣٠٠ ومابعدها بتصرف - مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٨ .
(٥) انظر ص ٨٠ من هذه الرسالة .

البحر الذى يلائم حالة الشجن والحنين، ويؤكد ذلك قول بعض النقاد : إن بحر البسيط يتفق مع الشجن والتذكر والحنين .. [1] " كما أنه : " يتصف بطواعيته لظاهرة الإنشاد ، وخاصة الإنشاد الدينى ، إذ وزنه يعطى التموج والانسياب والإيقاع الذى يعطى النفس حالة من حالات السمو والصفاء.. [2] " ، ويبدو أن انبساط الحركات فى عروضه وضربه - إذا خبنا - مما ساعد على هذا .. " [3] .

وإذا كان لهذا البحر كل هذه السمات ، فلا شك فى أن للبوصيرى فضلا كبيرا فى اختياره ، أما ما يقال [4] من أنه قد تأثر فى نظمه البردة بقصيدة ابن الفارض التى مطلعها [5] :

هل نار ليلى بدت ليلا بذى سلم
أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم

بحجة اشتراك الشاعرين فى الإشارة إلى (ذى سلم ، وهبوب الرياح وإيماض البرق ..) وغير ذلك بالإضافة إلى تشابه الفكرة، وكثير من الألفاظ - فى قول ابن الفارض [6] :

يالائما لامنى فى حبهم سفها
كف الملام ، فلو أحببت لم تلم

وقول البوصيرى : [7] :

يالائمى فى الهوى العذرىّ معذرة
منى إليك ولو أنصفت لم تلم

ولكن بعض الكتاب ذكر أن ذلك من باب توارد الخواطر [8] ، ويبدو أن ذلك

---

(١) مجلة الشعر العدد الثانى ص ٨٤ سنة ١٩٧٦ .
(٢) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى (بالاشتراك مع غيره): من روائع الأدب العربى ص ٩٢ مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٧٤ .
(٣) مجلة الشعر العدد الثانى ص ٨٤ .
(٤) المدائح النبوية ص ١٨٣ ، والمعارضة فى شعر شوقى ص ٢٠ وما بعدها .
(٥) ابن الفارض : ديوانه ص ٣٤ وما بعدها
(٦) المرجع السابق ص ٣٥ .
(٧) انظر ص ٦٣ من هذه الرسالة .
(٨) الإمام البوصيرى ص ٥٤ وطراز البردة جـ ١ ص ٤٦ .

صحيح ، لأنني وجدت أن تلك الأماكن التي قد أشار إليها كل من ابن الفارض والبوصيري قد أشار إليها غيرهما ممن سبقهما من الشعراء ، وهذا يدل على أن هذه الإشارة كانت مألوفة عند كثير من الشعراء ، ومنهم البحتري الذي يقول [1] :

نشدتك الله من برق على إضم
لما سقيت جنوب الحزن فالعلم

ويقول أيضا [2] :

أمحلتي سلمى بكاظمة اسلما
وتعلما أن الجوى ما هجتما

فقد أشار إلى (إضم ، والعلم ، وكاظمة)، كما ذكر البرق أيضا ، بل لقد أشار إلى لوم العذال في قوله [3] :

قلت للائم في الحب: أفق
ولا تهون طعم شيء لم تذق

ومعلوم أن البحتري قد سبق كلا من ابن الفارض والبوصيري في تلك الإشارة ، ولعل مثل هذا يرجح رأي من قال: إن التشابه بين مطلعي ابن الفارض والبوصيري من باب توارد الخواطر ، أضف إلى ذلك أن عدد أبيات قصيدة ابن الفارض ثمانية عشر بيتا ، وموضوعها الحب الإلهي .

أما قصيدة البوصيري فأبياتها: ستون ومائة بيت، وموضوعها المديح النبوي .

ومهما يكن من شيء ، فإن البوصيري قد سبق كلا من البارودي وشوقي في اختياره بحر البسيط ، الذي نظم عليه قصيدته البردة ، وله الفضل في هذا الاختيار لمناسبة البحر لموضوع القصيدة كما سبق.

وأبدأ في الحديث عن المسائل التي يحرص لها النقاد عند حديثهم عن بناء القصيدة وهي :

أ - مطلع القصيدة :

والمراد بمطلع القصيدة أول بيت فيها ، ولقد علق النقاد عليه أهمية

---

(١) ديوانه جـ ٢ ص١٦٨ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص٢٠٨ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص١٤٨ .

كبيرة، إذ رأوا أن المطلع الجيد هو الضمان القوى لشد الأسماع، وجذب النفوس إلى القصيدة، وربط النفس بها ربطا محكما، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الشاعر العربى القديم يفتتح قصيدته بالغزل، لما له فى النفس من أثر قوى يجعلها تهفو إليه وتنصت له [1].

ومما يؤكد اهتمام النقاد بمطلع القصيدة أنهم وضعوا أمارات للمطلع الجيد، وذكروا منها : أن يكون واضحا بينا لا غموض فيه، ولا لبس فى معناه ولا صعوبة فى فهم مرماه [2]، وألا يكون معقد التركيب، مضطرب الأسلوب، وأن يكون متساوى الأطراف من حيث المبنى والمعنى، فلا يكون شطره الأول مرتفعا والآخر منخفضا متخلفا [3]، كما أوجبوا فيه أن يكون بعيدا عن كل ما يبعث فى النفس التشاؤم والتطير ..

أضف إلى ذلك أنهم استحسنوا من المطالع ما كان مرآة تكشف الغرض الذى سيقت له القصيدة، وتدل على التجربة التى انفعلت بها النفس، واندفعت بوحى منها، ويطلقون على ذلك براعة الاستهلال [4]، " والشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة إذ هى المواقف التى تستعطف الأسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء.. [5] "

وإذا كان هذا هو موقف بعض النقاد من (مطلع القصيدة) فسوف أذكر مطلع كل من البوصيرى والبارودى وشوقى — على ذلك الترتيب — لنعلم إلى أى مدى أحسن أصحابها، ومن منهم أكثر من صاحبيه حسنا فيها، وهى :

• أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

• يارائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام إلى حى بذى سلم

• ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

---

(١) فى النقد الأدبى الحديث ص ٣٠١.
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.
(٣) خزانة الأدب ص ٣.
(٤) فى النقد الأدبى الحديث ص ٣٠٢.
(٥) الوساطة ص ٤٨.

لقد اشتركت تلك المطالع فى الإشارة إلى بعض الأماكن العربية (ذى سلم، دارة العلم ، البان ، العلم) وهذه الإشارة محض تقليد للسابقين.

وإذا صح ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن هذه الأماكن " رموز للمعانى الدينية ، وهى عاطفة إنسانية عميقة ، صادقة ، أصيلة ، يعبر بها الشاعر عن شوقه للنبى ، وحبه لجناب خالقه ، فيرى ببصره وقلبه إلى الأرض التى اختارها البارى، وطنا لنبوته ورسالته . الأرض التى جعلها الله تعالى منزلا للشريعة والقرآن، منزلا للعدل والتسامح ، والتعاطف ، والمعانى الإنسانية الرفيعة[1] .. " إنها الأرض التى يتطلع "الشعراء" إليها ناشدين الراحة النفسية ، والمتعة الروحية ، إلى جوار بيت ربهم ونبيهم بعد أن حرموا لذة العيش ، ومتعته فى عصر اضطربت أموره وغامت سماؤه .. [2] .. "

أقول إذا صح هذا فإنه يكون مقبولا بالنسبة إلى البوصيرى نظرا لظروف عصره الذى كثرت فيه الحروب، بالإضافة إلى ظروف مرضه الذى نظم البردة بسببه — كما سبق — ويكون مقبولا — أيضا — بالنسبة إلى البارودى نظرا لظروفه القاسية مثل نفيه عن بلده وأهله ، ويؤكد ذلك تمنيه زيارة الأماكن المقدسة فى قوله : [3]

فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بها
ذريعة أبتغيها قبل مخترمى

.. هذى مناى وحسبى أن أفوز بها
بنعمة الله قبل الشيب والهرم

أما شوقى فهذا بعيد كل البعد عنه ، ويؤكد ذلك أنه وقت نظمه القصيدة كان فى رغد من العيش كما أتيحت له فرصة الذهاب إلى الأماكن المقدسة مع الخديوى ولكنه هرب — كما سبق — مما يشير إلى أن الذى دفعه إلى ذكر تلك الأماكن إنما هو تقليد البوصيرى[4] ، مما جعل بعض النقاد يقول عن

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبى ص ٢٨٢ ومابعدها بتصرف .
(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .
(٣) كشف الغمة ص ٤٥ وما بعدها .
(٤) الإسلام فى شعر شوقى ص ١٣١ .

ذلك المطلع : " إنه من صميم شعر الاحتراف (١) " .

ولم يكتف شوقي بالتقليد بل أوغل فيه موثرا الإغراب في تعبيره ، فذكر أن محبوبه (أحل سفك دمه في الأشهر الحرم) فهو بذكره (الأشهر الحرم) يشير إلى مدى ما بلغه ذلك المحبوب من تعد وظلم ، لأن إراقة الدم في تلك الأشهر محرمة ، وفات شوقي أن تلك الحرمة قد نسخت (٢) هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن فهم المراد من تلك الإشارة يحتاج إلى ثقافة دينية ، قد لا توجد عند كثيرين .

ولقد خالف شوقي ما شرطه النقاد لحسن المطلع ، إذ جعلوا من شروطه ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ المبالغة في انتقاء كلماته وجمله ، وبعدها عما يشينها من الوجهة البلاغية ـ وسلامتها مما تنفر منه النفس وتتطير به (كالقتل والموت والدم (٣)) .. وفي مطلع شوقي تجد لفظ (السفك) يليه لفظ (الدم) ثم الثقل من الطباق بين : (أحل ، والحرم) .

وبعد ذلك كله يبدو أن الشاعر نظر في مطلعه إلى قول ابن الفارض (٤) :

طوعا لقاض أتى في حكمه عجبا
أفتى بسفك دمي في الحل والحرم

وأين مطلع شوقي في نهجه من مطلعه في همزيته (٥) :

وُلد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

تأمل تلك الألفاظ الموحية الجميلة : (الهدى ، وضياء ، وتبسم ، وثناء) تجدها كلها ألفاظا تتشوق النفس إليها ، ويتلهف القلب عليها .

أما مطلع البوصيري : فقد اشتمل على استفهام يثير الإحساس ، ويحرك الوجدان ، كما عبر عن أحبابه بلفظ (جيران) إشارة إلى قربهم وحقوقهم ، ولذلك

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين الشعر العربي والذوق المعاصر ص ٥٢ موسسة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٦ .
(٢) انظر ص ١٨٤ من هذه الرسالة .
(٣) المتنبي وشوقي وإمارة الشعر ص ١٥٤ .
(٤) ديوانه ص ٣٥ . (٥) الشوقيات جـ ١ ص ٢١ .

مزج دمعه بدمه لأجلهم ، ولا يخفى ما فى تعبيره من جمال ، لولا ذكره لفظ (الدم) الذى تمج الأذن سماعه ، بالإضافة إلى الحشو فى كلمة (من مقلة) .

ومع كل هذا أين مطلع بردة البوصيرى من مطلع همزيته :[1]

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

تأمل هذا الاستفهام الدال على البعد ، بل الدال على الاستحالة وانظر إلى الجناس فى قوله : (ترقى ورقيك) تجد الرفعة وعلو الشأن ، ويؤكد ذلك قوله : (ياسماء ما طاولتها سماء) .

أما مطلع البارودى : فيبدو أنه فاق مطلع صاحبيه ، لاشتماله على ألفاظ موحية مثل : (رائد والبرق والشام) ، وبعده عن الألفاظ التى تمجها النفس مثل التى ذكر بعضها البوصيرى من قبله ، وشوقى من بعده .

إن البارودى قد قلد ، ولكنه لم يقف عند التقليد وقوفا تاما ، ولعله قرأ قول بعض النقاد : " إن حسن الافتتاح ، داعية الانشراح ، ومطية النجاح .. والشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغى للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة .. وليجعله حلوا سهلا ، وفخما جزلا ..[2] " فعمل على أن يكون مطلعه جيد العبارة حلو الإشارة ، مما جعلنى أرجح حسن مطلعه ، ويليه مطلع البوصيرى، ثم مطلع شوقى .

ب — حسن التخلص :

ذهب بعض النقاد إلى أنه خروج الشاعر من مطلع قصيدته ، ودخوله فى غرضه بلطف ورفق، وتحايله فى ربط المطلع بالغرض ربطا لا تكلف فيه ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال المفاجىء،أو يحس بفجوة بين الغرضين[3] ، وهذا

---

(١) ديوانه ص ١ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ٢١٧ ومابعدها .
(٣) فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٤ بتصرف .

الضابط يقصر حسن التخلص على الانتقال من المطلع ، ولكن الأولى أن يكون عاما فيشمل ـ كما قال بعض النقاد ـ " الانتقال من فكرة إلى فكرة بمناسبة ظاهرة ويقابله الاقتضاب[1] " ، قال ابن رشيق : " وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ماتخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى[2] " .

ولعل سر الإعجاب بالتخلص الحسن أنه نوع من دقة الحبكة، وحسن الترابط، حتى تسير القصيدة فى تسلسل يشبع العقل، ويرضى النفس ، ولا تشعر بالانفكاك والغرابة[3] .

وإذا نظرنا إلى البوصيرى فى بردته وجدناه آثر حسن التخلص عندما قال فى محاورة العذول[4] بعد اعترافه بحبه الذى أنكره طويلا :

إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل
والشيب أبعد فى نصح عن التهم

فكان هذا بمثابة التمهيد للانتقال إلى الحديث عن النفس فى قوله :

فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم

وكذلك عندما أراد الانتقال من الحديث عن النفس إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهد لذلك بقوله :

ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصل سوى فرض ولم أصم

ولعل ذلك التمهيد يكون سببا فى أن السامع لا يشعر بفجوة بين حديثه عن النفس ومدحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى
أن اشتكت قدماه الضر من ورم

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٧ بتصرف .
(٢) العمدة جـ ١ ص ٢٣٧ .
(٣) فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٥ .
(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٩ .

فالبوصيرى لم ينتقل من النسيب إلى مدح الرسول مباشرة ، بل انتقل من النسيب إلى الحديث عن النفس، ثم انتقل من ذلك إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهذا ما أشار إليه بعض النقاد بقوله : " إذا لاحظنا أنه — البوصيرى — تخلص من النسيب إلى المدح ، فإن هذا التخلص غير مقبول ، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس ، ثم إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإنا نغفر له هذه الإطالة ، لأنها فى غرض من أغراضه الأساسية ، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس وتطهير الوجدان [1] ".

وإذا كان البوصيرى قد آثر حسن التخلص فى الانتقال من بعض أفكاره، فإنه قد اقتضب عندما أراد الانتقال من الإشارة إلى بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الحديث عن القرآن الكريم فقال :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت

ظهور نار القرى ليلا على علم

ويبدو أنه أراد بذلك أن ينهج نهج السابقين [2] الذين كانوا إذا أرادوا الانتقال من فكرة إلى أخرى يقولون : (دع ذا) و (عد عن ذا) ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بإن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه [3] إلا أن جل انتقالاته كانت تقوم على أساس حسن التخلص.

وكذلك آثر البارودى حسن التخلص ، إذ عندما تحدث عن سرعة القطاة وأراد الانتقال إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال :

ليت القطاحين سارت غدوة حملت

عنى رسائل أشواقى إلى إضم

لا شىء يسبقها إلا إذا اعتقلت ..

بنانتى فى مديح المصطفى قلمى

فالسامع والقارىء لا يشعران بالانفكاك أو الغرابة بين الفكرتين ، ولذلك قال بعض النقاد عن ذلك التخلص : " وهذا تخلص مستطح مقبول .. [4] ".

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٠ بتصرف.
(٢) انظر ص ١٥٨ من هذه الرسالة.
(٣) العمدة جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢١١ .

والجدير بالذكر أن البارودى كان يقتضب أحيانا مثل قوله عن الرسول (صلى الله عليه وسلم):

هذا الذى عصم الله الأنام به
من كل هول من الأهوال مخترم

ثم أشار بعد ذلك مباشرة إلى بعثته (صلى الله عليه وسلم) بقوله:

وحين أدرك سن الأربعين وما
من قبله مبلغ للعلم والحكم

كما اقتضب فى انتقاله من الحديث عن ليلة الإسراء والمعراج بقوله:

فاقت جميع الليالى فهى زاهرة
بحسنها كزهور الغار فى العلم

إلى الحديث عن فرض الصلاة بقوله:

هذا وقد فرض الله الصلاة على
عباده وهداهم واضح اللقم

وأيضا يظهر اقتضابه عند انتقاله من الحديث عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بقوله:

وأصبح الناس إخوانا وعمهم
فضل من الله أحياهم من العدم

إلى الحديث عن فرض الجهاد بقوله:

هذا وقد فرض الله الجهاد على
رسوله ليبث الدين فى الأمم

أما شوقى: فقد آثر الاقتضاب، وبخاصة عندما انتقل فجأة من الغزل إلى الحديث عن الدنيا وخطوبها ، والنفس وعقلتها ، تأمل حديثه إلى محبوبته:

لم أغش مغناك إلا فى غضون كرى
مغناك أبعد للمشتاق من إرم

ثم تأمل كيف انتقل فجأة إلى الحديث عن الدنيا بقوله:

يانفس دنياك تخفى كل مبكية
وإن بدا لك منها حسن مبتسم

ولذلك يقول بعض النقاد عنه : " إنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب الموفق المشرق إلى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب .. (1) " .

واقتضب أيضا في انتقاله من حديثه عن فساد أخلاق الناس قبل بعثته (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

إلى حديثه عن الإسراء والمعراج مباشرة بقوله :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه
والرسل في المسجد الأقصى على قدم

وغير ذلك كثير في قصيدته، مما جعل بعض النقاد يقول عنه : " وإذا كان هناك مأخذ على شوقي ، فإن أشد ما يؤخذ عليه في قصيدته - نهج البردة - هو الاقتضاب في معانيها .. (2) " .

جـ - الخاتمة :

وهي - كما يفهم من لفظها لأول وهلة: آخر القصيدة ، بل هي كما قال ابن رشيق : " قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع (3) " كما أنها آخر ما يربط السامع بالقصيدة ويجذبه إليها ، وربما كان في حسنها ما يحمل الناس على تتبعها والهيام بها ، ولذلك عنى النقاد بها عناية كبيرة ووضعوا لحسنها بعض الإشارات ، ومن ذلك قول بعضهم : " وأحسن ما تختم به القصيدة ما يشعر السامع بالنهاية والختام ، بحيث لا يبقى في انتظار شيء، ولا يظل مترقبا شيئا ، وما كان مع ذلك منسجما مع الغرض الذي سيقت له القصيدة بحيث لا يكون غريبا عنها ، أو نافرا منها .. (4) " .

---

(1) المرجع السابق ص٢١٤ .
(2) مجلة لواء الإسلام ص٣٩ - العدد الثامن من السنة الثالثة سنة ١٩٥٠م .
(3) العمدة جـ ١ ص٢٣٩ .
(4) في النقد الأدبي الحديث ص٣٠٥ بتصرف .

وإذا نظرنا إلى خاتمة البردة ، وجدنا البوصيرى قد ختمها بالصلاة الدائمة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إذ قال متضرعا إلى الله سبحانه وتعالى :

وأذن لسحب صلاة منك دائمة
على النبى بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا
وأطرب العيس حادى العيس بالنغم

وأما خاتمة كشف الغمة فقد ختمها البارودى — بعد الصلاة الدائمة على رسول الله — بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، وطلب مغفرته جل وعلا بقوله :

وامنن على عبدك العانى بمغفرة
تمحو خطاياه فى بدء ومختتم

وأما خاتمة نهج البردة ، فقد ختمها شوقى بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، وراجيا حسن الختام للمسلمين ببركة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى أحسن الله حال المسلمين به ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فقال :

يارب أحسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

وأرى أن ختام شوقى أفضل من ختام صاحبيه ، لاشتماله على ما يشعر بحسن الختام فى قوله : (حسن مختتم) ، ولاشتماله على دعاء يعم المسلمين جميعا ولإشارته إلى فضل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأخيرا لبدئه بتلك الكلمة الطيبة ، والدعاء الصادق (يارب) كل ذلك فى بيت واحد .

أما ختام البوصيرى فلم يشتمل على ما يشعر بحسن الختام ، بل ولا على ختام القصيدة نفسها ، ولذلك سهل على من أتى بعده أن يزيد عليها أبياتا أولها — كما سبق[1] :

ثم الرضا عن أبى بكر وعن عمر
وعن على وعن عثمان ذى الكرم

---

(١) انظر ص٢١٦ من هذه الرسالة .

وإذا قرأتها بعد نهاية البردة خيل للسامع أنها متصلة بها ، وأنها منها ، أضف إلى ذلك أن ختامه فى بيتين ، والبيت الثانى قد توغلت ألفاظه فى البداوة والتقليد .

وأما ختام البارودى فقد اشتمل على حسن الختام أيضا فى قوله : (فى بدء ومختتم) ، كما اشتمل على ما يشعر بتواضعه لله سبحانه وتعالى فى قوله : (عبدك العانى) ، بالإضافة إلى طلبه المغفرة ، إلا أنه قد طلبها لنفسه ، فهو دعاء له وحده ، ولعل ظروف نظمه القصيدة هى التى دفعته إلى ذلك.

ومهما يكن من شىء ، فإننى أرجح حسن ختام شوقى ، فالبارودى فالبوصيرى وإذا كان ابن رشيق قد قال : " وقد كره الحذاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء ، لأنه من عمل أهل الضعف إلا للملوك ، فإنهم يشتهون ذلك .. (١) " فأقول : إن دعاء ملك الملوك أولى وأوجب ، وهو - جل وعلا - عن دعائنا غنى .

٢- الأفكار وترتيبها :

إذا نظرنا إلى الأفكار التى اشتملت عليها البردة ، وجدناها لم تخرج عن : النسيب ، والتحذير من النفس وهواها ، ومدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم مولده ، فمعجزاته ، ثم شرف القرآن الكريم ، فالإسراء والمعراج ، ثم جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والإشادة ببطولة أصحابه ، ثم التوسل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى .

وأما قصيدة البارودى : فقد أشارت إلى ما اشتملت عليه البردة ، وزادت عليها بعض الأفكار الأخرى مثل : رضاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورعيه الغنم ، واشتغاله بالتجارة ، وزواجه بالسيدة خديجة ، ووضعه الحجر الأسود ، والهجرة إلى الحبشة ، وقصة الأراشى ، وفرض الصلاة ، وقصة سراقة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبناء المسجد النبوى ، بالإضافة إلى ذكر غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسراياه كلها تقريبا .

وأما نهج البردة : فلم تشتمل على أكثر مما اشتملت عليه البردة إلا زيادتها الحديث عن فرية انتشار الإسلام بالسيف ، والإشادة بالشريعة

---

(١) العمدة ج ١ ص ٢٤١ .

الإسلامية ، وحضارة المسلمين ،

هذا من ناحية أفكار كل قصيدة ، أما من ناحية ترتيبها ، " فالبردة - كما قال أحد الكتاب - مستقيمة النهج ، بينة المعالم ، قاصدة السير ، تأخذ على حسب تتابع المراحل ، ووفق مواقع الأحداث في سلسلة الزمان - فالبردة وكلما خلصت من مرحلة تقدمت إلى التي تليها تباعا ، ولهذا يجد القارئ كأنه معها في رحلة شائقة ممتعة ، لا يتخلل السير فيها عنف ولا توقف، ولا مفاجأة ولا اضطراب [1] ".

وليس معنى ذلك أن البردة قد خلت من تقديم فكرة - كان حقها التأخير - على أخرى - كان حقها التقديم - إذ وقع فيها هذا الأمر ،

ولعل مما يؤكد ذلك أن البوصيري قد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى وصل إلى مدح التراب الذي دفن فيه (صلى الله عليه وسلم) ، ثم يفاجئنا بالحديث عن مولده ، كل ذلك في قوله :

لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه
طوبى لمنتشق منه وملتثم

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدأ منه ومختتم

وأما كشف الغمة : فتمتاز بترتيب أفكارها ، وتسلسل حوادثها ، حسب وقوعها ، ولعل سبب ذلك الترتيب يرجع إلى تقيد الشاعر بسيرة ابن هشام كما ذكر - سابقا - ، " إلا أن مزية الترتيب التي انفرد بها كانت بابا لفقد الشعر في أكثر القصيدة [2] .. وبخاصة عند سرد الحوادث، ولم يغلب فيها الشعر إلا عند الوصف ، وعند مناجاة الوجدان [3] .

وأما قصيدة : شوقي (نهج البردة) : فلا يبدو أن لها طريقا مرسوما، ولا معالم معروفة - حتى قال عنها بعض الكتاب - .. " كأنها في مجموعها

---

(١) الدين والأخلاق في شعر شوقي ص ٣٩ .
(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٦ بتصرف .

الأشعات المبعثرة ، يحيط بها من الخارج سياج جامع محيط ، ولكن لا يكاد يؤلف بين مفرداتها من الداخل نمط من وحدة الفكرة ، أو تماسك المنطق أو تساوق الحوادث ، فإذا القارئ معها أبدا فى قلق، وتوجس وعناء ، فما يكاد يمضى معها وهو يظن أن ستتعاقب الحوادث، ويسلم السابق منها إلى اللاحق ، حتى تنقلب به راجعة ، لتلم شعثا ، أو تتم نقصا ، أو تذكر منسيا أو تكرر ماضيا ...(1) .

ولعل مما يؤكد ذلك حديثه عن تعبد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى غار حراء قبل بعثته :

سائل حراء وروح القدس هل علما
مصون سر عن الإدراك منكتم

كم جيئة وذهاب شرفت بهمـــا
بطحاء مكة فى الإصباح والغسم

ووحشة لابن عبد الله بينهمـــا
أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحى فيها قبل مهبطـه
ومن يبشر بسيمى الخير يتسم

ثم ينتقل إلى الحديث عن بعض معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ
فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وظللته فصارت تستظل بـــه
غمامة جذبتها خيرة الديـــم

محبة لرسول الله أشربهـــا
قعائد الدير والرهبان فى القمم

إن الشمائل إن رقت يكاد بهـــا
يغرى الجماد ويغرى كل ذى نسم

---

(1) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ص ٤٠ بتصرف

ثم يناجيه بعودته إلى الحديث عن نزول الوحي أول مرة بقوله تعالى:
(اقرأ) ، وموقف قريش من الدعوة فيقول :

ونودي اقرأ تعالى الله قائلها
لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أذن للرحمن فامتلأت
أسماع مكة من قدسية النغم
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها
وكيف نفرتها في السهل والعلم

ثم يمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويتحدث عن القرآن الكريم ، ثم يعود إلى مدح الرسول بالفصاحة والبيان ، ثم يتحدث عن مولده وما صاحبه من حوادث .

ولا يخفى أن ذلك يشير إلى أن القصيدة خليط من المعاني، وأشتات من الخواطر ، مما جعل بعض الكتاب يقول : " وهذا يدل على اضطراب الفكرة العامة لدى شوقي وغموض الرؤية أمام فكره ، وتذبذب المشاعر والانفعالات ، كما يدل على انعدام التجربة لديه ... (١) " ، ويبدو أن ذلك الاضطراب هو الذي جعل شكيب أرسلان (٢) يقول : " ولو استشارني شوقي في هذه المعارضة لنهيته عنها .. (٣) " .

ولقد ذهب بعض الكتاب إلى أن عدم ترتيب أفكارها يرجع إلى " .. أنها لم تولد في سبحة واحدة من سبحات الإلهام ، ولا نظم عقدها ، وأكمل خلقها ، وسويت صورتها ، في لحظة واحدة من إشراقات الوحي ، ودفعات الفيض ، بل نظمت على فترات متقطعة ، وفي لحظات متباعدة ، ففصل الزمن بين تسلسلها ، وقطع بين ارتباطها ، فحرمت الترتيب التاريخي ، والانتظام المنسق .. (٤) " .

---

(١) المعارضة في شعر شوقي ص٢٢٩ بتصرف .
(٢) هو شكيب بن حمود بن حسن أرسلان ، أديب عربي ، توفي سنة ١٩٤٦ (الأعلام ج ٢ ص ١٢٥) .
(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة ص٢٠٧ .
(٤) مجلة لواء الإسلام ص ٢٥ ومابعدها ، العدد السابع من السنة الرابعة سنة ١٣٧٠ هجرية .

ومهما يكن من شيء ، فإن البارودى قد رتب أفكاره فى كشف القصة ، أكثر من ترتيب البوصيرى إياها فى البردة ، وشوقى فى نهجها .

هذا عن ترتيب الأفكار ، أما عن طريقة معالجتها ، فلم تأخذ شكلا واحدا فمثلا : تناول الشعراء الثلاثة فكرة الحديث عن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولكنهم لم يشيروا إلا إلى مشهد الغار والرسول بداخله ومعه الصديق وعلى بابه العنكبوت والحمام ، فقال البوصيرى :

وما حوى الغار من خير ومن كرم
وكل طرف من الكفار عنه عمى
فالصدق فى الغار والصديق لم يرما
وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

ولا يخفى أن الشاعر قد اكتفى بالمعنى الشائع ، والقصة المعروفة ، فالنبى وصاحبه فى الغار ، والكفار عندما ذهبوا إلى الغار ، ووجدوا خيوط العنكبوت منسوجة على بابه ، والحمام هادئ فى عشه أمامه ، ظنوا أنهما على باب الغار من زمن بعيد ، ثم أتى بقول حكيم يدل على السر فى نجاة الرسول وصحبه ، وهو عناية الله التى أغنت عن الدروع القوية ، والحصون الحصينة .

وقال البارودى :

وجاء الوحى إيذانا بهجرته
فيمم الغار بالصديق فى الغسم

ثم يتحدث عن الحمامتين فى ثمانية أبيات تقريبا بقوله :

فما استقر به حتى تبوأه
من الحمائم زوج بارع الرنم
بنى به عشه واحتله سكنا
يأوى إليه غداة الريح والرهم

إلفان ما جمع المقدار بينهما
إلا لسر بصدر الغار مكتتم

كلاهما ديدبان فوق مربأة
يرعى المسالك من بعد ولم ينم

إن حن هذا غراما أودعا طربا
باسم الهديل أجابت تلك بالنغم

يخالها من يراها وهى جاثمة
فى وكرها كرة ملساء من أدم

إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت
روت غليل الصدى من حائر شبم

مرقومة الجيد من مسك وغالية
مخضوبة الساق والكفين بالعنم

كأنما شرعت فى قانىء سرب
من أدمعى فغدت محمرة القدم

ففى هذه الأبيات يشير البارودى إلى صوت الحمامتين الجميل ، وإلى بنائهما عشا على باب الغار ، كما يشير إلى أن القدر هو الذى جمع بين هذين الإلفين لسر يعلمه الله ، وشبههما بحارسين يراقبان المسالك من بُعد ، بالإضافة إلى هجرهما النوم ، ويغنيان باسم الهديل ، ثم شبه إحداهما بكرة من الجلد ملساء ، معلمة الجيد ، مخضوبة الساق والكفين باللون الأحمر ، كأنما شرعت فى دموعه الحمراء .

ثم انتقل إلى الحديث عن العنكبوت وخيوطه فقال :

وسجف العنكبوت الغار محتفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم

قد شد أطنابها فاستحكمت ورست
بالأرض لكنها قامت بلا دعم

كأنها سابرى حاكه لبق
بأرض سابور فى بحبوحة العجم

وارت فم الغار عن عين تلم بـــه
فصار يحكى خفاء وجه ملتثــم

فياله من ستـار دونه قمـــــر
يجلو البصائر من غلم ومن ظلم

فظل فيه رسول الله معتكفـــا
كالدر فى البحر أو كالشمس فى الغسم

إن خيوط العنكبوت تشبه الخيمة المتينة النسج ، كما أنها سدت وجه الغار فأشبه وجه الملتثم ، ثم تعجب البارودى من هذا الستار الذى دونه قمر، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو هو كالدر فى البحر، أو كالشمس وراء السحاب.

ثم قال :

حتى إذا سكن الإرجاف واحترقـــت
أكباد قوم بنار اليأس والوغــم

أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلـــى
من عنده السر من خل ومن حشم

وسار بعد ثلاث من مباتـــــه
يؤم طيبة مأوى كل معتصـــم

إنه يبين أن الرسول لم يخرج من الغار إلا بعد أن يئس الكفار من وجوده ، بل لقد احترقت أكبادهم غيظا وغما ، وأمر بإعداد الراحلة ، ثم خرج من الغار - بعد ما مكث فيه ثلاثة أيام تقريبا قاصدا المدينة المنورة بنوره.

وهكذا وقف البارودى طويلا مع ذلك المشهد الرائع [1]، ولم يمر عليه سريعا كما مر البوصيرى من قبله ، ولا كما مر شوقى من بعده ، إذ قال :

سل عصبة الشرك حول الغار سائمــة
لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعـــوا
همس التسابيح والقرآن من أمم

---

(١) انظر ص ٣٩٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وهل تمثل نسج المنكبوت لهم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخم
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

لقد سخر شوقى من المشركين الذين كانوا يبحثون عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حول الغار فشبههم بالسائمة، ثم أشار إلى همس الكلم الطيب الذى يسمعونه ، والنور الوضاء الذى يرونه ، ولكنهم يعجزون عن الوصول إلى مصدر هذا أو ذاك إذ خيل إليهم أن نسج المنكبوت غاب كثيف ، كما أن الحمام الوادع تمثل أمامهم طائرا جارحا ، ولما يئسوا من الوصول إلى هدفهم، رجعوا إلى ديارهم مهزومين كما يهزم الحق الباطل ، أضف إلى ذلك أن وجوه الأرض كانت تلعنهم ، ثم أشار شوقى إلى أن عناية الله هى التى حفظت الرسول وصحبه ، لأنهما كانا مع الله ، ومن كان مع الله ، كان الله معه .

وهكذا مر شوقى على المشهد بسرعة ، لكن مروره لم يخل من روعة التشبيه الجميل ، والاستعارة اللطيفة [1] .

وبعد : فلقد اضطررت إلى الوقوف مع تلك الفكرة طويلا لأوضح أن الشعراء الثلاثة كانوا يتناولون فكرة واحدة ، ولكن تناولهم لها يختلف وضوحا وخفاء ، وقوة وضعفا ، وحقيقة وخيالا [2] .

وليس معنى ذلك أن ذلك كان ديدنهم فى كل الأفكار ، لا ، بل كانوا — أحيانا — يتناولون بعضها بغير زيادة تذكر، ومن ذلك تقربهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باشتراكهم معه فى الاسم ، فقال البوصيرى :

فإن لى ذمة منه بتسميتى
محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

(١) المرجع السابق ص ٣٢٢ ومابعدها . (٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠١ ومابعدها .

وقال البارودى :

أم كيف يخذلنى من بعد تسميتى
باسم له فى سماء العرش محترم[1]

وقال شوقى :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

ولا يخفى أن البوصيرى هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودى ، ولحقهما شوقى [2] .

٣ـ الوحدة العضوية :

ويراد بالوحدة العضوية : اندماج عناصر القصيدة ، وائتلاف أجزائها ، وحبكة صياغتها ، وتسلسل سياقاتها ، بحيث تبدو كلا مجمعا لا أجزاء متعددة وبحيث لا يمكن أن تحذف شيئا موجودا فيها أو تضيف شيئا غير موجود ، كما لا يمكن أن تقدم متأخرا ، أو تؤخر متقدما ، وتبقى القصيدة بغير خلل [3] .

ولعل تلك التسمية تشير إلى تشبيه القصيدة بالإنسان فى تلاحم أعضائه وتنسيقها فى خلقته تنسيقا منظما بديعا ، بحيث لا يمكن أن تبقى له وسامة خلقته ، واعتدال تكوينه ، إن نقص أو اختل عضو من تلك الأعضاء [4] ، وهذا ما أشار إليه كثير من النقاد القدامى والمحدثين [5] ، ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق عن الحاتمى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ " .. فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله .. [6] " .

---

(١) انظر ص ٤٥٤ من هذه الرسالة .
(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٦ .
(٣) اتجاهات النقد الأدبى العربى ص ٢٥٥ بتصرف .
(٤) فى النقد الأدبى الحديث ص ٣٠٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٠٨ وما بعدها .
(٦) العمدة جـ ٢ ص ١١٧ .

ويقول العقاد : " .. فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى ، يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره فى موضوعه ، إلا كما تغنى الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة .. [1] ".

وإذا كان بعض النقاد قد جعل من شروط الوحدة العضوية فى القصيدة أن تتناول فكرة واحدة ، أو غرضا واحدا [2] فهل معنى ذلك أن - البردة وكشف الغمة ونهج البردة قد خلت كلها من الوحدة العضوية ، لأنها قد اشتملت على كثير من الأفكار يجمعها غرض واحد ، وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) - كما سبق - [3] .

ويبدو أن ذلك الاتجاه ليس محل إجماع النقاد ، إذ ذهب بعضهم إلى أن تعدد أفكار القصيدة لا يتعارض مطلقا مع وحدتها ، وترابطها .... ترابطا متينا محكما ، لأن وحدة القصيدة قائمة على أساس من ترابط الأجزاء فكريا بعضها ببعض ... [4]

أضف إلى ذلك أن الشاعر يتصور عمله وحدة متلاحمة الأجزاء ، يسلم الواحد منها إلى صاحبه ، ويتقدم الواحد منها على أخيه لعلة نفسية ، وسبب فنى [5] .

ولعل مما يؤكد ذلك قول ابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ : ".. يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة ، فى اشتباه أولها بآخرها : نسجا وحسنا وفصاحة .. ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا [6] .. بألطف تخلص ، وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به ، وممتزجا معه .. [7] .

---

(١) عباس العقاد والمازنى : الديوان فى النقد والأدب جـ ٢ ص ٤٥ وما بعدها مطبعة مصر سنة ١٩٢١ .
(٢) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : وحدة القصيدة فى الشعر العربى ص ٥ ، ٢٩ مطبعة المنيرة بمصر سنة ١٩٥٢ .
(٣) انظر ص ٨١ وما بعدها من هذه الرسالة .
(٤) فى النقد الأدبى الحديث ص ٣١١ بتصرف .
(٥) المرجع السابق ص ٣١٢ .
(٦) ابن طباطبا : عيار الشعر - تحقيق طه الحاجرى ومحمد سلام ص ١٢٤ المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٥٦ .
(٧) المرجع السابق ص ٦ .

وعلى هذا تكون الوحدة العضوية قد وجدت فى البردة وكشف الغمة ونهج البردة، وإن تفاوتت قوة وضعفا ، إذ هى فى كشف الغمة أقوى منها فى البردة ونهجها ، كما سبق بيان ذلك عند الحديث على ترتيب أفكار تلك القصائد [1] .

ولقد ذهب بعض الشعراء إلى اشتراط الوحدة الفنية فى القصيدة لا وحدة الغرض والموضوع ، وهذا ما نسبه بعض النقاد إلى الشاعر الزهاوى المتوفى سنة ١٩٣٦ ، عندما ذكر أنه — الزهاوى — قال : " .. من الشعراء المصريين من لا يجوز أن تشتمل القصيدة على مطالب مختلفة ، كأنه يفضل أن تكون الروضة قد أنبتت شكلا واحدا من الزهر ، ولكنى لا أرى رأيه ، وأى لوم على من أطال قصيدته، وجعلها فى مطالب مختلفة ، تربط بعضها ببعض مناسبات بينها ... فيتمتع القارئ أو السامع بألوان مختلفة من الأدب فى القصيدة الواحدة ، نعم إن الشاعر إذا بدأ يصف شيئا وجب عليه أن يستوفى ذلك الوصف ، ثم ينتقل إلى غيره ، وكذلك إذا شرع يروى قصة وجب عليه ألا يخرج من الموضوع إلا بعد إعطائه حقه .. [2] " وذكر أنه قال أيضا : " وهناك شىء ، يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو وجوب أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ، ولا ينوع الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة، فكثيرا ما يحصر شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ، وإذا نوع الموضوع فهو يتسلل إلى الثانى بمناسبة بعد فصله من الأول ، مريدا بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافى ما يفعله شعراء الغرب، ولكل أمة سياق ونزعة ليست لأختها " [3]

وأرى أن ذلك الرأى لاغبار عليه ما دام الشاعر سينتقل من فكرة إلى أخرى بينهما مناسبة، ويوفى كل فكرة حقها، وتندرج هذه الأفكار كلها تحت غرض واحد ،

---

(١) انظر ص ٦٩٦ من هذه الرسالة . (٢) وحدة القصيدة فى الشعر العربى ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

وهذا ما أكده العقاد بقوله : " إن القصيدة تكون كلا واحدا ، ذا موضوع تنحصر فيه الأغراض ، ولا تنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جوانبها وأطرافها جميعا ، وذلك إذا طال نفس الشاعر ، واستقصى معناه ، واسترسل فيه.. [1] "
كما ذكر بعض النقاد " أن الوحدة المطلوبة فى الشعر إنما هى الوحدة الفنية لا الوحدة العضوية ، وبتلك الوحدة الفنية تتكامل القصيدة ، وتدب فيها الحياة [2] ".

٤ ـ العاطفة :

والمراد بالعاطفة فى فن الشعر هى تلك الحالة التى تتشبع فيها نفس الشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة ، وتؤثر فيه تأثيرا يدفعه إلى التعبير عن مشاعره ، والإعراب عما يجول بخواطره [3] .

وللعاطفة أهميتها فى النص الأدبى ، إذ هى عنصر من أهم عناصره وبها يتميز الأدب الصادق من الأدب الزائف ، فأما الأدب الصادق فيكون تعبيرا عن عاطفة قوية ، تجيش بنفس الأديب ، وأما الأدب الزائف فهو أدب خمدت عاطفة صاحبه ، ويحتاج إلى الصّدق الشعورى [4] .

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن عاطفة البوصيرى وصاحبيه ، أكانت صادقة عندما نظموا قصائدهم الثلاث أم غير صادقة ؟

لا يخفى أننا لو تأملنا حياة الشعراء الثلاثة لوجدنا أنهم يشتركون فى صفات كثيرة منها : إيمانهم بالله ورسوله ، وإعجابهم ببطولة الرسول وأصحابه وكفاحهم ضد المشركين ، ولا شك فى أن مثل هذه الصفات تحرك العاطفة وتثير الإحساس ، إلا أن عاطفتهم تفاوتت ـ قوة وضعفا ـ فى قصائدهم لصفات انفرد بها كل واحد منهم عن الآخر .

---

(١) عباس العقاد : ابن الرومى ـ حياته من شعره ، ص٣١٦ المطبعة التجارية بمصر سنة ١٩٥٠ .
(٢) اتجاهات النقد الأدبى العربى ص٢٦٦ .
(٣) الدكتور محمد خفاجى : دراسات فى النقد العربى الحديث ومذاهبه جـ٢ ص٢٤ بتصرف ـ دار الطباعة المحمدية بمصر (غير مؤرخ) .
(٤) الإسلام فى شعر شوقى ص١١٣ بتصرف .

فالبوصيرى — فى بردته — أقوى من صاحبيه عاطفة — فى قصيدتيهما — ولعل مرد ذلك إلى ظروف إنشائه القصيدة ، إذ كان — كما قيل — مريضا يثقله الداء ، وتضنيه العلة ، فنظم البردة لعلها تكون وسيلة إلى إبرائه ، وسببا فى شفائه[1] ، أضف إلى ذلك تأثره بما وقع فى عصره من حروب صليبية ، وفتن واضطرابات ، من شأنها أن توقد العاطفة ، وتلهب المشاعر ولذلك يقول بعض الكتاب : " إن تتابع الويلات يوقد العاطفة الدينية ، ويجعل الناس يلجأون إلى ربهم ، ويتوسلون بنبيهم (صلى الله عليه وسلم) يبتغون النجاة .. [2] " .

أضف إلى ذلك حفظه القرآن الكريم ، بل لقد أنشأ كتابا — بضم الكاف — يُحفظ فيه القرآن نظرا لشدة فقره ، كما انتسب إلى السادة الشاذلية على يد أبى العباس المرسى ، ولا شك فى أن كل هذه الأمور كان لها أثر كبير فى صهر عاطفة البوصيرى ، وإثارة مشاعره ، ولعل مما يشير إلى ذلك تلك الزفرات الحارة فى قوله :

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم حمية الندم

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

أستغفر الله من قول بلا عمل
لقد نسبت به نسلا لذى عقم

وإذا كان من مظاهر قوة العاطفة — كما قال بعض النقاد — " .. أنها تهيج فى نفوس القراء أصداء لها .. [3] " ، فمن ذا الذى يقرأ قول البوصيرى :

أطعت غىّ الصبا فى الحالتين وما
حصلت إلا على الآثام والندم

---

(١) انظر ص ٦٦ من هذه الرسالة .
(٢) شوقى شعره الإسلامى ص ١٨٢ .
(٣) الإسلام فى شعر شوقى ص ١١٤ .

فياخسارة نفس فى تجارتهـــا
لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم

أقول من ذا الذى يقرأ ذلك القول ، ولم تتأثر نفسه ، ولم تخجـل جوارحه ،ولم يتسرب الندم إلى قلبه ، ولم يقبل على طاعة ربه ، بل من ذا الذى يقرأ قوله :

يانفس لا تقنطـى من زلـة عظمـت
إن الكبائر فى الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمهـــا
تأتى على حسب العصيان فى القسم

أقول من ذا الذى يقرأ ذلك القول ، ولم يطمع فى رحمة الله ، ولم يأمل أن ينال مغفرته ، إن هذا كله دليل على قوة عاطفة الشاعر فى قصيدته ومما يؤكد ذلك هذا العدد الكبير من الناس الذى يقبل عليها قراءة وحفظا .

والجدير بالذكر أنه لا يلزم من قوة العاطفة أن تكون ثائرة مضطربـــة كما يشعر بذلك لفظ (قوة) ، بل قد يكون الأدب هادئا رزينا .. ومع ذلــك يحمل قارئه على الارتباط به ، وهذا ما أشار إليه بعض النقاد ، وأكده بقوله : " إن المقصود من قوة العاطفة .. قدرة النص على إيقاظ نفس قارئه أوسامعه[1] " .

ولعل هذا هو الذى دفع المسئولين فى وزارة الثقافة والإعلام إلى إقامة ما أسموه (أمسية البوصيرى) إذ أنشد بعض الفنانين كثيرا من شعر البوصـيرى فى المدائح النبوية ، وبخاصة من البردة ، ولقد شاهد تلك الأمسيـة كثير من الناس، وأعجبـوا بها مع اختلاف ثقافتهـم .[2]

وكذلك كانت عاطفة البارودى قوية فى قصيدته (كشف الغمة) ، ولعل ذلك يرجع إلى شدة شبه الأسباب والدوافع التى دفعته إلى إنشاء هــــذه القصيدة بالأسباب التى دفعت البوصيرى إلى إنشاء قصيدته .

كان البارودى - عندما نظم قصيدته - منفيا ، تساوره آلام الغربـــة ،

---

(١) فى النقد الأدبى الحديث ص ١٤٥ ، ١٤٧ .
(٢) انظر صحيفة الأهرام المصرية الصادرة فى ٧٧/٩/٩ ص ٣ ، ص ١١ وصحيفة الأخبار المصرية الصادرة فى ١٩٧٧/٩/٤ ص ١ .

ومرارة الوحشة وتحز في نفسه قسوة النفى ، وقد شاقه الأهل والأحباب، وأخذت بلبه الديار والأوطان ، ولكن لا معين ولا نصير ، وانقطعت أسباب الأمـــل ، واصطلحت عليه الخطوب ، وتزاحمت لديه الكروب فأكب على إنشاء هذه القصيدة وقصد بها أن تكون ضراعة إلى ذى الجلال والإكرام ، ليكشف بها غمته ، ويزيل بسببها كربته ، ويذهب محنته [١].

ولقد جرد الشاعر من ماله وألقابه ، ونفى من دياره ، وترك أهلـــه وخلانه ، وماتت زوجته ، كما فقد بعض أولاده ، وبعض أصدقائه ، فحـــزن عليهم حزنا شديدا ، كان سببا فى مرضه الذى اشتد به ، ولا يخفى أن كـــل هذه الأمور من شأنها أن تقوى العاطفة ، ويؤكد ذلك بعض النقاد بقوله: "فموت العزيز ، والمرض الممض ، والحرب المدمرة ، والعدو الظالم .. والصاحـــب المنافق ، والخسارة الفادحة ، وغير ذلك مما من شأنه أن يحدث فى النفس ندوبا عميقة الغور ، تهيج المشاعر ، وتدفعها إلى القول والتنفيـــس عن آلامها ، والتعبير عن همومها ، تعبيرا فيه من صدق الإحساس ما يهبه القوة ، ويمنحه الخلود [٢] .."

ولعل قول البارودى :

تكاءدتنى خطوب لو رميت بهـــا
مناكب الأرض لم تثبت على قدم

فى بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تحنو على صنـــم

لا أستقر بها إلا علــى قلـــــق
ولا ألذ بها إلا على ألـــــم

إذا تلفت حولى لم أجد أثـرا
إلا خيالى ، ولم أسمع سوى كلمى

فمن يرد على نفســى لبانتهـــا
أو من يجير فؤادى من يد السقم

---

(١) الشعر فى العصر الحاضر وأثر البارودى فيه ص٩٨ .
(٢) فى النقد الأدبى الحديث ص١٣٧ وما بعدها بتصرف .

أقول لعل ذلك القول يوضح ما فى نفس الشاعر من جراحات ، وما فى قلبه من هموم ، بل إنه ليؤكد ذلك بقوله :

إنى وإن مال بى دهرى وبرح بى
ضيم أشاط على جمر النوى أدمى

لثابت العهد لم يحلل قوى أملى
يأس ولم تخط بى فى سلوة قدمى

لم يترك الدهر لى ما أستعين به
على التجمل إلا ساعدى وفمى

إن عاطفة الشاعر قوية فى قصيدته بعامة ، ولا ينافى ذلك أنها ضعفت فى بعضها بسبب نظمها على نسق سيرة ابن هشام ، إذ لم تلبث أن ظهرت قوية فى تضرعه إلى ربه فى مثل قوله :

شكوت بثى إلى ربى لينصفنى
من كل باغ عتيد الجور أو هكم

أضف إلى ذلك : أن استمرار - قوة - العاطفة صعب فى الملاحم الطويلة(١) ، كما قال بعض النقاد ، ويؤكد ذلك قول بعض الكتاب : " وإذا كانت درجة حدتها - العاطفة - تختلف من مقطع إلى آخر .. فإن هذا الاختلاف لا يشعر القارئ بأن العاطفة تتوارى أو تغيض .. (٢) " .

ولعل مما ساعد على قوة عاطفة البارودى فى قصيدته أنه نظمها فى كهولته وغربته بعد أن مرت فترة عهابه بما كان فيها من لهو الشباب إذا صح ما أشار إليه بعض الكتاب(٣) ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الشاعر يخطب الجمعة فى بعض مساجد منفاه ، ويعلم الناس القرآن الكريم ، واللغة العربية - كما سبق - (٤)

---

(١) دراسات فى النقد العربى الحديث ومذاهبه ج ٢ ص ٣٨ .
(٢) الإسلام فى شعر شوقى ص ١١٤ .
(٣) مقدمة ديوان البارودى ج ١ ص ١٨ ، والبارودى رائد الشعر الحديث ص ١٨٢ .
(٤) انظر ص ٢٤٤ من هذه الرسالة .

أما شوقى فكان الضعف غالبا على عاطفته فى نهجه ، ولعل ذلك يرجع إلى مناسبة نظمه تلك القصيدة ، إذ نظمها كما قال : (تذكارا لحج الخديوى) . وهذه مناسبة طيبة ، إلا أنها لا توءجج العاطفة ، ولا تلهب الإحساس ، بخلاف مالو كان شوقى نفسه هو الذى أدى الحج ، أضف إلى كل هذا ظروف أخرى أحاطت بالشاعر من شأنها أن تقلل من قوة عاطفته ومنها : هروبه من الخديوى عندما خرج معه للحج ، مما دعا ابنه إلى أن يقول عنه : " ألم يكن أبى أنانيا عندما تخلى عن الخديوى حين سافر سموه إلى الحجاز ليوءدى فريضة الحج ؟ [1]" فمن ذا الذى تتاح له تلك الفرصة الطيبة ، ثم يهرب منها ولا ينتهزها .

أضف إلى ذلك أن الشاعر نظم تلك القصيدة وهو فى ريعان شبابه ، وكان كما قال عنه أحد أصحابه : " عرفته ولم يكن يشرب من الخمر إلا كأسين عقب انقلابه إلى داره فى الثانية صباحا .. [2] " وكان ذلك فى آخر أيام حياته ، أما قبل ذلك فكان " يشرب ثلاثين كأسا فى اليوم الواحد .. [3] " ، ويؤكد ذلك بقوله : " ومن المستغرب أن شاعرنا - شوقى - نظم كل قصائده الدينية ، ومن بينها البردة وهو فى ظل شبابه ، وفى إبان عبثه ولهوه وكلفه بالخمر ، واختلافه إلى ملاعب اللهو .. [4] " .

ولعل هذا هو الذى دعا الدكتور زكى مبارك إلى أن يقول : " .. وأين شوقى من البوصيرى ؟ لقد كان البوصيرى من أئمة الصوفية ، أما شوقى فقد كان حين نظم قصيدته من رجال القصر ، وكان يحسن أن يقول :

رمضان ولّى هاتها ياساقى

مشتاقة تسعى إلى مشتاق[5]

كما أشار بعض الكتاب إلى مثل ذلك موءكدا ضعف عاطفة شوقى فى المدائح النبوية بعامة ، فقال : " .. وقد أطلت النظر فى المدائح النبوية وأطلت التفكير فى مسالك الشعراء فيها ، وقد اهتديت إلى أن هذه المدائح

---

(١) أبى شوقى ص ١١ .
(٢) حياة شوقى ص ٣٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٤ .
(٥) الموازنة بين الشعراء ص ٢١٥ ، والشوقيات جـ ٢ ص ٦٢ .

ترجع إلى منبعين أساسين :

فمنها مدائح مصدرها العاطفة الصادقة ، المشبوبة ، القوية ، الدائمة، وآية ذلك شوما تحس نيها من الطبع والصدق ، وقوة الانفعال ، وجيشان المشاعر ،وترك النفس على سجيتها ، ومن أمراء هذا اللون من المدائح ... البوصيرى ..

ومنها مدائح مصدرها العقل ، وفى هذا اللون تتجلى الصنعة والتكلف ، كما نراه فى مسالك الشعراء الذين اتخذوا من المديح وسيلة لإظهار براعتهم فى النظم .. وأبعد من ذلك فى التكلف ، وكذب العاطفة ، أن تتخذ هذه المدائح وسيلة لتسمية فنون البديع .. ومن أبطال هذا الفن صفى الدين الحلى وابن حجة الحموى .

كما أنى أعد من هذا النوع - المدائح التى مصدرها العقل - هذا الشعر الذى .. يفقد الروح الدينية الخالصة العميقة ، وكثير من قصائد المديح من هذا القبيل ، ومن ذلك مدائح شوقى ، وهذا الرأى يشاركنى فيه كل ذواقة للشعر، وكل ذى إحساس صادق بمواطن الصدق والتزييف فى العواطف كما أنه يريحنا من خبط النقاد والكاتبين ، فقد أرادوا أن يوفقوا بين انكباب شوقى على الملاهى والملذات ، وأخذه منها بالنصيف الموفور ، وبين قوله فى مدح الرسول وفى الأغراض الدينية بعامة ، فقال قائل : إن ذلك من ازدواج الشخصية .. وقال آخرون : إن شوقى قال هذه القصائد بعد أن ودع طيبات الحياة ، وتقدمت به السن ، وهذا فيما أعتقد جهل بالتاريخ ، فما أعرف أن الشاعر تخلى عن طيبات الحياة ، وأعرف أن بعض هذه القصائد قالها وهو يغذى شاعريته بالصغير والكبير .

ولست أستبعد أن يتوب المذنب... ولكن شعر شوقى .. لا يدل على أن الرجل - شوقى - متدين ، وإنما كان شاعرا كبيرا يمجد بطلا عظيما ..[1]

---

(١) مجلة الأزهر - المجلد ٣٢ جـ ٣ ، ٤ سنة ١٣٨٠ ص ٢٦٦ بتصرف .

وليس معنى ذلك أن قصيدة شوقي - نهج البردة - قد خلت كل أبياتها من العاطفة القوية ، كلا ، إنك تحس بتلك العاطفة القوية في ندم الشاعر بخاصة ، ولعل ذلك هو ما أشار إليه بعض النقاد بقوله : "·· ومن هنا سنحت له - لشوقي - الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ، ويرسل بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول :

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل
في الله يجعلني في خير معتصم

وكان شوقي أوفر الناس إحساسا بخطر ذنبه ، وكرم ربه ، حين قال :

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة
قدمت بين يديه عبرة الندم[1]

٥ - الخيال :

وهو - كما قال بعض النقاد : " القوة التي تنفث في الأدب الحياة والحركة ، وتمده بالصور الوفيرة المجسمة لإحساس الأديب ومشاعره ، والتي تساعدنا على الإحساس بالتجربة الأدبية التي مر بها الفنان ·

وهو عامل مهم من عوامل الإثارة الفنية ، لأنه عدة الأديب في تجسيم انفعالاته وتجسيد مشاعره ·· ولكنه ليس زينة كزينة الحلي والرياش ، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشيا وتطريزا لأدبه ، وأن يصبح كالأصداف التي تخز البصر ببريقها دون أن تفضي إلى رمز أو دلالة تؤديها[2] ·

وتبدو صور الخيال في النص الأدبي في التشبيه ، والاستعارة والكناية[3] ، وغير ذلك من الفنون البيانية والبديعية التي ليست غرضا في ذاتها ، ولكنها وسائل لتلك الإثارة النفسية ، ومدعاة لتلك الانطلاقات الفطرية ، ومظاهر مختلفة لانطباعات المواقف المختلفة في نفس الأديب ·· [4] ·

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٢١٦ ·
(٢) في النقد الأدبي الحديث ص ١٧٢ وما بعدها بتصرف ·
(٣) دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه جـ ٣ ص ٤٤ ·
(٤) في النقد الأدبي الحديث ص ١٧٨ ·

ولا يخفى أن الصورة الخيالية الحية هي المظهر الصادق لانفعال الأديب وأمارة قدرته الفنية ، وموهبته الأدبية ، ومصدر ذلك كله نفس الأديب ، تلك النفس التي تميزت عن غيرها من النفوس بقدرتها على الحل والتركيب، واختزان المرئيات والمسموعات وغيرها من المحسوسات(١) .. التي تجعل الشاعر يعقد الموازنات والمقارنات والمشابهات بين الأشياء التي لا تتصور عقولنا غير الشاعرة وجود صلة بينهما (٢) ..

وإذا تأملنا بردة البوصيري وجدناها قد اشتملت على صور متعددة للخيال الموحي ، فهو مثلا عند حديثه عن النفس وقف معها وقفة الخبير بأحوالها ، العليم بأسرارها،تأمل كيف أشار إلى رعونتها،وشدة نفارها بقوله :

من لي بــرد جماح من غوايتها

كما يرد جماح الخيل باللجم

لقد أتى بتشبيه محسوس ، واختاره من الواقع الملموس ، ليؤكد به فكرته،ويرسم صورة واضحة لتلك النفس الأمارة بالسوء ، ولا يخفى أن النفس كما يقول عبد القاهر : تطمئن في التشبيه والتمثيل إلى الحسي والضروري والمألوف (٣) ،

ثم تأمل كيف بين الطريق الصحيح لمعاملة تلك النفس عندما شبهها بالطفل في قوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

كما أنه عند حديثه عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشار إلى تصدع إيوان كسرى ، كما أشار إلى تفرق أصحاب كسرى في تشبيه جميل في قوله :

وبات إيوان كسرى وهو منصدع

كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والملاحظ أن تشبيهاته - غالبا - واضحة سهلة محسوسة ، مثل : تشبيه آيات القرآن ومعانيها الكثيرة بموج البحر في قوله : (لها معان كموج البحر في مدد) وتشبيه الرسول في ليلة الإسراء بالبدر ، في قوله : (سريت .. كما سرى البدر في داج

(١) المرجع السابق ص ٢٧٦ . (٢) الدكتور محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث ص ١٤ مطبعة زهران بمصر سنة ١٩٦٨ .

(٣) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٠٢ .

من الظُلَم) ، وتشبيه نفسه عندما اكتسبت بعض المعاصي بالهَدْى فى قولـه:
(كأنني بهما نَدْى من النعم) وغير ذلك كثير .

ولم تقل روعة استعاراته وكناياته عن روعة تشبيهاته، تأمل مثلا تلك الاستعارة اللطيفة فى قوله : (ظلمت سُنّة من أحيا الظلام ..) إنه يبين أن من ترك سنة الرسول كان ظالما لنفسه، وهذا حق..(١) ثم يوضح أثر قيام الليل ، كما يشير إلى عظمة التمسك بالدين الحنيف والقرآن الكريم فى قولـه:
(فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم) ، وقوله : (لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) وهذا قليل من كثير منتشر فى البردة .

وأما قصيدة البارودى - كشف الغمة - فقد امتلأت بالخيال الرائع والتصوير الجميل ، تأمل كيف شبه الشاعر سرعة مرور القطاة فى قوله : (..كلمع البرق فى الظلم) ، وفى قوله : (كأنها أحرف برقية نبضت ..) ، كما بين أثر الحقد فى قوله : (والحقد كالنار ..) ، ولا يخفى إبداع البارودى فى تصويره هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحديثه عن الحمام والعنكبوت - كما سبق (٢) - أضف إلى ذلك هذا التشبيه الجميل الموحى، وتلك الصورة الرائعة فى قوله:

كأنما البيض بالأيدى صوالجة

يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم

وتلك الكناية الموحية فى وصفه جيش المسلمين بأنه : (عرمرم ينسف الأرض الفضاء ..) وقوله : (بيض أساورة) ، أضف إلى ذلك هذا التشبيه الرائع وتلك الصورة الجميلة فى قوله يصف خيل المسلمين :

كأن آذانها فى الكر ألوية

على سفين لأمر الريح مرتسم

وتشبيهه رماحهم بقوله :

كأنه أرقم فى رأسه حمة

يستل كيد الأعادى بابنة الرقم

---

(١) إذ حرمها من ثواب فعل السنة التى تركها .

(٢) انظر ص٣٦٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وكذلك شوقى فى نهج البردة قد أبدع فى خياله ، تأمل كيف أشار إلى طغيان النفس بقوله :

تطغى إذا مكنت من لذة وهـوى

طغى الجياد إذا عضت على الشكم

كما أشار إلى تحكم الأقوياء فى الضعفاء وظلمهم إياهم قبل البعثة بقوله :

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم

كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

وشبه استقبال الأنبياء رسول الله ليلة الإسراء والتفافهم حوله بقوله : (كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم) .

ولا تخفى روعة ذلك التشبيه البليغ فى قوله : (والجهل موت) وتلك الاستعارة الجميلة فى قوله : (.. وأنت أحييت أجيالا من الرمم) وفى قوله : (نبهت شعوب من منيتها ..) بالإضافة إلى خياله الرائع عند حديثه عن معجزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) - كما سبق [1] -

إن كل ما ذكرته من التشبيهات والاستعارات والكنايات عند البوصيرى والبارودى وشوقى، ما هو إلا أمثلة فحسب ، وليست على سبيل الحصر ، والقصائد الثلاث مليئة بالخيال - وقد أشرت إليه بالتفصيل عند تحليل كل منها - وصوره فى الغالب صور جزئية ، والشعراء الثلاثة متقاربون فيها .

إلا أننى أرى أن الشعراء الثلاثة قد اشتركوا فى وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومدحه بكثير من الأوصاف المتداولة ، كتشبيهه (صلى الله عليه وسلم) بالبحر ، والبدر والأسد وغير ذلك مما أشار إليه البوصيرى فى مثل قوله :

كالزهر فى ترف والبدر فى شرف

والبحر فى كرم ، والدهر فى همم

---

(١) المرجع السابق ص٢ ٥٣ ومابعدها .

ومما ذكره البارودى فى مثل قوله : (•• أنوار غرته كالبدر فى البهم)
وقوله :(•• كالدر فى البحر أو كالشمس فى القسم)، ومما ذكره شوقى فى مثل قوله مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

البدر دونك فى حسن وفى شرف

والبحر دونك فى خير وفى كرم

نعم إن شوقى جعل حسن البدر أقل من حسن الرسول ورفعته ، كما جعل البحر أقل من الرسول فى الكرم ، ولكن هذا لا يمنع من أن هذه التشبيهات — التى سبق ذكرها — شائعة اللفظ والمعنى وليس فيها جديد ، وإذا كان بعض النقاد قد قال :" •• لا سبيل للاستغناء عنها ، لأنها تتضمن فضائل وأوصاف خالدة ، فالشجاعة والكرم ، وعلو المنزلة ، والجمال ، محاسن لا يختص بها جيل دون جيل ، ولا يرضى عنها قبيل دون قبيل ، فالناس قديمهم وحديثهم فى الإعجاب بها سواء ، وسيظل شأنهم كذلك فيما تقدر ، أما تشبيه أصحابها بالأسد والثريا والقمر وأمثالها فلا ضير فيه ، مادمنا نرى الأسد أشجع المخلوقات ، والبحر أغزر الأشياء مادة ، والسحاب أعمها فيضا ، والنجم أعلاها مكانا ، والقمر أجملها — فى تقديرنا — وجها ، وأوسعها ضياء ، ولم ترشدنا الحياة حتى اليوم إلى ما يفوق تلك الأشياء فى خصائصها ، أو ما يماثلها ••[1] "
أقول إذا كان بعض النقاد قال ذلك ، فإننى كنت أود أن لا يقصر الشعراء على تلك الأوصاف ؛ " لأن الاقتصار والتحجر على تلك الألفاظ والمعانى المحفوظة المشتركة عيب ، والتزامهما فى أغلب المدائح •• إساءة للشاعر والشعر " كما قال بعض النقاد [2] .

ولعل شوقى قد فاق صاحبيه عندما جعل حسن الرسول أكثر من حسن البدر ، وكرمه أوسع من كرم البحر — كما سبق — فتصرف فى التشبيه بعض التصرف الحسن الذى أخرجه من الجمود بعض الشئ .

---

(١) المتنبى وشوقى ص ٢٦٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

٦ ــ الأسلــــوب :

والمراد بالأسلوب الألفاظ والعبارات وطريقة التأليف بينها، ليعبر بهـــا الأديب عن أفكاره ، ويفصح بها عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات، وليست اللغة وسيلة من وسائل التعبير عن أفكار الإنسان وعواطفــه فحســب بل إن اللغة الحية ، تتضمن إلى جانب ذلك خصائص جمالية ، تستروحهــــا النفس ، وتطمئن إليها الأذن ،ولغتنا العربية غنية بأسباب هذا الجمــــال[1] إذ أن التركيب الموسيقى أصل من أصولها ، ولا ينفصل عن تقسيم مخارجها ،ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها ــ فأصبح لها ــ كما قال العقاد ــ : من الشعر الموزون فن مستقل بإيقاعه عن سائر الفنون التي يستند إليها الشعر في كثــير من اللغات ، فلا حاجة بالشعر العربي إلى إيقاع الرقص الذى يصاحب إنشاد الشعر في اللغات الأخرى ، لأن أشعار تلك اللغات تستعير الحركه المنتظمة من دقات الأقدام وحركات الأجسام ..[2] .

ومهما يكن من شيء ، فإن الحديث عن الأسلوب يتطلب البحث فـــــي المفردات ومدى سلامتها وفصاحتها ، ومناسبتها للمقام ، والعبارات وما بهـــــا من موسيقى وما تضمنته من وفاق وانسجام ، ومدى مناسبتها للتجربة التي تعــــبر عنها ــ وما فيها من ظلال وإيحاءات ترتاح لها النفس بالإضافة إلى بيــــــان ما في الأسلوب من سمات وقصور ، أو غموض واضطراب .

وبعد دراستي قصيدة كل من البوصيرى والبارودى وشوقي ــ فيما سبـــق ــ أستطيع أن أقول : إن ألفاظها بعامة جيدة ، جامعة للرقة والجزالة ، والسهولة والطلاوة ، وهذا يظهر بوضوح عند الوقوف على ما وضعه بعض النقاد من مقاييـــس يقيسون بها الكلمة المستعملة في الأساليب الأدبية [3] بعد مراعاة ما قـــرره علماء البلاغة في فصاحة الكلمة ــ من خلوصها من تنافر الحروف ، والغرابـــة ، ومخالفة القياس[4] ــ ومن ذلك :

---

(١) في النقد الأدبي الحديث ص ١٩٨ .
(٢) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٣١ ومابعدها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ .
(٣) في النقد الأدبي الحديث ص ١٩٨ .
(٤) التلخيص ص ٢٤ ومابعدها .

أ — الدقـــة :

أى دقة الكلمة فى أداء المعنى الذى يريده الشاعر ، أو الأديـب، وذلك لأن الكلمات برغم ما قد يبدو فيها من ترادف ، يكون بعضها أدل على إحساس الشاعر من بعض[1] ، وهذا واضح فى أغلب الكلمات بالقصائد الثلاث، فمثلا فـى قول البوصيرى عن آيات القرآن الكريم :

ما حوربت قط إلا عاد من حـرب
أعدى الأعادى إليها ملقى السلم

نجد أن كلمة (.. حوربت) تشير إلى ما كانت تلاقيه تلك الآيـات من عنت المشركين والوقوف فى سبيلها بكل ما يملكهم ؛ ولكنها سرعان ما تتمكـن من شغاف قلوبهم ، فيحسون بروعتها ، ويعترفون بجلالها وشرفها .

ونجد مثل ذلك فى قول البارودى :

وكان ذا رمد فارتد ذا بصـر
بنفثة أبرأت عينيه من ورم

إنه يشير إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه — عندما أصابه رمد فى غزوة خيبر ، ولما طلبه الرسول ليعطيه الراية ، قال له الصحابة : إن به رمـدا فتفل الرسول فى عينه فبرئت ، وأراد البارودى أن يبين معجزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك الأمر ، فقال : (بنفثة) ألاترى أن فى ذلك اللفـظ النكرة إشارة إلى سرعة الشفاء بسبب هذه النفثة الصغيرة .

وفى قصيدة شوقى أيضا ما يدل على دقة ألفاظه ومن ذلك قوله :

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهـم
وحائط البغى إن تلمسه ينهـدم

فالشاعر يشير إلى قوة أسس الشريعة الإسلامية التى بنى عليها المسلمون حضارتهم ومنها العدل ، ثم ذكر أن البناء الذى يقوم على العدل لا يستطيع الدهـر هدمه ، أما حائط الظلم فمهما كانت قوته ، (إن تلمسه ينهدم) ، ولا يخفى أن لفظ (تلمسه) يدل دلالة قوية على ضعف ذلك البناء ولا شك فى أن الشاعر قد أحسـن فى اختياره ذلك اللفظ ليعبر عن فكرته .

---

(١) فى النقد الأدبى الحديث ص ٢٠٠ .

ب ـ الإيحــاء :

ومعناه قدرة الكلمة على أن تثير جملة انفعالات قوية جميلة إلى جانب ما تؤديه من معنى ـ كما قال بعض النقاد ـ لأن بعض الكلمات تحمل شحنة عاطفية غامرة ، تستشفها منها النفس إلى جانب ما يفهمه منها الفكر[1] ، ومن ذلك قول البوصيرى : (يارب واجعل رجائى غير منعكس..) وقول البارودى : (وصل رب على المختار ..) ، وقول شوقى : (يارب أحسنت بدء المسلمين به..) فالشعراء الثلاثة ذكروا لفظ (رب) ، وهو يشير إلى الاعتراف بالربوبية ، ويوحى بالخضوع والخشوع لله ، بالإضافة إلى حسن الظن به سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذى ربانا ، وعطف علينا ، وأحسن إلينا .

جـ ـ التكريــر :

ولا يخفى أن الكلمة إذا تكررت فى البيت الواحد مثلا تعد حشوا إذا لم يكن لذلك التكرير فائدة كالتأكيد والتشويق وغير ذلك ، وهذا ما نراه فى قول البوصيرى : (ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت..) إذ كرر لفظ (ظنوا) تأكيدا للسخرية من تفكير هؤلاء الكفار والاستهزاء بهم.كما كرر البارودى الفعل (يحيى) فى قوله :

يحيى البرايا إذا حان المعاد كما
يحيى النبات بشؤبوب من الديم

لبيان قدرة الله تعالى ، وتأكيد وقوع البعث يوم القيامة .. كما كرر شوقى لفظ (النفس) فى قوله :

والنفس من خيرها فى خير عافية
والنفس من شرها فى مرتع وخم

ولا يخفى أن الشاعر كرر ذلك اللفظ للاهتمام بأمر النفس ، والعناية بشأنها ، وبيان خطرها .

---

(1) المرجع السابق ص ١٠٢ .

د - الكلمات غير الشعرية :

ويراد بها تلك الكلمات التى لم تجر عادة الشعراء باستعمالها ، إما لأنها مبتذلة فى الشعر ، وقد خلصت قصائد الشعراء الثلاثة من هذه الكلمات إلا بعض الألفاظ القليلة فى قصيدة البوصيرى مثل لفظ : (٠٠ضرتها) وفى قصيدة البارودى مثل لفظ :(وحينما ، وحين ، بينما) كما سبق [1] وبعض الكلمات فى قصيدة شوقى مثل كلمة :(ركوبة ، ولأجل ، والمشايخ) .

وإما لغلبة استعمالها على ألسنة أخرى - غير ألسنة الأدباء - مثل قول البوصيرى : (٠٠ هَدْىٌ من النعم) ، ومثل قول البارودى : (٠٠ معتمر لنيل ما فاته بالهَدْى للحرم) ، وقوله (٠٠ طاف بالبيت سبعا ٠٠) ومثل قول شوقى : (ضحيت بالغنم) لأن مثل هذه الألفاظ يغلب استعمالها عند الفقهاء .

وإذا كانت هذه بعض المقاييس التى وضعها بعض النقاد لقياس الكلمة المستعملة فى الأساليب الأدبية ، فإنهم قد وضعوا بعض المقاييس للجمل والتراكيب، بعد مراعاة فصاحة الكلام عند علماء البلاغة - من خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها [2] - ومن تلك المقاييس .

أ - الوضوح : والمراد به انكشاف المعنى وسهولة فهم المراد بغير غموض أو التواء، لأن الكلام الغامض، يصرف الأذن عن متابعته ، والنفس عن مسايرته ، بخلاف الكلام السهل الواضح ، فإنه يهز النفس ، ويثير الخاطر ، ويحرك الفؤاد [3] ، ولا يكون الكلام واضحا - كما قال بعض النقاد - إلا إذا كانت كلماته مختارة منتقاة ، واضحة الدلالة ، مفهومة المعنى . [4] وهذا ظاهر بوضوح فى قصيدة كل من

---

(١) انظر ص٤٧٢ من هذه الرسالة .
(٢) التلخيص ص٢٦ ومابعدها .
(٣) فى النقد الأدبى الحديث ص٢٠٦ بتصرف .
(٤) المرجع السابق ص٢٠٧ .

البوصيرى وصاحبيه ، إلا فى بعض الأبيات وهذا قليل ، مثل قول البوصيرى مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (.. ومن علومك علم اللوح والقلم) ، ومثل قول شوقى : (ياقارئ اللوح بل يالامس القلم) .

ب - ملائمة الألفاظ للمعانى : والمراد من ذلك أن يكون الأسلوب مجانسا المعانى ، موافقا الأفكار ، بحيث تُدْرَك منه سعادة قائله وسروره، أو شقاؤه وحزنه [1] ، وهذا ما يؤكده قول البوصيرى :

أستغفر الله من قول بلا عمل
لقد نسبت به نسلا لذى عقم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصل سوى فرض ولم أصم

إذ هو فى معرض الندم ، ومجال الحسرة ، على عدم عمله بعلمه ، وتزوده لآخرته ، وألفاظه كما تراها مناسبة لفكرته . وترى مثل ذلك فى قول البارودى : (شكوت بثى إلى ربى لينصفنى ..) وفى قوله : (أبكانى الدهر ..) وقوله : (لم أدع غيرك فيما نابنى فقنى ..) فالشاعر يتضرع إلى الله لينصفه مما أصابه، وينجيه مما وقع فيه ، ولذلك اختار ألفاظا كلها ضراعة وأسى . وترى مثل ذلك فى قول شوقى :

ألقى رجائى إذا عز المجير على
مفرج الكرب فى الدارين والغمم
إذا خفضت جناح الذل أسأله
عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ باختصار وتصرف .

وإن تقدم ذو تقوى بصالحـــة
قدمت بين يديه عبرة النـــــدم

فالشاعر يعترف بذنبه ، ويطمع في عفو ربه ، وشفاعة رسوله ، ولا يخفى أن ألفاظه تشعر بأسفه وندمه .

جـ- تجميل الأسلوب : والمراد بذلك تزيينه بشيء من الحلى على أن تكـون طبيعية غير متكلفة ولا مجتلبة اجتلابا يثقل الألفاظ ، ويذهـب جمالها ، ويجعل المعنى غامضا [1] ، كما في قول البوصيري مخاطبا الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

خفضت كل مقام بالإضافة إذ
نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

إذ أثقل بيته بالتورية التي أذهبت المعنى وجعلته غامضـــا إلا أن هذا كان نادرا في قصيدته التي كان أسلوبه غالبا سهلا ممتعا فيها ، تأمل قوله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقـــم

تجد التقسيم الجميل ، والمناسبة الرائعة ، ولذلك كان البيـــت قولا جزلا ، يجرى مجرى المثل ، وترى مثل ذلك في قول البارودي وهو يصف سيوف المسلمين وخيولهم :

لمع السيوف وتصهال الخيول بـــه
كالبرق والرعد في مغدودق خزم

فتجد البيت رائعا وزاده روعة هذا اللف والنشر المرتـــب ، وهذا قليل من كثير ظاهر في قصيدته ، كما أحسن شوقي فـــي قوله ، وهو يتحدث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

سرت بشائر بالهادى ومولـــده
في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

---

(1) المرجع السابق ص ٢١٢ بتصرف .

فبيت الشاعر جميل ، وزاده جمالا ، هذا الطباق الذى دل على العموم والشمول ، فى قوله: (الشرق والغرب) .

إن قصيدة كل من البوصيرى والبارودى وشوقى قد اشتملت على ألفاظ قوية ، وعبارات جيدة ، وأساليب رائعة ، كما تضمنت بعض الألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - وأسلوبهما أبلغ الأساليب - مثل قول البوصيرى : (فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت - أقسمت بالقمر المنشق ، آيات حق من الرحمن محدثة ، من قاب قوسين ، إن له قلبا إذا نامت العينان لم ينم ، وراودته الجبال الشم من ذهب ، محمد سيد الكونين ..) .

ومثل قول البارودى : (فذاك دعوة إبراهيم خالقه ، وسر ما قاله عيسى ... - فاسجد له واقترب يا غافر الذنب ، والبيت : (ولاح من جسمهما نور أضاء لها ..) ، والبيت : (هو النبى الذى لولاه ما قبلت ..) .

ومثل قول شوقى : (ونودى اقرأ ، أسرى بك الله ليلا - .. فى المسجد الأقصى - إذا خفضت جناح الذل - وصاحب الحوض - لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ .. - يا أفصح الناطقين الضاد - محى الليالى ..)

ولا يخفى أننى قد بينت الآيات والأحاديث التى تلمح إليها هذه العبارات فى أثناء دراسة وتحليل القصائد الثلاث .

وليس معنى ذلك أن هذه القصائد قد خلت من الهنات ، كلا ، لقد وقع فيها بعضها ولكنها قليلة ، لا تغض من شأنها ، أو تحط من قدرها ، وقد أشرت إليها فى أماكنها فى أثناء تحليلى تلك القصائد - أيضا - ومنها على سبيل المثال :

فك البوصيرى إدغام الفعل (كف) عند إسناده إلى ألف الاثنين فى قوله : (فما لعينيك إن قلت اكففا همتا) والصحيح (كفا) [١] وإتيان الشعراء الثلاثة بلفظ (متكم) على أنه مطاوع (تم) ، ولم يرد ذلك فى معاجم اللغة الموثوق بها [٢] وذلك فى قول البوصيرى : (أيحسب الصب أن الحب منكتم ..) ، وفى

---

(١) انظر ص ٨٧ من هذه الرسالة .   (٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

قول البارودى : (.. مسامع الرسل قولا غير منكتم)، وفى قول شوقى : (مصـون سر عن الإدراك منكتم) .

كما اشترك البوصيرى والبارودى فى إدخال واو الحال على الجملة الفعلية التى فعلها ماض مسبوق بنفى[1]، فقال البوصيرى : (ما سامنى الدهر .. إلا ونلت)، وقال البارودى : (ما مر يوم إلا وقلده ..) وهذا خلاف المشهور عند علماء اللغة ، والمشهور : (إلا نلت) و (إلا قلده) .

ولم يأت شوقى بالفاء فى جواب الشرط مع أنه جملة اسمية فى قوله : (إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل ..) والصواب (فلى أمل) ، كما فك إدغام كلمة التم - بتشديد الميم - فى قوله : (مشت ممالكه فى نورها التمم) .

أضف إلى ذلك أن الصواب قد جانبه فى قوله : (.. وجبريل الأمـين ظمى) إذ الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وجبريل (عليه السلام) من أفضلهم فكيف يظمأ ؟

إن مثل هذه الهنات لا تقلل من عظمة القصائد الثلاث ، وخاصة أنها مليئة بالأقوال الجزلة التى لبست ثوب الحكمة، وجرت مجرى المثل ، ومن ذلك فى البردة : (والحب يعترض اللذات بالألم ، إن المحب عن العذال فى صمم والشيب أبعد فى نصح عن التهم ، إن الطعام يقوى شهوة النهم ، والبيت (والنفس كالطفل ..)، إن الهوى ما تولى يصم أو يصم ، إن الضرورة لا تعدو على العصم، إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكم ، إن الكبائر فى الغفران كاللمم) .

وفى كشف الغمة : (والكف ، فى المجد لا يستام بالقيم ، وفى الأباعد ما يغنى عن الرحم ، والبيت : (ومن أراد به الرحمن مكرمة ..) والبيت : (لا يسلم القلب ..)، والبيت (والحقد كالنار ..) ، والبيت : (لا يبصر الحق من جهل أحاط به ..)، والبيت : (كل امرئ واجد ما قدمت يده ..) ، والبيت : (والخير والشر فى الدنيا مكافأة ..) ، والبيت (من أنكر الضيم لم يأنس بصحبته ..) وكذلك قوله :(ونصرة الحق شأن المرء ذى الهمم ، وكم نلم تفترعن نعم ، ونعم العون

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١ .

فى القحم ، وهل برء بلا سقم ، واليأس فى الفعل غير اليأس فى الكلم ، ولـذة النفس لا تأتى بلا ألم ، من يلزم الصبر يستحسن عواقبه ، وهل رأيت حساما غير منثلم ، من يركب الغى لا تحمد عواقبه ، وفى الخيانة مدعاة إلى النقم ، وعلو النفس بالهمم ، والشكر فى كل حال كافل النعم).

وفى نهج البردة : (جرح الأحبة عندى غير ذى ألم ، ورب منتصت والقلب فى صمم ، والنفس إن يدعها داعى الصبا تهم ، والبيت : (صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ..) ، والبيت : (والنفس من خيرها ..) ، ورب أصل لفرع فى الفخار نمى ، ومن يبشر بسيمى الخير يتسم ، وما الأمين على قول بمتهم ، وقدرة الله فوق الشك والتهم ، ومن يضم جناح الله لا يضم ، وكيف لا يتسامى بالرسول سمى ، وصادق الحب يملى صادق الكلم ، وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم ، إن المقادر يقدر الذنب والجرم ، وحائط البغى إن تلمسه ينهدم ، وما مع الحب إن أخلصت من سأم).

ولا يخفى أن هذه الحكم ، قليل من كثير قد اشتملت عليها القصائد الثلاث وإن خلا بعضها من العمق، فإنها قد تداخلت فى نسج القصائد المذكورة وجاءت مربوطة بفكرتها ، وموصولة بموضوعها ، بحيث لا يشعر القارئ بغرابتها بل يشعر بأنها جزء من الفكرة ، وهذا مكانه ، أو دليل على صدق الرأى ، وهذا بيانه ، فهى بذلك قد أتت طبيعية بغير تكلف ، وإن اقتبس كل من البوصيرى والبارودى وشوقى بعضها من شعر السابقين ، فإنها قد امتزجت بأرواحهم وعواطفهم ، وبدت كأنها من تجاربهم ، ولا شك فى أن بعضها يرجع إلى التجارب التى مر بها كل منهم فى حياته.

وبعد هذه الموازنة أرى أن بردة البوصيرى قد فاقت قصيدتى البارودى ، وشوقى ، وبخاصة فى صدق العاطفة ، ولعل شيخ العروبة (١) كان يشير إلى ذلك عندما قال : " ... وطالما عارض الناس بردة البوصيرى فى القديم وفى الحديث ، بمئات ومئات من المنظومات ، ولكن الصيت

---

(١) هو : أحمد زكى (باشا) ، أديب مصرى توفى سنة ١٩٣٤ (الأعلام ج١ ص١٢٢).

بقى لهذه البردة وحدها إلى الآن ..[1]، ويؤكد ذلك قول الدكتور زكي مبارك[2] : " إن البوصيرى قد سما فى المدائح النبوية سموا لم يوفق إلى مثله فى سائر شعره ، وهذا أثر لصدق العاطفة، بخلاف صاحبيه ـ البارودى وشوقى ـ فإن شعرهما فى هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقى حين قال :

المادحون وأرباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

مديحه فيك حب خالص وهوى
وصادق الحب يملى صادق الكلم

وبإشادة كل من شيخ العروبة وبعض النقاد، وأمير الشعراء بفضل البردة ، وصدق عاطفة ناظمها ، تنتهى الموازنة بين بردة البوصيرى ومعارضاتها فى العصر الحديث، ولم يبق من رسالتى إلا خاتمتها ، وما تضمنته من نتائج ومقترحات ، سأتحدث عنها فى الصفحات الآتية إن شاء الله .

---

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٨٥ .
(٢) الموازنة بين الشعراء ص ٢٢٥ بتصرف .



وبعد ...

فلقد كان خلق الرسول العظيم مصدر إلهام الشعراء الذين مدحوه (صلى الله عليه وسلم)، في بدء بعثته، مثل أبي طالب، إلا أن هذه المدائح كانت أشبه بمدائح ملوك ورؤساء القبائل، إذ انصبت على المدح بالكرم والشجاعة والمروءة.

ولم يمض زمن طويل حتى أدخل الشعراء فى مدائحهم النبوية الإشادة بالدين الإسلامى ، والإشارة إلى تعاليمه السمحة ، وكتاب الله الكريم ، ومن هؤلاء الشعراء : الأعشى ، والنابغة الجعدى ، وكعب ابن زهير ، بالإضافة إلى حسان بن ثابت الذى زاد على سابقيه دفاعه عن الدين ، كما نافح عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولما لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان من الطبعى أن يزيد هؤلاء الشعراء — على ما سبق من أفكار — رثاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأن يشيروا إلى ما أصابهم من حزن بسبب فراق الرسول (صلى الله عليه وسلم) إياهم ، ومن هؤلاء : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وغيرهما .

وعندما قتل الإمام على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) ومن بعده ابنه الإمام الحسين (رضى الله عنه) اشتد حزن الشعراء على ما حل بآل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكانوا يمدحون الرسول وآل بيته ، ثم يكشفون عن مساوئ أعدائهم ، معلنين سخطهم عليهم ، على الرغم مما تعرض له بعضهم من بطش وتعذيب ، ومن هؤلاء الشعراء : الفرزدق والكميت ودعبل وأبى فراس والشريف الرضى ومهيار .

واستمر الحال على ذلك إلى أن شنت الحروب الصليبية على البلاد العربية والإسلامية ، فظهر بعض الشعراء الذين فتحوا أبوابا جديدة فى المدائح النبوية مثل الحديث عن مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما صاحبه من أحداث ، ومثل الحديث عن معجزاته (صلى الله عليه وسلم) ، وكان من هؤلاء الشعراء : الصرصرى ، والبوصيرى .

وإذا كان عصر البوصيرى قد ملئ بالحروب الخارجية ، فقد ملئ أيضا بالفتن الداخلية ، التى ظهر أثرها فى أخلاق الناس وخاصة الموظفين ، فكانوا ينهبون الأموال ، ويقبلون الرشوة ، مما جعل البوصيرى يكشف عن مساوئهم ، فكادوا له كيدا أُبعد بسببه عن عمله ، وفتح كتابا يعلم فيه الأطفال ، ثم انتسب إلى السادة الشاذلية على يد أبى العباس المرسى ، وترك مدح الوزراء

والأهواء ، وأخذ يمدح خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) بقصائد كثيرة، ومنها قصيدته البردة ، التي اشتملت على أفكار متعددة يجمعها غرض واحد وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن البوصيري قد أجاد فيها إجادة كبيرة ، جعلت لها أثرا كبيرا في كثير من النواحي كالتأليف والتصنيف بالإضافة إلى أثرها الكبير في الشعراء الذين عارضوها .

وإذا كانت من دوافع المعارضة في الشعر العربي بعامة : الاستعانة والتحدي والإعجاب ، فإن الذي دفع بعض شعراء العصر الحديث إلى معارضة البردة هو الإعجاب غالبا .

ولقد كانت معارضات البردة في العصر الحديث مرآة تنعكس عليها حالة الشعر في ذلك العصر، ففي معارضتي الدرويش والتيمورية كثرت المحسنات البديعية التي زادت الألفاظ ثقلا على ثقل - وبخاصة في معارضة الدرويش - بالإضافة إلى غموض المعاني ، وضيق الأفكار .

أما في معارضة البارودي فقد طرأ عليها ما طرأ على الشعر في ذلك الوقت على يد البارودي من قوة اللفظ، وجزالة العبارة ، وشدة السبك ، والحلية البديعية التي أتت عفوا بغير تكلف ، أضف إلى ذلك كثرة أبياتها، وتعدد أفكارها ، وطول نفسها ، حتى كادت تجمع سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كلها نظما ، فكانت بذلك دليلا قويا على إمكان وجود الملاحم والمطولات في الشعر العربي ، ولم يقلل من شأنها ضعف عاطفة الشاعر في بعض أفكارها إذ ظهرت قوية في بعضها الآخر .

وأما معارضة شوقي فمع حسن لفظها، وروعة بيانها ، استطاع الشاعر أن يجدد في بعض أفكارها - بالإضافة إلى الأفكار التقليدية - إذ أشار إلى فرية انتشار الإسلام بالسيف وفند زيفها كما أشاد بحضارة الإسلام ، ففتح بذلك الباب لمن عارض البردة من بعده مثل : (محمد عبد المطلب والشيخ الحملاوي، وعلي باكثير ، وأحمد نسيم محمد ، ومحمود جبر ، والشيخ الخطيب ومحمد السعيد برج) ، إذ جدد بعضهم - على تفاوت في ذلك التجديد - في بعض الأفكار مثل : الإشارة إلى تعدد زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكشف زيف الأفاكين من أعداء الدين ، كما أشاروا إلى موقف

الإسلام من الرق والطلاق ، وغير ذلك من الأفكار الجديدة التي دفعت إليها أحداث العصر ، إلى جانب إشارتهم إلى الأفكار السابقة مثل مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعجزاته .

ولا يخفى أثر البردة في ذلك كله ، إذ كانت آية من آيات الفن ونجما بازغا في سماء الإبداع ، تفاقت كل معارضاتها ، ومن بينها معارضتي البارودي وشوقي وبخاصة في صدق العاطفة التي جعلتها من الأدب الحي الذي لا يموت بموت صاحبه ، بل يظل مشرقا وضاء على مر القرون والأجيال .

النتائج :

لقد تمت رسالتي - بحمد الله تعالى - ولا أحب أن أتحدث عن احتفالي بها ، وبلائي فيها ، ولا أريد أن أطيل الحديث عنها ، فهي تتحدث عن نفسها بنفسها ويكفي أن أشير إلى بعض النتائج التي أطمأن إليها قلبي وهي :

١- تكاد رسالتي تكون أول رسالة دكتوراه تتحدث عن المدائح النبوية من نشأتها حتى عصرنا هذا في سلسلة متصلة الحلقات ، متوالية العصور .

٢- تعد أول رسالة دكتوراه تعرضت للبردة بالدراسة والتحليل ، وإن سبقت ببعض الشروح فإنها لم تسبق بالتحليل .

٣- تعد أول رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر قد تعرضت للشعر الصوفي ، ممثلا في البردة ومعارضاتها ، على أساس أن المدائح النبوية لون من ألوان الشعر الصوفي .

٤- أكدت أن الإسلام لا يكره الشعر لكونه شعرا ، ولكنه يكره الشعر المشتمل على الكذب أو المبالغة الممقوتة ، والذي يبعد عن الأخلاق

الكريمة ، وإلى هذا اللون من الشعر أشار القرآن الكريم مندداً بقائليه في قوله تعالى : " وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (١) " كما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه — يفسده — خير له من أن يمتلئ شعراً (٢) " .

أما ذلك الشعر الذي يدعو إلى الفضائل ، وينهى عن الرذائل ويدافع عن الدين فالإسلام يحبه ، وآية ذلك أنه قد استثنى قائليه من الحكم السابق بقوله تعالى : " إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٣) " .

يؤكد ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد سمعه من حسان بن ثابت، وكعب بن زهير ، ولعله هو الذى أشار إليه بقوله : " إن من الشعر حكمة .. " (٤) .

٥ — بينت رسالتي أن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت ومازالت منبعاً فياضاً للشعراء والكتاب يستمدون منها أحسن الفكر ، وأصدق العبر .

٦ — أثبتت أن في البردة أثراً للصوفية ، ورددت بذلك على من زعم أن البردة لا يوجد فيها أى أثر للصوفية .

٧ — بينت إمكان رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وذلك بالأحاديث النبوية الصحيحة ، وبعض الروايات التاريخية عن بعض الصحابة ، وشهادة بعض العلماء الأحياء الذين شرفوا بتلك الرؤيا .

---

(١) الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٦ .
(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١١٣ ومابعدها .
(٣) الشعراء / ٢٢٧ .
(٤) صحيح البخاري ج ٨ ص ٤٤ ومابعدها، والعمدة ج ١ ص ٢٧ ومابعدها .

٨ - نفت ما نسب إلى الإمام البوصيرى من أنه عجز عن إكمال بيت من أبيات البردة ، وأكمله الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ لم يثبت ذلك عن الإمام البوصيرى فى المراجع الثقة ، ولو ثبت لقطع بعدم صحته لقوله تعالى عن النبى (صلى الله عليه وسلم : " .. وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ .. الآية (١).

٩ - بينت خطأ من ذهب إلى أن البوصيرى قد أخطأ فى استعمال بعض الألفاظ التى لم ترد فى كتب اللغة المعتمدة ، مثل لفظ (انفطم)؛ إذ ورد هذا اللفظ فى لسان العرب .

١٠ - بينت خطأ من زعم أن " الجبال التى عرضت أن تكون ذهبا للرسول (صلى الله عليه وسلم) من مبالغات الصوفية ، إذ ثبت ذلك بأحاديث صحيحة وروايات متعددة .

١١ - كشفت رسالتى - عن كثير من معارضات البردة فى العصر الحديث .

١٢ - ترجمت لبعض الشعراء المحدثين الذين لم يترجم لهم أحد من قبل مثل : الشيخ أحمد فهمى محمد ، وشاعر آل البيت الشيخ محمود جبر، وشاعر النبى الحبيب الشيخ محمد خليل الخطيب والشاعر محمد السعيد برج، وغيرهم .

١٣ - بينت أن المعارضات باب كبير فى الأدب العربى ساعد على نموه وزيادة الثروة الأدبية .

١٤ - أثبتت أن المعارضات ليست كلها خالية من العواطف ، وليست كلها مبنية على التقليد والجمود ، بل منها ما هو كذلك ومنها ما ظهرت فيه العاطفة الصادقة ، والأفكار الجديدة التى دعت إليها ظروف العصر وهذا واضح فى معارضات البردة التى لم يكتف أصحابها بمدح الرسول

---

(١) يس / ٦٩ ، وتفسير القرآن العظيم جـ ٦ ص ٥٧٤ ومابعدها .

(صلى الله عليه وسلم) بل أضافوا إلى ذلك الدفاع عن الإسلام وتفنيد مزاعم المستشرقين ، ودحض أكاذيبهم وافتراءاتهم على الإسلام والرسول (صلى الله عليه وسلم) كذبا وزورا .

١٥ـ أثبتت أن البردة من الأدب العربى الحىّ الذى لم يمت بموت صاحبه ، بل شاعت وذاعت ، ويكفيها فخرا أنها ذات أسلوب بلاغى عظيم على الرغم من إنشائها فى عصر اتسم بالخمود والجمود ، ويكفيها فخرا أنها تُرجمت إلى كثير من اللغات كالفرنسية والإنجليزية والإيطالية وغيرها ، ويكفيها فخرا أنها انتشرت فى البلاد العربية والاسلامية والأوربية ، ويكفيها فخرا أنه قد حفظها كثير من الناس واهتموا بها اهتماما كبيرا لم تحظ به قصيدة أخرى فى الأدب العربى .

١٦ـ بينت أن وجود الملاحم والمطولات فى الأدب العربى ممكن ، ورددت بذلك على من زعم أن الأدب العربى عاجز عن مثل هذا اللون .

المقترحــات :

وبعد تلك النتائج التى ذكرتها أشير إلى بعض المقترحات التى أرجو تحقيقها وهى :

١ـ أوجه نظر السادة الباحثين فى الأدب العربى إلى أن فى شعر البوصيرى الاجتماعى مجالا خصباً للدراسة والبحث .

٢ـ أوصى القائمين على أمر الثقافة الأدبية ، والمهتمين بالتراث العربى ، بطبع معارضات البردة ، وخاصة المعارضات التى ليس لأصحابها دواوين شعرية تحفظ فيها ، خشية الضياع مثل معارضة الشاعر على باكثير ، ومعارضة الشيخ الخطيب ، كما أن معارضة الباوودى كانت

تنقرض ، وكلها - بغير شك - قصائد قيمة تعد من التراث الأدبى الرفيع الذى يجب حفظه .

٣ - أوجه نظر مؤلفى الكتب الأدبية المقررة على المدارس والمعاهد إلى أن فى المدائح النبوية بعامة وفى البردة ومعارضاتها فى العصر الحديث بخاصة مقطوعات قيمة تستحق أن تقرر على الطلاب لما اشتملت عليه من أساليب رفيعة ، وحكم رائعة ، ولما تدعو إليه من أخلاق عالية .

٤ - أوجه نظر المشرفين على وسائل الإعلام - ونحن فى دولة العلم والإيمان - إلى أن فى البردة ومعارضاتها مقطوعات تصلح للإنشاد فتمكننا من التخلص من الأغانى الخليعة التى تفسد الأخلاق، كما تجذب الناس - بموسيقاها الرائعة ، ووقعها الجميل - إلى معرفة سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتكون نبراسا يهتدى به فى تلك الحياة .

ولعل مما يؤكد ذلك بعض الأبيات التى تنشد من نهج البردة ، بالإضافة إلى أمسية البوصيرى التى أقامتها وزارة الثقافة والإعلام منذ أربعة أشهر تقريبا .

٥ - أوجه نظر المهتمين بالثقافة الأدبية إلى ضرورة إعداد سجل يشير إلى حياة الشعراء المحدثين - ليكون مرجعا سهلا ويسيرا أمام الباحثين والدارسين .

" تم بحمد الله ، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين "

مصادر البحث

١ – إبراهيم الباجوري (الشيخ) : حاشية الباجوري على البردة ، الطبعة الرابعة ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥١ .

٢ – إبراهيم الباجوري (الشيخ) : شرح الباجوري على الجوهرة ، دار مطابع الشعب بمصر سنة ١٩٦٦ .

٣ – إبراهيم عبده (الدكتور) : بالاشتراك مع غيره – الموسوعة الذهبية جـ ١ مطابع الهدف بمصر سنة ١٩٦٤ .

٤ – إبراهيم العدوي (الدكتور) : العرب والتتار ، مطابع دار القلم بمصر سنة ١٩٦٣

٥ – إبراهيم عوضين : المعارضة في شعر شوقي "رسالة ماجستير" بمكتبة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تحت رقم ٤٨٢ .

٦ – أبو بكر بن حجة الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ، المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ

٧ – أبو الفتوح رضوان (الدكتور) : بالاشتراك مع غيره – أضواء العالم الحديث مطابع مؤسسة روز اليوسف بمصر سنة ١٩٦٧

٨ – أبو هلال العسكري : الصناعتين ، بتحقيق أبي الفضل والبجاوي دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٥٢

٩ – أحمد الإسكندري : بالاشتراك مع غيره – الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٣٤ .

١٠ – " " : بالاشتراك مع غيره – المفصل في تاريخ الأدب العربي جـ٢ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٣٦

١١ – " " : بالاشتراك مع غيره – المنتخب من أدب العرب ، جـ١ مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٤ .

١٢- أحمد أمين : بالاشتراك مع غيره - التوجيه الأدبي ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦ .

١٣- أحمد التاجي : أحمد شوقي ، مطبعة الحلبي بمصر (غيرمؤرخ) .

١٤- أحمد تيمور : الآثار النبوية ، الطبعة الثانية ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٥ .

١٥- أحمد بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج١ ، ج٢ ، ج٤ بتحقيق الشيخ محمد جاد الحق ، مطبعة المدني بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٦- أحمد بن حجر الهيثمي : شرح الهمزية ، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الحفني على الهمزية ، المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٠٦ هـ .

١٧- أحمد حسن كحيل (الدكتور) : دراسات عربية ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٩ .

١٨- أحمد بن الحسين (المتنبي) : ديوانه بتعليق الدكتور : عبد الوهاب عزام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٩٤٤ ، وطبعة ثانية بشرح العكبري ، دار الطباعة بمصر سنة ١٢٨٧ هـ .

١٩- أحمد الدمهوري (الشيخ) : ديوان الشاعر العالم ج١ بتحقيق مصطفى السقا مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥٢ .

٢٠- " " (الشيخ) : زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع الطبعة السابعة مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦١ .

٢١- " " " : شذا العرف في فن الصرف - الطبعة التاسعة عشرة ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٢ .

٢٢- أحمد بن حنبل (الإمام) : المسند جـ١ ، جـ٢ ، بتحقيق الدكتور: محمد عاشور طبعة دار الاعتصام بمصر سنة ١٦٧٦ ، جـ٥ بشرح الشيخ أحمد شاكر طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٦٤٦ .

٢٣- أحمد الحوفي (الدكتور) : الفكاهة في الأدب جـ١ مكتبة نهضة مصر سنة ١٦٥٦ .

٢٤- " " " :: الإسلام في شعر شوقي ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية بمصر سنة ١٦٦٢ .

٢٥- " " " : سماحة الإسلام ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية بمصر سنة ١٦٦٣ .

٢٦- " " " : لماذا عدد النبي زوجاته ، مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٦٦٤ .

٢٧- أحمد بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر سنة ١٦٤٨ .

٢٨- أحمد الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي مكتبة النهضة المصرية . غير مؤرخ .

٢٩- " " : أصول النقد الأدبي ، الطبعة الثانية مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٦٤٦ .

٣٠- أحمد الشرباصي (الدكتور) : رشيد رضا صاحب المنار ، مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٦٧٠ .

٣١- " " " : الدين والمجتمع: المطبعة العربية بمصر سنة ١٦٧٠ .

٣٢- " " " : الشاعر سليم المسعدين ، لم يدون عليه اسم المطبعة وطبع سنة ١٦٧٢ .

٣٣- أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسلام ، مطبعة مصر سنة ١٦٣٣ .

٣٤ — أحمد شوقي : ديوانه "الشوقيات" جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٤٨ .

٣٥ — أحمد بن عبد الحليم الحراني (ابن تيمية) : عقيدة أهل السنة والجماعة بتعليق عبد الرزاق عفيفي دار الطباعة المحمدية بمصر غير مؤرخ .

٣٦ — أحمد بن عبد الله الأصبهاني (أبو نعيم) : دلائل النبوة ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد الدكن ، من مطبوعات وزارة المعارف العثمانية سنة ١٩٥٠ .

٣٧ — أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، السفر الثامن الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ .

٣٨ — أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي جـ١ ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٣٨ .

٣٩ — أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ .

٤٠ — " " " : دائرة المعارف الحديثة ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١ .

٤١ — أحمد بن علي المقريزي : المقفى جـ١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٧٢ ، تاريخ .

٤٢ — " " " " : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ القسمين الأول والثاني بتحقيق محمد مصطفى زيادة مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ وسنة ١٩٣٦ ، والقسم الثالث ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٣٩ .

٤٣ — " " " : إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات في مصر) مطبعة دار ابن الوليد بمصر سنة ١٩٥٦ .

٤٤ ـ أحمد بن على المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار دار التحرير للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

٤٥ ـ " " " " : فضل آل البيت ، تحقيق محمد عاشور دار الاعتصام بمصر سنة ١٩٧٣ .

٤٦ ـ أحمد عوف (الدكتور) : الأزهر فى ألف عام ، مطبعة الأزهر بمصر سنة ١٩٧٠ .

٤٧ ـ أحمد فهمى محمد (الشيخ) : النفحة الأحمدية فى مدح خير البرية مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٦٨ هـ

٤٨ ـ " " " " : الزهراء فى مدح خاتم الأنبياء ، مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧٠ هـ .

٤٩ ـ " " " " : كريمة الدارين ، مطبعة حجازى بمصر سنة ١٣٧١ هـ .

٥٠ ـ أحمد محفوظ : حياة شوقى ، مطبعة مصر ـ غير مؤرخ

٥١ ـ أحمد حجاب (الشيخ) : العظة والاعتبار ، مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٦٩ .

٥٢ ـ أحمد بن محمد المقرى : المصباح المنير ، الطبعة السابعة المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٢٨

٥٣ ـ أحمد محمد موسى (الدكتور) : الصبغ البديعى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٩ .

٥٤ ـ أحمد محرم : ديوان مجد الإسلام ، (أو الإلياذة الإسلامية) بتصحيح محمد الجيوشى مكتبة دار العروبة بمصر سنة ١٩٦٣ .

٥٥ ـ إسماعيل بن عمر بن كثير (الإمام) : البداية والنهاية ج١٣ ، مطبعة دار السعادة بمصر سنة ١٣٥٨ هـ .

٥٦ ـ " " " " " : السيرة النبوية ج١ بتحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٦٤ .

٥٧ ـ إسماعيل بن عمر بن كثير (الإمام) : قصص الأنبياء بتحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٨ .

٥٨ ـ " " " " " : تفسير القرآن العظيم ، بتحقيق عبد العزيز غنيم بالاشتراك مع غيره مطبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .

٥٩ ـ إسماعيل بن القاسم القالي : الأمالي جـ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر سنة ١٩٧٥ .

٦٠ ـ أيمن محمود خطاب : الإتحافات الإلهية ، لم يدون عليه اسم المطبعة وطبع سنة ١٣٧٣ هـ

٦١ ـ أوس بن حجر : ديوانه ، بتحقيق الدكتور محمد نجم ، دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠ .

٦٢ ـ بدوي طبانة (الدكتور) : السرقات الأدبية ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .

٦٣ ـ " " " : دراسات في نقد الأدب العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٥ .

٦٤ ـ توفيق الرافعي : كرمة ابن هاني ، مطبعة المعاهد بمصر سنة ١٩٦٣ .

٦٥ ـ جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ١ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٩ .

٦٦ ـ " " : تاريخ التمدن الإسلامي جـ١ مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٢

٦٧ ـ " " : تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ، جـ٤ مطبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩٣٦ وجـ٣ طبعة سنة ١٩٣٠ .

٦٨ ـ جمال الدين الشيال (الدكتور) : تاريخ مصر الإسلامية جـ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ .

٦٩ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون ، مطبعة العالم بمصر سنة ١٣١١ هـ .

٧٠ ـ الحارث بن سعيد الحمداني (أبو فراس) : ديوانه بشرح نخلة قلفاط مكتبة الشرق بيروت سنة ١٩١٠ .

٧١ ـ حافظ إبراهيم : ديوانه بتحقيق أحمد أمين بالاشتراك مع غيره ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧ .

٧٢ ـ حامد الأشقر : شرف الدين البوصيري (الشاعر المصرى) مطبعة المنيرة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

٧٣ ـ حامد حفنى داود (الدكتور) : تاريخ الأدب الحديث ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٦٧ .

٧٤ ـ حامد محمد الغوابى (الدكتور) : بين الطب والإسلام ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

٧٥ ـ حسان بن ثابت : ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقى ، المطبعة الرحمانية ، بمصر سنة ١٩٢٩ .

٧٦ ـ الحسن بن بشر الآمدى : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ، بتحقيق السيد صقر ، الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ .

٧٧ ـ حسن الحمزاوى (الشيخ) : النفحات الشاذلية بشرح البردة البوصيرية جـ٣ ، لم يدون عليه اسم المطبعة وطبع سنة ١٢٩٧ هـ .

٧٨ ـ الحسن بن رشيق : العمدة بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٢ .

٧٩ ـ الحسن بن محمد الكوهن : جامع الكرامات العلية فى طبقات السادات الشاذلية المكتبة الفاسية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .

٨٠ ـ حسن المرصفى (الشيخ) : الوسيلة الأدبية للعلوم العربية جـ٢ ، مطبعة المدارس الملكية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ .

٨١ ـ حسنين محمد مخلوف (الشيخ) : شذرات من معجزات وخصائص الرسول مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

٨٢ - حسين شوقي : أبي شوقي ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٧ .

٨٣ - حسين مظلوم : رياض البردة ، المطبعة المحمودية بمصر غير مؤرخ

٨٤ - حلمي علي مرزوق (الدكتور) : شوقي وقضايا العصر والحضارة ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .

٨٥ - حندج بن حجر (امرؤ القيس) : ديوانه بشرح السندوبي ، مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٠ .

٨٦ - خالد الأزهري (الشيخ) : شرح التصريح على التوضيح ، دار إحياء الكتب العربية بمصر غير مؤرخ .

٨٧ - خليل بن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات ج٣ المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣ .

٨٨ - خير الدين الزركلي : الأعلام الطبعة الأولى المطبعة العربية بمصر سنة ١٩٢٧ . والطبعة الثانية بمطبعة كوستاتسوماس وشركاه بمصر سنة ١٩٥٤ .

٨٩ - زكي مبارك (الدكتور) : الموازنة بين الشعراء ، مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٣٦ .

٩٠ - " " " : المدائح النبوية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

٩١ - زهير بن أبي سلمى : ديوانه بشرح أحمد الشيباني طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ .

٩٢ - زهير بن محمد المهلبي (البهاء زهير) : ديوانه المطبعة المحمودية بمصر سنة ١٣١٥ هـ .

٩٣ - زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١٢ هـ .

٩٤ - سعد الدين الجيزاوي : أصداء الدين في الشعر الحديث ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ .

٩٥ـ سعد الدين الجيزاوى (الدكتور) : الملحمة فى الشعر العربى ، دار الكاتب العربى ، للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ ٠

٩٦ـ سعيد الخورى الشرتونى : أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد جـ٢ مطبعة مرسلى اليسوعية ببيروت سنة ١٨٨٩ ٠

٩٧ـ سعيد عاشور (الدكتور) : الحركة الصليبية ، جـ١ مطبعة لجنة البيان العربى بمصر سنة ١٩٦٣ ٠

٩٨ـ " " " : ثورة شعب دار النهضة العربية بمصر سنة ١٩٦٤ ٠

٩٩ـ " " " : السيد البدوى ، مطبعة دار مصر للطباعة سنة ١٩٦٦ ٠

١٠٠ـ سليم البشرى (الشيخ) : توضيح النهج غير مؤرخ ولم يدون عليه اسم المطبعة ٠

١٠١ـ سليمان بن الأشعث (الإمام أبو داود): سننه جـ٢ بتعليق الشيخ أحمد سعد على مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٥٢ ٠

١٠٢ـ سليمان الأغانى (الدكتور) : الأدب المعاصر فى العالم العربى مطبعة الكتاب الحديث بمصر ، غير مؤرخ ٠

١٠٣ـ السيد إبراهيم حقى : تنفيس الشدة فى تخميس البردة ، مطبعة الحرية ببغداد سنة ١٩٦٨ ٠

١٠٤ـ سيد سابق (الشيخ) : فقه السنة جـ٤ مطبعة النموذجية بمصر غير مؤرخ ٠

١٠٥ـ السيد على الدرويش : ديوانه بإشراف مصطفى النجارى طبع سنة ١٢٧١ هـ ولم يدون عليه اسم المطبعة ٠

١٠٦ـ السيد مرتضى الحسينى : تاج العروس ج ٣ ، جـ ٥ ، جـ٨ ، جـ٩ المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ

١٠٧- شعبان محمد إسماعيل (الدكتور) : من خصائص الرسول وشمائله ج ١ ، مطبعة الحسين الجديدة بمصر سنة ١٣٩٧ هـ .

١٠٨- شكيب أرسلان : شوقي (أو صداقة أربعين سنة) مطبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ .

١٠٩- شوقي ضيف (الدكتور) : شوقي شاعر العصر الحديث دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .

١١٠- " " " : الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ .

١١١- " " " : تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ .

١١٢- " " " : البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

١١٣- " " " : البلاغة تطور وتاريخ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥ .

١١٤- " " " : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

١١٥- " " " : التطور والتجديد في الشعر الأموي طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

١١٦- " " " : تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول دار المعارف بمصر غير مؤرخ .

١١٧- صادق خطاب (الدكتور) : الشعر في العصر الحاضر وأثر البارودي فيه ، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تحت رقم ٨١٦٤ .

١١٨- طاهر الطناحي : صور وظلال من حياة شوقي وحافظ ، مطبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩٦٧ .

١١٩- طه حسين (الدكتور) : من حديث الشعر والنثر مطبعة الصاوي بمصر سنة ١٩٣٦ .

١٢٠ـ طه حسين (الدكتور) : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧

١٢١ـ " " " : بالاشتراك مع غيره ـ التوجيه الأدبي مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٣ .

١٢٢ـ طه وادي (الدكتور) : مختارات من شعر أمير الشعراء أحمد شوقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٧٢ .

١٢٣ـ ظالم بن عمرو الدؤلي (أبو الأسود) : ديوانه بتحقيق عبد الكريم الدجيلي شركة النشر والطباعة ببغداد سنة ١٩٥٤ .

١٢٤ـ عائشة الباعونية : مولد النبي ـ المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠١ هـ .

١٢٥ـ عائشة التيمورية : ديوانها حلية الطراز ، المطبعة العامرية الشرفية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وطبعة دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٢

١٢٦ـ العباس بن الأحنف : ديوانه طبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ .

١٢٧ـ عباس حسن : المتنبي وشوقي وإمارة الشعر ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ .

١٢٨ـ عباس العقاد : ابن الرومي ، المطبعة التجارية بمصر سنة ١٩٥٠ .

١٢٩ـ " " : اللغة الشاعرة ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ .

١٣٠ـ " " : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، دار القلم بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٣١ـ " " : ما يقال عن الإسلام ، دار الهلال بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٣٢ــ عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، دار الهلال بمصر سنة ١٩٧٢ .

١٣٣ــ عبد الحسيب طه (الدكتور) : النصوص الأدبية فى العصر الحديث ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٧١ .

١٣٤ــ عبد الحكيم حسان (الدكتور) : التصوف فى الشعر العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٤ .

١٣٥ــ عبد الحليم الجندى : أحمد بن حنبل ، مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

١٣٦ــ عبد الحليم المصرى : بكرية المصرى ، مطبعة مدرسة بنى سويف الصناعية سنة ١٩١٩ .

١٣٧ــ عبد الحميد يونس (الدكتور) : بالاشتراك مع غيره ــ دائرة المعارف الإسلامية ج٤ ، ج٥ ، ج٧ طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .

١٣٨ــ عبد الحى بن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ، ج٧ مكتبة القدسى بمصر سنة ١٣٥١ هـ

١٣٩ــ عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٠ .

١٤٠ــ عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ .

١٤١ــ عبد الرحمن السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج١ مطبعة إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ

١٤٢ــ " " " : المزهر ج١ ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ

١٤٣ــ عبد الرحمن شعيب (الدكتور) : فى النقد الأدبى الحديث ، مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٨

١٤٤ــ عبد الرحمن الشيبانى : تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث مطبعة صبيح بمصر سنة ١٩٦٣ .

١٤٥ ـ عبد الرحمن عبد الله السهيلى : الروض الأنف جـ١ ، جـ٢ مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤ .

١٤٦ ـ عبد السلام سرحان (الدكتور) : قطوف من ثمار الأدب فى الجاهلية والإسلام ، القسم الثانى دار القومية العربية للطباعة بمصر سنة ١٩٧٢ .

١٤٨ ـ عبد العزيز محمد : تشطير البردة ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .

١٤٩ ـ عبد العليم القبانى : البوصيرى حياته وشعره ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ .

١٥٠ ـ عبد القادر البغدادى : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب جـ١ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٩٩ هـ

١٥١ ـ عبد القادر الرافعى : نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد مطبعة الشرف بمصر سنة ١٣٢٤ هـ

١٥٢ ـ عبد القاهر الجرجانى (الإمام) : دلائل الإعجاز ، بتعليق الدكتور محمد خفاجى مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٩ .

١٥٣ ـ " " " " : أسرار البلاغة بشرح الدكتور محمد خفاجى دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٢

١٥٤ ـ عبد الكريم الخطيب : الأدب الصوفى فى مفهوم جديد ، طبعة دار الثقافة العربية بمصر سنة ١٩٦٥

١٥٥ ـ " " " : الجانب الإنسانى فى الأدب الصوفى ، طبعة دار الثقافة العربية بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٥٦ ـ عبد الله بن عقيل : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، الشركة المصرية للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٧٦ .

١٥٧ ـ عبد الملك بن هشام : سيرة النبى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة دار التحرير بمصر سنة ١٣٨٣ هـ .

١٥٨- عبد الوهاب السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٦٧ هـ .

١٥٩- علي بن أبي طالب (الإمام) : نهج البلاغة ، بشرح الإمام محمد عبده ، وتحقيق محمد عاشور ومحمد البنا ، طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٨ .

١٦٠- علي أحمد باكثير : نظام البردة ، مطبعة الشهاب بمصر سنة ١٣٥٢ هـ .

١٦١- " " " : فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية مطبعة المعرفة بمصر سنة ١٩٦٤ .

١٦٢- علي بن أحمد بن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف بتحقيق محمد عبد اللطيف بالاشتراك مع غيره ، مطبعة المدني بمصر سنة ١٩٧٥ .

١٦٣- علي بن برهان الحلبي : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) جـ١ وبهامشه سيرة (دحلان) المكتبة التجارية بمصر ، غير مؤرخ .

١٦٤- علي الجندي (الدكتور) : تاريخ الأدب الجاهلي جـ١ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٩ .

١٦٥- علي الجمبلاطي : بالاشتراك مع غيره - الذوق البلاغي ، مطبعة الجهاد بأسيوط غير مؤرخ .

١٦٦- " " : من أدباء الإسلام المعاصرين - مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

١٦٧- علي بن الحسن المسعودي : مروج الذهب بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة دار التحرير للطبع والنشر بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٦٨ — علي بن الحسين الأصفهاني : الأغاني جـ ٥ ، جـ ٨ ، جـ ٩ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر سنة ١٩٦٣ .

١٦٩ — علي عاشق حسين (الدكتور) : الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤

١٧٠ — " " " " : المديح النبوي في القرن الأول الهجري مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٦٨ .

١٧١ — علي عبد العزيز الجرجاني (القاضي) : الوساطة بين المتنبي وخصومه بتحقيق أبي الفضل والبجاوي — مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٦ .

١٧٢ — علي مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٧ ، جـ ٩ ، جـ ١٠ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ .

١٧٣ — علي بن محمد بن الأثير : الكامل جـ ٣ ، جـ ٤ المطبعة الأزهرية ، بمصر سنة ١٣٠١ هـ .

١٧٤ — " " " " " : أسد الغابة في معرفة الصحابة بتحقيق محمد البنا — بالاشتراك مع غيره — دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٥ .

١٧٥ — علي محمد الحديدي (الدكتور) : محمود سامي البارودي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٧ .

١٧٦ — علي النجدي ناصف : الدين والأخلاق في شعر شوقي : مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٤ .

١٧٧ — عمر بن أبي ربيعة : ديوانه بشرح محمد العناني مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .

١٧٨ — عمر الدسوقي : في الأدب الحديث جـ ١ مطبعة الرسالة بمصر سنة ١٩٤٨ وجـ ٢ مطبعة دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٦١ .

١٧٩- عمر الدسوقي : محمود سامي البارودي ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ .

١٨٠- عمر بن الفارض : ديوانه مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥٣

١٨١- عيسى اسكندر المعلوف : معارضات (يا ليل الصب) مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٢١ .

١٨٢- فاروق خورشيد : بالاشتراك مع غيره - محمد في الأدب المعاصر ، المكتب الفني للنشر بمصر سنة ١٩٥٩ .

١٨٣- فتحي عثمان : الإمام البوصيري ، مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧٠ .

١٨٤- قيس بن الملوح : ديوانه ، المطبعة العامرة العثمانية بمصر سنة ١٣٠٩ هـ .

١٨٥- كامل السيد شاهين : اللباب في العروض والقافية ، مطابع سجل العرب بمصر سنة ١٩٧٦ .

١٨٦- كعب بن زهير : ديوانه بشرح السكري ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

١٨٧- الكميت بن زيد الأسدي : القصائد الهاشميات ، ضبط محمد شاكر الخياط ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ هـ .

١٨٨- لجنة من العلماء : المنتخب من السنة جـ١ مطابع الأهرام التجارية بمصر سنة ١٩٧١ .

١٨٩- ماهر حسن فهمي (الدكتور) : أحمد شوقي مطبعة دار الكاتب العربي بمصر سنة ١٩٦٩ .

١٩٠- " " " " : شوقي : شعره الإسلامي ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

١٩١- محمد بن أحمد بن إياس : تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) جـ١ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١١ هـ

١٩٢- محمد بن أحمد بن طباطبا : عيار الشعر بتحقيق الحاجري وسلام ، المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٥٦ .

١٩٣- محمد إسماعيل إبراهيم : الأحاديث النبوية والمحدثون ، دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٧٣ .

١٩٤- محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري طبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٨ .

١٩٥- محمد أمين : جغرافية مصر ، مطبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٩٦ هـ .

١٩٦- محمد بن بكر بن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ المطبعة المصرية غير مؤرخ .

١٩٧- محمد بن الحسين الرضي : ديوان الشريف الرضي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت ، غير مؤرخ .

١٩٨- محمد حسين هيكل (الدكتور) : حياة محمد ، الطبعة الخامسة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٢ .

١٩٩- محمد حمودة عبد الرحمن : المدائح النبوية في العصر الحاضر وأثرها في الأدب ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تحت رقم / ٤٣٤

٢٠٠- محمد الخضري : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٣٥ .

٢٠١- " " : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٣٧٠ هـ

٢٠٢- محمد بن الخطاب القرشي : جمهرة أشعار العرب ، المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٣٠ هـ

٢٠٣- محمد خليل الخطيب (الشيخ) : غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٩٥٠

٢٠٤- " " " " : بشرى العاشقين ببلوغ سيد المرسلين مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٣٧٧ هـ .

٢٠٥- " " " " : وحي الحديث مطبعة الشعراوي بطنطا سنة ١٩٥٩ .

٢٠٦ـ محمد رشيد رضا (الشيخ) : تاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ٠

٢٠٧ـ محمد رفعت : بالاشتراك مع غيره ـ تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ، دار القاهرة للطباعة بمصر سنة ١٩٥٧ ٠

٢٠٨ـ محمد زغلول سلام (الدكتور) : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٥٩ ٠

٢٠٩ـ محمد بن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ دار التحرير بمصر سنة ١٩٦٨ ٠

٢١٠ـ محمد السعدي فرهود (الدكتور) : قضايا النقد الأدبي الحديث مطبعة زهران بمصر سنة ١٩٦٨ ٠

٢١١ـ " " " " : اتجاهات النقد الأدبي العربي ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٧٠ ٠

٢١٢ـ محمد السعيد بسيوني : السعيدية في مدح خير البرية مطبعة المصباح الكبرى بطنطا سنة ١٩٧٠ ٠

٢١٣ـ محمد بن سعيد البوصيري : ديوانه بتحقيق محمد سيد الكيلاني مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٥٥ ٠

٢١٤ـ " " " " : متن البردة عدة طبعات ومنها طبعة الشمرلي بمصر ، غير مؤرخة ٠

٢١٥ـ محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، المطبعة المحمودية بمصر غير مؤرخ ٠

٢١٦ـ محمد بن سليمان الجزولي : دلائل الخيرات ، مكتبة القاهرة بمصر سنة ١٣٦٩ هـ ٠

٢١٧ـ محمد سيد الكيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام مكتبة مصر سنة ١٩٤٩ ٠

٢١٨ـ " " " : مختار الشعر الجاهلي جـ٢ مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٧٠ ٠

٢١٩- محمد بن شاكر : فوات الوفيات جـ٢ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد مكتبة النهضة بمصر سنة ١٩٥٤ .

٢٢٠- محمد شفيق غربال : بالاشتراك مع غيره - الموسوعة الميسرة ، مؤسسة فرانكلين بمصر سنة ١٩٦٥ .

٢٢١- محمد صبرى (الدكتور) : الشوقيات المجهولة مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ .

٢٢٢- محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، مطبعة الترقى بمصر سنة ١٨٩٩ .

٢٢٣- محمد بن الطيب الباقلانى : إعجاز القرآن ، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٩ هـ .

٢٢٤- محمد بن عبد الباقى الزرقانى : شرح الزرقانى على المواهب اللدنية جـ١ ، جـ٥ المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ

٢٢٥- محمد بن عبد الرحمن القزوينى : التلخيص فى علوم البلاغة بشرح البرقوقى ، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٢ .

٢٢٦- محمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر الحديث المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩٤٦ .

٢٢٧- محمد عبد العزيز النجار : منار السالك إلى أوضح المسالك ، مطبعة الفجالة بمصر ، غير مؤرخ .

٢٢٨- محمد عبد الغنى حسن : أعلام من الشرق والغرب ، دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩ .

٢٢٩- محمد بن عبد الكريم الشهرستانى : الملل والنحل على هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١ ، جـ٣ مطبعة صبيح بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .

٢٣٠- محمد عبد المطلب : ديوانه بتصحيح الإبيارى بالاشتراك مع غيره مطبعة الاعتماد بمصر غير مؤرخ .

٢٣١- محمد عبد المنعم خفاجى (الدكتور) : وحدة القصيدة فى الشعر العربى ، مطبعة المنيرة بمصر سنة ١٩٥٢ .

٢٣٢ـ محمد عبد المنعم خفاجى (الدكتور): دراسات فى التصوف الإسلامى ، دار الطباعة المحمدية بمصر ـ غير مؤرخ .

٢٣٣ـ " " " " " : دراسات فى النقد العربى الحديث ومذاهبه جـ٢ دار الطباعة المحمدية بمصر ـ غير مؤرخ .

٢٣٤ـ " " " " " : بالاشتراك مع غيره ـ من روائع الأدب العربى دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٧٤ .

٢٣٥ـ محمد بن عيسى الترمذى (الإمام) : سننه جـ٣ ، جـ٤ ، جـ٥ بشرح عبد الرحمن عثمان مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٩٦٧ .

٢٣٦ـ محمد الغزالى (الشيخ) : فقه السيرة ، مطبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٢ .

٢٣٧ـ محمد غنيمى هلال (الدكتور) : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٠ .

٢٣٨ـ " " " " : الأدب المقارن ، دار نهضة مصر الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٣ .

٢٣٩ـ محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين (الرابع عشر) ، المجلد الثانى مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٩١١ .

٢٤٠ـ محمد كامل حسين (الدكتور) : الشعر العربى والذوق المعاصر ، مؤسسة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧٦ .

٢٤١ـ محمد كامل عبد العظيم : طراز البردة جـ١ مطبعة مصر سنة ١٩٥٧

٢٤٢ـ محمد كامل الفقى (الدكتور) : دراسات فى الأدب العربى ، مطبعة هندى بمصر سنة ١٩٧٣ .

٢٤٣ـ " " " " : الأدب فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ .

٢٤٤- محمد محمد حسين (الدكتور) : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر مكتبة الآداب بمصر سنة ١٣٨٢هـ

٢٤٥- محمد محمد الغزالى (الإمام) : منهاج العابدين بتعليق الشيخ محمد جابر مكتبة الجندى بمصر سنة ١٩٥٤

٢٤٦- " " " " : إحياء علوم الدين جـ٢ ،١ جـ١٥ مطبعة دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٨ .

٢٤٧- " " " " : معارج القدس فى مدارج معرفة النفس مطبعة الاستقامة بمصر غير مؤرخ .

٢٤٨- محمد مختـــار : التوفيقات الإلهامية ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣١١ هـ .

٢٤٩- محمد مصطفى حلمى (الدكتور) : الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى دار القلم بمصر سنة ١٩٦٠ .

٢٥٠- محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب جـ٤ ، جـ٩ ، جـ١٥ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ

٢٥١- محمد بن موسى الدميرى : حياة الحيوان الكبرى جـ١ دار التحرير بمصر سنة ١٩٦٥ .

٢٥٢- محمد ناصر الدرعى : النور المحمدى طبع سنة ١٩٧٦ ولم يدون عليه اسم المطبعة .

٢٥٣- محمد بن يعقوب الفيروزابادى : القاموس المحيط جـ٤ المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٩ هـ

٢٥٤- محمود جبر : قوتى (أو نهج جديد للبردة) مطابع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٤٢ .

٢٥٥- " " : ديوان شاعر آل البيت مطبعة دار الطباعة القومية بمصر سنة ١٩٥٩ .

٢٥٦- محمود حمدى الفلكى : المولد النبوى مطبعة الأزهر بمصر سنة ١٩٦٩ .

٢٥٧- محمود رزق سليم : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية سنة ١٩٣٨ .

٢٥٨- محمود سامي البارودي : كشف الغمة في مدح سيد الأمة ، مطبعة الجريدة بمصر سنة ١٣٢٧ هـ .

٢٥٩- " " " : ديوانه جـ١ ، جـ٢ بتعليق علي الجارم ومحمد معروف دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ وجـ٣ بتعليق محمد معروف دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ .

٢٦٠- محمود شلتوت (الشيخ) : الفتاوى دار الشروق بمصر سنة ١٩٧٤ .

٢٦١- محمود صفوت الساعاتي : ديوانه مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١١

٢٦٢- مسلم بن الحجاج القشيري (الإمام) صحيح مسلم ، بشرح النووي ، وتحقيق عبد الله أبو زينة دار الشعب بمصر سنة ١٩٧١ .

٢٦٣- مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم جـ٣ بضبط محمد سعيد العريان مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٥١ .

٢٦٤- مغازي عامر : الترياق الصمدي بتحقيق محمد النجاتي سنة ١٩٧٦ ، ولم يدون عليه اسم المطبعة .

٢٦٥- مهيار الديلمي : ديوانه جـ٣ ، جـ٤ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١ .

٢٦٦- ميمون بن قيس : ديوان الأعشى الكبير بشرح الدكتور: محمد حسين ، مكتبة الآداب بمصر سنة ١٩٥٠ .

٢٦٧- نجيب العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧

٢٦٨- نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

٢٦٩- الهذليون : ديوان الهذليين ، دار القومية للطباعة والنشر بمصر سنة ١٩٦٥ .

٢٧٠- همام بن غالب : ديوان الفرزدق جـ٢ بتعليق عبد الله الصاوي مطبعة الصاوي بمصر سنة ١٩٣٦ .

٢٧١ ـ ول ديورانت (الدكتور) : قصة الحضارة جـ ٢ المجلد الرابع ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٥٥ .

٢٧٢ ـ الوليد بن عبيد : ديوان البحترى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ .

٢٧٣ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٦ .

٢٧٤ ـ " " : معجم الأدباء جـ ١١ مطبعة دار المأمون بمصر سنة ١٩٣٧ .

٢٧٥ ـ يحيى بن يوسف الصرصرى : ديوان مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٢٤٨١ المقسا .

٢٧٦ ـ يوسف البديعى : هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ، بتحقيق محمود مصطفى مطبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ .

٢٧٧ ـ يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٢ ، جـ ٦ ، جـ ٧ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٦ .

٢٧٨ ـ " " " " : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ١ جـ ٣ بتحقيق أحمد نجاتى ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٦ .

٢٧٩ ـ يوسف النبهانى : المجموعة النبهانية جـ ٣ ، جـ ٤ المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٣٢٠ هـ .

٢٨٠ ـ " " : الشرف المؤبد لآل محمد مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٩٦١ .

بالإضافة إلى القرآن الكريم ، وبعض الدوريات مثل : مجلة الأزهر ، ومجلة منبر الإسلام ، ومجلة الشبان المسلمين ، ومجلة الرسالة ، ومجلة الثقافة ومجلة أبولو ، ومجلة أدبى ومجلة لواء الإسلام ، وصحيفة دار العلوم ، ومجلة الشعر ، وصحيفة الأخبار المصرية ، وصحيفة الأهرام المصرية . ...

فهرس الموضوعات

الباب الثالث

معارضة البارودي (٣٣٦-٤٨٥)

الفصل الأول : حياة البارودي : (٣٣٧ - ٣٤٨)

الفصل الثاني : دراسة وتحليل "كشف الغمة في مدح سيد الأمة (٣٤٩-٤٦٥)

الباب الخامس

معارضات البردة بعد شوقي (٥٧٦ - ٦٧٩)

تصويب

سطر	صفحة	الخطأ	الصواب
٢٤	٤	طبقات الشعراء	طبقات فحول الشعراء